الفَوَائِدُ السَّنِيَّة

من

السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

إعداد

أ.د. خَالِد بن حَامِد بن مُبَارَك الحَازِمِيّ

أستاذ التربية الإسلاميّة بالجامعة الإسلاميّة

بالمدينة المنوّرة

بسم الله الرحمن الرحيم

ح خالد حامد الحازمي ، ١٤٢٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحازمي ، خالد حامد
الفوائد السنية من السيرة النبوية . / خالد حامد الحازمي
المدينة المنورة ، ١٤٢٦ هـ
٦٨١ ص ، ١٧ X ٢٤ سم
ردمك: ٩٩٦٠ ـ ٤٩ ـ ٤٩٨ـ٥
١- السيرة النبوية أ-العنوان
ديوي ٢٣٩   ٥٤٧٨/ ١٤٢٦

مُقَدِّمَة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

الحمد لله الذي بعث لنا محمد بن عبدالله ﷺ رسولاً نبياً؛ فتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، إذ ترجم لنا بأفعاله وأقواله وأخلاقه منهج الإسلام تطبيقاً وتفعيلاً، وأعطانا المثالية في العبادات والمعاملات والأخلاق؛ في البيت والمسجد؛ ومع الأصدقاء والأقارب والأعداء.

فنصر الله تعالى به هذا الدين القويم، حتى وصل مشارق الأرض ومغاربها، ودخل الناس في دين الله تعالى أفواجاً، من عرب وعجم، بل وضربوا أكباد الإبل في حياته؛ حتى رأوه وآمنوا به.

وقد عني علماء هذه الأمة بتسجيل سيرته العطرة في تفاصيلها الدقيقة، حتى وصلت لنا مُبَيَّنَة ما كان عليه الصلاة والسلام في الحقيقة. وعُقِدَت لها الجلَسات والمناقشات العلمية في دُور العلم المختلفة.

ولقد تضمنت سيرته ﷺ ما يحتاج إليه الإنسان في دار معاده ومعاشه، وتضمنت من الفوائد والدروس والعِظَات ما تغني عن أسفار الكتب، وإنها لتعطي كل جيل ما يحتاجه من الهدي المبارك، الذي يُنير له طريقه ومسيرته العلمية والدعوية والتربوية، والأسرية والاجتماعية، وفي آدابه الخاصة، وأخلاقه العامة، وفي مهنته ومدرسته، وفي محيط أصدقائه، ومع زوجته وأبنائه.

وإن دراسة السيرة بعمق من التفكير لسبر ما فيها من فوائد مكنونة، لَعَمَلٌ دائم لا تنقطع غزارة فوائده، فروافد السيرة النبوية تتعدد في شُعَبِ الحياة المختلفة؛ لتتغذى بها أفئدة السائرين إلى الحق والطريق المستقيم. فتشحذ الهمم، وتحفظ الْفِطَر، وتعلوا بالخُلُق، وترفع الذكر، ويتوسع بها الذهن، وتزكوا بها الأنفس، وتتعطر بها الطباع السليمة، وتصلح بها المفاهيم الفاسدة، وتحيا بها القلوب الميتة، ويتوسع بها الأفق، ويتزين بها الأدب، فقد تَغَذَّى بها العلماء، فأنار الله بها أفئدتهم وعقولهم، وانقدح على الخير فكرهم. وورِثُوا سيرته وعلمه فأورثهم اللهُ تعالى محبة خلقه، فتدافع الناس عليهم يتعلمون من علمهم، ويهتدون بفقههم.

وما درس سيرته مسلم إلا ناله من الفضل والخير أحسنه، إذ بها تندفع للخير النفوس، وتُقْبِلُ على العلم العقول، فيتحسن بها السلوك، وتستقيم بها الأفهام والأفكار، فينالها الخير بفضل الله العزيز الوهاب.

ولما أن في السيرة النبوية العطرة من الفوائد مالا يُحْصِيه ويقتفيه العلماء والبلغاء، ويحده الباحثون، رأيت أن أدرس هذه السيرة النبوية الكريمة؛ وأستجلي منها ما يوفقني الله تعالى إليه من الفوائد والعبر والدروس، ليستفيد منها من يوفقه الله تعالى إلى هذا الكتاب.

ورجاء أن أحصل بها على ثواب الله تعالى، وأن أكون ممن وفقه الله تعالى لاقتفاء أثر رسوله ﷺ وأن أكون مع الذين أنعم الله تعالى عليهم من النبيين والصديقين والشهداء.

فاللهم إياك أسأل أن لا تحرمني تلك المنزلة؛ إنك على كل شيء قدير.

فيا باغي الخير أقبل على سيرة النبي المصطفى ﷺ بقصد العمل والتطبيق، لا بقصد الاطلاع والإلمام، فلا خير في علم بلا عمل.

منهج الدراسة:

لما أن السيرة النبوية قد حظيت باهتمام العلماء، فصنفوا فيها الأسفار، وحققوا مصادرها في مصنفات عديدة، وبينوا ما صح منها وما ضَعُف من روايات، وجمع وبين بعضهم اختلاف الروايات للحدث الواحد، فقد استفدت من ذلك الجهد العظيم، واكتفيت بالنص الواحد إذا تعددت الروايات.

واجتهدت في إيراد النص من مصدره الأصلي كما هو، ثم أحلل النص؛ مع بيان فوائده وتطبيقاته.

وبالتالي لم أُكثر من ذكر الروايات، بقدر ما أنظر ما في الرواية من فوائد وعِبَر ومواعظ؛ فأستجليها وأقدمها بما يتوافق مع حاجات اليوم، بُغْية الربط بين السيرة النبوية وحاجات أبناء الأمة؛ التي تتجدد في صور متقاربة حسب الأزمان.

ولم يستوعب هذا الكتاب كل دقائق وتفاصيل السيرة، من الشمائل والأحكام وغيرها، بل هو قطف متدرج من السيرة النبوية، بحيث يجد القارئ جميع الملامح العامة للسيرة العطرة التي اعتاد أن يقرأها في كتب السيرة النبوية.

ومما قمت به عزو النصوص والشواهد إلى مصادرها الأصلية، وكذلك عزو الآيات القرآنية إلى مكانها من المصحف الشريف، والأحاديث النبوية إلى مصادرها من كتب السنة.

واسأل الله تعالى أن يتحقق الهدف من هذا الكتاب، وأن أكون ممن وفقه الله تعالى؛ وسدد أفعاله وأقواله وآراءه، فساهم في تقديم الخير لدينه وأمته، كما أسأله تعالى أن يتقبل هذا العمل، وينفع به، ويجعله صدقة جارية إلى يوم الدين.والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل الأول

من المولد إلى البعثة

المولد والنسب:

في أم القرى التي كانت محط القوافل التجارية بين الشام واليمن، وفي المدينة التي شهدت ترجُّل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فقاما ببناء الكعبة المشرفة، إذ قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [1] وفي جوها الصحراوي، ومن أفضل دورها وأشرف أهلها اصطفى الله تعالى نبيه الكريم ﷺ كما قال عليه الصلاة والسلام (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم) [2] ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي أنار الله به الدنيا فبدد ظلام الجهل والكفر والطغيان وانحراف الأخلاق، وختم به الرسالات السماوية التي كانت تتنزل على من شاء الله من عباده المصطفين، قال الله تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾[3]

وقد ولد عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين [4] من عام الفيل.

ونسبه: محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وأمه: آمنة بنت وهب، ويلتقي نسبها بنسب أبيه في كلاب بن مرة[5]

---

[1] سورة البقرة: آية رقم (١٢٧)

[2] صحيح مسلم، (١٧٨٢/٤) (٢٢٧٦).

[3] سورة الحج: آية رقم (٧٥)

[4] مسلم (٨٢٠/٢) برقم (١١٦٢.١٩٨) وهناك روايات أنه ولد بعد الفيل، واختلف في تاريخ يوم مولده وشهره انظر: السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري (٩٨.٩٦/١)

[5] ابن حجر، فتح الباري، (٢٣٠/١٤).

فكـان نسبه ﷺ أفضـل الأنسـاب وأحسـنها وأشـرفها، فجمـع الله تعـالى لـه اصـطفاء النسب الذي يفخر به كل مسلم ويعتز لنبيه به ﷺ

الْيُتْمُ والرعاية الأولية:

وَلَئِن كان الغالب في الناس حياة الأبوة والأمومة تحف بهم وترعاهم، فإن محمداً ﷺ لم يكن من أولئك، وإنما ولد يتيماً، قد توفي والده وهو جنين في بطن أمه.

فَالْيُتْمُ ليس مثلبة ولا مثلمة في حياة الأفراد من اليتامى، بل قد يُعدُّ ذلك منقبة في حق من استقام في طريق الهداية، وحطَّ رحاله في دروب الخير والمعالي، يشق طريقه على سبيل نبيه الذي ولد يتيماً، وأوصى برعاية اليتامى قائلاً عليه الصلاة والسلام (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين، وأشار بأصبعيه يعني السبابة والوسطى)[١]

وفي نشأته ﷺ يتيماً دلالات تربوية عظيمة من أن الْيُتْمَ لا يرسم على أصحابه ضعفاً نفسياً أو إسقاطاً اجتماعيا، بل كان عليه الصلاة والسلام في صباه قوي النفس والعزيمة محبوباً بين من يحيطون به.

وإن الله تعالى هو الرحيم بعباده؛ يعنى بهم ويحفظهم ويرعاهم، و يهيئ لهم من يقوم بإعالتهم ورعايتهم، فقد قال تعالى عن نبيه محمد ﷺ ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَاوَىٰ ۝ ﴾[٢] وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه، وقيل بعد أن ولد عليه السلام، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، ثم كفله عمه أبو طالب ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره[٣].

---

[١] البخاري (٩٢/٤) برقم (٦٠٠٥) والترمذي (٢٨٣/٤) برقم (١٩١٨). واللفظ له.

[٢] سورة الضحى: آية رقم (٦)

[٣] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥٥٩/٤).

فكما هيأ الله لرسوله ﷺ الرعاية والإيواء من جوانبها التربوية والنفسية والمعيشية، فقد جعل ذلك واجباً اجتماعياً تقوم به الأمة في حق الأيتام ليعيشوا كما يعيش غيرهم في رعاية وحفاوة وعناية، فلا تتأثر قواهم النفسية بما حصل لهم من وفاة الوالد أو الوالدة أو كليهما، بل ربما غرس فيهم ذلك الْيُتْمُ قوة نفسية قد تفوق غيرهم، لما يشعرون به من اعتمادهم بعد الله تعالى على أنفسهم في شق طريق الحياة، وليس على أكتاف الآباء وأحضان الأمهات.

بل من رعاية الله تعالى لنبينا محمد ﷺ أن قذف في قلب جده عبد المطلب محبة لهذا الابن الكريم؛ مشمولة بالرعاية والعناية الفائقة التي تفوق رعاية الأب المباشر لابنه، فقد كان جده عبد المطلب يقربه ويدنيه منه ولا يدع أحداً يدخل عليه وهو نائم، وكان له مجلس لا يجلس عليه غيره، وكان له فراش في ظل الكعبة يجلس حوله بنوه ويجلس النبي ﷺ عليه مع جدِّه [١].

وكان عمه أبو طالب لا ينام إلا ومحمد إلى جنبه، ولا يخرج إلا وهو معه، ويخصه بالطعام، ولا يأكل إلا عندما يحضر محمد، وظل يحوطه بعنايته إلى أن توفي قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين [٢]

فَمَنْ الذي سخر هذه القلوب لتعطف وترعى هذا النبي اليتيم ؟

فكيف بمن يفكر في أبنائه، ويحمل همهم لو توفَّاه الله تعالى عنهم وهم صغار، إن هذه المواقف تعلِّم الإنسان المسلم وتغرس فيه عقيدة التوكل على الله تعالى، وأنه هو المدبِّر للأمور ولعواقبها، فلا يلزمه إلا أن يجهد ويجتهد في سعة وراحة بال؛ دون توجع وتخوف عن مصير الأبناء لو قدَّر الله تعالى عليه الوفاة وهم صغار، ألم يحبس الله تعالى ذلك الكنز المذكور في سورة الكهف تحت جدار الأيتام، وهيأ لهم من يقوم ببناء ذلك الجدار حتى لا يُكشف خَبَرُ

---

[١] ابن هشام ، السيرة النبوية ، (٢٢٣/١) .

[٢] ابن سعد ، الطبقات ، (١١٩/١-١٢٠).

ذلك الكنز، ويبقى مدفوناً تحفه الرعاية الإلهية حتى يتهيأ الأبناء رشداً وسناً وقوة ليأخذوا كنزهم، قال تعالى ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ ﴾[1] وقال تعالى في علة بناء ذلك الجدار ﴿ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ ﴾[2]

وهنا تعطينا الآية الكريمة دلالة عظيمة ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ ﴾ فالمسلم إذا أصلح من حاله في طاعة ربه عز وجل؛ تكفل الله تعالى بأموره وما يخصه من أمور متعلقة بمن يحبهم كالأبناء، وما خبر عمر بن عبد العزيز مع أبنائه عن هذا الموقف ببعيد، فلم يترك لأبنائه من حطام الدنيا شيئاً، لا أموالاً ولا كنوزاً؛ وهو الخليفة الزاهد، ولكنه ترك لهم تربية صالحة ، فأغدق الله تعالى على بنيه من الخير بعد وفاته، حتى أن أحدهم جهز جزأ من أحد جيوش المسلمين ؛ لكثرة ماله الذي لم يرثه عن والده، ولكن كان أبوهم رجلاً صالحاً.

والْيُتْمُ في باب حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم عَظَمَةٌ ودروس,بأن لا يركن اليتيم لحالة البؤس والهزيمة النفسية,والعطش العاطفي؛ وشظف العيش إن أصابه ذلك, بل يأخذ الأمر بعزيمة المؤمن الواثق بربه عز وجل, فيأمل فيه الخير والرجاء فهو المرجو سبحانه وتعالى,وله أسوة في العلماء الكبار الذين عاشوا يتامى فقادوا الناس بعلمهم وحكمتهم، ومن أولئك الإمام الشافعي الذي عاش يتيماً في حجر أمه, فأصبح العالم الذي تُضرب له أكباد الإبل, والذي بلغ شأواً بعيداً في الفصاحة والبلاغة؛ وجمال الذكر وطوله, حتى أصبح نهجه العلمي مذهباً فقهياً لامعاً.

---

[1] سورة الكهف ، آية رقم (٧٧).

[2] سورة الكهف ، آية رقم (٨٢).

الرضاعة :

وقد أرضعته صلى الله عليه وسلم حليمة ابنة أبي ذؤيب[١] وإنه لمن عادة العرب أن يسترضعوا أبناءهم في البدو, ابتعاداً بهم عن أمراض المدن, ورغبة في تقوية أجسادهم, وتعويداً وتربية لهم على الاعتماد على النفس منذ الصغر؛ بعيداً عن تدليل الأمهات والجدات وبقية الأقارب, وتقويماً لألسنتهم من اللحن وغيره من مفسدات اللغة [٢]

ولئن كان هذا هو ديدن العرب قديماً؛ وهو ما حصل لنبي هذه الأمة أيضاً فإن الجدير بالتربية المعاصرة اليوم أن تُعْنَى بأجساد الأبناء ولغتهم؛ وإبعادهم عن كل ما يفسدها، وإبعاد كل ما يفسدها عنهم، حتى لا ينشأ الطفل نشأة سيئة في خُلُقه ولغته وتربيته، وكم من الآباء يرحل بأبنائه من مجتمع لآخر من أجل الكسب المادي، ولا يرحل بأبنائه من حي لحي أو من مدينة لأخرى من أجل الحفاظ التربوي على الأبناء من الخلطة الفاسدة التي قد تكون في حي من الأحياء، أو في مدينة دون أخرى.

ومما اشتهر في بعض كتب السير أنه باسترضاع حليمة للنبي ﷺ دَرَّ ثديها اللبن بعد أن كان ابنها يبكي من الجوع؛ من قلة اللبن أو عدمه، فشرب منه النبي ﷺ حتى رَوِيَ، وشرب معه أخوه حتى رَوِيَ، وكانت لها أتان شارف أي مسنة هزيلة؛ فأضحت الراحلة قوية تسير في نشاط وحيوية [٣]

وفي هذا الخبر ما يدفع الإنسان المسلم إلى التقدم إلى الخير من كفالة الأيتام والعناية بهم، فقد يكون ذلك سبباً في ورود الخير لكافل اليتيم، ويدفع الله عنه غائلة الجوع والفاقة، وإن كان في نعيم زاده وبارك له، فإن في رعاية الأيتام التربوية والنفسية والمعيشية ما يبني فيهم

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (١٦٩/١)

[٢] مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص (١١٥-١١٦)

[٣] انظر ابن هشام ، السيرة النبوية (١٧١/١-١٧٣).

حب المجتمع وحب المحسنين والعمل بإحسان في حياتهم، مع البعد عن ظلمهم وكسر خواطرهم بالكلمة أو الفعل، ويكفي المرء من رعاية اليتيم ما سيجده حتماً عند مليك مقتدر؛ أخبر به ﷺ (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا. وقال بإصبعيه: السبَّابة والوسطى)[1] وإنها لمنزلة عزيزة أن يكون المسلم في معية رسول الله ﷺ

الحياة العملية (الرعي والتجارة):

لقد عمل الرسولﷺ قبل بعثته كما كان الناس يعملون ويتكسبون، فلم يكن كسولاًﷺ ولم يكن يأنف من عملٍ شريف وإن كان في أعين الناس صغيراً، وقد اشتغل رسول اللهﷺ برعي الغنم لأهل مكة، وهذا مما هيأه اللهُ تبارك وتعالى لِرُسُلَه جميعاً، قال ﷺ (ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)[2].

فلم تكن تلك الأغنام لرسول الله ﷺ يقوم برعيها والعناية بها، بل كان يعمل فيها ﷺ بالأجرة لأهل مكة، فلم يأنف من ذلك أو يتكبر، ولو كان فيها مَذَمَّة لما هيأه ربه سبحانه وتعالى إلى ذلك العمل؛ الذي سيتهيأ من بعده لأمر عظيم جليل؛ وعمل شاق كبير، هي النبوة والرسالة. فلا يعيب المرء أن يبدأ حياته العملية بالأجرة عند فرد أو مجموعة من الناس، فقد عمل موسى عليه السلام بالأجرة ، قال تعالى ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ ﴾ [3]

[1] البخاري ، (٩٢/٤) برقم (٦٠٠٥).

(٢) البخاري ، (١٣٠/٢) برقم (٢٢٦٢)

[3] سورة القصص: آية رقم (٢٧)

فالتربية المهنية هي التي تبدأ بتهيئة الإنسان للعمل بأبسط المهن وأسهلها، وفتح الذهن عليها. كما أن في منهجه التربوي ﷺ الإرشاد المهني، حيث أرشد ذلك الصحابي إلى كيفية استثمار ما عنده من متاع بسيط ليبيع حاجة منه؛ ثم يدير أمره المهني بما يجعله يعمل ويتكسب، فعن أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله فقال (أما في بيتك شيء ؟ قال : بلى.حلس: نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء، قال: أتني بهما، قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: من يشتري هذين ؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال: من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثاً، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين، وأعطاهما الأنصاري، وقال: اشتر بأحدهما طعاماً، فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً فأتي به، فأتاه به، فشدَّ فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده، ثم قال له: اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء، وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال رسول الله ﷺ : هذا خير لك أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غُرم مفظع، أو لذي دم موجع).[١]

وقد اشتهر ﷺ منذ صغر سنه بمكارم الأخلاق وفضائلها، فقدكان ﷺ بشمائل الأدب يتعامل، وبأنبل الصفات يتخلق، فَعُرِفَ من بين قومه أجمعين بالأمانة والصدق حتى أن خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أرسلت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً، و تعطيه أفضل ماكانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها، يقال له: ميسرة، فَقَبِلَ الرسول ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك [٢]

---

[١] أبو داوود ، (٢/٢٩٢ـ ٢٩٤) برقم (١٦٤١) .

[٢] ابن هشام ، السيرة النبوية ، (١/١٩٩).

ومن هذا العرض والقبول بين صاحبة التجارة والمتاجر لها ما يؤكد جوانب مهنية عالية في مغزاها، ذلك أن الإنسان كلما كان بأخلاق الإسلام متمسكاً دعا أرباب الأعمال إلى استقطابه من بين أقرانه، لأن الثقة فيه أقوى، وصدقه وبِرُّه للعمل أدعى، وأمانته بالعمل تزكو، مما يؤكد أن أهم دواعي التكسب الأساسية الالتزام بمكارم الأخلاق التي دفعت خديجة رضي الله عنها أن تدفع لرسول الله ﷺ ضعف ما تدفع لغيره من التجار.

ولم يأنف رسول الله ﷺ من العمل بأجرة، حتى ولو كان صاحب العمل امرأة، وعلى صاحب التجارة أن يختار لعمله الثقات من الناس، وأن لا يمنعه شُحُّه وحب المال الالتزام بأجرة المثل، بل يدفع للكفء ما هو أكثر، لما في ذلك من حفظ ماله وصيانته، بل وما ينعكس على نفسيته من راحة واطمئنان؛ نتيجة استئجار الأمين في أدائه؛ والقوي في عمله.

كما أن للمرأة أن تباشر عملها من خلال استعمال الأكفاء من الناس، وأن تستثمر أموالها بما يعود عليها وعلى مجتمعها بالخير، وأن لا تُعَرِّض نفسها للفتن والمخاطر من أجل التكسب، فخديجة رضي الله عنها؛ وهي في عهد الجاهلية لم تركب بغلتها لتدير تجارتها، وإنما أوكلت في ذلك من يقوم بها.

ومن ذلك أن الله تعالى هيأ رسوله قبل البعثة لأن يعمل في رعي الغنم، وفي تجارة خديجة؛ ويسافر لها إلى الشام، وهو مقبل على أمر جليل عظيم، مما يبين أن على المرء أن يكدح ويعمل بما هو ميسَّر له حال ذلك الوقت الذي هو فيه، ويعلم أن المستقبل بيد الله تعالى. كما أن في ذلك تربية للإنسان على أمور قد لا يعرف مغبَّتها، فكم من الناس بدأ بأعمال مهنية بسيطة فهيأ الله تعالى له فيما بعد دروب العلم فأصبح عالماً يُشار إليه بالبنان، أو داعية للخير من خلال الكلمة أو العمل الخيري، أو موظفاً مرموقاً أو تاجراً خيِّراً، فالسابقات للإنسان من المهن البسيطة دروس وعبر وتربية قد لا يحصل عليها لو لم يزاول تلك المهن والأعمال والحِرَف التي هي في نظره من سَقْطِ المتاع.

التربية الخاصة:

وهي تربيته سبحانه وتعالى لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[1] والمعنى : (الله يجتبي إليه من يشاء) أي يختار من خلقه من يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته، ومنه أن اجتبى هذه الأمة، وفضَّلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وآخرها [2]

فالنبي ﷺ اصطفاه ربه وتولى أمر تربيته وتأديبه، وقد عصمه وصانه الله تعالى عن أفعال الجاهلية المنكرة، فلم يعبد صنماً، ولم تُر عورته، ولم يسمع لهواً قط، فقد كان يحمل مع عمومته وأبناء عمومته الحجارة أثناء بناء الكعبة، فرفع ثوبه على عاتقه ليستعين به على حمل الحجارة، فكشف عن بعض عورته، فسقط وقيل له غط عورتك.

وذهب ليسمع الغناء كبقية فتيان قريش، فوصل إلى المكان، ثم نام حتى طلوع الشمس فلم يسمع شيئاً [3] فهذه تربية ورعاية ربانية خاصة.

وأما التربية العامة فهي بالنعم التي أنعم الله تعالى بها على عباده، من رزق، وإرسال الرسل، فيهدي بهدايته العامة من ينيب إليه، بعد أن عرف النعمة وأحسَّ بجميع الدلائل الكونية والشرعية على أن الله تعالى هو رب البرية؛ فأناب إليه، ثم هداه تعالى ووفقه، قال تعالى ﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[4] هذا السبب الذي، يتوصل به العبد إلى

---

(١) سورة الشورى : آية رقم (١٣)

(٢) السعدي ، تيسير الكريم الرحمن (٤/٤١٤) .

(٣) وفي هذه الأخبار روايات صحيحة وضعيفة، انظر تفاصيلها في كتاب: السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري (١/١١٤-١١٧) وكتاب: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، للدكتور مهدي رزق الله أحمد ، ص (١٢٥-١٢٨)

(٤) سورة الشورى: آية رقم (١٣)

هداية الله تعالى؛ وهو الإنابة إليه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصداً وجهه، فَحُسْنُ مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية من أسباب التيسير لها[1] قال تعالى : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾[2]

وقد قال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : (لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل ؛حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذني لأعذينه)[3]

فأي هداية أعظم من هذه التربية التي تولت جميع الأعضاء الأساسية في الإنسان الذي أناب لربه.

حلف المطيبين (الفضول) :

تداعت قبائل من قريش إلى حلف، فاجتمعوا له في دار عبدالله بن جُدعان لشرفه وسنِّه، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى تُرَد عليه مظلمته، فَسَمَّتْ ذلك قريش حلف الفضول، وقد شهده رسول الله ﷺ وقال: (لقد شهدت في دار عبدالله بن جُدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمْر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت)[4]

وروى الإمام أحمد أن الرسول ﷺ قال : (شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، وما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكثه)[5]

---

(١) السعدي ، تيسير الكريم الرحمن (٤/٤١٤) .

(٢) سورة المائدة: آية رقم (١٦)

(٣) البخاري (٤/١٩٢) برقم (٦٥٠١) .

(٤) ابن هشام ، السيرة النبوية (١/١٤١-١٤٢) .

(٥) أحمد (١/١٩٠) .

فلما أن الظلم تأباه النفوس المستقيمة وأصحاب الشيم الخلقية الكريمة، فإن رسول ﷺ يشيد بذلك الحلف الذي انعقدت مراسمه في الجاهلية، موضحاً لو أنه دعي إليه في الإسلام لأجاب ولم يدفعه شنآن الجاهلية أن ينكر ذلك العمل الأخلاقي النبيل، بل أشاد به وبحضوره ﷺ وقد كان غلاماً، وإن حضور الرسول ﷺ لذلك الحلف وهو غلام رسَّخ في ذهنه تلك الصورة الخلقية الرائعة من التكاتف والتعاضد لنصرة المظلوم ورد مظلمته إليه، وهذا يؤكد تربوياً أهمية اشتراك الأبناء في المناسبات التي تحوي مكارم الأخلاق لترتسم صورتها في ذاكرتهم، فيرتسمون خطوطها، كما أن مشاركة الصغير وحضوره في ذلك لا ينقص من قدر المناسبة وأهميتها، بل إن فيها تدريباً وإذكاء للجذوة الخلقية، والتعليمية.

وفيه من الفوائد أن المال في المفاضلة النبوية مرجوح أمام كفة مكارم الأخلاق والأفعال النبيلة، وتحقيق الخير للمجتمعات، وأن رفع الظلم عن الناس من مقاصد الإسلام وهديه، وأن فوات المال بحصول مكارم الأخلاق ورفع الظلم عن الناس لا يُعتبر خسارة في ميزان النبي صلى الله عليه وسلم؛ مما يفيد أهمية العناية بالقيم الخُلُقية؛ وتقديمها على القيم المادية، وأن تحصيل حقوق الآخرين مقدم على تحصيل المكاسب المالية، وأن تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة مقصد اجتماعي في المنهج الإسلامي.

الزواج بخديجة:

خديجة هي أول من تزوجها ﷺ ، وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي، تجتمع مع النبي ﷺ في قصي، وهي من أقرب نسائه إليه في النسب، ولم يتزوج من ذرية قصي غيرها إلا أم حبيبة، وتزوجها سنة خمس وعشرين من مولده ﷺ في قول الجمهور، زَوَّجَه إياها أبوها خويلد، وكانت قبله عند أبي هالة بن النبَّاش بن زرارة التميمي، حليف بني عبد الدار، وماتت رضي الله عنها على الصحيح بعد المبعث بعشر سنين في شهر رمضان (١)

(١) ابن حجر ، فتح الباري، (١٣٤/٧)

فهذا الرسول ﷺ القدوة والأسوة حتى قبل بعثته عليه الصلاة والسلام، يتزوج في شبابه وعمره خمس وعشرون سنة ولم يتأخر عن هذا السن، وهو الذي قال بعد بعثته موجهاً الشباب (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج)[1]

ثم إنه ﷺ قَبِل من الزواج بخديجة صاحبة الخلال الفاضلة، مع أنها أكبر منه سناً، حيث كانت تسمى في الجاهلية : الطاهرة[2]، فقد حباها الله تعالى وفرة العقل والمال، وكانت من أحب نسائه إليه، لما كان منها من الفضل والسبق للخير وللإسلام، وهي العطوفة الحنونة على زوجها يوم جاءها بعد نزول الوحي إليه خائفاً يقول دثِّروني دثِّروني، فكانت الزوجة الحانية الرفيقة بزوجها، فقالت له :(كلا والله ما يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم وتحمل الكَل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق)[3]

فها هي الزوجة التي تعكس الأنموذج التربوي الرائع في تعاملها مع زوجها؛ مُذكِّرة له بما هو عليه من الخلق الجميل الرفيع، فترفع من قدره، ومن عزيمته، ومن قوته النفسية، فأثنى الله تعالى عليها من فوق سبع سماوات؛ وبشَّرها بقصر في الجنة، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (ما غِرت على امرأة ما غِرت على خديجة من كثرة ذكر الرسول ﷺ إياها قالت : وتزوجني بعدها بثلاث سنين، وأمره ربه عز وجل ـ أو جبريل عليه السلام ـ أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب)[4].

---

(١) البخاري (٣/٣٥٥) برقم (٥٠٦٦)

(٢) ابن حجر، فتح الباري، (٧/١٣٤)

(٣) البخاري (١/ ١٤ ـ١٥) برقم (٣)

(٤) البخاري (٣/٤٧) برقم (٣٨١٧)

وهكذا تضرب لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها المثل في الأمانة حتى ممن تغار منها، فلم تمنعها غيرتها من ذكر مناقب أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، من كثرة ثناء رسول الله ﷺ عليها وذكرها، ومما وعدها ربها به من قصر في الجنة، فطهرت رضي الله عنها من الحسد، وهذا ما يجب أن تكون عليه المرأة المسلمة، فلا تتجاوز بغيرتها الفطرية إلى رد الحق وعدم قبوله، أو التعنيف، أو تضييع الحقوق، أو هضم حقوق الأخريات من زوجات الزوج، فحقاً إنها لمدرسة تربوية شامخة بأحداثها الرائعة الفذَّة.

ومن أحداث هذا الزواج المبارك أن الإنسان الصالح يعينه الله ويهيئ له الزوجة الصالحة، وكذلك المرأة الصالحة يهيئ الله لها الزوج الصالح، فقد كان ﷺ يسمى في الجاهلية بالأمين لأمانته وتسمى خديجة بنت خويلد بالطاهرة، فوفق الله تعالى بينهما، وهذه إشارة إلى كل شاب وشابة أن يُقْبِلا على الله تعالى في طاعة وتقوى؛ حتى يهيئ الله لهما من يماثلهما، وأما ما يحدث من خلاف لذلك فقد يكون من باب الابتلاء، وقد يكون من باب عدم حسن التدبير والاختيار، التي يلزم مراعاتها في التطبيقات العملية للحياة.

بناء الكعبة :

بعد مرور السنين والأعوام من بناء إبراهيم وابنه إسماعيل للكعبة المشرَّفة، رأت قريش إعادة بنائها بعد تهدمها، قال ابن إسحاق فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، وكانوا يهمُّون بذلك ليُسقِّفوها ويهابون هدمها، وإنما كانت رضماً فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها" (١)

فلما وصلت قريش إلى موضع الحجر الأسود؛ اختلف القوم في وضعه في مكانه، فكلٌّ يريد أن يَشْرُفَ بحمله، فاتفقوا على الاحتكام لأول رجل يطلع عليهم من الفج؛ فجاء

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية (١/٢٠٤-٢٠٥) .

رسول الله ﷺ فقالوا: أتاكم الأمين، فقالوا له؛ فوضعه في ثوب، ثم دعا بطونهم، فأخذوا بنواحيه معه، فوضعه هو ﷺ[1]

لقد تطلعت قريش لأمر عظيم وهو إعادة ما ارتفع من بناء الكعبة ، وخافت وهابت الأمر العظيم، وما قصة أبرهة الحبشي وجُنده عنهم ببعيد، عندما أرادوا هدمها واجتثاثها فأرسل الله تعالى عليه وعلى جنده طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجّيل، وقد أنزل الله قصتها في كتابه العزيز ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝ ﴾[2].

ولكن لصدق نيتهم وسلامة مقصدهم مكنهم الله تعالى من ذلك الأمر، الذي تنازعوا في التشرف برفع الحجر الأسود إلى مكانه من البناء، فاحتكموا لأول قادم للحرم؛ فكان رسول الله ﷺ، ففرحوا بمقدمه معلنين بصوت واحد: أتاكم الأمين، فشرف الأمانة عظيم والتخلق بها أمر عظيم، تربى عليه ﷺ منذ نعومة أظفاره؛ فلم تُعرَف عنه خيانة ﷺ بل عُرِف عنه فضائل الأخلاق مجتمعة فيه، فأخمد الله تعالى على يديه فتنة قد تكون بسبب اختلاف قريش في رفع الحجر الأسود، وسدد الله تعالى رأيه ووفقه في فكرة وضع الحجر في ثوب لترفعه بطون قريش معه ﷺ، ليضعه هو بنفسه في مكانه، وبالرغم من إنكاره لأعمال الجاهلية الفاسدة؛ وعدم مشاركة قومه فيها إلا أنه يشارك في كل عمل نبيل شريف.

فلم يكن رسول الله ﷺ أكبرهم سناً، ولكن خلقه الكريم وطباعه الرفيعة ترفع من قدره ومكانته عند قومه ومجتمعه، ليكون هو الحكم الفصل في قضية تُعتَبر من أكبر القضايا الدينية والاجتماعية، فهكذا يرسم لنا رسول الله ﷺ قبل بعثته الشخصية الرفيعة الحكيمة التي تضع

---

(١) أحمد ، (٤٢٥/٣) .

(٢) سورة الفيل .

الأمور في نصابها دون تهويل أو تضعيف للمواقف، فها هي صورة الشاب في شبابه وهي في أحسنها وأكملها ﷺ.

ويفيد هذا أن نهج الاستقامة، والتخلق بأخلاق الإسلام؛ تصنع لصاحبها مكانة ومنزلة لا يمكن أن يحققها بالدينار والدرهم.

الفصل الثاني
من البعثة إلى الهجرة

البعثة النبوية:

لقد جاءت البشارات ببعثته ﷺ على لسان الأنبياء، قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (١)

وأما في التوراة والإنجيل فقد وقع التحريف فيها، وحُذِف منها التصريح باسم محمد ﷺ إلا توراة السامرة، وإنجيل برنابا، الذي كان موجوداً قبل الإسلام، وحرمت الكنيسة تداوله في آخر القرن الخامس الميلادي (٢)

وفي قصة سلمان الفارسي بخروجه من بلاده فارس إلى بلاد الشام بحثاً عن الدين الحق دليل على ذلك. حيث وصل في سفره إلى أسقف النصارى، وأخذ يرحل بوصاية من أسقف لآخر حتى وصل إلى أحدهم، فعندما حضرته الوفاة، قال له سلمان: إلى من توصي بي ؟ فقال: أي بني ! والله ما أعلمه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكن قد أظلك زمان نبي، يُبعث من الحرم، مهاجره بين حرتين إلى أرض سبخة، ذات نخل، وإن فيه علامات لا تخفى، بين كتفه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل.(٣)

وفي هذا دليل على حسد اليهود وكرههم لغيرهم، وخاصة العرب، ومكرهم وإخفائهم للحقائق وعدم أمانتهم، مما يؤكد أهمية أخذ الحيطة والحذر منهم، ومن أعمالهم ومكرهم، وقد قال الله تعالى عنهم ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ

(١) سورة الصف: آية رقم (٦).

(٢) أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص (١١٨ -١٢٨) .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (١/٢٢٨ - ٢٣٣). والذهبي، سير أعلام النبلاء (١/٥٠٥ -٥٠٩)

إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[١]

وقد أعطانا سلمان الفارسي رضي الله عنه القدوة الجادة الباحثة عن الحق، وتحمل عناء السفر والغربة وما فيها من كربات؛ رغبة في الدين الحق الذي يرضى الله به عن عبده، وبَذَلَ في ذلك الغالي والنفيس، وعرَّض نفسه للأخطار والمهالك، ولكن هان ذلك في سبيل طاعة ربه عز وجل، فكيف بمن وصله الدين وهو على فراش أهله وثرى بلده ؟ وبالرغم من ذلك لا يُحَفِّز نفسه على التمسك بأهداف دينه وواجباته وفرائضه، ويتحلى بسننه العطرة. ففئتان لا تلتقيان سلمان الفارسي الجاهل ببعثته ﷺ فيبحث عن الحقيقة، واليهود الذين عرفوا الحقيقة ويهربون منها، بل ويُضلُّون وينحرفون بالناس عنها، فذلك مثل الذي يقعدُ على دروب الخير ليصد الناس عنها بالكلمة والحرف والقرطاس والقلم، فيسعى وأمثاله إلى إشباع أهوائهم ورغباتهم ونزواتهم الشيطانية، ومثل الذي يبحث عن الحق ويسعى لمعرفته.

ولئن كان سلمان الفارسي رضي الله عنه يضرب بذلك مثلاً رائعاً، فإن هناك من عرف حقيقة مبعثه ﷺ ويأمل أن يدركها ويدخل في الإسلام عند حدوثها، ومن أولئك زيد بن عمرو بن نفيل، حيث يقول عامر بن ربيعة، قال سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول : أنا أنتظر نبياً من بني إسماعيل ثم من بني عبدالمطلب، ولا أراني أدركه، وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك[٢].

فمعرفة الحقيقة توجب على العاقل التصديق بها، واتباع الحق وعدم التعالي على الخالق سبحانه وتعالى، ونبذ الحسد وتطهير النفس منه، لأنه المانع من الانقياد للحق

---

(١) سورة آل عمران، آية رقم (٧٥) .

(٢) ابن سعد، الطبقات ، (١٦١/١) .

والإذعان له، فكم غابت عن الحساد منافع ومصالح كانوا منها قريبين، فبَعُدَت عنهم كبعد المشرقين للحسد والكبر الذي يعتلي بعض النفوس.

بدء الوحي:

وأول ما بُدِئ برسول الله ﷺ من الوحي كما قالت عائشة رضي الله عنها (الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، أي يتعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الْمَلَك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهْدَ، ثم أرسلني؛ فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: زملوني زملوني. فَزَمَّلُوه؛ حتى ذهب عنه الرَّوْع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا والله ما يُخْزِيكَ الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ـ ابن عم خديجة ـ وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عمِّ اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نَزَّلَ الله على موسى، ياليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يُخْرِجُكَ قومُك، فقال رسول الله ﷺ أو مخرجي هم ؟ قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل

ما جئت به إلا عودي، وإن يُدْرِكْنِي يومُكَ أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي)[١]

ومن الفوائد والدلالات التربوية والدعوية والاجتماعية من مقدمات بعثته ﷺ : أهمية الإعداد والتهيئة والتدرج وعدم الاستعجال، فالله سبحانه وتعالى القادر على أن يقول للشيء كن فيكون، يهيئ محمداً ﷺ للنبوة أربعين سنة، برعايته الخاصة من حادثة شقِّ الصدر وكفالته ورعايته يتيماً، وتجنيبه وحفظه من عبادة الأصنام، وإنزال محبته في قلب جدِّه عبد المطلب وعمه أبي طالب حتى إنهم ليرعونه رعاية تفوق رعاية الآباء لأبنائهم، فهذه التهيئة الطويلة في حساب الخلق من الخالق القادر على كل شيء، والذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، تعطينا أهمية الأخذ بهذا المبدأ العظيم في قضايا الدعوة والتربية والإدارة والشؤون الاجتماعية والاقتصادية؛ وفي كل أمر من الأمور.

فالوالد الذي يريد صلاح الابن عندما يحتاج إلى صلاحه دون سابق تربية وتهيئة لتلك الحاجة، فإنه يخالف سنن الله الاجتماعية التي يلزم أن يأخذ بها حتى تستقيم أمور أبنائه، فيجدهم حيث أراد وأحب.

وكذلك المدير الإداري الذي يريد موظفاً جيِّداً في عمله حال ظهور الحاجة إليه في أمر من الأمور الإدارية؛ دون إعداد وتهيئة لذلك الأمر الذي سيؤول إليه؛ هو ضرب من التمني المخالف لحقيقة البناء الإداري.

وكذلك الداعية الذي يريد استصلاح الأمة من كلمة يقولها أو خطبة أو عِدَّةِ خُطَبٍ على المنابر يلقيها، دون إدراك لعملية التهيئة لذلك الصلاح من خلال مفاتيحه الأولى، التي ينصلح بها الإنسان، وهي التعليم والوعظ في تدرج، لأن الْخُطَبَ العاطفية تحفِّز ولا تُعَلِّم،

[١] البخاري (١/١٤-١٥) برقم (٣).

والعلم يعلم الإنسان؛ ولكنه يحتاج إلى الموعظة والخطبة المحفزة، فمفاتيح الدعوة: التعليم والوعظ، فهما خطَّان متلازمان لا يغني أحدهما عن الآخر.

فالله سبحانه وتعالى عندما حرَّم الخمر هيأ الأمة لذلك الأمر، لأنها اعتادته وأصبح جزءاً من طعامها وشرابها في الجاهلية، فأنزل الله تعالى تنويهاً في قوله تعالى ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾[1]، ثم التهيئة الثانية في قوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[2] ثم التهيئة الثالثة في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾[3] ثم بعد هذه التهيئة المتدرِّجة ينزل التحريم في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ ﴾[4].

فكل أمر احتاج إلى تهيئة وإعداد هيَّأه الله تعالى؛ لنتعلم كيف نعالج؟ وكيف نربي؟ وكيف ندعو؟

فالتهيئة قد تكون في الأمر الجزئي؛ كتحريم الخمر، وقد تكون في الأمر العام؛ كقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصَّل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً...)[5].

ولذلك فإن الزوج الذي يريد من زوجته أن تكون مربّية قديرة وجديرة بتربية الأبناء على منهج الله تعالى، يبدأ في إعدادها وتهيئتها أولاً: من خلال حسن الاختيار، ثم توجيهها

---

(١) سورة النحل، آية رقم (٦٧).

(٢) سورة البقرة، آية رقم (٢١٩).

(٣) سورة النساء، آية رقم (٤٣).

(٤) سورة المائدة، آية رقم (٩٠).

(٥) صحيح البخاري (٣/٣٤٠) برقم (٤٩٩٣).

ونصحها وتعويدها على خصال الخير؛ وتعليمها ما تحتاج إليه من مفاهيم تربوية وعملية؛ حتى تصبح فيما بعد أماً صالحة لتربي أبناء صالحين، وكذلك من يريد أن تكون زوجته عفيفة، حافظة لحقوق زوجها في كل أمر، يلزمه أن يهيئها لذلك، قبل أن يلومها، من خلال تعاهدها بالنصح والإرشاد والتوجيه بأساليب التربية النبوية التي تحبب في المرأة النصيحة والاتباع، وليس النفرة والعصيان، والزهد في الخير. فالتهيئة سنة شرعية يجب مراعاتها. وينسحب هذا على أمور الحياة المماثلة.

وأول ما نزل عليه ﷺ قوله تعالى ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾ [١] أي لا تقرأ بقوتك ولا بمعرفتك ولكن بحول ربك ورعايته[٢] وهكذا يكون جهد الإنسان التربوي والدعوي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي مرتبطاً في نجاحه بالأخذ بالأسباب الذاتية والأسباب الشرعية، فلا تركن إلى بلاغتك وفصاحتك وقدرتك ومعرفتك في كل أمر من الأمور، ولكن اقرأ وتعلم وربِّ وادعُ وتاجر بالارتكان إلى قوة الله تعالى وحوله، فهذان عاملان أساسيان لنجاح الأعمال والأقوال.

إن هذه الآية الكريمة تُعَلِّم الإنسانَ البدء في كل أمرٍ من الأمور بالمعرفة والتَّعَلُّم؛ وربط ذلك بحوله وقوته وقدرته سبحانه وتعالى.

كما تعلمنا هذه الآية أن مفتاح هذا العلم هو القراءة؛ وما يلزم لذلك من معرفة الحرف والكلمة والكتابة، وما يتطلبه ذلك من الأدب مع المعلِّم حتى يعلمك ما تحتاج إليه، ويُغدِق عليك من معارفه، كما علَّمتنا خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وهي تتكلم بلطف وأدبٍ مع ورقة بن نوفل، لتهيئه على أن يعلمها أمر زوجها ﷺ فتقول له (يا ابن عمِّ اسمع من ابن أخيك) فقالت له: يا ابن عم، وهذه حقيقة، ثم قالت له: اسمع من ابن أخيك، وهو

---

[١] سورة العلق، آية رقم (١).

[٢] ابن حجر، فتح الباري (١/٢٤).

يجتمع مع النبي ﷺ في جدِّه قصي، فأرادت بذلك الأدب أن يتأهب لسماع كلام النبي ﷺ وذلك أبلغ في التعليم[1]

وإن شدة نزول الوحي عليه ﷺ تعلمنا شدة العلم وحاجته إلى الصبر، وكذلك الدعوة إلى الله تعالى؛ فإنها تحتاج من الداعية أن يصبر على الأخذ بأدواتها التي من أبرزها تعلُّم العلم.

وبعد انقطاع الوحي مدة لم تدم طويلاً تتابع بعد ذلك نزول الوحي على رسول الله ﷺ مدة بعثته.

ثم نزل قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ ﴾ عن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه، قال: وهو يحدث عن فترة الوحي، قال في حديثه عن رسول الله ﷺ أنه قال (بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فَرُعِبْتُ منه، فرجعت فقلت: زملوني، فأنزل الله تعالى (يا أيها المدثر قم فأنذر ــ إلى قوله ــوالرجز فاهجر) فحمي الوحي، وتتابع)[2]

وقد كان رسول الله ﷺ يحرك لسانه بالقرآن مسارعة إلى حفظه؛ فأمره الله تعالى بأن ينصت حتى يُقضى إليه وحيه، ووعد بأنه آمن من تفلته، فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ) قال: (كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدةً، وكان مما يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: فأنا أُحَرِّكُهُمَا لكم كما كان رسول الله ﷺ يُحَرِّكُهُما. وقال سعيد: أنا أُحركهما كما رأيت ابن عباس يُحَرِّكُهُما ــ فحرك شفتيه ــ فأنزل الله تعالى (لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦ، إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ) قال: جَمْعَهُ لك في صدرك وتقرَأه (فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ) قال: فاستمع له وأنصت (ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا

[1] ابن حجر، فتح الباري (١/٢٥).

[2] البخاري (١/١٥) برقم (٤)

بَيَانَــهُ) ثم إن علينا أن تقرأه. فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك، إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه)[1]

فقد كان ﷺ تواقاً لكلام ربه تبارك وتعالى؛ فيحرك لسانه رغبة في حفظه، وخشية أن يتفلت منه كلام رب العالمين، فيعلمه سبحانه وتعالى ما ينبغي عليه إزاء ذلك من الاستماع، ووعده بأنه آمِنٌ مِنْ تفلته بالنسيان أو بغيره، الأمر الذي يجب أن يكون عليه المتعلم للعلم؛ خاصة لكتاب الله تبارك وتعالى وسنة نبيه ﷺ بأن يأخذ ذلك بقوة ومحبة ورغبة في إتقانه، وهي عوامل أساسية في حفظ العلم وإتقانه. ومكانها قلبي لا جهد فيه، غير أنها تحفز عملية التعلم، ثم بعد ذلك الاستماع والفهم لإدراك المعلوم من العلم،كما أنه لا يمكن للمرء في الغالب أن يفهم ويحفظ في لحظة إعطاء الدرس، أو العلم من المعلم، بل عليه أن يفهم ويُدْرِك ما يُقال له حال الدرس، ثم بعد تمامه يحفظه.

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجودُ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح الْمُرْسَلة)[2] ذكر ابن حجر رحمه الله تعالى أنه قيل عن الحكمة من مدارسة جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ القرآن الكريم : أن مدارسة القرآن تجدد له العهد بمزيد غنى النفس، والغنى سبب الجود، والجود في الشرع إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي[3] وفي هذا إشارة إلى أثر مدارسة القرآن الكريم على الغنى النفسي الذي ينعكس على جوارح الإنسان وتصرفاته ونظرته للدنيا وما فيها من مال ومكاسب، وأن في مدارسة القرآن الكريم ما يدفع الشح عن الإنسان، ويربي فيه العطاء والكرم والجود، وكما قال ابن

---

(1) البخاري (١/١٥) برقم (٥)

(2) البخاري (١/١٦) برقم (٦)

(3) ابن حجر، فتح الباري (١/٣١)

حجر رحمه الله تعالى عن سبب زيادة جوده ﷺ في شهر رمضان: فمجموع ما ذكر من الوقت والمنزُول به والنازل والمذاكرة حصل المزيد في الجود.[١]

ومن فوائد الحديث: الحث على الجود في كل وقت، والزيادة عليها في رمضان، وعند الاجتماع بأهل الصلاح، وفيه زيارة الصلحاء وأهل الخير، وتكرار ذلك إذا كان الْمَزُورُ لا يكرهه، واستحباب الإكثار من قراءة القرآن في رمضان[٢]

وفيه من الفوائد أن المدارسة لا تكون من فرد واحد فقط، وإنما تكون بين اثنين فأكثر، وأن تكون للقرآن في كل ليلة من ليالي رمضان. وفيه أهمية الحرص والمتابعة لمن وفقه الله لحفظ القرآن الكريم خاصة. فهذا رسول الله ﷺ الذي تكفل له ربه بحفظه وجَمَعَهُ له في صدره يدارسه جبريل القرآن الكريم، فمن باب أولى أن يقوم بذلك أفراد الأمة؛ ولا سيما أهل العلم والصلاح، وخاصة الحفاظ حفظنا الله تعالى وإياهم.

مرحلة الدعوة السرية:

قال ابن هشام: وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أَمْرَهُ واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين ـ فيما بلغني ـ من مبعثه[٣] وقال ابن القيم: وأقام ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله سبحانه وتعالى مستخفياً، ثم نزل عليه ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [٤]

إن الله تعالى الآمر بما شاء والذي أذعنت له الخلائق، وإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، لم يأمر نبيه ﷺ بدعوة قومه إلا بعد ثلاث سنين من بعثته ﷺ فيتهيأ له الأمر؛ ويتهيأ

---

(١) المرجع السابق (٣١/١)

(٢) المرجع السابق (٣١/١)

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٢٨٨/١)

(٤) سورة الحجر، آية رقم (٩٤)

هو للأمر ﷺ والذي تفاجَأ بنزول الوحي وهابه، وقال: زملوني زملوني، وليعتاد الأمر الذي لم يكن له معرفة به من قبل، فتتهيأ له نفسُه، وتتهيأ له قُواه ومشاعره بالتضحية والتولي عن الراحة إلى المجاهدة في كل جوانبها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾[1].

قضايا كبيرة وعالية لا بد أن يستوعبها النبي الأمي من ترك التدثر إلى الإنذار، وتكبير الله تعالى قولاً وعملاً، وتطهير الذات ظاهراً وباطناً، وإعلان التوحيد الخالص الذي يقتضي رفض عبادة كل ما عدا الله سبحانه وتعالى، مع عدم التمنن على من يُحسن إليهم، والصبر على ذلك.

ويأتي بعد تلك القاعدة وجود الأعوان المخلصين؛ الذين تتقوى بهم الدعوة، لتنتقل من السرية إلى العلنية، حيث دخل في الإسلام أولاً: زوجته خديجة؛ وابن عمه علي بن أبي طالب؛ ومولاه زيد بن حارثة، وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وبهذه الكوكبة الأخيار بدأ ينتشر الإسلام، ويدخل فيه خلقٌ آخر خفية.

إنها مرحلة التكوين التي تنطلق من تربية الفئة القليلة التربية التي تغرس لديهم حب التضحية، من أجل كلمة الله تعالى، ونُصْرة دينه ونبيه، بالتي هي أحسن، فلم يأمر الله تعالى نبيه بمقاتلة قومه والهجوم عليهم بالكلمة أو العتاد، وإنما بالحكمة المشتملة على اللطف والصبر على الأذى وتحمله، لأن الهدف ليس هو تحقيق الرفعة عليهم، بل رحمتهم والشفقة عليهم من نار جهنم؛ وحب الخير لهم بدخول هذا الدين الذي به يسعد الإنسان في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة المدثر: آية رقم (١-٧)

لأن الذي يدعو أو يربي وهو يرجو الرفعة لنفسه والانتصار على الناس؛ يكون تفكيره مُنْصَبَّاً على استخدام الأساليب التي تحقق ذلك؛ ومنها استخدام القوة بأنواعها؛ واستضعاف المقابل؛ بينما الذي يدعو خوفاً على الناس ورحمة بهم وشفقة عليهم فإنه يتلطف بهم كما تتلطف الأم بابنها ليأكل أو ينام، أو يقضي حاجة من حوائجه، فالطفيل رضي الله عنه عندما دعا قومه وجد منهم صدوداً، فطلب من الرسول ﷺ أن يدعو عليهم، ولكنه ﷺ دعا لهم فقال (اللهم اهد دوساً وائت بهم)[1] نتيجة شفقته ﷺ ومحبته لإنقاذ الناس من الكفر وما يتبعه من العذاب المهين، قال تعالى عن منهج رسوله ﷺ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [2]

وهذا ينطبق على الرجل في أهله، والرجل في مهنته وعمله، والإداري في إدارته، والرئيس في رئاسته، والصديق بين أصدقائه، فإذا كان الواحد منهم يريد الانتصار لذاته؛ جرياً وراء حظوظ النفس والهوى؛ غير مدرك لأهداف الإسلام وغايته ولمنهج المصطفى ﷺ وغير عارف بمنهج الله تعالى الذي أراد أن يسلكه كل أحد في ميدان التعامل، فإن عاقبة أمره خسراناً.

فالرجل الذي يريد أن يحقق انتصاراً لنفسه في منزله من خلال فرض الآراء والإرادات دون اكتراث لحالات النفس الإنسانية وما جبلت عليه؛ وتفاوت العقول والأفهام، وتباين ما اعتاده الإنسان في حياته من سلوكيات، فإنه غالباً ما يفشل في إدارة منزله، خاصة إذا واجه من لا يطيع إلا على بصيرة ومعرفة.

---

[1] البخاري (٣٤١/٢) برقم (٢٩٣٧)

[2] سورة آل عمران: آية رقم (١٥٩)

وكذا الرجل في إدارته سواء أكان رئيساً أو مرؤوساً، يلزمه معرفة المنهجية النبوية في التغيير وفق سنن الله الاجتماعية، فيلزم التأمل والنظر والتهيئة النفسية والاجتماعية لما يُريد أن يُحدثه من تحسين إداري، وأن يستخدم قوة السلطة في رحمة وشفقة على العمل والعامل. لا على العمل دون العامل.

وكذا الصديق في دائرة صداقته، لا يكن ذلك الرجل الذي يهدف من الصداقة الاستحواذ على العقول والقلوب بقوة النفوذ، بل لابد من مراعاة الأخلاق والطباع وحالات النفس البشرية، وما يعتريها من تقلب، وما جُبلت عليه. مع التزام الإنسان بما جاء في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾ (١)

فإذا كان سياق الآية مخاطبة النبي ﷺ للجهر بالدعوة مع الاتصاف بتلك الصفات الواردة في الآية الكريمة، فإن هذا منهج قرآني رباني يلزم المسلم الالتزام به، ولا سيما أهل العلم، لأنهم ورثة الأنبياء، وكذا عامة الناس، فإنهم دعاة في داخل منازلهم، وبين أصدقائهم، بقدر ما عندهم من العلم.

وهذه الصفات التي تضمنتها الآية أساس في نجاح المربي والداعية والإداري والصديق والرئيس والمدير. بل أساس لنجاح الإنسان؛ أياً كانت دائرته التي هو فيها.

فالإنذار عن الشر وما يؤول بالإنسان إليه أمر مطلوب من الأب في منزله، والعامل في عمله، والمدير في إدارته، والصديق بين أصدقائه، ولا تستقيم أمور الجماعة المسلمة إلا بعملية الإنذار الدائمة المستمرة، التي لا تتوقف ما سار الإنسان وسعى، لأنه معرض للخطأ والغلط. والنصح أمر لا ينفك عنه أمر هذه الأمة على مستوى الأفراد والجماعات.

---

(١) سورة المدثر: آية رقم (٧.١)

وتعظيم الرب جلَّ جلاله من لوازم العبودية له سبحانه وتعالى على خلقه، وإذا عظَّم المربي والداعية والإداري والصديق ربه عز وجل أثر ذلك في سلوكه وفي تعامله مع من يتعايش معهم، فإجلال الرب وتكبيره يدفعه إلى أن لا يتعاظم على الناس، فالله هو الأكبر. كما يدفعه ذلك إلى تعظيم الرب فيما يقوم به من توجيه وإرشاد وإصدار أوامر، وتفويض صلاحيات، ومنح سلطات، فيعرف أنه مسؤول أمام الرب العظيم سبحانه وتعالى؛ الذي له الكبرياء في السماء والأرض، فإن استشعار (الله أكبر) في قلب المسلم تُعلمه دروساً كثيرة لا يستوعبها هذا الكتاب.

وتطهير الثياب في الآية الكريمة كما قال بعض أهل العلم، قد يقصد به أعماله كلها، بتطهيرها وتخليصها، والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات والمنقصات، من شر ورياء ونفاق وعُجب وتكبر وغفلة وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته، ويدخل في ذلك تطهير الثياب.[١]

وتطهير الثياب والنفس من الدنس والأرجاس والأحقاد والكبر والحسد ومنكرات الأخلاق أساس قوي في قبول توجيه المربي والداعية والمدير والمدرس، والزوج والأب، لأن النفس لا تتعلق بنصح الناصح إلا إذا كان أهلاً لذلك، ولا يكون الإنسان أهلاً لذلك إلا إذا كان طاهراً في عبادته من الشرك، وفي أخلاقه من الرذائل، وفي ملابسه من النجاسات والأقذار، فلا يرى العاقل قبولاً للتوجيه ممن عري من تلك الصفات، وهذا ليس خاصاً بالدعاة، بل لكل فردٍ في أي موقع كان من خارطة التعامل الواسعة.

وكذا يلزم أولئك المؤثرين وغيرهم من الناس هجر المبطلات الباطلات من الأوثان وكل ما يُتعلَّق به من غير الله تعالى، فالذي يتعلق بالمخلوقين دون الخالق يظل منكسر الفؤاد لهم، يرضى برضاهم ويسخط بسخطهم، فتستحوذ عليه الأوهام والاضطرابات النفسية، نتيجة

[١] السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٣١/٥)

تعلقه بالمخلوق، فيرجو من المخلوق تحقيق الآمال ودفع الشرور والمضرات، ولا شك أن من أخذ بهذه الصفة أو بشيء منها ضعفت عزيمته، وقلت حيلته، ووهن تدبيره وتفكيره، وبالتالي كيف تُقبل توجيهاته الإدارية أو التربوية أو التعليمية أو الأسرية؟ وهو الضعيف المنكسر أمام الضعفاء من المخلوقين.

وإن البعد عن التمنن بما أسدى إلى الناس من معروف وإحسان، يُعتبر من مطالع عوامل التأثير، ومحبة الناس له، لأن من يتفضل على الناس بالخير والجاه، ثم يَمُنُّ عليهم بما صنع من معروف على سبيل التقريع، أو على سبيل التفضل عليهم؛ فإنهم يزهدون في معروفه، ويحملون له الحقد، والكراهية والبغضاء، وبالتالي لا يستجيبون له، ولا يتفاعلون مع توجيهاته، مهما بلغت من الصواب، لأن النفوس البشرية الفاضلة ترفض هذا السلوك وتأباه.

فإذا وجه المدير أو المربي أو الإداري أو الصديق أو الداعية المتصف بالمن، فلن يجد لتوجيهه أبواباً مفتوحة ونوافذ مُشَرَّعة، فضلاً عن نهي الله تعالى عن هذا السلوك، قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ (١)

ثم من أقوى ما يتقوى به الناجح من المربين والمعلمين والموظفين والأصدقاء، وأصحاب المهن والأعمال هو الصبر؛ الذي تكفل الله تعالى بثوابه؛ في بشارة منه سبحانه

---

(١) سورة البقرة: آية رقم (٢٦٢.٢٦٤)

تبارك وتعالى، حيث قال جلَّ جلاله في كتابه الكريم ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾ (١)

فالصديق الذي يصبر على جفوة الأصدقاء وزلاتهم يوفقه الله تعالى، بل وتنغرس له محبة في قلوب أصدقائه، وكذا المدير الذي يصبر على موظفيه وأعباء عمله، سيجد لذلك فرجاً وتدبيراً، وكذا الداعية والمربي، والرجل في بيته، والمرأة في دارها، والمدرس في فصله، والطالب مع معلميه ومدرسيه.

فهذه الآيات التي هي مطلع سورة المدثر عَلَّمت رسول الله ﷺ سُبُل تحقيق أهداف النبوة؛ التي هي أعظم التكاليف، فكيف إذا طبقها المرء في حياته، وفي أعماله التي لا ترقى إلى تكاليف أعمال النبوة، فكما حقق بها ﷺ نجاح دعوته فكذلك كل مسلم يستطيع أن يحقق بها النجاح في الخير.

إسلام الجن :

لقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشُهب كما جاء في الحديث، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم ؟ فقالوا: حِيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها؛ فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانصرف أُولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ؛ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: (يا قومنا إنا سمعنا قرآناً

(١) سورة البقرة: آية رقم (١٥٥-١٥٧)

عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً) فأنزل الله على نبيه ﷺ (قل أوحي إليَّ) وإنما أوحى إليه قولُ الجن.[1]

والجن كما قال تعالى عنهم في وصفهم لأنفسهم ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ﴿١١﴾ ﴾[2] وقدداً: أي ضروباً وأجناساً ومللا، قال الحسن والسدي: الجن مثلكم، فمنهم قدرية، ومرجئة، ورافضة.[3]

فلقد كان مبعثه ﷺ حدثاً وتغيراً كبيراً على الجن الذين قد شملتهم رسالة رسول الله ﷺ فقد كانوا يسترقون السمع، وأصبحوا بعد بعثته عليه الصلاة والسلام يُرْمَون بالشهب الشديدة، فلا يستطيعون السمع إلى خبر السماء، فهذا حدث عظيم، ونبأ جسيم، فقالوا ﴿ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴿١٠﴾ ﴾[4]

فاستشعرت الجن هذا الأمر العظيم والجسيم، فأرسلوا مراسيلهم يجوبون الدنيا لمعرفة هذا الخبر العظيم، فوجدوا أن محمداً ﷺ قد بُعِث للإنس والجن، واستمعوا للقرآن العظيم، فعادوا إلى قومهم منذرينهم ومبشرينهم بما وجدوا من الحق والخير الذي جاء به ﷺ .

ولئن تأثرت الجن بهذا القرآن العظيم، وبهذه الرسالة العظيمة، وبهذا النبي الأمي الذي ما عُرف عنه عيب يُعاب به قبل البعثة، فإنه لجدير بالإنسان أن يتعظ بذلك، ويستعظم بعثته ورسالته وما أنزل عليه، فليست الجن بأحسن حالٍ منه. ولئن تفرقت الجن للبحث عن هذا الأمر العظيم، فإنه قد جاء لأرجاء المعمورة بدون عناء من الإنس، وبالتالي ليست الجن بأحسن حالٍ منهم. ولئن تفرقت الجن طرائق قددا، فليحذر الإنسان من هذا المسلك

---

[1] البخاري (١/٢٥٠.٢٥١) برقم (٧٧٣)

[2] سورة الجن: آية رقم (١١)

[3] ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/١٠٦)

[4] سورة الجن: آية رقم (١٠)

الشيطاني، والاختلاف والخروج عن النهج القويم، وليدرك أن هذا المسلك الْقِدَدِي هو مسلك شيطاني، قد عرفته الجن وسلكته.

كما أن شمولية الجن بهذه الرسالة العظيمة آية وعلامة ودليل بأنها رسالة شاملة للخير كله، فهو دين الله الحق العظيم.

وكما أن الجن بحثت عن الحقيقية، فإنه لجدير بالإنسان أن يبحث عن الحق ويتثبت؛ ويثبت عليه، فليست الجن بأحسن حالٍ منه.

الجهر بالدعوة:

بعد مضي ثلاث سنين من الدعوة سراً، أمر الله تبارك وتعالى نبيه بأن يَصْدَع بهذا الأمر، معلناً إياه على رؤوس الأشهاد، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) خرج رسول الله ﷺ حتى صَعِدَ إلى الصفا فهتف: يا صباحاه. فقالوا: من هذا ؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ قالوا ما جربنا عليك كذبا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تباً لك، ما جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قام. فنزلت (تبت يدا أبي لهب وتب)[١]

فبهذه الآية العظيمة التي في مطلع الحديث تتأكد الأهمية العظيمة للتدرج والتهيئة في جوانب الحياة، وأن ثمرة الجهد البشري لا تتحقق في يوم وليلة على الغالب، بل تحتاج إلى الوقت الذي يُنْضِجُها؛ والجهد الذي يقوي مفاصلها، ويَشُدُ عضدها، وهكذا يكون الداعية، وطالب الأرباح، والمعلم، والمربي، والإداري، والسياسي.

وبهذه الآية العظيمة وهذا النداء النبوي يُعلن رسول الله ﷺ أن الفئة المستضعفة والمتسترة بدين الله تعالى، قد أخذت منها التربية النبوية مأخذها القوي، الذي سيمكنها بإذن الله تعالى وتوفيقه بأن تصدع بهذا الأمر العظيم، الذي سيبلغ مشارق الأرض ومغاربها.

---

[١] البخاري (٣/٣٣٣) برقم (٤٩٧١)

وللمسلم أن يلحظ في أسلوبه ﷺ أنه بعد نداء القوم: يا صباحاه، بدأ بتقرير صفاته؛ وبأسلوب نبوي حكيم، إذ لم يُعدد مفردات أخلاقه، ولكن أثبت شهادتهم له على الملأ بمفردة خُلُقية واحدة، حيث قال ﷺ (أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ قالوا ما جربنا عليك كذباً) وهي تلك الأخلاق العظيمة التي يُعْتَمَدُ عليها في قبول الأخبار، ثم بعد ذلك أخبرهم بالخبر العظيم، أنه رسول رب العالمين.

ولذلك فإن المعلم والمربي والداعية والقائد في إدارته ومصنعه ومستشفاه، والرجل في أهله، والمرأة في دارها، يلزمهم الاتصاف بما يجعل أقوالهم مقبولة عند من يحيطون بهم؛ ويستفيدون منهم، فلابد من قناعة المتعلم والمستفيد بصفات المعلم أو المفيد، أياً كانت دائرة فائدته ومجالها. وبعد ذلك يأتي دوره التوجيهي. وعلى المفيد أن يَعْلَمْ أنه قد يجد من لا يقبل قوله ويرد توجيهه بأقبح الردود، فتلك دعوة الله تبارك وتعالى ورسول كريم قد ردها أبو لهب رداً قبيحاً استحق بها سورة تذكر جزاءه ومآله. فليس المعلم أو القائد أو الداعية بأحسن من رسول الله ﷺ ولن يأتي أحد منهم بما هو خير مما جاء به رسول الله ﷺ . فالحال إذاً هو الاجتهاد؛ وترك التوفيق لله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[1]

ولئن أبى ورفض أبو لهب الدخول في الإسلام؛ معلناً كبرياءه، فلقد دخل في دعوتهﷺ خلق كثير؛ أفراد وجماعات، حيث امتد ركب الداخلين في دين الله تعالى حدود أم القرى، مكة المكرمة.

---

[1] سورة القصص: آية رقم (٥٦)

أساليب الأذى والتصدي:

لم يَرُق لبعض المشركين ترك ما ألفوه من الضلال والكفر، وهجر الرذائل، بالرغم مما سمعوه من القرآن الكريم، ومنافع الدعوة؛ وما حوته من مكارم الأخلاق، وصفاء التوحيد والإخلاص لله تبارك وتعالى، وترك كل معبود يُعبد من دون الله تعالى؛ من حجر أو شجر أو صنم أو غيرها.

ولكن هناك دواعي أخرى جعلت بعض كبرائهم يقفون ضد دعوة رسول الله ﷺ والتي منها:

- اضمحلال مصالحهم الاجتماعية من السيادة التي يمارسونها في البيت العتيق.
- الحسد والكبرياء، كما قال أبو جهل: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الرُّكَب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى نُدْرِك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدا، ولا نصدقه.[١]
- الرغبة في استمرار خضوع الأسواق والركبان الذين يحملون البضائع ويتاجرون في رحلة الشتاء والصيف لقراراتهم.
- حب الذات وزخرف الدنيا أدى إلى استشعارهم صعوبة التنازل عن السيادة للرسول ﷺ

فهذه الأسباب غالباً ما تحول بين المرء وسلوك مسلك الصالحين، خشية على السيادة الموهومة، والمصالح التي مآلها للفراق، أو نتيجة الحسد والكبرياء، وكلها مجتمعة أو متفرقة من دواعي قطع الطرق الموصلة لمسلك الصراط المستقيم؛ المفضي إلى جنات الخلود.

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (١/٣٣٧-٣٣٨)

وكل أحد خائف ومراع لمصالحه الباطلة فإنه ينحو عن جادة الطريق في التعليم والإدارة والدعوة، وفي كل شؤون الحياة، لأنه لا يعرف إلا تقديم مصلحته الخاصة على المصلحة العامة، والمصلحة العاجلة على الآجلة.

فصاحب المصلحة الوظيفية ينافح عن مكانه حتى ولو بإقصاء النجباء، وصاحب المال يصارع ويناطح الآخرين، وقد يسعى لإسقاطهم رغبة في التفرد والانفراد. وصاحب الجاه ينافح ويضاد أولي الألباب من أهل الكياسة والفطانة خشية على جاهه.

بينما نجد أن التربية الصحيحة هي التي تُجَسِّد الروح الإسلامية في أفراد الأمة وتجنبهم مزالق الهوى والفكر الرديء من خلال الوالدين والإخوة والمدرسة والمسجد والإعلام.

ولهذه الأسباب اتخذ المشركون أساليب عديدة لمقارعة رسول الله ﷺ والتصدي له ولمن دخل في دينه، ومن تلك الأساليب:

١. إلصاق التهم والنعت السيئ:

من الأساليب التي استخدمها المشركون التثبيط والإحباط من شأن رسول الله ﷺ من خلال: النعوت والصفات والتهم السيئة الباطلة، التي تدفع الآخرين للتشكيك وعدم التصديق، لما لمزوه من صفات جارحة لعدالة الإنسان، فقالوا عنه ﷺ ساحر ومجنون، وكاهن، وكذاب، وقد رد الله تعالى عليهم، وأبطل زعمهم وبهتانهم عن نبيه ﷺ قال تعالى ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِى شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ

﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾(١)

وأجابهم الله بقوله ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ (٢)

وقال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ (٣)

وقال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ ﴾(٤) وقال تعالى عن رسوله ﷺ ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٥) وقال تعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾(٦)

لقد استخدم أهل الكفر والضلال مع رسول الله ﷺ أرذل الصفات وأسوأ النُّعُوت وأقبحها، ولكن رسول الله ﷺ وأصحابه الطيبين لم يقابلوا ذلك بالوهن والتأفف والتخاذل،

---

(١) سورة الحجر: آيات رقم (١٥.٦)

(٢) سورة القلم: آية رقم (٢)

(٣) سورة الفرقان: آية رقم (٨)

(٤) سورة الفرقان: آية رقم (٤)

(٥) سورة التكوير: آيات رقم (١٥-٢٥)

(٦) سورة الحاقة: آيات رقم (٢٨-٣٨)

بل صبروا على ذلك الأذى المعنوي في شجاعة قد غذّاها الإيمان والتصديق، فبين الله تعالى في القرآن الكريم بطلان تلك الاتهامات، لتكون قرآناً يُتلى إلى يوم الدين.

فهذا نبي الله ﷺ يتعرض للأذى المعنوي، بأمضى السيوف من الكلمات الجارحة؛ والنعوت السيئة، ويتعامل معهم بحكمة النبوة، بما يُعطي المنهجية العملية لمن هم دونه ﷺ من أهل الصلاح والتقى؛ إذا تعرضوا إلى اللَّمز والتجريح والتشكيك في إخلاصهم ونواياهم، وربما يُوصفون بأنهم أولو أطماع ومقاصد. ولا يعلم النوايا إلا الله تبارك وتعالى.

فمن كان رسول الله ﷺ قدوته فلينهج نهجه وسيرته من الصبر على أهل الأذى والطغيان، من باب الإشفاق عليهم، فلعلهم يَفِيقُون من سكرة غيهم وطيشهم فيرشدون، لأن الهدف ليس هو الانتصار عليهم، بل الهدف هو إصلاحهم وإدخالهم في باب الخير والفلاح.

إن هذا الأسلوب لا يقتصر على أعداء الدعوة الإسلامية فقط، بل إنه أسلوب يستخدمه الحاقدون والحاسدون في جميع دوائر الخير ومجالاته، فصاحب الرأي السديد في إدارته، والمعلم الناجح في مدرسته ومعهده وجامعته، والصديق بين أصدقائه وجلسائه قد يجد من يرميه بالكلام الجارح والصفات السيئة، بُغْيَة تثبيطه وتنفير الناس عنه، ولكن بالصبر الجميل كما صبر رسول الله ﷺ يظهر ويعلو على الحاقدين والحاسدين.

وإن المنهج التربوي الناجح هو الذي يُذْكي في أتباعه الصبر على الأذى كما صبر رسول الله ﷺ وأتباعه من أصحابه الميامين ومن اقتفى أثرهم من بعدهم.

ومن أمثلة الأذى النفسي الذي تعرض له أصحاب رسول الله ﷺ ما واجهه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إذ يقول: (حَلَفَتْ أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب. قالت: زعمتَ أن الله وصاك بوالديك وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا، قال: مكثتْ ثلاثاً

حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها، يقال له: عمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد)[1]

فهذا نوع من الإيذاء المعنوي الذي واجهه سعد بن أبي وقاص ﷺ من والدته، وإنه لأمر وابتلاء عظيم يواجهه من أمه بحرق فؤاده مما يراه عليها من الامتناع عن الطعام حتى غشي عليها، ولكنه صبر أمام ذلك الإيذاء والابتلاء.

٢. الإيذاء الجسدي :

ومن ألوان الأذى التي تعرض لها رسول الله ﷺ وأصحابه الإيذاء الجسدي في صور متعددة، فلم يزدهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً، وتضحية، وصبراً، فعن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: (بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجمع قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي ؟ أيكم يقوم إلى جَزورِ آل فلان فَيَعْمِدُ إلى فَرْثِها ودمها وسلاها فيجئ به، ثم يُمْهِلُه حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه ؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة عليها السلام - وهي جويرية - فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تَسُبُّهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش. ثم سَمَّى : اللهم عليك بعمرو بن هشام وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي مُعَيْط، وعمارة بن الوليد، قال عبدالله: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر، ثم قال رسول الله ﷺ: وأُتبِع أصحاب القليب لعنة)[2]

---

(١) مسلم (٤/١٨٧٧) برقم (١٧٤٨)

(٢) البخاري (١/١٨٠-١٨١) برقم (٥٢٠)

إنها صورة مخزية لأهل الكفر والضلال، حتى أنهم يتمايلون ضحكاً وسخرية من صنيعهم اللعين، الذي كدروا به صفاء كل مسلم يتذكر هذا الموقف العصيب لنبي الرحمة والهدى ﷺ ولكنه عليه الصلاة والسلام ثبت ساجداً حتى أتته ابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها، وهي جويرية، وكأني بها في ألم وحسرة مما أصاب والدها ونبيها وحبيبها محمداً ﷺ ولكنه الكرب الذي بعده النصر والعزة والسؤدد، فاستحقوا اللعن منه ﷺ فأصابتهم دعوة النبي المظلوم، فأصبحوا صرعى يُسحبون إلى القليب، قليب بدر. فهكذا تكون نهاية المجرمين الذين لا يتعظون ولا يفكرون في مغبة الظلم والجبروت.

ويعطي هذا الموقف دروساً يلزم أن يتربى عليها المجتمع المسلم؛ من هجرٍ للظلم والتمرد على الحق، والطغيان في حق كل من يتم التعامل معهم، فليس للطغيان صورة واحدة، متمثلة في ذلك الموقف القاسي، بل قد يكون في صور أخرى، في ظلم الجار لجاره، والأخ لأخيه، والقريب لقريبه، والصديق لصديقه، والزوج لزوجته، والزوجة لزوجها، والعامل مع صاحب العمل، وصاحب العمل مع عامله، والمعلم مع طلابه، والطلاب مع معلميهم، والمدير مع موظفيه، فدعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، فقد قال رسول الله ﷺ (واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب) [(١)]

إن احتقار الآخرين ظلم لهم، وأن منعهم حقوقهم المعنوية أو المادية ظلم لهم، قال تعالى ﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [(٢)]
فلا يحق للمستأجر أن يبخس حق المؤجر، ولا المؤجر حقوق المستأجر، ولا البائع حق المشتري، ولا المشتري حق البائع، ولا الرئيس حق المرؤوس ولا المرؤوس حق الرئيس، ويقاس على ذلك. فإنه دين الرحمة ونبي الرحمة.

---

(١) البخاري (٤٦٣/١-٤٦٤) برقم (١٤٩٦)

(٢) سورة الشعراء: آية رقم (١٨٣)

ولقد مس مشركي مكة الجوع والجهد والبلاء بدعاء الرسول ﷺ لعلهم يرجعون إلى الصواب والحق، قال عبدالله بن العباس رضي الله عنهما: (إن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، وحتى أكلوا العظام، فأتى النبيَ ﷺ رجلُ فقال: يا رسول الله ! استغفر الله لمضر، فإنهم قد هلكوا، فقال: لمضر ؟ إنك لجرئ، قال: فدعا الله لهم، فأنزل الله عزَّ وجل﴿ عَآئِدُونَ إِنَّكُمْ قَلِيلًا إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ ﴾[1] قال: فَمُطِروا. فلما أصابتهم الرفاهية، قال: عادوا إلى ما كانوا عليه، قال: فأنزل الله عزَّ وجل (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم)[2] (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون)[3] قال: يعني يوم بدر [4]

ودعوته عليهم ﷺ بسبب تكذيبهم إياه؛ واستعصائهم على الإيمان، وليس بسبب إيذائهم له، فطالما احتمل أذاهم، ولم يدع عليهم، بل دعا لهم بالهداية[5]

ويلاحظ أن الرسول ﷺ لم يدع عليهم بالهلاك الكلي من رحمته وشفقته، ولكن دعا عليهم بما يجعلهم يتضرعون فيرجعون لرشدهم، ويتوبون إلى الله تعالى، فاستعمال العقوبة للتأديب، مثل الهجر ومنع العون والمساعدة رجاء أن يستجيب أهل الباطل ويُذعنون للحق، وفي هذا الدعاء الذي ذكرته رواية ابن عباس رضي الله عنهما دليل على رحمته وشفقته وصبره ﷺ وهو ما عُرِف عنه طيلة حياته؛ وفي وصاياه وأقواله وأفعاله وتقريراته عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

---

[1] سورة الدخان: آية رقم (١٥)

[2] سورة الدخان: آية رقم (١٥)

[3] سورة الدخان: آية رقم (١٨)

[4] مسلم (٤/٢١٥٦-٢١٥٧) برقم (٤٠- ٢٧٩٨)

[5] أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص (١٤٩-١٥٠)

وفي هذا الموقف ما يدل على أن من كفر منهم ولم يؤمن إنما كان ذلك بسبب الكبر والحسد واتباع سبيل الشيطان الرجيم، حتى إذا كشف الله عنهم ما أصابهم وحلت عليهم الرفاهية عادوا إلى ما كانوا عليه، وهكذا المتمردون في كل وقت وحين.

فالعاقل إذا مسه الله تعالى بضر، يلجأ إلى الله تعالى ويتفقد نفسه وأحواله، ويُصلحها، وإذا عادت إليه الرفاهية والنعمة، فلا ينكص كما هو فعل الجاحدين الكافرين المارقين، فكم من نعم تُصِيب الإنسان بعد بلاء وجهد، فينسى ما كان فيه من بلاء فيبطر ويتكبر. قال تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ (١)

فهذا مسلك الإنسان إذا أذاقه الله تعالى نعمة منه ثم نزعها أصابه اليأس والقنوط، ولئن أذاقه نعمة بعد ضراء وابتلاء أصابه الفرح والفخر والخيلاء، ويسلم من ذلك: الذين يصبرون على البلاء في حالة المصيبة، والذين يعملون الصالحات في حال الرخاء والنعمة، فهؤلاء لهم مغفرة من الله تعالى ولهم أجر عظيم من الرب تبارك وتعالى.

ومن صور الإيذاء ما ذكره عبدالله بن عمرو بن العاص حين سأله عروة بن الزبير: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ فقال: (بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي مُعَيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر، فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ وقال: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم)) (٢)

---

(١) سورة هود: آية رقم (٩-١١)

(٢) البخاري (٣/٢٨٦) برقم (٤٨١٥)

إن هذا النوع من الأذى يصيب رسول الله ﷺ وهو صابر على قومه، يتحمل أذاهم، دون أن يقاومهم، فتشتد الفرقة، ويتسع بُعْدُهم عن القبول والدخول في الإسلام، وإنها لتصرفات رسول حكيم رؤوف في دعوته، ينتصر لها ولا ينتصر لنفسه، وإن من عوامل الانتصار للرسالة الصبر والحلم.

وإنه ليجدر بالإنسان المسلم أن يصبر في دعوته على الأذى أياً كانت درجته ونوعه، ولا يقابل ذلك بالإيذاء والاعتداء، وإزهاق الأنفس، والتدمير الغاشم الذي لا يفرق بين الحق والباطل، فلم يعمد رسول الله ﷺ إلى القتل أو التنكيل والتعذيب والتدمير، وإنما يصبر ويَحْلِم على تصرفات الأعداء، لأنه لا يريد الانتصار لنفسه، وإنما كان مشفقاً على البشرية، يرجو رحمتهم بدخولهم في دين الله تعالى، حتى في دعائه، كما مر بنا، أنه لم يدعو عليهم بالهلاك الكلي، وإنما دعا بما يجعلهم يعودون إلى ربهم، وذلك أن تصيبهم سنين كسني يوسف عليه السلام.

ولقد بلغ من أذاهم أن تواعدوا على قتله ﷺ فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللات والعزى ومَنَات الثالثة الأخرى ونائلة واساف، لو قد رأينا محمداً لقمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله، فأقبلت ابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها تبكي، حتى دخلت على رسول الله ﷺ فقالت: هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك، لو قد رأوك، لقد قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبهم من دمك، فقال: يا بنية أريني وضوءً. فتوضأ ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه قالوا: ها هو ذا وخفضوا أبصارهم وسقطت أذقانهم في صدورهم وعقروا في مجالسهم فلم يرفعوا إليه بصراً، ولم يقم إليه منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم فأخذ

قبضة من التراب، فقال: شاهت الوجوه، حتى حصبهم بها، فما أصاب رجلاً منهم من ذلك الحصى حصاة إلا قُتِلَ يوم بدر كافراً)[١]

فهكذا سولت أنْفُسُ أولئك الملأ أن يتعاقدوا ويتعاهدوا على قتل رسول الله ﷺ ولكن حماية الله تعالى لنبيه ونصرته له، وعِصْمَتُه له منهم منعته من ذلك، بل أذاق أولئك النفر الخزي يوم بدر، ونكصوا على رؤوسهم قبل ذلك بعد تعاقدهم على قتله ﷺ فهذا نصر الله لمن انتصر لله وبالله تعالى.

٣. إيذاء المشركين للصحابة:

لقد شمل الأذى الداخلين في دين الله تعالى، حيث امتد الأذى لأصحاب رسول الله ﷺ فاستضعف الضعفاء، وبُطِشَ بهم، وعُذِّبُوا ، فعن عبدالله بن مسعود ﵁ قال :(أول من أظهر إسلامه سبعةٌ: رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعمار وأمه سمية، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدْرُعَ الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان وأخذوا يطوفون به شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد)[٢]

فهكذا يُعطينا ابن مسعود ﵁ عند سرده للإيذاء درساً في التوحيد، إذ يُوكل المنعة لله سبحانه وتعالى بعمه أبي طالب، فيقول: (منعه الله بعمه) فلم يعمد للأسباب، فيقول منعه عمه، وإنما جعل الأسباب جنداً من جنود الله تعالى، وكذلك عندما ذكر أبا بكر الصديق ﵁ فقال: (منعه الله بقومه).

---

[١] أحمد، المسند (٢٠٢/١)

[٢] أحمد، المسند، (٤٠٤/١)

ثم هذا بلال بن رباح الحبشي ﷺ يُقدم الآخرة على الدنيا ولذائذها، وهو لم يعرف بعد الكثير من تفاصيل الإسلام التي نزل بها جبريل خلال ثلاث وعشرين سنة. فيتصدى لأذى قومه بتوحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، فيقول: أحد أحد، لِيَدُلَ بها على أن الله تعالى هو الواحد الأحد؛ ولا معبود سواه، ولا رب غيره، هو الواحد الأحد.

لقد كان بلال ﷺ صادق الإسلام، طاهر القلب، وكان أمية بن خلف بن وهب يُخْرِجُه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد. (1)

فلم يزعزعه ﷺ الأذى وحرارة الشمس التي يُمَرَّغُ عليها جَسَدُه، ولا طواف الصبيان به في شعاب مكة، وبين بيوتها، لم ينظر إلى رؤية النساء له، ولا الصبية ولا علية القوم، وإنما نظر إلى طاعة الله تعالى، وإلى الآخرة وما فيها من نعيم مقيم، وكم يُقَدِّم المسلمون اليوم ألواناً من التقاعس عن أداء العبادات والواجبات وكثيرٍ من السنن التي لا يعاتبهم عليها أحد، ولا يثنيهم عن القيام بها إنسان ولا قوة، فكيف لو كان هناك من يُجالدهم عليها ؟

إن بلال بن رباح ﷺ يقدم لنا أنموذجاً ونصيحة حية تُدوي في أرجاء المعمورة منذ ألف وخمسمائة سنة تقريباً، فذهب بلال وأبقى لنا سيرته العطرة ﷺ

فهذا بلال قد امتدت له رحمة الله تعالى بعبده أبي بكر الصديق ﷺ ليسجل في صحائف المسلمين الأوائل النصرة لله تعالى؛ من خلال نصرة إخوانه المستضعفين في الأرض، فيشتري بلالاً من أمية؛ ثم يعتقه من ذلك التعذيب المهين والاستعباد الْمَقيت إلى حُرية الدين وعبودية الله تعالى، قال عمر ﷺ (أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا، يعني بلال) (2) وقالت

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (١/٣٣٩.٣٤٠)

(2) الحاكم، المستدرك (٣/٢٨٤)

عائشة رضي الله عنها (أعتق أبو بكر ﷺ سبعة ممن كان يُعذب في الله عزَّ وجل، منهم بلال وعامر بن فهيرة)[١]

وممن ذاق ألوان العذاب من كفار قريش آل ياسر . رضي الله تعالى عنهم . فقد كان بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه، وكانوا أهل بيت إسلام، إذا حميت الظهيرة؛ يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة، فأما أمه فقتلوها، وهي تأبى إلا الإسلام.[٢]

لقد قدمت هذه الأسرة أنموذجاً في الصبر على بلاء التعذيب والنكاية، فكيف بمن لا يصبر على ابتلاء الدنيا في المال والولد والمرض والقلة والفاقة، إنها جميعاً تهون أمام التعذيب البغيض الذي يرى فيه عمار بن ياسر أمه وهي تُعَذَّب أمامه، ووالده الذي يمثل أصله وعِرْضَهُ يُعَذَّب بين يديه وأمام بصره، أو ذلك الابن ياسر وهو يُعَذَّب بالرمضاء أمام أبويه، فينظران إليه في شفقة ورحمة، ولكن كل ذلك لم يثنهم عن الصبر من أجل دينهم.

إنها الأسرة النموذجية في الصبر والفداء، ولكن لتلك الكلمات العطرة من رسول الله ﷺ والبشارة الكريمة بالجنة (أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة) إنها تُذكي في نفوسهم مشاعلَ الخير والصبر، والنظرة الطويلة الثاقبة إلى ما بعد هذه الدنيا.

ولكم نحتاج إلى دراسة وقراءة هذه النماذج المؤمنة التي تعطينا الدروس والعبر فيما يجب أن يكون عليه المسلم، فلئن صبروا على الأذى فكيف بمن لا يصبر على الطاعة في غير أذى، إلا أن الصدود عنها أو التكاسل فيها بسبب اتباع الهوى وحب الراحة والدعة.

وممن لقي التعذيب والتنكيل خَبَّاب بن الأرَت ﷺ حتى إنه يأتي إلى رسول الله ﷺ ويشكو إليه ما يجده، حيث يقول (شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل

---

(١) المرجع السابق (٣/٢٨٤)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١/٣٤٢)

الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعلُ فيه، فيُجاء بالمنشار فيوضع فوق رأسه فينشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشَّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[١]

فما شكوى خبابٍ وأصحابه إلا لبلوغِ العذاب مبلغاً لا يستطيعون الصبر عليه، حتى بلغت آثاره في ظهره علامة قد ارتسمت، فقد جاء خباب إلى عمر فقال: أدن، فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار، فجعل خباب يُريه آثاراً بظهره مما عذبه المشركون)[٢]

فيلاحظ في الحديث الأول الشكوى إلى رسول الله ﷺ ليدعو لهم، ويسأل الله تعالى لهم الخلاص، فلم يذهبوا للماديات والالتجاء إليها، وإنما ذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليدعو ربه عزَّ وجل، فسبحانه وتعالى هو كاشف الكربات، وهو مزيل الملمات، فيعمد رسول الله ﷺ إلى التذكير لشحذ الهمم حتى يصبروا على ما أصابهم، من خلال عرض النماذج السابقة، وما كانوا يجدونه من أذى تتمزق به الأجسادُ بمناشير وأمشاط، فلا يردهم ذلك عن دينهم، ثم يؤكد لهم أن هذه مرحلة ستنتهي بإذن الله تعالى، حتى إن أمر هذا الدين سيبلغ أثره الأمني نتيجة دخول الناس في دين الله تعالى وتمسكهم به، أن يبلغ الأمن ذروته، فيخرج الرجل لا يخاف إلا الله تعالى أو الذئب على غنمه، وليس ذلك في مكة فقط، بل سيبلغ أبعد من ذلك، من صنعاءِ إلى حضرموت، فهي إشارة إلى اللبيب خباب بن الأرَت وإخوانه المستضعفين، بأن هذا البلاء سينتهي، وسيكون بعده رخاءٌ وعزةٌ ومنعةٌ وأمنٌ وأمانٌ. وفي الحديث بيان وصول الإسلام إلى نهاية جنوب جزيرة العرب.

---

[١] البخاري (٥٣١/٢) برقم (٣٦١٢)

[٢] ابن ماجه، (٥٤/١) برقم (١٥٣)

وفي هذا الحديث دليل على أن الإسلام إذا تمسك به المسلمون فإنه يحقق لهم الأمن والرخاء.

ثم يظهر من موقف عمر بن الخطاب في الحديث الثاني إنزال الناس منازلهم، وأن مكانة خَبَّاب عظيمة ورفيعة عند عمر، وأن هذا المجلس لا يتقدم فيه إلا عمار بن ياسر، نتيجة ما وجدوه من البلاء والعذاب.

فلقد كان عمر ﷺ كريماً في خُلُقه، وحكيماً في رأيه، ومرشداً للناس في الخير والآداب، فيجب إنزال الناس منازلهم، وليس في ذلك إلا إحقاق الحق لأهل الحق، فكيف بمن يقلل من مكانة أهل التقى والعلم، ويُقَدِّم عليهم مَنْ هُمْ دونهم من أهل المال واليسار والمناصب.

ثم هذا خباب يُظهر ما وجده من التعذيب والتنكيل، فيكشف عن ظهره لمزيد من الإيضاح عن ما لقيه؛ مما يدل على إظهار الفضائل أو الخصائص إذا خفيت، فلله درك يا عمر في معرفة منازل الناس وحفظ حقوقهم، ولله درك يا خباب في كل فعل فعلته للإسلام. ورضي الله تعالى عنكم أجمعين، فقد استحقيتم الصحبة؛ وقدمتم التضحية؛ والأنموذج الأمثل لمن بعدكم.

فهكذا طال التعذيب الداخلين في الإسلام، إلا من كانت له منعة من الله بقومه، مما يدل على أن المنعة قد تكون نتيجة القوة أو التظافر والتكاثر، وهو درس عظيم في أن مِمَّا يصد عن الأمة أعداءها التكاتف والتعاضد، وحمايتهم لرعاياهم ولأوطانهم أينما بَعُدَت، فإن في ذلك منعة وعزة، تتقوى بها الأمة أمام أعدائها، ولا خير في كثرة ليس فيها قوة ولا منعة، قال ﷺ (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تتداعى الأكلة على قصعتها، قال: قلنا: يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ ؟ قال: أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء

السيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن، قال: قلنا: وما الوهن ؟ قال: حب الحياة وكراهية الموت)[1]

فكيف إذا أضيف إلى تفرق الأمة وتشتت آرائها ومرادها ذلك الوهن الذي تستعلي فيه محبة الدنيا وحب البقاء فيها، وتقديمها على الآخرة ونعيمها، وما يتبع ذلك من الرضا بالملذات وحطام الدنيا، وكل يقول نفسي نفسي وملذاتها، فلا ينظر الأخ لأخيه، ولا يتفقد القريب قريبه، ولا يُرَاعَى حق العالم والكبير والسلطان والسيد في قومه، ولا تراعى حقوق الولاة، ولا يراعي الولاةَ حقوق رعاياهم.

المفاوضات وأنواعها:

لقد تتابع تصدي المشركين لرسالة رب العالمين التي جاء بها رسوله الأمين ﷺ بأساليب مختلفة، ظناً منهم أنها تجدي في التصدي لرسالة الله تعالى إلى خلقه، وبالرغم من أنها أخذت صوراً متعددة من الأذى النفسي والمعنوي والمادي إلا أنها أيضاً سلكت مسلك المفاوضات الممتلئ بالتصدي السافر، الذي لا يعرف إلا نظرة إحقاق الباطل، وإبطال الحق، فأخذت الأساليب التالية:

١. التفاوض مع عمه أبي طالب:

فعن عقيل بن أبي طالب قال: لقد جاءت قريش إلى أبي طالب، فقالوا: إن ابنَ أخيك يُؤذينا في نادينا، وفي مجلسنا، فانهه عن أذانا، فقال: يا عقيل ائت محمداً، قال: فانطلقت إليه، فأخرجته من جلس، قال طلحة: نبتة صغيرة، فجاء في الظهر، من شدة الحر، فجعل يطلب الفيء، يمشي فيه من شدة الرمضاء، فأتيناهم، فقال أبو طالب: إن بني عمك زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم وفي مجلسهم، فانته عن ذلك، فحلَّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: ما ترون هذه الشمس ؟ قالوا: نعم، قال: ما أنا بأقدر على أن أدع ذلك

[1] أحمد، المسند (٥/٢٧٨).

منكم على أن تشعلوا منها شعلة، ، فقال أبو طالب: إن بني عمِّك زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم وفي مجلسهم، فانته عن ذلك، فحلَّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: ما ترون هذه الشمس ؟ قالوا: نعم، قال: ما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تشعلوا منها شعلة، فقال أبو طالب: ما كَذَبَنَا ابن أخي قط، فارجعوا.)[1]

لقد اعتبر كفار قريش دعوة رسول الله ﷺ أذى يصل إلى ناديهم ومجلسهم، فَقَلَبوا الحق باطلاً، والباطل حقاً، فلم يكن رسول الله ﷺ يُكْرِه الناس على أن يكونوا مؤمنين، بل كان يُعلن التوحيد ونبذ الشرك لمن شاء أن يستقيم؛ ويأخذ بهذه العروة الناجية. فكان هذا التفاوض مع عمه أبي طالب الذي جعله الله سنداً له وقوة بعد الله تبارك وتعالى. فلم يأخذ أبو طالب بكلام من جاءه من المشركين حتى سمع كلام رسول الله ﷺ وجوابه، وبالرغم من أنهم كُثُر، ولكنه لم ينظر لكثرتهم، وتظلمهم حتى سمع من ابن أخيه، فلما سمع منه العزم والتأكيد على هذا الأمر، وأنه ماض فيه ولا رجعة عنه، أعلن أبو طالب مؤكداً بما عُرف عن محمد ﷺ من الصدق النافي للكذب، فكان مفهومه منطوقه، أن لا عُدُول عن ما جاء بهﷺ.

إن هذه النظرة من عمه أبي طالب والمبنية على الدليل الراجح، بأن محمداً ﷺ لم يُعرف عنه الكذب، لتؤكد الأهمية البالغة للسلوك السابق للداعية والمربي والمسؤول أياً كان موقعه، ليجد من يؤازره ويشد عضده لما عُرِف عنه من سيرته العطرة، ونزاهته واستقامته.

ولقد كان الحزم في الموقف من رسول الله ﷺ بما لا يدع مجالاً للمساومة في الدين مهما كانت الظروف المواتية والمحدقة، وفي هذا درس عظيم بأنه يجب أن لا يتنازل المسلم عن دينه لأعداء الله تعالى، مهما كانت الأمور المحدقة بالإنسان، وأنه ليس في التنازل حكمة البتة، إذ لو كان فيها شيء من الحكمة لصنعه رسول الله ﷺ في ذلك الوقت العصيب الذي تمر به الأمة القليلة المستضعفة.

---

[1] الحاكم، المستدرك (٣/٥٧٧)

٢. مفاوضات عتبة بن ربيعة:

لقد عَرَض عتبة بن ربيعة على قومه من كفار قريش أن يذهب إلى رسول الله ﷺ ويفاوضه في أمور؛ لعله يقبل شيئاً منها، فَلَقِيَتْ فكرته تأييداً فقالوا: قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السِّطة[١] في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرَّقت به جماعتهم، وسَفَّهتَ به أحلامهم، وَعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وَكَفَّرْتَ به من مضى من أبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد، أسمع. قال: يا ابن أخي ! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا لأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً؛ سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يسمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: أفعل، فقال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾[٢] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عُتْبَة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت وأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به،

---

[١] السِّطة: الشرف.

[٢] سورة فصلت: الآيات (١-٥)

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوناً لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم، فإن تُصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعِزُّه عِزُّكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.[1]

لقد استخدم مشركو قريش في هذه المفاوضات مغريات عِظَام، ينكسر أمامها ذوو المطالب الدنيوية، من أصحاب الهوى والماديات، والباحثون عن المكانة الاجتماعية على حساب القيم والمبادئ. ولكنَّ نُبوةَ رسول الله ﷺ وصِدْقَه تُقدم لهم دروساً وعظات، بأن هذا الأمر أكبرُ من هذه العروض وهذه المغريات مجتمعة، إنها رسالة رب العالمين التي ينبغي أن يسلك منهجها كل مسلم على وجه البسيطة، بأن لا يقدم عَرَضَاً من أعراض الدنيا الزائلة على دينه، فيقبل الرشوة، والمحاباة للقريب على حساب العدل والأمانة، واختلاس الأموال العامة، واستثمار المناصب الإدارية والمكانة الاجتماعية لحفظ لذائذها ومفاتنها وبريقها على حساب الدين، وما تضمنه من وجوب العدل والأمانة والإخلاص وتقديم الأكفأ في الترقية وفي تولي المناصب. وكذلك أمانة المعلم في أداء دروسه ومهامه التربوية، وعدم تضييعها وتضييع أوقاته بما يحقق له المكاسب المادية على حساب ذلك الدور العلمي والتربوي الذي يضطلع به في أمته المسلمة. وهو أقرب فيما يقوم به من عمل تعليمي تربوي بعمل الأنبياء والمرسلين.

ولقد استخدم عتبة بن ربيعة مقدمة جذابة في عرضه على رسول الله ﷺ مبيناً منزلة الرسول ﷺ عند قومه ومكانته العالية، ومحاولة استعطاف الرسول ﷺ ولكنه عليه الصلاة

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (١/٣١٣،٣١٤)

والسلام لم يغتر بذلك الأسلوب ومضامينه، فهو الرسول الأمين. مما يفيد أن يقتدي المسلم بنبيه ﷺ فلا يغتر بزينة الحياة الدنيا ومغرياتها؛ ليتنازل عن شيء من دينه، فإن وسيلة التنميق؛ وزخرف القول؛ والإغراءات؛ تظهر في المواقف المختلفة؛ وتعترض طريق المسلم. والمسلمون أمناء على هذا الدين

ولم يقاطعه رسول الله ﷺ بالرغم من أن مطلع عرضه يدل على أنه لن يقبل شيئاً من ذلك البتة، بل كان أسلوبه ينم عن فضله وأدبه الجم ﷺ فتركه يسترسل في كلامه حتى أتمه. وكثير من الناس اليوم لا يأخذون بهذا الأدب العظيم، فيقاطعون المتحدث وإن كان زميلاً، أو صاحب علم وقَدْرٍ ومكانة، فكيف لو كان عدواً ؟ فعليك صلاة الله وسلامه يا رسول الله. ففي كل لحظة من لحظات حياة رسول الله ﷺ دروس وعبر، فقد كناه ﷺ : (يا أبا الوليد.) ثم يقول له: (أقد فرغت يا أبا الوليد ؟) فهو سؤال يدل على أدب الحديث الذي كان يتخلق به ﷺ حتى مع أعدائه، فعدم رضاه بتلك العروض لم يدفعه إلى الإساءة في المحادثة مع ذلك الكافر.

وعندما انتهى إلى السجدة سجد، ولم يمنعه حديثه مع الرجل أن لا يسجد، بل أدى ما ينبغي أن يؤديه لربه سبحانه وتعالى كما ينبغي. وكم من الناس يتناسى بعض العبادات لوجود بعض الناس عنده، فيؤخرها عن وقتها مجاراة لهم.

ثم يبين المقطع الأخير من محادثة عتبة لقومه التأثر الواضح بما سمع من كلام رب العالمين، فوصفه وصفاً رائعاً وعميقاً في معناه ودلالاته، إلا أن هذا الأمر لا يرضى به كفار قريش لتقديمها الهوى والباطل على الحق.

٣. المطالبة بالمعجزات:

لقد عمد كفار قريش إلى أسلوب آخر من المفاوضات، وهو المطالبة بالمعجزات، فقد قالت قريش للنبي ﷺ: أدع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، ونؤمن بك، قال: أتفعلون ؟ قالوا:

نعم. فدعا، فأتاه جبريل، فقال: إن الله يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أَصْبَحَ الصفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة، قال: بل باب التوبة والرحمة)[1]

إنه سؤال عظيم، ورحمة من رب عظيم، وترجيح واختيار من رسول رحيم عظيم، فلقد اختار ﷺ أبواب التوبة والرحمة التي لو أغلقت لهلك كثير من الناس، لعدم عصمتهم، وحاجتهم وافتقارهم لرحمة الله تعالى. وهكذا يكون المعلم والمربي، والوالد والمسؤول، يختار لمن هم تحت مسؤوليته ما يجلب لهم الخير والصلاح والفلاح، وأن يصبر عليهم، ولا يكون غاشاً لهم، أو يجلب لهم العاجل الفاني مما يرضون به، ويترك الخير الباقي مما يجهلون به، رغبة في استمالة عواطفهم لأمور وقتية، فإنها معادلة يتحراها ذوو الألباب من المؤمنين الصادقين في أداء مسؤولياتهم المناطة بهم: تربويةً كانت أو صحيةً أو اقتصاديةً أو علمية أو غير ذلك، فإن ذلك منهج نبوي كريم، فعليك صلاة الله وسلامه يا رسول الرحمة والهدى.

ومن الفوائد التطبيقية أن ينصح التاجر في تجارته للأمة، فلا يُظهر الرديء ويُغري به الضعفاء لقلة ما بأيديهم؛ ثم يخرج الحسن بعد أن قَصُرَت عن إطالته أيديهم، فالله خير هادي ومعين ونصير.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراء بينهما)[2]

وقد بين الله تعالى ذلك في كتابه العظيم فقال تعالى ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾[3]

---

(١) الحاكم، المستدرك (١/٥٣،٥٤)

(٢) البخاري (٣/٥٩) برقم (٣٨٦٨)

(٣) سورة القمر: آية رقم (١،٢)

وهكذا الجحود بعد أن رأوا المعجزة في انشقاق القمر، فقالوا: سحر مستمر، فكيف لو اختار رسول الله ﷺ أن يكون الصفا ذهباً وكذبوا بذلك ؟ ولكنه ﷺ رسول الهدى والرحمة، يصبر ولا يستعجل، ويختار لأمته الأصلح والأفضل.

٤. مسلك الجدال:

لقد أخذ مشركو قريش مسلك الجدال بغية الإفساد والصد، والبحث عن ما يقوي ويعضد صدودهم، قال تعالى﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[1]

إن الجدال الباطل مسلك الكفار والجهال والمعاندين، وكما يحدث في أمور التوحيد الذي هو إفراد الله بالعبادة، فإن الجدال يحدث في غيره؛ من قضايا الدين والدنيا، وإذا كان هذا هو مسلك شياطين الغواية الإنسانية، فإنه ليجدر بالمسلم أن يُدْرِك خطورة الجدال مع إخوانه بغية الانتصار عليهم بالرأي في محيط طلاب العلم، وبين الأصدقاء، وفي دائرة الاجتماعات الرسمية وغير الرسمية، وإن المسلك الصحيح هو الحوار الهادف من أجل الحق، وإحقاقه، فَلَكم ضاعت صداقات ومصالح بسبب الجدال الذي يرى صاحبه أن القوة في انتصار رأيه، وإن كان خاطئاً وعقيماً.

قال تعالى عن جدال الكفار ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةًۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[2]

فَمِنْ لطف الله تعالى ورحمته بنبيه ﷺ وحكمته جلَّ جلاله أن نَزَّل القرآن العظيم على عبده مُنَجَّمَاً، لِيُثَبِّتَ به فؤادَ رسوله ﷺ "لأنه كلما نزل عليه شيء من القرآن ازداد طمأنينة

---

(١) سورة الزخرف: آية رقم (٥٧.٥٨)

(٢) سورة الفرقان: آية رقم (٣٢)

وثباتاً، خصوصاً عند ورود أسباب القلق، فإن نزول القرآن عند حُدُوث السبب يكون له موقع عظيم، وتثبيت كثير، أبلغ مما لو كان نازلاً قبل ذلك"[1]

فلقد ثَبَّت الله تعالى قلب رسوله بالقرآن الكريم الذي به تَثْبُت قلوبُ المؤمنين عند تلاوته وتَدْبُرِه، لما فيه من المواعظ والإرشاد والترغيب والترهيب، وبيان حالات النفس البشرية، وما يعتريها من المنع والجزع والخوف والقلق والاضطراب، فيبين لها ما تَقِرُّ به النفس وتستريح، بمواعظه وأمثاله وقصصه.

ومن مجادلات المشركين سؤالهم عن الروح، قال تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[2]

ولقد بين الله تعالى بإجابة قاطعة أن الروح من علم الله تعالى الذي استأثر به. وبالتالي فإن الإنسان لا يستطيع أن يعرف كنه الأشياء جميعاً، فَعِلْمُه قاصر أمام علم الله تعالى غير المتناهي، فمهما بلغ الإنسان من العلم فإنه يجهل أكثر مما يعرف، وقد أرشد الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ إلى أن يطلب مزيد العلم ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [3]

فما أتى به ﷺ من العلم تفرعت فيه الفنون والتصانيف، وكثرت التخصصات، ومع ذلك علمنا مفتقر إلى علم الله تعالى في كل وقت وحين، فما نحتاج أن نتعلمه يلزم فيه أن نسأل ربنا تبارك وتعالى بقولنا ﴿ رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾

ومن تَعَنُّت الكفار وجدالهم وكبريائهم أن طلبوا من رسول الله ﷺ أن لا يجالسوا المستضعفين من المؤمنين، تكبراً واستعلاءً، فقد جاء في صحيح مسلم عن سعد قال: (كنا

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٤/٤٣٩)

(٢) سورة الإسراء: آية رقم (٨٥)

(٣) سورة طه: آية رقم (١١٤)

مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ : أُطْرُد هؤلاء لا يجترئون علينا) [1]فنتيجة التكبر وحب التفرد بالجاه والمكانة استصغروا الضعفاء من المؤمنين، ولكن الله تبارك وتعالى يرد عليهم بقوله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[2]

إن المقاييس البشرية تستحوذ عليها المادية البحتة، فقد تراعي ما يتراءى لها من مصالحها ومكانتها العاجلة، وتغفل عن المصالح والمكانة الآجلة. ولكن مقاييس الرب سبحانه وتعالى تعلو علواً عظيماً، فالمؤمنون المستضعفون خير وأحب إلى الله تعالى من كافر عاص؛ وإن كان سيداً في قومه، فإن مقاييس المادة تتضاءل أمام مقاييس العزيز الحكيم، وبالتالي فالمؤمن الفطن هو الذي يقيس أمور الدنيا بمقاييس الشريعة، التي هي المقاييس الإلهية الربانية.

وإنه لجدير بالمسلمين أن ينظروا إلى هذه المقاييس في تولي الأعمال والمهام والوكالات في جميع شؤون الحياة، وفي جميع مستويات وحقول العمل البشري. فالمستضعف من المؤمنين اليوم قد يكون كبيراً في الغد، فصلاح المؤمن يجلب الخير لمحيط العمل وميدان التسابق في الخيرات، وفي نفس الوقت تظهر أهمية التسابق في إصلاح الظاهر والباطن ليكون المؤمن جديراً بما يوكل إليه من أعمال.

ولئن تكبر المشركون عن مجالسة ضعفاء المؤمنين، فإنه يلزم المؤمن أن لا يحقر أخاه الضعيف من المؤمنين، فيسلك مسلك الكافرين في تكبرهم واستعلائهم، بل يسعى إلى مجالستهم ومؤاكلتهم ومخالطتهم وقضاء حوائجهم، اقتداء بهذا التوجيه الرباني العظيم، الذي يربي في قلوب أتباعه التواد والتراحم والتآخي والتواضع.

---

[1] مسلم (١٨٧٨/٤) برقم (٤٦. ٢٤١٣)

[2] سورة الأنعام: آية رقم (٥٢)

الهجرة إلى الحبشة :

لما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه رضي الله عنهم من البلاء والفتنة في دينهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من الله تعالى، ثم من عمه أبي طالب، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه.[١] فهاجر المسلمون الهجرة الأولى.

ولقد هاجر المسلمون من مكة إلى الحبشة مرتين، وذكر أهل السير أن الأولى كانت في شهر رجب من سنة خمس من المبعث، وأن أول من هاجر منهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وقيل وامرأتان، وقيل اثنى عشر رجلاً، وقيل عشرة، وأنهم خرجوا مشاة إلى البحر، فاستأجروا سفينة بنصف دينار.[٢]

ولما اشتد البلاء بالمسلمين أذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة الثانية، فكان جميع من لحق بأرض الحبشة، وهاجر إليها من المسلمين، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً وولدوا بها، ثلاثة وثمانين رجلاً[٣]

وإن في الهجرة تَغَرُّب عن الْمَوَاطِنِ والأوطان، ومهد الذكريات، والمصالح والأخوة والخلان، وإنها لمن أصعب القرارات، ولا سيما إذا كانت البلاد المهاجَرُ إليها مختلفة في الحال والطباع، وبالتالي لن يَقْدِمَ إليها إلا من رأى رجحان مصلحة الهجرة والترحال. وما إقدام أصحاب رسول الله ﷺ إلى الهجرة إلا بعد أن رأى رسول الله ﷺ في ذلك منفعة لإقامة دينهم وحفظه، والخروج من التضييق والتعذيب إلى بلد لا يُظلم فيها أحد، بل إن في قرار هجرتهم أمر عظيم؛ وهو خروجهم من موطن فيه رسول الله ﷺ يعيشون معه؛ ويتلقون خبر السماء

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (١/٣٤٤)

[٢] ابن حجر، فتح الباري (٧/١٨٨)

[٣] ابن هشام، السيرة النبوية (١/٣٥٣) وابن حجر، فتح الباري (٧/١٨٩)

منه؛ ويعايشون أخلاقه وآدابه؛ ويستأنسون بمجالسته وسماع حديثه، ولكنه القرار الذي ينتفع به هذا الدين، فيقدمونه على رغباتهم وحاجاتهم الشخصية.

إن هجرتهم تعني التربية على الطاعة في المنشط والمكره، فكيف لو قارن المتكاسل عن أداء العبادات هذا التكاسل والخمول بهجرتهم رضي الله تعالى عنهم.

وإن هجرتهم تعني أن ما أصابهم من قومهم المشركين بلاء عظيم، وفي هذا من التعدي عليهم وعلى مصالحهم وحرياتهم ما لا يطاق؛ مما دفعهم للهجرة عن موطنهم، وكان من حقهم الدفاع عن أنفسهم، ولكن رسول الهدى والرحمة لم يرب فيهم حب الانتقام للنفس، ويثير فيهم نزعة الحقد لقومهم والقتل والاغتيال.

فلم يعالج الأمر ﷺ بتربيتهم على التنكيل والدسائس، ونشر النهب والسلب في ربوع قومه بمكة الآمنة، والتي لو اتخذها سبيلاً لكان لهم في ذلك العذر، ولكنه يعلن ﷺ بهذا القرار الذي أشار به على أصحابه؛ أن هذا الدين هو دين الرحمة؛ دين إخراج الناس من الكفر والضلال إلى الحق والفلاح بِسُبُل السلام. كما يعلن أنه ليس من أهدافه ﷺ تصفية الخصوم. فعندما خُيِّرَ رسول الله ﷺ من ربه ﷻ بأن يجعل للمشركين الصفا ذهباً، لما طلبوا ذلك، على أن يعذبهم عذاباًَ لا يعذبه أحداً إن لم يستجيبوا لدعوته، وبين أن يختار لهم قبول التوبة والرحمة، فاختار الثانية التي تؤكد، أن الهدف ليس هو الانتصار للنفس، بل إن الهدف هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور. وعندما فتح مكة قال لهم عليه الصلاة والسلام: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وإن هذه السمة الإسلامية تربي في المسلمين الرحمة والشفقة، وعدم العنف ما كان لذلك سبيلاً، وأن الإسلام دين الأخلاق التي لم تعرفها حضارات الدنيا قاطبة، تلك التي اتخذت من القهر والتنكيل والاضطهاد سبيلاً إلى تحقيق أهدافها وانتصاراتها.

إن الإدراك التربوي لهذه المعاني يعزز ويوجب على من تقوم على عواتقهم العملية التربوية أن يغرسوا هذا في أذهان الناشئة، وفي كل أطوار عمر الإنسان المختلفة.

إن مما ينبغي أن تدركه المنهجية التربوية أهمية معرفة أهداف دينهم المتعلقة بغيرهم، وسُبل تحقيقها، وفق منهجية الإسلام وهديه، وليس وفق الآراء والأهواء في معزل عن منهجيته ﷺ القولية والعملية والتقريرية.

ولئن كان من سُبُل المستضعفين استخدام الاغتيال وقطع الطريق والمصالح في ظلمة الليل؛ وغفلة الغافلين، فإن رسول الله ﷺ لم يعمد إلى شيء من ذلك، وإنما سلك الأساليب التي تبني الإسلام وتحقق له القبول عند الناس حتى عند أعدائه، وهذا هو منهج الأنبياء عليهم السلام، قال الله تعالى لموسى في دعوة فرعون ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾(١) فَعِلَّة القول اللّين للعدو أو الجاحد؛ لَعَلَّه يذَّكر أو أن يخشى، والغلظة مانعة لذلك، ولا تحقق الهدف.

فمعرفة الهدف على حقيقته يحرك السلوك والتصرف والقرارات الحراك الصحيح، الأمر الذي ينبغي أن تعنى به التربية العملية. وعلم الإدارة، والاقتصاد، والسياسة، وفي جميع المجالات البشرية.

التصدي للمسلمين في موطن هجرتهم

وعندما نزل المسلمون بأرض الحبشة وجدوا فيها ما قاله ﷺ إن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، تقول زوج النبي ﷺ أم سلمة رضي الله تعالى عنها[1]: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أَمِنَّا على ديننا، وعبدْنا الله تعالى لا نُؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين،

---

(١) سورة طه: آية رقم (٤٤)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/٣٥٨-٣٦٢)

وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيهم منها الآدم، فجمعوا له آدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص........ فلما دخلوا على النجاشي قالا له: إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت..... ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا: نقول والله ما عَلِمْنَا، وما أَمَرَنَا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن .... فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب: فقال له: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القويُ منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .....فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا.... فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا؛ خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك. قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ قالت: قال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأ عليَّ، قالت: فقرأ عليه صدراً من (كهيعص) قالت: فبكى والله النجاشي، حتى أخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فوالله لا أُسلمهم إليكما؛ ولا يُكادون.

إن هذا الموقف والحوار والقرار من الملك النجاشي يعطي دروساً تربوية واجتماعية عظيمة، فلقد استخدم المشركون وسيلة الهدية التي يطمعون من خلالها الولوج إلى قلب النجاشي وأتباعه، كما استخدموا قوة الكلمة والحجة واللسان والدهاء، من خلال إرسال رجلين لهما في تلك الصفات شأن عظيم، واستثاروا القلوب بالحجة التي تُظهر الكراهية في قلب النجاشي؛ بأن المهاجرين ليسوا على دين النصرانية.

إنه أسلوب حواري بالغ القوة، ولكنهم وافقوا مَلِكَاً حكيماً يدفع بمحبته للعدل: المكر والدهاء والهوى. فلم يتأثر بذلك كما تأثر بطارقته، بل استمع إلى المدَّعى عليهم، وسمع حجتهم ومحجتهم، ثم اتخذ القرار الذي يتوافق مع العدل والإنصاف لا مع الهدايا وثوران العواطف والأهواء.

إن هذا الأسلوب النجاشي ينم عن إدارة وسياسة حكيمة فذة، نتيجة تربية سابقة؛ وتوفيق من الله تعالى قبل ذلك، فتكونت هذه الشخصية التي تنظر إلى الأمور بعين العدل والإنصاف، مع عدم الاكتراث برأي البطانة إذا كانت مخالفة للحق والصواب.

إن الإدارة التي تُدير أمور الحياة الاجتماعية على هذا النسق لتربي فيمن يتعامل معها الحكمة وفعل الصواب، مع البحث عن الحقيقة؛ والسير معها وفي محورها، وإنها لتربي فيمن يتأملها أهمية النظرة الشمولية لعناصر القضية الواحدة؛ دون الاكتراث بالزاوية الأُحادية التي قد تتقدم على الزوايا الأخرى.

وإن القائد التربوي والإداري الناجح أياً كان موقعه؛ عندما يدرك هذا المحور الإداري يحقق نجاحاً إدارياً بالغاً، ويغرس فيمن يعملون معه تلك الخصال الإدارية المهمة.

والأعجب من ذلك تلك التربية النبوية التي جعلت من أولئك الصحب الكرام ـ رضي الله تعالى عنهم ـ وهم في أحلك المواقف وأصعبها، يتخذون قراراً: هو قول الحقيقة على ما كان من رسول الله ﷺ مهما كانت النتائج. فهم بين أن يُرَدُّوا إلى قومهم فينتقموا منهم شر

انتقام، وبين أن يقولوا الصدق والصواب؛ كما علمهم نبيهم ﷺ ولو حصل ما تكرهه النفوس. فكل أحد من الناس عندما يتعرض لفتنة تصيبه غالباً ما يفكر في المخارج والْحِيَل التي تُخرجه مما هو فيه، ولكن أصحاب رسول الله ﷺ لم يطل بهم المقام التفكيري والتأملي؛ بحثاً عن حيلة الخلاص من دهاة قريش، فقالوا: نقول والله ما عَلِمْنَا، وما أَمَرَنَا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن.

إن هذا القرار المصيري لا يمكن أن يصدر إلا من مؤمنين، قد تربوا تربية إسلامية عالية وغالية، ومن سيد المربين ومعلمهم وقدوتهم، حيث تربوا على الصدق والاعتماد على الله تعالى وليس على ظاهر الأسباب والحيل، الأمر الذي دفعهم إلى قول الصدق والحق.

وإن هذا الثبات ليؤكد حقيقة التربية الإسلامية؛ ونتائجها اليانعة إذا ما اهتم بها الحاكم والمجتمع ومؤسساته كاملة، حتى تُجْنَى ثمارها التي يزدهر بها في جميع شؤونه ومجالاته، فلا يجد إلا الصدق والأمانة والإخلاص التي ينموا بها الاقتصاد، وتزدان بها السياسة، ويندحر بها الانحراف، وتسود بها الفضيلة، وتنكشف بها الغمة، ويحل بها الرخاء.

وإن هذا الموقف ليؤكد أخلاق الإسلام النبيلة، الذي ينبذ الكذب والزيف والخداع، ويجعل مسلكه في الخروج من المآزق والأزمات الصدق مع الله تبارك وتعالى، وبالتالي لا تخاف المجتمعات ولا الحكومات غير الإسلامية عندما تتعامل مع المسلمين؛ إذا ما ظهروا بأخلاق الإسلام وهديه، بل إنهم ليدعونهم بأخلاق الإسلام إلى هدي الإسلام؛ وبروح الإسلام إلى دين الإسلام.

وأما إذا ظهر المسلمون بأضداد أخلاق الإسلام وهديه، فإنهم يَشُدُّون عضد أعداء الإسلام ضد الإسلام، ويُكثرون عددهم، ويوسعون مساحتهم، ويستجلبون عداوتهم لدين الله تعالى، ويسهمون في حجب الإسلام؛ وإقصاء الدعوة ودحرها، والله تبارك وتعالى أراد بهذا الدين إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وليس إبقاءهم في ظلمات الكفر والضلال. كما

أن الإسلام ينتشر بمبادئه وأخلاقه ونوره؛ لا بقوة السلاح والعتاد، وإن كانت مطلوبة أشد الطلب لحفظه وحفظ أتباعه، وليس من أجل إدخال الناس في رحابه. فالناس لا يدخلون في دين الله تعالى بالقوة والإجبار؛ بل بالرغبة والاختيار.

فلما كان الغد جاء عمرو إلى النجاشي؛ وقال له: إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فاستدعاهم النجاشي. وعندما جاؤوه سألهم عن قولهم في المسيح. فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا، هو عبدالله ورسوله، وروحه؛ وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشي بيده إلى الأرض؛ فأخذ منها عوداً، ثم قال والله ما عدا عيسى ما قلت قدر هذا العود. فتناخرت بطارقته، فلم ينظر إلى ذلك، فقال: اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي، واشيوم: بمعنى :الآمنون.

ومما سبق يمكن استخلاص قواعد العملية التربوية والتنشئة الاجتماعية، وهي:

- غرس لزوم الصدق في المنشط والمكره.
- التنشئة على عدم تقديم الرأي على توجيهاته ﷺ
- لزوم القائد الحيطة والحذر في اتخاذ القرار.
- عدم الاغترار بسبق الخبر، وتقديم قاعدة التثبت في الخبر.
- عدم الاكتراث برأي المجموعة حال مخالفتها قاعدة شرعية أو أصولية.
- التربية الجادة تُنْجِب شخصيات جادة.

إسلام حمزة ﷺ

عن يعقوب بن عتبة[1] أن أبا جهل اعترض لرسول الله ﷺ بالصفا؛ فآذاه. وكان حمزة ﷺ صاحب قنص وصيد، وكان يومئذ في قنصه...

يبين هذا المقطع من الرواية وجهاً وصورة من صور الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي في مكة، من القنص والصيد.

ثم يقول عقبة بن عتبة في روايته عن إسلام حمزة ﷺ ...فلما رجع قالت له امرأته؛ وكانت قد رأت ما صنع أبو جهل برسول الله ﷺ : يا أبا عمارة ! لو رأيت ما صنع ـ تعني أبا جهل ـ بابن أخيك. فغضب حمزة ومضى كما هو قبل أن يدخل بيته، وهو معلق قوسه في عنقه، حتى دخل المسجد...

ويفيد هذا المشهد من الرواية ما كان يجده رسول الله ﷺ من أذى قومه، وكذا قدر محبة حمزة لرسول الله ﷺ حيث غضب لما عرف من أمر ابن أخيه، فتوجه إلى المسجد قبل أن يدخل بيته، مما يفيد أهمية ترتيب الأولويات، وتقديمها على الراحة والاستجمام.

ثم يبين يعقوب بن عتبه ما دار في المسجد، فيقول: ...فوجد أبا جهل في مجلس من مجالس قريش، فلم يكلمه حتى علا رأسه بقوسه، فشجه، فقام رجال من قريش إلى حمزة يمسكونه عنه، فقال حمزة: ديني دين محمد، أشهد أنه رسول الله، فوالله لا أثني عن ذلك، فامنعوني من ذلك إن كنتم صادقين.

فلما أسلم حمزة عزَّ به رسول الله ﷺ والمسلمون، وثبت لهم بعض أمرهم، وهابت قريش، وعلموا أن حمزة ﷺ سيمنعه.[2]

---

(1) الهيثمي، مجمع الزوائد (٢٦٧/٩) وقال: رواه الطبراني مرسلا، ورجاله ثقات، وقال عن رواية مماثلة لهذه عن ابن شهاب في تسمية من شهد بدراً، قال عنها: رواه الطبراني مرسلاً ورجاله رجال الصحيح.

(2) الهيثمي، مجمع الزوائد (٢٦٧/٩) وإلى هنا انتهت الرواية.

ويفيد هذا أهمية إسلام حمزة رضي الله عنه وما كان يشكله من قوة ونصرة لرسول الله ﷺ وللدعوة الإسلامية. مما يبين أهمية استقطاب القوى المؤثرة في المجتمع، لتكون مكاسب للدعوة والداعية؛ وعدم التغافل عنها. كما تفيد هذه الحادثة وتبين أن الهداية بيد الله تعالى، حيث هدى الله تبارك وتعالى حمزة بهذا السبب. ومن الفوائد كذلك: أهمية الصبر في المجال الدعوي، وأن العقبات لا تكون معوقاً أمام الداعية، كما فعل رسول الله ﷺ إذ لم يجعل مما يواجهه من صعوبات وعقبات أعذاراً للتوقف عن نشاطه. بل كان صابراً ناشطاً.

وكذلك من الفوائد: قوة حمزة رضي الله عنه ومكانته في قومه، إذ يواجههم بِتَحَدٍّ واضح لهم، حيث يقول لهم: فوالله لا أثني عن ذلك، فامنعوني من ذلك إن كنتم صادقين.

وفي هذا الصنيع من حمزة رضي الله عنه كسر لجبروت أبي جهل المتسلط في أهل مكة. وبيان للجميع عن بداية تحول بعض الأقوياء من قريش إلى صفوف المستضعفين من المسلمين، الذين استضعفوا بقوة أقوياء الشرك، فصبروا على ذلك.

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عن أم عبد الله بنت أبي حثمة[1] قالت: والله إنَّا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا؛ إذ أقبل عمر حتى وقف عليَّ وهو على شركه، قالت وكنا نلقى منه البلاء، أذى لنا؛ وشراً علينا.

فيبين هذا المقطع من هذه الرواية ما كان عليه عمر رضي الله عنه من الشدة على المسلمين، وبغضه للإسلام، ولكن الله تعالى أراد له الخير. فتقول أم عبد الله في روايتها: فقال: إنه الانطلاق يا أم عبد الله ! قالت: قلت نعم؛ والله لنخرجن في أرض الله؛ آذيتمونا وقهرتمونا،

---

(1) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة (٢٧٩/١) وقال محقق الكتاب الشيخ/وصي الله بن محمد عباس: اسناده حسن.

حتى يجعل الله لنا مخرجاً. قالت: فقال: صحبكم الله. ورأيت له رقة؛ لم أكن أراها. ثم انصرف، وقد أحزنه فيما أرى خروجنا.

ويبين هذا المشهد من المحادثة مع عمر بن الخطاب حجم المعاناة العظيمة التي كان يلقاها المسلمون من المشركين، حتى بحثوا عن الأمن لدينهم وأنفسهم في بلاد الغربة. وكذلك يفيد هذا المشهد الحالة النفسية لعمر بن الخطاب ﷺ من أن جانب الرقة قد دخل قلبه؛ فأصبح له حظ في فؤاده، بالرغم من شدته على المسلمين. ورغبته عن الإسلام كما تفيد تمام رواية أم عبد الله، حيث تقول: فجاء عامر من حاجتنا تلك، فقلت له: يا أبا عبدالله ! لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا. قال: أطمعت في إسلامه ؟ قالت: قلت: نعم. قال: لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب. قالت: يأساً لما كان يرى من غلظته وقسوته عن الإسلام.

وهكذا يبين هذا الخبر مقدار اليأس من إسلام عمر بن الخطاب ﷺ لِمَا كان من شدته نحو الإسلام، ولكن إرادة الله تعالى، ودعاء النبي ﷺ الذي تحول به عمر ﷺ إلى مسلمٍ مناصرٍ للإسلام وأهله، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال (اللهم أعز الإسلام بأبي جهل بن هشام أو بعمر، قال: فأصبح فَغَدا عمر على رسول الله ﷺ فأسلم)[1] وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب، قال: وكان أحبهما إليه عمر)[2]

---

(١) الترمذي (٥/٥٧٧) برقم (٣٦٣٨)

(٢) الترمذي (٥/٥٧٦) برقم (٣٦٨١)

لقد كان إسلام عمر بن الخطابﷺ قوة للإسلام، حيث رفع الله تعالى به راية الإسلام والشدَّة الملقاة على ضعفاء المسلمين، فعن عبدالله بن مسعودﷺ قال (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر)[(١)]

فبرجل واحد يدخل الإسلام تتقوى به أمة التوحيد القليلة المستضعفة؛ ليؤكد أهمية استقطاب العناصر الفاعلة المؤثرة وإن كانت قليلة، وعدم الزهد فيها لانكفافها وبعدها، بل ينبغي البحث عنها، والدعاء والالتجاء إلى الله تعالى بأن يقوي الأمة بالأقوياء من أبنائها. فكيف اليوم والأقوياء في الأمة كثير جداً ؟ ولكنهم في بُعْدٍ عن المجال الدعوي، أفليس هذا أجدى بأن يَلتجئ أهل الصلاح إلى الله تعالى بطلب انجذاب أولئك الأقوياء بأموالهم؛ أو مكانتهم الاجتماعية؛ أو السياسية والحنكة الإدارية؛ بأن يسخرهم الله تعالى للانضمام إلى كوكبة المصلحين في الأمة، ومحاولة استقطابهم، بدعوتهم وتقريبهم حتى يزدادوا صلاحاً؛ فيكونوا مصلحين. فلقد دعا رسول الله ﷺ أن ينصر الله تعالى الإسلام بأحب الرجلين إلى الله تبارك وتعالى.

إن انضمام الأقوياء إلى مناشط الأعمال الخيرية والتعليمية والتربوية والاجتماعية والإدارية أمر في غاية الأهمية، ويلزم البحث عنهم واستقطابهم، إذ تتقوى بهم تلك الجهات؛ وكذا منابر الخير والعلم؛ وعدم الزهد فيهم، ولا يلزم من ذلك أن يمارس أولئك الأفراد العمل الأصلي في ذلك المجال إن كانوا لا يُحسنونه، بل قد يكونوا داعمين لذلك المجال بالكلمة أو التواجد المعنوي أو المال أو الجاه، وإنه لأمر مهم تغفل عنه دوائر الخير والصلاح.

ويستفاد من ذلك الأهمية الكبيرة في الاحتفاظ بالعناصر الجادة؛ سواء كانت في الجانب العلمي أو الإداري أو في مجال الرأي والشورى، وعدم إهمالها، أو إقصائها بسبب تقدم السن، أو الحسد، أو عدم الاكتراث بهم، لوجود العناصر الشابة، أو الأكثر نشاطاً

(١) البخاري (٥٧/٣) برقم (٣٨٦٣)

وأداء، فَلَصَاحِبُ علم مُبَرِّزٍ في دائرة علمية؛ مع كِبَرٍ في السن لا يعمل به إلا قليلاً؛ فيعطيها بتواجده وانتمائه قوة ومكانة؛ خير من أن يُهمل ويقصى؛ لقلة إنتاجه وهوان سنه.

محاصرة شعب أبي طالب:

في أول يوم من المحرم سنة سبع من البعثة، دخل المسلمون شعب أبي طالب، حيث رأت قريش أن الصحابة قد نزلوا أرضاً أصابوا بها أماناً، وأن عمر أسلم، وأن الإسلام فشا في القبائل؛ فأجمعوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ...[(١)]

يبين ويفيد هذا مدى انتشار الإسلام في القبائل، ومعرفة الناس بخبر نبوة المصطفى ﷺ وذلك خلال سبع سنوات من مبعثه عليه الصلاة والسلام. ويؤكد هذا أهمية الزمن في تحقيق الأهداف، والصبر على المصاعب والمشاق، وأن الحق له من يعارضه؛ ويصد عنه. وكذلك أهمية الأرض الآمنة للجانب الدعوي، لحماية الضعفاء. وأهمية الأعوان الأقوياء في تحقيق الأهداف، وفيه كذلك عناية المنهج الإسلامي بالسنن الاجتماعية، والأخذ بها؛ وعدم إهمالها، مثل: وجود الأذى وتحمله، والعمل والصبر على مشاقه، والبحث عن الأسباب والأخذ بها، فلم يعطل ﷺ هذه السنن بانتظار النصر من دون الأخذ بها، وهو المرسل من الله تعالى، القادر على كل شيء سبحانه وتعالى.

فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني المطلب فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم؛ ومنعوه ممن أراد قتله، فأجابوه إلى ذلك حتى كفارهم، فعلوا ذلك حمية على عادة الجاهلية.[(٢)]

[(١)] ابن حجر، فتح الباري (١٩٢/٧-١٩٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٣٧٥/١-٣٨٠) (١٤/٢-٢١)

[(٢)] المرجعان السابقان: الفتح (١٩٢/٧-١٩٣) والسيرة النبوية (٣٧٥/١-٣٨٠) (١٤/٢-٢١)

ويبين هذا أهمية الأسباب والأخذ بها، وكذلك أهمية الدعم والمناصرة من الغير، وكيف أن الله تبارك وتعالى سخر لنبيه أنصاراً ممن لا يُدينون بدين الإسلام، حمية على عادة الجاهلية.

وهذا يفيد أهمية اعتضاد الدعاة بالدولة المسلمة، لكي يتقوى بها الدين وينتصر. وأن الفصام بين الدعاة والدولة المسلمة لا يحقق القوة للدين حتى ينتصر، فالدين دين الله تعالى؛ والنصر من الله العظيم، ولكن الله جعل سنناً، إذا أخذ بها المسلم مع التوكل على الله تعالى نال مراده إذا شاء الله سبحانه وتعالى.

وبلغت هذه المقاطعة ذروتها وجبروتها؛ بأن أجمعوا أن يكتبوا بينهم وبين بني هاشم والمطلب كتاباً؛ أن لا يعاملوهم ولا يناكحوهم حتى يُسَلِّموا إليهم رسول الله ﷺ ففعلوا ذلك، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، وكان كاتبها منصور بن عكرمة، وقيل غيره، فَشُلَّت أصابعه.(١)

ويبين هذا المسلك الشدة في المقاطعة والمحاربة لهذا الدين، والمصاعب التي واجهت النبي ﷺ في أمر دعوته، وقابل ذلك بالصبر والاجتهاد والأخذ بالأسباب. وكذا يبين ذلك العقوبة التي نزلت بكاتب الصحيفة الظالمة، مما يفيد خطورة الظلم والمشاركة فيه، وأن الله تعالى قد يُعجل العقوبة للظالم، أو بشيء منها.

فانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فكانوا معه كلهم إلا أبا لهب فكان مع قريش. فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً.(٢)

---

(١) المرجعان السابقان: الفتح (١٩٣.١٩٢/٧) والسيرة النبوية (٣٨٠.٣٧٥/١) (٢١.١٤/٢)

(٢) المرجعان السابقان: الفتح (١٩٣.١٩٢/٧) والسيرة النبوية (٣٨٠.٣٧٥/١) (٢١.١٤/٢)

ويفيد هذا طول الفترة الزمنية من البلاء والابتلاء التي صبر عليها رسول الله ﷺ ومن معه في الشعب. مما يؤكد ويبين أن الابتلاء لا يعني في كل الأحوال الجفاء من الله تعالى لعبده أو لعباده، فلله الحكمة البالغة والإرادة المطلقة.

وتقول روايات السيرة النبوية: لم يكن يأتيهم شيء من الأقوات إلا خفية، حتى أنهم كانوا يؤذون من اطلعوا على أنه أرسل إلى بعض أقاربه شيئاً من الصلات، إلى أن قام في نقض الصحيفة نفر من أشدهم في ذلك صنيعاً هشام بن عمرو بن الحارث العامري. فكان يصلهم وهم بالشعب. ثم مشى إلى زهير بن أبي أمية، فكلمه في ذلك؛ فوافقه، ومشيا جميعاً إلى المطعم بن عدي؛ وإلى زمعة بن الأسود، فاجتمعوا على ذلك. فلما جلسوا بالحجر، تكلموا في ذلك وأنكروه، وتواطئوا عليه. فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل. وفي آخر الأمر أخرجوا الصحيفة؛ فمزقوها، وأبطلوا حكمها، وذكر ابن هشام: أنهم وجدوا الأرضة قد أكلت جميع ما فيها إلا اسم الله تعالى. وأما ابن إسحاق وموسى بن عقبة، وعروة فذكروا عكس ذلك: أن الأرض لم تدع اسماً لله إلا أكلته، وبقي ما فيها من الظلم والقطيعة، فالله أعلم.[1]

إن المحن والمصائب والتمحيص يُساير المسلم والأمة في كل مكان وزمان، حتى خير الأمة التي ضمت رسول الله ﷺ ينوبها من المحن الشدائد العظام.

فرسول الله ﷺ وهو النبي المجتبى يُبتلى ويصبر ولا يثنيه شيء من المصاعب والشدائد، فلم يستسلم لأحد ولا لجماعة مهما كانت قوتها وجبروتها، بالرغم من تكاتف الأعداء عليه وعلى من أسلم.

وفي نفس الوقت تتجدد المعاملة الكافرة في الأزمان والأمكنة، من شَنِّ المقاطعة والتجويع، والمقاطعة اجتماعياً واقتصادياً، والتكاتف ضد الإسلام وأهله، رغبة في صد أهله عنه، والنكوص إلى الكفر والشرك والجهل.

(١) المرجعان السابقان: الفتح (١٩٣،١٩٢/٧) والسيرة النبوية (٣٨٠،٣٧٥/١) (٢١،١٤/٢)

كما أن فلول الكفر تتجمع وتتحد لمنازلة الإسلام وأهله، بغية انحطاطه ودحره وهزيمته.

ومما تكتنزه لنا السيرة النبوية العطرة من دروس وعبر، هو الصبر على البلاء مهما طال زمنه وقويت شدته، فعاقبته النصر والظفر والعزة، وعدم الانكسار للباطل وأعوانه، والتأثر بعتاده وقوته.

إن هذا الحصار لم يكن لأشهر، بل كان لسنتين أو ثلاث، وإنه لزمن طويل، وأمر عصيب.

وفاة أبي طالب وخديجة:

ومات أبو طالب بعد أن خرجوا بقليل، وماتت خديجة أم المؤمنين أيضاً في ذلك العام. فنالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تنله في حياة أبي طالب.(١)

فقد يَعْقبُ الشدة بريق من الأمل والفرج، ثم تعقبه شدة أخرى، ولذلك لا تبتئس الأمة المسلمة بما يصيبها من ويلات ونكبات، فسيعقب ذلك نصر وعزة وتمكين، فما أن خرج رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم من هذا الحصار الغاشم إلا ويتوفى اللهُ عَمَّه أبا طالب، وزوجه خديجة رضي الله عنها، وذلك في عام واحد. وإنه لابتلاء يلقاه رسول الله ﷺ وهو نبي؛ فكيف بمن هو دونه ؟ قال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ (٢)

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٥٨.٥٧/٢)

(٢) سورة البقرة: آية رقم (٢١٤)

لقد وجد النبي ﷺ على فقد عمه وزوجه وجداً شديداً؛ حتى سمي ذلك العام بعام الحزن، إلا أن ذلك لم يكن عائقاً أمام مواصلة السير في أداء واجب الرسالة.

وإن ما نالته قريش من رسول الله ﷺ بعد وفاة عمه وزوجه رضي الله عنها لدليل على أهمية القوة للدعوة الإسلامية والداعية، سواء كانت قوة مادية أو معنوية أو سياسية، ولهذا يلزم التظافر بين عامة المسلمين والدعاة وقيادتهم السياسية التي يتقوون بها، والعمل على توحيد الجهود، كما يجب استقطاب السياسة والسياسيين لصفهم؛ واعتبارها قوة يُستعان بها على نصرة الإسلام، وإن من أخطر الأمور استعداء الحكومات المسلمة؛ والوقوف ضدها. فالحكومة المسلمة لها من القوة والنفوذ ما يجعلها سياجاً قوياً للإسلام، وبالتالي فإنه يجدر بالدعاة العمل من خلالها.

ويقاس على ذلك استقطاب أهل المكانة والقوة والفضل ممن يؤمل فيهم الخير، وذلك في كل أمر من أمور الدنيا والآخرة، إذا كان في استقطابهم مصلحة للإدارة أو التجارة أو لمصحة أو لمراكز البر والجمعيات الخيرية، ومن الشواهد على ذلك إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث كان إسلامه فتحاً وقوة ونصرة للمسلمين، وهو فرد واحد، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر) [١] وشرط هذا الاستقطاب أن يكون على منهج الله تعالى.

---

[١] البخاري (٥٧/٣) برقم (٣٨٦٣)

الخروج إلى الطائف:

ذكر ابن إسحاق[1]: لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمِّه أبي طالب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يتلمس النصرة من ثقيف، والمنَعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاء به من الله ﷻ ، فخرج إليهم وحده.

وهكذا الضعف في كل وقت وحين يُغري أهل الباطل والشرور؛ ليتمادوا في طغيانهم وجبروتهم، ولذلك لا بد لأهل الحق من التقوي، والمحافظة على القوة ومصادرها؛ حتى لا يطمع الطامعون. وإنَّ ما مَرَّ به رسول الله ﷺ في هذا الموقف؛ وفي غيره من المواقف؛ ليعطي دروساً عظيمة في هذا الأمر.

وإن الله تعالى لقادر على نصر رسوله ﷺ من أول لحظه من لحظات البعثة النبوية المباركة؛ دون أن يتعرض لهذه العقبات، ولكنها تربية الله تعالى لأمة الإسلام؛ من خلال منهج النبوة في الدعوة والصبر، والأخذ بالأسباب، والعلم بأن الأنبياء ليسوا مستثنين من الشدائد؛ بل ما يصيبهم من أذى أقوامهم الكافرين شيء غير يسير.

ولئن صبر رسول الله ﷺ على قومه بهذه الصور المتعددة من ألوان الأذى؛ ليَحْسُن بالقائمين على أمور التعليم والتربية أن يصبروا على مشقة التعليم والتربية والتوجيه، فما يجدونه من مصاعب ومتاعب لا يوازي شيئاً أمام ما واجهه رسول الله ﷺ وكذلك المرء في بيته ومع أهله؛ من زوجة وأبناء وغيرهم، ويمتد ذلك إلى الإداري والمدير والمسؤول والوزير، والحاكم والوالي فيما يجد من مشقة وعناء، فيتذكر صبر رسول الله ﷺ على ما وجد ولقي في رسالته من المتاعب والمصاعب.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٢/٦٠-٦٢)

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عَمَد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عُمير، ومسعود بن عمرو بن عُمير، وحبيب بن عمرو بن عمير، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله تعالى، وكلمهم بما جاءهم له من نُصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك. فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خبر ثقيف، فقال لهم : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ ذلك قومه عنه فيثيرهم ويجرئهم عليه.

فلقد أخذ رسول الله ﷺ بأسباب النصر والقبول ولم ييأس عليه الصلاة والسلام، وتكبد المشاق والأذى، مما يؤكد أهمية قوة العزيمة، والبحث عن أسباب الخير والنجاح، وعدم الركون والاستسلام للمصاعب التي تواجه المسلم في أموره مهما كانت الأسباب، وفي جميع مجالات الحياة، طالما أنها خير وصلاح. ولا يغتر المسلم برد أهل الكفر والفسق، بل يحيد عنه ويبحث في غيره، فالأسباب من مطالب أعمال البشر والتوفيق من الله تعالى؛ يأذن به متى شاء سبحانه وتعالى، ولا ينتظر المسلم النجاح والقبول من أول مرة، فقد تكون هناك كبوات، فيصبر كما صبر نبي الله ورسوله ﷺ

كما أن العدو لا يكتم سراً. فقد أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل عنب فجلس فيه ﷺ

فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: (اللهم أشكو إليك ضعف قوتي؛ وقلة حيلتي؛ وهواني على الناس؛ يا أرحم الراحمين؛ أنت رب المستضعفين؛ وأنت ربي، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد

يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملَّكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة؛ من أن تنزل بي غضبك، أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.)[١]

وهكذا يعلمنا رسول الله ﷺ بهذا الدعاء والانكسار إلى الله تعالى؛ كيف يكون المسلم مع ربه ﷻ فقد رفع أمر الضعف وقلة الحيلة والهوان على الناس لأرحم الراحمين؛ ورب المستضعفين، وأن ما يلقاه المسلم من المعاناة والتعب والمصائب توجب عليه أن لا يسخط، ولا يظن بربه إلا خيراً، وأن كل الابتلاءات تتضاءل إذا كان ليس سببها غضب الرب سبحانه وتعالى، ولكن عافية الله تعالى ورحمته هي الأوسع للإنسان من ابتلاء وعقاب الرب جل جلاله، فما بال الذين يظنون بأنفسهم خيراً ؟ ويقولون عند الابتلاء: يا رب ماذا صنعت حتى يحل عليّ هذا البلاء؟ فيبادر بتزكية النفس قبل أن يفتش عن ذنوبه وتقصيره، فكم في هذا الدعاء من دروس الأدب مع الرب سبحانه وتعالى، ومنهجية الدعاء وطرق الالتجاء إليه ﷻ وتعظيمه تبارك وتعالى.

ففي كل موقف ولفظ منه ﷺ دروس قد حفلت بها سيرته العطرة ﷺ.

وتذكر أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها ما قاله رسول الله ﷺ عن بلاء قومه له، فيقول عُرْوَةُ رضي الله عنه : (أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يومٌ كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت: وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عَرَضتُ نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم؛ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي؛ فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني؛ فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك؛

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (٦٢/٢)

وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني مَلَكُ الجبال، فسلم عليَّ ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يُخْرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده؛ لا يشرك به شيئاً)[1]

وهكذا يصور لنا رسول الله ﷺ شدة ما لقيه من قومه، وصدهم عن الحق وعدم قبوله، والتعرض له ﷺ بالأذى حتى انطلق مهموماً فلم يستفق إلا وهو بقرن الثعالب. وإنها لصورة تؤكد بجلاء حجم ما أصابه ﷺ من قومه، ولكن بعد برهة من الوقت يطل عليه جبريل عليه السلام من السماء، ولا شك إنها لرحمة من ربه ﷻ بإرسال جبريل عليه السلام إليه، لتكون مواساة وتذكيراً بأن الله مطلع على كل ما دار بينك وبين قومك وأنه معك يراك ويسمعك، فسبحان الله العظيم الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يسمع السر وأخفى. ثم هذا مَلَكُ الجبال لم يكلم رسول الله ﷺ إلا بعد أن أخبر جبريل بخبره. ثم ها هو ﷺ وهو في أشد معاناته من قومه؛ وفي حالة انزعاجه لما أصابه منهم، فلم يثير ذلك عنده الرغبة في الانتقام، ولم يستدعه ذلك إلى الثأر منهم، فيطلب من مَلَك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين، ولكن يشفق عليهم رجاء أن يُخْرِجَ الله من أصلابهم من يُوحِّد الله تعالى ويعبده وحده لا يشرك به شيئا، فلم يستأثر لنفسه بعقوبة عاجله. إنه الهدف عندما يكون واضحاً للمرء؛ فإنه يُثمر سلوكاً صحيحاً وفكراً مستقيماً وقراراً حكيماً.

قال تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [2]

---

(١) البخاري (٢/٤٢٨-٤٢٩) برقم (٣٢٣١)

(٢) سورة آل عمران: آية (١٥٩)

وكم هي الشحناء والبغضاء بين صفوف الأمة؛ وليس إلا لأمور بعيدة عن الهدف الحقيقي وهو تحقيق العبودية لله تعالى، وغالبها محبة في الانتصار للنفس وحظوظها، وحب العلو على الغير، وبالتالي تأتي التصورات الخاطئة، ، فيتولد عنها التأويل الفاسد؛ فالحكم الباطل؛ ثم القرار الخاطئ، فتأتي المكائد والدسائس. أفليس في منهجه النبوي ﷺ ما يصحح الأهداف والتصورات، فيتبعها السلوك. فهاهو ﷺ يواجه معاناةً وصداً وتهجماً وأذى من عدو قريب، فيقابلها بالهدف الحقيقي من وجوده ورسالته، والهدف من وجودهم وخلقهم، فتتصاغر أمامه ﷺ جميع ألوان الأذى والصدود، ولكن القول فيك يا رسول الله ما قاله الله تبارك وتعالى عنك ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[١]

إن هذا الخُلُق العظيم جعل عدَّاس النصراني يتعجب من أمر رسول الله ﷺ فلما وصل رسول الله ﷺ إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة؛ قالا لغلام لهما نصرانياً يقال له عداس: خذ قِطَفاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عداس، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال: بسم الله، فقال عداس: عن هذا الكلام: والله لا يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك ؟ [٢]

إنَّ هَمَّ هذا الدين يحمله رسول الله ﷺ معه في كل لحظة، فلقد باشره بالسؤال عن دينه، وهو في موقف يكاد المرء فيه لا يحمل إلا همه الشخصي.

فيجيبه عداس: نصراني، وأنا من أهل نينوى، فقال له رسول الله ﷺ من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى، فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يُقَبِّل رأسه ويَدَيْه وقدميه.

---

(١) سورة القلم: آية رقم (٤)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٢/٦٠-٦٢)

فيقول أبناء ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عدّاس قالا له: ويلك يا عدّاس ! ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالا له : ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

وهكذا يؤكد عدّاس لهما أن هذا نبي، وأن ما أخبر به ﷺ لا يعرفه إلا نبي، ولكنهما أعرضا عن قول عدّاس الذي شهد بنبوته ﷺ وبين لهما دليل ذلك.

ثم في عودته ﷺ من الطائف حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي، فمر به نفر من الجن الذين ذكر الله تعالى خبرهم في سورتي الأحقاف والجن، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، قال الله تبارك وتعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾[1]

فلقد تفاعل بعض الجن مع دعوته ﷺ واستجابوا له، داعين ومنذرين قومهم، وإنه لأمر يزيد من عزيمة رسول الله ﷺ فيشعر بأن هذا الجهد مشكور وفاعل ومقبول؛ فإن واجهه صدود في جانب قابله قبول في آخر.

---

[1] سورة الأحقاف: آية رقم ((٣٢.٢٩)

وكم من الأنشطة الدعوية والتعليمية والإدارية ولاقتصادية والطبية التي يواجه القائمون عليها بعض العقبات والصعوبات فيحتاجون إلى الدعم والتشجيع الذي يشد أزرهم، ويشعرهم بأن أثر هذا الجهد في صعوباته التي يواجهونها نجاح يتحقق في جوانب أخرى.

وكم من تلميذ متعثر أو يتعثر، فيحتاج من يشجعه؛ ويُقيمه من عثراته؛ بإبراز ما كان ناجحاً فيه في جانب آخر، لينشط ويتشجع؛ فينهض مما تعثر فيه. وكم من طبيب وإداري وتاجر مسلم؛ يتعثر فيحتاج إلى من يبين له نجاحه فيما غفل عنه، وكم من مصاب بجائحة أو بلاء؛ فلا يرى أمامه إلا ذلك الأمر؛ فيحتاج إلى من يبين له نِعَم الله تعالى عليه في أبواب أخرى قد حجبتها عنه مصائبُهُ.

الإسراء والمعراج:

بعد رحلة الطائف التي صد عنه من تحدث معهم رسول الله ﷺ ودعاهم تأتي رحلة الإسراء والمعراج، فتأتي المكافأة العظيمة من الرب العظيم سبحانه وتعالى، فلئن كابد المشاق ﷺ فإنه سيرى من آيات ربه تبارك وتعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾[1]

عن أنس بن مالك ﷺ (أن رسول الله ﷺ قال: أُتِيتُ بِالبُرَاقِ. وهو دابةٌ أبيضُ طويلٌ فوق الحمار ودون البغل. يضع حَافِرَهُ عند منتهى طَرْفِهِ. قال فركبْتُهُ حتى أتيتُ بيتَ المقدس. قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء. قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه

---

[1] سورة الإسراء: آية رقم (١)

ركعتين. ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن. فاخترت اللبن. فقال جبريل ﷺ اخترت الفطرة. ثم عَرَجَ بنا إلى السماء)[١]

وفي هذا الحديث دلالة على مكانة النبي ﷺ عند ربه سبحانه وتعالى، وفيه كذلك عِظَمُ خلق الله تعالى. وفيه أن من دخل المسجد يبتدئه بالصلاة. ومن فوائد الحديث أن الإسلام هو دين الفطرة، وأن أكل الطيبات من الفطرة كذلك، وأكل الخبائث مناقض لها.

وذكر ابن حجر في الفتح: حديث أبي سعيد عند البيهقي:(حتى أتيت بيت المقدس فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربط بها. وفيه. فدخلت أنا وجبريل بيت المقدس فصلى كل واحد منا ركعتين، وفي رواية (ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين قائم وراكع وساجد، ثم أقيمت الصلاة فَأَمَمْتُهُم)[٢]

وفي الحديث بيان منزلة النبي ﷺ بين الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والتسليم.

فعن أنس بن مالك ﷺ؛ قال: كان أبو ذر يُحدث أن رسول الله ﷺقال: (فُرِجَ عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري؛ ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا؛ قال جبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا ؟ قال: هذا جبريل، قال: هل معك أحد ؟ قال: نعم، معي محمد ﷺ فقال: أُرسِلَ إليه ؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد على يمينه أَسْوِدَةٌ وعلى يساره أَسْوِدَةٌ، إذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَل يساره بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والإبن الصالح، قلت لجبريل: من هذا ؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نَسَمُ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر

---

[١] مسلم (١/١٤٥) برقم (٢٥٩-١٦٢).

[٢] ابن حجر، فتح الباري (٧/٢٠٨).

قِبَل شماله بكى. حتى عَرَج بي إلى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح، فقال له خازنها مثل ما قال الأول، ففتح. قال أنس: فذكر أنه وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم، ولم يُثبت كيف منازلُهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنس: فلما مر جبريل بالنبي ﷺ بإدريس؛ قال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت: من هذا ؟ قال: هذا إدريس، ثم مررت بموسى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا ؟ قال: هذا موسى. ثم مررت بعيسى، فقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قلت من هذا ؟ قال : هذا عيسى. ثم مررت بإبراهيم، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت من هذا ؟ قال: هذا إبراهيم ﷺ قال ابن شهاب: فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حَبَّة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ ثم عُرِج بي حتى ظَهَرْتُ لمستوى أسمع فيه صريفَ الأقلام. قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال النبي ﷺ ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك ؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك؛ فإن أمتك لا تُطيق ذلك. فراجَعني فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت : وضع شطرَها، فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تُطيق ذلك، فراجعت فوَضَع شطرها، فرجعت إليه؛ فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تُطيق ذلك، فراجعته فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يُبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى، فقال: راجع ربَّك، فقلت: استحييت من ربي، ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى؛ وغَشِيَها ألوان لا أدري ماهي. ثم أُدخِلتُ الجنة، فإذا فيها حبايل اللؤلؤ ؛ وإذا تُرابها المسك.)[1]

إن هذه الرحلة العظيمة، رحلة الإسراء والمعراج فيها من الدروس والفوائد ما يعطي المسلم ويزوده بالكثير مما يحتاج إليه في دار معاده ومعاشه، فأول خطوات الإسراء والمعراج

---

[1] البخاري (١٣٢/١)، برقم (٣٤٩)

الإعداد لذلك؛ بأن قام جبريل عليه السلام ففرج صدر رسول الله ﷺ ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه في صدره ﷺ ثم أطبقه، وقد حصل شق الصدر الأول وهو صغير عند مرضعته حليمة، فكان الشَّقُ الأول لاستعداده لنزع العلقة التي قيل له عندها: هذا حظ الشيطان منك، والشَّقُ الثاني كان لاستعداده للتلقي الحاصل له في تلك الليلة.[1] وفي هذا تأكيد وبيان أن القلب في الإنسان هو المحطة الرئيسة، والجوهرة الثمينة التي يجب أن يقف عندها المسلم لينظفها من درن الرذائل القلبية، كالاعتقادات الباطلة، والحسد والحقد والكراهية لإخوانه المسلمين، وحب العلو والانتصار والتكبر عليهم، والتنقص من ضعيفهم وفقيرهم، وكراهية الخير لقويهم، فعن أنس ﷺ قال (كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة. فطلع رجل من الأنصار، تَنْطِفُ لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبدالله بن عمرو بن العاص، فقال: إني لاحَيْتُ أبي، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي ؟ فعلت، قال : نعم. قال أنس وكان عبدالله يُحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تَعَار وتَقَلَّبَ على فراشه ذكر الله عز وجل، وكبر، حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبدالله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً، فلما مَضَتِ الثلاث ليالٍ، وكِدت أن أحقر عمله، قلت: يا عبدالله لم يكن بيني وبين أبي غضب، ولا هجر ثَمَّ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة. فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن أوي إليك، لأنظر ما عَمَلُك، فأقتدي به، فلم أَرَكَ تعمل كَثيرَ عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت، قال: فلما

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٤٦٠/١)

وَلَّيْتُ دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غِشّاً، ولا أَحْسُدُ أحداً على خيرٍ أعطاه الله إياه. فقال عبدالله، هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق)[١]

وقد قال ﷺ مبيناً أهمية القلب من الجسد وثمرة صلاحه أو فساده (ألا وإن في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[٢] قال ابن حجر: فالقلب أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد، وفيه تعظيم قدر القلب، والحث على صلاحه، والإشارة إلى أن لطيب الكسب أثراً فيه، والمراد المتعلق به من الفهم الذي ركبه الله فيه.[٣]

ولئن اهتم الكثير من الناس بإصلاح الظاهر دون إصلاح الباطن؛ فإنه يظل هذا الإصلاح إصلاحاً مؤقتاً، يتراجع كثيراً ولا يتقدم إلا قليلاً، لأنه لم يعتن بصلاح أميره، وينقيه وينظفه كما ينظف الإناء بالماء، فلقد غسل جبريل عليه السلام صدر رسول الله ﷺ بماء زمزم، فهو مقبل على أمر رباني عظيم، وهكذا كل من يريد القدوم إلى ربه في صلاته وفي أعماله؛ أن يعي أهمية تطهير القلب وتنظيفه من الأباطيل؛ وما يلحق بها من المفسدات، في جميع أشكالها وأنواعها ومركباتها، فَيُقْبِل على الله بقلب نظيف طاهر سليم.

ويفيد هذا أهمية التركيز في العملية التربوية على تزكية القلوب وتطهيرها والعناية بها، وإنه ليحسن بالمربين أن يهتموا بتطهير قلوب من يقومون بتعليمهم وتربيتهم؛ حتى تزكو نفوسهم، وتصبح أوعية صالحة للعلم والحكمة، فلقد أفرغ جبريل عليه السلام ما في الطست من حكمة وإيمان في صدر رسول الله ﷺ بعد أن غسله بماء زمزم، فكم يحتاج المسلم إلى

---

(١) أحمد، المسند (١٦٦/٣)

(٢) البخاري (١/ ٣٤) برقم (٥٢)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (١٢٨/١-١٢٩)

الإيمان والحكمة التي تسبقها الطهارة والنظافة القلبية؛ حتى تضم ذلك الإيمان والعلم والحكمة في وادي القلب الفسيح الذي يسع لكل ما يوضع فيه من خير إن عالجه المؤمن المعالجة الصادقة الصحيحة.

وإن معالجة نسيان العلم واكتسابه إنما تبدأ وتنطلق أولاً من استعداد القلب للحفظ والتذكر من خلال تطهيره وتنظيفه.

لقد انطلق جبريل عليه السلام بالنبي محمد ﷺ بعد هذا الحدث العظيم إلى السماء الدنيا، وهنا يأتي الحرص والأمانة من الخازن الأمين، خازن السماء، حيث لم يفتح لجبريل حتى تأكد وعرف من معه، بأنه محمد ﷺ وأنه قد أُرسل إليه، وكم هي الأمانة والاسترعاء من مسؤولية عظيمة، فيتولد عنها الحرص ممن استؤمن أمانة علمية أو إدارية، أو زوجية أو أبناءً، أو متاعاً، أو مهمة، أو وظيفة، فيؤدي الذي عليه فيها، ويحرص على حراستها كما حرص حارس السماء على السماء من أن يدخلها غير مأذون له. فإن الله تعالى قادر على كل شيء ولكنه الحكيم العليم، تظهر حكمته وعظمته وعلمه في كل شيء خلقه سبحانه وتعالى. وفيه أدب الاستئذان من جبريل عليه السلام بأن سمى اسمه، ولم يقل: أنا؛ فقط كما يفعل البعض.

ثم أبونا آدم عليه السلام، ينظر يميناً فيضحك، وينظر شمالاً فيبكي، إنها شفقة الأب على أبنائه التي يحتاج أن يترجمها الآباء في الحياة، من حفظ الأبناء والعناية بتربيتهم التربية الدينية التي تُقيهم ناراً وقودها الناس والحجارة، حتى لا نندم يوم لا ينفع الندم، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾[1]

---

(1) سورة التغابن: آية رقم (٦)

وفي هذه الرحلة العظيمة من الدروس: الترحيب بالقادم، فقد رحب به الأنبياء الذين مَرَّ بهم ﷺ ودعوه بلقب النبوة، وبصفة الصلاح، وكلهم سابقون له صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون المسلم متصفاً بصفات الأنبياء والمرسلين، من الترحيب والبشاشة للقادمين عليه، وتلقيبهم بما يستحقون من الألقاب التي هي من خصائصهم، خاصة أهل الفضل من أصحاب العلم، والأيدي الكريمة. كما كان ذلك مع رسول الله ﷺ ممن جاء ذكرهم في الحديث (مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح)

ويستفاد من تردده بين ربه تبارك وتعالى وموسى عليه السلام، حرصه ﷺ على أمته، والأخذ بالنصيحة، والتردد في تكرار الطلب، وفيه أن على المسلم أن يبذل النصيحة حتى وإن لم تُطلب منه، كما نصح موسى عليه السلام لرسول الله ﷺ دونما طلب، وعلى المسلم أن يقبل النصيحة الصالحة التي تحمل الخير؛ وإن كثرت من الناصح، وأن يتردد في طلب الخير للآخرين إلى أقصى ما يستطيع.

وعلى المسلم أن يسعى بالعمل والدعاء للفوز بالجنة التي دخلها رسول الله ﷺ وبين بعض صفاتها.

وفي الحديث بيان منزلة رسول الله ﷺ العظيمة عند ربه سبحانه وتعالى، إذ عُرِج به ورأى من رأى من الأنبياء ومن الآيات. وكذلك فيه رحمة الله تعالى بعباده وكرمه جلَّ جلاله؛ إذ جعل الصلوات خمس، وهي خمسون. وفيه كذلك منزلة الصلاة إذ فرضها الله تبارك وتعالى على نبيه ﷺ وهو في السماء. وفيه بيان منزلة الأنبياء عليهم السلام عند ربهم سبحانه وتعالى.

ومن لطائف هذا الحديث أن قال الأنبياء الذين مَرَ بهم رسولُ الله ﷺ (مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح) إلا آدم وإبراهيم فقالا (:مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح) فآدم

عليه السلام أب البشرية أجمع، وإبراهيم عليه السلام والد إسماعيل الذي يرجع إليه نسب رسول الله ﷺ.

العرض على القبائل طلباً لقبول الدعوة:

لقد سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين القبائل القادمة إلى مكة للحج أو لأسواق العرب، يدعوهم لعبادة الله تعالى، دونما توانٍ أو خوف أو تردد منه ﷺ قال ربيعة بن عباد (رأيت رسول الله ﷺ بذي المجاز يدعو الناس وخلفه رجل أحول، يقول: لا يصدنكم هذا عن دين آلهتكم: قلت: من هذا ؟ قالوا : هذا عمه أبو لهب)[١] وكان يقول لهم ﷺ (يا أيها الناس قولوا لا اله إلا الله تفلحوا)[٢] وكان (يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على القبيلة ويقول: يا بني فلان إني رسول الله إليكم؛ آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وأن تُصدقوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به)[٣]

وهكذا سار رسول الله ﷺ بين القبائل مبيناً هدف الرسالة العظيم؛ داعياً إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، في عزيمة الصادق الأمين، الذي لا يُثنيه كيد الكائدين، وتخوين الخائنين، بالرغم من التصدي العنيف من عمه أبي لهب الذي يجري خلفه، مزهداً الناس فيما يدعو إليه رسول الله ﷺ

وللمرء أن يتصور حال الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يمر بين القبائل، يدعوهم والمكذب يجري خلفه ليصد الناس عن الهدى، ومدى أثر ذلك على نفسية الرسول ﷺ وهو صابر على ذلك، ولا يرد عليه بشيء، بل كان مقداماً في أمره دون أن يأبه بإرجاف المرجفين وتكذيب المكذبين . وكم يواجه الإنسان في دعوته وفي مهنته التربوية من العقبات التي لا

---

[١] أحمد، المسند (٣/ ٤٩٢)

[٢] أحمد، المسند (٣/٤٩٢)

[٣] أحمد، المسند (٣/٤٩٢)

تصل إلى هذه الدرجة من التحدي السافر، فيتهاون ويتكاسل، وربما ضخم الموقف ليجد لنفسه مبرراً؛ ليتوقف به عن الاستمرار فيما يقوم به، وكم يواجه طالب العلم من مشقة التعلم، والباحث في بحثه، والعامل والإداري والطبيب والمزارع في عمله من مصاعب المهنة فيتكاسل ويستسلم للنكسات، أوليس في نهجه وصبره ﷺ درساً لكل مستسلم للمصاعب والصدود التي يواجهها. إن هذه العزيمة المتوقدة من رسول الله ﷺ في دعوته لتشحذ همم المسلمين للعمل الدؤوب الذي يخدم هذه الأمة في جميع مجالات الحياة.

لم يتوقف رسول الله ﷺ أمام هذه الصعوبات والعقبات والأذى والرد الجافي، وإنما استمر يبحث، فاتصل بالأنصار، حيث قدم سويد بن الصامت الأنصاري إلى مكة حاجاً فقابله رسول الله ﷺ فتلا عليه القرآن، ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه، وقال : هذا القول حسن، ثم قدم المدينة، وقُتل، وكان رجال من قومه ليقولون : إنا لنراه قد قُتل وهو مسلم.[1]

وعندما سعى الأوس لمحالفة قريش على الخزرج، قدم أبو الحيسر أنس بن رافع في وفد من بني عبد الأشهل لهذا الغرض، فسمع بهم رسول الله ﷺ فجاءهم ودعاهم إلى الإسلام وأسمعهم القرآن، ثم عادوا إلى المدينة، وجرت الحرب بين الأوس والخزرج يوم بعاث، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، وكان قومه يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات.[2]

إن هذه بدايات قبول الدعوة في المدينة، وكانت بسيطة من حيث العدد، ولكنها إيذاناً وبياناً وباباً يُشير إلى أن الانطلاقة الثانية ستكون في رحاب المدينة، فتعطينا هذه المقدمات أن الشدائد يعقبها الفرج بإذن الله تعالى، وإنما الأمور تسير من حال إلى حال رويداً رويداً، وعلى المسلم أن لا ييأس، ويسعى بكل ما أوتي من قوة ونشاط، في علمه

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٢/٦٧-٦٩)

[2] المرجع االسابق (٢/٦٩)

وتعلمه ودعوته وتربيته وفي عموم شؤونه، وكذلك على مستوى الأمة في شؤونها الكلية والجزئية.

ولم ييأس ﷺ بعد هذين العرضين، وإنما اتصل بوفد الخزرج عندما قدموا في موسم الحج التالي عند عقبة منى، حيث دعاهم ﷺ وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ [١]

فهكذا طلائع البشر تزداد شيئاً فشيئاً، مع جهد لا يعرف الكلل ولا مدخل للملل في حياته ﷺ فإن الكلل واليأس إذا دب في نفوس الناس، أحدث عندهم قدراً كبيراً من الفتور الذي يؤدي إلى سيء الأمور، وإنه لمن الدواعي التربوية والنفسية المهمة في حياة المسلم أن يُبعد عن جهده وعمله كل عوامل اليأس والخذلان. فإن منهجه ﷺ ليربي في المتأمل فيه القوة والنشاط والحيوية والعمل الدؤوب، لم يواجه أحد من البشر ما واجهه ﷺ من الصعوبات والعقبات التي تفتر حيالها قوى الرجال الأقوياء، ولكنه حقاً خير البشرية، حيث قدم للسالكين منهجه النبوي: السيرة الصحيحة والقدوة العظيمة التي تمد المسلم بالقوة والنشاط والحيوية في كل أمر من أمور الدين والدنيا.

إن دروس السيرة النبوية التي يقدمها المعلم لطلابه يجب أن يجلي لهم ما فيها من العبر والحكم التي فيضها لا ينضب، وبقدر عقل المتأمل فيها تعطيه وتُجديه.

---

[١] المرجع السابق (٢/ ٧١،٧٣)

بيعة العقبة الأولى :

في الموسم التالي من العام الثاني عشر للبعثة جاء اثنا عشر رجلاً من الأوس والخزرج، يقول عبادة بن الصامت ﷺ (كنا مع رسول الله ﷺ في مجلس. فقال: تبايعوني على أن لا تُشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به، فهو كفارة له، ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه، فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه) [١]

وفي رواية (أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء أن لا نشرك بالله شيئا....)[٢]

فلقد تضمنت هذه البيعة أوائل مبادئ الإسلام وهديه وأخلاقه التي تتوافق مع الفطرة السليمة، وتكفل لأصحابها قدراً كبيراً من حفظ الحقوق، وهي تلك المبادئ التي يجب أن تتأكد في نفوس أمة التوحيد. كما أن هذه المبادئ تشكل التدرج الدعوي للمنهج الإسلامي الذي ينزل على الرسول ﷺ شيئاً فشيئاً بما يتناسب مع حال الأمة، الأمر الذي يجب أن يراعيه المسلم في دعوته وتربيته، وفي منهج حياته كلها، وفي تعامله مع حاجاته ومع الآخرين .

وأول هذه الأسس: توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به، وهو الأمر الرئيس الذي جاء به الأنبياء عليهم السلام، وهو رأس الإسلام، والذي لا يُقبل عمل مهما كان صلاحه من غير تحقيقه. ثم صيانة الفروج من الزنا وذلك لِمَا يترتب على هذا الفعل الشنيع من المفاسد الاجتماعية والصحية والنفسية، إضافة إلى أنه من أشنع الرذائل السلوكية التي حرمها الله تعالى. ثم التوجيه إلى عدم الإسراف والتبذير الذي يؤدي إلى ضياع الأموال، ويشيع التباهي والتنافس البغيض بين أفراد المجتمع. ثم تلا ذلك الأمر الذي يحفظ الدماء من السفك بغير

---

[١] مسلم (١٣٣٣/٣) برقم (١٧٠٩)

[٢] المرجع السابق

حق، والذي بحفظه تستقيم أمور الناس. فمن وفَّى بهذه فأجره من رب البرية سبحانه وتعالى، ومن عوقب على ما اقترف فهو كفارة له، ومن ستره الله فأمره إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه. فلقد ربط رسول الله ﷺ هذه المبادئ بالثواب والعقاب، ولا يُشترط أن يطلع عليه الناس، بل إن ستره الله عنه، فلا يعني أنه لم يره، بل إن شاء عاقبه وإن شاء غفر له.

إنه المنهج الذي يربط العمل بالثواب والعقاب العاجل أو الآجل، مع البيان بأن العقاب الآجل تحت مشيئة الله، يتيح الأمل أمام المذنب ليتوب ويؤب إلى ربه سبحانه وتعالى. كما أن هذا التوجيه النبوي يربي في المسلم تقوى لله في السر والعلن.

ولما انصرف عنه القوم بعث معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه، وأَمَرَه أن يُقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة: مصعب. وكان منزله على أسعد بن زرارة، وكان يُصلي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمّ بعض. [١]

إن في إرسال مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة ليعلم الناس دلالة واضحة على أن هذا الدين هو دين علم، وتَثَبُّتْ، وعبادة لله تعالى على علم ومعرفة. وليس الهدف الدخول في الإسلام بالانتماء فقط، ولو كان كذلك لكفى انتماؤهم إلى الإسلام. كما أن الله سبحانه وتعالى نشر بهذا الدين العلم وأظهره في جميع مجالاته، وفي هذا أهمية تعليم الجاهلين بدينهم، وأهمية الرحلة في الدعوة لإظهار دين الله تعالى كما يُحب الله تعالى ويرضى، وأن تعليم القرآن من أهم ما يجب أن تهتم به المدارس والجامعات في جميع ربوع العالم الإسلامي، وأماكن المسلمين وتجمعاتهم في العالم، وأن تُسْتَخْدَم كل وسيلة مجدية نافعة؛ تحقق الهدف وتَبْلُغ به المقصد، إضافة إلى تعاليم الإسلام التي يجب أن لا تُقصر على المتخصصين في العلوم الشرعية، خاصة ما لا يسع المسلم جهله من الدين.

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (٢/٧٦،٧٧)

وينبغي أن لا يقتصر التعليم على مبادئ الدين الإسلامي فقط؛ بل لابد من التفقه في الدين، لأنه ﷺ قد أمر مصعباً بأن يعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين.

ويستفاد من ذلك أيضاً: أهمية إسدال اللقب العلمي على أهل العلم، وعدم مخاطبتهم بما يستوون فيه مع غيرهم من الألقاب، حيث لُقِّب مصعب بالمقرئ.

وفيه نزول القادم على المضيف، وكرم الأنصار بأن نزل مصعب على أسعد بن زرارة، كما أن التخلي عن ما ألفه الإنسان لا يحصل بسرعة عاجلة، فلقد كره أن يؤم بعضهم بعضا بحكم ما كانوا عليه في جاهليتهم، ولكن بعد أن ترسخ الإسلام في قلوبهم، أصبح الإخاء بينهم علامة، والحب في الله سمة من سماتهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ويستفاد من ذلك أهمية أن يراعي الوالي أو الحاكم أو الإداري الاعتبارات التي تكون في نفوس الناس حتى يُجَلِّيها عنهم بمنهج الإسلام وهديه.

بيعة العقبة الثانية:

في موسم الحج التالي من العام الثالث عشر للبعثة النبوية المباركة تمت بيعة العقبة الثانية، والتي يرويها جابر ﷺ بقوله (مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يَتَّبَّعُ الناس في منازلهم بعكاظ ومَجَنَّة، وفي الموسم بمنى، يقول: "من يؤويني ؟ حتى أبلغ رسالة ربي، وله الجنة." حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر .كذا قال . فيأتيه قومه، فيقولون: احذر غلام قريش، لا يفتنك. ويمشي بين رجالهم، وهم يُشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله له من يثرب، فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا، فيؤمن به، ويُقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين؛ يُظهرون الإسلام. ثم ائتمروا جميعاً، فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرَد في جبال مكة ويُخَافُ ؟ فرحل إليه منا سبعون رجلاً، حتى قَدِموا عليه في الموسم، فواعدناه شِعْبَ العقبة، فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين، حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله، علامَ نُبايعك ؟ قال: "تُبايُعوني

على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قَدِمْتُ عليكم مِمَّا تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة".
قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زُرارة، وهو من أصغرهم، فقال : رويداً يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلمُ أنه رسول الله ﷺ وإن إخراجه اليوم مُفَارَقَةُ العرب كافة،وقتل خياركم، وأن تَعَضَّكُم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك، وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جُبَيْنَةً فبينوا ذلك؛ فهو أعذر لكم عند الله، قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً، ولا نَسْلِيها أبداً. قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويُعطينا على ذلك الجنة.) [١]

فمن هذه الرواية الجامعة والموضحة لتفاصيل بيعة العقبة الثانية؛ يبين جابر رضي الله عنه استمرارية الرسول ﷺ ودَأَبَه في تبليغ الرسالة في المواسم، ويقول: من يُؤويني؟ من ينصُرُني ؟ وفي هذا بيان أن لصدود قومه، ومقدار الأذى الذي لحق به ﷺ قد بلغ مبلغاً عظيماً وخطيراً؛ وإلا كيف يبحث ﷺ عن مخرج ليخرج من مكة التي ولد وترعرع فيها، ولكنه الصبر الدَّؤوب منه ﷺ وتحمل جميع مشاق الرسالة بكل أمانة وصدق، الأمر الذي يؤكد للأمة أن ما يجب عليها هو حال ما كان عليه ﷺ إذ لم يضعف أو يتهاون في أمر الرسالة أمام تكالب الأعداء والضيم الذي واجهه من قومه، ولعمري إن أذى قوم الإنسان أشد على النفس من أذى الأعداء.

وكل عمل خير صالح وناجح ومتميز يواجه الصد من الحاقدين والحاسدين، فقد كانوا أعداء الرسالة السماوية يمشون خلفه ويحذرون الناس منه، حتى خافت القبائل من إيواء الرسول ﷺ وحتى يخرج الرجل فيأتيه قومه فيقولون له: احذر غلام قريش. إنه البث الإعلامي

---

[١] أحمد، المسند (٣/٣٢٢،٣٢٤)

الذي أوصلوه إلى كل من يتصل بمكة، أو يصل إليه أخبارها. وإنها لسنة من سنن الأولين؛ تتجدد في كل وقت وحين، وفي كل المستويات، تضعف تارة وتعلوا تارة أخرى، ولكن رسول الله ﷺ يعلمنا ماذا يجب أن نكون عليه أمام البث الكاذب والحاقد؛ وهو عدم الاكتراث والتأثر والاستسلام والنكوص، بل يجب المواجهة بالصبر وعدم الالتفات إليها، وعدم استخدام المواجهة في حالة الضعف، مع الاستمرار في العمل الدعوي والبناء، فإن النصر من الله تعالى. فها هم الأنصار يُقْبِلُون على الإسلام قبولاً سريعاً، والرسول ﷺ يبعد عنهم المسافات الطِّوَال، حيث يقول جابر ﷺ : فيخرج الرجل منا فيؤمن به، ويُقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين، يُظهرون الإسلام. بينما حال كفار قريش الاستعداء ورسول الله ﷺ بينهم منذراً ومبشراً.

ثم يأتي دور الأنصار فيجتمعون بينهم جميعاً، وهنا درس تربوي عظيم، فلم يجتمع الكبراء منهم أو بعضهم، وإنما اجتمعوا جميعاً لأن الأمر لا يخص زيد دون عمرو، أو عمرو دون زيد، كما أن في ذلك صرفاً وإبعاداً للحقد والضغائن، كما أن فيه اعترافاً بحقوق الآخرين وعدم تجاهلها، وهو ما يحتاج إليه العمل الجماعي اليوم، سواء كان في أمور الدعوة، أو في ميدان الإدارة، أو الأسرة، بل وفي كل أمر يتطلب رأي المجموعة، وعدم الاستئثار بالرأي دون مشاركة البقية، أو تهميش دور البعض لأي سبب كان.

وبعد مناقشة الموضوع مناقشة ممتلئة بالحيثيات الدينية، وما يجب عليهم إزاء نُصرة رسول الله ﷺ يتم اتخاذ القرار الجماعي، فيرحل إليه سبعون رجلاً، واتخذوا سبيل الحيطة والحذر في الوصول إليه ﷺ حتى لا يراهم أحد، فكان يخرج الرجل والرجلان حتى توافوا عنده ﷺ وإنها الحنكة والحكمة التي ترى أهميتها وإلزاميتها لينجح الأمر.

بنود مبايعة العقبة:

ثم يأتي معرفة بنود المبايعة من رسول الله ﷺ فيبين لهم أنها:

ـ السمع والطاعة في المنشط والمكره.

وهو الأمر الذي لا تستقيم أمور الدعوة إلا باتباع الداعي إلى الخير، في جميع أحوال النفس البشرية، فيما تنشط إليه أو تكسل عنه، وفي هذا بيان على أن لا يقتصر إعداد النفس للخير حال المنشط فقط، بل يجب أن يتجاوزه إلى حالة الدعة والكسل، ويستفاد من هذا البند: أهمية أن يعد المسلم نفسه أثناء ممارسة أعماله الصالحة نحو الاستمرارية، وعدم الركون للكسل والتوقف، فالمسلم لا يعرف الكسل طريقه إليه، بل هو في نشاط وحركة دؤوبة؛ أثناء طلبه العلم، وأثناء ممارسته لتجارته، وإدارته، ومهنته، وفي كل أنشطة الحياة، وفي هذا البند أهمية الطاعة لولي الأمر ما لم يكن فيه معصية لله تعالى، فإنه من أهم أسس النجاح، وسواء كان في ولاية الأمر الحاكمة، أو في ولاية الأمر المهنية، أي في دائرة العمل.

ـ والنفقة في العسر واليسر.

ويؤكد هذا البند أهمية النفقة في جميع الأحوال، إذ لا تستقيم الأمور الدَّعوية إذا اقتصر الإنفاق على حالة اليسر. وهكذا يكون المسلم في إنفاقه على دروب الخير ومصالح المسلمين في عُسره ويُسره، فهو جواد في كل أحواله، ويزداد عطاءً في حالة السعة واليسر.

ـ وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولا تستقيم أمور المسلمين إلا بتعاهد بعضهم بعضاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفي هذا تأكيد على أن هذه الشعيرة من أهم الشعائر الدينية؛ حيث اهتم بها رسول الله ﷺ في أوائل أمور الدعوة.

ـ وأن تقولوا في الله لا تخافون لومة لائم.

ويؤكد هذا البند حقيقة الإيمان، إذ لا يحقق هذا المطلب إلا من قوي إيمانه بخالقه سبحانه وتعالى، وأما ضعفاء الإيمان فإن المجاملة والمداهنة رمز لمعاملاتهم في جميع شؤون الحياة: في الاقتصاد والإدارة والدعوة والتعليم، وفي غير ذلك من ميادين أعمال الحياة. لأن

ضعيف الإيمان يُقَدِّر الأمور بميزان الأسباب في معزل عن خالق الأسباب ومدبر الأحوال سبحانه وتعالى، وبالتالي يجري ويدور مع الأسباب الموهومة، فيهاب لوم اللائمين وعتاب العاتبين بغير حق، وبالتالي يداهن ويرائي ويجامل على حساب الحق والحقائق.

وبهذا البند يتقوى المسلمون؛ إذ أنه لا مجال للمداهنة المبنية على مخافة لوم اللائمين، بل الحق هو البند الأعلى والكفاح له درع وسياج.

ـ وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قَدِمْتُ عليكم مِمَّا تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم.

ويوضح هذا البند خُلُق البيعة الذي ينفي سلوك الخذلان، لمن قَدِمَ عليهم، وأن يكون الحفاظ عليه يوازي حفظ الذات والأهل. وهكذا يجب أن يكون خُلُق المسلم مع إخوانه ومع من يعاهده بالحماية والذود عنه. ولذلك وجد المعاهَدُون الأمن والأمان من المسلمين.

وإذا طبق الرجل ذلك في أهله وإدارته ومهنته وسوقه وتجارته فإن محل الثقة تنعقد عليه ممن يُحيطون به، فلا يخافون منه خيانة ولا خذلان في الحق وإحقاقه.

ـ ولكم الجنة.

وهو الجزاء والمكافأة من الله تعالى، الذي يطمع إليه كل عاقل من الناس.

وهذا يؤكد أهمية المكافأة، وحجم المكافأة الذي يجب أن يتوازى مع الجهد والعمل، حتى يكون له معنى وأثر، فإن هذه المطالب أعمال عزيزة كريمة، ولها تبعية عظيمة الأثر، أكدها أسعد بن زرارة، بقوله: وإن إخراجه اليوم مُفَارَقَةُ العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تَعَضَّكُم السيوف، فكانت المكافأة أعظم من ذلك بكثير، إنها الجنة التي أعدها الله تعالى لمن تبع دينه، فلا يشقى صاحبها أبداً ولا يندم.

إن هذه البنود لتؤكد وضوح الهدف من الرسالة السماوية، إذ أنها تنصب على نصرة دين الله تعالى، وأن مناصرة الرسول ﷺ هي لحفظ هذا الدين ونشره، وليس فيها استعداء القبائل الأخرى بالهجوم؛ واستخدام القوة، بل إنما هي نصرته ﷺ ومنع الأذى عنه، وليس

فيها ما يُشير إلى الغبن أو إلى النوايا السيئة، وهذا بلا شك يؤكد سمو الرسالة في أهدافها وأخلاقها وأسلوب تعاملها، وأنها من عند الله تبارك وتعالى.

ومن فوائد هذا الحدث الإسلامي العظيم، أن تقدم أسعد بن زرارة فتكلم، وهو من صغار القوم سناً، مما يبين أن صغر السن لا يمنع صاحبه من التحدث أمام من هم أكبر منه إذا كان أهلاً للكلام. وما أظن أن أسعد بن زرارة قد تقدم لو لم يكن ذلك ديدن القوم التربوي لأبنائهم، بأن يعطوهم الفرصة للتحدث أمام الآخرين.

فلقد نبههم إلى أمر مهم، وكأني به ﵁ أراد أن يستوثق للرسول ﷺ إذا ما ظهرت الأمور بشكل عصيب، وأن يلزموا بنود المعاهدة. وإنه لنصح في استوثاق حكيم. فأكد له قومُه في حزم وثقة أنهم ماضون في نصرة رسول الله ﷺ فقالوا له: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً، ولا نَسْلِبها أبداً.

وبهذه البيعة المباركة من الأنصار المباركين بدأ التخطيط النبوي للهجرة إلى المدينة، التي ستكون مأرز الإيمان. فأصبحت كذلك. فلله در أهل بيعة العقبة من رجال أوفياء صدقوا ما عاهدوا رسول الله ﷺ عليه.

الفصل الثالث

الهجرة إلى المدينة

الهجرة إلى المدينة :

لقد استمر اشتداد الأذى على المسلمين حتى قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في وصف حالهم وما حصل لهم من الضيق (كان المؤمنون يَفِرُّ أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله مخافة أن يُفْتَن عليه) [١].

وفي ذلك الحال من الأذى والاستضعاف بالمسلمين من كفار قريش رأى رسول الله ﷺ في المنام وصفاً لدار الهجرة التي ستكون موطن الرسالة والدعوة، فقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال:(رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهَلي إلى أنه اليمامة أو هَجَر، فإذا هي المدينة يثرب)[٢].

وقالت عائشة رضي الله عنها (فقال النبي ﷺ للمسلمين: إني أُرِيتُ هجرتكم ذات نخل بين لابتين، وهما الحرَّتان. فهاجر من هاجر قِبَل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة....)[٣].

وهكذا بدأ التدفق نحو مدينة رسول الله ﷺ فعن البراء رضي الله عنه قال (قَدِم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم. ثم قدم علينا عمار بن ياسر وبلال رضي الله عنهم)[٤] وعنه رضي الله عنه قال (أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، وكانوا يُقْرِئون الناس، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر. ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ . ثم قدم النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ) [٥]

---

[١] البخاري (٦٧/٣) برقم(٣٩٠٠) .

[٢] البخاري (٦٦/٣) باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

[٣] البخاري(٦٨/٣-٦٩) برقم (٣٩٠٥).

[٤] البخاري (٧٥/٣-٧٦) برقم (٣٩٢٤)

[٥] البخاري (٧٦/٣)برقم (٣٩٢٥)

وتبين رواية البراء بن عازب ﷺ أن من وظائف بعض الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ القيام بالجانب التعليمي، حيث كان مصعب بن عمير وابن أم مكتوم رضي الله عنهما يقومان بتعليم الناس ما نزل من القرآن الكريم؛ وما عَلِمُوا من سنة رسول الله ﷺ . مما يؤكد أن منهجه ﷺ قائم على التعليم الذي يُخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ ومن الباطل إلى الحق؛ الذي يَسعد الناس به. فلم تكن رسالته ﷺ مجرد تجمع بشري انتمائي للإسلام فقط، بل إنه عِلْمٌ وَعَمَلٌ على بصيرة، فيثري المجتمع بعلوم الشريعة التي تجمع قلوبهم وكلمتهم وتوحد صفوفهم وأهدافهم ومنهجهم؛ كما اجتمع المسلمون في مدينة رسول الله ﷺ على اختلاف ألوانهم وقبائلهم، التي يَعِزُّ على أفرادها أن يجتمعوا بغير هذا الدين القويم.

ثم لما علم كفار قريش بهجرة المسلمين وتدفقهم على المدينة؛ خَشَوا على أنفسهم من أن يَكْثُـرَ سواد المسلمين ويتقوَّون؛ فتنقلب الدائرة عليهم؛ فأخذوا يضعون العراقيل أمام المسلمين؛ لمنعهم من الهجرة, ولعل في حديث هجرة أبي سلمة وأم سلمة صورة ومثال لبعض تلك العراقيل؛ فعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها؛ أنه لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره؛ ثم حَمَلني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، فلما رأته رجال بني المغيرة؛ قاموا إليه؛ فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله؛ لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموه من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا بُنَيَّ سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة...[١]

يظهر في هذا المشهد من هذه الحادثة المعاضدة الجاهلية؛ والعصبية القبلية، دون مراعاة لحق الرجل في أهله، أو حريته في التصرف، والانتقال من مكان لآخر. بل غابت عندها الجوانب العاطفية، المتعلقة بالأمومة والأبوة، حتى تسابقت الأيادي على طفلها؛

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (٢/١١٢-١١٣)

لتنخلع يده. ولكنها الإرهاصات التي تسبق فجر النور المضيء للعقول؛ والمزكي للنفوس. فيفيد هذا الموقف فضل هذا الدين على أولئك؛ وعلى كل من اعتنقه ودان به في كل زمان ومكان.

قالت: فَفُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني، قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح؛ فما أزال أبكي حتى أمسي سنةً أو قريباً منها، حتى مر بي رجل من بني عمي، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تُخرجون هذه المسكينة! فَرَّقْتُم بينها وبين زوجها وبين ولدها ! قالت: فقالوا: الحقي بزوجك إن شئت، قالت: وَرَدَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني...[١]

فسنة أو قريباً منها تبكي ابنها وزوجها، فلم تجد من قومها إلا رجلاً واحداً يتعاطف معها؛ بعد تلك الفترة الزمنية الطويلة، ليتبين قدر الضعف العاطفي، بل موته أحياناً عندما يكون في الحمية الجاهلية، وبعيداً عن نور الإسلام وهديه.

ثم تقول أم سلمة: فارتحلتُ بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، قالت: وما معي أحد من خلق الله. قالت: فقلت: أَتَبَلَّغُ بمن لقيت حتى أَقْدِمِ على زوجي؛ حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، فقال لي : إلى أين يا بنت أبي أمية ؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أو ما معك أحد ؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبُنَيَّ هذا. قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي . فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه،

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (٢/١١٢.١١٣)

فقاده، حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية، وكان أبو سلمة بها نازلاً، فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة.(١)

وهكذا توضح هذه القصة الأليمة لأم سلمة وأبي سلمة المعاناة القاسية التي تحملاها لقاء إسلامهما، ولقاء الهجرة إلى المدينة للفرار بدينهما من سطوة كفار قريش، فيتحمل أبو سلمة فراق زوجه وولده لقاء ظفره بدينه؛ تاركاً زوجته وابنه لله تعالى؛ الحافظ لكل شيء، وإن موقفه ليذكر باستجابته لقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾(٢)

ولَكَم يلتهي الناس بأزواجهم وأولادهم عن طاعة الله تعالى، بل ربما يُقْدِّم رغبات زوجته وأبنائه التي فيها شيء من المعصية لله تعالى، وإنه لفرق شاسع وكبير بين تضحية أبي سلمة وبين من يذهب بزوجته وأولاده إلى المعاصي، أو لا ينهاهم عن المعاصي، أو يستجيب لهم في معصية الله تعالى.

ثم ها هي الأم والزوجة المستضعفة تواجه فراق زوجها قصراً؛ والمهاجر إلى مدينة رسول الله ﷺ وفراق الابن الذي انتزع من حِجْرِها عنوة، ولم تجد من يُنصفها ويُعيد إليها حقوقها في جاهلية توقفت عنها مكارم الأخلاق؛ لقاء الإجحاف والتنكيل من كفار قريش، فلم يعد عندها إلا وسيلة إظهار ما أصابها لمن يمر بالأبطح، وهي تخرج فيه يومياً تبكي وتشكو حالها، حتى أنقذها الله تعالى بابن عم لها، أعطاها حقها وحريتها وأعاد إليها ابنها

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٢/١١٢-١١٣) بشيء من الاختصار

(٢) سورة المنافقون: آية رقم (٩)

لتنطلق به إلى المدينة وحدها، فَغَلَبَ فَرَحُهَا مخاوف الطريق وأهواله، ولكنه حب الهجرة إلى الله تعالى بدينها. وعناية الله تعالى بها؛ إذ سخر لها سبحانه وتعالى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة؛ الذي أظهر الله عليه مكارم الأخلاق من العفة والعناية بأم سلمة، ومعرفة حقها من حفظ لها وعناية؛ في نُبل من الأخلاق؛ حتى قالت عنه أم سلمة رضي الله عنها: ما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة، فها هي المرأة المسلمة تُقدم لمثيلاتها الكفاح والصبر على الأذى في دينها، ولم يفتنها شيء عن إيمانها، بل بذلت جهدها في تحقيق قصدها؛ فوفقها الله تعالى الكريم الجواد.

وهكذا يحفظ الله تعالى لأبي سلمة زوجته وولده ويعيدهما إليه في حفظ منه جلَّ جلاله. كما قال ﷺ (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك)[(١)]

وبعد هذه الصورة المؤلمة في حياة أبي سلمة وأم سلمة رضي الله تعالى عنهما، والتي هي من مقدمات الهجرة النبوية إلى المدينة؛ وما لقيه المسلمون من كفار قريش؛ يعزم أيضاً أبو بكر الصديق ﷺ الرحيل إلى المدينة، ولكن رسول الله ﷺ يبشره بأنه يأمل من ربه أن يأذن له بالهجرة إلى المدينة، فيصحبه في هجرته، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت:(... وتجهز أبو بكر قِبَل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ على رِسْلِك، فإني أرجو أن يُؤْذَن لي. فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال: نعم. فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعَلَّفَ راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر وهو الخبط أربعة أشهر...)[(٢)]

يفيد هذا العزم من أبي بكر الصديق ﷺ قوة العزيمة، وعمق الحب لهذا الدين، الذي أصبح أحب إلى معتنقيه من الوطن والعشيرة والأهل. كما يفيد أن هجرة الرسول ﷺ إلى

[(١)] الترمذي (٥٧٦.٥٧٥/٤) برقم (٢٥١٦) وأحمد (٢٩٣/١)

[(٢)] البخاري (٦٩.٦٨/٣) برقم (٣٩٠٥)

المدينة بتوجيه من الله تعالى. وفيه كذلك من الفوائد: الأخذ بالأسباب، والاستعداد للأمر بوقت كاف، حيث (عَلَّفَ راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر وهو الخبط أربعة أشهر)

(...قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنِّعاً. في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر فداء له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر. قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأُذِن له، فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلُك بأبي أنت يا رسول الله، قال : فإني قد أُذِن لي في الخروج. فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ : نعم...)[1]

ومن فوائد هذا المقطع في الترتيب للهجرة: اختيار الصاحب الصادق، فلقد اختار عليه الصلاة والسلام الصاحب الصادق الذي لا يتوانى بقليل أو كثير في خدمة رسول الله ﷺ ولا يدخر لنفسه شيئاً عن رسول الله ﷺ حتى أنه حمل في هجرته جميع ماله، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: (لما توجه رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ومعه أبو بكر، حمل معه جميع ماله؛ خمسة ألف أو ستة ألف درهم)[2]

وكذلك من فوائد هذا المشهد النبوي مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه أخذ العدة للأمر الذي يُقدم عليه الإنسان، حيث اتخذ الرسول ﷺ وصاحبه راحلتين، قد علفها الصديق رضي الله عنه ورق السمر، مدة أربعة أشهر، وهذا يعني أنها أقدر ما تكون على هذه الرحلة الطويلة بإذن الله تعالى.

ثم تأتي أهمية السرية في الأمر، فيقول ﷺ لأبي بكر: (أخرج من عندك) ويستفاد من هذا أنه لا غضاضة أن يطلب خروج من يُخاف أو يُخشى منه، ولكن أبا بكر يبين أن

[1] البخاري (٦٩-٦٨/٣) برقم (٣٩٠٥)

[2] الحاكم، المستدرك (٥/٣)

الموجودين هم أهل لرسول الله ﷺ يخافون عليه كما يخافون على أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وصدق الصديق عندما قال للنبي ﷺ: إنما هم أهلك، فها هي أسماء تقطع من نطاقها لتربط به على فم الجراب، فَسُمِّيت: ذات النطاقين.

وفي هذا بيان لحال ومنهج الصَّدِيقِ مع صَدِيقِه، وكذا المرء مع رسالة نبيه، فيتمثل بما تمثل به أبو بكر الصديق رضي الله عنه الْمُحِب لرسوله ﷺ إذ يقول للنبي بعد أن أخبره أنه قد أُذن له في الهجرة، الصحبة بأبي أنت يا رسول الله ، ويعنى ذلك أن يتحمل المتاعب والمشاق من أجل نصرة ما جاء به نبيه محمد ﷺ

ثم تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في وصف ما دار بين النبي ﷺ وأبي بكر الصديق رضي الله عنه (... قال أبو بكر: فَخُذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين. قال رسول الله ﷺ : بالثمن. قالت عائشة: فجهزناهما أَحَثَّ الجهاز وصنعنا لهما سُفْرَة في جِرَاب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق...) [1]

ويفيد هذا لمقطع المحبة المفعمة بالصدق والفداء من أبي بكر لرسول الله ﷺ ليعطي المثل الصادق في كيفية المحبة والفداء للرسول ﷺ إذ يقول: خذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي، فَيُجِيبه ﷺ : بالثمن . مما يفيد أن لا تقضي الصداقة على الحقوق، وأن لا تكون مبنية على الاستغلال، وقد كان ذلك بين النبي ﷺ وبين صاحبه، فهي لازمة في حق أبي بكر الصديق رضي الله عنه لرسول الله ﷺ مما يجعلها بين غيرهما أولى. وإنها الأريحية مع الصديق، فما أحوج الناس إلى هذه المعاني الخُلُقية والسجايا الكريمة التي بينها رسول الله ﷺ قولاً وعملاً؛ وفي أحلك الظروف وأصعبها.

---

[1] البخاري (٣/٦٨-٦٩) برقم (٣٩٠٥)

ثم تأتي الصورة الأخرى من أسماء بنت أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنهما - فتبادر إلى فعل الخير، حيث قطعت من نطاقها بما تربط به فم الجراب. مما يفيد أهمية المبادرة لفعل المعروف، بأقصى ما يستطيع المسلم.

وأما حال قريش فلما رأت خروج المسلمين إلى المدينة وعودة من هاجر إلى الحبشه نحو المدينة أيضاً، أخذ مكرهم يزداد تجاه رسول الله ﷺ فقرروا بعد أن تشاوروا في أمره ﷺ بقرارات متعددة، ولكن الله تعالى فوقهم مطَّلع عليهم فَأَطْلَع رسوله على ما يمكرون به، فلحق بالغار، وقد روى ابن عباس رضي الله عنه في قوله (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك. قال: تشاورت قريش ليلة بمكة؛ فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق، يريدون النبي ﷺ وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: أخرجوه، فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك، فبات علي على فراش النبي ﷺ تلك الليلة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ فلما أصبحوا ثاروا إليه؛ فلما رأوا علياً رد الله مكرهم، فقالوا أين صاحبك هذا ؟ قال: لا أدري...)[١]

فبعد أن أطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ما عزمت عليه قريش من النوايا السيئة، يتخذ الأسباب عليه الصلاة والسلام، فيترك عَلِياً رضي الله عنه على فراشه تلك الليلة التي ذهب فيها إلى الغار، فأخذوا يحرسون علياً حتى أصبحوا، فرد الله مكرهم بغيظ يطعن قلوبهم، حيث اتضح لهم بعد طول ليل أنه علي رضي الله عنه وليس رسول الله ﷺ

وهذا دليل على شجاعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه والمحبة الفائقة والقدر العظيم الذي يحمله لرسول الله ﷺ. وفيه كذلك أهمية الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى.

---

[١] أحمد، المسند (٣٤٨/١)

ثم تقول رواية الحديث (... فاقتصوا أثره؛ فلما بلغوا الجبل خُلِّط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت. فقالوا: لو دخل ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاث ليال) [1]

فهذه عناية الله تعالى تَحُفُ رسوله وصاحبه في الغار، فيمر كفار قريش من عند الغار زاهدين فيه لِمَا شاهدوا من بيت العنكبوت على الغار، وقد وقفوا موقفاً لو طأطأ أحدهم رأسه لرآهم، كما قال أبو بكر الصديق ﷺ

وهكذا تتجلى قدرة الله تعالى العظيمة في حفظه وعنايته برسوله ﷺ وصاحبه الصديق ﷺ

وهكذا يكون المؤمن متخذاً للأسباب معتمداً على الله تعالى متوكلاً عليه، فهو الحافظ لعباده في الليل والنهار، وفي البر والبحر، وبين الأشجار والغابات وبين الوحوش، وفي الصحاري بين الهوام.

ولكي تتم الخطة بنجاح يذهب رسول الله ﷺ وصاحبه إلى غار ثور، فيمكث فيه ثلاث ليال، حتى تنقطع أنظار الناس وييأسوا من وجوده ﷺ

وهذا يدل على أهمية التخطيط وحُسن التفكير والتدبير؛ والأخذ بالأسباب، التي جعلها الله تعالى من مقتضيات دفع المكائد والشرور.

ويذكر أبو بكر الصديق ﷺ موقعهم من الغار؛ فيقول: (كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا. قال: اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثُهما) [2] قال تعالى ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ

---

[1] أحمد، المسند (٣٤٨/١)

[2] البخاري (٧٥/٣) برقم (٤٩٢٢)

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [١] قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مبينة مدة بقائهما في الغار، وكيفية تزويدهما بالطعام وأخبار قريش: (... ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بِغار في جبل ثور فَكَمِنَا فيه ثلاث ليال، يبيت عند هما عبدالله بن أبي بكر؛ وهو غلام شاب ثَقِف لَقِن، فيدلج من عند هما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه؛ حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم؛ فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العِشَاء، فيبيتان في رِسلٍ، -وهو لبن منحتِهما ورَضيفهما- حتى ينعق[٢] بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث...)[٣]

يبين هذا المشهد من رواية عائشة رضي الله تعالى عنها، المزيد من الأهمية التخطيطية؛ والأخذ بالأسباب، وجمع المعلومات التي يسهل من خلالها اتخاذ القرار، وهو ما يُعنى به في عمليات التخطيط؛ بمختلف مستوياتها، وفي جميع الميادين والمجالات، فَيُتَخَذُ الشاب الحاذق سريع الفهم، عبدالله بن أبي بكر الصديق، فيبيت عندهم الليل، فيصبح مع قريش، وينقل لهما ما يسمعه من الأخبار التي يتحدثون بها عن الرسول ﷺ ويعود إليهما حين يختلط الظلام، حيث لا يراه ولا يتوقع بخروجه أحد. مما يؤكد أهمية العناية بالأسباب، وحُسن التدبير والتفكير، مما يبين أن المنهج الإسلامي يراعي الأخذ بالأسباب، والعناية بها، مع الاعتماد

---

[١] سورة التوبة: آية رقم (٤٠)

[٢] المنحة: تطلق على الشاة. والرضيف: اللبن المرضوف، التي وضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار، لينعقد وتزول رخاوته. ينعق: أي يصيح بغنمه. والنعيق: صوت الراعي إذا زجر الغنم. الفتح (٢٣٧/٨).

[٣] البخاري (٦٨/٣-٦٩) برقم (٣٩٠٥).

على الله تعالى، وهو ما أكده ﷺ لصاحبه عندما قال له (لا تحزن إن الله معنا) كما جاء في الآية الكريمة.

وللمزيد من الأخذ بالأسباب، يأتي عامر بن فهيرة بعد العشاء بالغنم يرعاها، ثم يعود بها بغلس، فيشربون من لبنها، ويمحو بها خُطى عبدالله بن أبي بكر رضي الله عنهما، فلقد أُتُخِذَت جميع الوسائل التي يحتاجانها في الغار من الطعام ومعرفة الأخبار بدقة وعناية.

ثم تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها في وصف هذه الهجرة النبوية (...واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدِّيل، وهو من بني عبد بن عدي هادياً خِرّيتا . والخِرِّيْت: الماهر بالهداية . قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، فدفعا إليه راحِلتَيهما، ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهم طريق الساحل) [1]

يبين هذا المقطع من الحديث أنه قبل ذهابهما إلى الغار استأجرا رجلاً ماهراً بالطريق إلى المدينة، وهو عبدالله بن أُرَيْقِط الليثي، ليكون دليلهما من جهة الساحل، الذي لا يتوقعه أحد من قريش، وبالرغم من أن الدليل ليس مسلماً إلا أنهما أمّناه فدفعا إليه راحلتيهما، وهذا يعني أنهما قد عرفا حال هذا الرجل من حيث أمانته وصدقه ووفائه وخبرته المعرفية بالطريق، وهذا ما ينبغي مراعاته عند توظيف العاملين في المواقع المهمة والحساسة، من اختيار الأكفأ الخبير الذي يؤدي العمل وينجزه على أحسن ما يكون. وفيه الاستفادة من الكافر إذا لم يوجد المسلم، وكان ممن يؤمن جانبه.

فلقد أخذت مراحل الخطة للهجرة مرحلتين:

المرحلة الأولى: بعد بيعة العقبة الثانية، عندما أرسل رسول الله ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة ليُعَلِّم الناس، ومعه ابن أم مكتوم رضي الله عنه وأخبر الرسول ﷺ أصحابه بأنه رأى دار

---

[1] البخاري (٦٩-٦٨/٣) برقم (٣٩٠٥)

هجرتهم ذات نخل بين لابتين، فهاجر من هاجر من المسلمين، وبذلك تكونت النواة الأولى للمسلمين من مهاجرين وأنصار في مدينة رسول الله ﷺ

وإنها لمرحلة مهمة جداً؛ تتهيأ فيها المدينة لأمر عظيم، هو قدوم رسول الله ﷺ إليها، وانتقال الرسالة إلى رحابها.

المرحلة الثانية: وهي هجرة المصطفى ﷺ فاتخذ فيها عليه الصلاة والسلام أسباب الرحيل؛ من إعداد وتجهيز وتموين وراحلة ودليل، مما يؤكد أن المنهج الإسلامي منهج علمي عملي، قائم على الأخذ بالأسباب والاجتهاد فيها غاية الاجتهاد، مع التوكل على الله حق التوكل، وكلا الأمرين ظاهران في هجرته ﷺ فلقد كان يقول لصاحبه وهو في الغار: (اثنان؛ الله ثالثهما) فهو غاية التوكل الذي يبعث الثقة والاطمئنان، وكذلك عندما قدم عليهم سراقة؛ على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وفي نفس الوقت أخذ عليه الصلاة والسلام بجانب الأسباب في دقة وعناية واهتمام، لتعطينا هذه الهجرة في جميع خطواتها أهمية الدقة في العمل والمنهج والتفكير، وحساب جميع العوامل والاحتمالات التي يمكن أن تطرأ على الإنسان في عمله وأدائه اليومي، فها هو ﷺ يخرج إلى بيت أبي بكر في نحر الظهيرة؛ عند اشتداد حرارة الشمس، حيث الناس يتظللون في بيوتهم من حرارة الشمس، وبالتالي لن يرصدوا حركته ﷺ

علماً أن الله تعالى قادر على أن يسري به إلى المدينة؛ كما أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. ولكن رسالته علم ومنهج يقتدي به المسلمون في جميع شؤونهم، فيتعرض عليه الصلاة والسلام لما يتعرض له البشر من مصاعب والمتاعب، ويتخذ الأسباب؛ ويجتهد في ذلك؛ مع التوكل على الله حق التوكل.

وبعد خروج المصطفى ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه من الغار في طريقهما إلى الساحل؛ لِيَنْفُذَا من خلاله إلى المدينة، يواجهان مواقف عديدة، قد تجلت فيها معية الله تعالى لهما، وكرم خُلُقه ﷺ وبعض المعجزات الباهرات، وكذا محبة الصديق له عليه الصلاة والسلام، وشهادة

من يقابله ممن لا يعرفه؛ بأنه نبي ﷺ لما يرون عليه من الصفات والخلال التي لا يمكن أن تكون إلا في نبي، فيروي منها البراء بن عازب رضي الله عنه فيقول: (جاء أبو بكر الصديق إلى أبي في منزله. فاشترى منه رحلاً، فقال لعازب: ابعث معي ابنك يحمله معي إلى منزلي. وقال لي أبي: احمله فحملته. وخرج أبي معه يَنْتَقِدُ ثمَنَه.[١]...) [٢]

يبين هذا المقطع صورة لأسلوب التعامل التسويقي في البيع والشراء؛ والذي كان سائداً في مدينة رسول الله ﷺ ذلك الوقت. من معاونة الابن لأبيه في بيعه وشرائه، وكذلك خدمة المشتري؛ بحمل ما يشتريه لداره، والذهاب مع المشتري لقبض الثمن. مما يبين الخُلُق الرفيع الذي تتميز به أخلاق التجارة في رحاب الإسلام، والتواضع الذي كان سائداً في ذلك الوقت، مما يعطي نموذجاً تربوياً عاليا في هذا الباب.

ثم يقول البراء رضي الله عنه حاكياً طريق الهجرة النبوية (... فقال له أبي: يا أبا بكر ! حدثني كيف صنعتما ليلة سَرَيْتَ مع رسول الله ﷺ قال: نعم. أَسْرَيْنا ليلتنا كلها. حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق فلا يمر فيه أحد. حتى رُفِعَتْ لنا صخرة طويلة لها ظل. لم تأت عليه الشمس بعد، فنزلنا عندها، فأتيت الصخرة فسويت بيدي مكانا، ينام فيه النبي ﷺ في ظلها. ثم بسطت عليه فروة، ثم قلت: نم يا رسول الله ! وأنا أنفض لك ما حولك. فنام وخرجت أنفض ما حوله...)[٣]

وفي هذا المشهد من الخبر: عناية واهتمام أبي بكر الصديق رضي الله عنه بخدمة رسول الله ﷺ فكان يهيئ المكان المناسب لرسول الله ﷺ لينام أو يستريح، ويعمل ذلك بنفسه رضي الله عنه ،

---

[١] أي يستوفيه.

[٢] مسلم (٤/٢٣٠٩.٢٣١٠) برقم (٢٠٠٩)

[٣] مسلم (٤/٢٣٠٩.٢٣١٠) برقم (٢٠٠٩)

ويستفاد من ذلك أهمية احترام ذوي الفضل من أهل العلم وخدمتهم، والعناية بهم؛ لأنهم ورثة الأنبياء.

ثم يقول أبو بكر الصديق ﷺ (...فإذا أنا براعي غنم مقبل بغنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي أردنا، فلقيته فقلت: لمن أنت ؟ يا غلام ! فقال: لرجل من أهل المدينة، قلت: أفي غنمك لبن ؟ قال: نعم. قلت: أفتحلب لي؟ قال: نعم. فأخذ شاة، فقلت له: أنفض الضرع من الشعر والتراب والقذى، (قال:فرأيت البراء يضرب بيده على الأخرى ينفض) فحلب لي في قَعْبٍ [1] معه، كُثْبَةً [2] من لبن، قال: ومعي إداوة [3] أرتوي فيها للنبي ﷺ ليشرب منها ويتوضأ، قال: فأتيت النبي ﷺ وكرهت أن أُوقِظَهُ من نومه، فوافقته استيقظ، فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفلُهُ، فقلت: يا رسول الله ! اشرب من هذا اللبن، قال: فشرب حتى رضيت، ثم قال: (ألم يأن للرحيل ؟) قلت: بلى، قال: فارتحلنا بعد ما زالت الشمس...)[4]

ومن فوائد هذا الحدث؛ لطفه ﷺ في المعاملة، فلم يَقُل لأبي بكر الصديق: لنذهب، وإنما قال له ذلك بصيغة الاستفسار، (ألم يأن للرحيل) ولا شك أنها ألطف وأبلغ في التأثير، فكيف إذا كانت من رسول الله ﷺ لصاحبه ؟ ويستفاد من ذلك أهمية استخدام أساليب التلطف من الأعلى للأدنى في مجالات الحياة المختلفة، مع الأبناء والزوجة والمرؤوسين، وغيرهم، فإنها وسيلة وغاية وأداة تؤدي إلى نماء العلاقات العامة بين الناس.

---

(١) القعب: قدح من الخشب مقعر.

(٢) الكثبة: هي القدر الذي يُحلب فيه، وقيل: هي القليل من الحليب.

(٣) الإداوة: إناء صغير من جلد.

(٤) مسلم (٢٣٠٩/٤.٢٣١٠) برقم (٢٠٠٩)

كما يتبين من هذا المقطع حرصه ﷺ على سلامة رسول الله ﷺ بأن طلب من الراعي أن ينفض الضرع من الشعر والقذى والتراب.

ثم يقول البراء ﷺ (...واتَّبَعَنَا سراقة بن مالك، قال: ونحن في جلد من الأرض، فقلت: يا رسول الله ! أُتينا، فقال: (لا تحزن إن الله معنا) فدعا عليه رسول الله ﷺ فارتطمت فرسه إلى بطنها، أُرى، فقال: إني قد علمت أنكما قد دعوتما عليَّ، فادعوا لي، فالله لكما أن أرد عنكما الطلب، فدعا الله، فَنَجَا، فرجع لا يلقى أحداً إلا قال: قد كفيتكم ما ههنا، فلا يلقى أحداً إلا رده، قال: ووفى لنا)[١]

وتظهر هنا معجزة نبوية يُظهرها الله تعالى على يدي رسوله ﷺ في هذا الطريق، وفي تلك الأرض الصلبة التي كانت عبارة عن جلد، وقد سبقها التوكل الصادق، عندما قال أبو بكر الصديق ﷺ :أُوتينا. فيقول عليه الصلاة والسلام: (لا تحزن إن الله معنا) فهذه معية الله الخاصة تظهر في هذا الموقف. ويستفاد من ذلك أهمية التذكير بالله تعالى والتطمين من القائد، أو صاحب الأمر لمن يتبعه، بما يدفع المرء إلى التوكل على الله تبارك وتعالى، ويشحذ همته.

فالله تعالى هو الناصر لدينه ورسوله بما يجعله سبحانه وتعالى من الأسباب التي قد تكون خارقة للعادة، فهذا سراقة ترتطم فرسه إلى بطنها في أرض صلبة، فيتأكد له الأمر في حينه؛ أن هذا رسول الله، وأنه غير ناجٍ إلا بدعائه ﷺ حيث جاء في رواية أنه قال: يا محمد قد علمتُ أن هذا عَمَلُك؛ فادع الله أن يخلصني مما أنا فيه.[٢]

---

[١] مسلم (٢٣٠٩/٤-٢٣١٠) برقم (٢٠٠٩) مختصراً

[٢] مسلم (٢٣٠٩/٤-٢٣١٠) برقم (٢٠٠٩)

ويستفاد من هذا أن النصر بيد الله تعالى، وأن جند الله لا يحصيها عدد، ولا يُحيط بها أحد، وأن لا ييأس المسلم مهما كانت الأحوال والظروف، وأن لا يجعل لذلك طريقاً إلى نفسه. وكذلك الالتزام بالدعاء في كل وقت وحين، فبه ترفع البلايا بإذن الله تعالى.

وتأتي معجزة أخرى في هذا الطريق الطويل، فيتحول المكان المجدب الذي خلا من الطعام إلا شاة قد خلَّفَها الجهد عن بقية الغنم، وأصبحت أجهد من أن يكون بها لبن إلى شاة قد درت لبناً؛ فاستقى القوم منها، فقد مَرَّ رسول الله ﷺ ومن معه بخيمتي أم معبد الخزاعية فسألوها لحماً وتمراً ليشتروا منها؛ فلم يُصيبوا عندها شيئاً من ذلك، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة ، فقال: (ما هذه الشاة يا أم معبد ؟) قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، قال: (هل بها من لبن ؟) قالت: هي أجهد من ذلك، قال: (أتأذنين لي أن أحلبها ؟) قالت: بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها؛ وسمى الله تعالى ودعا لها في شاتها؛ فتفاجت؛ عليه ودرت فاجترت؛ فدعا بإناء، فحلب فيه ثجاً حتى علاه البهاء، ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا؛ وشرب آخرهم، ثم حلب فيه الثانية على هذه، حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها ثم بايعها، وارتحلوا عنها...[١]

وتتكرر دماثة خُلُقِه ﷺ في هذا الموقف، حيث يستأذن المرأة في حلب شاتها، ويقوم هو بنفسه ﷺ بعمل ذلك، ثم يبدأ بسقيا المرأة أولاً حتى رَوِيَت، فراعى ﷺ ملكيتها للمكان والشاة، ثم يسقي أصحابه حتى رووا ثم يشرب ﷺ آخرهم، ولم يكتف بذلك عليه الصلاة والسلام؛ بل زاد من كرمه ودماثة خُلُقه أن ملأ لها الإناء ثم غادروا المكان. وهكذا يقدم ﷺ لأمته في كل موقف من مواقف حياته الدروس العملية والخُلُقية التي تزكوا بها النفوس وتعلوا في

[١] الحاكم، المستدرك (١٠٠٩/٣)

ركاب الحضارة والمدنية الصحيحة ذات البناء الخلقي الرفيع. وفي الحديث بيان إسلام أم معبد رضي الله عنها؛ حيث قالت رواية الحديث (ثم بايعها)

ثم تقول رواية هذا الحديث: ثم ما لبث أن جاءها زوجها أبو معبد، فلما رأى اللبن أعجبه، فقال: من أين لك هذا يا أم معبد ؟ والشاء عازب حائل ولا حلوب في البيت، قالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك، من حاله كذا وكذا، قال: صفيه لي يا أم معبد، فوصفته، فقال: هذا والله صاحب قريش الذي ذُكِر لنا من أمره ما ذُكِر، ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا. وأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه، وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه

رفيقين حلا خيمتى أم معبد

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها

فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد[1]

وفي كلام أبي معبد ما يفيد أن خبر نبوة رسول الله ﷺ قد وصل إلى بطون الصحراء؛ وطرق القوافل، حيث قال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي ذُكِر لنا من أمره ما ذُكِر.

وفيه من الفوائد: أن الصفات الحميدة داعية للتأثر والاقتداء، حيث تأثر أبو معبد بوصف وصفة رسول الله ﷺ فعزم على صحبته، مما يبين أهمية السيرة الذاتية للداعية خاصة؛ والمسلم عامة؛ حتى يكونوا دعاة خير لهذا الدين.

---

[1] الحاكم، المستدرك (١٠٩/٣) وتم اختصاره

ولئن ظهرت المعجزة في حصول اللبن من شاة لا لبن فيها، فقد ظهرت أيضاً في إيصال الخبر إلى مكة بأبيات قد سُمِعَ دويها في أم القرى، تُظهر وتعلن تلك المعجزة، بتأكيد على عناية ربه تبارك وتعالى به ﷺ.

وتتكرر المعجزة أيضاً في موقف آخر؛ حيث مر ﷺ ومن معه بعبد يرعى غنماً فاستسقياه من اللبن، فقال: ما عندي شاة تحلب، غير أن ههنا عناقاً حملت أول الشتاء، وقد أخدجت وما بقي لها لبن، فقال ﷺ: (ادع بها) فدعى بها ؛ فاعتقلها النبي ﷺ ومسح ضرعها، ودعا حتى أنزلت، فشربوا. فقال: الراعي بالله من أنت ؟ فوالله ما رأيت مثلك قط، قال: أو تراك تكتم عليَّ حتى أُخبرك؟ قال: نعم، قال: فإني محمد رسول الله. فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ، قال: إنهم ليقولون ذلك ؟ قال: فأشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك، قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك؛ فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا. [١]

ويبين هذا الموقف تكرار المعجزة، وتوفيق الله تعالى ومعيته لنبيه ﷺ كما بين أن قريشاً قد بذلت جهداً كبيراً في صد الناس عن الرسول ﷺ واستخدمت أسلوب التكذيب والبهتان، حتى وصلت هذه الافتراءات للراعي يرعى الغنم في الصحراء، فيقول الراعي: أنت الذي تَزْعُم قريش أنه صابئ ؟

ويفيد هذا الموقف: أن الحق أبلج، فلابد له من الظهور؛ مهما كاد الكائدون ومكر الماكرون، وأن الباطل مآله الخسران المبين مهما بلغ أصحابه من القوة والتأثير، فلا يسع المؤمن إلا الصبر والعمل وعدم اليأس.

---

[١] الحاكم، المستدرك (٣/٩٠٨)

ثم حكمته ﷺ التي تظهر في كل قرار يتخذه، فلم يصرف هذا الراعي إلى الاتجاه معه صوب المدينة، بل أخبره بأن يبقى حتى يسمع بظهوره ﷺ فيأتي إليه، لما في ذلك من مصلحة للراعي وللدعوة، والله تعالى أعلم. ويكفيه في تلك اللحظة دخوله في الإسلام.

وهكذا يكون المؤمن حكيماً في قراراته، ينظر إلى مغبة القرار قبل إبرامه، حتى يتفادى مؤثراته، فيلزم الدقة في التفكير، ودراسة القضايا دراسة واعية.

وعن عروة بن الزبير رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين، كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبيرُ رسولَ الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض...)[١]

في هذا النص بيان تتابع توفيق الله تعالى لرسوله ﷺ حيث يتزامن وجوده ﷺ في ذلك المكان مع وصول الزبير في ركب من المسلمين؛ قادمين من الشام، فيكسو الزبيرُ رسولَ الله ﷺ وصاحبَه ثياباً بيضاً، فَيَقْدِمُ بها على أهل المدينة.

ثم يقول عروة بن الزبير رضي الله عنه (...وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرون، حتى يردهم حَرُّ الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أَوَوْا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أُطُمٍ من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله وأصحابه مبيَّضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون...)[٢]

ويستفاد مما جاء في هذا النص: حِرْصُ أهل المدينة وتشوقهم ومحبتهم لرسول الله ﷺ التي جعلتهم يغدون صبيحة كل يوم إلى الحرة ينتظرون مقدمه ﷺ حتى إذا اشتد الحر عليهم عادوا إلى بيوتهم.

---

(١) البخاري (٣/٧٠-٧١) برقم (٣٩٠٦)

(٢) البخاري (٣/٧٠-٧١) برقم (٣٩٠٦)

ولئن صَدَّ عنه كفار قريش وأهل الطائف فإن قلوباً قد تعلقت برسول الله ﷺ في المدينة. وإنه لَعِوَضٌ عن ذلك الصدود، وعن تلك السنين التي امتلأت بالجفاء والرفض والأذى.

ويُستفاد من ذلك أن على المسلم أن يبحث عن مصلحة دينه أينما كانت، ويقدمها على كل مصلحة، حتى ولو لزم الأمر أن ينتقل من حي إلى حي أو من مدينة إلى مدينة ليحفظ فيها سلوك أهله وأخلاقهم ودينهم، أو ليُعَلِّم فيها وينشر الخير. وقد فعل ذلك أصحاب رسول الله ﷺ من بعده، فقد ذهبوا إلى بعض الأمصار لتعليم الناس، ونشر الإسلام بينهم.

ويستفاد من ذلك أن تكون حرارة قلوب المؤمنين في محبة وطاعة رسوله ﷺ والتشوق إلى نصرة هذا الدين كحرارة قلوب الأنصار في تشوقهم إلى رسول الله ﷺ .

ثم يقول عروة بن الزبير رضي الله عنه في وصف ذلك الحدث العظيم (...فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار - ممن لم ير رسول الله ﷺ - يحي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ...)[1]

يظهر من هذه الرواية الحديثية: تواضعه ﷺ إذ لم يظهر بالمظهر الذي يميزه عن غيره من الناس، وفيه كذلك من الفوائد حرص أبي بكر الصديق رضي الله عنه على خدمة رسول الله ﷺ والعناية به، فيظلله عن الشمس بردائه، فيعطي بذلك أبو بكر الصديق الأدب والحرص الذي

---

[1] البخاري (٣/٧٠-٧١) برقم (٣٩٠٦)

ينبغي أن يكون عليه المسلم مع رسوله ﷺ ولئن توفي رسول الله ﷺ فإن دين الله باق، ومحبته ﷺ باقية، فيتأدب المرء معه؛ ويحب سنته؛ ويعمل بها، ويحرص عليها كحرص أبي بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وكذلك التأدب مع أهل العلم الذين ورثوا ميراث رسول الله ﷺ

ويستفاد من هذه الرواية أهمية المسجد، وأهمية العناية به، وأهمية وضعه في قلب كل مدينة أو حي يُنْشَأ، فمن أول أعماله ﷺ في قباء بناء المسجد الذي أسس على التقوى.

وقد مكث ﷺ في بني عمرو بضع عشرة ليلة، وقيل: إنها أربع عشرة ليلة.

(...ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة...)[(١)]

وقد ظهر الفرح العميق الذي غشا رجال الأنصار ونساءهم وصبيانهم حتى صعدوا فوق البيوت، وانتشر الغلمان والخدم في الطرقات ينادون: يا محمد، يا رسول الله! يا محمد ! يا رسول الله! [(٢)] إنها لفرحة عظيمة قد ملأت قلوب الأنصار بمقدم رسول الله ﷺ

ومن شواهد ذلك الفرح العميق أن الرسول ﷺ عندما أراد دخول المدينة بعث إلى الأنصار، فجاءوا إلى نبي الله ﷺ وأبي بكر، فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مُطاعين، وحفوا دونهما بالسلاح، فقيل في المدينة: جاء نبي الله ! جاء نبي الله ﷺ ! فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله [(٣)]

ويقول عروة بن الزبير رضي الله عنه (...فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل؛ غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: هذا إن

---

(١) البخاري (٣/٧٠،٧١) برقم (٣٩٠٦)

(٢) مسلم (٤/٢٣١١) برقم (٢٠٠٩)

(٣) البخاري (٣/٧٢،٧٣) برقم (٣٩١١)

شاء الله المنزل. ثم دعا رسول الله الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا : لا ، بل نَهَبُهُ لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول . وهو ينقل اللبن:

هذا الحمال لا حمال خيبر

هذا أبرُّ ربنا وأطهر

اللهم إن الأجرَ أجرُ الاخرة

فارحم الأنصار والمهاجر[1]

فمن أول أعماله ﷺ في قباء بناء المسجد الذي أسس على التقوى، وكذلك عندما حط رحاله ﷺ في المدينة، حيث شرع في بناء مسجده ﷺ مما يؤكد أهمية المسجد في حياة المسلمين، ولذلك يجب أن يُعطى الأهمية والعناية والحرص على أن يكون العنصر الأول في كل حي ومدينة.

ويظهر كرمه ﷺ إذ لم يقبل عطية مربد التمر من اليتيمين إلا بثمن، ولعل سبب ذلك والله تعالى أعلم كونهما يتيمين، كما يظهر من ذلك محبة اليتيمين له ﷺ فيقولان له: نهبه لك يا رسول الله.

كما يظهر تواضعه وتشجيعه ﷺ بأن شارك في نقل اللبن في بناء المسجد، مما يفيد ويبين منهجية المؤمن مع إخوانه في مناشطهم وأعمالهم المشتركة، وهكذا يكون المعلم القدوة مع طلابه، والرئيس مع مرؤوسيه.

---

[1] البخاري (٣/٧٠،٧١) برقم (٣٩٠٦)

ومن الفوائد أيضاً: أهمية الترويح أثناء العمل الشاق، بالكلام الجميل الطيب، والأهازيج التي تبعث وتدفع المرء للعمل والجد، وتُشْعِلُ فيه جَذْوَةَ النشاط والحيوية. فلقد اشتملت تلك العبارات التي كان يرددها ﷺ الدعاء والتذكير بأجر الآخرة.

وأما فيما يتعلق بسكنه ﷺ قبل بناء داره، فقد جاء في الحديث: (...جاء نبي الله. فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب...)[1] فنزل على أبي أيوب الأنصاري ، وكان داره من طابقين، فعن أفلح مولى أبي أيوب، عن أبي أيوب (أن النبي ﷺ نزل عليه فنزل النبي ﷺ في السُّفْل وأبو أيوب في العُلْو، قال فانتبه أبو أيوب ليلة، فقال: نمشي فوق رأس الرسول ﷺ فَتَنَحُّوا فباتوا في جانب، ثم قال للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ السُّفْلُ أرفق، فقال: لا أعلوا سقيفة أنت تحتها، فتحول النبي ﷺ في العلو، وأبو أيوب في السُّفْل، فكان يصنع للنبي ﷺ طعاماً فإذا جِيء به إليه؛ سأل عن موضع أصابعه، فيتتبع موضع أصابعه، فصنع له طعاماً فيه ثوم، فلما رُدَّ إليه سأل عن موضع أصابع النبي ﷺ فقيل له: لم يأكل! ففزع وصعد إليه فقال: أحرام هو ؟ فقال النبي ﷺ لا ولكني أكرهه، قال: فإني أكره ما تكرهه، أو ما كرهتَ، قال: وكان النبي ﷺ يُؤتَى)[2] ومعنى يُؤتى: أي تأتيه الملائكة، والوحي.

فهكذا يقدم أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنموذجاً من حب الأنصار لرسول الله ﷺ وعمق تفكيرهم، وتصورهم لتلك المحبة؛ حتى أن أبا أيوب، ينظر إلى موقعه في الدور الثاني أنه لا يليق به وبأهله، ورسول الله ﷺ أسفل منه، ثم يتتبع مكان أصابعه ﷺ فيأكل من موضعها، فحقاً له أن يصنع ذلك، فإنه رسول الله ﷺ .

فلقد علمنا سيدنا أبو أيوب الأنصاري كيف تكون محبة رسول الله ﷺ وما يجب أن يكون عليه المؤمن؛ بأن لا يقدم أمراً على أمر رسول الله ﷺ ولا يستأثر بشيء عن رسول

---

(١) البخاري (٣/٧٢،٧٣) برقم (٣٩١١)

(٢) مسلم (٣/١٦٢٣،١٦٢٤) برقم (٢٠٥٣)

اللهﷺ وأنه يجب متابعته في كل أمر، فلئن تتبع أبو أيوب موضع أصابعه ﷺ فإنه لحري بأمته أن تحرص على تتبع منهجه وتقدمه على أهوائها وأفكارها، كما تتبع أبو أيوب مواضع أصابعه ﷺ

فلقد ترك أصحاب رسول الله ﷺ المنهج الواقعي والعملي في محبته ﷺ من خلال متابعته، وتقديم أمره ونهيه وحبه وتوجيهه على كل شيء في حياتهم، فهذه هي المحبة الصحيحة الصادقة، وليست تلك المحبة التي مجراها الادعاء، وفيما يحب الإنسان، وما يتفق مع هواه ورغباته. رحمة الله تعالى عليهم ورضي الله عنهم وجزاهم عن المسلمين خير الجزاء.

الفصل الرابع

أسس تكوين دولة الإسلام

أسس تكوين دولة الإسلام:

لقد جاء الإسلام إلى المدينة بسلامه وأمانه ورخائه وخيراته العظيمة؛ ليوحدها بمنهج الإسلام القويم؛ الذي يوحد القلوب على عقيدة التوحيد، ويغرس الفضائل بأخلاق الإسلام وهديه، لتتوحد المشاعر وتتجانس السلوكيات والتصرفات، فيحصل بينها التوافق الذي يُمَكِّن إقامة دولة الإسلام، لتنشر دين الله تعالى في أرجاء الدنيا.

وقد تأسس هذا الكيان الإسلامي العظيم بنبوة ورسالة سيد المرسلين؛ نبينا محمد ﷺ الذي أسسه على قواعد وأسس ربانية عظيمة، وهي:

بناء المسجد :

لقد شرع رسول الله ﷺ في بناء مسجده، عند وصوله المدينة، فعن عروة بن الزبير رضي الله عنه، قال:(.... فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ. ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر سعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: هذا إن شاء الله المنزل. ثم دعا رسول الله الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا : لا ، بل نَهَبُهُ لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول ـ وهو ينقل اللبن:

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبرُّ ربنا وأطهر

اللهم إن الأجرَ أجرُ الآخرة فارحم الأنصار والمهاجر[1]

---

[1] البخاري (٣/٧٠،٧١) برقم (٣٩٠٦)

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة؛ نزل في عُلوِّ المدينة، في حيٍّ يقال لهم بنو عمرو بن عوف، قال: فأقام فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى ملأ بني النجار، قال: فجاءوا متقلدي سيوفهم، قال وكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر رِدْفَه وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب، قال: فكان يُصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم. قال: ثم إنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ بني النجار، فجاءوا. فقال: يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا، فقالوا: والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله. قال: فكان فيه ما أقول لكم، كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خِرَبٌ، وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فَنُبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، قال: فصفوا النخل قبلة المسجد، قال: وجعلوا عِضادَتَه حجارة، قال: جعلوا ينقلون ذاك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم؛ يقولون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة)[1]

فلقد تم تشييد مسجد رسول الله ﷺ ليكون المنطلق الأول الذي تنطلق منه وبه هذه الأمة، لأنه شعار وحدتها، ومكان تجمعها، وعنوان لعزتها. تُؤدى فيه الصلوات؛ وتجتمع فيه الجموع، وتناقش فيه قضايا الأمة، وهو المدرسة التي يتعلم فيها المسلمون أمور دينهم، فهو حياة الأمة وقلبها النابض، يجتمعون فيه ويتعارفون من خلاله، وينطلقون منه.

وإن اجتماع المسلمين في المسجد لأداء الصلاة يعلم أفرادها حاجة بعضهم لبعض حتى تتم الفريضة على الوجه الذي أراده سبحانه وتعالى، وأن زيادة حسناتهم في هذا الباب مرتهن بتجمعهم في صفوف منتظمة. قال ﷺ (صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع

(١) البخاري (٣/٧٧-٧٨) برقم (٣٩٣٢)

وعشرين درجة)[١] وإن المسجد ليجسد أفراد الأمة في جسد واحد؛ عنوانه المسجد، فلم يبق إلا أن تدرك الأمة هذه المعاني التي تنبثق من المسجد لتحفظه وتحافظ على شعائره.

ولقد كان عليه الصلاة والسلام ينقل مع أصحابه اللبن، أي الطوب المعمول من الطين الذي لم يحرق، وأنه صلى فيه وهو عريش اثنى عشر يوماً، ثم بناه وسقفه، وفي رواية أنه ﷺ بناه أولاً بالجريد، ثم بناه باللبن بعد الهجرة بأربع سنين [٢] وكانت أعمدته خشب النخل[٣]

وإن هذا العمل المتجدد والمتلاحق يؤكد أهمية العناية بالمساجد وصيانتها، والحفاظ عليها، وإيلائها الأهمية التي تحقق القيام برسالتها.

وقد كان المسلمون يتحينون وقت الصلاة قبل فرضية الأذان، فعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال (كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة، ليس يُنَادَى لها. فتكلموا يوماً في ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بوقاً مثل قرن اليهود، فقال عمر: أولا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة ؟ فقال رسول الله ﷺ يا بلال، قم فناد بالصلاة)[٤]

وفرض الأذان على الراجح في السنة الأولى من الهجرة.[٥] وذلك عندما رأى عبدالله بن زيد في منامه صيغة الأذان، حيث يقول رضي الله عنه (لما أصبحنا أتينا رسول الله ﷺ فأخبرته بالرؤيا، فقال ﷺ : إن هذه لرؤيا حق، فقم مع بلال فإنه أندى وأمد صوتاً منك. فألق عليه ما قيل لك، وليناد بذلك، قال: فلما سمع عمر بن الخطاب نداء بلال بالصلاة، خرج إلى

---

(١) البخاري (٢١٦/١) برقم (٦٤٥)
(٢) ابن حجر، فتح الباري (٢٤٦/٧)
(٣) البخاري (١٦٠/١-١٦١) برقم (٤٤٦)
(٤) البخاري (٢٠٥/١) برقم (٦٠٤)
(٥) ابن حجر، فتح الباري (٧٨/١)

رسول الله ﷺ وهو يجر إزاره، وهو يقول: يا رسول الله! والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي قال، فقال رسول الله ﷺ فلله الحمد؛ فذلك أثبت)[١]

وهكذا تتنزل مِنَنُ الله تعالى وخيراته على المسلمين بتعليمهم ما يجتمعون به وعليه، وصيغة اجتماعهم بنداء مبارك، يتقدمه الإعلان بأن الله أكبر، قال القرطبي وغيره: الأذان على قلة ألفاظه مشتمل على مسائل العقيدة، لأنه بدأ بالأكبرية، وهي تتضمن وجود الله وكماله، ثم ثنى بالتوحيد ونفي الشرك، ثم بإثبات الرسالة لمحمد ﷺ ثم دعا إلى الطاعة المخصوصة عقب الشهادة بالرسالة لأنها لا تُعرف إلا من جهة الرسول ﷺ، ثم دعا إلى الفلاح وهو البقاء الدائم، وفيه الإشارة إلى المعاد، ثم أعاد ما أعاد توكيداً. ويحصل بالأذان الإعلام بدخول الوقت، والدعاء إلى الجماعة، وإظهار شعائر الإسلام. [٢]

ولقد قام المسجد النبوي بمهمات كبيرة وعظيمة، ومن أبرز تلك المهام: إيواء فقراء وضعفاء المسلمين، الذين عُرفوا بأهل الصفة.(٣) وقُسِّمت فيه الأموال.(٤) وكان مكاناً لتعليم المسلمين أمور دينهم ومكاناً لاعتقال الأسير المشرك. (٥)إذا كان في ذلك عظة لمن يراه، وعظة له فيما يرى من حال المسلمين، ومن الصلاة، وسماع القرآن وأحاديث الرسول ﷺ كما في قصة ثمامة بن اثال.(٦) وفيه تم تطبيب جرحى المسلمين كما في قصة سعد رضي الله عنه

---

[١] الترمذي (١/٣٥٨-٣٥٩) برقم (١٨٩)

[٢] ابن حجر، فتح الباري (٢/٧٧)

[٣] البخاري (١/١٥٩) بأرقام (٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢)

[٤] البخاري (١/١٥٢.١٥٣)

[٥] البخاري (١/١٦٥.١٦٦) برقم (٤٦٢)

[٦] مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص (٢٩٧.٢٩٨) وفي هذا الكتاب النفيس فوائد متنوعة عظيمة.

عندما أصيب يوم الخندق[1]. ومكاناً للقضاء[2]. وعقدت فيه ألوية لجيوش وسرايا المسلمين. وقد كان مكاناً يجتمع فيه المسلمون مع نبيهم وقائدهم.

فهذه الشواهد لمهام المسجد تؤكد أن المسجد في عهده ﷺ كان يمثل الحياة النابضة بالحركة والفاعلية، والأداء الفاعل والمؤثر في حياة الصحابة، وكأنه لا يخلو ساعة من ليل أو نهار.

مما يؤكد الفاعلية العظيمة والمؤثرة للمسجد في الإسلام، وما يقوم به من مهام تربوية واجتماعية، وغيرها مما لا يستغني عنها الناس.

وسيتضح إن شاء الله تعالى أثره الفاعل في الجانب التعليمي، عند الحديث عن التربية والتعليم.

(١) البخاري (١/١٦٦) برقم (٤٦٢)

(٢) البخاري (١/١٦٤) برقم (٤٥٧)

المؤاخاة:

لقد أصبح المسلمون في المدينة النبوية يتشكلون من المهاجرين والأنصار، ولقد جاء المهاجرون إليها بلا مال ولا زاد، حيث تركوا أهليهم ومعظم ثرواتهم بمكة، وكانت خبرتهم تتركز في التجارة بحكم ما هو سائد في مكة المكرمة، ولم تكن لهم الخبرة في الصناعة والزراعة التي كانت سائدة في المدينة، ولا بد للمهاجر بداية من الحاجة إلى المسكن والإعاشة، وما يواجهه من اختلاف المناخ، والحنين للديار، والتأقلم في المجتمع الجديد[١]

ولقد أصيب بعض المهاجرين بالحمى، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، قالت: فدخلت عليهما فقلت: يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً بِوَادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ
وهل أُرِدْنُ يوماً مياه مجنّةٍ وهل يَبْدُوَن لي شامةٌ وطفيلُ

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومُدِّها، وانقل حُمّاها فاجعلها بالجحفة)[٢]

فلقد عالج رسول الله ﷺ حنينهم للوطن، وما أصابهم من حمى، بدعاء شامل وعام، بتحبيب المدينة في قلوب المهاجرين، وتعميم الصحة للمدينة بكاملها، وإحلال البركة في موازينها، ونقل حُمَّاها من أرضها، لينعم بذلك كل من سكن المدينة.

---

[١] أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢٤١/١-٢٤٢)

[٢] البخاري (٧٦/٣) برقم (٣٩٢٦)

وأما هجرة أصحاب رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة فلم تكن سفراً وانتقالاً وترحالاً سهلاً وتلذذاً بمباهج الدنيا وزخرفها، بل كانت هجرة للإيمان، وهجرة لله ورسوله، وهجرة للآخرة، مقابل ترك المتاع والأهل والخلان، ومطارح الطفولة والذكريات، وفيها من المشقة والمتاعب والعناء، فذكر الله تعالى هجرتهم وخلدها في القرآن العظيم، وبين ما لهم من حق في الفيء، مبيناً سبحانه وتعالى ما تركوه وهجروه رغبة في فضل الله العظيم، وطمعاً في رضاه سبحانه وتعالى، ونصرة لرسول الله ﷺ فحازوا على لقب الصدق من علام الغيوب، وملك الملوك سبحانه وتعالى، فقال تعالى ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (١)

ولئن هجر المهاجرون أموالهم رغبة في رضى الله جلَّ جلاله، فإنه لجدير بالمسلم أن يهجر المحرمات من المكاسب، ولئن هجر المهاجرون محبوباتهم المباحة من الدنيا، فإنه لجدير بالمسلم أن يهجر المحرمات من اللذائذ، ولئن هجر المهاجرون نومهم ومطارحهم، فإنه لجدير بالمسلم أن يهجر النوم عن ما افترضه الله تعالى عليه من الصلوات المكتوبة، ولئن هجر المهاجرون الأوطان، فلجدير بالمسلم أن يهجر أمكنة الخزي والعار، ولئن أقبل المهاجرون إلى الله تعالى بترك ما يملكون، فلجدير بالمسلم أن يُقبل على الله تعالى بما يملك من الخير.

ولقد عوض الله تعالى المهاجرين بمؤاخاة الأنصار، أولئك الأفذاذ الكرماء، الذين قابلوا إخوانهم المهاجرين بكل ما يملكون، عن حب ومحبة ومؤاخاة في الله تعالى، وهكذا يكون حال المسلم إذا هجر شيئاً في الله عوضه الله خيراً منه وأحسن.

ولئن عالج رسول الله ﷺ حال المهاجرين بالدعاء، فلقد أتمه أيضاً بتشريع المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام، فلما كانت وقعة بدر وأنزل الله تعالى ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ

---

(١) سورة الحشر: آية رقم (٥٩)

شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾[1] فَنَسَخَت هذه الآية ما كان قبلها، وانقطعت المؤاخاة في الميراث، ورجع كل إنسان إلى نسبه؛ وورِثَه ذوو رحمه.[2] وبقيت المؤاخاة في الله تعالى بين المسلمين. قال ابن حجر: قال السهيلي: آخى بين أصحابه ليذهب عنهم وحشة الغربة؛ ويتأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد بعضهم أزر بعض، فلما عَزَّ الإسلام واجتمع الشمل؛ وذهبت الوحشة أبطل المواريث وجعل المؤمنين كلهم إخوة.[3] قال ابن كثير: إن الآية عامة تشمل جميع القرابات كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً.[4]

ولقد كان من أمر الأنصار شيئاً عجباً في مؤاخاتهم للمهاجرين، فأثنى عليهم رب البرية في كتابه العظيم ليكون قرآناً يتلى ويُتَعَبَّد لله تعالى به، فقال سبحانه وتعالى ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[5]

فلقد بلغ الإيثار مبلغه في نفوس الأنصار، وأصبح سمة من سماتهم وشمائلهم رضي الله تعالى عنهم، ويقدم لنا سعد بن الربيع رضي الله عنه صورة لخُلُق الأنصار وكرمهم، فقد جاء في الحديث (لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبدالرحمن وسعد بن الربيع، قال لعبدالرحمن إني أكثر الأنصار مالاً؛ فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتين؛ فانظر أعجبهما إليك فَسَمِّها لي أطلقها؛ فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم ؟

(١) سورة الأنفال: آية رقم (٧٥)

(٢) ابن سعد، الطبقات (١/٢٣٨)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٧/٢٧٠)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٤٤)

(٥) سورة الحشر: آية رقم (٩)

فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من إقط وسمن، ثم تابع الغَدُوَّ. ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة، فقال النبي ﷺ: مَهْيَم ؟ قال: تزوجت: قال: كم سقت إليها ؟ قال: نواة من ذهب . أو وزن نواة من ذهب . شك إبراهيم)[1] أي الراوي للحديث.

لقد بلغ الكرم والإيثار مبلغاً عظيماً عند الأنصاري سعد بن الربيع ﵁ فبدأ عرضه ببيان حجم ثروته ليقبل عبدالرحمن بن عوف ذلك العرض الكريم، فيقول له: إني أكثر الأنصار مالاً. ثم يعرض عليه أن يتزوج بمن شاء من زوجتيه بعد أن يطلق من يرغب فيها، فأي إيثار أبلغ صوتاً وفعلاً من سعد بن الربيع؟ ولم يطمع عبدالرحمن بن عوف في مال الرجل نتيجة الفاقة والحاجة وكثرة مال ابن الربيع، بل دعا له بالبركة في الأهل والمال والولد، وطلب أن يدله على السوق، ليعمل ويتاجر، فعوضه الله خيراً، حيث أصاب مالاً وفيراً وخيراً كثيراً في فترة وجيزة، فتزوج بنواة من ذهب.

إن هذا الموقف ليعلمنا كيف نؤثر إخواننا على أنفسنا، وإن لم يكن كذلك فلا يسعنا من أن نمد لهم يد العون والمساعدة، وبذل كل ما يصلح شأنهم. ثم يُعَلِّمُنَا هذا الموقف أن تكون العفة هي رمز أخلاقنا؛ فلا نطمع في أموال إخواننا وإن كانوا أغنياء، بل الزهد فيها أحق وأجمل، وإن بذلوا شيئاً لنا منها؛ طالما أن لنا من القدرة ما يمكننا من العمل والاستغناء. كما يعلمنا هذا الموقف أن من يتعفف يعفه الله تعالى؛ ويغنيه من واسع فضله، كما أغنى عبدالرحمن بن عوف ﵁

فهكذا كانت ثمار المؤاخاة تمتد آثارها التربوية حتى للأجيال التالية لهم؛ لتعلمهم معنى الأخوة في الله تعالى.

---

[1] البخاري (٣/٣٨) برقم (٣٧٨٠)

وفي الحديث (دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. فقال: إما لا فاصبروا حتى تلقوني، فإنه سيصيبكم بعدي أثرة)(١)

وهذا دليل آخر على ما بلغه الأنصار من الإيثار، وتقديم المهاجرين على أنفسهم في الخير، ورضوا بأن لا يختصوا بشيء دون المهاجرين، فلله دركم من أنصار، حظيتم بشرف الدنيا وعز الآخرة، فكانت تسميتكم بالأنصار اسماً إسلامياً ما سبقكم به أحد، فعن غيلان بن جرير، قال (قلت لأنس: أرأيت اسم الأنصار؛ كنتم تُسَمَّونَ به أم سماكم الله ؟ قال: بل سمانا الله)(٢) وقد أوفى لهم رسول الله ﷺ وعرف لهم حقهم، إذ يتضح ذلك من أحاديث كثيرة قد وردت في مناقب الأنصار؛ ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه يقول (مرَّ أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يُبكيكم ؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا. فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك، قال: فخرج النبي ﷺ وقد عَصَبَ على رأسه حاشيةَ بُرد، قال: فصعد المنبر، ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه؛ ثم قال: أُوصيكم بالأنصار، فإنهم كَرِشي وعَيبَتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فَاقْبَلُوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم)(٣)

فلقد تعلقت قلوبهم برسول الله ﷺ وبمكانته منهم، فيكون تلك المكانة العظيمة، فيخرج عليه الصلاة والسلام في مرض وفاته عاصب الرأس؛ بعد أن علم بالأمر؛ وفاءً وحباً للأنصار، ومُبَيِّناً مكانتهم منه ﷺ (فإنهم كرشي وعيبتي) أي بطانتي وخاصتي، وضرب المثل

(١) البخاري (٣/٤١) برقم (٣٧٩٤)
(٢) البخاري (٣/٣٧) برقم (٣٧٧٦)
(٣) البخاري (٣/٤٢) برقم (٣٧٩٩)

بالكرش لأنه مستقر غذاء الأحياء الذي يكون فيه نماؤهم. والعيبة: ما يحرز فيه الرجل نفيس ما عنده، وهذا من كلامه الموجز ﷺ الذي لم يُسبق إليه.[1]

وإنه لوفاء منه ﷺ للأنصار في أحلك الظروف، بوصاية في أدق معانيها وحفاوتها. وإنه لدرس تتعلم منه الأمة محبة رسول الله ﷺ ، ودرس تتعلم منه الوفاء من نبي الوفاء ﷺ في مرض وفاته الذي كان يوعك فيه ﷺ ولم يثنيه ذلك عن بيان مكانة الأنصار والوصاية بهم.

الوثيقة النبوية:

قال ابن إسحاق:[2] كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، ووادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم:

- بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم.
- إنهم أمة واحدة من دون الناس.
- المهاجرون من قريش على رِبْعَتهم[3] يتعاقلون بينهم[4] وهم يَفْدُون عانيهم[5] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (١٢١/٧) وذكر ابن حجر رحمة الله عليه لفظ الحيوان بدل الأحياء.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١٤٧/٢-١٥٠)

(٣) يقال: القوم على رباعتهم ورِباعهم: أي على استقامتهم، يريد أنهم على أمرهم الذي كانوا عليه، ورِباعة الرجل: شأنه وحاله التي هو رابع عليها: أي ثابت مقيم (النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١٨٩/٢)

(٤) أي الدية. قال الأصمعي: سميت الدية عقلاً تسمية بالمصدر، لأن الأبل كانت تُعْقَل بفناء ولي القتيل، ثم كثر الاستعمال حتى أطلق على الدية، إبلاً كانت أو نقداً. المصباح المنير للفيومي ٥٧٨/١)

(٥) الأسير.

- وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وبنو جُشَم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وبنو عمر على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً بينهم(١) أن يُعطوه بالمعروف، في فداء أو عقل.
- وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.
- وإن المؤمنين المتقين على من بغي منهم؛ أو ابتغى دسيعة ظلم(٢) أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين؛ وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.
- ولا يَقْتل مؤمنٌ مؤمناً في كافر.

---

(١) مفرحاً بينهم: أي الذي أثقله الدين والغُرم. ابن الأثير. النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٤٢٤)

(٢) ما ينال عنهم من ظلم.

- ولا ينصر كافراً على مؤمن.
- وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم مولى بعض دون الناس.
- وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.
- وإن سِلْم المؤمنين واحدة، لا يُسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.
- وإن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضا.
- وإن المؤمنين يبيء[1] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.
- وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه.
- وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن؛ وإنه من اعتبط مؤمناً[2] قتلاً عن بينة فإنه قَوَدٌ به؛ إلا أ ن يرضى وَلِيُّ المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة؛ ولا يحل لهم إلا قِيَامٌ عليه.
- وأنه لا يحل لمؤمن أَقَرَّ بما في هذه الصحيفة؛ وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدِثاً ولا يُؤويه، وأنه من نصره أو أواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة؛ ولا يُؤخذ منه صرف ولا عدل.
- وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله عزَّ وجل؛ وإلى محمد ﷺ
- وإن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظَلَم وأثِم فإنه لا يُوتغ إلا نفسه[3] وأهلَ بيته.

---

(١) أي يمنع ويكف.

(٢) أي قتله

(٣) أي لا يهلك إلا نفسه.

- وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.
- وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.
- وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.
- وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف.
- وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.
- وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم؛ فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهلَ بيته.
- وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.
- وإن لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم.
- وإن موالي ثعلبة كأنفسهم.
- وإن بطانة يهود كأنفسهم.
- وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ
- وإنه لا ينحجز على ثار جُرْح.، وإنه من فتك فبنفسه فتك؛ وأهل بيته؛ إلا من ظلم، وإن الله على أَبَرَّ هذا.
- وإن على اليهود نفَقتَهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.
- وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم.
- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.
- وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.
- وإنه لا تُجار جُرْمة إلا بإذن أهلها.

- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة مِن حَدَث أو اشتجار يُخاف فسادُه؛ فإن مردّه إلى الله عزّ وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.
- وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها.
- وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.
- وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويَلْبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا مَنْ حارب في الدين؛ على كل أناس حصّتهم من جانبهم الذي قِبَلهم.
- وإن يهود الأوس مواليَهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.
- وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.
- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم.
- وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم.
- وإن الله جار لمن برّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ (١)

فلقد أكدت هذه الوثيقة أهمية التوثيق الكتابي؛ لما له من أثر في الرجوع إلى بنوده حال المخالفة أو الاختلاف، وفي هذا ضبط للأمور والعلاقات، مما يؤكد أهمية هذا المبدأ، وأهمية الأخذ به في أمور المسلمين.

---

(١) ويرجح الدكتور أكرم ضياء العمري أن الصحيفة وثيقتان: وثيقة خاصة باليهود، وكانت موادعتهم قبل معركة بدر، ووثيقة توضح التزامات المسلمين من حقوق وواجبات بين المهاجرين والأنصار؛ وكانت الوثيقة بعد موقعة بدر. السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٧٦)

ويظهر في هذه الوثيقة أهمية توظيف الروابط والعلاقات الاجتماعية لما يخدم مصلحة الأمة، وأخذها في الاعتبار دون تجاهل لها. حيث ذكرت الوثيقة في بنودها الأولى ما يجب على كل عشيرة فيما بينهم، إضافة إلى ما يجب عليها تجاه بقية المؤمنين، (والقسط بين المؤمنين).

وقد أظهرت الوثيقة أهمية التكافل بين المسلمين، فيلزمهم ألا يتركوا مفرحاً بينهم، وهو من أثقلته الديون، وذلك أن يُعطوه بالمعروف، كما أن المؤمنين يد واحدة على كل من بغي منهم، ولو كان ولد أحدهم. فأخوة الدين تُحتِّم نصرة المظلوم؛ وإعادة مظلمته إليه، وعدم نصرة الظالم حتى وإن كان ولد الإنسان. وهذا التكافل الاجتماعي المبني على المؤاخاة وإحقاق الحق لأهله قد بينته الآيات القرآنية والسنة النبوية في أحاديث كثيرة وعظيمة..

وقد أكدت الوثيقة نفي المجاملة في حدود الله تعالى، الأمر الذي يحقق الأمن والاستقرار، ورضا الله تعالى بتطبيق حدوده. فأكدت الوثيقة ذلك بالنص عليه: وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة؛ وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدِثاً ولا يُؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة؛ ولا يُؤخذ منه صرف ولا عدل.

إن عملية الإيواء للمنهي عنهم شر ينخر في الأمة إذا أُهمل، حيث يتسع بكثرتهم الشر مع مرور الزمن، ولا يزول إلا بعدم الإيواء، لكي يَعْرِفَ صاحبه أنه لا مكان له في منازل أفراد الأمة حتى يُؤخذ الحق منه، ويُطَبَّق الحد عليه. وإن هذا المبدأ يثير في الأمة مكامن استشعار عِظَم الجرم؛ وعِظَم إثم الإيواء، مما يربي فيها نزعة الخوف من الله تعالى؛ الذي لا يتحقق من خلال القوانين الوضعية، وإنما بالنصوص الشرعية.

وإن الوثيقة لتؤكد خصوصية هذه الأمة، وأن المسلم ليس كالكافر، وليس بينهم تكافؤ أبداً، حيث نصت الوثيقة على: ولا يَقْتل مؤمنٌ مؤمناً في كافر.

إن بنود الوثيقة بين المسلمين تؤكد لحمة الأمة المسلمة، الأمر الذي ينبغي أن يُغْرَس في نفوس الأجيال من خلال بيان تطبيقاته النبوية وآثاره الاجتماعية، وكيف كان تفعيله من قِبَلِ أصحاب رسول الله ﷺ في حياتهم، حتى بلغوا به الثناء والمدح من رب العالمين، فحققوا به مرضاة ربهم سبحانه وتعالى، وترجموا للأجيال بعدهم حقيقة المنهج الإسلامي فهماً وتطبيقاً.

وتعطي مضامين هذه الوثيقة أهمية الاحتواء للعناصر الاجتماعية بما يعزز الكيان الإسلامي، ويقوي دولة الإسلام، وهذا لا يتأتى إلا من خلال الاعتراف بالواقع ومعايشته بالحكمة التي تحفظ للإسلام قوته. وإذا كان هذا الأمر قد أخذ به ﷺ في المجال الكبير الواسع، فإنه يلزم مراعاته في الكيانات الصغرى، مثل المؤسسات والإدارات، حيث من مهام القائد الإداري الناجح احتواء شرائح إدارته؛ ليسير بهم في ركاب سفينة الإدارة الواحدة؛ حتى يحققوا أهدافها؛ ويسلكوا بها درب الأمان، مع العمل التربوي والدعوي الذي يقلل فجوة التباين والتنوع، لتصبح شريحة واحدة مع مرور الوقت.

فالعمل التربوي والإداري والعلمي الذي يغفل أو يتغافل عن واقع الحقائق؛ اعتقاداً أنه ينهج النهج الصحيح؛ فإنه سيكتشف بعد فترة من الزمن أنه ابتعد عن الطريق؛ وأخطأ التقدير، فأخطأ في القرار، فأدرك نتيجة خطئه.

وفيما يتعلق باليهود؛ فليس في هذه الوثيقة تعسفاً بحق الآخرين؛ حتى وإن كانوا على غير دين الإسلام، فالمنهج الإسلامي يكفل لغير المسلمين حياة كريمة وفق ضوابط شرعية.

فلقد نصت الوثيقة على ذلك؛ حيث جاء أحد بنودها: وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

فليس من طبع المسلمين الغدر، أو الحيف والظلم.

إن احتواء اليهود كمجتمع قائم في ذلك الوقت؛ قبل إجلائهم يكفل لهم الحياة والحرية الدينية، وفق ضوابط؛ مثل: عدم الخروج من المدينة إلا بعد أخذ الإذن من الرسول ﷺ وهذا يؤكد أهمية الحذر وأخذ الحيطة، وإعزاز الإسلام وأهله.

نقض اليهود للوثيقة وإجلاؤهم من المدينة:

بالرغم مما تضمنته الوثيقة من حفظ لحقوق اليهود، وعدل وإنصاف لهم، إلا إنهم قاموا بنقضها، والتضامن مع المشركين، ومحاولة الاعتداء على رسول الله ﷺ وحصول الخيانات منهم، ومحاولة زعزعة أمن المدينة، فكان الجلاء لهم، من المدينة على ما سيأتي بيانه في مكانه من هذا الكتاب، حيث تم إجلاء بني قينقاع، ثم بني النضير، ثم بني قريظة.

الحياة التعليمية في المدينة :

بالرغم من الجهد والجهاد الذي كان يقوم به رسول الله ﷺ في مناحي حياة المسلمين المختلفة إلا أن التعليم قد أخذ حظه وازدهر بصورة ليس لها مثيل، حيث تسابق المسلمون في هذا المضمار، وانتقلوا من الأمية والجهل إلى العلم ؛ فأصبحوا به قادة البشرية في الخير والهدى والصلاح، فلقد جاء الإسلام وعدد الذين يقرؤون ويكتبون في قريش سبعة عشر رجلاً، منهم عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم.[١] وفي الأوس والخزرج عدد يكتبون، منهم سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت.[٢] رضي الله عنهم.

إن هذه الإشارة تدلل على أنه لم تكن هناك كتاتيب قبل الإسلام في مكة والمدينة، وأن القراءة والكتابة كانت محدودة في نفر قليل، فلما جاء الإسلام تغيرت الأحوال التعليمية، كغيرها من بقية الجوانب الأخرى، حيث اهتم رسول الله ﷺ بقضية التربية والتعليم اهتماماً عظيماً، إذ بها بدأ الله تعالى رسالة نبيه محمد ﷺ عندما أوحي إليه في الغار ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝﴾[٣]

ورفع الله تعالى منزلة العلماء، ومكانة العلم. كما جعل المنهج الإسلامي الفضل العظيم والأجر الجزيل لطالب العلم، التي بينها القرآن الكريم وفصَّلتها السنة النبوية، فقد قال الله تعالى ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٍ﴾[٤] وقال تعالى ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِى ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝﴾[٥]

---

[١] البلاذري، فتوح البلدان، ص (٦٦٠)

[٢] المرجع السابق، ص (٦٦٣)

[٣] سورة القلم: آيات رقم (٥.١)

[٤] سورة المجادلة: آية رقم (١١)

[٥] سورة الزمر: آية رقم (٩)

فهذه المنطلقات القرآنية العظيمة عززت العلم في الإسلام، ورفعت من مكانة أهله، كما بينت المقارنة العظيمة القدرَ الذي يناله العلماء من الرفعة والعزة، فشحذت الهمم نحو طلب العلم وتعليمه, وفَعَّل رسول الله ﷺ هذا المنهج الرباني بأقواله وأعماله وتوجيهاته العظيمة، فَمِمَّا قاله عليه الصلاة والسلام (مَن سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله له به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض؛ والحيتان في جوف الماء؛ وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ورَّثُوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر.)[1]

وفي هذا الحديث العظيم الذي يبين مكانة العلماء ما يحفِّز الهمم لِتُدْرِكَ نصيبها من العلم، الذي جعل الله تعالى لأهله الرفعة والعزة، وأنه أحد الدروب الموصلة للجنة التي هي بُغْيَة كل مسلم، وأن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، ثم شبه العالم بالبدر؛ والعُبَّادُ بالكواكب؛ فكلهم على خير وفي العلياء، إلا أن العالم بالنسبة للعابد كالقمر في نوره وإضاءته ونفعه الذي يتعدى محيط دائرته ليصل إلى الناس جميعاً، وليس العمل المتعدي بفضله ورحابة مساحة نفعه كالعمل القاصر على صاحبه، فحاز العالم سبق الفضل على العابد، وإنه ليستغفر كُلُ شيء للعالم، وهذا فضل من الله تعالى إذ سخر مخلوقاته تستغفر وتدعو له. وإن للعلماء منزلة أخرى؛ وهي أنهم ورثة الأنبياء؛ بما حازوا من العلم الذي جاء به رُسُلُ الله؛ الذين لم يكن همهم الدينار والدرهم، فيجمعونها ليرثها مَنْ بعدهم، فتلك ليست همتهم ولا تطلعهم، بل العلم الذي جاؤا به هو الميراث الذي لا يتسابق فيه وعليه إلا العلماء. فمن حصّله فقد حصَّل الخير العظيم.

---

[1] أبو داود (٥٧/٤-٥٨) برقم (٣٦٤١) واللفظ له. والترمذي (٤٧/٥) برقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٨١/١) برقم (٢٢٣).

ومن هذا المنطلق الإسلامي العظيم ارتقتْ وعَلَتْ هممُ الصحابة في تلقي العلم الذي جاء به رسول الله ﷺ مع المنهجية التي اتخذها ﷺ في تعليم جيل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. ولقد أصبحت المدينة النبوية تتلألأ بأجواء العلم وطلبته، وأصبحت الملائكة تحف تلك الحلق العلمية، وتتنزل عليهم الرحمات الربانية، ويرتفع ذكرهم في الملأ الأعلى، كما جاء في الحديث.

فمن عوامل البناء التعليمي والتربوي ما يلي:

- أنه كان عليه الصلاة والسلام يعظ الصحابة بالمواعظ التي تزكو بها النفوس، وتزداد بها المعارف والعلوم، وتتقرب بها إلى الله القلوب، وكان من منهجه التربوي أنه لا يكثر عليهم مخافة الملل، وهو الذي لا يُمَلُّ حديثه ﷺ ، ولكنها المنهجية التربوية التي يعلمنا من خلالها ﷺ كيفية الوعظ، والقسط فيه، فطبقها الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فعن أبي وائل قال: (كان عبدالله يُذَكِّر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبدالرحمن لودِدْتُ أنك ذكرتنا كلَ يوم. قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أنْ أُمِلَّكُم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا.)[1]
ولم يكن التعليم محصوراً أو مقصوراً على الرجال؛ بل امتد التعليم النبوي للنساء مباشرة؛ عندما طلبن ذلك منه ﷺ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: (قالت نساء للنبي ﷺ غَلَبَنَا الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك. فوَعَدَهُنَّ يوماً لَقِيهُنَّ فيه، فوعظهن وأمرهن)[2] ويعلمنا هذا الحديث احترام المطالب النبيلة، وتلبيتها، وأن للنساء الحق في تعلم العلوم الشرعية، وأن للعلماء أن يخصصوا بعض المواعظ للنساء؛ بما ينفعهن ويرفع من قدرهن ويُشجعهن على الخير. فإن في هذا التخصيص ما يرفع

---

[1] البخاري (٤٢/١) برقم (٧٠)

[2] البخاري (٥٣/١) برقم (١٠١)

من شأن قدر المرأة، ويشجعها على حب الخير؛ واستشعار قَدْرِهَا ومكانَتِها في الإسلام، ويعزز من معنويتها، ويصحح سلوكها ومفاهيمها، ويبين لها مسؤولياتها الملقاة على عاتقها.

- وكل قول منه ﷺ أو فعل أو تقرير هو تعليم وتربية أياً كان مكان ذلك، وقد كان ﷺ يستغل الفرص والمواقف لتعليم من معه، فمن ذلك كان معاذ رديفه على الرحل، فقال ﷺ (يا معاذ بن جبل، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك. قال : يا معاذ. قال: لبيك يا رسول الله وسعديك (ثلاثاً) قال: ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار. قال: يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال: إذاً يتَّكلوا. وأخبر به معاذ عند موته تأثما)[١] وفي هذا الحديث جواز الإرداف على الدابة، وبيان تواضع النبي ﷺ ومنزلة معاذ بن جبل من العلم؛ رضي الله عنه؛ لأنه خصه بما ذكر، وفيه جواز استفسار الطالب عما يتردد فيه، واستئذانه في إشاعة ما يعلم به وحده.[٢] وأما دخول الجنة بقول (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقا من قلبه)؛ فقوله صدقاً، أقيم هنا مقام الاستقامة؛ لأن الصدق يُعبر به قولاً عن مطابقة القول المخبر عنه، ويُعبر به فعلاً عن تحري الأخلاق المرضية، كقوله تعالى (والذي جاء بالصدق وصدَّق به) أي حقق ما أورده قولاً بما تحراه فعلاً. وأراد بهذا التقرير رفع الإشكال عن ظاهر الخبر، لأنه يقتضي عدم دخول جميع من شهد الشهادتين النار، لما فيه من التعميم والتأكيد، لكن دلت الأدلة القطعية عند أهل السنة على أن طائفة من عصاة المؤمنين يُعذَّبون ثم يخرجون من

[١] البخاري (١/٦٢-٦٣) برقم (١٢٨)

[٢] ابن حجر، فتح الباري (١/٢٢٧)

النار بالشفاعة، فَعُلِم أن ذلك مقيد بمن عمل الأعمال الصالحة.[1] والعلم عند الله تعالى وهو كريم جواد؛ يفعل ما يُريد؛ ولا معقب لحكمه سبحانه وتعالى. وفي الحديث أسلوب المناداة لشد الانتباه نحو أمر مهم وعظيم من خلال تكرار مناداة الرسول ﷺ لمعاذ ثلاث مرَّات، وفيه كذلك فطنة معاذ رضي الله عنه؛ إذ سأل النبي ﷺ عن الإخبار بمضمون هذا الحديث. ثم تخوف من الإثم فاجتهد وبَلَّغه للناس عند موته؛ مخافة من كتمان العلم. وفيه أدب معاذ مع رسول الله ﷺ فيقول : لبيك يا رسول الله وسعديك. مما يفيد أهمية أدب طالب العلم مع شيخه؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء. ويكرر عليه ﷺ وهو يقول: لبيك يا رسول الله وسعديك، ولم يقل إني أسمعك، وإنه لأدب جَمٌّ، يعلمنا به معاذ رضي الله عنه ليتأدب به المسلم مع والديه وأهل العلم والفضل.

- وكان ﷺ يعلم الوفود التي تفد إليه شرائع الإسلام لِيُعَلِّمُوا غيرَهم، وقد قال ﷺ لوفد عبد القيس (ارجعوا إلى أهليكم فَعَلِّمُوهم)[2] وعن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال (أتيت النبي ﷺ في نفر من قومي، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيماً رفيقاً، فلما رأى شوقنا إلى أهلينا قال: ارجعوا فكونوا فيهم؛ وعلموهم وصلُّوا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدُكم، وليؤمكم أكبركم)[3] وفي هذا الحديث التعليم بالقدوة، حيث أدرك أولئك الوفد ما يتمتع به رسول الله ﷺ من الخُلُق العظيم، فوصفوه بالرفق والرحمة، مما يدل على الأثر العلمي من خلال القدوة التي تدركها الأبصار والبصائر، وأن العالم والمعلم والوالدين والمدير والرئيس عندما يتحلى بالخلق الكريم فإن غيره يُدركه ويتأثر به. ومن خُلُقه ﷺ عدم تكليفه غيره بما لا يطيق، فقد أدرك ﷺ ما

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (١/٢٢٦)

(2) البخاري (١/٤٨) رقم الباب (٢٥)

(3) البخاري (١/٢١١) برقم (٦٢٨)

تجيش به قلوبهم من الشوق لأهليهم، فابتدرهم قبل أن يطلبوا منه الإذن بالسفر، فقال (: ارجعوا فكونوا فيهم) فهكذا يقرر بالفعل ﷺ مبدأ المبادرة التعليمي والتربوي والخلقي، والتحسس لأحوال من يكونون معه، ومراعاة أحوالهم، وكيف يكون المسلم مع من يستحي منه أو يقدره؛ بأن يراعي مشاعرهم، ولا يُحْوِج المحتاج إلى التلفظ بحاجته. فإن ذلك من الخُلُق العظيم. ثم يبين ﷺ دورهم التعليمي في أهليهم بأن يقوموا بتعليمهم ما تعلموا وحصلوا عليه من العلم إبان إقامتهم عند رسول الله ﷺ وقد بدأ بالعلم، لأنه مفتاح الخير، بل ومفتاح الصلاة، إذ لا تتم الصلاة إلا بمعرفتها، والعلم بها أولاً، ثم أمرهم بالصلاة، ثم بين لهم كيف يكونون في الصلاة (فليؤذن لكم أحدُكم، وليؤمكم أكبركم) والإمامة هنا للأكبر؛ لأن الذين قَدِموا عليه في العلم سواء، وكلهم شَبَبَةٌ.[1] وبهذه الوفود التي تأتي وتتعلم ثم تعود فَتُعَلِّم أقوامهم انتشر التعليم في ديار المسلمين.

- وفي منهجه التعليمي التربوي للجانب المهني تشجيعه ﷺ على ممارسة العمل المهني، ومن ذلك (أن رسول الله ﷺ مر بعبدالله بن جعفر وهو يبيع بيع الغلمان، أو الصبيان، قال: اللهم بارك له في بيعه، أو قال: في صفقته)[2] وفي هذا الدعاء منه ﷺ ما يزيد بركة ذلك البيع والربح الذي يقوم به ذلك الغلام، إضافة إلى التشجيع منه

---

[1] كما في الحديث رقم (٦٨٥) من صحيح البخاري (٢٢٧/١) قال ابن حجر: أن قصة مالك ابن الحويرث واقعة عين، قابلة للاحتمال، بخلاف الحديث الآخر (والمقصود به حديث يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانت قراءتهم سواء فليؤمهم أقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فليؤمهم أكبرهم سناً) فإنه تقرير قاعدة تفيد التعميم. وقال ابن حجر: أجاب الزين بن المنير وغيره بما حاصله أن تساوي هجرتهم وإقامتهم وغرضهم بها مع ما في الشباب غالباً من الفهم . ثم توجه الخطاب بأن يعلموا من وراءهم من غير تخصيص بعضهم دون بعض . دال على استوائهم في القراءة والتفقه في الدين. فتح الباري (١٧٠/٢).

[2] أبو يعلى (٤٧/٣) برقم (١٤٦٧).

ﷺ لهذا الغلام في مباشرته للعمل النافع، مما يؤكد أهمية ممارسة التشجيع للصبيان عندما يؤدون أعمالاً نافعة مثمرة، يتمرسون من خلالها القيام بما يحقق لهم النفع عندما يكبرون. وإن في كلمات التشجيع التي تخرج من الكبير للصغير ما يحفزه ويستثير في نفسه مشاعر الحب للكبار؛ والرغبة في التعامل معهم، مع المزيد من المحبة لذلك العمل والصنيع الذي يمارسه. وإن هذا التشجيع والدعاء منه ﷺ يبرز أهمية الجوانب التشجيعية، كما أن في ممارسة ذلك الصبي ما يعطي صورة لممارسات بعض الصبية في المدينة خلال تلك الفترة النبوية. وفي موقف آخر يتبين منهجه التعليمي التربوي ﷺ في الإرشاد المهني، حيث أرشد أحد الصحابة لكيفية استثمار ما عنده من متاع بسيط بأن يبيع حاجة منه ثم يدبر أمره المهني بما يحقق له ممارسة التكسب، فعن أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله فقال (أما في بيتك شيء ؟ قال : بلى.حِلْسٌ: نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقَعْبٌ نشرب فيه من الماء، قال: أتني بهما، قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: من يشتري هذين ؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال: من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثاً، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين، وأعطاهما الأنصاري، وقال: اشتر بأحدهما طعاماً، فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً فأتني به، فأتاه به، فشدَّ فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده، ثم قال له: اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء، وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال رسول الله ﷺ : هذا خير لك أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة)(١) وفي الحديث سؤال المعلم للمتعلم أو المحتاج عن بعض خصوصياته لينفعه بها، وفي الحديث الإشارة إلى مهنة المزايدة، التي يقوم بها

---

(١) أبو داوود، (٢/٢٩٢-٢٩٤) برقم (١٦٤١) والترمذي (٢/٧٤٠-٧٤١) برقم (٢١٩٨)

بعض الناس، وينبغي أن يكون القائم بها أميناً حتى يصل بالسلعة إلى ما ينبغي أن تكون عليه من الثمن، وفي الحديث أهمية توجيه المستفيد إلى دقائق ما لا يُحسنه ولا يفهم فيه، وفي الحديث تواضعه ﷺ فقد شَدَّ بنفسه في القدوم عوداً بيده، ثم فيه أهمية بيان العلة عند النهي والأمر ما كان ذلك ممكناً، حيث بَيَّنَ ﷺ للرجل علة العمل وترك المسألة في تمام الحديث.

ففي هذا الحديث توجيه تعليمي لكيفية ممارسة العمل والتكسب، مع حُسن التصرف فيما يملك الإنسان؛ ليجعل منه نواة تجارة يتعيش من خلالها، الأمر الذي يدعو إلى أهمية ممارسة الإرشاد المهني للشباب، حيث إن كثيراً من العوائق تكمن في عدم معرفتهم لكيفية التكسب؛ وذلك نتيجة قلة خبرتهم. فيقدم هذا الإرشاد النبوي أنموذجاً في ممارسة عملية الإرشاد والتوجيه المهني، الذي هو أحد أوجه التعليم، وهدف من أهدافه.

- ومن سُبُل انتشار التعليم، الإفادة من أسرى بدر؛ ممن يعرف القراءة والكتابة، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال (كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يُعلِّموا أولاد الأنصار الكتابة)[1] فيؤكد هذا العمل سماحة الإسلام، واستثماره للمنافع والقدرات، والاهتمام بقضية التعليم، والحرص على تعلم الصبيان، ولعل في ممارسة هذه العملية التعليمية من الأسير ما يجعله يشاهد الممارسات الخُلُقية العالية والرفيعة من المسلمين؛ فيدفعه ذلك إلى اعتناق الإسلام. كما يوضح هذا الصنيع الأهمية التعليمية في الإسلام؛ إذ جعلها ثمناً لإطلاق سراح الأسير.
- ولقد كان لأهل الصفة أثر كبير في النقلة العلمية والتعليمية، لاهتمامهم بهذا الجانب اهتماماً عظيماً، فأكثر رواة الحديث أبو هريرة ﷺ وقد كان من أهل الصفة الذين

---

[1] أحمد (٤/٩٢)، برقم (٢٢١٦)، طبعة الموسوعة الحديثية.

اتخذوا من مؤخرة المسجد مكاناً ومأوى لهم. ويصف أبو هريرة ﷺ حاله وما بذله من جهد في الكسب العلمي من رسول الله ﷺ إذ يقول عندما سمع من يقول أكثر أبو هريرة (...وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بِشَبَعِ بطنه، ويحضرُ ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون)[1] فقد بين ﷺ حضوره ومتابعته لرسول الله ﷺ ليحفظ عنه. وكان عبادة بن الصامت ﷺ يقول (علَّمتُ ناساً من أهل الصفة الكتاب والقرآن، فأهدى إليَّ رجل منهم قوساً)[2] فبين الصحابي الجليل عبادة بن الصامت ما كان يقوم به من عمل تعليمي بين أهل الصفة. مما يوضح الجهد الذي أعطى وأسهم في النقلة التعليمية والعلمية المباركة من أهل الصفة. خاصة وأن عددهم ليس بقليل، فقد كانوا في حدود السبعين رجلاً، وبالرغم من انقطاعهم للعلم والعبادة فلم يعزلهم ذلك عن المشاركة في أحداث المجتمع والإسهام في الجهاد، بل كان منهم الشهداء ببدر، مثل صفوان بن بيضاء، وخريم بن فاتك الأسدي، وخبيب بن يساف، وسالم بن عمير، وحارثة بن النعمان الأنصاري رضي الله عنهم. ومنهم من استشهد بأحد مثل حنظلة الغسيل.[3] رضي الله عنه. فهكذا جمع أهل الصفة بين طلب العلم والزهد والمشاركة في أحداث المجتمع. ليُعطوا درساً تربوياً لمن بعدهم.

- واشتمل التعليم في رحاب المدينة النبوية، على التدريب العسكري، الذي يُقوي الأبدان ويُنشط الأذهان، فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما؛ قال (سابق رسول الله ﷺ بين الخيل التي ضُمِّرت فأرسلها من الحفياء، وكان أمدها ثنية الوداع، فقلت لموسى: فكم كان بين ذلك ؟ قال: ستة أميال أو سبعة، وسابق بين الخيل التي لم

[1] البخاري (٥٨/١) برقم (١١٨)

[2] أبو داود (٧٠١/٣) برقم (٣٤١٦)، وابن ماجه (٧٣٠/٢) برقم (٢١٥٨)

[3] أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢٦٤.٢٥٩/١)

تُضَمَّر، فأرسلها من ثنية الوداع، وكان أمدها مسجد بني زريق، قلت: فكم بين ذلك؟ قال: ميل أو نحوه، وكان ابن عمر ممن سابق فيها)[1] والمقصود بالخيل التي ضُمِّرت: أن تُعلف الخيل حتى تسمن وتقوى؛ ثم يُقلل علفها بقدر القوت، وتُدخل بيتاً، وتُغشى بالجلال حتى تحمى فتعرق، فإذا جف عرقُها خف لحمها وقويت على الجري، وفي الحديث مشروعية المسابقة، وأنه ليس من العبث؛ بل من الرياضة المحمودة؛ الموصلة إلى تحصيل المقاصد في الغزو؛ والانتفاع بها عند الحاجة، وهي دائرة بين الاستحباب والإباحة؛ بحسب الباعث على ذلك، قال القرطبي: لا خلاف في جواز المسابقة على الخيل وغيره من الدواب وعلى الأقدام، وكذا الترامي بالسهام.[2]

وقد شمل تشجيعه التربوي ﷺ الصبية في ممارساتهم للعب، فعن عبدالله بن الحارث رضي الله عنه، قال (كان رسول الله ﷺ يصف عبدالله وعبيدالله وكثيراً من بني العباس، ثم يقول: من سبق إليَّ فله كذا وكذا، قال: فيسبقون إليه، فيقعون على ظهره وصدره، فيقبلهم ويلزمهم)[3] وفي هذا تعليم وتدريب للصبية وتشجيعاً لهم على ممارسة السباق الذي تتقوى به أجسادهم وأذهانهم، فقد كان عليه الصلاة والسلام هو الذي يَصُفُّهُم، وهو الذي يشجعهم، ثم يقعون على ظهره وصدره، فَيُقَبِّلُهم جميعاً بدون استثناء، فيشمل ذلك الأول والأخير، ويوضح هذا المسلك منه ﷺ تواضعه ورحمته وشفقته، وأنه النبي الذي تراه مع جميع من يُحيطون به، حتى مع الأطفال الصغار. وهذا يعطي دلالات تربوية وتعليمية عظيمة؛ من أبرزها: التوازن، فلا يطغى جانب على جانب، إذ هو النبي ﷺ المشغول بأمور الأمة؛ ولكن لم يُشغله ذلك عن الأبناء

(١) البخاري (٣٢٤/٢) برقم (٢٨٧٠)
(٢) ابن حجر، فتح الباري (٧٢/٦)
(٣) أحمد (٢١٤/١)

حتى في الجانب الترفيهي، وكذلك يكون الوالد، فلا تُشغله أعماله الخاصة عن حقوق الأبناء؛ حتى في الجانب الترفيهي، وكذلك الداعية، والمسؤول، فيقسم وقته بما يعطي الزوجة حقها والأبناء حقوقهم، وجميع الأطراف المتعلقة به. ومن الدلالات التربوية: العناية بما يحبه الصبية من الأنشطة المباحة التي قد تختلف من زمن لآخر ومن مكان لآخر، وفيه أهمية وحتمية العناية بأمر الطفولة فيما هو أكبر وأهم من ذلك، فالعناية بما هو دونه يحتم العناية بما هو أعلى وأهم. وفيه أهمية تقبيل الصبية؛ والتصابي لهم؛ لما في ذلك من مكاسب نفسية عميقة؛ تنعكس على تصرفاتهم وطباعهم؛ وأخلاقهم وسلوكهم، وفيه أن ملاعبة الصبية حتى وإن كانت أمام الآخرين فإنها لا تقدح في مروءة الإنسان، إذا كانت في الحدود المعتبرة.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت (لقد رأيت رسول الله ﷺ يوماً على باب حُجرتي والحبشةُ يلعبون في المسجد، ورسول الله ﷺ يستُرُني بردائه أنظر إلى لعبهم)[١] وقالت (وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدَّرَقِ والحراب، فإما سألت النبي ﷺ وإما قال: تشتهين تنظرين ؟ فقلت: نعم. فأقامني وراءه؛ خدِّي على خدِّه وهو يقول: دونكم يابني أرفِدة، حتى إذا مللت قال: حسْبُكِ ؟ قلت: نعم. قال: فاذهبي.)[٢] وفي هذا الحديث تقريره ﷺ مبدأ التعليم أو التدريب العسكري، الذي كان يمارسه الأحباش على هيئة ألعاب يمارسونها، ولكن آلتها الرق (الترس) والحراب، بل كان عليه الصلاة والسلام يشجعهم على هذه الممارسة التدريبية بقوله (دونكم يا بني أرفدة) قال ابن حجر: وفيه إذن وتنهيض لهم وتنشيط. وبني أرفدة، بفتح الهمزة وكسر الفاء، وقد تُفْتح، قيل هو لقب للحبشة، وقيل هو اسم جنس لهم، وقيل اسم جدهم

---

(١) البخاري (١٦٣/٢) برقم (٤٥٤)

(٢) البخاري (٣٠٢/٢) برقم (٩٥٠)

الأكبر، وقيل المعنى يا بني الإماء.[1] وسيأتي المزيد من بيان الفوائد في مكانه بإذن الله تعالى.

- ولقد كان حرص جيل الصحابة على الكسب العلمي كبيراً جداً، إذ يتفانون في ذلك، فمثلوا الأسوة الحسنة والقدوة الكريمة النشيطة في الطلب العلمي، فكانوا خير نموذج لطلاب العلم مع خير معلم ﷺ ويُعطي عمر بن الخطاب ؓ مثلاً في الحرص على أن لا يفوته شيءٌ من علم رسول الله ﷺ فيقول (كنت أنا وجارٌ لي من الأنصار في بني أمية بن زيد - وهي من عوالي المدينة - وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نَزَلتُ جئتُهُ بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك)[2] فهذا النموذج العُمَرِي مع الأنصاري رضي الله تعالى عنهم يؤكد الحرص العلمي الشديد من طالب العلم الذي يرى أن لا يفوته شيءٌ من خير العلم الذي تزكو به النفوس، ويعطي هذا الحديث النموذج التعاوني بين طلاب العلم، والمحبة المتبادلة التي تدفع الطالب أن يأتي بكل ما حصل عليه من العلم لزميله دون أن يختص لنفسه بشيء، وفي هذا الحديث ما يبين أهمية التعاون العلمي بين المتجاورين، وأهمية اتخاذ الزميل الذي يعطيك ما فاتك أثناء غيابك.

ويوضح نموذج آخر من جيل الصحابة رضي الله عنهم صورة من المناخ العلمي الذي تزخر به المدينة في عهد رسول الله ﷺ فيقول أنس بن مالك ؓ (كان شباب من الأنصار سبعين رجلاً؛ يُسَمَّون القراء، يكونون في المسجد، فإذا أَمْسُوُا انتحوا ناحية من المدينة، فيتدارسون ويُصَلّون، يحسبُ أهلوهم أنهم في المسجد، ويحسبُ أهل المسجد أنهم عند أهليهم، حتى إذا كانوا في وجه الصبح استعذبوا من الماء واحتطبوا

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٢/٤٤٤)

(٢) البخاري (١/٤٩) برقم (٨٩)

من الحطب، فجاؤوا به، فأسندوه إلى حجرة رسول الله ﷺ فبعثهم النبي ﷺ جميعاً فأُصيبوا يوم بئر معونة، فدعا النبي ﷺ على قَتَلَتِهِم خمسة عشر يوماً في صلاة الغداة)[1].

ويوضح هذا النموذج حرص الشباب من الصحابة على تطويع وإعمال عقولهم في كسب العلم النافع. كما يوضح هذا الحديث حرص شباب الصحابة رضي الله عنهم على التعلم، وعلى حفظ هذا الدين، وبذل الجهد في ذلك، واستغلال مرحلة القوة والجلادة، والإخلاص لله تعالى بذهابهم إلى طرف المدينة للمدارسة، بحيث يعتقد أهل المسجد أنهم في بيوتهم، ويحسب أهلوهم أنهم في المسجد، ومن الفوائد التربوية استخدام ذلك الجيل أسلوب المدارسة التي تُرسخ العلم، مما يؤكد سبقهم إلى هذا المفهوم وتطبيقهم له، وكذلك يوضح هذا السلوك التربوي التعاون والتآلف بين طلاب العلم في المذاكرة والمدارسة. كما يؤكد أهمية صنيعهم العلمي أن دعا رسول الله ﷺ على قَتَلَتِهِم خمسة عشر يوماً في صلاة الغداة؛ وهذا دليل على مكانتهم ومنزلة العلم الذي كانوا يحملونه رضي الله تعالى عنهم. كما أن في هذا الحديث خدمتهم لنبيهم ومعلمهم ﷺ وحرصهم وتفانيهم في ذلك، بجلب الماء والحطب إلى حجرة رسول الله ﷺ.

فإنها حياة علمية نشطة؛ قد ازدهرت في المدينة، وبزغ فجرها ببعثته ﷺ وسطع نورها في أرجاء المعمورة. فها هو المناخ العلمي الجاد والنشط الذي كان سائداً في المدينة النبوية بعد أن هاجر إليها المصطفى ﷺ فكانت الحركة العلمية في ازدهار منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا وستظل بإذن الله تعالى في كل أنحاء المعمورة، تزدهر بعلم الشريعة الغراء التي جاء بها الرسول ﷺ

---

[1] أحمد (٢١/١٢٦-١٢٧) برقم (١٣٤٦٢) طبعة الموسوعة الحديثية.

فلقد كان عهده ﷺ عهد علم وتعليم وتعلُّم وإقامة شعائر وعبادات، وفتوحات، قد ازدانت بها الدنيا.

البيت النبوي في المدينة:

أزواجه ﷺ

لما فرغ رسول الله ﷺ من بناء مسجده بنى بعائشة في البيت الذي بابه شارع إلى المسجد، وجعل سودة بنت زَمْعَةَ في البيت الآخر الذي يليه.(١) فكانت حجرات زوجات الرسول ﷺ مجاورة للمسجد.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال (فإنه كان عند النبي ﷺ تسع، كان يقسم لثمان ولا يقسم لواحدة)(٢) أي عند موته، وهن سودة ، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وأم حبيبة، وجويرية، وصفية، وميمونة. هذا ترتيب تزويجه إياهن رضي الله عنهن، ومات وهن في عصمته(٣). وقد اتفق العلماء على أنه من خصائصه ﷺ الزيادة على أربع نسوة يجمع بينهن.(٤)

وأما التي لا يقسم لها ﷺ فهي سودة رضي الله تعالى عنها، حيث وهبت يومها لعائشة رضي الله تعالى عنها، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (أن سودة بنت زَمْعة وهبت يومها لعائشة، وكان النبي ﷺ يقسم لعائشة بيومها ويوم سَوْدَة)(٥).

فلمحبتها لرسول الله ﷺ وهبت له يومها، وقد كانت رضي الله تعالى عنها ثقيلة كما جاء في صحيح البخاري -رحمة الله عليه-، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها،

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢٤٠/١)

(٢) البخاري (٣٥٥/٣) برقم (٥٠٦٧)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (١١٣/٩)

(٤) المرجع السابق (١١٤/٩)

(٥) البخاري (٣٩١/٣) برقم (٥٢١٢)

قالت (استأذنت سودةُ النبي ﷺ ليلة جمع -وكانت ثقيلة ثَبْطة- فأذن لها)[١] أي بطيئة الحركة رضي الله تعالى عنها، وبذلك تعطي مثلاً في المحبة للزوج عندما رأت نفسها قد كبرت وثقلت، أن تعطي يومها لأحب النساء إليه ﷺ فلم تمنعها الغيرة الموجودة عند النساء، أن تطمع في ذلك، بل كان طمعها رضي الله تعالى عنها في محبة زوجها ونبيها رسول الله ﷺ

وعقد رسولُ الله ﷺ على سودة بنت زمعة بعد أن عقد على عائشة، رضي الله عنهما، وأما دخوله عليها فكان قبل دخوله على عائشة بالاتفاق[٢]. رضي الله عنهما.

وقد أسلمت سودة قديماً وبايعت، وأسلم زوجها السكران بن عمرو، وخرجا جميعاً مهاجرين إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية.، وقَدِم السكران بن عمرو مكة من أرض الحبشة؛ ومعه امرأته سودة بنت زَمْعة؛ فتوفي عنها بمكة.[٣]

وأما في تفاصيل زواج أم المؤمنين سودة رضي الله تعالى عنها من النبي ﷺ وكذا زواج أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، فقد جاء في مسند الإمام أحمد رحمة الله تعالى عليه: أنه لما هلكت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون، قالت (يا رسول الله ! ألا تَـزَوَّجُ ؟ قال: مَنْ ؟ قالت: إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً، قال: فمن البكر ؟ قالت: ابنة أَحبِّ خَلقِ الله عزَّ وجلَّ إليك: عائشة بنت أبي بكر. قال: ومن الثيب ؟ قالت: سَوْدَةُ بنت زَمْعة، آمنت بك واتبعتك على ما تقول، قال: فاذهبي فاذكريهما عليَّ. فدخلت بيت أبي بكر، فقالت: يا أم رُومَان، ماذا أدخل الله عزَّ وجلَّ عليك من الخير والبركة ؟ قالت: وما ذاك ؟ قالت: أرسلني رسولُ الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قالت: انتظري أبا بكر حتى يأتي، فجاء أبو بكر، فقالت: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عزَّ وجلَّ عليك من الخير

---

(١) البخاري (٥١٤/١) برقم (١٦٨٠)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٣١٢/٩)

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٥٣.٥٢/٨)

والبركة ؟ قال: وما ذاك ؟ قالت: أرسلني رسولُ الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قال: وهل تصلحُ له، إنما هي ابنةُ أخيه، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له. قال: ارجعي إليه، فقولي له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلُحُ لي. فرجعت؛ فذكرت ذلك له، قال: انتظري، وخرج. قالت أمُّ رُومان: إن مُطْعِمَ بن عدي قد كان ذكرها على ابنه؛ فوالله ما واعد وعداً قط فأخْلَفَه لأبي بكر، فدخل أبوبكر على مُطْعِم بن عديٍّ، وعنده امرأته أم الفتى، فقالت: يا ابن أبي قُحَافة لعلك مصبيء صاحبنا، مُدْخِلُهُ في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك. قال أبو بكر للمُطعم بن عدي: أقَوْلَ هذه تَقُولُ ؟ قال: إنها تقولُ ذلك، فخرج من عنده، وقد أذهب الله عزَّ وجلَّ ما كان في نفسه من عِدَتِه التي وعَدَه؛ فرجع فقال لخولة: ادعي لي رسول الله ﷺ فدعته، فزوجها إياه، وعائشة يومئذٍ بنت ستَّ سنين.

ثم خرجت فدخلت على سودةَ بنتِ زَمْعة، فقالت: ماذا أدخل الله عزَّ وجلَّ عليك من الخير والبركة ؟ قالت: وما ذاك ؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أَخْطُبُك عليه. قالت: وَدْتُّ؛ ادخلي إلى أبي فاذكري ذاك له، وكان شيخاً كبيراً قد أدركته السن، قد تخلَّف عن الحج، فدخلت عليه فحييته بتحية الجاهلية، فقال: من هذه؟ فقالت: خولة بنت حكيم، فقال: فما شأنُكِ؟ قالت: أرسلني محمدُ بن عبد الله؛ أخطب عليه سودة، قال: كُفْءٌ كريم، ماذا تقول صاحِبتُكِ ؟ قالت: تحب ذاك، قال: ادعها لي، فدَعَتْها. فقال: أي بُنَيَّةُ ! إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قد أرسل يَخْطُبُك، وهو كُفْءٌ كريم، أتُحِبِّين أن أُزوِّجَكِ به ؟ قالت: نعم. قال: ادعيه لي، فجاء رسولُ الله ﷺ إليه، فزوَّجَها إياه، فجاءها أخوها عبدُ بن زَمْعَة من الحج، فَجَعَلَ يَحثي على رأسه التراب، فقال بعد أن أسلم: لَعَمرُكَ إني لسفيه يوم أحثي في رأسي الترابَ أن تَزَوَّجَ رسولُ الله ﷺ سودة بنت زَمْعة.)[١]

---

[١] أحمد (٦/٢١٠-٢١١) وانظر تخريج الحديث في المسند، الموسوعة الحديثية (٤٢/٥٠١-٥٠٦) برقم (٢٥٧٦٩)

فيتبين من هذه الرواية التي حملت تفاصيل زواج النبي ﷺ من أم المؤمنين سودة وعائشة رضي الله تعالى عنهما، أن زواجه ﷺ من سودة لِمَا ذكرت خولة بنت حكيم للنبي ﷺ عن سودة: آمنت بك واتبعتك على ما تقول. فإنها كلمات مؤثرة، لمرأة حملت هم الإسلام، وهاجرت من موطنها لبلد غريب عليها؛ مكاناً ولغة وعادات، ثم يتوفى الله تعالى زوجها، وهي ليست صغيرةً في السن، فيوافق النبي ﷺ على أن تُخطب له.

ثم ها هي خولة بنت حكيم رضي الله تعالى عنها، تستشعر هَمَّ ومكانة رسول الله ﷺ فتعرض عليه مَنْ تعرف من خيرة النساء، وتستشعر مكانة رسول الله ﷺ فتقول لمن تخطب منهم : ماذا أدخل الله عزَّ وجلَّ عليك من الخير والبركة ؟

ثم هذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يبين العلاقة الحميمة بينه وبين رسول الله ﷺ فيقول: إنما هي ابنةُ أخيه. مما يدلل على عمق العلاقة والمحبة بينهما حتى أنه يراه بمنزلة الأخ في النسب، التي تمثل العلاقة الخاصة. وهذا عمق الصدق والصداقة التي تضرب جذورها في سويداء قلب الصّديق رضي الله عنه، ولكن رسول الله ﷺ يوضح له ذلك بأسلوب نبوي راقي العبارة وشرعي الدلالة، فيقول له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلُحُ لي. وهكذا يُقدم أبو بكر الصديق رضي الله عنه درساً في سمو مشاعر الأخوة الصادقة.

أفليست هذه المحبة من أقوى دواعي المصاهرة؟ وجديرة بأن تتكلل بذلك ؟ لرجل اتصف بالصدق والمحبة المخلصة لرسول الله ﷺ. بل من صدقه ووفائه رضي الله عنه أن ذهب لمن ذكر عائشة يطلبها لابنه، فيكون قدر الله تعالى الذي إذا أراد شيئاً سهل له الأسباب، وإذا منع شيئاً سهل له أسباب المنع، مما يغرس في المسلم الإيمان بأن ما أراده ويريده الله تعالى من الخير لأحد لا يستطيع أن يحول دونه أحد. فتتسهل أسباب العطاء لرسول الله ﷺ ويُذْهِبُ الله عزَّ وجلَّ ما كان في نفس أبي بكر من عِدَتِه التي وعَدَه؛ فرجع فقال لخولة: ادعي لي رسول الله ﷺ فدعته، فزوجها إياه. وها هي رؤيا رسول الله ﷺ تتحقق، كما جاء في الحديث عن

عائشة رضي الله تعالى عنها (أن النبي ﷺ قال لها أُريتُكِ في المنام مرَّتين: أُرَى أنك في سَرَقَة من حرير، ويقول: هذه امرأتُك، فأكشف؛ فإذا هي أنت، فأقول: إن يَكُ هذا من عند الله يُمْضِه)[١] وقد أمضاه الله تعالى، فلا راد لعطائه سبحانه وتعالى.

ثم هذا والد سودة رضي الله عنها يصفُ رسولَ الله ﷺ بأنه: كُفْءٌ كريم. لما اتصف به رسول الله ﷺ من الخُلُق الكريم العظيم، فأصبح وصفه بنعُوت الخير والفضل يجري على ألسنة الناس من حوله. وهكذا كل صاحب خُلُق كريم تطمع الناس في مصاهرته.

ثم يأتي أخو سودة ليعطي الصورة المتغيرة لفكر الإنسان قبل الإسلام وبعده، ليبين ما يُحدثه هذا الدين من العمق الفكري لدى المسلم عندما يتشبع بنصوصه ومنهجه، فيقول بعد أن أسلم: لَعَمرُكَ إني لسفيه يوم أَحْثِي في رأسي الترابَ أن تَزَوَّجَ رسولُ الله ﷺ سودة بنت زَمْعة. فلقد اختلفت عنده موازين القيم والقياس وموازين الحياة جميعاً، ولكنه الإسلام بكل جماله وأهدابه وأهدافه ونوره الذي تنجلي به البصائر فتُبصر ما لم تكن تبصره من الخير والحُسن. قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣ ﴾[٢].

وفي صحيح مسلم ـ رحمة الله تعالى عليه ـ، عن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت (تزوجني رسول الله ﷺ لست سنين، وبنى بي وأنا بنت تسع سنين)[٣].

---

(١) البخاري (٦٦/٣) برقم (٣٨٩٥)

(٢) سورة الشورى: آيات (٥٢-٥٣)

(٣) مسلم (١٠٣٨/٢) برقم (١٤٢٢)

وفي صحيح البخاري رحمة الله تعالى عليه (تُوفيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين، فلبث سنتين أو قريباً من ذلك، ونكح عائشة، وهي بنت ستِّ سنين، ثم بنى بها وهي بنت تسع سنين)[1]

ويُستفاد من هذا الحديث أن مقاصد الزواج عند رسول الله ﷺ مقاصد عالية جدا، إذ أنه لو كان غير ذلك لما عقد بعائشة رضي الله تعالى عنها وهي بنت ست سنين ليبني بها بعد ثلاث سنين تقريباً.

كما يُستفاد من هذا الحديث بُعد النظر عند رسول الله ﷺ وصبره العظيم، فلم يكن تفكيره في ذاته ﷺ بل كان تفكيره في نجاح دعوته لينقذ الناس من الظلمات إلى النور، فعقده بعائشة ليبني بها بعد سنين، دليل عملي على ذلك، إذ لو كان غير ذلك لتزوج بغيرها ممن أعمارهن في حدود العشرين. فصلاة الله وسلامه عليك يا رسول الله.

وعن عائشة رضي لله تعالى عنها، قالت: (تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأي نساءِ رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني ؟)[2]

فتبين أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها مكانتها عند رسول الله ﷺ وتوفيق الله تعالى لها بأن تكرر لها في شهر شوال أمران مهمان في حياتها، مرة عقد الزواج، عندما كان عمرها ست سنين، ومرة أن بنى بها رسول الله ﷺ في شهر شوال، لتبين رضي الله عنها الطبيعة الإنسانية من حب الإنسان أن تُرى مكانته. وكيف لا يكون ذلك، وهي مكانة من نبي الله محمد ﷺ .

وأما هجرة آل بيته ﷺ إلى المدينة، فعن عمرة عن عائشة رضي الله تعالى عنهما (أنها سألت متى بنى بك رسول الله ﷺ ؟ فقالت: لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة خلَّفنا وخلَّف

---

(١) البخاري (٦٦/٣) برقم (٣٨٩٦)

(٢) مسلم (١٠٣٩/٢) برقم (١٤٢٣)

بناته، فلما قدم المدينة، بعث إلينا زيد بن حارثة، وبعث معه أبا رافع مولاه، وأعطاهم بعيرين وخمس مائة درهم، أخذها رسول الله ﷺ في المدينة من أبي بكر، يشتريان بها ما يحتاجان إليه من الظَهر، وبعث أبو بكر ﷺ معهما عبد الله بن أريقط الديلى ببعيرين أو ثلاثة، وكتب إلى عبد الله بن أبي بكر يأمراه أن يحمل أهله أم رومان وأنا وأختي أسماء؛ امرأة الزبير، فخرجوا مصطحبين، فلما انتهوا إلى قديد، اشترى زيد بن حارثة بتلك الخمس مائة درهم ثلاثة أبعرة، ثم دخلوا مكة جميعاً، وصادفوا طلحة بن عبيد الله يريد الهجرة بآل أبي بكر، فخرجنا جميعاً، وخرج زيد بن حارثة وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة، وحمل زيد أم أيمن وأسامة بن زيد، وخرج عبد الله بن أبي بكر بأم رومان وأختيه، وخرج طلحة بن عبيد الله، واصطحبنا جميعاً حتى إذا كنا بالبيض من منى نفر بعيري وأنا في مَحَفَّة معي، فيها أمي، فجعلت أمي تقول: وابنتاه واعروساه حتى أدرك بعيرنا، .... ثم إنا قدمنا المدينة، فنزلتُ مع عيال أبي بكر، ونزل آل رسول الله ﷺ وهو يومئذ يبني المسجد وأبياتاً حول المسجد، فنزل فيها أهله، ومكثنا أياماً في منزل أبي بكر ﷺ .....)[١]

وأما أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب فقد تزوجها رسول الله ﷺ بعد أن مات عنها زوجها، فعن أبي الحويرث قال: (تزوج خُنيس بن حُذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم حفصة بنت عمر بن الخطاب، فكانت عنده، وهاجرت معه إلى المدينة، فمات عنها بعد الهجرة، مقْدَم النبي ﷺ من بدر)[٢]

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال (لما تأيَّمت حفصة لقي عمرُ عثمان؛ فعرضها عليه، فقال عثمان: ما لي في النساء حاجة، فلقي أبا بكر؛ فعرضها عليه، فسكت، فغضب على أبي بكر، فإذا رسول الله ﷺ قد خطبها فتزوجها. فلقي عمر أبا بكر؛ فقال:

---

[١] الحاكم، المستدرك (٥٠٤/٤)

[٢] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٨١/٨)

إني عرضت على عثمان ابنتي فردَّني، وعرضتُ عليك؛ فسكت، فلأنا كنت أشد غضباً حين سكتَ مني على عثمان وقد ردّني. فقال أبو بكر: إنه قد كان النبي ﷺ ذكر منها شيئاً، وكان سراً، فكرهت أن أفشي السر.)[1]

ويتبين من هذه الرواية الهم الذي كان يحمله عمر بن الخطاب لابنته حفصة، وقد عرضها على رجلين كريمين وصحابيين جليلين، مما يفيد ويؤكد أن للمرء أن يعرض ابنته على الرجل الكفء، ولا يستنكف من ذلك، ويقبل الرد من الآخر والتماس العذر لمن اعتذر، كما التمس عمر العذر لعثمان رضي الله تعالى عنهما. كما يفيد أن الإنسان إذا أخذ في نفسه على أخيه المسلم فليخبره حتى يُزيل اللبس، وما قد يعلق بالقلب. كما فعل عمر مع أبي بكر رضي الله تعالى عنهما. فاتضح له سبب سكوت أبي بكر الصديق رضي الله عنه

كما يتبين حفظ السر من الصديق رضي الله عنه وتحمّله ما قد ينجم عن سكوته لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك أنه يعطي موازنة للأمور والأشخاص، فلم يُقدِّم رضا عمر ببيان ما كان من رسول الله ﷺ على رضا وحفظ أمر رسول الله ﷺ فهكذا تكون الموازنة والترجيح بين الأمور؛ وبين الأفراد؛ وفي القضايا والقرارات.

فتزوجها رسول الله ﷺ ولعل دواعي ذلك محبته وتقديره ﷺ لعمر بن الخطاب، ورفقاً بعمر الذي حمل هَمَّ ابنته، وليرفع من مكانة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمصاهرة. التي تعني الشيء الكثير عند العرب. وإلا البنات الابكار كُثُر، ولا يُرَدُ لرسول الله ﷺ طلب.

وأما أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية، فقد تزوجها رسول الله ﷺ بعد أن استُشْهد زوجها عبيدة بن الحارث رضي الله عنه يوم بدر، فمكثت عند رسول الله ﷺ ثمانية أشهر،

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٨/٨١-٨٢)

فتوفيت في آخر شهر ربيع الآخر على رأس تسعة وثلاثين شهراً، وصلى عليها رسول الله ﷺ ودفنها بالبقيع، وكانت تُسمى أم المساكين.(١)

وإن في لقبها ما يَدُلُ على كريم سجاياها رضي الله تعالى عنها، فلقد كانت محبة للمساكين تجود عليهم بما تستطيع، حتى أُشْتُهِرَ ذلك بين الناس، فَشُهِدَ لها بذلك، ثم إن زوجها قد استُشهد في بدر. فعوضها الله تعالى برسول الله ﷺ زوجاً لها.

وأما زواجه ﷺ من أم المؤمنين أم سلمة رضي الله تعالى عنها، فتقول : (سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ما من مُسْلم تُصيبهُ مُصيبةٌ فيقول: ما أَمَرَهُ الله . إنا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم أْجرني في مُصيبتي وأخلف لي خيراً منها ـ إلا أخلف الله له خيراً منها. قالت: فلما مات أبو سلمة؛ قلت: أي المسلمين خيرٌ من أبي سلمة ؟ أولُ بيتٍ هاجرَ إلى رسول الله ﷺ. ثم إني قُلْتُها، فأخلف الله لي رسولَ الله ﷺ. قالت: أرسل إليَّ رسولُ الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له، فقلت: إن لي بنتاً وأنا غَيُور. فقال: أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يَذْهَبَ بالغَيْرَة.)(٢)

يتبين من هذا الحديث، عناية أم سلمة بالتطبيق العملي لمنهج الإسلام أثناء المصيبة، التي قد ينساها البعض أثناء الفواجع، حيث قالت رضي الله تعالى عنها بما علمت من رسول الله ﷺ (ما من مُسْلم تصيبه مصيبة فيقول: ما أَمَرَهُ الله . إنا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم أْجرني في مُصيبتي وأخلف لي خيراً منها ـ إلا أخلف الله له خيراً منها.) وتبين رضي الله تعالى عنها، حجم ما أصابها ووفائها ومحبتها لأبي سلمة ﷺ (فلما مات أبو سلمة؛ قلت: أي المسلمين خيرٌ من أبي سلمة ؟ أولُ بيتٍ هاجرَ إلى رسول الله ﷺ) ولكن إيمانها دفعها أن تقولها، فيحقق الله سبحانه وتعالى لها ما لم تكن تحتسب، حيث تقول: (ثم إني قُلْتُها،

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٨/١١٥ـ١١٦)

(٢) مسلم (٢/٦٣١ـ٦٣٢) برقم (٩١٨)

فأخلف الله لي رسولَ الله ﷺ) وهكذا تعطي رضي الله تعالى عنها مثلاً في الامتثال، ليدرك المؤمن أن الله تعالى عنده ما لا يدركه الإنسان بعلمه وعقله وتفكيره، وأن الله تعالى يُخْلِف للعبد الممتثل لأمره بخير مما يتوقع.

ومن صدقها ووفائها، أخبرت رسول الله ﷺ بما تجده من نفسها، فتقول: (إن لي بنتاً وأنا غَيُور) فلم يدفعها حبها لنبيها ﷺ وأن تكون زوجة له ﷺ كتمان ما تجده في قرارة نفسها، ولكنه الصدق الذي يتقدم العواطف القلبية. فيبين لها عليه أفضل الصلاة والتسليم، منهجية المعالجة لهذا الأمر بقوله (أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يَذْهَبَ بالغَيْرَة.) فكلها أعراض تزول بدعاء الله تعالى وسؤاله جلَّ جلاله.

وهكذا تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة التي سبق الحديث عن هجرتها، وما تعرضت له من الأذى والابتلاء، وبكاؤها سنة كاملة أو قريباً من ذلك على ابنها الذي نُزِع منها عنوة، وزوجها الذي منعوها من الهجرة معه، أفليس هذا الزواج بالنبي ﷺ عوضاً لها، ودافعاً لأن يتزوجها رسول الله ﷺ.

وأما أم المؤمنين زينب بنت جحش الأسدية رضي الله تعالى عنها، فإن رسول الله ﷺ قد زوجها من مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه وأمها أميمة بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ ثم وقع بينهما. فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله يقول له: (أمسك عليك زوجك واتق الله) فلما طلقها زيد تولى الله تعالى تزويجها منه ﷺ بأن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر.[1] وعن أنس رضي الله عنه قال: (جاء زيد بن حارثة يشكو. فجعل النبي ﷺ يقول: اتقِ الله وأمسك عليك زوْجَك. قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٩٩/٣)

شيئاً لكتم هذه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوَّجكن أهليكن؛ وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات)[1] قال تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾[2]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه (أن هذه الآية (وتُخفي في نفسك ما الله مبديه) نزلت في زينب بنت جحش وزيد بن حارثة) [3]

فهكذا تبين نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية زواج النبي ﷺ من ابنة عمته زينب بنت جحش بأمر من الله تعالى وبحكمة إلهية، فزيد رضي الله عنه يشكو إلى رسول الله ﷺ أمرها، والنبي عليه الصلاة والتسليم يقول له (أمسك عليك زوجك) والله سبحانه وتعالى بحكمته وتدبيره يبطل ما كان متأصلاً في الجاهلية من التبني، الذي ينتسب فيه الرجل لمن تبناه ولا ينتسب لأبيه، وبالتالي لا يتزوج الرجل ابنة ذلك الرجل؛ على أساس أنه ابن له، فأبطل الله تعالى هذا الأمر بعمل تطبيقي؛ قد أمر به رسوله ﷺ وإنما الحكمة الإلهية التي تضع الشيء بحكمة وبما هو مقتضى أسمائه وصفاته، إنه حكيم خبير سبحانه وتعالى.

ومن الفوائد: أن النبي ﷺ قد بلَّغ عن الله تعالى أتم بلاغ، فلم يترك شيئاً مما أُوحي إليه إلا وقد بلغه أتم إبلاغ وبلاغ.

---

(١) البخاري (٣٨٨/٤) برقم (٧٤٢٠)

(٢) سورة الأحزاب: آية رقم (٣٧-٣٨)

(٣) البخاري (٢٧٨/٣) برقم (٤٧٨٧)

وأما أم المؤمنين، أم حبيبة، رملة بنت أبي سفيان بن حرب. فقد هاجر بها زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، فتنصر وارتد عن الإسلام، وتوفي بأرض الحبشة، وثبتت أم حبيبة على دينها، الإسلام. ورجعت بابنتها حبيبة بنت عبيد الله بن جحش.[1]

فهذه أم حبيبة رضي الله تعالى عنها تُفاجأ بارتداد زوجها الذي ذهبت معه مهاجرة إلى الحبشة، ولا شك أنه مصاب أليم لها: كُفْرٌ بالله؛ وفي دار غربة، ومن زوجها، وما وفاته بأكثر مصيبة من ارتداده عن الإسلام. ولكنها تمثل القدوة الصالحة بصبرها وثباتها على دينها، وإنها ومثلها في أمس الحاجة لمن يواسيها، ويعوضها عن تجشمها متاعب الهجرة والغربة وصدمة الكفر من زوجها، فيعوضها الله تعالى برسوله ﷺ ليكون لها زوجاً وأهلاً، يرعاها فتحظى بشرف ذلك.

ومن شفقته ﷺ ورحمته أنه لم يتركها بأرض الحبشة لا عائل ولا حامي لها تعيش في كنفه، فيرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة ليجري أمر زواجها منه ﷺ ليمسح عنها آلام وأحزان صدمتها، فعن أم حبيبة (أنها كانت تحت عبيد الله بن جحش، فمات بأرض الحبشة، فزوجها النجاشي النبي ﷺ وأمهرها عنه أربعة آلاف، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شرحبيل بن حسنة)[2]

وفي مزيد من التفصيل يذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى، أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، فخطب عليه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكان الذي زوجها

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٨/٩٦-٩٧)

(٢) أبو داود (٢/٥٨٣) برقم (٢١٠٧)

وخطب إليه النجاشي خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، ابن عم أبيها. وذلك سنة سبع من الهجرة.[١].

وهكذا أتم الله تعالى لها هذا الزواج، فكان خير عوض لها عن الأحداث التي مرت بها رضي الله تعالى عنها، ودفع مهرها النجاشي أربعة آلاف.

فيتبين من هذا الحدث عناية الله تعالى بالمؤمنين، وتعويضه لهم بأحسن مما يتوقعون ويرجون، فلا مناص للعبد من محبته سبحانه وتعالى، والإدراك الجازم أنه هو الرحمن الرحيم، ويجزي الصابرين، قال تعالى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[٢].

كما يتبين أن زواج رسول الله ﷺ لأهداف وغايات إسلامية عظيمة. ومغازيها تمتلئ بالرحمة والشفقة والحكمة.

وأما أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية فكانت بنت رئيس قبيلتها بني المصطلق، وقد وقعت في السبي، وقُتِلَ زوجها في الغزوة، ووقعت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، فكاتبها ثابت على نفسها على تسع أواق، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تستعينه في فكاكها، فعرض عليها الزواج؛ وقضى عنها، فخرج الخبر إلى الناس، فقالوا: أصهار رسول الله ﷺ يُسْتَرَقُّون ! فأعتقوا ما كان في أيديهم من سبي بني المصطلق، فبلغ عتقهم مائة أهل بيت؛ بتزويجه إياها، فتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها: (فلا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها.)[٣]

وهذا من تقديره ﷺ لمكانة هذه المرأة ومنزلتها السابقة؛ وعند قومها، فهي بنت رئيس قبيلتها، وما سيكون عن ذلك من أثر بالغ، حيث أعتق الصحابة ما كان بأيديهم من سبي

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٨/٩٩)

(٢) سورة النحل: آية رقم (٩٦)

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٨/١١٦-١١٧)

بني المصطلق بسبب زواج رسول الله ﷺ من جويرية رضي الله تعالى عنها، ويُذكر أيضاً أنه ﷺ قد خيرها فاختارت رسول الله ﷺ على رجوعها لقومها.[1] وقد زكتها أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، بقولها (فلا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها.) وهذا النص يُدلل على أمانة أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، إذ لم تمنعها الغيرة من الثناء عليها، فرضي الله عنهن أجمعين.

وقد تزوج ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب النُّضَرِيَّة، فعندما غزا رسول الله ﷺ خيبر كانت صفية بنت حيي إحدى السبايا، فأعتقها رسول الله ﷺ فتزوجها، فعن أنس ﷺ قال: (...وجمع السبي، فجاءه دَحِيَة، فقال: يا رسول الله ! أعطني جارية من السبي، فقال: اذهب فخذ جارية، فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: يا نبي الله ! أعطيت دحية صفية بنت حييٍّ سيد قريظة والنضير، ما تَصْلُحُ إلا لك. قال: ادعوه بها، قال: فجاء به. فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: خذ جارية من السبي غيرها. قال: وأعتقها وتزوجها.)[2]

وهذا الفعل منه ﷺ يدلل ويؤكد أيضاً أن زواجه من جويرية وصفية بسبب مكانتهما السابقة في قومهما، وهذا من باب الإعزاز لمن كان في عِزّ سابق، ويؤكد ذلك أيضاً مقولة الصحابي رضي الله تعالى عنه (: يا نبي الله ! أعطيت دحية صفية بنت حيٍّ سيد قريظة والنضير، ما تَصْلُحُ إلا لك.) فكأن مثل هذا لا يليق إلا بك يا رسول الله. عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ويفيد هذا أهمية العناية بالجانب النفسي، وإنزال الناس منازلهم، التي تليق بهم، وأنه من مكارم الأخلاق التي يلزم مراعاتها في شؤون الحياة، بالقياس على هذا الفعل منه ﷺ فلا بد

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، (١١٨/٨)

(٢) مسلم (١٠٤٤،١٠٤٣/٢) برقم (١٣٦٥)

من مراعاة ما كان عليه الإنسان قبل تغير أحواله من غنى إلى فقر، ومن مكانة اجتماعية عالية إلى ما دونها، ومن منصب إلى عزل، فإن انعكاساتها التربوية لا تنحصر في صاحبها؛ بل تتعدى لغيره من الناس، وتزيد في تآلفهم وتوادهم وتراحمهم.

وآخر من تزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث الهلالية، بعد أن توفي عنها زوجها، وكان ذلك سنة سبع من الهجرة.[1] وقال قتادة بن دعامة رضي الله عنه: أنه صلى الله عليه وسلم تزوج خمس عشرة امرأة، فدخل بثلاث عشرة، وجمع بين إحدى عشرة، ومات ﷺ عن تسع، وقد كان له من السراري اثنتان: مارية بنت شمعون القبطية، أم إبراهيم، أهداها له المقوقس؛ صاحب اسكندرية مصر. والثانية: ريحانة من بني قريظة، ثم أعتقها ولحقت بأهلها[2]

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٣٢/٨)

(٢) ابن كثير، الفصول في سيرة الرسول ﷺ (٢٥٢-٢٥٣)

أولاده ﷺ :

❖ القاسم، وبه كان يُكنى ﷺ مات طفلاً، وقيل عاش إلى أن رَكِب الدابة.

❖ زينب: كانت أكبر بنات رسول الله ﷺ تزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، وتوفيت في أول سنة ثمان من الهجرة.

❖ رقية: زوجة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهما. وتوفيت في رمضان على رأس سبعة عشر شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ بعد غزوة بدر.

❖ أم كلثوم: وتزوجت عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهما بعد وفاة أختها رقية، وماتت في شعبان سنة تسع من الهجرة.

❖ فاطمة: تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما، وتوفيت بعد النبي ﷺ بستة أشهر.

❖ عبد الله: وفي تاريخ ولادته خلاف، هل ولد بعد النبوة أو قبلها، وصحح بعضهم أنه ولد بعد النبوة. ويُلقب بالطيب أو الطاهر. ومات صغيراً.

فهؤلاء كلهم من خديجة. ولم يُولد له من زوجة غيرها.

❖ إبراهيم: وأمه مارية القبطية، سُرّية النبي ﷺ التي أهداها إليه المقوقس. وولد سنة ثمان من الهجرة، ومات طفلاً قبل الفطام.(١)

وفي وفاتهم قبله ﷺ ما عدا فاطمة عبرة وعظة لمن يفقد ولده، أو بعضاً منهم.

معاشَرَتُه ﷺ لأهله :

قال ﷺ (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)(٢) وبهذا النص النبوي الكريم يتبين المفتاح الرئيس الذي تنفتح به سعادة البيت وطمأنينته، وخيريته، فخير الناس هو من كان في

(١) السيرة النبوية، (٢٠٢/١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٩/٨-٣٩) وابن قيم الجوزية، زاد المعاد (١٠٣/١-١٠٤)

(٢) ابن ماجه (٦٣٦/١) برقم (١٩٧٧)

أهله مصدر خير، برعايته وحبه، الذي يضفي على زوجته وأولاده فيضاً من الإشباع العاطفي الذي يتحول به البيت إلى سعادة تغمر الجميع، فهذا التوجيه النبوي سر النجاح الأسري بعد توفيق من الله تعالى.

وليس هو ذاك الرجل الذي يدخل بيته عبوساً، صارخاً رهيباً مخيفاً، أو يُمسك عصاته، لتكون مصدر التربية والتوجيه الأول، فلم يكن من هديه ﷺ استخدام القوة والعنف في معاشرة الأهل، فعن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: (ما ضرب رسول الله ﷺ خادماً له، ولا امرَأة، ولا ضرب بيده شيئاً)[1]

بل العجب أن يضرب زوجته، في أول يومه ثم يضاجعها في آخره، قال ﷺ (إلامَ يجلدُ أحدُكُمُ امرأته جلد الأمة ؟ ولعله أن يُضاجِعَهَا من آخر يومِهِ)[2] فإنه كيف تليق مضاجعة الزوجة بعد القسوة عليها، فإنهما خطان لا يلتقيان. وليس معنى هذا الإهمال والتسيب، ولكن لا يعمد إلى هذه الوسيلة، وقد كثُرت وسائل التوجيه والإصلاح، بل إن الضرب يكون في الحالات المستعصية، قال تعالى ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ ﴾[3]

ومن هديه ﷺ إحسان العشرة حتى مع الخادم الذي يخدمه ﷺ فعن أنس رضي الله عنه قال: (خدمت النبي ﷺ عشرَ سنينَ، فما قال لي أف، ولا : لِمَ صنَعت ؟ ولا ألا صنعت ؟)[4]

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: ويُستفاد من هذا ترك العتاب على ما فات، لأن هناك مندوحة عنه باستئناف الأمر به إذا احتاج إليه، وفائدة تنزيه اللسان عن الزجر والذم،

---

(١) ابن ماجه (١/٦٣٨) برقم (١٩٨٤)

(٢) ابن ماجه (١/٦٣٨) برقم (١٩٨٣)

(٣) سورة النساء: آية رقم (٣٤)

(٤) البخاري (٤/ ٩٨) برقم (٦٠٣٨)

واستئلاف خاطر الخادم بترك معاتبته، وكل ذلك في الأمور التي تتعلق بحظ الإنسان، وأما الأمور اللازمة شرعاً فلا يُتسامح فيها؛ لأنها من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.[١]

ومن حُسن معاشرته لأهله ﷺ ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، حيث قالت (لقد رأيت رسول الله ﷺ يوماً على باب حُجرتي والحبشةُ يلعبون في المسجد، ورسول الله ﷺ يستُرُني بردائه أنظر إلى لعبهم)[٢] وقالت (وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالَّرَقِ والحراب، فإما سألت النبي ﷺ وإما قال: تشتهين تنظرين ؟ فقلت: نعم. فأقامني وراءه؛ خدِّي على خدِّه وهو يقول: دونكم يابني أرفِدة، حتى إذا مللت قال: حسْبُكِ ؟ قلت: نعم. قال: فاذهبي.)[٣]

فها هو ﷺ لم يُنكر على الأحباش لعبهم في مسجده ﷺ في يوم عيد، بلعب مباح لا منكر فيه، بل إن فيه ما يبعث على الشجاعة والقوة. ثم ها هو ﷺ يقف على باب حجرته لتقف زوجته خلفه، لتستمتع برؤية لَعِب الأحباش بالحراب، بل من فضل كرمه وحُسن معشره ﷺ، لم يبدأها بإنهاء متعتها في المشاهدة حتى مَلَّت رضي الله عنها، ثم وَضْعُ وقفتها التي تمتلئ حباً منها وكرماً وحباً منه ﷺ فتضع خدها على خده، وبالتالي يكون ذقنها على كتفه ﷺ كما أن في هذا البيان من أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها ما يبين أنه لا حياء في بيان معالم الدين ومنهجه، كما يدلل هذا الحديث على معرفة وإدراك أم المؤمنين أهمية بيان معاشرته ﷺ لهذه الأمة حتى تهتدي بهده ﷺ وهذا من فقهها رضي الله تعالى عنها.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: (دخل عليَّ أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار، تُغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بُعاث، قالت: وليستا بمغنيتين، فقال أبو

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٤٦/١٠)

(٢) البخاري (١٦٣/٢) برقم (٤٥٤)

(٣) البخاري (٣٠٢/٢) برقم (٩٥٠)

بكر: اَبِمُزْمُرِ الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ وذلك في يوم عيد. فقال رسول الله ﷺ : يا أبا بكر ! إن لكل قومٍ عيداً. وهذا عيدنا)[1]

وفي هذا الحديث بيان مراعاته ﷺ لواقع الحال الذي فيه أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، فهي في يوم عيد، ويوم فرح وابتهاج، وأن من حق الأهل أن يفرحوا بهذا اليوم ويستمتعوا بما أباحه الله تعالى. ثم في هذا الحديث بيان أن الجاريتين ليستا ممن يشتغل بالغناء (وليستا بمغنيتين) وهما صغيرتان (وعندي جاريتين) وأنهما يغنيان بكلمات ليس فيها ميوعة أو ما يدعو إلى الفسوق (تُغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث) كما أن في هذا الموقف عدم مجاملته ﷺ لصاحبه ووالد زوجته، بل بَيَّنَ له الحق والصواب الشرعي، وهكذا يكون المؤمن، لا يجامل في أمور دينه أحداً، وبالتالي لا يُقدِّم شيئاً على أوامر ونواهي شرع الله تعالى. وهكذا تكون العشرة الزوجية، تحفظ للأهل حقهم في الاستمتاع بالمباح وإن كانت نفس الزوج لا تَرْغبُ فيه أو لا تميل إليه، أو ليس من طبعه.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها (أنها كانت تلعب بالبنات عند رسول الله ﷺ قالت: وكانت تأتيني صواحبي، فكنَّ يَنْقَمِعْنَ من رسول الله ﷺ قالت: فكان رسول الله ﷺ يُسَرِّ بهن إليَّ)[2]

ومن لطفه ﷺ تمكينه لزوجته من اللعب مع صويحباتها، بل ومن كرمه لها ﷺ أن صويحباتها يتقمعن؛ أي يتغيبن حياء من رسول الله ﷺ فيدعهن، حتى يلعبن مع زوجته، فَيُدخل بهذا الصنيع السرور على زوجته، وعلى صويحباتها، وهذا من دقة وعمق مشاعره ﷺ إذ لا يدرك مثل هذه النواحي النفسية من ضاقت مشاعره، حتى لم تستطع أن تستوعب مشاعر غيره، وإن كثيراً من الأخطاء والخصومات ووقوع البغضاء بسبب عدم إدراك مشاعر الآخرين، أو

---

(١) مسلم (٢/٦٠٧ـ٦٠٨) برقم (٨٩٢)

(٢) مسلم (٤/١٨٩٠ـ١٨٩١) برقم (٢٤٤٠)

عدم مراعاتها حال إدراكها. مما يفيد أهمية إدراك ذلك سواء في الأسرة أو في المهنة والإدارة، ومع أفراد المجتمع؛ على اختلاف مجالات التواصل.

وعنايته ﷺ بصواحب زوجاته قد امتدت لهن حتى بعد الوفاة، ومن ذلك عنايته بصواحب أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها، تقول عائشة رضي الله تعالى عنها (وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة، يقول: أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة. فأغضبته يوماً فقلت: خديجة ؟ فقال رسول الله ﷺ : إني قد رُزقتُ حُبَّها)[1]

فهكذا يُعلمنا ﷺ الوفاء للأهل حتى بعد الوفاة، ذكرى وصلة ومحبة ووفاء، وإنه لخُلُق عظيم منه ﷺ وإنه لخُلُق الإسلام العظيم. ثم يتكرر في هذا الحديث صورة لصدق وأمانة أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، فبالرغم من غيرتها التي تذكرها رضي الله تعالى عنها إلا أن ذلك لم يمنعها من بيان حال رسول الله ﷺ مع خديجة رضي الله تعالى عنها، فتبين مقدار محبة رسول الله ﷺ لها، وإن هذا من وفائها وصدقها وأمانتها وكمال أخلاقها، وقد قال عنها ﷺ (وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[2]

وفي صورة أخرى من كمال خُلُقه ﷺ مع أهله، مسابقته لعائشة رضي الله تعالى عنها، حيث قالت (أنها كانت مع النبي ﷺ في سفر، قالت: فسابقته فسبقته على رجلي، فلما حملتُ اللحم سابقته فسبقني، فقال: هذه بتلك السبقة)[3]

فللمسلم أن يتصور مشاعر أم المؤمنين عائشة في كلا السباقين، وأثر ذلك في تعميق محبتها لرسول الله ﷺ وما يُحدثه ذلك السباق من انعكاسات نفسية على سلوكياتها، وعلى استقرارها وتعايشها مع الآخرين، وأيضاً أثر السعادة في تصرفات الإنسان، فالمرء عندما يكون

(1) مسلم (١٨٨٨/٤) برقم (٢٤٣٥،٧٥)
(2) مسلم (١٨٨٧،١٨٨٦/٤) برقم (٢٤٣١)
(3) أبو داود (٦٦،٦٥/٣) برقم (٢٥٧٨) وأحمد (٣٩/٦)

سعيداً يكون أكثر إيجابية وعطاء. وبالتالي ينعكس ذلك على من يُحيطون به من أبناء وأصدقاء ورفاق عمل ومهنة.

من حسن معاشرته ﷺ لزوجاته إكرامهن، حتى أنه ﷺ يضع ركبته لزوجته أم المؤمنين صفية حتى تركب على البعير، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه (....ثم خرجنا إلى المدينة، فرأيت النبي ﷺ يُحوِّي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره، فيضع ركبته، وتضع صفية رِجْلَها على ركبته حتى تركب)[1]

فمن عنايته ﷺ بزوجته صفية أن جعل لها حوية، أي كساء محشوة تُدار حول الراكب، ثم إنه ﷺ يضع ركبته الشريفة لها حتى ترتقي على بعيرها، فأي عناية وأي محبة وأي خيرية للأهل من هذا الصنيع النبوي العظيم.

فلا شك أن مثل هذا العمل الخُلُقي يدفع الزوجة إلى المزيد من العناية بالزوج، فتتعمق المحبة بينهما تبعاً لذلك، فتعقبها سعادة منزلية تنعكس على حياة الأبناء ومشاعرهم، والتي بالتالي تضفي على سلوكهم في الحياة قدراً كبيراً من التوازن العاطفي والنفسي؛ الذي يؤثر تأثيراً كبيراً على علاقاتهم الاجتماعية؛ وعلى فاعليتهم في المحيط الاجتماعي الذي يتعايشون فيه.

ومن خُلُقه ﷺ في بيته أن يعمل في خدمة أهله، بلا استنكاف ولا تأفف؛ وهو النبي المجتبى ﷺ فقد سُئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، ما كان النبي ﷺ يصنع في البيت ؟ قالت: (كان يكون في مهنة أهله، فإذا سمع الأذان خرج)[2]

فها هو النبي المصطفى ﷺ مع أهله في مهنتهم، ولكنه إذا أذن المؤذن لم ينشغل بشيء عن الصلاة، الأمر الذي ينبغي أن يسلكه المسلم وينتهجه، بحيث إذا أذن المؤذن ترك ما في

(١) البخاري (١٣٨/٣) برقم (٤٢١١)

(٢) البخاري (٤٢٧/٣) برقم (٥٣٦٣)

يده من مشاغل الدنيا وذهب إلى الصلاة، فكيف بمن يتهاون فيها وهو في غير مشغلة ؟ أليس في هذا مخالفة لمنهجه ﷺ ؟

ومما يقوم به ﷺ في بيته أنه يخصف نعله ويرقع ثوبه، فعن سفيان، عن هشام، عن أبيه، قال: سألت عائشة : ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته ؟ قالت: (ما يصنع أحدكم في بيته، يخصف النعل ويرقع الثوب ويخيط)[1]

وهذا يُدلل على أنه لا يُنقص من قدر الرجل ممارسته بعض مهن بيته ومع أهله، فليس أحد من البشر أفضل من رسول الله ﷺ وليتأمل المسلم ما يضفيه ذلك الخُلُق على مشاعر الزوجة، وعلى مشاعر الأبناء الذين يرون في والدهم عوناً لأمهم التي يُحبونها ويتعاطفون معها، بل إن في ذلك تدريباً للأبناء على المنهجية العملية التي يكونون عليها عندما يصبحو أزواجاً، فيكونون قدوة صالحة لغيرهم ولأبنائهم من بعدهم، فينال الوالد من ذلك الأجر العظيم؛ نتيجة القدوة التي تمثل بها، فَسَلَكَهَا غيرُه من بعده تأثراً وتأسياً بسلوكه.

وربما سمر رسول الله ﷺ مع أهله أحياناً، فعن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما، قال: (... وإن أبا بكر تعشى عند النبي ﷺ ثم لبث حيثُ صُلِّيَتِ العشاء، ثم رجع فَلَبِثَ حتى تعشى النبي ﷺ ، فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله...)[2] وبَوَّبَ البخاري رحمة الله تعالى عليه (باب السمر مع الأهل والضيف)[3]

وفي هذا دلالة على أنه لا بأس بأن يسمر الرجل مع أهله، ولكن على أن لا يؤثر ذلك على أدائه لصلاة الفجر، لأن صلاة الفجر واجبة، والسمر مع الأهل مباح، فلا يمنع المباح أداء واجبٍ.

---

(١) البخاري، الأدب المفرد (٦٣٤/١) برقم (٥٤٠)

(٢) البخاري (٢٠٣/١) برقم (٦٠٢)

(٣) المرجع السابق (٢٠٣/١)

وهكذا يتبين بجلاء عمق أخلاقه ﷺ وكريم معاشرته مع أهله، الأمر الذي لا يسعنا إلا اتباعه والعمل بهديه، حتى يصلح حال الأسرة المسلمة فيصلح حال الأمة، لأن الأمة مركبة من مجموعة الأسر المسلمة، والتي بقوتها تقوى، وبضعفها تضعف، كما يبين ذلك منهجية الإسلام المتكاملة في أدق تفاصيلها، والتي ترجمها رسول الله ﷺ قولاً وفعلاً، وقد رصدتها لنا كتب السيرة والسنة النبوية المشرفة.

رعايته ﷺ للصغار :

ولقد كان ﷺ يهش ويبش في أوجه الصبيان، ويداعبهم، ويحملهم على ظهره أو على دابته، وكانوا يتلقونه عندما يَقْدِم من سفر أو يرونه في الطريق، وما ذاك إلا لمحبتهم له ﷺ لما يؤانسهم به من الحب والعطف. فعن عبد الله بن جعفر، قال: (كان النبي ﷺ إذا قَدِمَ من سفر تُلُقِّيَ بنا. قال: فَتُلُقِّيَ بي وبالحسن أو الحسين، قال: فحمل أحَدَنَا بين يديه، والآخر خلفه، حتى دخَلْنَا المدينة.)[1]

فيتبين من هذا الحديث حال الصغار مع رسول الله ﷺ إذ أنهم يتلقونه من بعيد عندما يَقْدِمُ من سفر ﷺ ويتسابقون إليه، مما يؤكد تِرْحَابَه بهم ﷺ وسروره بذلك، فيحملهم معه على دابته، ولا شك أن دواعي تلقيه تعكس لنا الباعث لذلك العمل من أولئك الصبية، إذ أنه ﷺ يداعبهم ويلاطفهم ويلاعبهم، حتى أصبحوا يفرحون بمقدمه.

وهذا العمل يُجسد للمؤمن التطبيق العملي والمنهج التربوي الذي يلزم أن يسلكه مع أبنائه وأقاربه من الصغار، فيحفهم بالرعاية والتقبيل والمداعبة، ويُعطيهم جزءاً من وقته، ولا يستبدل ذلك بما ينفرهم نتيجة تعب السفر أو تعب العمل والمهنة، فذلك رسول الله ﷺ يقدم من السفر، الذي فيه عادة من المشقة ما فيه، ولكنه لا يجعل من ذلك حاجزاً ومانعاً بينه وبين الصغار. فالصغير لا يدرك حال المسافر، بقدر ما يدرك منه الملاطفة والمداعبة؛ التي تجذبه

---

(١) مسلم (١٨٨٥/٤) برقم (٦٧-٢٤٢٨)

وتأخذ بفؤاده نحو من يترفق به ويتلطَّف معه، وإن هذا النوع من التكريم للأطفال يعطيهم فيضاً من المحبة؛ ومساحة كبيرة تغمرها المشاعر العاطفية التي يمتلئ بها قلبه، فتنعكس على تكوين شخصيته مستقبلاً، الأمر الذي ينبغي أن تعنى به التربية وفق المنهج النبوي الكريم الذي أسس وأشبع هذا الجانب العاطفي لدى الأبناء.

وعن يعلى بن مرة، أنه قال: (خرجنا مع النبي ﷺ ودُعينا إلى طعام، فإذا حسين يلعب في الطريق، فأسرع النبي ﷺ أمام القوم، ثم بسط يده، فجعل الغلام يفر هاهنا وهاهنا، ويُضاحكه النبي ﷺ حتى أخذه، فجعل إحدى يديه في ذقنه والأخرى في رأسه، ثم اعتنقه، ثم قال ﷺ : حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، الحسين سبط[١] من الأسباط)[٢]

وفي هذا الحديث، توجيه الأمة إلى كيفية الرعاية التربوية للصبيان، إذ أنه ﷺ قام بذلك العمل أمام أصحابه، ولم يمنعه تواجد أصحابه معه؛ وفي الطريق من مداعبة الحسين، وملاعبته، لِيُعَلِّمَ الأمة حال الرجل مع صبيانه أين ما يكون وكيف يكون. كما يُفهم من هذا أن حاله ﷺ معهم في المنزل أكثر من ذلك، إذ عادة ما يكون المرء مع أبنائه في المنزل أكثر مما يظهر عليه معهم في الطريق وأمام الناس.

وفي هذا الحديث أنه لا بأس من ملاعبة الصبية في الطريق، وأمام الناس. كما أن في هذا الحديث ما يبين فرح الحسين بمشاهدة رسول الله ﷺ في الطريق، فأخذ يفر ها هنا؛ وها هنا؛ مداعباً ومُتلاعباً مع رسول الله ﷺ الذي كان يبادله ﷺ نفس الروح الطيبة الزكية من الحب، فيضيف ﷺ إلى تلك المداعبة المضاحكة ليزداد الصبي قبولاً وإقبالاً وفرحاً وسروراً به ﷺ

---

[١] أي أمة من الأمم في الخير، والأسباط في أولاد إسحاق بن إبراهيم الخليل، بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل، وأحدهم سبط. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/٣٣٤٠)

[٢] البخاري، الأدب المفرد (١/٤٥٩-٤٦٠) برقم (٣٦٤)

ثم يبين هذا الحديث منزلة الحسين رضي الله تعالى عنه من رسول الله ﷺ وما يجب أن يكون للحسين من الحب من المسلمين.

ومن حبه ﷺ للأطفال، وعنايته بما يُحبون، وما عُرف عنه ﷺ من ذلك، أنه كان يُؤتى بالصبيان ليدعو لهم؛ فعن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت (كان النبي ﷺ يُؤتى بالصبيان فيدعو لهم)[1]

فلما أنه ﷺ قد عُرِف بحبه ولطفه وعنايته بالصبيان، فإنه يؤتى بهم من أهليهم ليدعو لهم ﷺ بالبركة، ويمسح عليهم، وقد بوب الإمام البخاري رحمة الله تعالى عليه : باب الدعاء للصبيان بالبركة ومسح رؤسِهِم[2] وعن السائب بن يزيد، أنه قال (ذهبت بي خالتي إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ! إن ابن أُختي وجع. فمسح رأسي ودعا لي بالبركة.)[3]

فهذه الشواهد تُدلل على عنايته ﷺ بأمر الطفولة، وقد عُرف عنه ذلك في الوسط الاجتماعي من صحابته ﷺ ورضي الله تعالى عنهم أجمعين، مما يؤكد أهمية العناية بشؤون الأطفال: بصحتهم والدعاء لهم بالبركة، ومراعاة أحوالهم النفسية، وما انطوت عليه من حب اللعب والمداعبة والمضاحكة، الأمر الذي ينعكس على سلوكياتهم واستقرارهم النفسي، وتوازنهم العاطفي الذي تتأثر به طباعهم المكتسبة، بل وحتى الفطرية.

فلقد قدمت سيرته ﷺ الأسوة والقدوة والمنهج الذي يجب أن يأخذ به المسلم في شؤونه الخاصة والعامة؛ حتى يصل ويرتقي به إلى أحسن ما يجب ويُحِب أن يكون عليه .

---

(١) البخاري (١٦٣/٤) برقم (٦٣٥٥)

(٢) البخاري (١٦٣/٤)

(٣) البخاري (١٦٣/٤) برقم (٦٣٥٢)

الفصل الخامس

بداية الغزوات والسرايا

أسس الجهاد الإسلامي:

لقد لقي رسول الله ﷺ عظيم الأذى من قومه في مكة، وكذلك من دخل معه في الإسلام من الضعفاء، ولم يأذن لهم الله تبارك وتعالى في القتال، بالرغم من فتنة قومهم لهم؛ وصدهم لهم عن ذكر الله تعالى، مما يؤكد المنهجية الإسلامية التي تراعي الظروف والأحوال، وعدم الاستعجال، مع التدرج في تحقيق الأهداف.

وقد جاء تشريع الجهاد بمراحل أربع، وهي:[(١)]

١. مرحلة الصبر دون القتال ـ بمكة.

٢. مرحلة الإذن بالقتال ـ بعد الهجرة.

٣. مرحلة الأمر بقتال من يبدؤهم بالقتال.

٤. مرحلة الأمر بقتال جميع المشركين.

قال تعالى ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[(٢)]

فلقد تضمن النص القرآني العلة في الإذن لهم بالقتال، وهو إخراجهم ظلماً وعدواناً؛ بغير حق؛ ولا سبب موجب لذلك، غير أنهم يُوَحِّدُونَ الله فيعبدونه وحده لا شريك له. وإنه لسبب موجب لقتال أولئك الكفار، بل بَيَّنَ الله سبحانه وتعالى أهمية المدافعة الجهادية في إبقاء دين الله تعالى، "فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله، ضرر الكافرين"[(٣)]

---

(١) مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص (٣٣٦) ابن القيم، زاد المعاد (٧١/٣)

(٢) سورة الحج : آية رقم (٣٩ـ٤٠)

(٣) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٢٤/٣)

وقال تعالى ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ (١)

وتبين هذه الآية الكريمة الأمر بالقتال في سبيل الله تبارك وتعالى إخلاصاً له سبحانه، وأن تكون المقاتلة لمن يقاتل المسلمين، مع النهي عن الاعتداء، الذي يشمل أنواعه كلها، من قتل من لا يقاتل، من النساء والمجانين والأطفال، والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتلى، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار ونحوها، لغير مصلحة تعود للمسلمين، ومن الاعتداء مقاتلة من تُقبل منهم الجزية إذا بذلوها، فإن ذلك لا يجوز.(٢) فعن سليمان بن بريدة عن أبيه، قال (كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّرَ أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: أُغْزُوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، أُغْزُوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغْدِرُوا ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك إليها، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين، واخبرهم أنهم إن فعلوا أن لهم ما للمهاجرين؛ وعليهم ما على المهاجرين، وإن هم أبوا أن يتحوَّلوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حُكْمُ الله الذي يجري على المسلمين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا، فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك، فاقبل منهم؛ وكُفَّ عنهم، وإن هم أبو فاستعن بالله وقاتلهم.

وإذا حاصرت أهل حِصْنٍ، فأرادُوكَ أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيك، فلا تجعل لهم ذِمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أبيك وذِمَمَ أصحابك، فإنكم أن تُخْفِرُوا ذِمَمَكم وذِمَمَ آبائكم، أهون أن تُخْفِرُوا ذِمَّة الله وذِمَّةَ رسوله.

---

(١) سورة البقرة: آية رقم (١٩٠)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٥٠.١٥١)

وإن حاصرت أهل حِصْنٍ فأرادُوك أن تُنْزِلَهم على حُكْمِ الله، فلا تُنْزِلْهُم على حُكْمِ الله، ولكن أَنْزِلْهُم على حُكْمِك، فإنك لا تدري أتصيبُ حُكْمَ الله فيهم أم لا)[١]

ويبين هذا الحديث العظيم مجموعة من أخلاق الإسلام وهديه في الحروب، منها ما يكون بين القائد ومجموعته، بأن يلتزم فيها تقوى الله تعالى، وهي وصية جامعة شاملة لكل خير، ودافعة لكل شر، وكذلك من معه من المسلمين بفعل الخيرات، التي تقتضي اجتناب المنكرات. وفي هذا بيان تربوي لما ينبغي أن يقوم به الوالي من توجيه لقادته وأعوانه، ليغرس فيهم منهجية العلاقة الإسلامية في الجهاد، التي مبناها أداء واجبات دينية، وتحمل أعباء ومسؤولية، تتحقق بتقوى الله تعالى. فنهاهم عن الخيانة (ولا تَغُلُّوا) وهي الخيانة في المغنم، والسرقة من الغنيمة قبل القسمة. وإن كانت هذه متعلقة فيما بينهم بالغنيمة، فإن لها أثراً على العدو.

ثم تضمنت الوصية الهدف من الغزوات، بأنها لله وباسم الله؛ وليس لحصد الغنائم وامتلاك الديار (: اغزوا باسم الله في سبيل الله) ويوضح المزيد منها ما بعدها.

وبينت الوصية كذلك سُبُل تحقيق هذا الهدف، بأن يكون وفق أخلاق الإسلام، وليس وفق معايير الأهواء، أو بسط النفوذ، أو حب المال والمناصب والتكثر. إذ نهاهم عن الغدر، (ولا تَغْدِرُوا) أي ولا تنقضوا العهد، (ولا تُمَثِّلُوا) وهو التنكيل والتشويه؛ كجدع أنف أو قطع أُذن؛ أو شيء من الأطراف. (ولا تقتلوا وليداً) وهو الصغير. وفي حديث آخر؛ (...ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة...)[٢]

---

[١] مسلم (١٣٥٧،١٣٥٦/٣) برقم (١٧٣١)، أحمد، المسند (٣٥٨/٥) واللفظ له.

[٢] أبو داود (٨٦/٣) برقم (٢٦١٤) وفي ذلك مسائل فقهية، متعلقة بمن حارب من هؤلاء، وبمن تُقبل منهم الجزية... فمحلها كتب الفقه، من أبواب الجهاد. حيث فَصَّل فيها الفقهاء رحمة الله تعالى عليهم أجمعين.

ثم اشتملت الوصية على منهجية التفاوض والعروض التي تبين مزيداً من أهداف الجهاد في الإسلام، بأنه لم يكن أبداً من أجل التسلط على أوطان الناس، بل لإخراج الناس من الكفر إلى الإسلام، فإن أبوا فعليهم دفع الجزية؛ لتكون الهيمنة والسلطان للإسلام، دون أن تُغْتصب ديارهم، فقال ﷺ (فإن هم أجابوك، فاقبل منهم وكُفَّ عنهم) وأم الثالثة لمن لم يقبل دين الله ولم يقبل دفع لجزية فتكون الأخرى (وإن هم أبوا فاستعن بالله، وقاتلهم)

واشتملت كذلك الوصية النبوية على مزيد تفصيل لمن تحصن من العدو، وتفاوضوا معهم، بأن يكون التفاوض مبني على ذمة القائد ومن معه، وليس على ذمة الله تعالى أو ذمة رسوله، وذلك تنزيهاً لعهد الله وأمانه، من أن لا يصيب القائد حقيقتها، كما قال ﷺ (فإنك لا تدري أتصيب حُكْم الله فيهم أم لا) ولئن تُخْفِرُوا أي تنقضوا ذممكم أهون من أن تُخْفَروا ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وفي هذا التنويه درس تربوي، بأن لا يقول الإنسان قال الله أو حكم الله أو حرَّم الله أو أحلَّ الله إلا بعلم فيما يقول.

وهذا يؤكد ويبين أن منهج الإسلام قائم على العدل وعدم الاعتداء، وتجاوز الحدود التي تحقق الهدف، فلم يأذن لهم في القتال بأي تجاوزات عن الهدف المحدد، بل إن من بذل الجزية للمسلمين فيجب عدم مقاتلته. فما أحوج الناس كافة لهذا الدين العظيم، الذي يعصم دماءهم وأموالهم.

وقال تعالى ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1]

إن الإسلام عندما شرع الجهاد فإنما شرعه لإعلاء كلمة الله تعالى، حتى ينتشر هذا الدين بين الناس، ليخرجهم من ظلمات الكفر ومنكرات الأخلاق إلى نور الإسلام وفضائل الأخلاق، ولم يكن لاستنزاف خيرات الشعوب، وتدميرها، بل منع الإسلام العدوان والفساد في

---

[1] سورة التوبة: آية رقم (٣٦)

الأرض، فإن دخلوا في الإسلام فقد حققوا الهدف، وبالتالي فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وأصبحوا إخواناً لهم، وبالتالي فلا قتال ولا عدوان عليهم. قال تعالى ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣ ﴾ [١]

وبين الشيخ ابن سعدي رحمة الله تعالى عليه دلالة الآية: بأن الله تعالى ذكر المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم. ولكن المقصود أن يكون الدين لله تعالى، فيظهر دين الله تعالى على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره.[٢]

وهذه المنهجية الإسلامية تبين وتوضح مراد الإسلام من الجهاد، بأنه لإعلاء كلمة الله تعالى، فإذا تحققت فلا عدوان ولا اعتداء، لأن الإسلام لا يأمر أتباعه بالاعتداء والظلم، بل ينهاهم عن ذلك.

ثم إن هذا التدرج في أحكام الجهاد يعطي دلالة تربوية مع الدلالات الأخرى، أن الإسلام يراعي في تربيته وتوجيهه القدرات والإمكانات البشرية والنفسية والمادية. فالله تعالى قادر على نصر الفئة المسلمة القليلة في أي معركة يدخلونها؛ عندما كانت تلك الفئة في مكة قبل الهجرة، ولكنها إرادة الله تعالى التي تربي المسلمين وفق السنن الكونية والاجتماعية التي أرادها الله تعالى. مما يؤكد أهمية مراعاة هذه السنن الاجتماعية والتربوية في حياة الأمة، على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع، وفي أوجه ضروب الحياة المختلفة: في التنشئة، وفي التعليم، وفي المهنة، والتكسب، وطلب الرزق، وفي معالجة قضايا الأمة، وإعدادها، وتهيئتها لما يُراد القُدوم عليه، وفي جميع مجالات الحياة

---

[١] سورة البقرة: آية رقم (١٩٣)

[٢] ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٥١)

وبالضوابط الربانية والمنطلقات الإسلامية تتابعت الغزوات النبوية؛ فارتفعتْ رايةُ الإسلام، ودخل الناس في دين الله تعالى أفواجا.

وهذه طائفة من غزواته ﷺ وسراياه؛ والتي تتبين فيها الدروس والعبر بمختلف أنواعها وضروبها:

ولقد اختلف أهل المغازي في عدد غزواته وسراياه ﷺ فذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى أن عدد مغازي رسول الله ﷺ التي غزا فيها بنفسه سبعاً وعشرين غزوة، وكانت سراياه التي بعث بها سبعاً وأربعين سرية.[1] ، وفي صحيح مسلم إحدى وعشرون غزوة [2] وقيل غير ذلك في عدد الغزوات والسرايا، كما اختُلِف في أول سرية؛ قيل الأبواء ثم بواط ثم العُشَيرة، وقيل أول لواء عقده ﷺ لحمزةرضي الله عنه

---

[1] ابن سعد، الطبقات (٦٠٥/٢)

[2] مسلم (١٤٤٨/٣) برقم (١٨١٣)

الغزوات والسرايا قبل بدر:

لقد بدأت النشاطات العسكرية قبل موقعة بدر الكبرى بسرايا وغزوات، هي:

- **سرية سيف البحر**. بقيادة حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ليعترضوا عيراً لقريش، قادمة من الشام، فكان أول لواء عقده رسول الله ﷺ وكان ذلك في رمضان على رأس سبعة أشهر من مبعثه ﷺ[١]

- **سرية الخرَّار**:

وفي ذي القعدة على رأس تسعة أشهر من مهاجر رسول الله ﷺ عقد لواء هذه السرية لسعد بن أبي وقاص في عشرين رجلاً من المهاجرين لاعتراض عير قريش حين تمر من الخرار بالقرب من خُمّ في طريق الذاهب من الجحفة إلى مكة.[٢]

- **غزوة الأبواء (وَدَّان)**

كانت في صفر على رأس اثنى عشر شهراً من مهاجرَه ﷺ وهي أول غزوة غزاها بنفسه ﷺ ليعترض عيراً لقريش، فلم يلق كيداً، وفي هذه الغزوة وادع ﷺ بني ضمرة على أن لا يغزوهم ولا يغزوه، ولا يُكثروا عليه جمعاً، ولا يُعينوا عدواً، وكتب بذلك كتاباً.[٣]

- **سرية عبيدة بن الحارث رضي الله عنه إلى رابغ**:

فقد بعثه ﷺ في ستين رجلاً من المهاجرين، فلقي أبا سفيان بن حرب، في مئتين من أصحابه، فكان بينهم الرمي ولم يسلوا السيوف، ولم يصطفوا للقتال، وإنما كانت بينهم المناوشة، وقد رمى سعد رضي الله عنه يومئذٍ بسهم، فكان أول سهم رمي به في الإسلام.[٤]

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٦/٢)

(٢) المرجع السابق (٧/٢)

(٣) المرجع السابق (٨/٢)

(٤) المرجع السابق (٧/٢)

ـ غزوة بواط:

وكانت في شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من مهاجَره ﷺ في مائتين من أصحابه، يعترض عيراً لقريش، فبلغ بواط وهي جبال من جبال جُهينة من ناحية رضوى.[1]

ـ غزوة سَفَوَان (بدر الصغرى)

في شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من مهاجره ﷺ خرج عليه الصلاة والسلام يطلب كُرز بن جابر الفِهْري، الذي أغار على سرح المدينة فاستاقه[2] وفاته كرز بن جابر ولم يلحق به، فرجع ﷺ إلى المدينة.[3]

ـ غزوة العُشَيْرَة:

وفي جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهراً من مهاجَره ﷺ خرج عليه الصلاة والسلام في خمسين ومائة، ويقال في مائتين من المهاجرين إلى ذي العشيرة يعترض عير قريش، وهي ناحية ينبع، فوجد ﷺ أن العير قد مضت قبل ذلك بأيام، فعلمت قريش بذلك، فخرجوا يمنعونها، فلقوا رسول الله ﷺ ببدر، فكانت موقعة بدر الكبرى بسبب ذلك. وفي هذه الغزوة وادع ﷺ بني مُدْلِج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً.[4]

ـ سرية نخلة :

في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مهاجره ﷺ بعث عبد الله بن جحش الأسدي في اثني عشر رجلاً من المهاجرين إلى بطن نخلة، كل اثنين يعتقبان بعيراً، وأمره أن يرصد بها عير قريش، فوردت عليهم العير، وفيها ابن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان، فقاتلوهم، حيث خرج واقد بن عبد الله التميمي

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٨-٩)

(٢) والسرح ما رعوا من نَعَمِهم.

(٣) المرجع السابق (٢/٩)

(٤) المرجع السابق (٢/٩-١٠)

يقدم المسلمين، فرمى عمرو بن الحضرمي فقتله، وشد المسلمون عليهم فاستأسر عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان وأعجزهم نوفل، واستاقوا العير وما فيها، وقدموا بها إلى رسول الله ﷺ فحبس الأسيرين، فأسلم الحكم بن كيسان وقُتُل ببئر معونة شهيداً رضي الله عنه.[1]

ويتبين من تلك الغزوات والسرايا أنها كانت تتابع عير قريش ليظفر بها المسلمون المهاجرون الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق، والذين اضطهدهم كفار قريش، مما جعلهم يطلبون الأمن على دينهم وأرواحهم خارج موطنهم مكة المكرمة. وواحدة من تلك السرايا والغزوات كانت لتعقب المعتدي كرز بن جابر عندما أغار على سرح المدينة. فكانت غزوة سَفَوَان.

ولقد استفاد المسلمون من تلك المناوشات والتعقب لعير قريش فوائد عديدة، من أبرزها، إظهار قوة المسلمين لقريش وللقبائل الأخرى بما تسمعه عن المسلمين من تعقبهم لعير كفار قريش، وبالتالي تغرس في قلوبهم الهيبة لهم، إضافة إلى تمرس وتدريب المسلمين على لقاء العدو والمواجهة، والتعرف على الجوانب الجغرافية وتضاريس ما حول المدينة، مما يُكسبهم دربة ومعرفة، كما استفاد المسلمون من موادعة بني ضمرة وبني مُدْلِج وحلفائهم.

ومن فوائد تلك السرايا بناء الثقة، بأن أوكل ﷺ قيادتها لبعض من أصحابه، بما يربي فيهم روح القوة والثقة والتعلم، مما يؤكد أهمية ممارسة القائد والمدير والرئيس لهذا المبدأ الذي يغرس الثقة في النفس، بل ويدرب الفرد والمجموعات على الجوانب القيادية، وإدارة دفة الركب أو الجماعة، إضافة إلى كشفها لقدرات أعوان المسؤول، أياً كان موقعه.

وفي عدم ممارسة هذا النوع من القيادة ما يؤكد خطأ أصحاب هذا الاتجاه الأحادي، ممن يحصر أو يرى نجاح الأعمال القيادية في ذاته ومن خلاله فقط، وفي كل الأحوال والظروف،

---

(1) المرجع السابق (٢/١٠١١)

وبالتالي يدير إدارته بمركزية الأداء. أو أنه لا يرى مجالاً لبناء الثقة فيمن يعملون في دائرته؛ خشية الوقوع في الخطأ.

الفصل السادس

من غزوة بدر إلى غزوة أحد

غزوة بدر:

سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في عِير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش؛ وتجارة من تجارتهم، وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون، فندب ﷺ المسلمين إليهم، وقال (هذه عير قريش، فيها أموالُهم، فاخرجوا إليها؛ لعل الله يُنْفِلُكُموها)[١]

فلقد كان موقع المدينة في طريق القادم من الشام إلى مكة؛ يُحتم على قريش المرور بها أو قريباً منها، وقد حانت الفرصة للمسلمين أن يأخذوا ما أمكن من حقوقهم المسلوبة، وأن يكسروا شوكة قريش التي تُؤلب عليهم. فيوجه رسول الله ﷺ المسلمين لاعتراض هذه القافلة العظيمة لعل الله أن يُغَنِّمَهُم تلك التجارة.

عن أنس (أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلم أبو بكر، فأعرض عنه، ثم تكلم عمر، فأعرض عنه. فقام سعد بن عبادة؛ فقال: إيانا تُريد ؟ يا رسول الله! والذي نفسي بيده ! لو أمرتنا أن نُخِيضها البحرَ لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْكِ الغِمَادِ لفعلنا. قال: فندب رسول الله ﷺ الناس، فانطلقوا حتى نزلوا بدراً. ووردت عليهم روايا قريش.)[٢]

قال العلماء: إنما قصد ﷺ بذلك أخذ موافقة الأنصار لأنه لم يكن بايعهم على أن يخرجوا معه للقتال؛ وطَلَب العدو، وإنما بايعهم على أن يمنعوه ممن يقصده، فلما عَرَضَ الخروج لعِير أبي سفيان أراد أن يعلم أنهم موافقون على ذلك، فأجابوه أحسن جواب؛ بالموافقة التامة.[٣]

وهذا يدلل على أن هذه المشورة كانت في المدينة؛ قبل بدر، خاصة وأن سعد بن عبادة لم يحضر بدراً رضي الله عنه

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٢/٢٥٧-٢٥٨)

(٢) مسلم (٣/١٤٠٣-١٤٠٤) برقم (١٧٧٩)

(٣) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٢٤)

ويتبين في هذا الحديث احترام رسول الله ﷺ للمواثيق وعنايته بها، بالرغم من تَعَمُّق العلاقة مع الأنصار، وكذا بينهم وبين المهاجرين، ولم يدفعه ذلك عليه الصلاة والسلام إلى تجاهل بنود المعاهدة، وهكذا يعطي هذا الحدث للأمة درساً في أهمية حفظ ما يتفقون عليه، وأن لا يجعلوا لقوة العلاقة وتَوَطّدِهَا مجالاً ومسلكاً لإذابة ما يتفقون عليه. وهذا يكون في دائرة الأسرة، ودائرة الصداقات، وفي محيط العمل والمهنة. كمن يستسهل الشروط المبرمة في عقد الزواج نتيجة ما حصل من قوة في العلاقة بين الأصهار، فيدفع ذلك أحدهم أو بعضهم على التفريط باعتبار ما حصل من تطور ونمو في العلاقة، وكذلك ما قد يحصل بين شركاء العمل والمهنة من تساهل البعض في الاتفاقيات المبرمة بينهم، نتيجة تطور ونمو تلك العلاقة؛ مما قد يترتب على ذلك من الضرر أو الشعور بعدم الاكتراث بالمواثيق والعهود، ثم ما يعقب ذلك من مشاعر قد تضر بالأطراف.

ولكنه ﷺ عندما أعرض عن الصحابيين الجليلين، فيه إيماء لمقصده ﷺ وهذا الإيماء دون تحديد يدلل على كريم خُلُقه ﷺ مما يشير إلى أهمية هذا الأسلوب التربوي ولا سيما مع النبهاء وأولي الألباب، لما فيه من الآداب والتقدير، حيث فَطِن الأنصار إلى مقصده ﷺ وإلى ما يرمي إليه، فقام سعد بن عبادة رضي الله عنه الفهيم اللبيب، مبيناً أن الذي فَهِمَهُ من رسول الله ﷺ أنهم بيت القصيد، ثم باشر بالجواب، ولم يترك مجالاً لأن يَرُد عليه رسول الله ﷺ وهذا من غاية الكرم والحب لمن يخاطبه.

فتُعطي هذه المحادثة الحوارية التي تمتلئ بآداب الحوار والمناقشة، الأسلوب الرائع الذي ينبغي أن يُؤخذ به في مثل ذلك. وما يجب أن يتعلمه المسلم من منهجه ﷺ الذي تربى عليه أصحابه فكانوا خير مجتمع بشري وقف على هذه الأرض.

وفي متابعة حديثه ﷺ يبين مقدار تفانيهم لرسولهم وحبيبهم ﷺ بعبارة راقية في مبناها ومعناها، فيقول: والذي نفسي بيده ! لو أمرتنا أن نُخِيضها البحرَ لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْكِ الغِمَادِ لفعلنا.

قسمٌ بالله، ثم يتلوه بيان لغاية ما يمكن أن يخوضوه معه ﷺ وهي عبارات يدل مبناها على معناها الذي لا يمكن أن تُوصف بأكثر من وصف سعد ﷺ وإن هذا التفاني بالنفس لَيُعَلِّمَ الأمة ما يجب أن يكونوا عليه مع منهج ودين الله تعالى حتى بعد وفاته ﷺ بأن يبذل المسلم غاية وسعه، في نشره والذب عنه والعمل به، ولكن كم من يُفرّط في التطبيق لما هو مطلوب منه، فضلاً عن النشر والذب، ولكنك أنت يا الله أرحم الراحمين يا رب العالمين.

ومن جهة أبي سفيان فقد كان يتحسس حين دنا من الحجاز، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان، فاستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم.(١)

فهكذا تظهر بوادر التهيئة الربانية لهذه المعركة؛ التي لم يتوقعها المسلمون، لأنهم خرجوا لأخذ القافلة، ولكن الله يسوق لرسوله ﷺ وللمؤمنين عدوَهم ليجد ما أعده الله لهم من خزي الدنيا؛ فكيف بعذاب الآخرة. يقول عبد الله بن كعب (سمعت كعب بن مالك ﷺ يقول: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني تخلفت عن غزوة بدر، ولم يُعَاتَبْ أحدُ تَخَلَّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يُريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد)(٢)

فيبين هذا الحديث أن قصد المسلمين كان هو عِير قريش المحملة بالتجارة، وبالتالي لم يستنفر المسلمون جميعاً. فكان لقاء عدوهم على غير موعدة مما رَفَع العتاب عمن لم يخرج إليها.

---

(١) ابن هشام، السيرة انبوية (٢/٢٥٨)

(٢) البخاري (٣/٨٢) برقم (٣٩٥١)

كما تفيد رواية عبد الله بن كعب مقدار صدقهم وعدالتهم، فيبين كعب ﷺ ما كان منه من تخلف عن غزوة تبوك وغزوة بدر التي يتمنى كل واحد أن يكون منهم، فيذكر ويبين ذلك للناس. فيقدم ﷺ درساً في صدق الحديث وأمانة الرواية للحدث. إذ لم يكن عدم تشرفه بالمشاركة في غزوة بدر وغزوة تبوك سبباً في كتمان ذلك، بل بينه ﷺ.

ولكن كم من الناس من يُحِب أن يُحمد بما لم يفعل، وربما غض الطرف عن مدحه بما لم يفعل، وربما تطاول فنسب لنفسه من الخير ما فعله غيره. فكيف لمثل هذا النوع أن يذكر تقصيره.

وبعد قُدُوم ضمضم إلى مكة برسالته من أبي سفيان تبعث قريش أشرافها، ولم يتخلف منهم أحد، إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب قد تخلف؛ وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة.[١]

ومن تدبير الله تعالى في خروج أشراف كفار قريش حتى يلقوا مصارعهم أن عبد الله بن مسعود حدَّث عن سعد بن معاذ أنه (كان صديقاً لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعدٌ إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمراً، فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة؛ لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان ! من هذا معك ؟ فقال: هذا سعد، فقال أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً؛ وقد آويتم الصُّبَاة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتُعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً، فقال له سعد ـ ورفع صوته عليه ـ : أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة، فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعدُ على أبي الحكم سيد أهل الوادي. فقال سعد: دعنا عنك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول إنهم قاتلوك. قال: بمكة ؟ قال:

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (٢/٢٦١)

لا أدري. ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً، فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان ! ألم تري ما قال لي سعد ؟ قالت: وما قال لك ؟ قال: زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلي. فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدري. فقال أمية : والله لا أخرج من مكة. فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس، قال: أدركوا عِيرَكم، فكره أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان إنك متى ما يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلَّفوا معك. فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذ غلبتني فوالله لأشترين أجود بعير بمكة، ثم قال أمية: يا أم صفوان جَهِّزيني، فقالت له: يا أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي ؟ قال: ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً، فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلاً إلا عَقَلَ بعيره، فلم يزل بذلك حتى قتله الله عزَّ وجلَّ ببدر)[(١)]

فيبين هذا الحديث كيف ساق الله سبحانه وتعالى أمية بن خلف بن صفوان إلى بدر ليلقى مصرعه هناك، على أيدي المسلمين.

ويتبين من هذا الحوار ومن نتيجته: القوة الإيمانية التي تغذى بها سعد بن معاذ رضي الله عنه حيث واجه أبا جهل مواجهة الواثق بالله تعالى، وهو وحيد بينهم، فرفع صوته عليه، ولم يأبى لمن كان صاحبه قبل الإسلام، ثم توجه لأمية بالحديث مبيناً له - والله تعالى أعلم - أن صحبة الجاهلية قد ولَّت وانتهت، وأنه لا يعتمد في وجوده معهم على صداقة أمية، فأخبره بأنه سيقتلهﷺ وهذه من دلائل نبوته ﷺ ثم تظهر الحالة المعنوية التي يزرعها الإسلام في أتباعه نتيجة القوة الإيمانية التي يتشبع بها القلب، ثم تتشبع بها الجوارح، مما يؤكد أهمية التربية الإيمانية، وأهمية الثقة بالله في بناء الشخصية المسلمة، التي لا تهاب ولا تخاف إلا من الله تعالى.

ثم تظهر الحالة النفسية المتردية عند أمية؛ نتيجة خوفه من وعد رسول الله ﷺ حيث جاء في إحدى الروايات أنه قال : فوالله ما يكذب محمد إذا حدَّث.[(٢)] مما يؤكد أمرين: أولهما

---

(١) البخاري (٣/٨١-٨٢) برقم (٣٩٥٠)

(٢) ابن حجر فتح الباري (٧/٢٨٣)

أن أمية يعلم علم اليقين أن محمداً رسول من الله تعالى، بثقته في سيرته، أنه لا يكذب ﷺ ولكن ما منعه إلا الكبر وطاعته لقومه، وتقديم الدنيا على الآخرة. والأمر الآخر أن هذه المعرفة والخوف من رسول الله ﷺ قد سَرَت في قلوب كفار مكة، لأن أمية يمثل سيداً في قومه، ويتخوف هذا التخوف، فما بال أتباعه ومَنْ هم دونه في السيادة.

ومن فوائد هذا الحدث أن إرادة الله تعالى فوق كل إرادة، فبالرغم من معرفة أمية المسبقة بأنه مقتول من محمد ﷺ إلا أنه يجري لمقتله بنفسه، بل ويتهيأ لذلك التهيئة التي تُحَقْقْ نُفوذ القدر. بل إنه عازم على الفرار من القتل قال ابن حجر عن قوله لأشترين أجود بعير بمكة:" يعني فأستعد عليه للهرب إذا خفتُ شيئاً"[1]

ومن فوائد هذا الحدث أنه لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، , وبالتالي ما على المسلم إلا أن يؤوب إلى ربه سبحانه وتعالى؛ ويتوكل عليه، ويُحقق في قلبه أن الله تعالى إذا أراد شيئاً هيأه كيف يشاء سبحانه وتعالى، فما عليه إلا التوكل مع الأخذ بالأسباب، مع العلم واليقين أنها لا تُجدي شيئاً بغير توفيق الله تعالى وإرادته، وأن لا يفرح بقوة الأسباب، ولا ينزعج بضعفها أو قلتها، فالله هو رب الأسباب.

وأتى النبي ﷺ الخبرُ عن مسير قريش ليمنعوا عيرهم؛ فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن. وقام عمر بن الخطاب؛ فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو وتكلم.[2]

فعن طارق بن شهاب، قال: سمعت ابن مسعود يقول: (شَهِدْتُ من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبَهُ أحبُّ إليَّ مما عُدِلَ به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على

[1] ابن حجر، فتح الباري (٢٨٤/٧)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٢٦٦/٢)

المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى (اذهب أنت وربك فقاتلا) ولكنا نُقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وَجهُهُ وسَرَّه، يعني قوله)[1]

وفي هذا الحديث حب ابن مسعود لمعالي الأمور الإيمانية وأنفسها، وعلو همته ﷺ، كما فيه سلامة صدره ﷺ فلم يحسد صاحبه، فَذِكْرُهُ لهذا الحدث دليل على ذلك.. وهكذا يكون المسلم في علو همته الإيمانية، وتَصَعُّدُه في معالي الأمور التعبدية، التي تقربه من الله تعالى، فلا يرضى بالقليل منها، أو يكتفي بأداء الواجبات؛ بل يسعى ليكون في مصاف الأتقياء؛ قولاً وعملاً، إيماناً وعبادة وخُلُقاً. كما أن فيه مدح وثناء من ابن مسعود على ما تضمنته كلمات المقداد رضي الله تعالى عنهما. الأمر الذي يبين للمسلم كيف يكون في ما يُعجبه من فعل أو قول إخوانه، فلا يغمطهم حقهم، بل يبين فضل كلماتهم وآرائهم وأفعالهم إذا أحسنوا، وأن لا يتأثر بما قد يحدث في قلبه من غيرة، فيدفع ذلك بالعمل الصالح تجاههم، لأنه يكمن في هذا الأسلوب ما يثير المحبة بين المسلمين، ويوطد المزيد من قوى التلاحم والتواد.

وفيه فطنة المقداد وفضله، وشجاعته ومبادرته للخير، وتوفيق الله تعالى له بالكلم الطيب والنية الصادقة، الذي طابت به نفس رسول الله ﷺ وقبل ذلك محبة الله لقوله الذي فيه مرضاته سبحانه وتعالى، حتى أشرق وجهُهُ ﷺ وسره ذلك الكلام من المقداد. وفيه فهمه وعلمه ﷺ بما كان من حال قوم موسى، واستفادته من قصتهم مع نبيهم، ليتمثل بما يجب أن يكون عليه المسلم مع نبيه ورسوله ﷺ وفيه منهجية التطبيق العملي من أصحاب رسول الله ﷺ لما يسمعونه ويتعلمونه مما ينزل به جبريل على نبيه ﷺ وهو ما تحتاج إليه التربية اليوم من تفعيل الأوامر والنواهي في حياة الأمة، من خلال المشاركة الفعلية لتطبيقات المنهج الإسلامي. كما أن في هذا النص القدرة التعبيرية الجيدة التي أظهرت مراده بأحسن ما يمكن أن يكون عليه البليغ

---

[1] البخاري (٨٢/٣) برقم ٣٩٥٢)

من الناس، فلله درك يا مقداد، ولله درك يا بن مسعود، رضي الله تعالى عنكم أجمعين؛ ورزقنا حبكم والعمل بما كنتم به تعملون مع رسول الله ﷺ

ثم في صورة من صور المسير إلى بدر يبين ابن مسعود موقفاً من مواقف سيرته العطرةﷺ فيقول عبد الله بن مسعود ﷺ : (كنا يوم بدر ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زَمِيلَيْ رسولِ الله ﷺ قال: وكانت عقبة رسول الله ﷺ قال: فقالا: نحن نمشي عنك، فقال: ما أنتما بأقوى مني؛ ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما)[1]

فيبين حال ركب رسول الله ﷺ ومن معه يوم بدر، بأنهم كانوا يتناوبون على الدواب التي تنقلهم، وكان رسول الله ﷺ يتناوب معهم، يمشي مثل ما يمشون، ويركب إذا جاءت عُقْبَتُه. ولكن محبتهم له ومعرفة قدره ﷺ من أصحابه تدفعهم لأن يؤثروه على أنفسهم، فعندما كانت عقبته ونوبته في الترجل عن البعير والمشي، فقيل له: نحن نمشي عنك. وهكذا يكون المفضول مع الفاضل في تأدبه، والطالب مع أستاذه، ومع العالم والوالد، ولكنه ﷺ يقابل هذه الأخلاق بما هو أحسن، فقال: (ما أنتما بأقوى مني؛ ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما) إنه درس في عدم استغلال مكارم الأخلاق، وبيان أنه إذا كانت هناك مماثلة في القوة البدنية فلا يستغل غيره، ويفهم من ذلك بالمغايرة أنه إذا كانت هناك مفاوتة في القوة البدنية من ضعف ونحوه، فيمكن ذلك لورود العلة الدافعة له، كما يبين ﷺ أمراً آخر في غاية الأهمية وهو الحاجة إلى ثواب الله تعالى، وأن يتحمل المسلم المشقة لمزيد الأجر، فيقدم عليه الصلاة والسلام درساً تربوياً مؤثراً ومصحوباً بالعلة التي تشحذ الهمم نحو الخير وتحمل المشاق من أجل فضل الآخرة، وتقديم لذة الآخرة على تعب الدنيا ونصبها. فهذه منهجية نبوية قد تَرَبَّى عليها أصحابه ﷺ ورضي الله تعالى عنهم فكانوا بها مثالاً في مسلكهم ومنهجهم التربوي والخُلُقي والتعبدي والعقدي والعلمي والمهني والحربي، بل وفي كل جانب من جوانب الشخصية المثالية.

---

[1] أحمد (٤١١/١)

كما أن تناوب ثلاثة على بعير واحد من المدينة إلى بدر يبين مشقة ذلك السفر، فإذا كانت المسافة من المدينة إلى بدر مائة وخمسين كيلاً تقريباً؛ فيكون نصيب كل واحد منهم خمسين كيلاً ركوباً؛ ومائة كيل مشياً على الأقدام تقريباً، وإنه لجهاد بالنفس في أوجه متعددة: مشقة وعناء وبذل نفس، وترك مكاسب دنيوية، وكم أعطى أولئك الرجال الأفذاذ رضي الله تعالى عنهم لهذا الدين، وكم يعطي المسلم اليوم لدينه من قراءة القرآن الكريم والصلاة والمشي إليها، ومن الصيام والصدقة وحُسن الخُلُق، فكيف لو مشى تلك المسافة ؟

ولئن ذهب رسول الله ﷺ مع أصحابه في هذه الغزوة، فلقد استعمل ﷺ عبد الله بن أم مكتوم على الصلاة بالناس، ثم رد أبا لبابة من الروحاء؛ واستعمله على المدينة.(١)

واستخلاف ابن أم مكتوم رضي الله عنه في المدينة للصلاة دليل عملي على أهمية هذه الشعيرة، وأهمية القائم بها، وعلو منزلته، مما يدلل على أهمية التسابق على هذا العمل العظيم، كما يدل هذا الفعل منه ﷺ على أن لا يُترك المسجد دون تعيين إمام له، يؤم المصلين، درأً لما قد يحدث من الخلاف، كما يفيد أيضاً أنه يلزم الإمام الراتب أن يوكِّل غيره على الإمامة حال غيابه المعلوم به مسبقاً.

وفي استخلاف أبي لبابة على المدينة، ما يدل على أهمية الوالي أو الحاكم، وأن لا يبقى هذا المكان فارغاً، لما يترتب على الأخذ به من المصالح، وما يترتب على تركه من المهالك.

ويمكن استصحاب ذلك على الوظائف بالقياس، بأن لا يترك المدير أو الرئيس مكانه حال غيابه دون تعيين من يقوم مقامه، لما في ذلك من مفاسد تعطيل مصالح الناس، وحدوث الخلاف بين المرؤوسين، وقد وجه ﷺ إلى أهمية الإمارة حتى ولو كانت في ثلاثة نفر، قال ﷺ

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ٢/٢٦٤)

(...ولا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمّروا عليهم أحدهم. ولا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة يتناجى اثنان دون صاحبهما)[١]

وبعد وصوله ﷺ إلى بدر أرسل ﷺ بعض أصحابه إلى ماء بدر، يلتمسون أخبار القوم، فأصابوا إبلاً لقريش، فيها غلامان لقريش، فَعَرَفَ ﷺ منهما مكان قريش وعددهم، حيث قال ﷺ لهما: أخبراني عن قريش ؟ قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعُدْوة القصوى. فقال لهما رسول الله ﷺ : كم القوم ؟ قالا: كثير؛ قال: ما عِدّتُهم ؟ قالا: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم ؟ قالا: يوماً تسعاً؛ ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: القوم فيما بين التسعمائة والألف، ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ فذكرا له أسماء. فأقبل رسول الله ﷺ على الناس، فقال: (هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كَبِدها)[٢]

وتبين هذه الرواية فطنته ﷺ وأهمية إمعان النظر ليتحقق الاستنتاج والاستنباط، للوصول إلى المقصود، الأمر الذي عَرَفَ به ﷺ عدد القوم من عدد ما يذبحون من الإبل. وبهذه الوسيلة العلمية يتبين منهجية الإسلام العلمية في تقدير الأشياء من خلال النظر والتأمل، الأمر الذي يجب أن يتنبه إليه من يُعنى بالتربية من المعلمين والوالدين وغيرهم.

ثم يتبين من هذه الحادثة توفيق الله تعالى لنبيه ﷺ وللمؤمنين بهذين الساقيَيْن ليعرفا منهما هذه المعلومات الأولية؛ ذات الأهمية بالنسبة للمسلمين.

ثم لم يستخدم ﷺ أسلوب التهويل والتخويف مع أصحابه، وإنما استخدم أسلوب التبشير لأصحابه؛ في قوله (هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كَبِدها) فلم يُشغلهم ﷺ بعدد القوم الذي هو أضعاف عدد المسلمين، ولكنه فتح لهم باب التفاؤل، والثقة بالله تعالى، وهكذا

---

[١] أحمد (١٧٧/٢)

[٢] ابن هشام، السيرة النبوية (٢٦٨/٢،٢٦٩)

يكون المؤمن، وخاصة في الملمات والشدائد، فيتعلق بالله تعالى ولا يَرْجُف من قوة خصومه، بل يقوي إيمان أتباعه بالتفاؤل.

وبعد التعرف على هذه المعلومات المهمة، انشغل رسول الله ﷺ بالدعاء والالتجاء إلى رب العالمين، ليطلب منه الغوث والمدد والنصر، فعن عبد الله بن العباس رضي الله تعالى عنهما قال: حدثني عمر بن الخطاب، قال: (لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مَدَّ يديه فجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تُهْلِك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض. فما زال يهتف بربه ماداً يديه؛ مستقبل القبلة؛ حتى سقط رِدَاؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه. وقال: يا نبي الله ! كفاك مُناشَدَتُكَ ربَّك، فإنه سَيُنْجِزُ لك ما وعدك. فأنزل الله عزَّ وجلَّ (إذ تستغيثون ربكم، فاستجاب لكم أني مُمِدُّكم بألف من الملائكة مُرْدِفِين) فأمده الله بالملائكة.[1]

إن هذا الحديث يبين أن المعادلة العددية غير متكافئة بين فريقين قادمين على خوض معركة فاصلة في تاريخ الإسلام، إضافة إلى أن المشركين قادمون بنية القتال، فأخذوا كل احتياطاتهم، بينما المسلمون قادمون بنية اعتراض قافلة أبي سفيان، مما يجعل الجانب النفسي عند الفريقين غير متكافئ. ولكن رسول الله ﷺ يعطي درساً للمؤمنين في معالجة هذا الموقف بمعالجة لا يمكن أن تتحقق إلا من رب العالمين، الكبير المتعال؛ قيوم السماوات والأرض، الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون. فيلجأ رسول الله ﷺ إلى ربه مستقبل القبلة، وهذا من أول آداب الدعاء، ثم مَدَّ يديه، لما في ذلك من إظهار الحاجة والافتقار إلى الله تعالى، مع التذلل له عَزَّ وجلّ، ثم أخذ يهتف بربه الكريم المنان الحنان، ماداً يديه حتى سقط رداؤه ﷺ وهكذا يكون المؤمن متضرعاً مُلحاً في دعائه لربه سبحانه وتعالى، مع إظهار الحاجة والافتقار إليه عزَّ وجلّ.

---

[1] مسلم (١٣٨٥.١٣٨٣/٣) برقم (١٧٦٣)

قال الإمام النووي رحمة الله تعالى عليه: قال العلماء هذه المناشدة إنما فعلها النبي ﷺ ليراه أصحابه بتلك الحال، فتقوى قلوبهم بدعائه وتضرعه، مع أن الدعاء عبادة، وقد كان وعده الله إحدى الطائفتين: إما العير وإما الجيش، وكانت العير قد ذهبت وفاتت، فكان على ثقة من حصول الأخرى، ولكن سأل تعجيل ذلك وتنجيزه من غير أذى يلحق المسلمين.[1] وفي كلام العلماء هذا؛ ما يدل على أسلوبه التربوي ﷺ القائم على التطبيق العملي، الذي يرسخ في الأذهان شعيرة العبادة، ويشحذ الهمم نحو التعلق بالله تعالى، ويبين ما ينبغي أن يفعله المسلم وكيف يفعله.

ثم يبين أبو بكر رضي الله عنه بسلوكه وفعله ومحبته لرسول الله ﷺ كيف يكون التقدير والاحترام والإجلال لرسول الله ﷺ حيث مازال ممسكاً برداء رسول الله ﷺ على منكبيه حتى فَرغ من دعائه عليه الصلاة والتسليم. فإنه الأدب والحب والتقدير الذي يفيد أهمية تقدير ورثة الأنبياء، وإعزازهم وتقديرهم ورفع مكانتهم. فلئن توفِّي ﷺ فإن العلماء هم ورثة الأنبياء.

ثم يبين هذا الحديث منزلة رسول الله ﷺ عند ربه سبحانه وتعالى؛ حيث أنزل عليه بشارة النصر والتأييد ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ ﴾[2]

فتبين هاتان الآيتان استغاثة الرسول ﷺ واستغاثة المؤمنين لربهم بالنصر والتأييد، فتأتيهم الإجابة فوراً: بالاستجابة، والمدد بألف من الملائكة مردفين، أي: متتابعين. وما جعل الله تعالى هذا إلا بشارة، ولتطمئن به قلوب المؤمنين، لأن اطمئنان القلوب مدعاة للتفكير ومدعاة للقوة والشجاعة وعدم اليأس، التي هي من دواعي الجد والنشاط. ثم يؤكد الله تعالى لعباده بأسلوب

---

[1] صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/٨٥)

[2] سورة الأنفال: آية رقم (٩-١٠)

الحصر؛ أن النصر لا يمكن أن يكون إلا من عنده سبحانه وتعالى، . وبالتالي لا يكترث بقلة ما لديه، ويزهد فيما عنده من الأسباب القليلة. فإن الله عزيز حكيم. كما أنه لا يُعَوِّل المؤمن على كثرة عَتَادِه وقوته في أي مجال، ولا يَعجب به، بل يأخذ بالأسباب ويتيقن بأن الأسباب لا تنفعه إلا بتوفيق الله تعالى و تأييده.

عن ابن عباس رضي الله عنهما (أن النبي ﷺ قال يوم بدر: هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب) [١]

وهذا الحديث النبوي الكريم يبين مشاركة جبريل عليه السلام في هذه الغزوة، كما أن في إخبار رسول الله ﷺ لأصحابه بخبر جبريل مزيد تطمين من الله تعالى لهم بأنهم مُعانون من الله تعالى بملائكته. وهكذا تتبين معية الله تعالى لعباده المؤمنين، الذي لا يزداد به المؤمن إلا توكلاً واعتماداً على ربه سبحانه وتعالى، وأن النصر والتوفيق منه عزَّ وجلَّ، الأمر الذي يستلهم منه المؤمن أهمية التوكل والثقة بالله تعالى، وأن لله جنوداً ينصر ويؤيد بهم من يشاء من عباده الصالحين.

قال أبو زُمَيْلٍ: فحدَّثني ابن عباس قال: (بينما رجلٌ من المسلمين يومئذٍ يَشْتَدُّ في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوتَ الفارسِ يقول: أَقْدِم حَيْزُوم فنظر إلى المشرك أمامه فَخَرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وجهه كضربة السوط فَاخْضَرَّ ذلك أَجْمَعُ. فجاء الأنصاري فحدَّث بذلك رسولَ الله ﷺ فقال: صدقت، ذلك من مَدَد السماء الثالثة. فَقَتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين.)[٢]

---

[١] البخاري (٣/٩٠.٩١)، برقم (٣٩٩٥)

[٢] مسلم (٣/١٣٨٣.١٣٨٥) برقم (١٧٦٣)

وحيزوم هو اسم فرس الملك، وهو منادى بحذف حرف النداء، أي يا حيزوم. وإذا هو قد خطم أنفه، والخطم الأثر على الأنف.[1]

وهذا الحدث يبين صورة من صور مشاركة الملائكة التي وعَدَ الله تعالى بها في الآيات التي سبق ذكرها.

ومن توفيق الله تعالى لنبيه ﷺ وللمؤمنين، أن أعلم الله تعالى نبيه بما سَيَلْقَى أعداء الله تعالى من القتل، فبين له مواقع مصارعهم من أرض المعركة، فعن أنس رضي الله عنه (... فقال رسول الله ﷺ : هذا مصرع فلان. قال: ويضع يده على الأرض، ها هنا وها هنا. قال: فما ماط أحدهم عن موضع يَدِ رسول الله ﷺ)[2]

فهذا البيان النبوي كان قبل بدء المعركة ورسول الله ﷺ مع أصحابه في بدر. ولا شك أن هذا من لُطف الله تعالى بالمؤمنين وبشارة لهم، ليزدادوا إيماناً وثقة أمام عدوهم الذي تَفَوَّقَ في العدد والكثرة، كما أن هذا من المعجزات التي أجراها الله تعالى لنبيه ﷺ في هذه الغزوة المباركة. لأن مخرجه ﷺ لم يكن للغزوة، وإنما كان طلباً لعير أبي سفيان، وبالتالي لم يخرجوا بكامل عددهم وعُدَّتِهم، قال ابن كثير: إنما خرج من المدينة طالباً لعير أبي سفيان التي بلغه خبرها؛ أنها صادرة من الشام؛ فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خَفَّ منهم، فخرج في ثلاث مائة وبضعة عشر رجلاً، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضمضم بن عمرو نذيراً إلى أهل مكة، فنهضوا في قريب من ألف مقنع، ما بين التسعمائة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر، فنجا. وجاء النفير فوردوا ماء بدر، وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يُرِيد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين؛ ونصرهم على عدوهم، والتفرقة بين الحق والباطل...

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/٨٥،٨٦)

(٢) مسلم (٣/١٤٠٣،١٤٠٤) برقم (١٧٧٩)

والغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خُرُوج النفير أوحى الله إليه يعدُه إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير، ورغِب كثير من المسلمين في العير لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يُحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين)[1]

ثم تظهر صورة أخرى للنبي ﷺ ليلة المعركة، في مشهد تعبدي، ينقله علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، حيث قال (لقد رأيتنا ليلة بدر؛ وما منا إنسان إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ فإنه كان يُصلي إلى شجرة؛ ويدعو حتى أصبح)[2]

فلم يجعل ﷺ المعركة عذراً لينام، بل جعل الليل وسيلة لطلب النصر والتأييد، فليست ليلته بأقل أهمية من مجريات الغزوة المباركة، فإذا به ﷺ يفزع إلى الصلاة والدعاء والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى، لينصره ويؤيده ويحقق الظفر بأعداء الله تعالى، فيعطي الأمة درساً في منهجية معالجة الأمور: آخذاً بالأسباب، وآخذاً بالتوكل وإحياء الليل بالصلاة والدعاء. وإنه لدرس لأفراد الأمة بأن يلجأ المسلم إلى الصلاة في كل أمر ينوبُه، ملتمساً من رب الأسباب أن يهيئ له ما يصبو إليه من جلب خير، أو دفع ضر، فليست الأسباب وحدها كافية؛ ما لم يؤازرها التوفيق والتسديد من الله تعالى. كما امتن الله على المؤمنين في تلك الليلة بالنعاس؛ ليكون أمنة منه لهم، على ما سيأتي بيانه وإيضاحه.

وكانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وكان يوم بدر يوماً حاراً.[3]

وأما عن تفاعل أصحاب رسول الله ﷺ في هذه المعركة، فشواهدها عديدة، فعن أنس رضي الله عنه، قال (...فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر. وجاء

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٩٩)

(2) أحمد (٢/٣٦٣) برقم (١١٦١) طبعة الموسوعة الحديثية

(3) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/٨٤)

المشركون. فقال رسول الله ﷺ : لا يُقَدِّمَنَّ أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه. فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض. قال: يقول عمير بن الحُمَام الأنصاري: يا رسول الله ! جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال: نعم. قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ : ما يحملُك على قولك بخ بخ ؟ قال: لا. والله ! يا رسول الله ! إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال : فإنك من أهلها. فأخرج تمرات من قَرَنِه. فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تَمَرَاتي هذه؛ إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتِل.)[1]

ويبين هذا الحديث شجاعة المسلمين، وتقدمهم حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه المسلم في جميع أمور الخير، سباقاً ومقداماً شجاعاً لا يهاب ولا يخاف إلا الله تبارك وتعالى. مع الفطنة والحذر والبعد عن التهلكة، لأن للشجاعة حدودَ ابتداء وحدودَ انتهاء، فبدايتها بعد نهاية الجبن، ونهايتها ابتداء التهور، ووسطها قمة ما بين ذلك.

ثم يظهر توجيه القائد لجيشه وما ينبغي أن يكونوا عليه، من عدم التقدم عليه، (لا يُقَدِّمَنَّ أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه) أي قدامه؛ متقدماً في ذلك الشيء، لئلا يفوت شيء من المصالح التي لا يعلمونها.[2] وهذا من حرصه ﷺ وتأكيداً لأهمية دور القائد وممارسته قيادة دفة الجيش، ومسيرة سير المعركة، كما يؤكد هذا شجاعته ﷺ ثم يحث ﷺ جيشه بأحسن ما يطمع إليه المؤمن (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض) فيتفاعل عمير بن الحمام الأنصاري رضي الله عنه معلناً رغبته في أن يكون من أهل تلك الجنة الموصوفة، متلفظاً بترديد كلمة: بخ بخ، تفخيماً للأمر وتعظيمه في الخير. مؤكداً لرسول الله ﷺ أنه يقولها ابتغاء أن يكون من أهلها، لأن المقاتل قد يقاتل للمغنم، وقد يُقاتل ليقال شجاع، فيعطي رضي الله عنه صورة

---

(١) مسلم (١٥١١.١٥٠٩/٣) برقم (١٩٠١)

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٤٥/١٣)

الإقدام مع الإخلاص لله تعالى، الأمر الذي يؤكد أهمية الإخلاص لله تعالى في العبادة؛ مهما كَبُرَت، فلا ينتفع المرء بالعمل التعبدي إلا إذا كان خالصاً لله تعالى؛ وصواباً على سنة رسول الله ﷺ .

فيرمي رضي الله عنه تمرات كانت في جعبته، معتبراً أن حياته طويلة إن انتظر الجنة حتى يُكْمِلَ أكل هذه التمرات، فيدخل المعركة رضي الله عنه فقاتلهم حتى قُتِل رضي الله عنه ليعطي درساً في الشجاعة المحمودة المطلوبة، وفي حب هذا الدين ونصرته، وتقديم ملذات الآخرة على ملذات الدنيا، واستقرار ذلك في قلبه الذي ترجمه رضي الله عنه إلى سلوك فعلي. وإن هذا الفعل منه رضي الله عنه ليرمز إلى درس تربوي عظيم الفائدة والأثر، وهو أن عمير بن الحمام قد قدَّم نفسه رضي الله عنه ذوداً ودفاعاً عن الإسلام؛ ورغبة في جنة عرضها السموات والأرض، وغير مكترث بتمرات في قرنه، بل استطال حياة تزيد مدتها أكل تمرات معدودة العدد. وكم يُقدِّم المسلم إلى ربه من الطاعات واجتناب المعاصي، وكم يُقدم المؤمن من نموذج القدوة الصالحة لغيره؛ في أسرته ومهنته ومسجده؛ وبين مجتمعه وأصدقائه، فضلاً عن اجتناب المحرمات القولية والفعلية.

ويروي علي بن أبي طالب رضي الله عنه كيف بدأت طلائع المعركة فيقول: (تقدم ـ يعني عتبة بن ربيعة ـ وتَبِعَه ابنه وأخوه، فنادى، من يُبارز ؟ فانتدب له شباب من الأنصار، فقال: من أنتم ؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردنا بني عمِّنا، فقال رسول الله ﷺ : قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة بن الحارث، فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلت إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد، فقتلناه، واحتملنا عبيدة)[1]

وهذه الرواية تبين الكيفية التي بدأت بها المعركة، بأن تقدم عتبة بن ربيعة وابنه وأخوه للمبارزة، فَبُعِث لهم شباب من الأنصار، مما يبين شجاعة الأنصار في الحروب والمعارك، كما

[1] أبو داود (٣/١٢٠) برقم (٢٦٦٥)

يدلل ذلك على أهمية الشباب في المعارك، وأنهم يمثلون الطلائع والمرتكزات، ثم هاهم مشركو قريش يبينون حسدهم لبني جلدتهم وأقاربهم، مما يؤكد أن الحسد والكبر لا زال يسيطر عليهم وعلى قراراتهم. فيبعث لهم النبي ﷺ الذي كان في مقدمة جيشه، رجالاً قد عينهم بأسمائهم: حمزة وعلي وأبا عبيدة رضي الله تعالى عنهم. وفي مبدأ تعينهم مباشرة ﷺ بيانٌ لكيفية إدارة المواقف التي لا تحتمل المشورة، والأخذ والرد، وأنه يجب الحزم والتعيين الفوري. ثم يبين علي بن أبي طالب نتيجة تلك المبارزة التي أظفر الله تعالى فيها جنده المؤمنين، ليغرس في قلوب أعدائهم الرعب، فَيُهلك الرجل وأخيه وابنه. وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

وفي مشهد من مشاهد القتال التي تدور رحاها في بدر، بين المسلمين والكافرين، يروي علي بن أبي طالب رضي الله عنه صورة من صور شجاعته ﷺ فيقول رضي الله عنه (لقد رأيتنا يوم بدر؛ ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا للعدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً)[١]

فإن هذا المشهد البطولي منه ﷺ يبين إقدامه ورباطة جأشه ﷺ وهو أقربهم للعدو، وكان ﷺ من أشد الناس بأساً، أي شدة في الحرب، وكان أصحابه يلوذون به ﷺ أي يلجؤون. فَيُقَدِّمُ ﷺ صورة للقائد والنبي الشجاع في المعارك والحروب، والمقدام الذي لا يهاب الموت، فصلى الله عليك يا رسول الله، إذ قَدَّمْتَ للأمة المشاهد التربوية العملية التطبيقية في كل موقع من مواقع حياة الإنسان، لتشتمل في السيرة النبوية العطرة الدروس الفعلية التي تؤكد أهمية التطبيق العملي للداعية والمربي من الوالدين والمدرسين، والمدراء والرؤساء، لأن الكل في موقعه مربي لغيره أمراً أو نهياً، أو قدوة تتحرك بالفعل والتطبيق، وهي أكثرها فاعلية.

فلقد علَّم رسولُ الله ﷺ أصحابه والأمة أجمع معنى الشجاعة قولاً وعملاً وصبراً وثباتاً، وإيماناً وعبادةً.

---

[١] أحمد (٢/٨١) برقم (٦٥٤) طبعة الموسوعة الحديثية.

وفي ملحمة أخرى من ملاحم هذه المعركة المباركة، يذكر عبد الرحمن بن عوف مشهداً مهولاً لغلامين صغيرين، يعزمان على أمر لا يعزم على مثله إلا الكبار والشجعان، يهدفان لأمر يَنُمُّ عن فهم وإدراك، ومحبة لرسول الله ﷺ وإدراك لمعنى الإيمان وتصديق بجنة عرضها السماوات والأرض، فيقول عبد الرحمن بن عوف (إني لفي الصف يومَ بدرٍ إذ عن يميني وعن يساري فَتَيان حديثا السنِّ. فكأني لم آمَنْ بمكانهما، إذ قال أحدُهما سِرّاً من صاحبه: يا عم أرني أبا جهل. فقلت يا ابن أخي وما تصنع به ؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه. فقال لي الآخر سِرّاً من صاحبه مثله. قال: فما سرَّني أني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدّا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابناء عفراء)[1]

يبين هذا الحديث أن ابن عوف رضي الله عنه وهو في صف المعركة كان عن يمينه وشماله، فتيان، وهما: معاذ ومعوذ، أبناء عفراء،[2] وكل واحد منهما يريد أن يظفر بأبي جهل عدو الله ورسوله، ولصغر سنهما أشفق عبد الرحمن بن عوف أن يؤتى الناس من ناحيته لكونه بين غلامين حديثين.[3] ولكن شجاعتهما وإقدامهما كان أكبر من سنيهما، بل بلغ من شجاعتهما أن كل واحد يسأل ابن عوف سراً ليظفر بعدو الله أبي جهل، فيقولا بأدب جم في معركة حامية الوطيس، (يا عم !) إنها التربية على الاحترام والتقدير، التي يتألف بها الصغار الكبار، والتي تكشف عن المنهجية التربوية الرفيعة في منازل أصحاب رسول الله ﷺ مُردفين تلك العبارة، بقول كل واحد منهما : أين أبو جهل ؟ فيرد عليهما ابن عوف رضي الله عنه بكلمات مماثلة في الخُلُق والأدب؛ وهو في صف المعركة، التي يُتَوَقع لمن كان فيها أن يقول: إليك عني، أو أُهرب من هنا، ولكنها عناصر التربية الشجاعة تتمثل في ابن عوف، فيخاطبهما، بقوله : يا ابن أخي !

---

[1] البخاري (٣/٨٨) برقم (٣٩٨٨)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٢٩٤/٧)

[3] المرجع السابق (٣٠٨/٧)

وما تصنع به ؟ سؤال ينم عن استغراب لسؤاليهما، فهما حدثان، وماذا يستطيعا أن يقوما به في معركة تدور رحاها بين رجال كبار ؟ فقال كل واحد منهم سراً عن صاحبه: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه. فإنها كلمات الشجاعة والإقدام التي يحملها هذان الغلامان المسلمان الأنصاريان، فليس هناك مفر من أحد أمرين: إما الظفر به فأقتله، أو الشهادة دونه، فإنها عزيمة وشجاعة، وهذا يدل على عمق محبتهما لرسول الله ﷺ فليس بخافٍ على أحد عداوة أبي جهل العميقة والقاسية لرسول الله ﷺ ولما جاء به، فكأني بهذه العداوة قد كانت من أبرز دواعي وبواعث أفعال ذلك الغلامين. ثم ما كان من ابن عوف رضي الله عنه إلا أن أشار لهما عليه، فانقضا وشدّا عليه كالصقرين، قال ابن حجر والصقر من سباع الطير، وأحد الجوارح الأربعة، وهي : الصقر والبازي والشاهين والعقاب. وشبههما به لما أُشْتُهِرَ عنه من الشجاعة والشهامة والإقدام على الصيد، ولأنه إذا تشبث بشيء لم يفارقه حتى يأخذه، وأول من صاد به من العرب الحارث بن معاوية بن ثور الكندي، ثم اشتهر الصيد به بعده.(١)

فإنها التربية الجادة لهذين الفتيين على الشجاعة والإقدام ومحبة رسول الله ﷺ وما جاء به من الدين القويم والخُلُق العظيم، التي دفعت بهما إلى الانقضاض على أبي جهل.

ثم يُضفي أنس بن مالك رضي الله عنه مزيداً من تفاصيل هذه الملحمة العظيمة، فيقول: قال رسول الله ﷺ (من ينظر لنا ما صنع أبو جهل ؟ فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برك، قال: فأخذ بلحيته، فقال: آنت أبو جهل ! فقال: وهل فوق رجل قتلتموه أو قال: قتله قومه ؟ قال وقال أبو مِجْلَز: قال أبو جهل: فلو غير أَكَّارٍ قتلني ؟)(٢)

فهكذا روى أنس مزيداً من تفاصيل تلك الملحمة التي تبين، رغبة الرسول ﷺ في معرفة نهاية عدو الله في هذه الغزوة المباركة، فيقول ﷺ (من ينظر لنا ما صنع أبو جهل ؟) وهنا لم

(١) ابن حجر، فتح الباري (٣٠٨/٧)

(٢) مسلم (١٤٢٥،١٤٢٤/٣) برقم (١٨٠٠)

يُعين أحداً عليه الصلاة والسلام، بعكس ما كان منه ﷺ في بداية المعركة عندما سمَّى من يقوم بالمبارزة، وهذا يدلل على الفقه التربوي والسلوكي العظيم في شخصية الرسول ﷺ فالأمر لا يحتاج إلى تعيين، وهذا أدعى للتسابق في الخير بين المتسابقين، فلكم تحتاج التربية من مراعاة مثل هذه الأساليب الدقيقة جداً، التي تبعث في الناس روح المحبة العملية البعيدة عن الأوامر الصارمة، وسواء كان ذلك في دائرة الأسرة أو محيط الإدارة والعمل.

إن التربية الفاعلة هي التي لا تبني الأفراد بصوارم الأوامر، في كل موقف لا يحتاج إلى الحزم في التعيين، بل تترك مجالاً للنفس الإنسانية أن تشعر بباعث العمل من تلقاء ذاتها، والتنافس في الخير، ولكنها الشفافية التربوية في مسلكه ﷺ

فانطلق ابن مسعود ﷺ الذي عُرِف عنه علو همته وتسابقه في الخير، كيف لا ؟ وهو أول من جهر بالقرآن الكريم بعد رسول الله ﷺ في رحاب مكة، ثم هو ذلك الرجل الذي يقول عن مقولة المقداد التي سبق ذكرها: (شَهِدْتُ من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبَهُ أحبُّ إليَّ مما عُدِلَ به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى (اذهب أنت وربك فقاتلا) ولكنا نُقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وَجهُهُ وسَرَّه، يعني قوله)

إنها التربية النبوية التي جعلت من ابن مسعود صحابياً عملاقاً وشجاعاً كالأسد، وعالماً بحديث رسول الله ﷺ متجاوزاً فترة رعيه للغنم، ليكون بهذا القدر والمكانة.

فانطلق ابن مسعود ﷺ فوجد أن أبناء عفراء قد ضربا أبا جهل حتى برك، أي: سقط إلى الأرض. ويقال: برد: إذا مات. وخاطبه ابن مسعود مقرعاً له ومتشفياً منه، لأنه كان يؤذيه بمكة أشد الأذى،[١] فيقول له : آنت أبو جهل ؟ فهكذا مكن الله ابن مسعود من أبي جهل؛ وهو في الرمق الأخير من حياته؛ جراء ما صنع به ابناء عفراء، فَيُجيب أبو جهل في كبريائه

[١] ابن حجر، فتح الباري (٢٩٥/٧)

وغطرسته التي عُرِف بها: وهل فوق رجل قتلتموه أو قال: قتله قومه ؟ أي لا عار عليَّ في قَتْلَكُم إياي. ليرفع عن نفسه العار ويُزيل تلك المشاعر التي بدأت تصارعه من جراء ما لحق به، ولكن ألفاظه الأخرى تؤكد أن مشاعره نقيض ذلك، عندما يقول: فلو غير أَكَّارٍ قتلني. أي لوكان غير الزراع قتلوني ، والأكار أي: الزراع، وعنى بذلك أن الأنصار أصحاب زرع، فأشار إلى تنقيص من قتله منهم بذلك.[1] وقال الإمام النووي رحمة الله تعالى عليه: ومعناه لو كان الذي قتلني غير أكار لكان أحب إليَّ، وأعظم لشأني، ولم يكن عليَّ نقص في ذلك. وهذا يُدلل على أنه كان يستشعر بالإهانة قد تمكنت منه حتى وهو في الرمق الأخير من نزعه وموته، فهكذا أخزاه الله تعالى وجعله يستشعر المذلة والهوان، حتى في نزعه الأخير، ليكون درساً للطغاة والمتجبرين المتكبرين على دين الله تعالى.

ثم يبين هذا الموقف التباين في موازين الأحكام بين الكفر والإسلام، فأبو جهل يتنقص من الأنصاريين، ومن مهنتيهما، ومهنة قومهما، وهي الزراعة، والإسلام يرفع شأن هذين الشابين ومن مكانة الأنصار، ومن شأن المهنة، وخاصة الزراعة. وهذا دليل على أثر الإسلام وسموه في تقييم الأمور؛ وعلو موازينه ومقاييسه.

وأما عن مقتل أمية بن خلف، فيرويها عبد الرحمن بن عوف ﵁ حيث يقول: (...فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحْرِزَه حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف ! لا نجوتُ إن نجا أمية...)[2]

فكما مكَّن اللهُ عبد اللهَ بن مسعود ﵁ من الإجهاز على أبي جهل وهو في رمقه الأخير، لِمَا كان من أذيته له أشد الأذى في مكة، كذلك مكن الله تعالى بلالاً ومن معه من الأنصار من المشاركة في قتل أمية، فلم ينفعه بعيره الذي اشتراه ليهرب به، وما رد أحَدٌ قدر الله

---

(١) المرجع السابق (٢٩٥/٧)

(٢) البخاري (١٤٦-١٤٥/٢) برقم (٢٣٠١)

تعالى عنه، ليذوق وبال أمره في الدنيا بالقتل الذي كان خائفاً منه، ومتمنعاً من مشاركة قوم الكفر في بدر.

خاتمة المعركة:

وبعد نهاية المعركة المباركة التي نصر الله تعالى فيها راية الإسلام، جاء الدرس العلني من رسول الله ﷺ لأهل الكفر، حتى ينتهي الأحياء منهم عن كفرهم، ولأهل الإيمان ليزدادوا إيماناً، فعن أنس بن مالك عن أبي طلحة (أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا في طَوِي من أطواء بدر خبيث مُخْبِث.....فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا وجدنا ما وعد ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا. قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تُكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ : والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع منهم. قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قَولَه، توبيخاً وتصغيراً ونَقِيمة وحسرة وندما.)[١]

فلقد أمر ﷺ بأربعة وعشرين من أشد أشداء كفار قريش ليُلْقَوا في بئر قد طويت بالحجارة، متهدمة خبيثة مخبثة، فأخذ يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، قال ابن حجر: وخصوا بالمخاطبة المذكورة لما كان منهم من المعاندة، وطُرِح باقي القتلى في أمكنة أخرى.[٢] ثم قال لهم رسول الله ﷺ (أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا وجدنا ما وعد ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا) فإنها المخاطبة التي تثير نوازع النفوس نحو اليوم الموعود، الذي تجد فيه كل نفس ما قدمت، ولتكون الحسرة والندامة التي تلاحقهم من نبيهم الذي يُرغبهم في دين الله تعالى؛ ويشفق عليهم ويتحمل أذاهم، ويقابل ذلك بالصبر، حتى خرج إلى الطائف ثم عاد منها مهموماً مما أصابه من الردود المقيتة. فهاهي النهاية، التي وجد رسول الله ﷺ من ربه ما وعده

---

[١] البخاري (٨٦/٣) برقم (٣٩٧٦)

[٢] ابن حجر، فتح الباري (٣٠٢/٧)

حقاً جلياً، من النصر وهم قلة قليلة، وعدوه كثير كثير. وإنه الدرس الإيماني ليزداد الذين آمنوا إيماناً من تلك المخاطبة التي تثير القلوب والعقول، وتستجيش العواطف نحو التأمل في المصير، ولتكون حسرة لمن كفر ولم يُطع الرسول الأمين، فيتمنى في قبره لو أنه أطاع رسوله ﷺ (أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟)

ثم يُجيب ﷺ على تساؤل عمر رضي الله عنه عن هذه المخاطبة لقوم قد فارقت أرواحُهم أجسَادَهم، بإجابة قد شملت: القسم بالله تعالى، ثم التمثيل لهم بسماع الحاضر، فإن أولئك أموات قد سمعوا كلامه ﷺ كما سمع الصحابة كلامه لهم ﷺ، وإنه لمن الإيمان أن يؤمن المؤمن بما يُخبر به ﷺ

فهذا درس تربوي عملي قد أعطاه رسول الله ﷺ لمن معه ولمن بعده، ليعتبر أولي الأبصار. وإنه الدرس التربوي من استغلال المواقف، ليتربى الناس على الإيمان والصلاح والانقياد لله ولرسوله ﷺ

وفي رواية الحديث من الفوائد: أن الصحابي أنس يروي عن صحابي آخر؛ وهو أبو طلحة، مما يعطي درساً منهجياً في العدالة وصدق النقل والخبر، وأن يُنسب القول لقائله، وهي المنهجية العلمية الدقيقة التي تُركز عليها مناهج البحث العلمي، يطبقها أصحاب رسول الله ﷺ قبل أن يدركها غيرهم.

ثم يأتي موضوع الأسرى، ومشهد التعامل معهم، قال أبو زميل قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا نبي الله! هم بنوا العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار. فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا بن الخطاب؟ قلت: لا والله! يا رسول الله ! ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تُمَكِّنَّا فنضرب أعناقَهم فَتُمَكِّنَ عَلياً من عقيل فيضرب عُنُقَهُ، وتُمَكِّنِّي من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر

وصناديدُها فَهَوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلت فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قَاعِدَيْنِ يبكيان، قلت: يا رسول الله ! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحِبُك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ : أبكي للذي عَرَضَ عَلَيَّ أصحابُك من أخذهم الفداء، لقد عُرِضَ عَلَيَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة من نبي الله ﷺ) وأنزل الله عزَّ وجلَّ: ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض. إلى قوله: فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً. فأحل الله الغنيمة لهم)[١]

ومن فوائد هذا الحديث: الشورى منه ﷺ لأصحابه، حيث يأمر إذا كان الأمر لا يسعه إلا الأمر، وغالباً ما يستثير هِمم الصحابة، وكثيراً ما يستشير ﷺ وهو النبي، فيُعَلِّمُ أصحابه ومن بعدهم المنهجية الصحيحة في التعامل؛ والتي يجب أن تكون بين أفراد الأمة، وبين قادتها ورعاياهم، وبين الرئيس والمرؤوسين، وبين رب الأسرة وأفرادها، حتى أن أبا هريرة رضي الله عنه يقول (ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ)[٢]

فلقد أبدى أبو بكر رضي الله عنه ما يراه، ثم أبدى عمر رضي الله عنه ما يراه، وهنا لم يجامل عمر أبا بكر، بأن يقول بقوله، بل قال بما يراه، وهو الأمر الذي يجب أن يكون عليه المسلم في المناقشات والمجالس الاستشارية، بأن لا يجعل المجاملة منطلقاً في أسلوبه الاستشاري، فالمستشار مؤتمن. بل يجب أن يذكر ما يراه صواباً أو ما يراه الأصوب والأحسن؛ دون أية مجاملة لرئيس أو مرؤوس.

ثم اختار رسول الله ﷺ ما أشار به أبو بكر الصديق رضي الله عنه ثم يأتي عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فيجد رسول الله ﷺ وأبا بكر يبكيان، فتأتي المشاركة منه رضي الله عنه بطلب العلة في البكاء، فإما يبكي للعلة نفسها، أو أن يشاركهما بالتباكي النابع من المشاركة الوجدانية منه

---

(١) مسلم (٣/١٣٨٣-١٣٨٥) برقم (١٧٦٣)

(٢) الترمذي (٤/١٨٥-١٨٦) برقم (١٧١٤)

لهما، فيعطي ﷺ موقفاً رائعاً للصاحب مع أصحابه، بمشاركته لهم. مما يفيد أهمية مشاركة المرء لأقاربه وأصحابه فيما هم فيه منشغلون من الخير والحق؛ دون الشر والباطل.

ثم يأتي الدرس الآخر؛ الذي مفاده بأن رسولَ الله ﷺ رسولٌ من ربه يبلغ عنه ما يأمره به، ولو كان غير ذلك لما بكى ﷺ وصاحبه أبو بكر ﷺ، فبين الله تعالى ما كان يجب أن يكون عليه حال الأسرى، وكل هذه الأحداث دروس للأمة تستفيد منها في دار معاشها لدار معادها.

ثم يبين هذا الحديث حِرصَ رسول الله ﷺ الشديد على طاعة ربه سبحانه وتعالى، حتى أنه ليبكي على اجتهاده ﷺ وهكذا يكون المؤمن مجتهد في طاعة ربه باكياً على تقصيره، ومجتهداً في تكميله. فصلى الله عليك يا رسول الله، فلقد عَلَّمت الأمة كل ما تحتاج إليه.

الغنائم

عن عبادة بن الصامت ﷺ قال (خرجت مع رسول الله ﷺ إلى بدر نلقى العدو، فلما هزمهم؛ اتبعهم طائفة من المسلمين يقتلونهم، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ واستولت طائفة بالعسكر. فلما كفى الله العدو ورجع الذين قتلوهم قالوا: لنا النفل، نحن قتلنا العدو، وبنا نفاهم الله وهزمهم، وقال الذين كانوا أحدقوا برسول الله ﷺ : والله ما أنتم بأحق به منا ، هو لنا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ لا ينال العدو منه غِرّة، وقال الذين استولوا على العسكر: والله ما أنتم بأحق به منا؛ نحن استولينا على العسكر، فأنزل الله عزَّ وجلَّ (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم إلى قوله إن كنتم مؤمنين. فقسَّمه رسول الله ﷺ بينهم عن فُوَاق)[1] أي بالتساوي.

---

[1] الحاكم (٢/١٣٥-١٣٦) وأحمد (٣٧/٤٢١-٤٢٢) برقم (٢٢٧٦٢) طبعة الموسوعة الحديثية.

وفي هذا الحديث تتبين الطبيعة الإنسانية والبشرية؛ التي لا تُخْرِجَ الإنسان إلى خصائص الملائكة، فيعلم الناس من بعدهم أنهم كذلك، فلا يحتجوا بأن قدرات الصحابة تخرج عن طور البشرية، ولكنهم يسمعون فيفهمون فيطيعون.

فأنزل الله سبحانه وتعالى قسمة الغنيمة بينهم من فوق سبع سماوات. فرضي الله تعالى عن أولئك الصحب الكرام، الذي لو أنفق أحَدُنا مثل جَبَلِ أُحد ذهباً، وكيف له أن يدرك ذلك، ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه. فقد علمونا منهاج رسول الله ﷺ وتنزل القرآن الكريم يوجههم ويصحح أفكارهم وسلوكياتهم، لنسلك منهجهم في تمام مسلكهم.

وأحل الله لهم ما أخذوه من الفداء، كما جاء في قوله تعالى ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾(١)

فأخذ رسول الله ﷺ الفداء من أسرى بدر، وقَبِلَ ممن ليس عنده فداء تعليم صبيان المسلمين القراءة والكتابة، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: (كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يُعلِّموا أولاد الأنصار الكتابة)(٢) وسبق بيان فوائد هذا الحديث.

ولم يكن رسول الله ﷺ يجامل أحداً، كما في هذا الحديث الذي يرويه أنس بن مالك (أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن اختنا عباس فداءه، قال: والله لا تذرون منه درهما)(٣) وجاء أن ابن عباس قال (أن النبي ﷺ قال: يا عباس افد نفسك وابن أخويك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن عمرو، فإنك

(١) سورة الأنفال: آية رقم (٦٩)

(٢) أحمد (٩٢/٤)، برقم (٢٢١٦) طبعة الموسوعة الحديثية.

(٣) البخاري (٩٥/٣) برقم (٤٠١٨)

ذو مال، قال: إني كنت مسلماً، ولكن القوم استكرهوني، قال: الله أعلم بما تقول، إن كنت ما تقول حقاً إن الله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا.)(١)

فلقد تعامل النبي ﷺ مع العباس بالظاهر من فعله؛ وأوكل سريرته إلى الله تعالى. وهي المنهجية التي يستفيد منها المؤمن في التعامل مع الآخرين، بأن يكون محور التعامل مبناه على الظاهر، ويستفاد منه كذلك أن يمتد سلطان هذا المنهج في الابتعاد عن الظنون الوهمية؛ التي تقلب الظاهر إلى خلافه، وبالتالي تبدأ المقاييس والمعايير الوهمية تأخذ مكانها، ومن ثم تجري الأحكام تبعاً لذلك، وما قد يلحق بها من تعسف في حلقات السلسلة التعاملية مع الناس.

كما أن مجريات هذه المعركة ونتائجها تؤكد للمؤمنين، أن مقاييس النصر والتمكين لا تكمن في القوى المادية فقط، ولو كانت كذلك لانتصر كفار قريش بقوتهم الضارية، ولكن موازين القوى في المنهج الإسلامي تتمحور، في القوة الإيمانية مع الأخذ بالقوة المادية حتى تجري الأمور وفق سُنن الله تعالى الاجتماعية والكونية.

والمتأمل في مجريات هذه الغزوة المباركة ونتائجها في حالة إخضاعها للتفسير التاريخي المادي، والتفسير الحربي لهذه المعركة، يقف أمامها عاجزاً مهولاً أمام نتائجها، التي لا يستطيع معرفة مكنونات النصر فيها، ولذلك استوجب التفسير الإسلامي لكل أحداث الدنيا السابقة واللاحقة، من أحداث تاريخية، وزلازل وفيضانات، وأوبئة وأمراض وقحط وجدب، ورخاء، وغيث، وسكينة، وخيرات ونعم وانتصارات. فالتفسير الإسلامي لذلك يخضع لمنهجية سُنن الله الكونية والاجتماعية والنفسية والتربوية التي رتبها الباري عزَّ وجلَّ، وبينها كتاب الله تعالى وسنة نبيه المطهرة. وأما الحيدة عنها فسوف تعطي نتائج مغلوطة.

وهكذا انتهت غزوة بدر الكبرى المباركة، وبقيت دروسها وفوائدها تتدفق لكل من تأمل مكنوناتها، وتعايش مع أحداثها، ليجد المسلمون فيها العديد من المواعظ والدروس

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/٣٢٢)

التربوية والدعوية، والجهادية والإيمانية والتعبدية، وواحات من الأخلاق الكريمة، والسيرة الحميدة.

البيان القرآني:

لقد بين القرآن جوانبَ مهمة جداً في هذه الغزوة المباركة، لتكشف حقائق، ودواعي، ومنهجية، وخلجات نفسية، لتعطي المؤمنين في كل وقت وحين مزيداً من الإيمان، والتطبيق المنهجي لما يُريد الله تعالى، ولتتحقق من خلالها مساعيهم في الخير، وهذه الآيات العظيمات تبين كثيراً من ذلك:

قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ
(٣) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) كَمَآ
أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ (٥) يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ
كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ
أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ
(٧) لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ
أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا
ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ
ٱلْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ

لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ
ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ
مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ
رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ
وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ (١)

يبين مطلع هذه السورة المباركة، أن المسلمين سألوا رسول الله ﷺ عن الغنائم، أي الأنفال التي ينفلها الله تعالى على هذه الأمة من أموال الكفار، فَيُخبرهم الله تعالى: بأنها لله ولرسوله يحكمان فيها، وعليكم السمع والطاعة، آمراً إياهم بتقوى الله تعالى، وأن يُصلحوا ما بينهم.

فمنهجية الإصلاح تنطلق أولاً من تقوى الله تعالى، فالذي ليس عنده تقوى لن يستطيع أن يُصلح ما بينه وبين إخوانه المسلمين، لأن حظوظ النفس ستكون هي المسيطرة على الذات التي لن ترى إلا الفردية والأنانية، أما إذا تحققت التقوى كمرحلة أولى فسوف تتحقق المرحلة الثانية من التآخي والترابط الاجتماعي، ولذلك فإن المنهجية التربوية والدعوية الصحيحة هي التي ترتب مسيرتها البنائية والعلاجية للمجتمع في دوائره المختلفة من خلال هذا الترتيب الرباني.

ولقد جمع الله تبارك وتعالى جماع العلاقات الاجتماعية في قوله سبحانه وتعالى (وأصلحوا ذات بينكم) لما تشتمل عليه من فعل مكارم الأخلاق والبر بأنواعه، وكف شرور النفس بجميع صوره وأشكاله. وإنها جزالة وجماع خير في عبارة.

وأما كيفية التطبيق فتكون بتفعيل قوله تعالى (وأطيعوا الله ورسوله) فهي علامة الإيمان الحقيقي.

---

(١) سورة الأنفال: الآيات رقم (١-١٨)

ثم تأتي بعد ذلك الصفات التي يُدرك بها المسلم الإيمان الذي يتحقق به النصر، يقول الشيخ ابن سعدي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ: "قدم تعالى ـ أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة ـ الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها، لأن من قام بها، استقامت أحواله، وصَلُحت أعماله، التي من أكبرها الجهاد في سبيله."[1] وهي:

(إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعلى ربهم يتوكلون، الذين يُقيمون الصلاة، ومما رزقناهم يُنفقون، أولئك هم المؤمنون حقا)

إن تكامل هذه الصفات التي ينبغي أن تُركِّز عليها منهجية التعليم والتربية، تحقق للمؤمنين درجات عالية عند ربهم، ومغفرة، ورزق كريم.

ثم يبين الله تعالى خروج المؤمنين مع رسولهم ﷺ فإن الله تعالى هو الذي أخرج رسوله من بيته بالحق، فلا شيء يخرج عن إرادته وتدبيره سبحانه وتعالى، "وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج، أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال. فحين تبين لهم أن ذلك واقع، جعل فريق من المؤمنين يجادلون النبي ﷺ في ذلك، ويكرهون لقاء عدوهم، كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون"[2]

وهذا لا يمثل جميع المؤمنين بل طائفة منهم، ثم إنهم سرعان ما تجاوبوا مع نبيهم ورسولهم ﷺ وجاهدوا حق الجهاد، فرضي الله تعالى عنهم أجمعين، فقد أعطانا الله تعالى بهم دروساً، ليعرف المسلمون كيف يتعاملون مع ربهم تبارك وتعالى ونبيه ﷺ فأصبحت مواقفهم آيات قد تضمنها القرآن الكريم؛ ليتأملها المسلم في قراءته وتدبره.

(وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) أي يُحبون الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم، وهي العير. (ويريد الله أن يُحق الحق بكلماته) أي أن الله تبارك وتعالى

---

(1) عبد الرحمن بن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٨٩/٢)

(2) المرجع السابق (١٨٩/٢)

يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم، وينصركم عليهم، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالباً على الأديان.[1] ويستأصل أهل الباطل، ويُري عباده من نصره للحق ما لم يكن يخطر ببالهم، ولو كان المجرمون يكرهون ذلك، فإنه سبحانه وتعالى لا يبالي بهم.[2]

ثم يبين الله تعالى حال المؤمنين في بدر لما قَرُب لقاء العدو، بأنهم كانوا يستغيثون الله تعالى، فاستجاب الكريم الرحمن لدعائهم. وإنه لدرس تعبدي عظيم؛ ليلجأ المؤمن إلى ربه في كل لحظة، وخاصة عند ما تدلهم به الكربات والنوائب، فالذي أغاث المسلمين ونصرهم ببدر وهم قلة في العدد والعتاد، لينصر ويستجيب لمن أخلص في الدعاء وصدق الالتجاء، فأَمَدَّ رسوله والمؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بعضهم يردف بعض، ليستبشروا بذلك، وتطمئن نفوسهم، وإن كان النصر من الله ليس بالعدد والعتاد، فبني النضير قد هزمهم الله بالرعب الذي أنزله سبحانه وتعالى في قلوبهم.

ثم أيضاً قد أكرمهم الله تعالى بأن أنزل النعاس عليهم حتى يُؤمنهُم من خوفهم الذي حصل لهم من جراء كثرة عدوهم، وإنها لمكرمة عظيمة أن جعل الله تعالى في النعاس هذه الخاصية العجيبة، لتطمئن النفوس وتستريح، لِتُقْبِلَ على المعركة بقوة ونشاط، إذ أن العادة في الإنسان إذا كان أمام أمر عظيم كالحرب فإن النوم عنه بعيد، وبالتالي فإن جانب التفكير هو المسيطر على ذهنه، ومن ثم تضعف قواه، ولكن الله تعالى أنعم عليهم بأكثر مما يرجون، ولولا بيان الله تعالى لهذه النعم بالآيات لما تَعَرَّفَ عليها الإنسان؛ وربط باطنها وظاهرها بتلك المجريات والأحداث، فكم من نِعَمٍ تترى على الإنسانية وهم عن إدراكها ساهون، وكم من نقم يذودها عنهم تبارك وتعالى؛ وهم عنها غافلون.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٠٠)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/١٩٠)

ثم أنزل الله عليهم مطراً فشربوا وتطهروا؛ وأذهب الله عنهم وساوس الشيطان، وثبت به الرمل حين ما أصابه المطر، ثم أوحى سبحانه وتعالى إلى الملائكة أنه معهم بنصره وتأييده، وأمرهم أن يُلْقُوا في قلوب المؤمنين ما يثبتهم، ومن ذلك ما كان يراه المجاهد من قوة من يقاتل معه، كما في قول ابن عباس قال: (بينما رجلٌ من المسلمين يومئذٍ يَشْتَدُّ في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوتَ الفارسِ يقول: أَقْدِم حَيْزُوم فنظر إلى المشرك أمامه فَخَرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وجهه كضربة السوط فَاخْضَرَّ ذلك أَجْمَعُ. فجاء الأنصاري فحدَّث بذلك رسولَ الله ﷺ فقال: صدقت، ذلك من مَدَد السماء الثالثة. فَقَتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين.)[1]

فهذا مما زاد في ثبات المؤمنين، وفي نفس الوقت ألقى اللهُ تعالى الرعبَ في قلوب عدوهم، فتحقق النصر للمسلمين. وهنا يمكن القول: كيف للتفسير المادي أن يدرك مثل هذه الحقائق، وبالتالي لا مناص عن التفسير الإسلامي لما سبق بيانه.

ثم يأتي التوجيه الرباني في كيفية ضرب العدو ومقاتلته، بأن يضربوهم فوق الأعناق وفي كل مفصل وطرف. ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله. ثم يبين الله تعالى مزيداً من كيفية القتال والمواجهة الحربية، بأن لا تولوهم الأدبار فارين تاركين أصحابكم، (إلا متحرفاً لقتال) أي يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه، فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك، وقال الضحاك: أن يتقدم على أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبه، (أو متحيزاً إلى فئة) أي يفر من فئة إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه،[2] وأما الهارب (فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) وبهذه التوجيهات والتعليمات الربانية تقوى صفوف القتال، وبالتالي يقوى الجند، ويسري أثر القوة إلى العدو لِيُهْلَك ويندحر. وبالتالي يتبين عمق

(١) مسلم (١٣٨٥.١٣٨٣/٣) برقم (١٧٦٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٦/٢)

التوجيهات الإسلامية لتربي المسلم المجاهد على القوة والشجاعة، والبعد عن الخوف والذل في صفوف المعركة.

ثم يبين الله تعالى أنكم أيها المؤمنون لم تنتصروا عليهم بحولكم وقوتكم، بل الله أظفركم عليهم، وفي هذا درس عظيم للمؤمن، حتى لا يغتر ويظن أنه هو الفاعل وهو القادر، بل الله تعالى هو الخالق لأفعال العباد، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن قوله تعالى: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) قال: هذا يوم بدر أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصبات فرمى بحصبات ميمنة القوم، وحصبات في ميسرة القوم، وحصبات بين أظهرهم. وقال: (شاهت الوجوه) فانهزموا.[1]

ويبين الله تعالى أن من فوائد هذا النصر ليعرف المؤمنون نعمة الله تعالى عليهم، بنصره لهم مع قلة عددهم وكثرة عدد عدوهم، وأن الله سميع الدعاء، (ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) وهذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعِف كيد الكافرين، فيما يُسْتَقبل.[2]

فهكذا بينت تلك الآيات القرآنية الكثير من عوامل النصر وآليته، التي تخفى على الإنسان إلا بعلم من الله تعالى، وما تضمنته تلك العوامل من رحمة الله تعالى بنبيه ﷺ والمؤمنين، فأغدق عليهم من نعيم النصر والبشرى ومدد الملائكة والغيث والنعاس؛ وكثير من بركاته سبحانه وتعالى، لتعلم الأمة أن الله قوي عزيز، رحيم ناصر من نصره، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله تعالى. وبالتالي يلزم المؤمن أن يُمعن النظر في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله وسيرته ﷺ لينهل منها خير الدنيا والآخرة.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٨/٢)

(٢) المرجع السابق (٢٠٨/٢)

وتأمل المزيد في قوله تعالى:

﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ
وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ
مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ
مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ٤٢ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ
فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ
إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ
أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا
لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ
فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن
دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧ ﴾

الغزوات والسرايا قبل أحد :

ـ غزوة قَرقَرة الكُدْر:

وهي وراء سد معونة؛ قريب من الأرْحَضِيّة، حيث بلغه ﷺ أن بهذا الموضع جمعاً من سُليم وغطفان، فسار إليهم فلم يجد في المجال أحداً، فانصرف ﷺ وقد ظفر بالنعم فانحدر به إلى المدينة[1]

ـ غزوة السويق:

وذلك أنه عندما رجع المشركون من معركة بدر مهزومين، حرَّم أبو سفيان بن حرب الدهن حتى يثأر من رسول الله ﷺ وأصحابه، فخرج في مائتي راكب، وقيل أربعين فمر بالعُريض، من ناحية المدينة فقتل رجلاً من الأنصار وأجيراً له؛ وحرَّق ثم ولى هارباً، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب أصحابه فخرج في مائتي رجل يطلبهم، وأخذ أبو سفيان وأصحابه يتخففون من أمتعتهم هرباً، فَيُلقون جُرُب السويق؛ وهي عامة أزوادهم، فجعل المسلمون يأخذونها، فسميت غزوة السويق.[2]

وهذا العمل من أبي سفيان وأصحابه والذي انتهى بالهروب والتخفف من أزوادهم، يدل على أن معركة بدر الكبرى قد أعطتهم درساً عظيماً بأن المسلمين قد أصبحوا قوة ضارية، لا يستطيعون مواجهتها بسهولة، مما يؤكد الأهمية الكبرى للأمة في كل وقت وحين؛ بأن تظهر بمظهر القوة والهيبة أمام الأمم الأخرى، حتى تكون شوكتها مَهِيبَة.

ـ سرية قتل كعب بن الأشرف اليهودي:

فقد كان كعب بن الأشرف شاعراً يهجو النبي ﷺ وأصحابه ويحرض عليهم ويؤذيهم، فلما كانت موقعة بدر قال: بطن الأرض خير من ظهرها اليوم. وبكى قتلى قريش،

---

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٣١/٢)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٤٨.٤٧/٣) والطبقات لابن سعد (٣٠/٢)

وحرضهم بالشعر.[1] وبهذا الإيذاء والتعدي، أشار رسول الله ﷺ إلى أصحابه بمن لكعب بن الأشرف؟ فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما (قال رسول الله ﷺ : من لكعب بن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله. فقام محمد بن مسلمة، فقال: يا رسول الله ! أتحب أن أقتله ؟ قال: نعم. قال: فأذن لي أن أقول شيئاً. قال: قل. فأتاه، محمد بن مسلمة؛ فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عَنَّانا، وإني قد أتيتك استسلفك، قال: وأيضاً والله لتملُّنَّه. قال: إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تُسلِفُنا وسقاً أو وسقين... فقال: نعم ارهنوني، قالوا: أي شيء تريد ؟ قال: ارهنوني نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم، قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فَيُسَبُّ أحدهم، فيقال: رُهِن بوسق أو وسقين، هذا عار علينا، ولكنا نرهنك الَّلأْمَة. قال سفيان: يعني السلاح، فواعده أن يأتيه، فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة . وهو أخو كعب من الرضاعة . فدعاهم إلى الحصن، فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة ؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة، وأخي أبو نائلة، وقال غير عمرو: قالت أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدَّم، قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دُعِيَ إلى طعنة بليل لأجاب. قال: ويُدْخِلُ محمد بن مسلمة معه رجلين . قيل لسفيان: سماهم عمرو ؟ قال: سمى بعضهم. قال عمرو: جاء معه برجلين، وقال غير عمرو : أبو عبس بن جبر والحارث بن أوس وعباد بن بشر . قال عمرو جاء معه برجلين، فقال: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم، فاضربوه. وقال مرة: ثم أشِمُّكم، فنزل إليهم متوشحاً وهو ينفح منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت كاليوم ريحاً . أطيب . وقال غير عمرو: قال عندي أعطر نساء العرب وأكمل العرب. قال عمرو:

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٣٢.٣١/٢)

فقال: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم. فشمَّه، ثم أشَمَّ أصحابه، ثم قال: أتأذن لي ؟ قال: نعم. فلما استمكن منه قال: دونكم. فقتلوه. ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه)[1]

ومن فوائد ذلك: أن الكفر يقطع أواصر علاقة النسب، وأن المحبة في الإسلام تنطلق من الإسلام، وفيه إخلاص محمد بن مسلمة وأبي نائلة، بالرغم من علاقة الرضاعة مع كعب. وفيه أمانة الوصف؛ إذ لم يمنعهم شنآن اليهودية أن يذكروا فطنتها. وفيه كذلك قتل من حارب الله ورسوله، وفيه فطنة وذكاء زوجة كعب. وفيه مشروعية الاحتيال على من وجب قتله، وجواز الكذب على الأعداء، وفيه عظة وعبرة لمن يسلك مسلكه.

ـ غزوة ذي أمَرّ :

لما عاد ﷺ من غزوة السويق إلى المدينة غزا نجداً، يريد غطفان، ذلك أنه بلغه أن جمعاً من بني ثعلبه ومحارب بذي أمَرّ، قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا أطراف رسول الله ﷺ ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً، بعد أن أقام بنجد صفراً كله.[2]

ـ غزوة الفُرُع من بُحران:

بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من بني سُلَيم كثيراً ببُحران، فخرج في ثلاثمائة رجل، من أصحابه، حتى ورد بُحران فوجدهم قد تفرقوا في مياههم، فرجع، ولم يلق كيداً.[3]

ـ سرية القَردة :

وذلك أن قريشاً خافوا طريقهم الذي كانوا يسلكون إلى الشام بعد وقعة بدر، فسلكوا طريق العراق، فخرج منهم تجار، فيهم أبو سفيان بن حرب، وبعث رسول الله ﷺ زيد

---

(1) البخاري (٣/٩٩-١٠٠) برقم (٤٠٣٧)

(2) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٤٩) والطبقات لابن سعد (٢/٣٤-٣٥)

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٣٥-٣٦)

بن حارثة، فلقيهم فأصاب تلك العير وما فيها، فَقَدِم بها على رسول الله ﷺ [١] والقَرَدَة من أرض نجد؛ بين الرَّبَذَة والغَمرة، ناحية ذات عِرْق.[٢]

ويتبين من تلك الأحداث أن رسول الله ﷺ لم يعتد على قوم لم يهموا بالاعتداء عليه، فغطفان وبنو سليم هموا بالنيل منه ﷺ وأصحابه، فبادرهم قبل أن يبادروه، غير أن عير قريش كان يتعقبها ﷺ لما صنعوا به وبالمهاجرين في مكة، ولإعلانهم العداوة والبغضاء، ولصدهم الناس عن سبيل الله تعالى.

وهكذا يتبين المنهج النبوي الكريم الذي يتعد كل البعد عن التعدي على الغير ممن لزم دياره، وكف أذاه عن المسلمين، كما يتبين المنهج التأديبي القائم على الشجاعة ورد كيد المعتدين في قعر ديارهم، والمكوث فيها أياماً عديدة، مما يبين المقدرة والشجاعة التي يتحقق بها حفظ دولة الإسلام الفتية؛ بتوفيق الله تعالى ومنه وكرمه.

ـ غزوة بني قينقاع:

وقد كان فيما بين ذلك من غزو رسول الله ﷺ أمر بني قينقاع[٣]

فحتى تكتمل الصورة الحقيقية لليهود من نقضهم للميثاق، وحمل العداوة في نفوسهم للإسلام؛ بالرغم مما حملته الوثيقة من حفظ حقوقهم؛ إلا أنهم يسيرون وفق الباعث النفسي المخالف للفطرة السوية؛ والممتلئ حسداً وحقداً على الرسالة النبوية، فنكثوا الميثاق؛ وتطاولوا في الاستعلاء، فكانت عاقبة أمرهم خسرا، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: (لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر؛ وقدم المدينة؛ جمع اليهود في سوق بني قينقاع، فقال: يا معشر يهود، أسلموا قَبلَ أن يُصيبكم مثل ما أصاب قريشاً، قالوا: يا محمد، لا يغرنك من

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٥٣-٥٤)

[٢] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٣٦)

[٣] ابن هشام؛ السيرة النبوية (٣/٥٠)

نفسك أنك قتلت نفراً من قريش؛ كانوا أغماراً[1] لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله عزَّ وجل في ذلك (قل للذين كفروا سَتُغلبون)[2]

فلقد قابل اليهود تلك الوثيقة والمعاملة النبوية الكريمة بالتمرد والطغيان، والجواب السيئ الذي ينم عن الحقد والكراهية والشعور بالاستعلاء، كما يبين هذا الموقف الحرص النبوي الكريم على البشرية، وخوفه عليهم من عاقبة الكفر والتمرد على الله تعالى، بعد معركة بدر التي كانت آية من آيات الله تعالى، وتبينت فيها قدرة الله تعالى العظيمة، وصدق نبوة رسوله الكريم ﷺ في نصرة النفر القليل أمام العدد المتضاعف من المشركين على ما هو مُفَصَّل في معركة بدر، مما يجعل الفرصة مناسبة جداً لدعوة اليهود للإسلام، بعد أن تبين لهم أن هذا النبي الأمي ﷺ متوج أمره بالنصر من الله تعالى. فليس للعاقل إلا اتباعه، ولكن كثيراً ما يمنع الحسدُ أصحابه من الخير.

وفي اغتنام الحدث منه ﷺ درس تربوي ودعوي لأهل الإسلام في اغتنامه والإفادة منه، إذا روعي واقع الحال للمدعو وللمتربي وللحدث.

"ولا يعني أن سبب جلاء بني قينقاع يعود إلى رفضهم قبول الإسلام"، ففي هذه المرحلة كان الإسلام يقبل التعايش السلمي معهم؛ وإنما يعود سبب الجلاء إلى ما أظهروه من روح عدائية، انتهت إلى الإخلال بالأمن داخل المدينة المنورة"[3]

ومما يُستأنس به في إخلالهم بأمن المدينة، أن امرأة من المسلمين جلست إلى صائغ، فجلس اليهود يراودونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين

---

[1] الغمر: الجاهل الذي لم يجرب الأمور

[2] أبو داود (٣/٤٠٢-٤٠٣) برقم (٣٠٠١)

[3] أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (١/٣٠٠)

على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.[١]

فهذه الرواية تبين التبجح اليهودي، وعدم مراعاتهم واكتراثهم للقيم الاجتماعية؛ فضلاً عن الدينية، وتطاولهم. وتبين حقيقة ميلهم للفساد الجنسي والإباحية، مما يعزز تأكيد حقيقة واقعهم عبر العصور؛ الذي يكشف مسلكهم الانحرافي في الخُلُقِ والدين..

كما يبين هذا النص أن الحجاب يشمل تغطية الوجه، حيث أن المرأة المسلمة مدار القصة كانت مغطية الوجه؛ فطلبوا منها كشف وجهها.؛ ولو لم تكن كذلك لما طلبوا منها كشف وجهها.

وهذا الحدث يوسع دائرة خبرة المسلم عن حقيقة اليهود، التي ينبغي أن يتنبه لها، فلا يسلك مسلكهم ، ولا ينخدع ببريق حضارتهم.

كما يبين غيرة المسلم على حُرمات الله تعالى، وعدم صبره على الفساد والمفسدين الذين لا يراعون حُرُمات الله تعالى، كما يبين أن قوة الإيمان تشحذ قوى الإنسان بالشجاعة والإقدام.

"فكان أول من نقض العهد من اليهود بنو قينقاع، فحاربهم في شوال بعد وقعة بدر؛ فنزلوا على حكمه، وأراد قتلهم؛ فاستوهبهم منه عبدالله بن أبي، وكانوا حلفاءه؛ فوهبهم له، وأخرجهم من المدينة إلى أذرعات."[٢]

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (٥١/٣)

[٢] ابن حجر، فتح الباري (٣٣٠/٧) وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٥٢،٥١/٣) وأذرعات من أعالي الشام، وهي أرض المحشر والمنشر. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٣/٤)

الفصل السابع
من غزوة أحد إلى غزوة الخندق

غزوة أحد:

لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع فَلُّهم إلى مكة منهزمين، أرادت قريش أن تثأر لنفسها وتستعيد سطوتها ومكانتها التي تأثرت بهزيمتها.[١]

إضافة إلى تعقب المسلمين لتجارة قريش وعيرها؛ كما في سرية القَرَدة. وكذلك المكانة والسيادة التي بدأت تظهر بوادرها للمسلمين في المدينة، مما يعني سحب البساط من تحت أقدام قريش، وما سيؤول إليه الأمر فيما بعد من أخذ المسلمين بحقوقهم كاملة من كفار قريش.

وقد حصلت هذه المعركة يوم السبت لسبع ليال خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من مهاجره ﷺ [٢] أي في السنة الثالثة من الهجرة.

وقد خرجت قريش بحَدِّها وجَدِّها وحدِيدها وأحابيشها، ومن تابعها من بني كنانة، وأهل تهامة.[٣] وقد جعلت قريش قافلتها التجارية التي نجت يوم بدر عوناً لها على ذلك،[٤] وتعبأت بثلاثة آلاف رجل، ومعهم مئتا فرس قادوها إلى جنوبهم، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل،[٥] وهذه الحشود تدلل على أن قريشاً قد ساءها كثيراً ما حصل لها يوم بدر، فحشدت قوتها وعتادها وأموالها لهذه المعركة، كما تفيد أن ألوية الكفر تسعى لإطفاء نور الله تعالى، وترغب في اجتثاث المسلمين. مما يؤكد فائدة أخذ الحيطة والحذر.

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (٦٤/٣)

[٢] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٣٦/٢)

[٣] ابن هشام، السيرة النبوية (٦٥-٦٦/٣)

[٤] المرجع السابق (٦٤/٣)

[٥] ابن هشام، السيرة النبوية (٧٠/٣)

ولقد رأى رسول الله ﷺ رؤيا عن هذه الواقعة، أو الغزوة. ورؤيا الأنبياء حق فعن أبي موسى رضي الله عنه أُرَى عن النبي ﷺ. قال (رأيت في رؤياي أني هززت سيفاً فانقطع صدره، فذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء به الله من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقراً والله خير، فإذا هم المؤمنون يومَ أُحُد)[١]

وقد شاور رسول الله ﷺ أصحابه في الخروج للقتال أو البقاء في المدينة، فعن ابن إسحاق: (فإن رأيتم أن تُقيموا بالمدينة، وتَدَعُوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا؛ أقاموا بشرٍ مُقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها.)[٢]

ويتبين هنا أن رسول الله ﷺ لم يستأثر بالرأي عن أصحابه، ولو استأثر به لتبعه الصحابة أجمعون، ولكان حقاً. ولكنه عليه الصلاة والسلام يتعامل معهم وفق السنن الاجتماعية والأخلاق الحميدة والتربية الفذة، التي تُرَبِّي فيهم الأخذ بمبدأ الشورى، وعدم القطع في أمر المجموعة أو الأمة برأي الفرد، وإنه لمبدأ قيادي وإداري نبوي كريم، ما تركه إنسان إلا نَدِم عليه.

كما يبين هذا النص الأسلوب الإبداعي له ﷺ في طرح رأيه، ليتشاوروا فيما عَرَضه عليهم، دون أن يُلزِمَهم بما يرى، فقد أشار إليهم بفائدة البقاء في المدينة، حيث سيكون من عدوهم أحد أمرين: إما بقاؤه خارج المدينة، وهو شر مُقام لهم؛ لأن المدينة حصينة، وبالتالي لن ينالوا شيئاً من مبتغاهم، وإما أن يدخلوها فَيُقاتلهم أهل المدينة بكاملهم، النساء والصبيان من فوق المنازل، والرجال في شوارعها.

---

[١] البخاري (١١٠/٣) برقم (٤٠٨١)، أُرَى بمعنى: أظن. والقائل ذلك هو البخاري كأنه شك هل سمع من شيخه صيغة الرفع أم لا.(فتح الباري ٣٧٦/٧).

[٢] ابن هشام، السيرة النبوية (٦٧/٣)

فَذِكْرُ العلة في الرأي من مهمات الرأي الحصيف، ومن موجبات تأمله ودراسته بعمق. وهذه المشورة تربي في المسلمين إعمال العقل فيما يجوز الاجتهاد فيه، كما أنها تبين أن للإنسان تدبيره في أعماله، وأعمال غيره، وبالتالي فإن نتائجه من مسؤولياته، كما أن المشورة تُظهر القدرات العقلية، وترفع من المعنويات النفسية، وتجعل الفرد يستشعر بقيمته عند رئيسه وقائده، أو والده وأستاذه.

كما أن مشورته ﷺ لأصحابه كانت في الرأي الذي طرحه عليهم، وهذا نوع من أنواع المشورة، فإما أن تطلب الرأي فيما ترى، أو أن تطلب الرأي ابتداء في الحدث. وما طرحه رسول الله ﷺ يُمثل النوع الأول، إضافة إلى أنه ليس هناك احتمال ثالث للموقف.

فلم يزل الناس برسول الله ﷺ من الذين كان من أمرهم حُبُّ لقاء القوم، حتى دخل رسول الله ﷺ بيته، فلبس لأمته، ثم خرج عليهم، وقد نَدِم الناس، وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك، فلما خرج عليهم رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله ! استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ : (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يُقاتل.)[(١)]

ويتبين من هذا النص لابن هشام أن رسول الله ﷺ غير راغب في الخروج إليهم، ولكنه أخذ عليه الصلاة والسلام برأي المجموعة، وهذا يدلل على احترامه ﷺ لرأي الجماعة، وإن رأى هو غيره، طالما أنه ليس في نص أو أمر قطعي ليس لهم فيه رأي، إضافة إلى أن هذا الرأي من الصحابة يُدلل على أنه ﷺ قد عودهم على إبداء الرأي دون انزعاج منه ﷺ على من يُخالفه في الرأي، وإلا لما أظهر الصحابة رأيهم عنده ﷺ وفي هذا مبدأ الترحيب بالآراء دون تَنَقْص منها، أو إشعار الآخرين بالامتعاض من الرأي المخالف، الأمر الذي يربي في

[(١)] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٦٧-٦٨)

الآخرين من الأعوان عدم المجاملة الخاطئة، وبالتالي يُصبح الرأي فردياً؛ وإن وافقت عليه الجماعة، لأن سر الموافقة وأسبابها دفع انزعاج المستشير.

وقد شَعُرَ المسلمون بأن ما رأوه قد استكرهوا به رسول الله ﷺ فندموا على ذلك، وهنا تتبين الطبيعة الإنسانية في التفاعل مع الحدث أثناء إبداء الرأي، وكذلك المحبة التي يكنها أصحاب رسول الله ﷺ له، وانزعاجهم مما حصل منهم، فخرج عليه الصلاة والسلام عليهم، وقد لبس لأمته، أي الدرع أو السلاح، ولأمة الحرب أداته.[1] فيخبرونه قائلين : يا رسول الله! استكرهناك، ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك. فيقول لهم: رسول الله ﷺ : (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يُقاتل.) فيعطي عليه الصلاة والسلام درساً في اتخاذ القرار، الذي يجب أن يُمْضيه، طالما أنه يحمل رأي المجموعة، حتى لا تتشتت الآراء وتتشعب. ليكون ذلك مبدأً عملياً إدارياً وتربوياً، يؤدي إلى تربية المجموعة على الالتزام بالقرار الصادر عن الرأي الجماعي، وأنه دعامة إدارية؛ تحقق نجاح القرار القيادي، لتبتعد بالأفراد عن التشتت والتشعب والانقسام.

وخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه[2] وبالتالي فإن الكفة العددية لكفار قريش، التي بلغ عدد أفرادها ثلاثة آلاف مقاتل؛ تفوق الكفة العددية للمسلمين. وهنا تظهر أهمية الثبات، وأهمية عدم الاغترار بالكثرة، لأن نصر المسلمين غير مرتهن بالعدد فقط، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

---

[1] ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٢٠/٤)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٦٨/٣)

﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝٦٦﴾[1]

ثم ها هو جيش المسلمين يتحرك صوب مقر المعركة، حتى إذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة رجع عبد الله بن أبي بن سلول بِثُلُثِ الناس[2]

وهنا يتبين خذلان المنافقين للمسلمين، وما قد يُحْدثه ذلك من أثر نفسي على صفوف المسلمين، ولكن الله تبارك وتعالى يُنَزِّلُ في ذلك آيات بينات، تسجل هذا الموقف، وتبين إرادة الله تبارك وتعالى، وتكشف عِلَل المنافقين الواهية، قال تعالى ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ۝١٦٧﴾[3] قال ابن كثير: يعني بذلك أصحاب عبدالله بن أبي بن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق، فاتبعهم رجال من المؤمنين يُحرضونهم على الإتيان والقتال والمساعدة.... واستدلوا بقوله تعالى ﴿ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر.[4]

ثم يبين القرآن الكريم حالة التفكير عند طائفة من المسلمين بالرجوع، ولكن بفضل الله تعالى وجُوْدِه تَغَلَّب إيمانُهم على تفكيرهم ووهنهم، فعن جابر رضي الله عنه قال (نزلت هذه الآية فينا ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ بني سَلمة وبني حارثة، وما أُحِبُّ أنَّها لم

(١) سورة الأنفال: آيات رقم (٦٥-٦٦)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٦٨/٣)

(٣) سورة آل عمران: آية رقم (١٦٦)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٣٤/١)

تنزل، والله يقول ﴿ **والله وليهما**﴾ [1] ويتبين من حديث جابر ﷺ حُسن الفهم والنباهة والفطنة، لما تضمنته الآية من قوله تعالى (**والله وليهما**)

وفي معسكر المسلمين ردَّ رسول اللهﷺ مجموعة من الفتية لصغر سنهم، وأجاز سَمُرة بن جُندب الفَزاري، ورافع بن خديج، وهما أبناء خمس عشرة سنة، وكان قد ردهما، فقيل له: يا رسول الله إن رافعاً رامٍ، فأجازه، فلما أجاز رافعاً، قيل له: يا رسول الله ! فإن سَمُرة يصرع رافعاً، فأجازه.[2]

وذكر ابن هشام أن رسول الله ﷺ ردَّ أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، والبراء بن عازب، وعمرو بن حَزم، وأسيد بن ظُهَير، ثم أجازهم يوم الخندق، وهم أبناء خمس عشرة سنة.[3]

وهذا الموقف من هؤلاء الفتية يدلل على التربية الإيمانية القوية التي كانوا يُنَشَّؤن عليها، حتى أنهم يندفعون إلى ساحة المعركة ولم يبلغوا الخامسة عشر من أعمارهم، وبالتالي فإنهم يُقدمون نموذجاً تربوياً مشرفاً لفتية الإسلام. كما يدلل هذا الخبر على العناية الأسرية من أهليهم التي غرست فيهم حب الإسلام، وحب رسول الله ﷺ إضافة إلى أنهم كانوا يمارسون الرماية والمصارعة التي تقوي الجسم، وتُعين على نوائب الدهر، حيث أجاز ﷺ رافعاً لأنه كان رامياً، وأجاز سَمُرة بن جُندب الفَزاري لأنه كان يصرع رافعاً. مما يدلل على أن الرماية والمصارعة كانتا من أنشطة الفتية وألعابهم.

وعند جبل أُحُد الذي قال عنه ﷺ (هذا جبل يُحبنا ونحبه)[1] التقى المسلمون بكفار قريش، فعن البراء ﷺ قال (لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرُّماة، وأمَّر

---

(١) البخاري (٣/١٠٤) برقم (٤٠٥١)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٧٠)

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٧٠)

عليهم عبد الله، وقال: لا تَبرَحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعِينُونا.)[٢]

يوضح هذا الحديث الخطة النبوية الحربية الحكيمة، التي جعلت مجموعة من الرَّماة على جبل عينين المواجه لأحد، لكي يحفظ المكان المهم جداً في مسيرة المعركة من أن يناله المشركون، فيكون حماية للمسلمين بعد الله تعالى. وهنا تظهر الأهمية الكبرى للأخذ بالأسباب التي هي من مقدور المسلم. كما يبين هذا الحديث أهمية الإمارة على المجموعة أو الكتيبة، وأن يمتثلوا لقائدهم المباشر، ويظهر أيضاً مبدأ تقسيم العمل والمهام والمسؤوليات، ثم يعطي ﷺ التوجيهات التي يلزم الأخذ بها في حال الانتصار أو الهزيمة.

وقد وضع ﷺ كلا الاحتمالين أمام الرماة. ولم يترك لهم الاجتهاد أمام تنوع النتائج، مما يؤكد أهمية وضوح التعليمات للأعوان، وعدم إعطاء الفرصة للآراء في المواقف الحاسمة والواضحة، التي لا تحتمل الاجتهاد. وهذه من الركائز المهمة في نجاح الأعمال في جميع دوائرها.

ومن مشاهد المعركة وبطولات المسلمين يذكر أنس ﵁ (أن رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أُحُد. فقال: من يأخذ مني هذا ؟ فَبَسَطُوا أيديَهُم. كُلُّ إنسان منهم يقول: أنا، أنا، قال: فمن يأخذه بحقه ؟ قال: فأحجم القوم. فقال سِمَاك بن خَرَشَة، أبو دجانة: أنا آخُذُه بِحَقِّهِ. قال: فأخذه ففلق به هام المشركين)[٣] ويظهر في هذا المشهد تشجيع رسول الله ﷺ

---

(١) البخاري (١١١/٣) برقم (٤٠٨٣)

(٢) البخاري (١٠٢/٣-١٠٣) برقم (٤٠٤٣)

(٣) مسلم (١٩١٧/٤) برقم (٢٤٧٠)

لأصحابه، وترغيبهم في الخير، وتنافس الصحابة في ذلك، حيث يقول كل واحد منهم: أنا، أنا، ثم يأخذه أبو دجانة ﷺ ففلق به هام المشركين، أي شق رؤوسهم.(١)

ومن أبطال وشهداء هذه المعركة مصعب بن عمير وحمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنهما، اللذان يتذكرهما ابن عوف ﷺ فتقف نفسه عن الطعام أمامه، فيبكي حتى تركه. فعن سعد بن إبراهيم عن أبيه إبراهيم (أن عبد الرحمن بن عوف أُتي بطعام ـ وكان صائماً ـ فقال: قُتل مُصعب بن عُمير وهو خير مني، كُفِّنَ في بُردةٍ إن غُطى رأسه بَدَت رجلاه، وإن غُطى رجلاه بدا رأسه. وأُراهُ قال: وقُتل حمزة وهو خيرٌ منى؛ ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بسط ـ أو قال أُعطينا من الدنيا ما أعطينا ـ وقد خَشينا أن تكون حسناتنا قد عُجِّلَت لنا. ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام)(٢)

ومن فوائد هذا الحديث، محبة الصحابة لبعضهم، فأولها: تذكر ابن عوف لصحابيين جليلين، وثانيها: وصفهما بأنهما خير منه، وثالثها: ذكر محاسنهما، ورابعها عدم قدرته على تناول الطعام لتلك الذكرى المتلئة بالمحبة. كما أن في هذا الحديث زهد مصعب بن عمير ﷺ الذي كان من حاله، أنه ليس له كفن إلا بُردته التي تعجز لقصرها أن تغطيه كاملاً، وهو الشاب الذي كان من أنعم الناس قبل الإسلام.

ومن صور بسالة المسلمين ورغبتهم في ما أعده الله تعالى للشهداء، ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال (قال رجل للنبي ﷺ يوم أُحُد: أرأيت إن قُتِلتُ فأين أنا ؟ قال: في الجنة. فألقى تمرات في يده، ثم قاتل حتى قُتِل)(٣)

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٢٤/١٦)

(٢) البخاري (١٠٣/٣) برقم (٤٠٤٥)

(٣) البخاري (١٠٣/٣) برقم (٤٠٤٦)

فإذا كان الصحابي الجليل يبحث عن الجنة من باب الجهاد، فإن الأبواب التي تؤدي إليها عديدة وجدير بالمسلم أن يبحث عنها من خلال أبوابها العديدة، كالمحافظة على العبادات، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله تعالى بالكلمة أو الفعل أو القدوة المستقيمة. وإذا كان الصحابي يدفع بنفسه إلى الموت في سبيل الله تعالى، أفلا يدفع المسلم عن نفسه عذاب الله تعالى وعقابه؛ بفعل الطاعات واجتناب المحرمات.

إن هذا الموقف من ذلك الصحابي الجليل دليل على ضآلة الدنيا في عيون الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وتقديمهم لذة الآخرة الآجلة على لذائذ الدنيا العاجلة، وبالتالي ارتقت موازينهم وأحكامهم وقراراتهم رضي الله تعالى عنهم.

وبلغ من إيمان المسلمين وحبهم لله تعالى ولرسوله ﷺ وبسالتهم وشجاعتهم في هذه المعركة، أن قال عبد الله بن جحش رضي الله عنه (اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو غداً، فيقتلوني، ثم يبقروا بطني، ويجدعوا أنفي، وأذني، ثم تسألني بما ذاك ؟ فأقول فيك) قال سعيد بن المسيب إني لأرجو أن يبر الله قسمه كما بر أوله.[١]

بل بلغ بهم الإيمان والشجاعة، ما كان من أمر حنظلة بن أبي عامر رضي الله عنه، حيث قال رسول الله ﷺ عند قتل حنظله بن أبي عامر (إن صاحبكم تغسله الملائكة. فسألوا صاحبته، فقالت: إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب، فقال رسول الله ﷺ لذلك غسلته الملائكة)[٢]

فيضرب حنظلة بن أبي عامر رضي الله عنه مثلاً رائعاً لمن قدم لذة الآخرة على الدنيا، فبالرغم من أنه جُنُب إلا أنه لم يتمالك نفسه في الدفاع عن المسلمين؛ والذب عنهم بنفسه وسنانه، فيخرج للمعركة لما سمع الهائعة، وهي: الصيحة التي فيها فزع. فَيُقْتَل شهيداً رضي الله عنه فيكافئه الله تعالى بأن غسلته الملائكة، فيحظى بهذه المنقبة العظيمة.

---

[١] الحاكم، المستدرك (٣/٢٠٠)

[٢] الحاكم، المستدرك (٣/٢٠٤)

وكم يسمع الإنسان عن حاجات إخوانه من المسلمين: الأقارب أو الأباعد ولا يسعى فيها بما يستطيع، وكم تُقام الصلاة ويُرفع الأذان وهناك من لا يجيب، مكتفياً بإقامتها في داره. أو بعد فوات وقتها بحين، فأين ذاك من سرعة تجاوب حنظله بن أبي عامر وصنيعه.

وبهذه البسالة الإيمانية بعد توفيق الله تعالى انتصر المسلمون في بداية المعركة، حيث يصف البراء ﷺ ذلك، بقوله (لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرُّماة، وأمَّر عليهم عبد الله، وقال: لا تَبرَحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعِينُونا. فلما لَقينا هربوا، حتى رأيت النساء يَشتددْن في الجبل، رفعن عن سُوقهن، قد بدت خلاخِلُهنَّ. فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة. فقال عبد الله: عَهِدَ إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صُرِف وُجوهُهم، فأصيب سبعون قتيلاً.)[١]

فهكذا كان النصر، حتى إن النساء كُنَّ يشتَدِدن أي يُسرعن في المشي، وقد رفعن عن سوقهن، وهو جمع ساق، حتى يعينهن ذلك على سرعة الهرب، ويقول ابن الزبير ﷺ : والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحباتها مشمرات هوارب، ما دون إحداهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حتى كشف القوم عنه، وخَلَّوا ظهرنا للخيل، فأُتينا من خلفنا.[٢] وأخذ أصحاب عبد الله بن جبير، يقولون : الغنيمة الغنيمة. ويقول لهم ابن جبير: عَهِدَ إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صُرِف وُجوهُهم. أي تحيروا فلم يدروا أين يتوجَّهون.

---

[١] البخاري (١٠٢/٣-١٠٣) برقم (٤٠٤٣)

[٢] ابن هشام، السيرة النبوية (٨٢/٣) ابن حجر، فتح الباري (٣٥٠/٧)

وفي حديث ابن عباس (فلما أخلَّت الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على الصحابة، فضرب بعضهم بعضاً، والتبسوا، وقُتِلَ من المسلمين ناس كثير)[1]

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت (لما كان يومُ أُحُدٍ هُزِمَ المشركون، فصَرَخ إبليس لعنة الله عليه: أي عبادَ الله، أُخْراكم. فرجَعت أولاهم فاجتَلَدَت هيَ وأخراهم، فبصُر حُذيفةُ فإذا هو بأبيه اليمان، فقال: أي عباد الله، أبي أبي. قال قالت: فوالله ما احتَجَزوُا حتى قتلوه. فقال حذَيفةَ: يَغفِرُ الله لكم. قال عروة: فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحِقَ بالله)[2]

وتبين هذه الرواية ما كان من إبليس لعنة الله تعالى عليه، والذي نادى بأسلوب خبيث، يوحي بأن الصوت يحمل نصحاً للمسلمين، وهو يحمل بهتاناً مبين. والذي يجب أن يُكثر المسلم التعوذ منه، ويتخذه عدواً مبيناً.

ونتيجة لما حصل من ارتباك المسلمين، أن قتلوا والد حذيفة. الذي ظهر بمظهر المؤمن القوي، ملتمساً لإخوانه المسلمين العذر، داعياً لهم بالمغفرة، ليجسد لمن بعده؛ كيف يتعامل المسلم مع إخوانه في حالة الخطأ؛ حتى وإن كان بالغ الأثر. ثم ما يجب أن يكون عليه المسلم حالة المصيبة، من الصبر والتصبر، الذي يحفظ توازن الإنسان عند المصائب.

وقد وصف الله تعالى حال المؤمنين في كتابه العزيز، فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ

(1) ابن حجر، فتح الباري (٧/٣٥٠،٣٥١)

(2) البخاري (٣/١٠٦) برقم (٤٠٦٥)

ٱلْآخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[1]

وعن البراء رضي الله عنه قال: (...وأشرف أبو سفيان؛ فقال: أفي القوم محمد ؟ فقال: لا تُجيبوه. فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ قال: لا تجيبوه. فقال: أفي القوم ابن الخطاب ؟ فقال: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدوَّ الله؛ أبقى الله عليك ما يُخزيك. قال أبو سفيان: أعلُ هُبَل. فقال النبي ﷺ : أجيبوه. قالوا: ما نقول ؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجلّ. قال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال النبي ﷺ : أجيبوه. قالوا: ما نقول ؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم. قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر، والحربُ سِجال، وتجدون مُثْلةً لم آمُرْ بها ولم تَسُؤْني)[2]

وهكذا اعتقد أبو سفيان أن رسول الله ﷺ وصاحبيه قد قُتِلوا، فيشير عليهم ﷺ بالسكوت، ويظهر أن في السكوت عنه، ما يدعو لمعرفة المزيد مما يكن ويُبطن، إضافة ليُصدَم بمعرفة حقيقة الخبر، وفي هذا ضربة نفسية عميقة لقائد المشركين. كما أن في ذلك دلالة على مكانة أبي بكر الصديق وعمر التي يدركها أبو سفيان.

وفي معالجة أَحَدِ الصحابة رضي الله عنه لغيابه عن معركة بدر، واستشعاره أهمية التعويض عنها، يروي لنا أنس رضي الله عنه (أن عمه غاب عن بدرٍ فقال: غبتُ عن أول قتال النبي ﷺ لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ لَيَرَين الله ما أُجدُّ؛ فلقي يوم أحد، فَهُزِم الناسُ، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما جاء به المشركون. فتقدم بسيفه،

---

(١) سورة آل عمران: آية رقم (١٥٢)

(٢) البخاري (٣/١٠٢-١٠٣) برقم (٤٠٤٣)

فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد ؟ إني أجد ريح الجنة دون أحد. فمضى فقُتل. فما عُرِفَ حتى عَرَفَتْهُ أُخته بشامة ـ أو ببنانه ـ وبه بضعٌ وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم)[1].

وعَمُّ أنس هو أنس بن النَّضر رضي الله تعالى عنهما. الذي يُقَدِّمُ درساً ومثالاً رائعاً في التعويض عن ما يفوت الإنسان من الخير، فيرفع اعتذاره لرب العالمين عمَّا حصل من أمر بعض المسلمين، ويعلن البراءة من عمل المشركين الذين يقاتلون رسول الله ﷺ وصحابته رضي الله تعالى عنهم. مبيناً ومشجعاً للمسلمين أن هذا العمل يؤول بالمسلم إلى الجنة، أشار ابن حجر إلى أن ريح الجنة قد تكون على الحقيقة، أو أن يكون ذلك باعتبار ما عنده من اليقين، بأن هذا ما سوف يؤول إليه.[2] وهنا تبرز أهمية إظهار القدوة العملية لتكون دافعاً للآخرين حتى يحذون حذوه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ أُفْرِدَ يوم أحد في سَبْعَةٍ من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رَهِقُوه، قال: من يَرُدُّهم عنَّا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قُتِل، ثم رَهِقُوه أيضاً، فقال: من يردُّهُم عنا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قُتِل. فلم يزل كذلك حتى قُتِل السبعة. فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: ما أنصفنا أصحابنا)[3]

ويتبين من هذا الحديث مراعاة الرسول ﷺ للعدل حتى عند تقديم النفس في الذود عنه ﷺ لينال الرجل بها الشهادة والكرامة، فيقول لصاحبيه من المهاجرين بعد أن استشهد السبعة الأنصار (ما أنصفنا أصحابنا) فيقدم ﷺ الدرس التربوي والمحفز في كل لحظة من لحظات حياته، ليكون المربي والقائد والإداري مستغلاً لمثل هذه المواقف في حياة المجموعة.

---

(1) البخاري (٣/١٠٣-١٠٤) برقم (٤٠٤٨) ورقم (٢٨٠٥)

(2) ابن حجر، فتح الباري (٧/٣٥٥)

(3) مسلم (٣/١٤١٥) برقم (١٧٨٩)

كما يتبين من هذا الحدث عمق محبة الصحابة من الأنصار لرسول الله ﷺ إذ يرون الموت أمامهم فيقدمون عليه فداءً ومحبة لرسول الله ﷺ وإعلاء لدين الله تعالى. ووفاء بما عاهدوه عليه ليلة العقبة، فكيف بمن يتكاسل بنشاطه وقوته عن أداء ما افترضه الله عليه من صلاة أو غيرها من العبادات.

وبعد استشهاد السبعة الذين أحاطوا برسول الله ﷺ قاتل عنه أبو طلحة الأنصاري؛ فعن أنس رضي الله عنه قال:(لما كان يوم أُحُدٍ انهزمَ الناس عن النبي ﷺ ، وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مُجَوِّبٌ عليهِ بحجفَةٍ له[1]، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزعِ، كسر يومَئذ قَوسَين أو ثلاثاً، وكان الرجلُ يَمرُّ معه بجعبَةٍ من النَّبل فيقول: انثرها لأبي طلحة، قال: ويُشْرِفُ النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي، لا تُشْرِفْ يصيبك سهم من سهام القوم، نَحرِي دون نَحرِك.)[2]

وهكذا قدم أبو طلحة رضي الله عنه مثالاً رائعاً للجندي الذي أخذ التدريب المكثف، فجعل منه فذاً وناصراً ومدافعاً قوياً عن دين الله تعالى. كما يُقدم الحرص العظيم على الرسول الأمين ﷺ مبيناً أنه يفديه بنفسه ووالديه. فلئن حَرِص أبو طلحة رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فإن سُبُل الحرص لا زالت متاحة للمسلم، من خلال الحرص على نشر سنته والذب عنها والدعوة إليها، ولئن أمعن أبو طلحة في التدريب حتى أصبح بهذه القوة والمهارة، فإن سُبُل التعلم لسنته ﷺ لا زالت متاحة، يستطيع المرء أن يأخذ منها ما استطاع لتكون له عوناً على ممارسة الدعوة بما يستطيع، فيكون قد اقتدى بأبي طلحة في بسالته وقوته، ولكن بصورة أخرى.

---

(١) مجوب أي مُتَرِّس. والحجفة هي الترس.

(٢) البخاري (٣/١٠٦) برقم(٤٠٦٤)

ولقد امتدت قوة هذا الصحابي الجليل إلى صوته الذي أصبح سلاحاً قوياً وفاعلاً في المشركين، يقول أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (لَصَوتُ أبي طلحة أشد على المشركين من فئة)[1]

وكذلك قاتل طلحة بن عبيد الله القرشي دون النبي ﷺ فأُصيبت يده، فعن قيس قال (رأيت يدَ طلحةَ شلاّء، وقىَ بها النبي ﷺ يومَ أُحُد)[2]

وهكذا قدم طلحة ﷺ نفسه لنصرة رسول الله ﷺ والدفاع عنه بدمه الزكي حتى أصبحت يده شلاء أي لا تعمل.

ودافع سعد بن أبي وقاص عن رسول الله ﷺ وكان رامياً، فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال (نَثَل لي النبي ﷺ كِنانَتَه يوم أحد، فقال: ارم فداك أبي وأمي)[3]

وفي هذا الحديث يظهر الأسلوب النبوي الكريم، الذي أَمَدَّ سعداً بشحنات الفداء والقوة، وهو يقول له ﷺ (فداك أبي وأمي) فاستشعر سعد ﷺ معاني هذه الكلمات وما تحمله من دلالات، يرويها ابن المسيب (قال سعد بن أبي وقاص ﷺ : جمع لي رسول الله ﷺ يوم أحد أبويه كليهما . يريد حين قال: فداك أبي وأمي . وهو يُقاتل)[4]

وعن سعد بن شدَّاد قال: (سمعت علياً ﷺ يقول : ما سمعت النبي ﷺ يجمع أبويه لأحد غير سعد)[5]

(١) أحمد (٣٧٥/٢٠) برقم (١٣١٠٥) طبعة الموسوعة الحديثية.

(٢) البخاري (١٠٦/٣) برقم (٤٠٦٣)

(٣) البخاري (١٠٥/٣) برقم (٤٠٥٥)

(٤) البخاري (١٠٥/٣) برقم (٤٠٥٧)

(٥) البخاري (١٠٥/٣) برقم (٤٠٥٨)

وهكذا تظهر عوامل وأثر التشجيع التي ينبغي أن تعنى بها تربية اليوم، وإدارة الكفاءات، وقيادة المجموعات، ولا سيما إذا ما كانت ممن لتشجيعهم وقع على نفوس من يتعاملون معهم.

وبالرغم من بسالة المسلمين وشجاعتهم التي ظهروا بها إلا أن رسول الله ﷺ قد أصيب في هذه المعركة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:(قال رسول الله ﷺ اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه . يُشير إلى رباعيته . اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله)[١]

وعن أبي حازم أنه (سمع سهل بن سعد وهو يسأل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: أما والله إني لأعرف مَنْ كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ومن كان يسكب الماء وبم دُووِي. قال: كانت فاطمة عليها السلام، بنت رسول الله ﷺ تغسله وعلي يسكب الماء بالمِجَنِّ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدَّمَ إلا كثرةً أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصَقَتها فاستمسك الدم، وَكُسِرَت رباعيته يومئذ، وجرح وجهه، وكسرت البيضة على رأسه)[٢]

وفي الحديث جواز التداوي، وأن الأنبياء قد يُصابون ببعض العوارض الدنيوية من الجراحات والآلام والأسقام ليعظم لهم بذلك الأجر، وتزداد درجاتهم رفعة، وليتأسى بهم أتباعهم في الصبر على المكاره، والعاقبة للمتقين.[٣]

وبهذه الإصابة لرسول الله ﷺ يتبين الأثر الواضح لأهمية الطاعة للقائد، وإدراك مسؤولية ما يقوم به الإنسان من أعمال، وخُطورة ما قد ينجم عن الترك أو الإهمال، الأمر

---

(١) البخاري (١٠٩/٣) برقم (٤٠٧٣)

(٢) البخاري (١٠٩/٣) برقم (٤٠٧٥)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٣٧٣/٧)

الذي يجب أن يدركه المسلم في جميع ما يوكل إليه من أعمال في مختلف مجالات الحياة العملية. فالمبدأ واحد، والنتيجة متشابهة.

ويدل لفظ سهل بن سعد ﷺ على عناية الصحابة بسيرة الرسول ﷺ مع دقة النقل والملاحظة التي هي من أهم مطالب الراوي والباحث في الجانب العلمي، مما يؤكد دقة ما تم نقله للأجيال من بعدهم. ويؤكد أهمية هذه الصفة العلمية؛ والخُلُقية الراقية التي يتربى عليها من نهل من معين الإسلام وهديه، واقتفى بسيرة المصطفى ﷺ.

ومن صور أحداث معركة أحد ما رواه البراء بن عازب ﷺ حيث قال:(جعل النبي ﷺ على الرَّجَّالةِ يوم أحد عبدالله بن جُبَير، وأقبلوا منهزمين ، فذاك قوله تعالى (والرسول يدعوكم في أخراكم)[1]

وقد اغتم المسلمون لما أصاب رسول الله ﷺ وأصابهم من القتل، فأنزل الله تعالى عليهم أمنة نعاساً، لِيَتَقَوّوا بها، جسمياً ونفسياً، فعن أنس عن أبي طلحة رضي الله عنهما قال(كنتُ فيمن تَغَشاهُ النُّعاسُ يومَ أُحُد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقطُ وآخذُه، ويَسقط فآخذُه)[2] ويبين الله تبارك وتعالى ذلك في أحسن وصف، وأبدع بيان، حيث يقول عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ

---

(١) البخاري (٣/١٠٧) برقم (٤٠٦٧)

(٢) البخاري (٣/١٠٧) برقم (٤٠٦٨)

أَصَٰبَكُمْۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٍۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (١)

يبين الله تعالى أنه صَدَقَ المؤمنين وعده بنصرهم على عدوهم، وأصبحوا يَحُسُّون بأخذهم لعدوهم المشركين بضرب السيوف فيهم. ولَمَّا حصل الفشل والتنازع في الأمر، والاختلاف، والمعصية للرسول ﷺ وترك أمره من البقاء على جبل الرماة، بعدما أراهم ما يُحبون من النصر والظفر بالعدو، حصل لهم غير ذلك.

وبهذا المطلع القرآني العظيم يتبين أهمية الطاعة للرسول ﷺ التي هي طاعة لله تعالى، وأن الفرح بالخير الذي يحمل ويؤدي إلى المعصية يقلب كفة الموازين، فإذا أنعم الله تعالى على عبد بنعمة فعليه أن يمسكها بطاعة الله تعالى، فإن المعاصي تُزيل النِّعم.

ويستفاد من هذه الآيات أهمية وحدة الهدف وسلامته، فقد أشار سبحانه وتعالى إلى أثر ذلك بقوله (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) ثم يبين الله سبحانه وتعالى قدرته العظيمة؛ بأن قَلَبَ الموازين، وصرف وجوه المؤمنين عن عدوهم، فصار الوجه للعدو، ابتلاء من الله تعالى. لأن في الابتلاء تكفير للذنوب، ثم تتجلى رحمة الله تعالى للمؤمنين على ما يصدر منهم، بأن عفا عنهم برحمته وفضله ومنه، مما يفيد أن على المؤمن استشعار ذلك فيما يصيبه، بأنها رحمة من الله تعالى يربيه بالسراء والضراء ليعفو عنه ويرفع من درجاته؛ إنه تبارك وتعالى ذو فضل عظيم على المؤمنين.

---

(١) سورة آل عمرآن: آيات رقم (١٥٣.١٥٤)

ثم يبين الله تعالى دقائق من حالة المؤمنين في تلك المعركة لتكون درساً وعظة على مر الأزمان، إذ تُصْعِدُون في الجبل وتَجِدُّون في الهرب ولا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب، قال السدي: لما اشتد المشركون على المسلمين بِأُحُد فهزموهم دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة، فقاموا عليها، فجعل الرسول ﷺ يدعو الناس (إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله)[1] فجزاهم الله تعالى بغم يتبعه غم، أي كرباً بعد كرب، بفوات النصر والغنيمة، وحصول الهزيمة والجرح والقتل، وسماعهم قتل النبي ﷺ وميل العدو عليهم، وإنها لَكُرْبَةٌ عظيمة قد ألـمَّت بالمؤمنين، ولكنها تربية الله تعالى لهم على ما سيكون لهم من أدوار يفخر بها تاريخ البشرية، ويَسْعد بمفرداتها ودقائقها المسلمون، لتكون دروساً علمية وعملية؛ يتعلمون منها على مدار التاريخ والأيام.

وقد كان ما شاع عن مقتل النبي ﷺ الغم الكبير الذي حط بكلكله على قلوب المؤمنين، فأنساهم كل غم من الهزيمة وفوات النصر والغنيمة، ثم أثابهم الله تعالى بمعرفة الحقيقة أن محمداً ﷺ لم يُقتل، فأزال الله تعالى بهذا الخبر كل همٍ كان قد جثا عليهم، لأن سلامته ﷺ هي المبتغى، والمقصد لهم رضي الله تعالى عنهم.

وكل هذا ينفي عن المسلمين الحزن والأسى على ما فاتهم من النصر والغنيمة والقتل والجرح، لقاء فرحهم بحياة الرسول ﷺ الذي يفوق كل فرح، ويجلي عنهم كل حزن. فالله تعالى خبير حكيم يعلم ما لا يعلم العباد، وفي أفعاله سبحانه وتعالى حِكم بالغة. وكم في هذا من تربية للمؤمنين على التعود على الشدائد والمصائب التي تقوي عزيمتهم وتزيدهم خبرة وقوة، وزيادة في تماسكهم وتعاضدهم وطاعتهم لنبيهم ﷺ في كل لحظة وحين، وفي السر والعلانية.

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤٢٣)

ويُستفاد من هذا سعة رحمة الله تعالى وعنايته بعباده، وعظيم أسلوبه عزَّ وجلَّ في توجيه وتربية عباده، فما يصيب المؤمن من ابتلاء، قد يتلوه آخر، إنما هو نوع من التأديب بالرحمة التربوية التي يُنسي بعضُها بعضاً، ليتحقق له السرور فيما بعد.

ثم يمتن الله تبارك وتعالى على عباده المؤمنين بأمنة نعاس تغشاهم، وهم في همهم وغمهم، لأن في النعاس سكينة وتهدئة للنفس البشرية، ليقوم الإنسان بعد ذلك نشطاً قوياً، إضافة إلى ما فيه من التثبيت للقلوب من الخوف الذي أصابها. وأما الطائفة الأخرى المنافقة " وهم أهل شك وريب في الله عزَّ وجلَّ" (١) وقد كان من صفة أهل هذه الطائفة: أن أهمتهم أنفسهم، والظن السيئ بالله تعالى؛ بأن الله لن ينصر رسوله ﷺ ويتساءلون: أليس لنا من النصر شيء ؟ وإنه سؤال قد حمل إساءة ظن بالله تعالى، مما يبين أهمية الظن الحسن بالرحمن الرحيم ، فمهما أصاب المؤمن مما يسوؤه، فيعلم أن الله تعالى إنما يريد به الخير، بدفع ضر عنه، أو بجلب مصلحة له بسبب ذلك، عاجلة أو آجلة. ثم يبين الله تعالى محصلة الأمر (إن الأمر كله لله) هو الملك المتصرف، له الحكمة البالغة.

ثم يبين الله تعالى بعض الخصائص والخلجات النفسية لهذه الطائفة المنافقة، بأنهم يُخْفُون في أنفسهم ما لا يظهرونه للنبي ﷺ فيقولون: لو كان الأمر إلينا في هذه المعركة ما حصل هذا القتل، وبهذا يُسندون الأمر لأنفسهم دون الله تعالى، ويرفعون من قيمة آرائهم، ويهونون من أمر رسول الله ﷺ وأصحابه الميامين. ولكن الله تعالى يرد عليهم في كتابه العظيم، ليكون خزياً وفضيحة لهم، فيقول تعالى (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) فالله تعالى يختبرهم ليميز الخبيث من الطيب، ويمحص القلوب؛ ليظهر المؤمن من المنافق، وأن الله عليم بخلجات النفس من السرائر الخفية التي لا يعلمها إلا صاحبها، وربما فاته معرفتها نتيجة ازدحام الأفكار عليه.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٢٧/١)

وهذا البيان من الله تعالى يُجسد في قلب المؤمن أهمية الإيمان والالتجاء إلى الله تعالى؛ وإلى أمره وتوجيهه، والحذر من عصيان أوامره وتوجيهاته، وأن يحسن المؤمن الظن بالله تعالى؛ وبأمره ونهيه، وعدم التعدي عليها برأي أو استحسان لغيرها، فإن الله عليم بخلجات النفوس وما توسوس به الصدور.

ولئن حصل هذا في معركة أُحُد لهو درس من الله تعالى لتستفيد منه الأمة في ذلك الوقت وفي كل وقت، من خلال استعراض السيرة والإفادة مما دار فيها من أحداث، وإلا فالله تعالى قادر على النصر كما نصرهم يوم بدر وهم قلة.

كما يتبين من هذا الحدث أهمية مراعاة الأسباب، والأخذ بها، فالله تعالى هو خالق الأسباب، وبالتالي يجب الأخذ بما أمر به تبارك وتعالى، وأن هذا الدين هو دين عمل وتفكير، وأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى.

وبعد نهاية المعركة بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقال (اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون؟ وما يريدون ؟ فإن كانوا قد جَنَّبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثم لأناجزنهم، قال علي: فخرجت في آثارهم، أنظر ماذا يصنعون؛ فجنبوا الخيل، وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة)[١]

ويتبين من ذلك حِرص النبي ﷺ على حماية رعيته والذب عنها، الأمر الذي ينبغي أن يدركه كل مسؤول عن رعيته، وأن لا ينشغل بهموم ما أصابه عن بقية مسؤولياته. كما يتبين من صنيعه ﷺ إمعان العقل والتدبر والقياس، واستخلاص النتائج بعد استقراء التوقعات التي يمكن أن تكون؛ ليتخذ القرار المناسب وفق الاحتمالات المنتظرة، وهي من أهم أسس النجاح القيادي والإداري والتربوي في جميع شؤون الحياة: المهنية والأسرية والاجتماعية. كما يتبين من

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/١٠٠)

هذه الرواية شجاعته ﷺ التي انبعثت من توعده لهم إن ذهبوا إلى لمدينة. وهو ما يجب أن يستفيد منه القائد، أياً كان مجال قيادته.

وقد أنزل الله تعالى آيات عظيمات للمسلمين عن يوم أُحُد، تزرع في نفوسهم المزيد من الثقة بربهم، وتقوي إيمانهم، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [1]

فهذه الآيات العظيمات تصب فيضاً من الإيناس على قلوب المؤمنين؛ بما تحمله من معاني ودلالات عظيمة، فينهاهم الله تعالى عن الضعف والحزن بسبب ما جرى لهم من نتائج المعركة، فإن العاقبة والنصر لكم أيها المؤمنون، فأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. وهكذا يجب أن يكون المؤمن بعد الكربات والنوائب التي تصيبه، في منأى عن الضعف والحزن، الذي بهما تضعف العزائم، وتنهار القوى، ولا يرى أمامه إلا مستقبلاً كئيباً. بل يجب أن يطرح الضعف جانباً والحزن في جانب آخر، ليبدأ عملاً ونشاطاً جديداً في تفاؤل بثواب الله وعطائه سبحانه وتعالى.

ثم يبين الله تعالى للمؤمنين: أنه وإن أصابتكم جراح وقتل في صفوفكم، فقد أصاب القوم مثلكم من قتل وجرح، وها هي سنة الله تعالى في التداول، يداول الأيام بين الناس، فنديل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت العاقبة والنهاية الحاسمة لكم. لما في ذلك من الحكمة

[1] سورة آل عمران: آيات (١٣٩-١٤٢)

البالغة؛ ليتبين من يصبر على مناجزة الأعداء، وليكون منكم شهداء، يُقتلون في سبيل الله تعالى. وليمحص المؤمنين، ويمحق الكافرين.

فها هي حِكم تلك المداولة التي ينبغي أن يدركها الإنسان المسلم، ويتعامل مع الأحداث والمداولة بحكمة البصير الناظر في تدبير الله تعالى وتصريفه الحكيم البليغ، لأن في عدم إدراك هذه الحِكَم ما قد يدفع المرء إلى التصرف غير الحكيم، لأنه لا يرى إلا تحقق النصر والظفر بالعدو في كل وقت وحين؛ دون النظر إلى غير ذلك من حكم الله تعالى وتدبيره، وكذلك أسباب النصر في أبواب الحياة المختلفة.

ثم يبين الله تعالى للمؤمنين أمراً عظيماً وهو أمر دُخول الجنة: أتحسبون أن تدخلوا الجنة ولم تُبتلوا بالقتال والشدائد.

فإن من سنن الله تعالى الابتلاء، بالأعداء وفي الأموال والأنفس والرزق، وغير ذلك، فإذا عرف المؤمن هذه السنن أدخلت عليه فيضاً من السكينة والطمأنينة، التي توجب له التفكير المنضبط ثم يعقبه السلوك المعتدل.

وعن قصة مقتل حمزة ﷺ يقول جعفر بن عمرو بن أمية الضَّمْرِيّ : (خرجت مع عُبَيْدِ الله بن عَديّ بن الخيار، فلما قَدِمنا حِمْص قال لي عبيد الله بن عدي: هل لك في وحشي نسأله عن قتل حمزة ؟ قلت: نعم. وكان وحشي يسكن حمص فسألنا عنه، فقيل لنا: هو ذاك في ظل قصره، قال فجئنا حتى وقفنا عليه بيسير، فسلمنا؛ فرد السلام ...ثم قال: ألا تخبرنا بمقتل حمزة ؟ قال: نعم، إن حمزة قتل طُعَيْمَة بن عدي بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جبير بن المطعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حُرٌّ، قال: فلما أن خرج الناس عام عينين. وعينين جبل بحيال أحد، بينه وبينه واد. خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سباع فقال: هل من مبارز ؟ قال فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: ياسباع، يا ابن أمِّ أنمار مقطعة البظور، أَتُحَادُّ الله ورسوله ﷺ ؟ قال ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب .

قال: وكمنْتُ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني قتلته بحربتي فأضَعُها في ثُنَّتِهِ حتى خَرَجَتْ من بين وَرِكِهِ، قال: فكان ذلك العهد به. فلما رجع الناس رجعت معهم، فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلام. ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رُسُلاً، فقيل لي: إنه لا يهيج الرُّسلَ، قال: فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ، فلما رآني قال: آنت وحشي ؟ قلت: نعم. قال: أنت قتلت حمزة ؟ قلت: قد كان من الأمر ما بَلَغك. قال: فهل تستطيع أن تُغَيِّبَ وجهك عني ؟ قال فخرجت. فلما قُبض رسول الله ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب، قلت لأخرجن إلى مسيلمة لعلي أقتله فأُكافئَ به حمزة. قال: فخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجل قائم في ثَلمةِ جدار كأنه جمل أورق ثائر الرأس، قال: فرميته بحربتي. فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه. قال: فوثب رجل من الأنصار فضربه بالسّيف على هامته)[1].

ومن فوائد هذه الرواية شجاعة حمزة رضي الله عنه وبسالته، وأن وحشي لم يقتله بالمواجهة، وإنما قتله غيلة. ويتبين من هذه الرواية كريم خُلُقه ﷺ حتى عرف الناس عنه مكارم الأخلاق، حيث قالوا لوحشي : إنه لا يهيج الرُّسلَ. أي لا ينالهم بمكروه. وفي الرواية حرص النبي ﷺ على المزيد من التثبت، طالما أن الفاعل موجود، حيث سأله ﷺ (آنت وحشي ؟ قلت: نعم. قال: أنت قتلت حمزة؟) ومن حبه ﷺ لعمه حمزة، وكريم خُلُقه مع قاتل حمزة، أن قال لوحشي: (فهل تستطيع أن تُغَيِّبَ وجهك عني ؟) وقد استخدم ﷺ في توجيهه أسلوب السؤال الذي يحمل المعنى والمقصد، وهذا من لطيف وجمال خُلُقه ﷺ وحُسن أسلوبه في التوجيه. وفي هذه الرواية أيضاً استشعار وحشي لعظم ما صنع بحمزة رضي الله عنه فقرر أن يقتل مسيلمة الكذاب مكافأة لقتله حمزة.

---

[1] البخاري(٣/١٠٨-١٠٩) برقم (٤٠٧٢)

وقد مثَّلت هند بنت عتبة والنساء اللاتي معها بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدعن الآذان والأنوف، وبقرت عن كَبد حمزة فلاكتها.[1] وعندما رأى رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب قد بُقِرَت بطنه، ومُثِّل به، فَجُدِعِ أنفه وأُذناه حزن عليه حزناً شديداً، فقال عليه الصلاة والسلام (لن أصاب بمثلك أبدا ! ما وقفت موقفاً قط أغيظ إليَّ من هذا ! ثم قال جاءني جبريل، فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وأسد رسوله)[2]

ومن فوائد هذه المعركة قوله ﷺ (فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع؛ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)[3] فهذا عمرو بن قيس يمثل مَنْ دخل في الإسلام على آخر لحظة من حياته، فعن أبي هريرة ﷺ قال (إن عمرو بن قيس كان له ربا في الجاهلية، وكان يمنعه ذلك الربا من الإسلام حتى يأخذه، فجاء ذات يوم ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بأحد، فقال: أين سعد بن معاذ ؟ فقيل: بأحد، فقال: أين بنو أخيه ؟ قيل: بأحد، فسأل عن قومه، قالوا: بأحد، فأخذ سيفه ورمحه، ولبس لامته، ثم ذهب إلى أُحُد، فلما رآه المسلمون، قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال: إني قد آمنت، فحمل، فقاتل، فَحُمِل إلى أهله جريحاً. فدخل عليه سعد بن معاذ، فقال له: جئت غضباً لله ولرسوله ؟ أم حمية لقومك ؟ قال: بل جئت غضباً لله ولرسوله، فقال أبو هريرة : فدخل الجنة وما صلى لله صلاة)[4]

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٩٦-٩٧)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/١٠١-١٠٢)

(٣) البخاري (٤/٣٩٥-٣٩٦) برقم (٧٤٥٤)

(٤) الحاكم (٣/٢٨)

وفي نفس الوقت أتى رجل يُقال له قُزْمان، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكر له: إنه من أهل النار. فلما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً، فَقَتَل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس، فأثبتته الجراحة، فاحتُمِل إلى دار بني ظفر، فجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قُزْمان، فأبشر، قال: بماذا أبشر ؟ فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت. فلما اشتدت عليه جراحاته أخذ سهماً من كنانته فَقَتَلَ به نفسه.[1]

وفي هذا معجزة من معجزاته ﷺ إذ أخبر عن أمر قُزْمان قبل موته. ويفيد كذلك أهمية الإخلاص لله تعالى، وأهمية خاتمة الإنسان، وأن يسأل المسلم ربه حُسن الخاتمة.

وعن كثرة مساهمة الأنصار في أُحُد والغزوات والمعارك، وكثرة الشهداء منهم، ما رواه قتادة ﷺ قال: (ما نعلم حياً من أحياء العرب أكثر شهيداً أغرَّ يوم القيامة من الأنصار. قال قتادة: وحدثنا أنس بن مالك: أنه قُتِلَ منهم يوم أُحُد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون. قال: وكان يوم معونة على عهد رسول الله ﷺ ويوم اليمامة على عهد أبي بكر يوم مسيلمة الكذاب)[2]

يتبين من هذه الرواية أسلوب التقرير ثم الاستدلال، وهو أحد أساليب البحث العلمي، حيث قرر قتادة ﷺ كثرة وتفوق عدد الشهداء من الأنصار، ثم ذكر الأدلة المتتابعة على ذلك. كما تفيد هذه الرواية شجاعة الأنصار رضي الله تعالى عنهم، وكذا تفانيهم لرسول الله ﷺ ولدين الله تعالى.

وبعد نهاية المعركة، يقوم رسول الله ﷺ بدفن الشهداء رضي الله تعالى عنهم، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، (أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٩٣-٩٤)

[2] البخاري (٣/١١٠) برقم (٤٠٧٨)

في ثوب واحد، ثم يقول: أيهم أكثر أخذاً للقرآن ؟ فإذا أشير له إلى أحد قدَّمه في اللحد، وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة، وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصل عليهم، ولم يُغسلوا.)[1]

ويبين هذا الحديث مكانة القرآن العظيم ومنزلته التي رفعت منزلة أصحابه، فكان ﷺ يقدم الأكثر أخذاً للقرآن الكريم، مما يؤكد أهمية التربية والتعليم القائمة على العناية بكتاب الله تعالى. كما يبين هذا الحديث تقديم أهل القرآن والعناية بهم، وأن كِبَر السن لا يتقدم به على آخذ القرآن العامل به.

وقد كان للنساء مهام قمن بها في هذه المعركة، فعن أنس ﷺ قال:(.... ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأمُّ سُليم وإنهما لمشَمرّتَان أرى خَدَمَ سُوقهما تُنقِزانِ القرب على متونهما تُفْرِغَانِه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتُفرِغانه في أفواه القوم)[2]

وفي هذا الحديث دلالة على شجاعة وقوة عزيمة أم المؤمنين عائشة وأم سُليم رضي الله تعالى عنهما. وأنه من شدة عملهما وانشغالهما تظهر خلاخيلهن، وهما ينقلان القِرَب مسرعات لسقاية الجيش. وأما تلك الرؤية من الصحابي، فهي تكون من الإنسان عن غير قصد.

قال ثعلبة بن أبي مالك (إن عمر بن الخطاب ﷺ قَسَّم مُروطاً بين نساء من نساء أهل المدينة، فبقي منها مِرْطٌ جيد، فقال له بعض مَنْ عنده: يا أمير المؤمنين، أعط هذا بنت رسول الله ﷺ التي عندك ـ يريدون أُمَّ كلثوم بنت علي ـ فقال عمر: أم سُلَيْطٍ أَحق به. وأم

(١) البخاري (٣/١١٠) برقم (٤٠٧٩)

(٢) البخاري (٣/١٠٦) برقم(٤٠٦٤)

سليط من نساء الأنصار، ممن بايع النبي ﷺ قال عمر: فإنها كانت تُزْفِرُ لنا القِرَب يوم أحد)[1]

يبين هذا الحديث عناية واهتمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأحوال النساء، وكذا عدلهرضي الله عنه، وكذلك توضح هذه الواقعة كثرة الخير الذي ساد المدينة في عهده رضي الله عنه حتى أنه قسم مروطاً ـ أي: كساء تتلفع المرأة به ـ على جميع نساء المدينة. وقد خص بالمرط الزائد أم سُليط لأنها كانت تحمل القرب في غزوة أحد. ليعطي بهذا نموذجاً إدارياً وتربوياً في قضية التعامل والحرص على تحري العدل، ثم الاجتهاد في إكرام ذوي الخصائص، كما أنه رضي الله عنه بين العلة للناس فيما خص به أم سُليط، حتى لا يكون في صدر أحد منهم حرج. كما يبين هذا الحديث المشاركة النسوية في معركة أحد، والدور الذي قمن به في جيش المسلمين.

السرايا والغزوات في أعقاب أُحُد:

تتابعت السرايا والغزوات النبوية بعد معركة أحد، حيث ظهر للأعداء منها أن المسلمين يمتلكون القوة التي يدفعون بها شر من أرادهم بشر، وأن ما حصل لهم في غزوة أحد لم يثن عزيمتهم:

ـ غزوة حمراء الأسد:

لما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول اللهﷺ في الناس، بطلب العدو: أن لا يخرجن معنا أحدٌ إلا أحدٌ حضر يومنا بالأمس.[2]

فخرج معه ﷺ أصحابه، دون توان أو تراخ، وهم الذين خرجوا من غزوة أُحُد، على ما أصابهم من الجراح والمشقة، ولكنها الطاعة لله ولرسوله ﷺ

(١) البخاري (٣/١٠٨) برقم (٤٠٧١)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/١٠٧)

فهذا رسول الله ﷺ يعود من معركة أُحُد بروح قوية، بعيدة عن الانهزامية، يتعقب قريشاً، ليريهم أن المسلمين لا زالوا بخير وقوة، يدرؤون عن المدينة أعداءها. وفي هذه القوة والجلادة والعزيمة والحكمة؛ ما يُقَدِّمُ للمسلمين درساً في أهمية استشعار القوة والجلادة، وعدم الركون إلى الضعف والخور.

قال ابن إسحاق: وإنما خرج رسول الله ﷺ مُرْهِباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يُوهِنْهم عن عدوهم.(1)

إضافة إلى أنه ﷺ حدد صفة الذين يحق لهم الخروج في هذه الغزوة، وهم أولئك الذين شاركوا في غزوة أحد، فأثر الغزوة لا زال في أذهانهم، والرَّغبة والشدة منهم أقوى على عدوهم الذي قاتلهم.

وقد أمر رسول الله ﷺ معبد بن أبي معبد الخزاعي، أن يلحق بأبي سفيان بالروحاء فَيُخَذله، ولم يعلم بإسلامه، فوجد أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرة على المسلمين يريدون استئصالهم، فأخبره معبد بخروج المسلمين إلى حمراء الأسد، ونصحهم بالرحيل إلى مكة.(2)

فرجع المشركون عن عزمهم لما علموا من أمر المسلمين، فدفع الله تعالى عنهم كيد الكائدين.

وهكذا استخدم رسول الله ﷺ الحكمة في دفع العدو، وبالتالي يرسم ﷺ لأمته أهمية أخذ الأمور بحكمة، ودفع الشر بحكمة، وأن لا يطلب المرء الأمور بالهوى وعدم التعقل والتبصر. فكيف وبعض الناس من المسلمين في أصقاع الدنيا يعالجون كثيراً من الأمور وهم في معزل عن تدبر منهجه وسيرته ﷺ فلا يرون إلا الهدف والوسيلة، دون نظرٍ إلى أنواع الوسائل،

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (١٠٧/٣)

(2) المرجع السابق (١٠٨/٣-١٠٩)

وأسس اختيار الوسيلة، وترجيحها على غيرها من الوسائل، وإلى كيفية استخدام الوسيلة، ومتى تكون ؟ وعلى أي وجه تكون ؟ وأي الوسائل تُقدم ؟ وأيها يُؤخر ؟ ومتى تُقدم ؟ ومتى تؤخر ؟

لذلك فإن من الأهمية بمكان أن يتدبر المسلم سيرة المصطفى ﷺ بعين ثاقبة، وعقل حصيف، وبهدف الإفادة منها في التطبيق، وليس للمعرفة دون تطبيق.

ـ سرية أبي سلمة :

بلغ رسول الله ﷺ أن بني أسد بقيادة طُليحة وسلمة ابني خويلد قد ساروا في قومهما ومن أطاعهما، لحرب رسول الله ﷺ فعقد رسول الله ﷺ لواء لأبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وبعث معه مائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار إلى قَطَن[١] وهو جبل بناحية فَيد، به ماء لبني أسد بن خزيمة. فخرج وأَغْذَّ السير، ونكّب عن سنن الطريق وسبق الأخبار، فأغار على سرح لهم، فتفرقوا، وأصاب المسلمون إبلاً وشاء، ولم يلقوا أحداً. فانحدر أبو سلمة بذلك إلى المدينة.[٢]

ويتبين من هذه الواقعة، تجرؤ بعض القبائل إثر معركة أُحُد، مما دفعها أن تفكر وتتهيأ لغزو المدينة، ولكن رسول الله ﷺ ما أن علم بخبر بني أسد حتى هيأ لهم من أصحابه من يغزوهم ويصدهم. وهذا يبين فطنة الرسول ﷺ وحكمته في صد عدوان المعتدين، بمباغتتهم قبل مجيئهم إلى المدينة، ثم تظهر فطنة أبي سلمة في مسابقته الخبر، ومخالفة سنن الطريق المعتادة، حتى لا يكشف أمرَه أحد، فيغنمهم الله تعالى ما شاء من الإبل والشاة، ويعودون دون قتال.

---

(١) وهو جبل يقال له كذلك (قُطُن) في عقلة الصقور، يبعد عن المدينة المنورة تقريباً نحو (٣٠٠) كيلاً، من جهة القصيم. وهو جبل ضخم ومرتفع، ظاهرٌ من بين غيره من الجبال.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٥٠)

ـ سرية عبد الله بن أُنيس :

عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال دعاني رسول الله ﷺ فقال (إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بعرنة، فأته، فاقتله، ....فلما انتهيت إليه قال: من الرجل ؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لهذا، قال: أجل، أنا في ذلك، قال: فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكنني حملت عليه السيف، حتى قتلته)[١]

ويتبين من هذه الواقعة أن رسول الله ﷺ لم يستخدم السيف مع الرجل إلا بعد أن عرف بأنه يجمع الناس لمقاتلته ﷺ فأجهز عبد الله بن أنيس الجهني على خالد بن سفيان الهذلي، الذي اعترف بأنه يجمع الناس لهذا الأمر.

ومن فوائد هذه السرية بيان ما يجب أن يكون عليه القائد من اليقظة، والدراية بما يجري حوله من مؤامرات الأعداء، حتى يقضي عليها بحكمة وبصيرة. واختيار الأكفأ لكل مهمة.

ـ سرية الرَّجِيع :

قدم على رسول الله ﷺ بعد أُحُد رهطٌ من عَضَل والقارَة، وهم من الهون بن خزيمة بن مُدْركة، فقالوا: يا رسول الله ! إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يُفقِّهوننا في الدين، ويُقرئوننا القرآن، ويُعلموننا شرائع الإسلام. فبعث رسول الله ﷺ معهم نفراً ستة، وأمَّر عليهم مرثد بن أبي مرثد. حتى إذا كانوا على الرجيع، وهو ماء لهذيل غدروا بهم.[٢]

وفي البخاري أن الذين بعثهم رسول الله ﷺ عشرة، وعلَّق ابن حجر على ذلك بقوله: فلعل الثلاثة الآخرين كانوا أتباعاً لهم، فلم يحصل الاعتناء بتسميتهم....(وأمر عليهم عاصم بن ثابت) وما في الصحيح أصح.[٣]

---

(١) أحمد، المسند (٣/٤٩٦)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/١٧٨-١٧٩)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٧/٣٨٠)

وسبب خروج بني لحيان عليهم قتل سفيان بن نبيح الهذلي على يد عبد الله بن أنيس.[1] ولحيان هو ابن هذيل نفسه، وهذيل هو ابن مدركة بن الياس بن مضر.[2]

وعن أبي هريرة ﷺ قال:(بعث رسول الله ﷺ عشرةً عَيناً وأَمَّرَ عليهم عاصمَ بن ثابت الأنصاري جدَّ عاصمِ بِن عمرَ بن الخطاب، حتى إذا كانوا بالهدة بين عُسفان ومكة ذُكروا لحَى من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رامٍ، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر في منزل نزلوه، فقالوا تمر يثرب، فاتبعوا آثارهم. فلما حسَّ بهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى موضع فأحاط بهم القوم، فقالوا: انزلوا فأعطوا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً. فقال عاصم بن ثابت: أُيها القوم، أمَّا أنا فلا أنزل في ذمة كافر. ثم قال: اللهم أخبر عنا نبيك ﷺ فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق، منهم خُبَيبٌ وزيد بن الدَّثِنَة ورجل آخر. فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيِّهم فربطوهم بها. قال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أصحبكم، إن لي بهؤلاء أسوة ـ يريد القتل ـ فجرَّروهُ وعالجوه، فأبى أن يصحبهم. فانطُلِقَ بخبيب وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بعد وقعة بدر، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيباً ـ وكان خبيب هو قاتل الحارث بن عامر يوم بدر ـ فلبث خبيب عندهم أسيراً حتى أجمعوا قتله، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحد بها، فأعارته، فدرج بُنَيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاه، فوجدته مُجْلِسهُ في فخِذِهِ والموسى بيده. قالت: ففزعت فزعة عرفها خبيب. فقال: أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك. قالت: والله ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب، والله لقد وجدته يوماً يأكل قِطْفَاً من عنب في يده، وإنه لَمُوثَقٌ بالحديد، وما بمكة من ثمرٍ. وكانت تقول إنه لرزق رزقه الله خبيباً. فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحِلّ قال لهم خبيب: دعوني أصلي

(١) المرجع السابق (٧/٣٨٠)

(٢) المرجع السابق (٧/٣٨١)

ركعتين، فتركوه فركع ركعتين، فقال: والله لولا أن تحسِبوا أن ما بي جَزَعٌ لَزدْت. ثم قال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً ثم أنشأ يقول:

فلستُ أبالي حينَ أُقتَلُ مسلماً على أَيِّ جَنبٍ كان لله مَصرعي
وذلك في ذاتِ الإلهِ وإن يَشأ يُباركْ على أوصالِ شِلوٍ ممزَّعِ

ثم قام إليه أبو سِرْوعَة عُقبةُ بن الحارث فقتله. وكان خبيبٌ هو سَنَّ لكل مسلمٍ قُتِلَ صبراً الصلاةَ. وأخبرَ - يعني النبيَّ ﷺ - أصحابهُ يومَ أصيبوا خبرَهم. وبَعثَ ناسٌ من قريشٍ إلى عاصم بن ثابت حين حُدِّثوا أنه قُتل أن يؤْتَوا بشيءٍ منه يُعرف - وكانَ قَتَلَ رجلا عظيماً من عظمائهم - فَبعثَ الله لعاصم مثلَ الظُّلةِ منَ الدَّبْر فحمَتْهُ من رُسُلهم، فلم يَقدروا أن يَقطعوا منه شيئاً)[1].

وسواء خرجوا عيناً أو لتعليم عضل والقارة، فالقضية مرتبطة بالتعامل والخديعة أثناء مواجهة الصحابة.

ففي الواقعة ما يدل على الاهتمام بأنواع نوى التمور ومصادرها، وأنه من تمر يثرب، حتى أنهم عرفوا من خلالها أثر الصحابة، وفي هذا إمعان العقل في القرائن بما يُسْتَدَلُ به على النتائج.

فلقد استخدم أولئك القوم الغدر والخديعة، بالرغم من إعطاء العهد والميثاق.

وفي الحديث ثقة عاصم بربه عزَّ وجلَّ أنه سيُبلغ رسوله ﷺ بأمرهم، "فاستجاب الله لعاصم، فأخبر رسوله ﷺ خبره، فأخبر أصحابه بذلك يوم أُصيبوا"[2] وفي هذا دلالة على أهمية الثقة بالله تعالى، وأن من سلك ما يحبه الله تعالى ويرضاه وَفَّقَهُ في دعائه، مما يؤكد أهمية غرس هذه الجوانب العقدية الإيمانية في القلوب، حتى تزكو بها النفوس وتتقوى.

---

(١) البخاري (٨٩/٣) برقم(٣٩٨٩)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٣٨١/٧)

وتُظْهِر الواقعة أمانة خبيب بن عدي ﷺ فلم يغدر بطفلهم، أو يتخذه رهينة، ومعه الموس التي يمكن أن يفعل بها ما يريد. وهذا من وفائه ﷺ حيث قال: (ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إليَّ ! ثم خلّى سبيله.)(١)

بل ومن كرم الله تعالى له أن يأكل العنب وما بمكة من ثمر، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وفيه إثبات الكرامة. كما أن في خبره ﷺ محبته للصلاة، فلم يأخذه فزع المصيبة المقبل عليها وهولها على قلبه عن صلاة يصليها لله تعالى، بل من حبه لها أن قال: (والله لولا أن تحسِبوا أن ما بي جَزَعٌ لَزِدْت.)

فكيف والمسلم في فسحة من أمره وهو يتهاون في الصلاة المكتوبة، فضلاً عن محبة وأداء نوافل الصلوات.

ثم لم يكن سلاحه في ذلك الموقف إلا الدعاء، فدعا عليهم، "فلبد رجل في الأرض خوفاً من دعائه...فلم يحل عليهم الحول ومنهم أحدٌ حي غير ذلك الرجل الذي لبد بالأرض"(٢)

ثم نسج مشاعره ﷺ في قصيدة رائعة المعاني، إذ تحمل في طياتها الصبر وعدم الجزع، ومحبة الإسلام والذود عنه، وعدم الرضا بما هو دونه، فقدم رضي الله تعالى عنه أنموذجا رائعاً في أمانته وصلاته وصبره وقوة إيمانه.

وعن ابن حجر: وفيه الوفاء للمشركين بالعهد، والتورع عن قتل أولادهم، والتلطف بمن أُريد قتله، وإثبات كرامة الأولياء، والدعاء على المشركين بالتعميم، والصلاة عند القتل،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١٨٢/٣)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٣٨٣/٧)

وفيه إنشاء الشعر، وإنشاده عند القتل، ودلالة على قوة يقين خبيب، وشدته في دينه، وفيه أن الله تعالى يبتلي عبده المسلم بما شاء، كما سبق في علمه ليثيبه.(١)

وأما زيد بن الدّثنّة فإنهم عندما هموا بقتله، قال له أبو سفيان بن أمية: أَنْشُدُك الله يا زيد، أتُحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه، وأنت في أهلك ؟ قال: والله ما أُحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه؛ تُصيبه شوكة تُؤذيه وأنا جالس في أهلي.(٢) فأعلن زيد خالص محبته لرسوله ﷺ وهو أمام السيف والنطع، فيؤكد للكافرين ويبين لهم مكانة رسول الله ﷺ في قلبه، ويقدم للمؤمنين درساً ومنهجية فيما يجب أن تكون عليه محبة رسول الله ﷺ وبالتالي يعطي صورة لمن قد تربى التربية الإيمانية الصحيحة بمنهجية المصطفىﷺ

ولما قُتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه، ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شُهيد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أُحُد: لئن قَدَرت على رأس عاصم لتشربَنّ في قِحْفه الخمر، فمنعه الدَّبر (الزنابير والنحل) فلما حالت بينه وبينهم الدبرّ. وقد كان عاصمٌ قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركاً أبداً.(٣) قال ابن حجر: وفيه استجابة دعاء المسلم، وإكرامه حياً وميتاً.... وإنما استجاب الله له في حماية لحمه من المشركين ولم يمنعهم من قتله لما أراد من إكرامه بالشهادة، ومن كرامته حمايته من هتك حُرْمَتِه بقطع لحمه. وفيه ما كان عليه مشركو قريش من تعظيم الحرم والأشهر الحرم.(٤)

سرية بئر معونة :

عن أنس ﷺ قال: (جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا: أن ابعث مَعَنَا رجالاً يعلمونا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار، يقال لهم : القراء، فيهم خالي حَرَام،

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٣٨٥.٣٨٤/٧)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١٨١/٣)

(٣) ابن هشام (١٨٠/٣) وابن حجر، فتح الباري (٣٨٤/٧)

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٣٨٥/٧)

يقرؤون القرآن، ويتدارسون بالليل يتعلمون. وكانوا بالنهار يجيئون بالماء، فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء، فبعثهم النبي ﷺ إليهم. فعرضوا لهم فقتلوهم، قبل أن يبلغوا المكان، فقالوا: اللهم ! بلغ عنا نبينا؛ أنا قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنا. قال: وأتى رجُلٌ حراماً، خال أنس، من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه. فقال حرام: فُزْتُ ورب الكعبة ! فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: إن إخوانكم قد قُتِلُوا. وإنهم قالوا: اللهم ! بلغ عنا نبينا، أنا قد لقيناك، فرضينا عنك، ورضيت عنا)[1]

ويتبين من هذه الرواية، عناية الرسول ﷺ واهتمامه بتعليم الناس أمور دينهم، وأنه يتعامل مع الناس على ظاهرهم ما لم يتبين خلاف ذلك، وهو الخُلُق النبيل الذي كان يتصف به ﷺ وهو ما يجب أن يتحلى به الإنسان المسلم مع من يتعامل معهم، ولا سيما في ميدان العمل والمهنة والأصدقاء، ومع سائر المسلمين. لما في ذلك من طرد للأوهام التي قد تكون حواجز وهمية بين الناس.

وفيه فضل الأنصار، وشدة اهتمامهم بالقرآن الكريم، حتى أن هؤلاء السبعين يُسَمّون بالقراء، ولقد كان من صفات أولئك الرجال الأفذاذ أنهم جمعوا عدداً من الصفات التي حازوا بها على الخير والفضل:

- يقرؤون القرآن.
- ويتدارسون بالليل يتعلمون.
- وكانوا بالنهار يجيئون بالماء، فيضعونه في المسجد.
- ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء.

---

(1) مسلم (١٥١١/٣) برقم (٦٧٧) وعند البخاري أن رِعلاً وذكوان وعُصَيَّةَ وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو، فأمدهم بسبعين من الأنصار.... البخاري (١١٣.١١٢/٣) برقم (٤٠٩٠)

إن هؤلاء يقدمون أنموذجاً تربوياً واجتماعياً ونفسياً غاية في الروعة. وجدير بأن تحتضنه المناهج الدراسية للمسلمين، لما فيه من الإيثار، والصفاء والعطاء، وسلامة النفس، فيقدمون مثلاً رائعاً في طلب العلم، من اهتمام بالقرآن الكريم، وتدارس بالليل للعلم، وتطبيق عملي بالنهار، يتواصلون به مع المجتمع المدني، فيأتون بالماء للمسجد النبوي، ليشرب الناس ويتوضؤون، ثم يكدحون ويعملون باحتطاب الحطب، ويذهبون به إلى السوق ليبيعوه، فيغنون بذلك أنفسهم، ويُطْعِمُون به أهل الصفة والفقراء. وبالتالي فإن هذا العمل لا يمكن أن يأتي من نفس تحمل خبثاً أو حقداً وحسداً، أو تحمل اعتلالاً نفسياً، أو عقداً اجتماعية، فلذلك يمثل هذا الحدث أَنموذجاً تربوياً يحسن أن يستفاد منه عملياً.

ثم تأتي الفاجعة بقتلهم جميعاً في الطريق، قبل أن يبلغوا المكان، فيدعون الله تعالى أن يبلغ أمرهم رسول الله ﷺ قائلين: (اللهم ! بلغ عنا نبينا؛ أنا قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنا.) فيبلغ هذا الدعاء وهذا الحدث في حينه لرسول الله ﷺ فَيُخْبر به أصحابه. فلقد استجاب الله تعالى دعاءهم، الأمر الذي ينبغي إدراكه في استجابة الدعاء، وهو الصلاح: الصلاح النفسي من الحقد والحسد والبغضاء للمسلمين؛ وغير ذلك من مساوئ الأخلاق، وكذا الصلاح السلوكي الذي ينعكس على تصرفات الإنسان مع المجتمع، وقبل كل ذلك صلاح الإنسان مع ربه عزَّ وجلَّ، حيث كانوا يهتمون بالقرآن وتَعَلُّمِه ومدارسة العلم.

ثم يبين خال أنس رضي الله تعالى عنهما: فوزه بالشهادة في سبيل الله تعالى، حينما أحس بطعنة الرمح، قائلاً: (فُزْتُ ورب الكعبة !) مما يدلل على قوة إيمانه بعقبى ذلك الغدر؛ وهو ذاهب في سبيل الله تعالى، وهكذا يكون المؤمن مُحْسِناً لعقيدته في ربه تبارك وتعالى

ومن فوائد هذه الواقعة المؤلمة أن الابتلاء قد يصيب المسلم الصالح أو المسلمين الصالحين بفواجع مؤثرة ومؤلمة، فها هم سبعون من القراء يُقتلون في يوم واحد، وقبلهم عشرة

في سرية الرجيع، وبالتالي يدرك المؤمن أن ما يصيبه أو يصيب الأمة من بلاء وابتلاء لا يعني النهاية ولا التخاذل، بل يعلم أن خير البشرية قد أصيب في أصحابه الميامين، وقد أصيب في معركة أُحُد ﷺ بل يجب أن يسلي المؤمن نفسه بما أصاب رسول الله ﷺ وأصحابه الميامين رضي الله تعالى عنهم.

وفيه من الفوائد أيضاً معجزة للنبي ﷺ إذ أخبر أصحابه الخبر حين وقوعه، بما أخبره الله تعالى به من خبر السبعين.

غزوة بني النضير:

وأما وقعة بني النضير فقد، قال الزُّهري عن عروة: كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر؛ قبل وقعة أُحُد. وجعله ابن إسحاق بعدَ بئر معونة وأُحد.[1]

وسبب إجلائهم تكرار الغدر منهم برسول الله ﷺ فقد خططوا للغدر برسول الله ﷺ حين خرج إليهم يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر اللذين قَتلهما عمرو بن أمية الضّمري للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف، فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذَيْنك القتيلين، قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نُعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه. ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد. فمَن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جِحاش بن كعب، فقال : أنا لذلك، فصعد ليُلقي عليه صخرة. فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة. فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه، قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مُقْبِلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ

---

[1] البخاري (٩٧/٣) باب رقم (١٤) حديث بني النضير

حتى انتهوا إليه ﷺ فأخبرهم الخبر، بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم.(١)

وهذا النص يبين حفظ رسول الله ﷺ للمواثيق، فهو يجمع دية الرجلين من بني عامر، "وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ (لقد قتلت رجلين لأَدِيَنّهُمَا)"(٢)

كما يبين هذا الحدث المكر والخديعة والغدر من اليهود مع وجود الوثيقة معهم، بل إنهم أشعروه ﷺ بمساندتهم وتجاوبهم في دفع الدية، ثم يختلون ببعضهم ليمكروا به عليه الصلاة والسلام، ولكن الله تعالى الحكيم العزيز، عالم الغيب والشهادة، يوحي إلى نبيه ورسوله بمكرهم وخديعتهم. وهذا يدلل على أن اليهود يسعون في الأرض فساداً بأساليبهم الماكرة، وأن الأمان منهم عزيز الجانب، بل من المستحيلات.

ومن غدرهم تجاوبهم مع كفار قريش، ذلك (أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أُبي ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نُقسم بالله لتقاتلنه أو لتُخرجنه أو لنسيرنَّ إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم، فلما بلغ ذلك عبدالله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال النبي ﷺ فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم. فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحَلْقَة والحصون، وإنكم لتقاتلُنَّ صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خَدَمِ نسائكم شيء ـ وهي الخلاخيل ـ فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/١٩٩-٢٠٠)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٣٥٤)

أجمعت بنو النضير بالغدر. فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ : اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخرج منا ثلاثون حَبْراً، حتى نلتقي بمكان الْمَنْصَف، فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك؛ آمنا بك، (فقص خبرهم)، فلما كان الغد، غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم، فقال لهم: إنكم والله لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه. فأبوا أن يُعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا الغد على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا على بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، فجلت بنو النضير؛ واحتملوا ما أقلَّت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، فكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة، أعطاه الله إياها وخصَّه بها، فقال (وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) يقول: بغير قتال، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين، وقَسَمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار، وكانا ذوي حاجة، لم يقسم لأحد من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة لرسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة رضي الله عنها)[1]

وتبين مجريات هذا الحديث أن كفار قريش يعملون من جهتهم ويسعون للإطاحة برسول الله ﷺ وأن أذاهم يتابع المسلمين حتى في المدينة، وهم في منأى عنهم، ولكنهم يدركون أن قوة الرسالة وتجاوب من كتب الله لهم الهداية يقوي شوكة الإسلام التي ستنعكس عليهم وبالاً. مما يبين أن أهل الكفر يخشون من تمدد الإسلام وانتشاره، لأنه يقضي على كل معبود من دون الله تعالى، وبالتالي يتحتم الحذر من الكفر والكافرين.

كما توضح مجريات هذا الحدث الخيانة التي قد تمركزت في اليهود، وأصبحت سمة من سماتهم.

---

[1] ابو داود (٣/٤٠٤،٤٠٧) برقم (٣٠٠٤)

ومن فوائد الرواية: استخدام الحكمة في دفع الشر، فعندما علم رسول الله ﷺ بتجاوب ابن أبي ومن معه من عُبَّادِ الأوثان مع كفار قريش وعزْمِهِمْ على مقاتلته ﷺ استخدم معهم الحكمة في معالجة الموقف، فقال لهم: (لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم. فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا)

فيرسم رسول الله ﷺ ويبين بهذا العمل الأهمية الكبرى للحكمة في معالجة الأمور، وفي قضية من أكبر القضايا الإسلامية، التي هي مقاتلة المسلمين والمكر بهم، الأمر الذي يبين أهمية العناية بالمسلك النبوي في معالجة القضايا.

ثم يتكرر الغدر من يهود بني النضير بحيلة ومكر وخديعة كما بينته الرواية، فأجلاهم رسول الله ﷺ بعد أن تكرر الغدر منهم، وتبين أن وجودهم شر محض، وكفر وعداوة لله ولرسوله ﷺ

ومن وفائه ﷺ أنه لما أجلى بني النضير أقرَّ قريظة حتى حاربت، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال (حاربت[1] قريظة والنضير، فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومَنَّ عليهم حتى حاربت قريظة، فقتل رجالهم، وقسَّم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فآمنهم وأسلموا. وأجلى يهود المدينة كلهم: بني قينقاع وهم رهط عبدالله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود المدينة)[2]

ثم يأتي كرم رسول الله ﷺ بعد أن أفاء الله تعالى عليه بالفيء فيعطي أكثرها للمهاجرين وقَسَمها بينهم، فهم الذين أُخرجوا من مكة وتركوا أموالهم يرجون رضوان الله وفضله، فلم ينس لهم رسول الله ﷺ تلك الهجرة المباركة، فيعلمنا الوفاء، وعدم الاكتراث بالدنيا وزينتها، فما عند الله خير وأبقى، كما أنه عليه الصلاة والسلام يقسم لرجلين من

[1] حاربت: أي نصبت العداء.

[2] البخاري (٩٧/٣) برقم (٤٠٢٨)

الأنصار، وكانا ذوي حاجة، فكانت نظرته ﷺ واسعة تشمل أصحابه جميعاً فيعطي المستحق والمحتاج، ويواسي الفقير بما يجد، ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر ﷺ

ويعطينا القرآن العظيم عن إجلاء يهود بني النضير ما لا تستطيع العقول أن تدركه بتأملها ودراستها، ليتأكد محدودية العقل البشري، فقد أنزل الله تعالى سورة الحشر في بني النضير، فعن سعيد بن جبير قال (قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: قل: سورة بني النضير)[١]

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ ﴾[٢]

فبينت آيات مطلع السورة أن الله تعالى هو الذي أخرجهم من ديارهم بقدرته وتدبيره وحكمته سبحانه وتعالى لأول الحشر. فذهب بعضهم إلى أذرعات من أعالي الشام، وهي أرض المحشر والمنشر، وعن ابن عباس قال: من شك أن أرض المحشر ههنا؛ يعني الشام فليقرأ هذه الآية (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر)[٣]

وإن إجلاءهم ما كان متوقعاً عند المؤمنين في مدة حصارهم وقصرها، وقد كانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها.[٤] وظن بنو النضير أن في حصونهم من المنعة والقوة ما يمنع المسلمين من دخولها واقتحامها، وبالتالي كانت المعادلة الظنية من الفريقين أن الأمر في غاية

---

(١) البخاري (٩٧/٣) برقم (٤٠٢٩)

(٢) سورة الحشر: آيات رقم (١. ٤)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٥،٣٥٣/٤)

(٤) المرجع السابق (٣٥٢/٤)

الصعوبة، ولكن جنود الله تعالى لا يحصيها أحد من خلقه، وسُبُل نصره لا يحيط بها أحد من عباده، فهو المتفرد في كونه سبحانه وتعالى، يُقدِّر ما يشاء، ويصنع ما يشاء كيف شاء، فقذف في قلوب اليهود الرعب والخوف والهلع الذي زعزع قلوبهم وأفئدتهم، فتضاءلت القوة المادية؛ واضمحلت في عيونهم وتصاغرت، وأصبحوا يرونها لا تغني عنهم شيئاً، فأصبحت الشجاعة جبناً، والقوة ضعفاً، والمنعة مسلكاً ليناً هيناً مكشوفاً، وأضحى الفكر باهتاً عاجزاً، والحيلة غير مجدية، فخارت كل القوى، فصالحوا رسول الله ﷺ على أن لهم ما حملت الإبل، فأخذوا يخربون بيوتهم التي بنوها بأيديهم، ويُنقضون سقوفها وأبوابها، ليحملوا ما يستطيعون حمله. فذلك جزاء الظالمين، لتكون عبرة لأولى الأبصار الذين أمرهم الله تعالى بأخذ العبرة من هذا الأمر العظيم ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾

فالعبرة من هذا الأمر العظيم للكافر في مآل الكفر والكافرين، ونصرة الله تعالى لدينه العظيم، وللمسلمين بأن لا يركنوا للأسباب المادية فقط، وأن لا تكون حساباتهم وتقديراتهم تتمحور في محيطها، فإن اتقوا وأخلصوا فدروب النصر عند الله أكثر من أن يدركها البشر، أو يُحيط بها أحد من العالمين.

ولقد بين الله سبحانه وتعالى خلجات الأنفس في هذا الحدث؛ وما كنا لنعرفها لولا أن مَنَّ الله تعالى علينا ببيانها لنستفيد ونأخذ منها الدروس والعبر، فسبحانك اللهم تعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور.

وهذه الأحداث اليهودية تؤكد عملياً أن الكفار لا أمان لهم، وأن موالاتهم فساد على المسلمين، إذ يسري شرهم ومكرهم وكيدهم بين المسلمين وهم لا يشعرون به. والموالاة غير المعاملة في حدود الضوابط الشرعية. ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ

وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾[1]

غزوة بدر الموعد:

وعن ابن سعد[2] أنها كانت لهلال ذي القعدة، على رأس خمس وأربعين شهراً من مهاجرهﷺ

لَمَّا أراد أبو سفيان بن حرب أن ينصرف يوم أحد، نادى: الموعد بيننا وبينكم بدر الصفراء، رأس الحول، نلتقي بها، فنقتتل. فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: قل: نعم إن شاء الله، فافترق الناس على ذلك.[3]

وهذا يبين ما عزمت عليه قريش بعد نهاية غزوة أحد، وكذا يبين شجاعة رسول الله ﷺ بقبول الموعد، وربطه اللقاء بمشيئة الله تعالى، الأمر الذي يربي في الإنسان المسلم ربط إرادته بمشيئة الله تعالى، فما شاء الله كان؛ وما لم يشأ لم يكن.

ثم رجعت قريش فَخَبَّرُوا من قبَلَهم بالموعد؛ وتهيأوا للخروج. فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج، وقَدِم نُعيم بن مسعود الأشجعي مكة، فقال له أبو سفيان: إني قد واعدت محمداً، وأصحابه أن نلتقي ببدر، وقد جاء ذلك الوقت، هذا عام جدب، وإنما يُصلحنا عام خصب غيداق، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج فيجترئ علينا، فنجعل لك عشرين فريضة يضمنها لك سهيل بن عمرو، على أن تقدم المدينة، فَتُخَذِّل أصحاب محمد، قال: نعم،

---

[1] سورة آل عمران: آية رقم (٢٨)

[2] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٥٩.٦٠) وقد تم تلخيصه

[3] المرجع السابق (٢/٥٩)

ففعلوا وحملوه على بعير، فأسرع السير، فقدم المدينة، فأخبرهم بجمع أبي سفيان لهم، وما معه من العدة والسلاح.[١]

وهكذا عزمت قريش على إنفاذ وعدها، ولكن العوامل المناخية، جعلتهم يتراجعون عن مرادهم، وهنا تأتي عوامل التعلق بالأسباب فقط عند غير المسلمين، وهذا ما لا يكون عند المسلمين، حيث يربطون بين الأسباب ورب الأسباب، ولذلك خرج رسول الله ﷺ وأصحابه، إنفاذاً للموعد، وإظهاراً لقوة المسلمين التي هي إظهار لقوة الإسلام، غير مكترثين بالمناخ والجدب في ذلك الوقت.

ثم إن قريشاً أرسلت نُعِيم ليخذل عنهم المسلمين، بتخويفهم من عتادهم وعدتهم حتى لا يخرج المسلمون، فيعلم العرب بذلك، فيكون المسلمون هم السبب في عدم الالتقاء. ولكن رسول الله ﷺ قال: (والذي نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحدٌ!) فنصر الله المسلمين وأذهب عنهم الرعب. فاستخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن رواحة، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، وسار في المسلمين. وهم ألف وخمسمائة، وكانت الخيل عشرة أفراس، وخرجوا ببضائع لهم وتجارات.[٢]

ثم ها هو رسول الله ﷺ يقسم بربه في الخروج إليهم ولو كان منفرداً، بثقة في الله تعالى، وعدم تَعَلُّقٍ بغير الله جلَّ جلاله، فنصر الله المسلمين بقوة الإيمان والشجاعة والإقدام، فخرجوا مع رسولهم ﷺ مما يبين أهمية أن يتمثل القائد بالشجاعة والإقدام، والتعلق بالله تعالى، فإن ذلك خير معين له على التفاف جنده معه، وهذا ينسحب على قرارات الإنسان في إدارته ومهنته وأسرته ومجتمعه.

---

[١] المرجع السابق (٥٩/٢)

[٢] المرجع السابق (٥٩/٢)

ثم يكون استخلاف ابن رواحة على المدينة، وقد سبق بيان أهمية الاستخلاف وفوائده في معركة بدر الكبرى.

ثم ها هم المسلمون يغنمون هذا السفر؛ بأن كف الله عنهم عدوهم، وحقق لهم مكاسب تجارية عظيمة، الدرهم بدرهم، فقد كانت بدر الصفراء مجتمعاً يجتمع فيه العرب، وسوقاً تقوم لهلال ذي القعدة، إلى ثمان تخلو منه، ثم يفترق الناس إلى بلادهم، فانتهوا إلى بدر ليلة هلال ذي القعدة وقامت السوق صبيحة الهلال، فأقاموا بها ثمانية أيام، وباعوا ما خرجوا به من التجارات، فربحوا للدرهم درهماً وانصرفوا، وقد سمع الناس بسيرهم، وخرج أبو سفيان بن حرب من مكة في قريش وهم ألفان، ومعهم خمسون فرساً حتى انتهوا إلى مجنة، وهي مر الظهران، ثم قال: ارجعوا فإنه لا يُصلحنا إلا عام خصب غيداق نرعى فيه الشجر، ونشرب فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب فإني راجع فارجعوا.[1]

ولا شك أن مكاسب المسلمين في هذه الغزوة عظيمة، حيث خذل الله عدوهم برجوعه، وربحوا تجارة مادية عظيمة، وأطاعوا رسولهم ﷺ وَوَفّوا بوعدهم، وتدربوا على الصبر والجلادة، وانتشر خبرهم بين القبائل، خاصة وأن السوق قد انعقدت، وبالتالي قد عَلِمَ خَلْقٌ كثير بأمر رسول الله ﷺ وأصحابَه، مما يقوي شوكة المسلمين ويرفع من مهابتهم بين القبائل.

---

[1] المرجع السابق (٣/٦٠)

غزوة ذات الرقاع:

غزوة ذات الرقاع، وهي غزوة محارب خَصَفَةَ من بني ثعلبة من غطفان.[١]

وقد اختُلِفَ في تاريخها، وسبب تسميتها، وخصفة هو ابن قيس بن عيلان بن الياس بن مضر، ومحارب هو ابن خصفة، وهم بطن من قريش.[٢]

(خرج النبي ﷺ إلى ذات الرقاع، من نخل، فلقي جمعاً من غطفان، فلم يكن قتال، وأخاف الناس بعضهم بعضاً، فصلى النبي ﷺ ركعتي الخوف)[٣]

ونخل هو موضع من نجد، من أراضي غطفان.[٤] وقد كفى الله المؤمنين قتال عدوهم، حيث لم يكن قتال بين الطرفين. وقد صلى بهم ﷺ صلاة الخوف، لما أخاف الناس بعضهم بعضاً، وفيه مشروعية صلاة الخوف إذا حصل الخوف.[٥]

وفي الحديث التالي رواية لصفة صلاة الخوف (أن طائفة صَفَّت معه، وطائفة وُجَاهَ العدو، فصلى بالتي معه ركعة، ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا، فصفُّوا وُجَاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته، ثم ثبت جالساً، وأتموا لأنفسهم، ثم سلم بهم.)[٦]

ومن أحداث هذه الغزوة ومشاقها ما رواه أبو موسى الأشعري ﷺ قال (خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن في ستة نفر، بيننا بعير نعتقبه، فَنَقِبَت أقدامنا، ونُقِب قدماى، وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخِرَق، فسميت غزوة ذات الرِّقاع؛ لما كنا نعصب

[١] البخاري (٣/١٢٠) اسم الباب رقم (٣١)
[٢] ابن حجر، فتح الباري (٧/٤١٧-٤١٨)
[٣] البخاري (٣/١٢٠) برقم (٤١٢٧)
[٤] ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٢١)
[٥] ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٢١)
[٦] البخاري (٣/١٢١) برقم (٤١٢٩)

من الخرق على أرجلنا. وحدَّث أبو موسى بهذا الحديث، ثم كره ذاك، قال ما كنت أصنع بأن أذكره، كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه.)[1]

وفي الحديث أن ممن كان مع أبي موسى الأشعري ستة نفر من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وكانوا يتعاقبون على بعير، أي يتناوبون عليه، هذا يركب قليلاً وهذا يركب بعده قليلاً، وفي هذا التعاقب ما يدل على الجهد وقلة الرواحل التي كان يمتلكها المسلمون، وأنها لا تفي بعددهم، كما أن في ذلك صبر المسلمين وجلدهم، وتحملهم للمشقة في سبيل الله تعالى، حتى نقبت أقدامهم، أي خَفَّت من كثرة المشي عليها، فكانوا يُعالجون ذلك الأمر بلف الخِرَق عليها، ولذلك سُمِّيَت هذه الغزوة بذات الرقاع.

ويشير أبو موسى الأشعري ﷺ أنه قد حصل له ما حصل لمن معه، وأنه قد سقطت أظفاره رضي الله تعالى عنه، نتيجة ما بلغ به من جَهد المشي. وكل هذا يبين قدر المعاناة والمشقة التي كان يجدها الصحابة في سبيل الله تعالى، فقدموا لمن بعدهم القدوة الصالحة؛ المطيعة لله تعالى ولرسوله ﷺ مما يؤكد أن واجب من بعدهم أن يحفظوا هذا الدين بالقيام بواجباته؛ وحقوقه التي لا يسع المسلم التهاون فيها أمام الصحابة الذين بذلوا أنفسهم وأجسامهم وراحتهم، وتكبدوا المشاق والصعاب في سبيل هذا الدين، فكيف يسع المسلم أن يُضيع ذلك الجهد والصنيع العظيم.

ثم يضرب أبو موسى مثلاً رائعاً في الإخلاص لله تعالى، وحفظه لجناب التوحيد، وحمايته مما قد يؤثر فيه، كما جاء في الحديث (ثم كره ذاك، قال ما كنت أصنع بأن أذكره، كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه)

---

(1) البخاري (٣/١٢٠.١٢١) برقم (٤١٢٨)

مما يؤكد أهمية العناية بالأعمال الصالحة التي يقوم بها المسلم، بأن لا يفشيها للناس، فماذا يستفيد من ذلك ؟ قال ابن حجر: إن كتمان العمل الصالح أفضل من إظهاره، إلا لمصلحة راجحة، كمن يُقتدى به.[١]

ومن وقائع هذه الغزوة وأحداثها ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، (أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العِضاه، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة، فعلق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ : إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً، فقال لي: من يمنعك مني ؟ قلت: الله. فها هو ذا جالس، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ)[٢]

يبين هذا الحديث، استظلال المسلمين بظلال الأشجار وقت الظهيره، التي هي القائلة، حتى لا يواجهوا شدة حرارة الشمس، وهذه من القضايا الصحية التي يعتني بها الناس، وقد استراحوا في واد كثير العضاة، وهو الشجر يعظم شوكه، وقيل هو العظيم من السمر مطلقاً

وفي الحديث شجاعته ﷺ وتوكله على الله تعالى، فقد علَّق سيفه في الشجرة التي استظل تحتها، لأنه من المعتاد أن لا يجرؤ الغريب على الدخول بين قوم متناثرين تحت الشجر، ولقد جاء ذلك الأعرابي فأخذ سيف المصطفى ﷺ وهو نائم فجرده من غمده فأصبح صلتاً، ويقول للنبي ﷺ من يمنعك مني ؟ فقال عليه الصلاة والسلام بثقة في ربه تبارك وتعالى: الله. وفي هذا الجواب المختصر ما يدل على قوة توكله ﷺ وشجاعته، وقال ابن

---

[١] ابن حجر، فتح الباري (٤٢١/٧)

[٢] البخاري (١٢٢،١٢١/٣)

حجر: وفي ذلك غاية التهكم به، وعدم المبالاة به أصلاً....وكأن الأعرابي لما شاهد ذلك الثبات العظيم، وعَرَف أنه حيل بينه وبينه، تحقق صدقه، وعلم أنه لا يصل إليه، فألقى السلاح وأمكن من نفسه.[١]

ثم يأتي الحلم النبوي الكريم، حيث حَلِمَ على الأعرابي، ولم يعاقبه، فيوجهنا ﷺ بدرس تربوي عظيم في هذا الموقف، وهو العفو عند المقدرة والتمكن، وأجمل به من خُلُق في كل موقف! خاصة عندما يكون في داخل الأسرة، فيعفو عمن أساء إليه من الأهل والأقارب، وما أجمله وما أقوى أثره عندما يظهر في دائرة المهنة وإدارة العمل، وما أبهاه عندما يكون مع الأصدقاء والزملاء والجيران، وما أقوى أثره عندما يكون مع الكفار ؟ فإنه دعوة للإسلام في رسالة من العفو والصفح.

وقد ذُكر أن هذا الأعرابي قد أسلم ورجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير.[٢]

غزوة دومة الجندل:

ثم غزا رسول الله ﷺ دُومة الجندل، ثم رجع قبل أن يصل إليها، ولم يلق كيداً.[٣]

غزوة المُرَيْسِيْع (بني المُصْطَلِق)

وقد كان ذلك في شعبان؛ سنة خمس من الهجرة.[٤] وبني المِصْطَلِق من خُزَاعة[٥] ولهم ماء يقال له المريسيع، من ناحية قديد إلى الساحل. وقد بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار، فلما سمع بهم النبي ﷺ خرج إليهم[٦] وأغار

---

[١] ابن حجر، فتح الباري (٤٢٧/٧)

[٢] المرجع السابق (٤٢٨/٧)

[٣] ابن هشام، السيرة النبوية (٢٢٤/٣)

[٤] ابن حجر، فتح الباري (٤٣٠/٧)

[٥] البخاري (١٢٢/٣)

[٦] ابن هشام، السيرة النبوية (٣٠٢/٣)

عليهم، فقد جاء في الحديث (أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارُّون، وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل مُقَاتِلَتَهُم، وسبي ذراريهم، وأصاب يومئذ جويرية)[١]

وهي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية، فكانت بنت رئيس قبيلتها بني المصطلق، وقد وقعت في السبي، وقُتِلَ زوجها في الغزوة، ووقعت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، فكاتبها ثابت على نفسها على تسع أواق، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تستعينه في فكاكها، فعرض عليها الزواج؛ وقضى عنها، فخرج الخبر إلى الناس، فقالوا: أصهار رسول الله ﷺ يُسْتَرَقُّون ! فأعتقوا ما كان في أيديهم من سبي بني المصطلق، فبلغ عتقهم مائة أهل بيت؛ بتزويجه إياها، فتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها: (فلا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها.)[٢]

وقد حف بهذه الغزوة موقفان آثمان للمنافقين، تتكشف فيها مظاهر التخذل وإثارة الفتنة بين صفوف المسلمين، وهما :

موقف التأليب والوعيد الكاذب:

فعن زيد بن أرقم، قال: (كنت في غَزاة، فسمعت عبد الله بن أُبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليُخرجن الأعزُّ منها الأذل. فذكرتُ ذلك لعمِّي - أو لعمر - فذكره للنبي ﷺ فدعاني، فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدَّقه، فأصابني هم لم يُصبني مثلُهُ قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله

---

[١] البخاري (٢/٢١٩) برقم (٢٥٤١)

[٢] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٨/١١٦-١١٧)

ﷺ ومَقتَك، فأنزل الله تعالى (إذا جاءك المنافقون) فبعث إليَّ النبي ﷺ فقرأ فقال: إن الله صدَّقكَ يا زيد)[1]

إن هذا الموقف من ابن أُبي يسجل ما في صدور المنافقين من غل، وأمنيات أن ينخذل رسول الله ﷺ وأصحابه، وأن يتم طردهم من المدينة، وما حَسِب أولئك أن الله ناصر دينه ونبيه ﷺ والمؤمنين. ثم يسجل الله تعالى تلك المقولة عليهم في القرآن الكريم؛ لتكون قرآناً يُتلى وهم يسمعونه، وفي هذا تتبين صورة من صور المعجزات، وهي أن الله تعالى عالم بما هم عليه، وبما قالوه، فوعاه زيد ﷺ وأخبر به النبي ﷺ فنزلت الآيات بالعبارات التي تلفظ بها عبد الله بن أبي، وقد أضيف إليها وصفاً جسمياً وخلقياً ونفسياً للمنافقين. فأخلاقهم مبنية على الكذب، إذ يُظهرون عكس ما يبطنون، ويبطنون عكس ما يُعلنون، مُتخذين أيمانهم وقاية لهم؛ وذريعة وستاراً يتخفون فيه، لِتُحْقَن دماؤهم وتُحفظ أموالهم. وأما نفسياً، فإن هذا المسلك النفاقي يدلل على الطوية القلبية التي تعاني منها هذه الشخصيات، من الحسد والحقد، وحب الذات المتكبرة عن الحق، وهم جبناء وضعاف قلوب، يحسبون كل صيحة هي عليهم، لما يعرفون عن أنفسهم من الباطل الاعتقادي والخُلُقي. وأما جسمياً، فهي تلك الصفات البدنية التي تُعجب من يراها. قال تعالى عنهم ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

[1] البخاري (٣/٣٠٩) برقم (٤٩٠٠)

ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (١)

ومن فوائد الحديث السابق: قبول الظاهر من الإنسان، وقبول يمينه، فلقد قبل رسول الله ﷺ منهم ظاهرهم وأيمانهم، بأنهم لم يقولوا ذلك. قال ابن حجر: وفي الحديث من الفوائد ترك مؤاخذة كبراء القوم بالهفوات لئلا ينفر أتباعهم، والاقتصار على معاتبتهم، وقبول أعذارهم، وتصديق أيمانهم؛ وإن كانت القرائن تُرشد إلى خلاف ذلك، لما في ذلك من التأنيس والتأليف، وفيه جواز تبليغ ما لا يجوز للمقول فيه، ولا يُعد نميمة مذمومة إلا إن قصد بذلك الإفساد المطلق، أما إذا كانت فيه مصلحة ترجح على المفسدة فلا.(٢)

وفي الحديث نصرة الله تعالى لزيد ﷺ على المنافقين الذين حلفوا أيماناً بأنهم ما قالوا. وفي هذا بيان لأهمية الإيمان والصبر أثناء الانزعاج؛ عندما يواجه المسلم ما يكره وما لا يحب في حياته، ويعلم أن الله تعالى ناصره عاجلاً أم آجلاً. كما يتبين من هذا الموقف أهمية تَقبل توجيه ولي الأمر وإن كان شاقاً، فإن عاقبته خير بإذن الله تعالى.

وعن سفيان، قال عمرو: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال (كنَّا في غَزاة ـ قال سفيان مرة في جيش ـ فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمع ذاك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى جاهلية ؟ قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: دعوها فإنها منتنة. فسمع بذلك عبد الله بن أبي، فقال: فعلوها ؟ أما والله لئن رجعنا إلى

(١) سورة المنافقون: آيات رقم (١-٨)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٦٤٦/٨)

المدينة ليُخرجن الأعزُ منها الأذل. فبلغ النبي ﷺ فقام عمر ﷺ فقال: يا رسول الله دعني أضرب عُنقَ هذا المنافق، فقال النبي ﷺ : دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.)[١]

فهذا رجل من الأنصار يكسع رجلاً آخر، والكسع هو ضرب الدبر باليد أو الرجل، فينادي بقومه، وينادي الآخر بقومه، فيسمع رسول الله ﷺ تلك الكلمات، فيبين أن هذا من دعوى الجاهلية، أي أن هذا الأمر الحزبي قد ولى وانتهى أمره، فالمسلمون إخوة، في نصرة المـُخْطَى عليه؛ حتى يأخذ حقه، فليست هناك قبلية ولا عرقية، ولا حزبية، مما يؤكد أهمية العناية بهذا الأمر تربوياً، لينصهر أفراد الأمة في نور الإسلام وحده.

وعندما سمع بذلك عبد الله بن أُبي، قال: فعلوها ؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُ منها الأذل. ليظهر المزيد من نفاقه، ولتكشف علانيتُه طويتَه، فلا تخفى على أحد، حتى وصفه عمر بن الخطاب ﷺ بالمنافق.

وفي مقولة المنافق عبد الله بن أبي ما يثير الفتنة وتفريق الكلمة بين المهاجرين والأنصار. وبالتالي فإن المؤمن يبتعد كل البعد عن هذه المنهجية السبئية أثناء الاجتماعات والمنتديات والمحافل المهنية والأسرية والاجتماعية، لأنها مما يبغضه الله تعالى ورسوله، ولأنها منهجية نفاقية خسيسة.

ثم تظهر عزيمة المؤمن القوي عمر بن الخطاب ﷺ فيطلب من رسول الله ﷺ أن يأذن له بضرب عنق المنافق، كَحَلٍ يراه رضي الله تعالى عنه؛ لهذا الباطل النفاقي، ولكن رسول الله ﷺ يُعَلِّم أمته الأسلوب الأمثل في مثل هذا الموقف، فقال النبي ﷺ : (دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.) فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح. وهنا تظهر أهمية سعة الأفق عند اتخاذ القرار، وبعد النظر عند معالجة المواقف، بتأمل تبعاتها وآثارها، وهذا ما

[١] البخاري (٣/٣١٠) برقم (٤٩٠٥)

يجب أن تكون عليه العملية الإدارية والسياسية الحصيفة، بل وحتى المعالجة الدعوية والتربوية والاجتماعية؛ ينبغي أن تستفيد من هذا الموقف في تطبيقاتها العملية.

إن الحكمة مطلب شرعي، إذا غَفَلَ عنها المسلمُ، ولم يبحث القضايا التي تعترضه من خلالها؛ حاد عن جادة الطريق، وكم من الأخطاء التي تقع فيها الأمة أو الأفراد بسبب فقدان تلك الرؤية الممتلئة بالحكمة المحَقِقَة للمصلحة الراجحة.

ذكر ابن هشام: ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصَدْرَ يَومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وَجَدوا مس الأرض، فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليُشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس.[1]

حديث الإفك :

كان حديث الإفك سنة خمس، بعد نزول الحجاب؛ الذي كان في ذي القعدة سنة أربع. وكانت قصة الإفك في رجوعهم من غزوة المريسع.[2]

وتفصيل حديث الإفك كما ورد في صحيح البخاري، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما أُنزل الحجاب...)[3]

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٠٤)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٣٠)

(٣) البخاري (٣/١٢٣-١٢٦) برقم (٤١٤١)

وفي الحديث مشروعية القرعة.[1] وعدله ﷺ بين أزواجه، بأن يقرع بينهن إذا أراد سفراً.

من مميزات أسلوب عرض المعلومة في هذا الخبر؛ أن أظهرت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها أولاً المبدَأ أو القاعدة التي يأخذ بها رسول الله ﷺ وهي القرعة، ثم بعد ذلك بينت تطبيقه لهذا المبدأ في الغزوة التي خرجت فيها. ثم من تناسق عرض الحدث وجمع أطرافه المتعلقة به أن ذكرت أمر الحجاب لما له من علاقة بتفاصيل سيأتي بيانها، وهذا من حذقها الفكري وجمال تراكيب تبعات الكلام وأحداثه، وسلامة منطقها وحُسْنِ حِسِّهَا اللغوي رضي الله تعالى عنها.

ثم تقول أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها (...فكنت أُحملُ في هودجي وأُنْزَلُ فيه. فسرنا حتى إذا فَرِغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقَفَل؛ ودنونا من المدينة قافِلين؛ آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جَزْع ظَفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه. قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يُرَحِّلوني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه ـ وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يَهبُلْن ولم يَغشَهن اللحم، إنما يأكلن العُلقةَ من الطعام ـ فلم يستنكر القوم خِفةَ الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثةَ السِّنّ، فبعثوا الجمل فساروا...)[2]

فتبين رضي الله تعالى عنها أسلوب حمل الهودج، بأنه كانت تُحمل وتُنْزَلُ في هودجها وهم لا يرونها، لما للهودج من أستار تُغطيه، وفي هذا دليل على حشمتها ووقارها رضي الله تعالى عنها، وكذا عناية من يقوم بحمل الهودج من أصحاب رسول الله ﷺ

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٤٥٨/٨)

(2) البخاري (١٢٦-١٢٣/٣) برقم (٤١٤١)

ويتبين من الحديث أن واقعة حديث الإفك كانت عند عودتهم من الغزوة وقد اقتربوا من المدينة. وأنها لما قضت حاجتها رضي الله تعالى عنها لمست صدرها فوجدت أن عقدها ليس عليها، وهو من جَزْع ظَفَار، وجَزْع أي خَرَز معروف؛ في سواده بياض؛ كالعروق، وأظَفار أحد أنواع القسط وهو طيب الرائحة يُتَبخر به، فلعله عُمل مثل الخرز، فأطلقت عليه جزعاً تشبيهاً به، ونظمته قلادة، إما لحسن لونه أو لطيب ريحه.[1]

وفي أثناء بحثها عن عقدها حمل المعنيون بالهودج الهودج؛ وهم يحسبون أنها رضي الله تعالى عنها بداخله؛ لخفة بنيتها الجسمية وصغر سنها، ثم تُبَيِّنُ رضي الله تعالى عنها ما غَلَب على النساء من خفة أجسامهن في ذلك الوقت، ولعله لشظف العيش، حيث يأكلن العلقة أي القليل الذي يُسكن الرمق، وبالتالي فإنهن لم يهبلن أي يكثر اللحم عليهن فتثقل حركتهن.

فقد بينت رضي الله تعالى عنها ما يمكن أن يقع من تساؤل عن رفع الهودج دون الشعور بأنه خالٍ من صاحبته، وهذا دليل على عمق وأثر ذلك الحديث النفاقي على نفسيتها رضي الله تعالى عنها؛ حتى بينت دقائق وعلل القضية، فَتَجَسَّدَ في أسلوبها المنهجية التي يتعلم منها المتعلم والباحث والمظلوم في دعوته كيف يبين القضية وأطرافها؛ والعلل المتعلقة بها، بما يُجيب على كل تساؤل قد يرد.

كما أنها التمست للمعنيين بأمر الهودج العذر، ولم تحملهم مسؤولية رحيلهم براحلتها وهي ليست بداخل هودجها، وهذا من تمام أخلاقها وواقعيتها في التعامل، وهي في أحلك مصيبتها، ولكم يحتاج المرء هذا الخُلُق العظيم؛ في تقييمه وتعليله لكثير من قضاياه، دون أن يُحَمِّل غيره ما ليس منهم.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٤٥٨/٨/٤٥٩)

ويقول ابن حجر رحمة الله تعالى عليه: فكأنها تقول: كأنها لخفة جسمها بحيث أن الذين يحملون هودجها لا فرق عندهم بين وجودها فيه وعدمه، ولهذا أردفت ذلك بقولها: وكنت جارية حديثة السن.... ويستفاد من ذلك أيضا أن الذين كانوا يرحلون بعيرها كانوا في غاية الأدب معها، والمبالغة في ترك التنقيب عما في الهودج، بحيث أنها لم تكن فيه وهم يظنون أنها فيه....وكونها جارية حديثة السن؛ لأنها أُدخلت على النبي ﷺ بعد الهجرة في شوال، ولها تسع سنين، وأكثر ما قيل في المريسع .. أنها سنة ست فتكون لم تُكمل خمس عشرة. فإن كانت المريسع قبل ذلك فتكون أصغر من ذلك.[1]

ثم تقول رضي الله تعالى عنها: (...ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت. وكان صفوان بن المعطَّل السُّلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سوادَ إنسان نائم، فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلمنا بكلمة واحدة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نُزول...)

ومن لطف الله تعالى بها أن وفقها الله تعالى إلى المكوث في مكانها الذي نزلوا فيه؛ وإلا ربما تاهت بين مفترقات الطرق، ومن كريم لطف الباري اللطيف الرحيم أن غلبتها عينها ـ رضي الله تعالى عنها ـ في مكان ليس به أحد، وفي ليل مظلم في البرية، قال ابن حجر: يُحتمل أن يكون سبب النوم شدة الغم الذي حصل لها في تلك الحالة، ومن شأن الغم ـ وهو وقوع ما يكره ـ غلبة النوم؛ بخلاف الهم وهو توقع ما يكره؛ فإنه يقتضي السهر،...أو أن الله

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٨/٤٦٠)

سبحانه وتعالى لطف بها فألقى عليها النوم لتستريح من وحشة الانفراد في البرية بالليل.[1] فما على المؤمن إلا الاستعانة بالله اللطيف الخبير، فالنوم والسِنَةُ نعمة منه تبارك وتعالى، وحصولها وقت الشدائد تفضل منه ونعمة.

ومن فوائد وجود صفوان ﷺ وراء الجيش الحصول على ما ينساه الناس خلفهم، مما خَفَّ حمله، نتيجة الكثرة، وإنها لعملية ذات أهمية بالغة حتى في نُزُهات الناس، وترحالهم ومعسكراتهم.

ثم يتبين كرم أخلاق صفوان بن المعطل، وما تفاجَأ به، فيسترجع ﷺ والاسترجاع قول: إنا لله وإنا إليه راجعون. وعلاوة على ما في الاسترجاع من الخير، فإن فيه تنبيه لأم المؤمنين بوجوده، حتى تتأهب فتختمر، كما قالت أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها (فخمَّرتُ وجهي بجلبابي) وفي هذا دليل على تغطية الوجه عن الأجانب، ثم تبين أدب صفوان الجم ﷺ وحشمتها رضي الله تعالى عنها إذ تقول: (ووالله ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه.) فوالله إنه لغاية الأدب والتعظيم لأم المؤمنين رضي الله تعالى عنها. فقدَّم بذلك ﷺ صورة لما ينبغي أن يتخلق به المسلم من التأدب والحشمة الذي حري بأن يأخذ به ذوو المكارم الخُلُقية.

ثم وطئ على يد الراحلة ﷺ " ليكون أسهل لركوبها، ولا يحتاج إلى مسها عند ركوبها"[2] وهكذا يكون المرء باحثاً عن الأسباب التي تحقق له مكارم الأخلاق والتورع؛ وتحقيق مهابة الله تعالى وإجلاله جلَّ جلاله في تطبيق أوامره ونواهيه.

وقد وصلت أم المؤمنين الجيش في أول وقت الظهيرة، حيث قالت: (موغرين في نحر الظهيرة.) والوغر هو شدة الحر، ونحر الظهيرة أوله.[1]

---

(١) المرجع السابق (٤٦١/٨)

(٢) المرجع السابق (٤٦٣/٨)

ثم تقول عائشة رضي الله تعالى عنها: (...قالت: فهلك من هلك. وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أُبي بن سلول. قال عروة: أخبرت أنه كان يُشاع ويُتحدَّثُ به عنده فَيُقِرُّه ويستوشيه. وقال عروة أيضا: لم يُسمَّ من أهل الإفك أيضاً إلا حسان بن ثابت ومِسطح بن أُثاثة وحَمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم، غير أنهم عصبة .كما قال تعالى . وإن كِبرَ ذلك عبد الله بن أُبي بن سلول. قال عروة: كانت عائشة تكره أن يُسبَّ عندها حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالدَه وعِرضي لعرض محمد منكم وِقاء...)[2]

ثم أشارت رضي الله تعالى عنها إلى من تولى كِبَر الإفك أنه عبد الله بن أُبي بن سلول. وكان من أسلوبه في الحادثة أنه يُقر من يتحدث فيه ويستمع إليه ويستوشيه، أي يستخرجه بالبحث عنه والتفتيش. وهذا الأسلوب من الدهاء والمكر الذي ينبغي أن يبتعد عنه المسلم، لما فيه من استجلاب الحديث وتشجيع المتحدث ليستهويه الكلام، في أي من مجالات الحديث وقضاياه وموضوعاته المحرمة، أو التي قد تؤدي للوقوع في محرم أو مكروه.

كما أن هذا الإفك النفاقي من المنافقين كاد أن يشق صفوف المسلمين، ويغرس الخلاف بينهم، وجلب الهم للرسول ﷺ ولآل بيته الطيبين الطاهرين.

ومن عدلها وإنصافها مع حسان ﷺ، أنها تكره أن يُسَبّ عندها، محتفظة له بما قال عن رسول الله ﷺ وأهله؛ من فداء لهم بأبيه وجده وعرضه. فَتُقَدِّم رضي الله تعالى عنها المنهجية التطبيقية الإسلامية في حفظ الحقوق، وإن بدر ما يكدر ذلك. مبينة لمن ينسى فضل كل ذي فضل عند وقوع الخطأ والزلل منه، أن ذلك ليس من منهج الإنصاف.

---

(١) المرجع السابق (٨/٤٦٣-٤٦٤)

(٢) البخاري (٣/١٢٣-١٢٦) برقم (٤١٤١)

(...قالت عائشة: فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يَرِيبُني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يَدْخُلُ عليَّ رسولُ الله ﷺ فَيُسلم ثم يقول: كيف تيكم ؟ ثم ينصرف، فذلك يَرِيبني ولا أشعر بالشّر...)[1]

فتبين رضي الله تعالى عنها أنها حين قَدِمَتْ المدينة مَرِضَت، وأنها مَكَثت شهراً والناس يخوضون في الإفك وهي لا تعلم بذلك، وفَقَدَتْ ما اعتادته من تلطف رسول الله ﷺ بها؛ حين تشتكي، وهذا من حكمته ﷺ فلم يزدها على مرضها بشيء من حديث الإفك؛ بالرغم من أثره عليه ﷺ ومن مرور شهر والناس يفيضون فيه، وهو صابر، وإنه لدرس في الصبر ودرس في المعاملة، ودرس في الحلم، لحدث عظيم، وأمر ليس باليسير، يخص سيد البشرية في زوجته الطاهرة العفيفة أم المؤمنين بنت الصديق ثاني اثنين إذ هما في الغار، وإنه لأمر جلل، ومصاب عظيم وإفك مختلق مبين، ولكنه الابتلاء الاجتماعي الذي تظهر فيه أساليب النبوة في معالجة الأمر بحكمة وتُؤدة، ليتخذ منه المؤمنون درساً وعبرة، فلئن أُبْتُلِي به خير البشرية، فإنه قد يبتلى به من هو أدنى من ذلك.

ويُستفاد من ذلك أهمية ملاطفة الزوجة، وتركه إذا اقتضى واقع الحال ذلك، مع السؤال عن حالها، وكذا سلام الرجل على أهله، وأن لا يمنعه شيء عن ذلك، كما أن فيه أثر الكلام الاجتماعي والإشاعة السيئة على العلاقات الأسرية، وما تُحدثه من آلام نفسية شديدة. كما أن فيه من الفوائد عدم إخبار المريض بما يسوء حاله، ويزيد من مرضه.

قال ابن حجر: وفيه مراتب الهجران بالكلام والملاطفة.[2]

---

(١) البخاري (٣/١٢٣-١٢٦) برقم (٤١٤١)

(٢) المرجع السابق (٨/٤٧٩).

ثم تبين أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ كيف وصل إلى علمها حديث الإفك، مبتدئة وصف ما كانوا عليه في قضاء الحاجة، فتقول: (...حتى خرجتُ نَقَهْتُ، فخرجتُ مع أم مِسطح ـ قِبَلَ المناصع ـ وكان مُتَبَرزَنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى اليل ـ وذلك قبل أن نتخذ الكُنَف قريباً من بيوتنا، قالت وأمْرُنَا أمرُ العرب الأول في البريَّة قِبَلَ الغائط، وكنا نتأذى بالكُنَف أن نتخذها عند بيوتنا...)[1] [2]

فبعد أن أفاقت من مرضها؛ ولم تكتمل صحتها، وهو معنى نَقَهْتُ. خرجت مع أم مسطح، قبل المناصع، وهو سهل أو صعيد موضع للتبرز. وأن من عاداتهم أن لا يخرجوا إليه إلا ليلاً، وهذا من باب الحياء الذي يمنعهم من الذهاب إليه نهاراً، لئلا يراهُنَّ أحد. وذلك قبل أن تُتَّخذ الكُنَف أي الخلاء أو حمامات قضاء الحاجة قريباً من البيوت. كعادة العرب، وذلك أنهم يتأذون من الروائح فتكون بعيداً. وهذا التفصيل من أم المؤمنين عناية في الوصف؛ ودقة في البيان، فأفادت بما يوضح العلة في خروجها مع أم مسطح، لأن الذي لا يعرف العلة يحصل له التساؤل عن سبب الخروج، فدفعت بالبيان والإيضاح كُلَ لَبْسٍ متوقع. فأفادت عن ما اعتاده العرب في قضاء ذلك.

ثم مزيد من الوصف منها لأمر أم مسطح معها (... قالت: فانطلقت أنا وأم مِسطح ـ وهي ابنة أبي رُهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر، خالةُ أبي بكر الصدِّيق، وابنها مِسطح بن أُثاثة بن عباد بن عبد المطلب ـ فأقبلتُ أنا وأم مسطح قِبَل بيتي حين فرغنا من شأننا، فَعَثَرَتْ أم مسطح في مِرطِها، فقالت: تَعِس مِسطح، فقلت لها: بئس ما قلتِ، أتسُبيِّن رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت: أي هَنَتَاهُ ! ولم تسمعي ما قال ؟ قالت: وقلت: ما قال ؟

(١) البخاري (١٢٣/٣ـ١٢٦) برقم (٤١٤١)
(٢)

فأخبرتني بقول أهل الإفك. قالت: فازددتُ مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ فَسَلَّم ثم قال: كيف تِيكم ؟ فقلتُ له: أتأذن أن آتي أبوي ؟ قالت: وأُريد أن أستيقن الخبر من قِبَلِهما. فأذن لي رسول الله ﷺ فقلت لأمي: يا أمتاهُ ! ماذا يتحدَّثُ الناس ؟ قالت: يا بنية ! هوني عليك. فو الله لقلَّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يُحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله، أو لقد تحدَّث الناس بهذا ؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحتُ، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي ...)[١]

ولما علمت أم المؤمنين بالخبر الذي هالها سبَّحت الله تعالى، مُتعجبة من وقوع مثل ذلك في حقها، مع براءتها المتحققة، فبكت تلك الليلة بكاء لاينقطع لها به دمع، ولا تكتحل منه بنوم، وازدادت مرضاً على مرض.

وأن ما وقع من أم مسطح من سبِّها لابنها مسطح ما يدل على قناعتها ببهتان ما ذُكر عن عائشة رضي الله تعالى عنها، وفي هذا شهادة وتزكية لأم المؤمنين، خاصة وأنها لم تُحاب ابنها وتجامله، وهذا نهج إسلامي اندفعت به أم مسطح رضي الله تعالى عنها إلى التطبيق العملي، مدركة لخطورة الظلم، بما يستوجب عدم المحاباة والمجاملة في الحق؛ حتى مع الابن الذي هو فلذة كبدها. فتعطي بذلك درساً عملياً في صدق الحكم وعدم المجاملة، فكيف بمن يجامل في أمور تافهة بسيطة؛ ليستجلب بها عواطف أناس على حساب آخرين من أمور الحياة الدنيا التي لا ترقى لمثل هذا الحدث العظيم، لذلك فما يحتاجه الإنسان من الضبط السلوكي كثير جداً. قدمت منه أم مسطح صورة وقدوة في ذلك.

---

[١] البخاري (١٢٦،١٢٣/٣) برقم (٤١٤١)

وفيه قول أم مسطح لعائشة رضي الله تعالى عنهما (أي هَنَتَاهُ) وهي كلمة تقال لمن كان غافلاً عن مثل هذا الأمر الذي قد شاع بين الناس، إذ أن أم المؤمنين قد أنكرت على أم مسطح سب ابنها، وفي هذا الإنكار المعلل بشهود بدر، دليل على حفظ مكانة صاحب المنزلة والمكانة، لأن مكانة من شهد بدر عظيمة القدر.

وقد استأذنت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها رسول الله ﷺ في إتيان أهلها، بما يفيد أن على المرأة أن تستأذن زوجها للخروج إلى أهلها.

وأن للمرء أن يتثبت مما يُقال، كما فعلت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها. وأن الزوج يتأثر بما يقال في زوجته، ولكن عليه أن لا يتسرع في الحكم واتخاذ القرار، إذ لم يتخذ عليه الصلاة والسلام قراراً وقد مضى شهرٌ على حديث الإفك. وفيه ملاطفة الأم لابنتها، وتخفيف أحزانها وآلامها.

(...قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد؛ حين استَلْبَثَ الوحي يسألهما؛ ويستشيرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله؛ وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلك ولا نعلم إلا خيراً. وأما عليٌّ فقال: يا رسول الله ! لم يُضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تَصْدُقْك. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بُرَيرةَ، فقال: أي بُرَيرة! هل رأيت من شيء يريبك ؟ قالت: له بريرة: والذي بعثك بالحق، ما رأيت عليها أمراً قط أُغْمِصهُ، غير أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها؛ فتأتي الداجن فتأكله...)[1]

ثم هذا رسول الله ﷺ النبي المجتبى يستشير علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد في الأمر، بما يؤكد أهمية المشورة، فإذا كان رسول الله ﷺ يستشير فإنه من باب أولى أن يستشير

---

[1] البخاري (٣/١٢٣-١٢٦) برقم (٤١٤١)

من هو أدنى منه، مما يؤكد أهمية المشورة، وعدم الاسترسال في الأمر دونما أخذ ما لدى الغير من الرأي، فربما يفتح الله على أحد بما لم يخطر ببال صاحب الأمر.

فيعطي كل واحد منهما ما يرى من المشورة؛ لينظر فيها رسول الله ﷺ ويتأملها، بل ولا يمنع الأمر أن يستشير من هو أصغر منه؛ كما فعل رسول الله ﷺ وكذلك أخذ ما لدى المرأة مما تعرف عن الشيء، فقد سأل رسول الله ﷺ بُرَيرة رضي الله تعالى عنها، والتي كانت تخدم أم المؤمنين عائشة - رضي الله تعالى عنها - فذكرت ما يدل على براءتها من واقع تصرفها، فأشارت أولاً إلى أنها لم تر عليها أمراً تغمصه أي تُعيبه عليها، غير أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، قال ابن المنير: هذا الاستثناء البديع الذي يراد به المبالغة في نفي العيب. فَغَفْلَتها عن عجينها أبعد لها من مثل الذي رُميت به، وأقرب إلى أن تكون من الغافلات المؤمنات.[1]

قال ابن حجر في جواب أسامة بن زيد: أهلُك ولا نعلم إلا خيراً. أي أمسك، ومعناه: هم أهلُك أي العفيفة اللائقة بك.... وعن مشورة علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أن هذا الذي قاله علي، حمله ترجيح جانب النبي ﷺ لما رأى عنده من الغم بسبب القول الذي قيل، وكان ﷺ شديد الغيرة، فرأى عليٌّ أنه إذا فارقها سكن ما عنده من القلق بسببها؛ إلى أن يتحقق براءتها، فيمكن رجعتها، ويُستفاد منه ارتكاب أخف الضررين لذهاب أشدهما، وقال النووي: رأى علي أن ذلك هو المصلحة في حق النبي ﷺ واعتقد ذلك لما رأى من انزعاجه، فبذل جهده في النصيحة؛ لإرادة راحة خاطره ﷺ وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: لم يجزم علي بالإشارة بفراقها لأنه عقب ذلك بقوله: وسل الجارية تصدقك. ففوض الأمر في ذلك إلى نظر النبي ﷺ [2]

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٨/٤٧٠)

(2) المرجع السابق (٨/٤٦٨)

ويستفاد من هذه المشورة اختصاص المشورة بمن لهم دراية بأطراف الموضوع الذي هو مكان المشورة، حتى لا يخوض فيها غير مُدْرِكٍ لجوانبها المختلفة، فعلي ﷺ تربى عند رسول الله ﷺ وهو عارف بالشؤون العامة لبيت رسول الله ﷺ وأسامة بن زيد كعلي في طول الملازمة. وفيه استشارة الأعلى لمن هو دونه.

ويُستفاد من ذلك عدم الجزم بما يقال حتى تتبين الحقيقة، وأخذ الأمر باهتمام لعلاقته بالعِرْض.

ثم تبين أم المؤمنين ما كان من رسول الله ﷺ مع من تولى أمر الإفك (...قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي، وهو على المنبر. فقال: يا معشر المسلمين ! من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي. قالت: فقام سعد بن معاذ، أخو بني عبد الأشهل، فقال: أنا يا رسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عُنُقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام رجل من الخزرج، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه، وهو سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج. قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتمَلَته الحميَّة. فقال لسعد: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحَببتَ أن يُقتل. فقام أُسيد بن حُضير، وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله، لنقتلنه، فإنك منافق تُجادل عن المنافقين. قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يُخفِّضُهم حتى سكتوا وسكت...)[١]

---

[١] البخاري (١٢٦.١٢٣/٣) برقم (٤١٤١)

وفي قيام الرسول ﷺ من يومه على المنبر بخصوص هذا الأمر، ما يبين أهمية معالجة مثل هذا الموضوع وعدم تركه، وكذا تمحيصه لدفع الظلم عن المظلوم. وكذلك إعلان ثقته بأهله وبصاحبه صفوان بن المعطل، وفي هذا ضربة قاسية للمنافقين، من أن ما أرادوا لم يتحقق. ويفيد هذا أن الأصل في المسلم البراءة حتى يثبت عكسه، وأن لا ينجر المرء بدعوى المغرضين الكاذبين.

وفيما دار بين الصحابة ما يبين أنهم بشر، يجري بينهم وعليهم ما يجري بين البشر، وبالتالي فإنهم غير معصومين، فيجتهدون، وقد يختلفون، وهم أقرب إلى الحق والصواب، ويمثلون الرعيل الأول، والسبق للخير، والأمينين الأخيار، وبالتالي على كل مسلم أن ينظر إليهم بعين الاحترام والتقدير، وأن يحفظ أعراضهم من الخوض فيها بما لا يليق بمقامهم. والحقيقة إن هذا الدين نزل على البشر للبشرية، وليكون فيما وقع من أحداث دروس لمن بعدهم ليستفيدوا منها. وأما ما يجري بين الصحابة فليس لأحد من البشر أن يخوض فيه، بالحكم بينهم، أو التهاون في حقوقهم، فهم أصحاب رسول الله ﷺ ولهم من الفضل ما ليس لغيرهم، وليس للأدنى أن يحكم على الأعلى؛ ولكن ليستفيد المؤمن من ذلك بما يقربه من المولى سبحانه وتعالى.

فليتأمل المسلم أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، كما قال عروة: كانت عائشة تكره أن يُسَبَّ عندها حَسان، وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالدَه وعِرضي   لعرض محمد منكم وِقاء...)

فهذا دليل على أن من يتدخل في شؤنهم الخلافية فقد خاض في أمر عظيم، كما يدل هذا من أم المؤمنين رضي الله عنها على مزيد صفائها وطهارة قلبها، وكريم أخلاقها، فتحسب للمحسنين إحسانهم، بما يُفيد المسلم أن لا تُنْسِيه الإساءةُ فضل صاحبها، وإنه والله لدرس

خلقي عظيم تقدمه لنا أم المؤمنين رضي الله عنها، وقد كان حسان ﷺ يستأذن على أم المؤمنين، فقال لها:

حَصَانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ وتُصبِحُ غَرثى من لحوم الغَوافِلِ[1]

ومن فوائد ما دار بين الصحابة أمام الرسول ﷺ وهو على المنبر: أن أصحاب التُّقَى قد يحدث منهم غير ما أُعتيد منهم، وأن لا يُسْقِطَ ذلك حقَهُم في المكانة. ويتبين أسلوبه ﷺ في تهدئة الناس بحكمة وروية، وعدم الشَّد عليهم بما يُعيدهم إلى حالتهم الطبيعية. وأن على الأعلى أن يتقبل ذلك بحكمة، كما فعل ﷺ وهو على المنبر، وبعض أصحابه يتنازعون فيما بينهم. ثم يتعامل معهم بحكمة، فلم يؤنب أو يجرح أحداً، أو يقول تفعلون ذلك أمامي، فبما أعطاه الله تعالى من الرحمة والحلم والحكمة تعامل معهم ﷺ فكم يحتاج الرئيس مع المرؤوسين، والمدير مع العاملين والحاكم مع المحكومين إلى هذه الحكمة؛ وهذا العمل الكريم؛ عندما يحصل بحضرته من مرؤوسيه ما لا يتناسب مع مكانته، أو مكانة المكان.

ومن فوائد تعامله ﷺ فيما حصل من أصحابه أمامه، (حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.) أنه ﷺ يتعامل مع غيره بما اعتاده منهم؛ لا بما يطرأ على تصرفاتهم. بل كان ﷺ يُجري هذا الخُلُق العظيم حتى على ناقته القصواء، فيقول عنها وقد توقفت ولم تتحرك (ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخُلُق)[2] فحكم عليها بما اعتاده منها، ولم يحكم عليها بما طرأ عليها من سلوك. وخلأت الناقة خلاءً إذا حرنت، والحران أن يقف ولا يتحرك وإن ضُرِب.[3]

---

(1) البخاري (٢٦٨/٣) برقم (٤٧٥٦) حصان من التحصن، ورزان من الرزانة أي قلة الحركة، وما تزن أي تُرمى، وغرثى أي خميصة الظن أي لا تغتاب أحداً، والغوافل جمع غافلة أي العفيفة الغافلة عن الشر.

(2) البخاري (٢٧٩/٢) برقم (٢٧٣١)

(3) الحربي، غريب الحديث والأثر (٤/٢)

فالإنسان يجري عليه ما يجري على البشر من مخالفة العادة في سلوكه وتصرفاته، وأخلاقه، نتيجة مفاجآت المواقف والأحداث، ونتيجة التفاعلات العاطفية معها، وما يعتري أحوال النفس الإنسانية من ضعف أو قوة إيمانية. وهذا يوجه المؤمن في سلوكه مع غيره في دائرة عمله ومهنته، ومحيط أصدقائه، وبين أفراد أسرته، وأعضاء مجتمعه، أن يتعامل معهم وفق ما عرفه واعتاده من سلوكهم وأخلاقهم، لا بما يطرأ عليهم من تقلبات نفسية؛ وظروف تفاعلية مع المواقف وأمور الحياة المختلفة والمتقلبة. إذ في ذلك تعزيز للسلوك المنضبط، وتقوية لأواصر العلاقات، بسبب الفهم والإدراك لتقلبات النفس البشرية، وفاعليتها على التصرفات الإنسانية.

فالفرد الذي يتعامل مع كل فرد بحسب ما يصدر عنه من تصرفات سيكون مُتقلب في سلوكه مع الفرد الواحد، فكيف بعشرات الناس الذين يتعامل معهم يومياً. وبالتالي تَسُوء أخلاقُه؛ نتيجة تعامله المتلون والمتغير بتغير أحوال من يخالطونه من الناس، ويكون هذا في رحاب العمل والمهنة، وفي ميدان المجتمع الفسيح، وفي محيط الأسرة من زوجة وأبناء وإخوة وأخوات، ثم في دائرة الأصدقاء.

ومن فوائد هذا الحديث أنه ﷺ لم يحكم لنفسه إلا بنزول الوحي الذي حكم وأجلى الأمر. ونبه لهذا الأمر الشيخ أبو محمد بن جمرة رحمة الله عليه.[١]

ثم تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها أحداث القضية في البيت؛ مبينة مزيداً من ألم مصابها: (...قالت: فبكيت يومي ذلك كله، لا يَرقأُ لي دمع؛ ولا أكتحل بنوم. قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، حتى

---

[١] ابن حجر، فتح الباري (٤٨٠/٨)

أني لأظن أن البكاء فالق كبدي. فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي...)[1]

وتظهر هنا المشاركة الوجدانية من المرأة التي زارت أم المؤمنين ـ رضي الله تعالى عنهما ـ وأخذت تبكي لبكائها، وفي هذا ما يبين مدى حب النساء لعائشة زوج رسول الله ﷺ وفيه ما يفيد أهمية الصداقة وأهمية المشاركة الوجدانية للمصاب بمصيبة.

كما يظهر في هذا المقام أهمية عناية الوالدين بالابن أو البنت عند المصاب، لما في ذلك من الشفقة التي تساعد في التخفيف. كما يتبين من هذا الحديث التزام أبي بكر الصديق رضي الله عنه وزوجته رضي الله تعالى عنها بغاية الصبر والتخلق بالخلق الذي لا يند منهما على ضده.

ثم تبين أم المؤمنين دخول رسول الله ﷺ وهم على تلك الحال: (... قالت: فبينا نحن على ذلك؛ دخل رسول الله ﷺ علينا؛ فسلم ثم جلس. قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، ولقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: أما بعد، يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيُبَرِّؤك اللهُ، وإن كنت أَلْمَمْتِي بِذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه. قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ دمعي حتى ما أُحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال. قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت، وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ من القرآن كثيراً : إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة، لا تُصدقونني، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ ـ والله يعلم أني منه بريئة ـ لتُصدِّقني، فو الله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا

---

(١) البخاري (١٢٣/٣-١٢٦) برقم (٤١٤١)

أبا يوسف حين قال: (فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون) ثم تحولتُ فاضطجعت على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبّرئي بالبريئات. ولكن والله ما كنت أظن أن الله تعالى منزّلٌ في شأني وحياً يُتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يُبَرِّؤني اللهُ بها، فو الله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه؛ ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتى أُنزل عليه...)[1]

ويتبين من هذا المشهد كريم خُلُق النبي ﷺ واكتفائه في حديثه مع عائشة وتساؤلاته لها بالإشارة للحدث دون التصريح به، أو طلب تفاصيل لذلك. وهذا من نزاهة لسانه وعباراته وألفاظه ﷺ مما يُفيد ويبين أهمية هذا المسلك الخُلُقي العظيم الذي ينم عن السمو الخلقي لمن يسلكه في أحاديثه ومناقشاته وتعليمه وتدريسه وتَحْدِيثِه وتَحَدُّثِه مع الناس.

وفي جواب أبي بكر وزوجته لعائشة رضي الله عنهم أجمعين؛ بخصوص الرّد على سؤال رسول الله ﷺ فإن فيه الأدب مع النبي ﷺ في غاية ما يكون، وعدم تقديم العاطفة الأبوية على رسول الله ﷺ في شيء أبداً، بما يعطي درساً تربوياً في كيفية التعامل والانصياع والتأدب مع هذا الدين العظيم، وأن لا تجر العاطفة التعدي عليه بأي صورة من صور التعدي.

كما يدل جواب عائشة رضي الله تعالى عنها لرسول الله ﷺ بأن مثَلَهَا ومَثَلَهُم كأبي يوسف، تعني به يعقوب عليه السلام، ما يدل على فطنتها وذكائها واستحضارها وهي في فراش المرض والهم يصارعها، كما يدل ذلك على عمق فهمها ودرايتها وعنايتها الفقهية والعلمية بما ينزل من الوحي، واهتمامها بالقرآن الكريم، وهذا كله وهي في سن لا يتجاوز الخامسة عشر من عمرها، فكيف لمن هذا فهمها وإدراكها وعلمها أن تُرْمَى بإفك مبين ؟ ولكن لله في خلقه حِكَمٌ وأسرارٌ، فسبحانه وتعالى الحكيم العليم.

---

[1] البخاري (٣/١٢٣-١٢٦) برقم (٤١٤١)

وفي هذا الحديث ما يبين تواضعها رضي الله تعالى عنها بأنها ما كانت تظن أن ينزل فيها قرآن يُتلى، بل كان غاية توقعها أن يرى رسولُ الله ﷺ رؤياً تبرؤها. وفي هذا ما يدل على عدم الاغترار بالمنزلة، وأن لا يرى الإنسان من قوة عبادته ما يجعله يتوقع لنفسه العظيم من الخير، لأن المرء يجتهد ويرى في نفسه التقصير، ومع كل ذلك أحسنت الظن بربها عزَّ وجلَّ، حيث تقول: (وأن الله مبَرِّئي ببراءتي) مما يفيد أهمية إحسان الظن بالله تعالى في الوقت الذي يرى الإنسان من نفسه التقصير الذي يحقر به عمله، حيث قالت رضي الله تعالى عنها: (لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر.) وهذا كله؛ وهي الصديقة بنت الصديق زوجة رسول الله ﷺ وما عُرف عنها من التقى والطهر والعبادة ومحبة رسول الله ﷺ لها، ومحبتها لرسول الله ﷺ.

ثم توضح أم المؤمنين في هذا الحديث نزول الوحي، وكشف الحقيقة من الله تعالى؛ وذلك عندما وصل الْهَمُّ بها ذِرْوَتَهُ، واشتد أمر التنقيب في الإفك، فنزل الوحي من رب العالمين، المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ليفصل الحق من الباطل. فتقول رضي الله عنها: (فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتى أُنْزِل عليه؛ فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاءِ[1]، حتى أنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان. وهو في يوم شات. من ثِقل القول الذي أُنزِل عليه ....فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: (يا عائشة، أمَّا الله فقد برأك.)

ق قالت: فَسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: يا عائشة، أمَّا الله فقد برَّأك، قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: لا والله لا أقوم

[1] البرحاء: شدة الكرب مع العرق. ابن حجر، فتح الباري (٤٧٦/٨) وهو ما يكون عليه صلى الله عليه وسلم حال نزول الوحي بالقرآن الكريم.

إليه، فإني لا أحمد إلا الله عزَّ وجلَّ. قالت: وأنزل الله تعالى (النور:آية ١١) (إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم...) العشر الآيات. ثم أنزل الله تعالى هذا في براءتي. ...)[1]

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

بهذه الآيات الكريمات العظيمات نزلت براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، إضافة إلى ما فيها من الفوائد والمواعظ الأخرى العظيمة (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين)

تفيد هذه الآيات العظيمات الكريمات التي سجلت براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها فوائد جليلة، ودروساً غاية في التثبت والتزام مكارم الأخلاق، فمن ذلك: أن هذا

---

(١) البخاري (١٢٣/٣-١٢٦) برقم (٤١٤١)

الحدث ليس شراً لمن لم يخض فيه، بل هو خير (لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم) ليتضح للمؤمنين في هذا التوجيه الكريم قصور العلم البشري، الذي لا يرى في الحدث إلا صورة الشر، ليبين العليم العظيم أن في ذلك خيراً: من التنويه بذكر أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، ورفع الدرجات وتكفير السيئات. وتعليم المؤمنين دروساً وعظات، والمنهجية الصحيحة في التثبت؛ ومنهجية التعامل مع الإشاعات في مثل هذا الأمر. وتعظيم وعظم هذا البهتان الذي لولا فضل الله تعالى (لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم) وأن هذا الأمر عند الله عظيم؛ وفي أعين الناس أمر يسير (تحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم)

إن من خير هذا الأمر: أن يدرك المؤمنون في كل زمان أن هذا الدين نزل على بشر؛ غير معصومين، فيعلمهم ويربيهم بالمنهجية الربانية التي تربي المؤمن وتبين له المسلك الصحيح فيما يحدث من أمور تحطم العلاقات؛ وتفسد النيات بالظنون الكاذبة؛ والإشاعات والأراجيف الباطلة. بل ومن خير هذا الأمر معرفة مسلك المؤمن عندما يصاب بمثل هذا، في مثل ما تمثلت به أم المؤمنين، وكذا صفوان بن المعطل رضي الله تعالى عنهما. ومن خير هذا الأمر معرفة المنهج النبوي في التعامل مع هذا الحدث، وكيف عالجه ﷺ وما تجلى فيه وتحلى به من الصبر والحلم والتعقل والتثبت، وكذلك ما حصل من الأبوين أبي بكر وزوجته أم رومان رضي الله تعالى عنهما أثناء ذلك الحدث؛ كما سبق بيانه أثناء عرض هذه القصة. وكذلك ما ظهر من آثار خطيرة كادت أن توقع فتنة بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم. ومن خير هذا الأمر بيان العقوبة من الله تعالى لمن تولى كبر هذا الأمر، وإثم من خاض فيه.

ومن فوائد هذه الآيات العظيمات: تقديم الظن الحسن فيما يشاع عن المؤمنين والمؤمنات، وأن المبدأ الإسلامي يقوم على أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، بما يدفعهم إلى تكذيب الإشاعات في محيطهم، وأن تكون القاعدة الخُلُقية للمؤمنين أن الأصل

بهتان الإشاعة حتى تثبت بالدليل الشرعي القاطع. وفي هذه القاعدة فوائد جليلة تُدْرَك بالتأمل فيها.

ومن فوائد هذه الآيات العظيمات: أن لا يُقبل القول في هذا الأمر أثناء التحاكم إلا بأربعة شهود، ومن يقل بمثل ذلك دون أولئك الشهود فحكمه كاذب كائناً من كان.

كما تبين هذه الآيات الكريمات صفة الرحمن الرحيم، وحلمه ورحمته بعباده، إذ لولا ذلك (لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) بما يفيد المؤمن أن الله تعالى حليم رحيم، ولولا ذلك لتوالت العقوبات على ما يقترف العباد من الذنوب، فلله الحمد والمنة.

وتفيد هذه الآيات العظيمات: أن المنطلق الذي سار من خلاله هذا الحدث هو الاعتماد على الأقوال دون العلم بحقيقة الأمر (إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) مما يفيد أن القول ليس علماً إلا إذا كان حقيقة. والمنطلق الآخر هو الاستهانة بهذا القول في هذا الأمر (وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم) مما يفيد المؤمن والمؤمنة أن المرجع في تعظيم الأمر هو ما عظمه الله تعالى، وأنه يجب تعظيم ما عظم الله تعالى، وعدم الاستخفاف به.

ثم تأتي منهجية التعامل التي سبقتها أولاً: الظن بالخيرية في أمر المؤمن والمؤمنة، ثم عدم التكلم والخوض في هذا الأمر، بأن يقول المؤمن والمؤمنة (ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم)

ثم تفيد الآيات العظيمات النهي الرباني من أن يعود المؤمنون لمثل هذا المسلك بعد هذا البيان والعظة (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين)

ثم نهى الأمة عن محبة إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا؛ فكيف بمن يسعى فيها ويدعو إليها بقلمه وماله (إن الذين يُحبون أن تشيع الفاحشة قي الذين آمنوا لهم عذاب أليم في

الـدنيا والآخـرة، والله يعلـم وأنـتم لا تعلمـون) فلقـد جـاءت خاتمـة الآيات موجهـة ومربيـة بالترغيب بعد الترهيب (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم)

وفي مشهد آخر تبين رضي الله تعالى عنها موقف أبي بكر الصديق من مسطح؛ بعد نزول الوحي، فتقول: (... قال أبو بكر الصديق: وكان يُنفق على مِسطحِ بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال. فأنزل الله تعالى (النور:٢٢) (ولا يأتل أولوا الفضل منكم. إلى قوله تعالى: غفور رحيم) قال أبو بكر الصديق: بلى. والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا. قالت عائشة رضي الله عنها: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال لزينب: ماذا علمت أو رأيت ؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تُسامِيني من أزواج النبي ﷺ عصمها الله بالورع. قالت: وطَفِقت أختُها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك). قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط. ثم قال عروة: (قالت عائشة والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط. قالت: ثم قُتل بعد ذلك في سبيل الله)[1]

ويفيد هذا المشهد، حِلم أبي بكر الصديق ﷺ إذ لم يتخذ قراراً بشأن مسطح ﷺ إلا بعد نزول الوحي بتزكية أم المؤمنين عائشة. رضي الله تعالى عنها. مما يدلل على المنهجية الإسلامية التي قد تأصلت لديه ﷺ من التثبت وعدم الاستعجال، وهذا يؤكد المنهجية التربوية الإسلامية لأتباع هذا الدين، من الأخذ بالتؤدة والحلم والتثبت. ولكن سرعان ما يتراجع أبو بكر الصديق عن قراره بوقف ما كان يعطيه لمسطح ﷺ تجاوباً مع ما أنزل الله

[1] البخاري (١٢٣/٣-١٢٦) برقم (٤١٤١)

تبـارك وتعـالى، فيقـول ﷺ (بلـى. والله إني لأحـب أن يغفـر الله لي) فتتجـاذب لتلـك التوجيهات الربانية مسامع وفؤاد أبي بكر الصديق مع الرجل الذي خاض في الإفك.

وهذا التوجيه الإسلامي العظيم يفيد أهمية استمرارية جريان الخير، وما يتبعه أو يسبقه من الصفح والعفو، مما يؤكد أن هذا الدين الإسلامي العظيم يُربي في أتباعه التسامح والعفو عن المسيء، بل وإسدال الخير له. والذي طبقه على الفور أبو بكر الصديق ﷺ بل يقول أبو بكر ﷺ مؤكداً ذلك (والله لا أنزعها منه أبداً)

ويفيد كذلك هذا المشهد مصداقية أم المؤمنين زينب بنت جحش في ضرتها عائشة رضي الله تعالى عنهما. وهي التي كما تقول عائشة (تساميني) "أي تطلب من العلو والرفعة والحظوة عند النبي ﷺ ما أطلب"(١) وهذا يعطي درساً تربوياً عظيماً لما يجب أن تتحلى به المرأة مع ضرائرها؛ من الصدق والعدل، وأن لا يحملها التنافس والغيرة إلى الفرح بالتهم الكاذبة وتأييدها.

وفي ختام هذا المشهد يتبين أيضاً حال الصحابي الجليل صفوان بن المعطل ﷺ ذلك الرجل الذي نقلت عنه أم المؤمنين قوله: (سبحان الله، فوالذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط، قالت: ثم قُتِل بعد ذلك في سبيل الله).

فلقد أعطى ﷺ درساً في نزاهة ثوبه، من أنه ما كشف عن ستر امرأة قط في حياته، ثم يختتم الله تعالى حياته بأن قُتل في سبيل الله تعالى. وإن في نزول القرآن الكريم بتبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، تبرئة له أيضاً ﷺ

(١) ابن حجر، فتح الباري (٤٨٧/٨)

الفصل الثامن

من غزوة الخندق إلى غزوة الحديبية

غزوة الخندق (الأحزاب):

وفي شوال من سنة خمس للهجرة النبوية كانت غزوة الأحزاب.[1]

وكان سبب قدوم الأحزاب؛ أن نفراً من بني وائل ونفراً من أشراف يهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، قد اجتمعوا بأشراف قريش وألَّبوهم على حرب النبي ﷺ ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة؛ فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غَطَفَان فَدَعَوهم، فاستجابوا لهم أيضاً، وخرجت قريش في أحابيشها، ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان؛ صخر بن حرب، والجميع قرابة عشرة آلاف.[2] فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة.[3] بمشورة من سلمان الفارسي رضي الله عنه كما قيل في بعض الروايات[4] فكان حفر الخندق عملاً إبداعياً لم تعرفه العرب من قبل، فكان ذلك أحد الأسباب في صد عساكر المشركين، بتوفيق الله تعالى ونصره.[5] ولقد انبهرت قريش بما رأت من هذا العمل الإبداعي الجديد الذي لم تعرفه العرب من قبل، مما يؤكد أهمية إمعان الذهن والفكر بما تتقوى به الأمة، لتعالج قلة العدد، بإبداع الفكر بعد توفيق الله تعالى والالتجاء إليه سبحانه وتعالى.

ويروي أنس رضي الله عنه صورة من حال المسلمين وهم يحفرون ذلك الخندق؛ فيقول رضي الله عنه (جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم، وهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً   على الإسلام ما بقينا أبدا

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٢٢٤/٣)

[2] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٧٨/٣) وابن هشام، السيرة النبوية (٢٢٥/٣.٢٢٦)

[3] ابن هشام، السيرة النبوية (٢٢٦/٣)

[4] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٦٦/٢) وابن حجر، فتح الباري (٣٩٣/٧)

[5] خالد بن حامد الحازمي، التربية الإبداعية، ص (١٧)

قال: يقول النبي ﷺ وهو يُجيبُهم: اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فبارك في الأنصار والمهاجرة. قال: يأتون بملء كفي من الشعير، فَيُصنع لهم بإهالة سَنِخة توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بَشِعَة في الحلق، ولها ريح منتن)[1]

ويبين هذا الحديث أنه لم يكن لديهم من يقوم بهذا العمل المجْهِد غيرهم، فكانوا يمارسون حفر الخندق بأنفسهم رضي الله تعالى عنهم، وهم يرتجزون بهذا البيت، فيجيبهم ﷺ بكلمات تبين لهم أن الخير الحقيقي هو خير الآخرة، مما يُحفزهم لبذل الجهد ابتغاء ذلك الأجر العظيم، بل فيها ما يدعو إلى تحقيق التوحيد، واستصحاب النية الصالحة، لأن تَذَكّر الآخرة أثناء ممارسة العمل ونعيمها الحقيقي يدفع المرء إلى ابتغائها، وكأنه يدفع ذلك ثمناً لها، وبالتالي تنصلح النية التي هي شرط في قبول العمل.

وهذا يُفيد أهمية التذكير والتشجيع للخير وبالخير، وشحذ الهمم في الأعمال الشاقة بمثل تلك الأقاويل، وأن على المسؤول أن يشارك من معه بالتشجيع والمماثلة، وأن يكون حريصاً على مصلحتهم الأخروية من خلال اختيار العبارات ذات المضامين التي تحقق ذلك، وتذكرهم بها.

ثم يفيد هذا الحديث شظف العيش الذي كانوا عليه في تلك الفترة، أو في ذلك الزمن، فيأتون بملىء كفي من الشعير، فيصنع لهم بإهالة أي دُهن قد تغير طعمه لِقِدَمِه، ولذلك وصفها بأنها سنخة؛ أي تغير لونها وطعمها من القِدَم، ولذلك فهي بشعة في الحلق، ولها ريح كريهة. مما يعني أنهم واجهوا مع شدة العمل شدة الطعام، فصبروا وبذلوا الوسع؛ حتى أنجزوا رضي الله تعالى عنهم أجمعين ذلك العمل العملاق، بما يعطي درساً في أهمية الصبر، وأن ما يلقاه المسلم من شظف الحياة لا يعني غضب الله تعالى على العبد، بل قد يكون فيه خير عظيم؛ وأجر جزيل؛ ودفع مصائب لا يعلمها العبد، إضافة إلى ما في ذلك

---

[1] البخاري (١١٥/٣) برقم (٤١٠٠)

من تدريب له على ما سيأتيه بعد ذلك مما يجهله من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الحق تبارك وتعالى.

ومن الدروس المستفادة أيضاً، أنه إذا كان رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم قد واجهوا ذلك، فحري بمن هو دونهم أن يجد نحو ذلك، فلا ييتئس ولا يسخط. ثم لِيُقدِّر كُلُ مسلم لهم ما قدموه وبذلوه لهذا الدين حتى وصل إلينا، ففي الحديث ما يدل على أنهم - رضي الله تعالى عنهم - قد نقلوا لنا دقائق هذا الدين وأحداثه وتفاصيله حتى في وصف الدهن الذي يأدمون به شعيرهم، بل حتى درجة ما كانوا يستسيغونه من ذلك. مما يدل على دقة منهجية الوصف والنقل، والأمانة في ذلك، مما يلزم انعكاس أثره على الباحث والدارس المسلم، والصحفي الذي ينقل الحدث بأن ينقله بصدق وأمانة.

وفي مزيد من الوصف لأعمال الخندق وما يعترضهم من صعوبات، يقول أيمن (أتيت جابراً رضي الله عنه: فقال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كُدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل. ثم قام، وبطنه معصوب بحجر ...)[١]

فيبين هذا الحديث صعوبات الحفر التي كانت تواجههم بشدة، لقوة أرض المدينة، حتى أنهم يَعْجَزُون عن تفتيت بعض قوة الأرض بما عندهم من أدوات في ذلك الوقت، فَيَعْرِضُون أمر ذلك على النبي ﷺ الذي قد ربط على بطنه حجارة من شدة الجوع الذي يعاني منه ﷺ فيقول لهم ﷺ (أنا نازل) ليواجه تلك الكدية، وهي القطعة الشديدة الصلبة من الأرض، ليضربها ﷺ فيريه الله تبارك وتعالى ما سيصل إليه أمر هذا الدين. ففي رواية لأحمد بن حنبل، أن النبي ﷺ (ضرب ضربة، فكسر ثُلُث الحجر وقال: الله أكبر أُعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا، ثم قال: بسم الله وضرب أخرى فكسر ثُلُث الحجر، فقال: الله أكبر أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن،

[١] البخاري (١١٦-١١٥/٣) برقم (٤١٠١)

وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا، ثم قال: بسم الله وضرب ضربة أخرى، فقلع بقية الحجر، فقال: الله أكبر أُعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا.)[١]

إن مضمون هذا الحديث الذي تحقق لهذه الأمة، يدلل على نبوته ﷺ بمعجزة قد كشفها الله تعالى له عليه الصلاة والسلام، وهو في ذلك المكان الجهادي، وفي تلك الحالة من الجوع الشديد، الذي يضيف جابر ﷺ مزيداً من تفاصيله؛ بل ومزيد معجزة، فيقول: (... ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب في الكُدية، فعاد كثيباً أهيلا أو أهْيَماً. فقلت: يا رسول الله إئذن لي إلى البيت. فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء ؟ فقالت: عندي شعير وعَناق[٢]. فذبحت العَناق، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحمة بالبرمة. ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضَجَ، فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال: كم هو ؟ فذكرت له، فقال: كثير طيب، قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي، فقال: قوموا. فقام المهاجرون والأنصار. فلما دخل على امرأته قال: ويحك، جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم. قالت: هل سألك ؟ قلت: نعم. فقال: أدخلوا ولا تضاغطوا. فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم، ويُخَمِّر البرمة والتنور إذ أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقي، قال: كُلا هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة.)[٣]

---

[١] أحمد (٣٠٣/٤)

[٢] العناق الأنثى من ولد المعز قبل استكمالها الحول والجمع أَعْنُقُ وعُنُوق.

[٣] البخاري (١١٦-١١٥/٣) برقم (٤١٠١)

إن هذه الرواية تبين ما أصاب رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم من المسغبة، وهو ابتلاء من الحق تبارك وتعالى الذي بينه عزَّ وجلّ في كتابه الكريم ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [(١)]

وفي هذا درس عملي وتطبيقي على أن أفضل الخلق ﷺ وأصحابه الأخيار قد ابتلاهم الله تعالى بالجوع، فليكن ذلك تسلية وموعظة لكل من أصابته مخمصة.

ثم يظهر كرم هذا الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وقد آثر رسوله ﷺ على نفسه ، ثم هذا الأجر الذي تضاعف له بحبه لرسوله ﷺ وإيثاره فأطعم الله تعالى به عدداً كبيراً وهو طعام لا يكفي إلا لعدد ذكرهم لرسول الله ﷺ (أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان) فبلغ عددهم ألف رجل، كما في رواية جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال (... وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغُطُّ كما هي، وإن عجيننا ليُخبز كما هو)[(٢)] وفي ذلك معجزة نبوية عظيمة بتكثير الطعام القليل. وفيه تواضعه ﷺ إذ كان هو الذي يغرف لأصحابه، مما يبين أن المرء وإن علت رتبته فلا يضره ولا يُنقص من قدره خدمته للآخرين.

ومن صور حفر الخندق المشاركة الفعلية منه ﷺ لأصحابه في حفر الخندق، إذ لم يكن دوره إشرافي فقط، بل كان يجهد كما يجهدون في ذلك العمل الجهادي الكبير، فعن البراء رضي الله عنه (لما كان يوم الأحزاب وخَنْدَق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى التراب جلدة بطنه . وكان كثير الشعر . فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب، يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا		ولا تصدقنا ولا صلينا

(١) سورة البقرة: آية رقم (١٥٥)

(٢) البخاري (٣/١١٦) برقم (٤١٠٢)

فـــأنْزلن ســـكينة علينـــا وثبِّـــتِ الأقـــدامَ إن لاقيـــنا

إن الألى قـــد بغـــوا علينـــا وإن أرادوا فتنـــــة أبينـــــا

قال: ثم يَمُدُّ صوتَه بآخرها.)[١]

فلقد غطى التراب جلدة بطنه ﷺ من أثر عمله الجاد في ذلك الخندق، وهو نبي هذه الأمة، لِيُقدِّم درساً لأتباعه، بأن الكبير والرئيس قدوة في كل جانب، ومشاركٌ لأعوانه فيما يعملون ويجتهدون فيه، وإن في ذلك تشجيع، وعون ومساعدة لهم، وإشعارهم بالوحدة والتعاضد والتواضع. وبالتالي فإن الميدان الإداري الذي يفقد مثل هذه الصورة؛ قد يعجز عن رسم التآخي فيمن يعملون في إطاره، ومثله الميدان التربوي والأسري، وكذلك في دائرة الأصدقاء والأصحاب. فإنها التربية النبوية في صورتها الفاعلة المؤثرة، والتي تنسج للأمة أفضل وأعظم أسلوب تربوي.

ومزيد من المشاركة النبوية؛ بكلمات جميلات يَشِدُّ بها عزيمة من يعملون، حتى أنه ﷺ يمد صوته بآخرها، فيكون من ذلك زيادة في التأثير. وهذا يؤكد ويبين أنه لا بأس بمثل هذه الكلمات إذا ارتجز بها الناس في أعمالهم، وأنشدوا بها. بل إنها من السنة، لفعله ﷺ وقد انتهى المسلمون من حفر الخندق في ستة أيام.[٢]

ولكن لم يخلُ هذا العمل من تكاسل المنافقين، وتسللهم من ميدان العمل الكريم، ففي أثناء عمل المسلمين في الخندق كان رجال من المنافقين يستترون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله ﷺ بينما الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من

(١) البخاري (١١٦/٣، ١١٧) برقم (٤١٠٦)

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٦٧/٢)

الحاجة التي لا بد منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق بحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان من عمله، رغبة في الخير واحتساباً له.(١)

وقد خرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى جبل سلع داخل المدينة، ووجوههم إلى الخندق الذي يفصل بينهم وبين المشركين الذين نزلوا بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة. وقد كان عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف مقاتل(٢)

ويظهر هنا عدم التكافؤ بين عدد الأحزاب الذين بلغوا عشرة آلاف؛ وبين المسلمين الذين بلغ عدد جيشهم ثلاثة آلاف، ولكن التكافؤ العددي ليس هو سبيل النصر في الإسلام، فلم ينتصر الإسلام بالعدد، وإنما نَصْرُهُ بقوة الله تعالى ونُصْرَتِه لجنده إذا أخذوا بأسباب النصر؛ من الإيمان والتقوى والطاعة؛ مع الاستعداد المادي بما استطاعوا به من قوة.

وقد تفاجأت قريش بالخندق الذي واجههم، كحاجز لهم عن دخول المدينة ومحاربة المسلمين، فضربوا حصاراً على المدينة، وقد دام الحصار أكثر من عشرين يوماً، وأثناء هذا الحصار والمناوشات، تنبجس ثغرة جديدة على المسلمين، وهي نقض بني قريظة للعهد مع الرسول ﷺ وقد سمع رسول الله ﷺ بنقض بني قريظة العهد مع المسلمين في أحلك الظروف، وذلك عندما اشتد الكرب بالمسلمين، فأرسل ﷺ إليهم من يأتي بخبرهم. فأرسل الزبير رضي الله عنه ثم أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير. وقد كان موقع بني قريظة في العوالي من المدينة، مما يمكنهم من السيطرة على المدينة في انشغال جيش المسلمين بالأحزاب.(٣) وقد زاد هذا من كرب المسلمين، ذلك الكرب الذي وصفه الله تعالى في كتابه الكريم، فَبَيَّنَ فيه خلجات النفس وأحاسيسها التي لا يطّلع عليها أحد من البشر،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٢٢٦-٢٢٧)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٢٣٠-٢٣١)

(٣) انظر القصة من هذا الكتاب في إجلاء بني قريظة، بعد تمام هذه الغزوة

ما لم يتكلم بها صاحبها، ويكشف عن مكنونها، وهي تلك الحالة الإيمانية التي ارتقوا بها في ذرى السمو والرِّفعة، وكذلك الحالة النفسية للمنافقين وما يختلج في نفوسهم، وما ظهر منهم من تخاذل، قال تعالى ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ (١)

فلقد كان الأحزاب من فوقهم، وبنو قريظة من أسفل منهم، يقول حذيفة رضي الله عنه: وما أتت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون : إن بيوتنا عورة وماهي بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم فيتسللون....قال متعب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط. وقال الحسن في قوله تعالى (وتظنون بالله الظنونا) ظنون مختلفة: ظن

(١) سورة الأحزاب: آيات (١٠-١٩)

المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يُستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون.[1] فيتبين من مُجْمَل الآيات السابقات، انقسام الناس إلى فريقين بعد أن بلغ بهم الخوف كل مبلغ: فأما أهل النفاق فيبحثون عن الفرار والأعذار ويتسللون، وإنها منهجية عملية تدل على سوء الظن بالله تعالى في نصرة رسوله ﷺ وعباده المؤمنين. مما يبين أن على المسلم أن يصبر وقت الشدائد ويتصبر ويثبت، ويظن بالله كل خير، مهما بلغت به الشدة والكرب، فإن التمحيص أمر ظاهر في عباد الله تعالى، فيتخذ المسلم من هذه السيرة النبوية والمنهجية العملية قدوة وأسوة ودرساً ومنهجية يتعامل معها في أمور حياته على مستوى الفرد أو على مستوى الأمة فيما يصيبها.

ومن شدة البلاء الذي وقع على المسلمين بتجمع الأحزاب عليهم؛ أنهم شغلوهم عن صلاة العصر، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس، جعل يسب كفار قريش، وقال: يا رسول الله، ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب. قال النبي ﷺ : والله ما صليتها: فنزلنا مع النبي ﷺ بُطْحان، فتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب.)[2]

وانزعاج عمر رضي الله عنه لتأخير الصلاة عن وقتها وعرضه ذلك على رسول الله ﷺ وكذا القسم من رسول الله ﷺ يبين مدى تعظيم رسول الله ﷺ وكذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعموم الصحابة لأداء الصلاة في أوقاتها حتى في الحرب، وفي أحلك الظروف، فكيف إذا كانت في غير مثل تلك الظروف. وهذا يؤكد ويبين أن المنهجية العظيمة التي كانت سائدة في أداء الصلوات أنها لا تؤخر عن وقتها، وأنهم يستعظمون التأخير، فَيُسْتَفاد من ذلك أن على الأمة

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٨٠-٤٨١)

[2] البخاري (١١٨/٣) برقم (٤١١٢)

أن تستشعر أهمية أداء الصلاة في أوقاتها وتستعظم ذلك، حتى ولو كانوا في أوقات عصيبة، فكيف بمن يؤخرها وهو في رخاء وبلا عذر.

ويبين الله تعالى في آية أخرى منهجية أهل الإيمان التي أخذ بها أصحاب رسول الله ﷺ قال تعالى ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾[1] وبهذا الوصف الإيماني من الله تعالى لحالة المؤمنين، يبرز عامل الثبات على المحن والابتلاء والثقة بالله تعالى في كل وقت وحين. وأما الوعد المذكور في الآية الكريمة الذي كانوا يقولون به؛ فيذكره ابن عباس وقتادة رضي الله تعالى عنهم، بأنه قوله تعالى في سورة البقرة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[2] أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، وما زادهم ذلك الحال والضيق والشدة إلا إيماناً بالله تعالى وانقياداً لأوامره وطاعة رسوله ﷺ[3]

ويستفاد من هذا أن على المؤمن أن يتحلى بما تحلى به أصحاب رسول الله ﷺ عندما تواجهه بعض الكربات، التي بلغت بهم مبلغاً عظيماً، وأن لا يستكثر على نفسه ما يصيبه من ابتلاء؛ ويرى في نفسه أنه لا يستحقه، أو ينتكس ظنه بالله تعالى، مما يؤكد أهمية الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى بالتثبيت في كل موقف، فالإنسان ضعيف إلا بعون من الله تعالى.

---

(١) سورة الأحزاب: آية رقم (٢٢)

(٢) سورة البقرة: آية رقم (٢١٤)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٨٣/٣)

وقد كان ﷺ يواجه ذلك الكرب بالدعاء والالتجاء إلى الله تعالى، فعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما، يقول (دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، فقال: اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم اهزمهم وزلزلهم.)[١]

فالدعاء سلاح المؤمن في جميع أحواله، لطلب نفع أو لدفع ضر، والمتأمل في هذا الدعاء يلاحظ فيه البدء بتمجيد الله تعالى، بذكره ووصفه بمحامد ومحاسن الصفات، (اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب) ثم يلي التمجيد الطلب من الله تعالى.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ كان يقول: لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده.)[٢]

ثم عودة إلى بني قريظة، فلما سمع رسول الله ﷺ بخبر نقضهم للميثاق ارسل من يستوثق له الخبر، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، (قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير: أنا. ثم قال: من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير: أنا. ثم قال: من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير: أنا. ثم قال: إن لكل نبي حوارياً، وإن حواري الزبير.)[٣] وقصة الزبير كانت لكشف خبر بني قريظة، هل نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين؟ ووافقوا قريشاً على محاربة المسلمين ؟[٤]

وهذا الحديث يبين شجاعة الزبير رضي الله عنه وقوته. فاستحق بذلك الإيمان والشجاعة ذلك الوصف والخصوصية من رسول الله ﷺ بأنه حواري النبي ﷺ أي خاصتي من أصحابي وأنصاري.[٥]

---

(١) البخاري (١١٨/٣) برقم (٤١١٥)

(٢) البخاري (١١٨/٣) برقم (٤١١٤)

(٣) البخاري (١١٨/٣) برقم (٤١١٣)

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٤٠٧/٧) وكذلك الحديث رقم (٣٧٢٠) من صحيح البخاري

(٥) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٥٧/١)

ولقد كان ﷺ حريصاً أشد الحرص على الجوانب الأخرى؛ والثغور التي يمكن أن يؤتى المسلمون من خلالها، فقد أخذ الحيطة من بني قريظة، فكان ﷺ يبعث سلمة بن اسلم في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل؛ يحرسون المدينة، ويُظهرون التكبير، وذلك أنه كان يخاف على الذراري من بني قريظة.[1]

وهذا يؤكد أهمية القيادة في تحري جميع ما يمكن أن يحصل، وأخذ الحيطة والحذر، بل يفيد بأن يأخذ المسلم به في شؤونه إذا خشي على بعض أموره، كما يبين هذا أهمية اليقظة وقت الشدة للأعداء الذين يتربصون ويتحينون الفُرَص.

وللمزيد من الحرص فقد وضع رسول الله ﷺ النساء والأطفال في أُطُم حصين، فعن عبد الله بن الزبير، قال: (كنت أنا وعمر بن أبي سلمة يوم الخندق مع النِّسوة، في أُطُم حسان)[2]

وإزاء هذا الحصار الطويل يبين الله تعالى كيف نصر المسلمين وهزم الأحزاب وحده بقوته وجبروته سبحانه وتعالى، قال تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[3]

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال (نُصرت بالصبا، وأُهلِكَت عاد بالدَّبور.)[4]

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٦٧)

(٢) مسلم (٤/١٨٧٩) برقم (٣٤١٦)

(٣) سورة الأحزاب: آية رقم (٩)

(٤) البخاري (٣/١١٦) برقم (٤١٠٥)

والصبا هي الريح الشرقية، والدَّبور هي الريح الغربية.[1] قال حذيفة ﷺ (لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وَقُرٌّ...)[2]

ولما رأى أبو سفيان ما أصابهم أدرك أنه لا مقام ولا قدرة لهم، بل إن الأمر كله عليهم قد انقلب، فقلوبٌ قد أصابها الفزع، وقدورٌ قد انجفت، ونيرانهم قد انطفت، وخيام قد اقتلعتها الصبا، فقال: يا معشر قريش ! إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام، لقد هلك الكراع (الخيل) والـخُفّ، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الرِّيح ما ترون، ما تطمئن لنا قِدْر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا، فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم.[3]

وهذا الكلام لأبي سفيان يبين مقدار ما أصابهم، فانقلبوا خائبين. فلا رجعة لهم إلى المدينة بعد هذه الغزوة، كما بين ذلك رسول الله ﷺ فعن سليمان بن صُرَدٍ يقول (سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلَى الأحزاب عنه: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم.)[4]

وأما فيما يتعلَّق بمنعة الخندق وما دار بين المسلمين والأحزاب، فيذكر ابن هشام : أنه لم يكن بينهم قتال غير أن بعض فرسانهم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه، وخرج لهم علي بن أبي طالب ﷺ مع نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم. وقد بارز علي بن أبي طالب ﷺ عمرو بن عبد ود، فتنازلا وتجاولا فقتله علي ﷺ وخرجت خيلهم مُنهزمة، حتى اقتحمت من الخندق هاربة.[5]

---

(١) ابن حجر، الباري (٤٠٢/٧)

(٢) صحيح مسلم (١٤١٤/٣.١٤١٥) برقم(١٧٨٨)

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٢٤٣/٣)

(٤) البخاري (١١٧/٣) برقم (٤١١٠)

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية (٢٣٤/٣.٢٣٦)

وقد بين الله تبارك وتعالى أن المشركين لم ينالوا شيئاً، وعادوا خائبين خاسرين، قال تعالى ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ (١)

وقد استشهد ستة من المسلمين ، وقُتِل من المشركين ثلاثة نفر.(٢)

وهذا يبين أن الله تعالى قد صدهم وهزمهم بريح الصبا التي اقتلعت خيامهم وقلبت قدورهم وأطفأت نيرانهم، وقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب؛ فخرجوا منهزمين، وكفى الله المؤمنين القتال، فكان ذلك القتلى من الطرفين. وإن في ذلك لعبرة بأن النصر من عند الله تعالى، وأن قوة الكفر لا تغني عنهم شيئاً إذا ما اتقى المسلمون ربهم؛ وأطاعوا أمره واجتنبوا نهيه، وجُنْدُ الله لا يحصيه أحد، وسُبُل النصر لا يَحُدُها أحد. ولذلك فإن واجب المسلمين الاهتمام بالتربية الإسلامية، وتطبيق شريعة الله تعالى في أنفسهم ومجتمعاتهم ليكونوا سادة الأمم بالخير والصلاح والإصلاح.

وقد كان ﷺ ذاكراً لربه سبحانه وتعالى، مُتذكراً لنعمه، داعياً بها، والتي منها النصر في هذه الغزوة المباركة، كما في هذا الحديث العظيم، فعن عبد الله رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ كان إذا قَفَل من الغزو أو الحج أو العمرة، يبدأ فيكبر ثلاث مرارٍ، ثم يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.)(٣)

---

(١) سورة الأحزاب: آية رم (٢٥)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٢٦٤)

(٣) البخاري (٣/١١٨) برقم (٤١١٦)

غزوة بني قريظة:

عن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت (....فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق وضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل عليه السلام وهو ينفض رأسه من الغبار، فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعتُه، أُخرج إليهم. قال النبي ﷺ : فأين ؟ فأشار إلى بني قريظة...)[1] فتمت غزوة بني قريظة بعد غزوة الخندق في ذي القعدة؛ سنة خمس من مهاجره ﷺ [2]

وتفيد ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها: أن أمر يهود بني قريظة قد أمر الله تعالى به نبيه ﷺ وأن جبريل عليه السلام كان عوناً وجنداً من الله تعالى لرسوله ﷺ وأن اليهود بالمدينة قد طغوا بكفرهم وتعنتهم حتى أجلاهم الله تعالى من مدينة رسوله ﷺ وأن حياة رسول الله عليه الصلاة والسلام كانت مليئة بالجهاد، فينتهي من غزوة الخندق ويُؤمر ببني قريظة،.

وفي هذا التتابع ما يفيد أهمية أن يتابع المسلم أمر الخير إذا شرع فيه، وأن لا يتوقف ما كان له في ذلك قدرة ونشاطاً، وفيه تشجيع جبريل للنبي ﷺ بأن قال له (قد وضعتَ السلاح، والله ما وضعتُه) وفي هذا تنشيط للنبي ﷺ وتشجيع بأن الله تعالى معهم، وأن جبريل معهم بسلاحه في غزوة الخندق، وكذلك سيكون معهم على بني قريظة، ويُستفاد من هذا أهمية العون والمساعدة من القائد لقواته، ومن المدير لموظفيه، وأن يُريهم من نفسه القوة والنشاط، فإن ذلك أدعى للعمل بقوة وهمة ونشاط.

وقد كان سبب غزوة بني قريظة نقضهم للميثاق والعهد مع رسول الله ﷺ بتحريض من عدو الله حُيَيُّ بن أخطب النَّضري، الذي جاء إلى كعب بن أسد القُرَظي، صاحب عقد

---

(١) البخاري (١١٩/٣) برقم (٤١٢٢)

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٧٤/٢)

بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه، وعاقده على ذلك وعاهده، فلما سمع كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه الباب، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فما زال يراوده على فتح الباب، وكعب القُرَظي يقول له: ويحك إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً، فرد عليه: ويحك ! افتح: وهو يراوده على فتح الباب، حتى فتح له، ومما قاله: جئتك بقريش وسادتها؛ حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رُومة، وبغطفان على قادتها وسادتها؛ حتى أنزلتهم بذَنَب نَقْمى إلى جانب أحد، قد عاقدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه، ومما رد به عليه كعب : فدعني وما أنا عليه؛ فلم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء، فلم يزل حُيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له، على أن أعطاه عهداً وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حِصنك حتى يُصيبني ما أصابك، فنقض كعب عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ [1]

وهكذا تحدث الخيانة من بني قريظة في وقت غزوة الخندق، التي اجتمع على المسلمين فيها عشرة آلاف مقاتل من الأحزاب، يُحاصرون المسلمين.

وهكذا الظانين بالمسلمين ظن السوء؛ يعتقدون أن الإسلام والمسلمين مقهورون بعدد وعُدَّة أعدائهم، وإنه لتقييم ساقط، واعتقاد فاسد، فلم يكن مصدر انتصار المسمين القوة وحدها، بل توفيق الله تعالى ونصره. وهكذا عندما زُيِّن لليهود أمر اجتثاث الإسلام، نقضوا العهد والميثاق، بالرغم من أن كعب القُرَظي يقول عن رسول لله ﷺ: فدعني وما أنا عليه؛ فلم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً.. فهل جزاء الوفاء والصدق الخذلان والغدر ؟ وإنه لدرس يتكرر مع يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظه؛ من نقضهم للمواثيق، مما يؤكد أن هذا هو ديدن اليهود في المواثيق والعهود، فلا مواثيق لهم أبداً، وإنه لدرس للمسلمين في كل وقت وحين.

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٢٣٢)

وكما كان رسول الله ﷺ وفياً وصادقاً، فإنه عليه الصلاة والسلام تثبت وتأكد، من الخبر الذي انتهى إليه ﷺ وإلى المسلمين عن بني قريظة، ولم يتسرع مع قوم بينه وبينهم ميثاق، فبعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ بن النعمان، وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة بن دُلَيم، أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبدالله بن رواحة؛ أخو بني الحارث بن الخزرج، وخَوَّات بن جبير، أخو بني عمرو بن عوف رضي الله عنهم أجمعين، فقال: انطلقوا حتى تنظروا؛ أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحنا أعرفه[1] ولا تَفُتّوا في أعضاد الناس[2] وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس، فخرجوا فوجدوهم على أخبث ما بلغه عنهم. فأقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه، ثم قالوا: عَضَلٌ والقَارة. أي كغدر عَضَل والقارة بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين.[3]

وفي هذا الحدث والنقض من بني قريظة، ما يبين أنه كانت تصيب المسلمين بعض الابتلاءات، فها هم أمام عشرة آلاف من الأحزاب، وإذا باليهود يخذلونهم من ورائهم في المدينة، ويفتحون ثغرة في جدار الأمة، التي تواجه تكالب الأعداء عليها، ولكن رسول الله ﷺ يعطينا من ذلك الدرس العظيم في مقابلة الأمور بحكمة وروية، ومراعاة لأحوال الذين معه من المسلمين، حتى لا يصيبهم الذعر والخوف، فيتثبت أولاً من صحة الخبر، الأمر الذي يلزم أن يسلكه كل مسلم، حتى في أحلك الظروف وأصعبها، ثم يبعث بعدد من المسلمين ليتأكدوا من حقيقة الأمر، ثم يأمرهم ﷺ بأن لا يُعلنوا النتيجة إن كانت الخيانة قد حصلت

---

(1) اللحن : اللغز. وهو أن يخالف ظاهر الكلام معناه.

(2) يقال: فت في عضده، أي أضعفه وأوهنه.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية (٢٣٢/٣)

من بني قريظة، حتى يحافظ على معنويات المسلمين، ويحفظ تماسكهم، ويمنع ما قد يحدث من مغبة نشر الخبر. ثم يعلمهم الوسيلة في إخباره ﷺ، بأن يلحنوا بلغز يعرفه هو ﷺ ولا يدركه غيره من السامعين. فيبين عليه الصلاة والسلام الوسيلة التعليمية لإيصال الخبر السري، مما يؤكد أهمية العمل على تماسك الأمة في كل دائرة من دوائرها التي تعمل فيها، وأن القائد والحاكم والوالي والرئيس، قد لا يخبر أعوانه ببعض الأمور في الأوقات الحالكة إذا رأى في ذلك مصلحة راجحة للمسلمين. وعلى من تولى أمراً سرياً أن يحفظه ولا يبوح به لأحد.

ثم ها هم الرُّسُل من الصحابة يَقْدِمُون على رسول الله ﷺ فيخبرونه الخبر بلغز يعرفه ﷺ ولا يدركه من سمعه، ثم يقول عليه الصلاة والسلام متفائلاً :(الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين) إنها كلمات تحمل الثقة والبشرى وحُسن الاعتقاد وجماله في رب العالمين الذي لا يخذل رُسُلَه والصادقين المؤمنين. ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١ ﴾ [1] ثم هكذا يكون المؤمن مستبشراً لا متشائماً، يبشر إخوانه ويتفاءل لهم، ولا يكدر خواطرهم في المواقف التي هم فيها اشد حاجة للتفاؤل، كمن يَقدِمُ على مكلوم أو مصاب أو مريض؛ فيبشره وينبسط له ومعه بما يشرح صدره من الصواب والمباح من الكلام.

ثم يَقْدِمُ رسول الله ﷺ وأصحابه على بني قريظة، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (لما رجع النبي ﷺ من الخندق؛ ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام، فقال: قد وضعتَ السلاح، والله ما وضعناه، فاخرج إليهم. قال: فإلى أين، قال: ها هنا. وأشار إلى قريظة. فخرج النبي ﷺ إليهم)[2]

إنها إرادة الله سبحانه وتعالى بأولئك الغادرين الناكثين بالمواثيق، يتولى الله تعالى أمرهم، ليستأصل شرهم من المدينة المباركة. فيخرج رسول الله ﷺ يقول أنس رضي الله تعالى

(١) سورة غافر: آية رقم (٥١)

(٢) البخاري (١١٩.١١٨/٣) برقم (٤١١٧)

عنه (كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زُقاق بني غَنْم، موكب جبريل حين سار رسولُ الله ﷺإلى بني قريظة)[١]

فيصف لنا اعتلاء غبار جيش المسلمين وهو متجه إلى بني قريظة، وغباره قد علا في زقاق أي سكة بني غَنْم، وهم بطن من الخزرج، وهم بنو غنم بن مالك بن النجار، منهم أبو أيوب الأنصاري وآخرون.[٢]

وبعد أن وصل رسول الله ﷺ إلى بني قريظة حاصرهم ﷺ خمساً وعشرين ليلة[٣] حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب.[٤] فقال لهم رئيسهم كعب بن أسد: يا معشر يهود ! قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً؛ فخذوا أيها شئتم: قالوا: وما هي ؟ قال: نتابع هذا الرجل ونُصَدِّقه، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مُرْسَل، وأنه للَّذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم على هذه، فهلمَّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مُصْلَتِين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نَهلَك نَهلِك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء، قالوا: نقتل هؤلاء المساكين ! فما خير العيش بعدهم ؟ قال: فإن أبيتم عليَّ هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نُصيب من محمد وأصحابه غِرّة، قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونُحدث فيه ما لم

---

(١) البخاري (١١٩/٣) برقم (٤١١٨)

(٢) فتح الباري (٣١٠/٦) وفي الحديث رقم (٣٢١٤) ورد بلفظ سكة بني غنم. وقال ابن حجر: ووهم من زعم أن المراد بهم هنا بنو غنم حي من بني تغلب، فإن أولئك لم يكونوا بالمدينة حينئذ.

(٣) أحمد (١٤٢/٦)

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية (٢٤٦/٣)

يحدث مَنْ كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ ! قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً.(١)

يتبين من هذا العرض الحالة النفسية الرديئة التي وصلوا إليها، من الخوف والفزع الذي ظهر في كلام سيدهم كعب بن أسد: حيث قال في مستهل كلامه: قد نزل بكم من الأمر ما ترون. ثم عدم قدرتهم على التفكير والاختيار لما عرضه عليهم كعب بن أسد. فكل الثلاثة العروض رأوا أنها لا تُحقق مرادهم، ثم حكم سيدهم عليهم؛ بأن هذا هو ديدنهم، من الخلاف والاختلاف. الذي بينه الله تعالى في كتابه العزيز، فقال تعالى ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ (٢) قال ابراهيم النخعي: يعني أهل الكتاب والمنافقين.(٣) ثم إن كعب بن أسد قد بين لهم حقيقة ما يعرفون عن رسالة ونُبوة محمد ﷺ ولكنهم أبوا ذلك، ورغبوا عما في التوراة، قال تعالى عن نبوة محمد ورسالته في التوراة ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾(٤)

فهاهم يكفرون بما لا يريدون من التوراة، ويختارون منها ما يريدون ويرغبون، فأنكروا نبوة محمد ﷺ وأخذوا بيوم السبت الذي قال الله تعالى عنه ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾(٥)

---

(١) المرجع السابق (٣/٢٤٦.٢٤٧)

(٢) سورة الحشر: آية رقم (١٤)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٣٦٤)

(٤) سورة الصف: آية رقم (٦)

(٥) سورة البقرة: آية رقم (٦٦)

ولكن إرادة الله تعالى بأن يخذلهم بالرعب والخوف لقاء كفرهم وطغيانهم وغدرهم، وسوء نواياهم وأخلاقهم السيئة. وإنه لدرس لكل مؤمن ومؤمنة أن الله سبحانه وتعالى هو الناصر وهو القوي، ولا قوة فوق قوته، ولا ناصر من دونه؛ له الحكم وإليه المصير سبحانه وتعالى، كما أنه درس عملي وبيان جلي لأخلاق اليهود وغدرهم، وتعنتهم، وكفرهم، ونكرانهم لحقيقة الرسالة المحمدية، وقد بين ذلك أحد رجال اليهود بعد أن منَّ الله تعالى عليه بالإسلام، وهو عبدالله بن سلام ﵁ فقد قال عند مجيئه لرسول الله ﷺ لِيُسْلِم (أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بحق. وقد علمتْ يهود أني سيدهم وابنُ سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت؛ قالوا فيَّ ما ليس فيَّ. فأرسل نبيي الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ يا معشر اليهود! ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق؛ فأسلموا. قالوا: ما نعلمه ـ قالوا للنبي ﷺ قالها ثلاثَ مرار ـ قال: فأي رجل فيكم عبدالله بن سلام ؟ قالوا: سيدُنا وابنُ سيدِنا، وأعلمُنا وابن أعلِمنا. قال: أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا: حاشا لله ما كان لِيُسْلِم. قال: أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا: حاشا لله ما كان لِيُسلم. قال: أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم. قال: يا بن سلام أخرج عليهم.. فخرج ، فقال: يا معشر اليهود! اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ) [1]

ثم بعد إبائهم على سيدهم كعب بن أسد، وعدم نزولهم عند أحد عروضه، أرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، وكانوا حلفاء الأوس؛ لنستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه، قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون

[1] البخاري (٧٣.٧٢/٢) برقم (٣٩١١) وفي الحديث رقم (٣٣٢٩) يبين أن ابن سلام سأل رسول الله ﷺ أسئلة فأجابه عليها ﷺ فأسلم.

في وجهه، فرقّ لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة ! أترى أن نَنْزِل على حكم محمد ؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح. قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفتُ أني قد خنت الله ورسوله ﷺ ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عَمده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعتُ، وعاهد الله: أن لا أطأ بني قريظة أبداً، ولا أُرى في بلد خُنْتُ الله ورسوله فيه أبداً.(١)

يتبين من هذا العرض المزيد من حقيقة الحالة النفسية التي آلوا إليها من الخوف والرعب الذي أنزله الله تعالى في قلوبهم، فقد أجهشت النساء والصبيان يبكون في وجه الصحابي أبي لبابة ﵁ ولكنهم قوم بهت وكفر، اختاروا معصية الله تعالى ورسوله على الطاعة والامتثال الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور، فكانت عاقبة أمرهم خسراً.

ثم يتبين من موقف أبي لبابة رضي الله تعالى عنه، الطبيعة الإنسانية التي يمكن أن تحدث عند كل أحد، وهو الخطأ والرقة والشفقة التي قد تكون في غير محلها، ولكنه ﵁ استشعر الذنب، فيقول ﵁ فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله. فلم يبحث ﵁ عن الأعذار والحيل النفسية التي تبرر الفعل، فيستشعر صواب العمل الخاطئ ويتأوله، ولكنه الإيمان الذي يتخلل القلب فيغمره؛ فيستشعر المرء الذنب إذا فعله؛ فيتوب إلى الله تعالى. فيخرج أبو لبابة رضي الله تعالى عنه إلى المسجد فيربط نفسه في أحد أعمدته، ويقول: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعتُ، وعاهد الله: أن لا أطأ بني قريظة أبداً، ولا أُرى في بلد خُنْتُ الله ورسوله فيه أبداً.

فلقد ضرب لنا ﵁ مثلاً في استشعار الخطأ واللجوء إلى الله تعالى غافر الذنوب والزلات، ثم يأتي الموقف والدرس التربوي والعملي من رسول الله ﷺ فلم يؤنبه وقد استشعر

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية (٣/٢٤٧)

خطأ صنيعه ﷺ ولم يؤلب عليه الناس، ولم يُحطم معنوياته، بل قال عليه الصلاة والسلام (أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه).[1]

وإنه الدرس للوالد مع ولده والزوج مع زوجته، والمدير مع موظفيه، والرئيس مع مرؤوسيه، والحاكم مع رعيته، والصديق مع صديقه، والجار مع جيرانه، بأن يكون الصفح وقبول المخطئ واستيعابه وعدم تنفيره من المجتمع؛ وعدم تنفير الناس منه هو المسلك التربوي الصحيح الناجح ما لم يكن في حد من حدود الله تعالى، فيتم استيعابه بعد تطبيق الحد في حقه، فلا يسع المجتمع إلا قبوله واستيعابه ليكون لبنة صالحة في مجتمعه، بدلاً من التنفير الذي قد يجعله يتمادى في أخطائه.

ثم مكث أبو لبابة ﷺ في رباطه حتى تاب الله تعالى عليه، وأبى أن يُطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ فلما مر عليه ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه.[2]

ثم بعد ذلك قَبِلَ بنوا قريظة أن يَنْزِلوا على حكم سعد بن معاذ، فقال سعد (فإني أحكم فيهم أن تُقْتل المقاتلةُ، وأن تُسبى النساء والذرية، وأن تُقسم أموالهم)[3] فقال رسول الله ﷺ (قضيت بحكم الله)[4]

فهكذا أحل الله بهم البوار وسوء العاقبة، فقد كذبوا برسول الله ﷺ وهم يعلمون أنه حق نبي لا ريب فيه، بما جاءهم عنه في التوراة، حتى أسلم حبر اليهود عبدالله بن سلام ﷺ وبما رأوا من صنيعه وفعله الذي يدل على نبوته ﷺ، حتى آمن به من لا كتاب عندهم. ثم

(١) المرجع السابق (٢٤٨/٣)

(٢) المرجع السابق (٢٤٨/٣) وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣١٣/٢) عند تفسير للآية رقم ٢٧ من سورة الأنفال.

(٣) البخاري (١١٩/٣) برقم (٤١٢٢)

(٤) البخاري (١١٩/٣) برقم (٤١٢١)

المهاودة بوثيقة قد حفظت حقوقهم في العيش والدين والدفاع، وكفالة مصالحهم، ثم ينقضون العهد والميثاق. ثم عدم اعتبارهم بما حل بيهود قينقاع، ثم بيهود النضير. ثم خيانتهم لرسول الله ﷺ وللمسلمين في أحلك الظروف ليَسْبُوا نساء المسلمين ويعيثوا فيهم وفي المدينة فساداً. فهذه اعتبارات يستحقون بها هذا الجزاء

ونتيجة لتلك الخيانة ونقض العهد من يهود بني قريظة كانت تلك الغزوة التي حسمت أمرهم.

وفي حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه منقبة له، إذ قضى فيهم بحكم الله تعالى.

ـ سرية قتل أبي رافع:

عن البراء بن عازب ﷺ قال (بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار، فأمَّر عليهم عبد الله بن عَتِيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه ـ وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم[١] ـ فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومُتَلَطِّف للبواب لعلي أن أدخل. فأقبَل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه[٢]، كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أُغلق الباب. قال: فدخلت فكمنت[٣]، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علَّق الأغاليق[٤] على وَدّ. قال: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسْمَرُ عنده، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره، صَعِدْتُ إليه، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت عليَّ من داخل. قلت إن القوم نذروا بي[٥] لم يخلصوا إليَّ حتى أقتله. فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت، فقلت: أبا رافع ! قال: من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت، فأضربه ضربة بالسيف وأنا دَهِشٌ فما أغنيت شيئاً، وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ فقال: لأمك الويل، إن رجلاً في البيت ضربني، قبل بالسيف. قال: فأضربه ضربة أثخنته، ولم أقتله. ثم وضعت ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب، باباً باباً؛ حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة،

---

[١] سرحهم: أي مواشيهم.

[٢] تقنع بثوبه: أي تغطى به ليتخفى حتى لا يُعرف

[٣] كمنت: أي اختبأت

[٤] الأغاليق، والأقاليد: المفاتيح

[٥] نذروا بي: أي علموا

فانكسرت ساقي، فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته. فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي فقلت النجاءَ، فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته، فقال لي: ابسُط رجلك، فبسطت رجلي فمسحها، فكأنها لم أشتكها قط.)[١]

ويستفاد من ذلك الحنكة وحسن التدبير في تنفيذ الأمر من الأنصار الستة الذين بعثهم رسول الله ﷺ حيث تخيروا الوقت المناسب، وهو غروب الشمس، ورواح الناس بمواشيهم، مع شجاعة عبد الله بن عتيك رضي الله عنه وتحمله لمسؤولية تنفيذ أمر رسول الله ﷺ وكذلك فيه شجاعة الصحابي الجليل عبد الله بن عتيك رضي الله عنه إذ دخل البيت وحده، وترصد لليهودي، وغَلَّق الأبواب، وقال (قلت: إن القوم نذروا بي، لم يخلصوا إليَّ حتى أقتله) وفي هذا دليل عزيمته على قتله وإن علم من عنده بوجوده، دون الاكتراث بما سيصيبه من جراء ذلك.

ومن الفوائد أن القائد قد يوجه ويترك طريقة التنفيذ للمجموعة ورئيسهم، وأن للمجموعة أن تجتهد بما يحقق التوجيه. حيث إن رسول الله ﷺ أمرهم ولم يبين لهم طريقة التنفيذ. ويعطي هذا دلالة عملية في أهمية توجيه المرؤوس، وتركه يختار الطريقة المناسبة للتنفيذ إذا كان ممن يُحسن الاختيار.

ويستفاد من سرد تفاصيل هذه الرواية؛ الدقة في الوصف الذي يجده القارئ في عموم روايات الصحابة، مما يدلل على عنايتهم واهتمامهم بمنهجية الإفصاح الروائي عن القضية بدقة عالية، وهي من أبرز المهارات التي يحتاج إليها الباحث في رواية تفاصيل الحدث.

---

[١] البخاري (٣/١٠٠-١٠١) برقم (٤٠٣٩)

ومن فوائد أحداث هذه الرواية، أن رسول الله ﷺ اقتصر على قتل من يؤذيه ويؤلب على المسلمين، فَعَيَّن قتل أبي رافع لما يصدر عنه من أذى وتأليب على المسلمين، فقد أعان غطفان وغيرهم من مشركي العرب على رسول الله ﷺ [1]

ويتبين من هذا الحدث المعجزة الإلهية التي أجراها سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ بأن مسح على ساق عبد الله بن عتيك فَعُفِي من الكسر الذي أصابه رضي الله عنه

وفي هذه الحادثة يتبين رحمة الإسلام، بأن رسول الله ﷺ اقتصر على قتل أبي رافع دون غيره من قومه أو أهله. مما يفيد أن على المسلم أن يتجنب القتل، وإزهاق الأنفس، ويحرص على ذلك كما حرص رسول الله ﷺ على ذلك، واقتصر القتل على من كان يصدر منه الأذى الذي لا يُعْدَم أن يستمر منه.

ـ سرية محمد بن مَسْلَمَة إلى القُرَطاء:

لعشر ليالٍ خلون من المحرم؛ على رأس تسعة وخمسين شهراً من هجرة رسول الله ﷺ خرج بعثه في ثلاثين راكباً إلى القُرَطاء، وهم بطن من بني بكر من كلاب، وكانوا ينزلون البَكَرات بناحية ضَرِيَّة، وأمَرَه أن يشن عليهم الغارة، فسار الليل وكمن النهار، واغتر عليهم فقتل نفراً منهم وهرب سائرهم، واستاق نعماً وشاء، ولم يعرض للطعن، وانحدر إلى المدينة.[2]

وفي هذا الحدث مزيد من التدريب للصحابة على القيادة، وتولي زمام الأمور، الأمر الذي يبين اهتمام الرسول ﷺ بأمر التدريب وبناء الثقة، مما يكشف عن الإمكانيات والقدرات القيادية، التي يمكن أن يُستفاد منها أثناء الحاجة، وهذا ما يفقده بعض القياديين في الجانب الإداري والعسكري؛ وفي غيرهما من الجوانب. وهذا يكشف عن أهمية إعداد القيادات وكشف المواهب والقدرات وبناء الثقة.

---

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٩١)

[2] المرجع السابق (٢/٧٨)

ويلاحظ في السرايا النبوية التنويع في القيادة، وعدم التركيز على شخصية معينة. وفي هذا مبدأ إداري عظيم الفائدة، ذلك أن في التنويع توسيع لدائرة المتدربين، وكذا مَدُّ مساحة الثقة، وفيها التشجيع لأكبر قدر ممكن من الأعوان، وفي ذلك كشف لمزيد من المواهب والقدرات. وهذا ما تغفل عنه كثير من المبادئ الإدارية، وبالتالي يَشْعُر الأعوان في الميدان الإداري أنه لا مجال لهم، وإن الأمر محصور فيه العدد، وبالتالي يُزَهّدون في القيادة؛ وتُقْتَل طموحات الكثير منهم.

ـ قصة ثمامة بن أُثَال:

عن أبي هريرة ﷺ قال (بعث النبي ﷺ خيلاً قِبَلَ نجدٍ، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة ابن أُثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ماذا عندك يا ثمامة ؟ فقال: عندي خير. يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تُنعِم تُنعِم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسلْ منه ما شئت. فتُرِكَ حتى كان الغد ثم قال له: ما عندك يا ثمامة ؟ فقال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر, فتركه حتى كان بعد الغد فقال: ما عندك ياثمامة ؟ فقال : عندي ما قلت لك...)[1]

وفي هذا المقطع من لحديث تظهر صورة من صور حلمه ﷺ إذ لم يتخذ قراراً سريعاً تجاه ثمامة، وفيه السؤال النبوي الكريم الذي يستثير ذهن ثمامة (ماذا عندك يا ثمامة ؟) وكأنه يقول له ﷺ ما تظن أني فاعل بك ؟ وفي هذا استثارة لذهن المسؤول، فيتعرف على الاحتمالات المتوقعة، ليكتشف فيما بعد الخيار النبوي من بين إمكانات متعددة من الخيارات التي يمكن أن ينفذ أقواها على ثمامة. فيجيب ثمامة: عندي خير. يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم. وإن تُنعم تُنعم على شاكر. فيبين ثمامة أنه ما يظن إلا خيراً أو لا يحمل إلا خيرا، فإن تقتل تقتل ذا دم، أي صاحب دم عظيم لمكانته أو حرمته عند قومه، ثم يبين الخيار الثاني

---

[1] البخاري (١٦٨/٣) برقم (٤٣٧٢)

الذي يمكن أن يتخذه رسول الله ﷺ وهو العفو عنه، وإن هذا العفو لرجل يشكر له ذلك؛ ويقدر هذا الصنيع، ثم يذكر خياراً ثالثاً وهو الافتداء بالمال مقابل العفو عنه. ثم يتركه ﷺ فيأخذ مزيداً من التفكير في حاله وما يمكن أن يُحكم به عليه. ويكرر عليه ﷺ السؤال من الغد، فيقتصر ثمامة في الجواب على ما يأمله من رسول الله ﷺ وهو العفو، ويرمز للخيارات الأخرى بقوله: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر. ثم يتكرر السؤال في اليوم الثالث، فتكون الإجابة أكثر اختصاراً، حيث قال: ما قلت لك. وهنا يأتي العفو عنه من رسول الله ﷺ حيث يقول أبو هريرة عن رسول الله ﷺ وعن تمام القصة(...فقال: أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي. والله ما كان من دين أبغضَ إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي. والله ما كان من بلد أبغضَ إليّ من بلدك، فأصبح بلدكَ أحب البلاد إلي. وأن خَيلكَ أخذتني، وأنا أريد العمرة، فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله ﷺ ، وأمَرَه أن يعتمر. فلما قدم مكة قال له قائل: صبَوْتَ ؟ قال: لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ)[1]

فلقد تأثر ثمامة بهذا الصنيع النبوي الكريم، فتغير حاله من مُبغض للرسول ﷺ وللدين وللمكان إلى محب لكل ذلك. فلم يطمع ﷺ في مال، ولم يطمع في دم رجلٍ له من المكانة ما له عند قومه.

فظهرت بذلك مظاهر وانعكاسات المعاملة الحسنة، لتجعل من العدو اللدود محباً حميماً، فَيُقَدِّم رسولُ الله ﷺ درساً عملياً تربوياً لهذا المسلك والمنهج الذي يعكس صفاء الإسلام، وصفاء قلب المسلم، وأنه ليس دين انتقام، بل هو دين رحمة وشفقة.

---

[1] البخاري (١٦٨/٣) برقم (٤٣٧٢)

وفيه من الفوائد أن القلوب سريعة التغير من البغض إلى الحب، والعكس كذلك، مما يؤكد إمكانية التغيير التربوي السريع، وأهمية المعالجة الحكيمة.

قال ابن حجر رحمة الله عليه: وفي قصة ثمامة من الفوائد ربط الكافر في المسجد، والمن على الأسير الكافر، وتعظيم أمر العفو عن المسيء، لأن ثمامة أقسم أن بغضه انقلب حباً في ساعة واحدة، لِمَا أسداه النبي ﷺ إليه من العفو والمن بغير مقابل. وفيه الاغتسال عند الإسلام، وأن الإحسان يُزيل البغض، ويُثبت الحب، وأن الكافر إذا أراد عمل خير ثم أسلم شرع له أن يستمر في عمل ذلك الخير. وفيه الملاطفة بمن يُرجى إسلامه من الأسرى إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام.(١)

ـ غزوة بني لحيان:

وفي سنة ستٍّ، من مهاجره ﷺ استخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبدالله بن أم مكتوم واتجه إلى بطن غران، وهي قريبة من عسفان، حيث وجد رسول الله ﷺ وجداً شديداً على عاصم بن ثابت وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ مما حصل لهم في سرية الرجيع ، وأراد أن يثأر لهم، ، فنزل بها وترحم على أصحابه ودعا لهم. وقد هرب بنوا لحيان في رؤوس الجبال، فأقام يوماً أو يومين، فبعث السرايا في كل ناحية، فلم يقدروا على أحد، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة حيث غاب عنها أربع عشرة ليلة.(٢)

ـ سرية عُكَّاشَة رضي الله عنه إلى الغَمْر:

وفي شهر ربيع الأول سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ وَجَّه عليه الصلاة والسلام عُكَّاشَة بن مِحْصَن الأسَدِي إلى الغمر في أربعين رجلاً، ونَذِرَ به القوم فهربوا فاستاقوا مائتي بعير؛ وحدروا بها إلى المدينة.(٣)

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٨٨/٨)

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى(٧٩/٢-٨٠)

(٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى(٨٤/٢-٨٥).

ـ سرية محمد بن مسلمة ﷺ إلى ذي القَصَّة:

وكانت في شهر ربيع الآخر؛ في سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ، حيث بعث عليه الصلاة والسلام إلى بني ثعلبة وبني عُوَال من ثعلبة، وهم بذي القصة في طريق الرَّبَذَة في عشرة نفر، فأحدق به القوم وهم مائة رجل فترامو ساعة من الليل؛ ثم حملت الأعراب عليهم بالرماح فقتلوهم، ووقع محمد بن مسلمة جريحاً، ومَرَّ به رجلٌ من المسلمين فحمله حتى وَرَدَ به المدينة, فبعث النبي ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً إلى مصارع القوم، فلم يجدوا أحداً، ووجدوا نَعَمَاً وشاءً فساقه ورجع.[١]

ـ سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى بني سُلَيْم بالجَموم:

وكانت في شهر ربيع الآخر سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ بعث عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة؛ فسار حتى وَرَدَ الجموم؛ ناحية بطن نخل عن يسارها، فأصابوا عليه امرأة من مزينة يقال لها حليمة، فدلتهم على مَحَلَّة من محال بني سليم، فأصابوا نعماً وشاءً وأسرى، فكان فيهم زوجُ حليمة المُزَنِيَّة. فوهب رسول الله ﷺ للمُزَنية نفسها وزوجها.[٢] وفي هذا دلالة على وفائه وكرمه ﷺ .

ـ سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى العيص:

وفي جمادى الأولى سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ بلغه عليه الصلاة والسلام أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام، فبعث زيد بن حارثة في سبعين ومائةُ راكب يتعرض لها، فأخذوها وما فيها، وأسروا ناساً ممن كان في العير، منهم أبو العاص بن الربيع فاستجار بزينب بنت رسول الله ﷺ ، فأجارته ونادت في الناس حين صلى رسول الله ﷺ الفجر: إني قد

---

(١) المرجع السابق (٨٥/٢)

(٢) المرجع السابق (٨٦/٢).

أجرت أبا العاص ! فقال رسول الله ﷺ : وما علمت بشيء من هذا، وقد أجرنا مَنْ أَجَرْتِ، وَرَدَّ عليه ما أخذ منه.(١)

وفي ذلك من الفوائد إكرام المرأة، وقبول جوارها.

ـ سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى الطَّرَف:

وفي جمادى الآخرة سنة ست من الهجرة؛ بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى الطرف، وهو ماء قريب من المراض دون النُّخيل، فخرج إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلاً، فأصاب نعماً وشاءً وهربت الأعراب، ولم يلق كيداً.(٢)

ـ سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى جُذَام:

وفي جمادى الآخرة سنة ست من الهجرة بعث رسول الله ﷺ زيد إلى الضليع، وهم بطن من جُذَام لتأديبهم.(٣)

ـ سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى وادي القُرَى:

كانت في رجب سنة ست من الهجرة.(٤)

وفي تكرار اختيار زيد بن حارثة ﷺ قائداً للسرية، ما يفيد أن الشخص إذا وفقه الله تعالى في أمر يكرر عليه ذلك.

ـ سرية عبد الرحمن بن عوف ﷺ إلى دُومة الجندل :

كانت في شعبان سنة ست من الهجرة، حيث دعا رسول الله ﷺ عبدالرحمن بن عوف فأقعده بين يديه، وعمَّمَه بيده وقال: أغزُ بسم الله وفي سبيل الله، فقاتِل من كفر بالله ! لا تَغُلّ ولا تغدر ولا تقتل وليداً ! وبعثه إلى كلب في دومة الجندل، وقال: إن استجابوا لك

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٨٧).

(٢) المرجع السابق (٢/٨٧)

(٣) المرجع السابق، (٢/٨٨).

(٤) المرجع السابق (٢/٨٩).

فتزوج ابنة ملكهم. فسار عبدالرحمن حتى قدم دومة الجندل، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانياً، وكان رأسهم، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام من أقام على إعطاء الجزية، وتزوج عبدالرحمن تُمَاضِر بنت الأصبغ، وقدم بها إلى المدينة، وهي أمّ أبي سلمة بن عبدالرحمن.(١)

وفي مجريات هذه السرية من الفوائد، أن تعميم أو إلباس الوالي أو الحاكم للقائد أو الجندي أو الإداري ما يرفع معنويته، وأنه أمر مطلوب؛ وليس على سبيل الديمومة. وكذلك توصيته بما ينير له الطريق ويحقق الخير في أداء مهمته. كما أن في ذلك عناية الإسلام واهتمامه بدماء الناس، وحفظها وصيانتها، حيث نهاه ﷺ عن الغدر، وقتل الولدان، كما نهاه عن الغل. وهذه من مكارم أخلاق الإسلام.

وفي زواج القائد من بنت ملكهم إن استجابوا ما يرفع معنوية ملكهم ويقوي الروابط، ويبين عناية المنهج الإسلامي بالجوانب المعنوية، وغرس الروابط الاجتماعية.

ـ سرية علي بن أبي طالب ﷺ إلى بني سعد بن بكر بِفَدَك:

كانت في شعبان سنة ست من الهجرة، حيث بلغ رسولَ الله ﷺ أن لهم جمعاً، يريدون أن يُمِدُّوا يهود خيبر، فبعث إليهم ﷺ علي بن أبي طالب في مائة رجل، فأغاروا عليهم، فأخذوا خمسمائةِ بعير، وألفي شاة، وهربت بنو سعد.(٢)

ـ سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى أمّ قِرْفَة بوادي القُرَى:

وكانت في شهر رمضان سنة ست من الهجرة، حيث خرج زيد بن حارثة في تجارة إلى الشام، ومعه بضائع لأصحاب النبي ﷺ فلما كان دون وادي القرى لقيه ناس من فزارة، من

---

(١) المرجع السابق (٨٩/٢).

(٢) المرجع السابق (٨٩/٢-٩٠)

بني بدر، فضربوه وأصحابه، وأخذوا ما كان معهم، فَقَدِمَ على رسول الله ﷺ وأخبره، فبعثه عليه الصلاة والسلام إليهم، فصبحهم زيد وأصحابُه، فكبروا وأحاطوا بالحاضر.[١]

ـ سرية عبد الله بن رواحة ﷺ إلى أُسَيْر بن زارِم اليهودي:

وكانت في شوال سنة ست من الهجرة، ذلك أنه لما قُتِلَ أبو رافع سلام بن أبي الحُقَيِق أمَّرت يهود عليهم أُسَيْر بن زارِمٍ فسار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب الرسول ﷺ. ولما بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ وجَّهَ عبدالله بن رواحة في ثلاثين رجلاً، فقدموا على أُسَيْر، فقالوا: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ؟ قال: نعم، ولي منكم مثل ذلك ؟ وقالوا: نعم. فقلنا: إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويُحْسِنُ إليك، فطمع في ذلك فخرج؛ وخرج معه ثلاثون رجلاً من اليهود، مع كل رجل رديف من المسلمين، حتى إذا كنا بقرقرة ثِبار ندم أسير، فقال عبدالله بن أنيس، وكان في السرية: وأهوى بيده إلى سيفي ففطنتُ له ودفعت بعيري، وقلت: غدراً أي عدو الله ! فعل ذلك مرتين، فنزلتُ فسُقْتُ بالقوم حتى انفرد لي أُسير فضربته بالسيف فَأَنْدَرْتُ عامة فخذه وساقه، وسقط عن بعيره، وبيده مِخْرَش من شَوْحَط[٢] فضربني فشجني، وملنا على أصحابه فقتلناهم كلهم غير رجل واحد أعجزنا شداً، ولم يُصَبْ من المسلمين أحد، ثم أقبلنا على رسول الله ﷺ فحدثناه الحديث فقال: قد نجاكم الله من القوم الظالمين.[٣]

ـ سرية كرز بن جابر الفهري ﷺ إلى العُرَنيين:

تبين هذه السرية الخيانة والغدر من أناس قدموا على رسول الله ﷺ من قبيلة عُكَل وعُرَيْنَة، وكان ذلك في شوال سنة ست من الهجرة.[٤] وعُكَل قبيلة من تيم الرباب من

---

(١) المرجع السابق (٢/٩٠-٩١)

(٢) الشوحط شجر النبع، والمخرش شبه المقرعة.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٩٢-٩٣)

(٤) المرجع السابق (٢/٩٣)

عدنان، وعُرينة حي من قضاعة وحي من بجيلة من قحطان.[1] وقد أعلنت تلك المجموعة من الناس إسلامهم، وشكو إلى رسول الله ﷺ ما بهم من السُقْم: فعن قتادة أن أنساً رضي الله عنه حدثهم (أن ناساً من عُكَل وعُرَيْنَة قدموا المدينة على النبي ﷺ وتكلموا بالإسلام، فقالوا: يا نبي الله إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه، فيشربوا من ألبانها وأبوالها....)[2]

والظاهر أن السَقَم الذي كان بهم، هو الهزل الشديد، والجهد من الجوع،[3] وقد أرشدهم ﷺ وأعانهم، بأن أمر لهم بذود، أي إبل، كما في صحيح مسلم (...فقال لهم رسول الله ﷺ إن شئتم أن تخرجوا إلى إبل الصدقة فتشربوا من ألبانها وأبوالها ؟ ففعلوا، فَصَحُّوا...)[4] وهذا الصنيع منه ﷺ يدل على اهتمامه عليه الصلاة والسلام وحرصه لشكوى الشاكين؛ وعنايته بأمر الناس؛ وبصحتهم وما يعانونه، مما يفيد أهمية عناية المسؤل بمن يقدم إليه طالباً عونه ومساعدته.

قال ابن حجر: "مشروعية الطب والتداوي بألبان الإبل وأبوالها".[5]

وبعد هذا الإكرام منه ﷺ والعناية بهم، يحدث منهم الغدر بما استؤمنوا عليه، (... فانطلقوا، حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا الذود، فبلغ النبي ﷺ فبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم، فسَمروا أعينهم، وقطعوا أيديهم، وتُركوا في

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٣٣٧/١)

(٢) البخاري (١٣٤،١٣٣/٣) برقم (٤١٩٢)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٢٢٧/١)

(٤) مسلم (١٢٩٦/٣) برقم (١٦٧١)

(٥) ابن حجر، فتح الباري (٣٤١/١)

ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم.) قال قتادة (بلغنا أن النبي ﷺ بعد ذلك كان يَحُث على الصدقة وينهى عن المُثْلَةِ.)[1]

فقد ورد في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ بعث إليهم شباباً من الأنصار، ففي الحديث: (...وعنده شباب من الأنصار قريب من عشرين، فأرسلهم إليهم، وبعث معهم قائفاً يقتص أثرهم)[2] مما يبين المهام العظام التي يقوم بها الشباب في عهده ﷺ كما يفيد استخدامه ﷺ للقائف أهمية استخدام المباح من الوسائل المعاصرة التي يمكن أن يتعقب أو يعرف بها رجل الأمن المطلوبين.

ثم تكون عقوبتهم من جنس ما فعلوا، حيث قام أولئك الناس بتسميل أعين الرعاء، كما ورد عن أنس رضي الله عنه (إنما سَمَلَ النبي ﷺ أعين أولئك، لأنهم سَمَلُوا أعين الرعاء)[3]

وروى قتادة عن ابن سيرين أن قصتهم كانت قبل أن تنزل الحدود، ولموسى بن عقبة في المغازي: وذكروا أن النبي ﷺ نهى بعد ذلك عن المثلة بالآية في سورة المائدة.[4] وقال ابن حجر بعد استقراء: وقد تبين بهذا أن في الحديث الذي أخرجه النسائي من طريق عبد الصمد بن عبد الوارث عن هشام عن قتادة عن أنس، قال (نهى رسول الله ﷺ عن المثلة) إدراجاً وأن هذا القدر من الحديث لم يسنده قتادة عن أنس؛ وإنما ذكره بلاغاً.[5]

وفيه من الفوائد: قدوم الوفود على الإمام، ونظره في مصالحهم، وفيه مشروعية الطب والتداوي بألبان الإبل وأبوالها، وفيه أن كل جسد يطب بما اعتاده، وفيه قتل الجماعة بالواحد، سواء قتلوه غيلة أو حرابة، إن كان قتلهم قصاصاً. وفيه المماثلة في القصاص،

---

(١) البخاري (١٣٤.١٣٣/٣) برقم (٤١٩٢)

(٢) مسلم (١٢٩٨/٣) برقم (١٦٧١.١٣)

(٣) مسلم (١٢٩٨/٣) برقم (١٤. ١٦٧١)

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٣٤١/١)

(٥) المرجع السابق (٤٥٩/٧)

وليس ذلك من المثلة المنهي عنها. وثبوت حكم المحاربة في الصحراء، وفيه جواز استعمال أبناء السبيل إبل الصدقة في الشرب وفي غيره قياساً عليه؛ بإذن الإمام، وفيه العمل بقول القائف.[1]

ـ سرية عمرو بن أمية الضَّمْرِي ﷺ :

رغب أبو سفيان في إرسال من يقتل رسول الله ﷺ فوجد أعرابياً فاتكاً باطشاً، قد وافق على إنفاذ رغبة أبي سفيان، فزوده أبو سفيان بما يحتاج إليه، وأوصاه بكتمان الأمر، فجاء الرجل إلى المدينة، فاستدل على رسول الله ﷺ في مسجد بن عبد الأشهب، فلما رآه رسولُ الله ﷺ قال: إن هذا ليريد غدراً، والله حائل بينه وبين ما يريد. وعندما انحنى الرجل على الرسول ﷺ جبذه أُسيد بن الحضير ليتنحى عن الرسول ﷺ فإذا الخنجر بداخل إزاره، فأسقط في يد الأعرابي، وعرض عليه الرسول ﷺ الأمان إن هو صدقه، فأخبره بالقصة وما جعل له أبو سفيان، فخلّى عنه الرسول ﷺ فأسلم...[2]

وهنا تظهر معجزة أخرى من معجزات نبوته ﷺ حيث عرف مراد الرجل ومقصده. كما يظهر حب وإجلال الصحابة رضي الله تعالى عنهم لرسول الله ﷺ حيث يقوم أسيد بن الحضير لينحي هذا الرجل عن رسول الله ﷺ ثم تظهر صورة أخرى منه ﷺ في أحلك المواقف وأشدها، فيعفو عليه الصلاة والسلام عن الرجل، فيدخل في الإسلام.

فلقد قدَّم ﷺ في هذا الموقف ما يجب أن يستفيد منه المسلم من العفو والصفح عمن أساء إليه فيما هو مثل ذلك، أو فيما هو دونه وأبسط منه. فلكم يتأفف الإنسان عن الصفح في أمور صغيرة وحقيرة؛ مع أقرب الناس إليه من زوجة وإخوة وأصدقاء، فكيف إذا

---

(١) المرجع السابق (٣٤١/١)

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٩٤-٩٣/٢)

كان ذلك مع غيرهم ؟ وكيف لو كان في مثل ذلك ؟ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

وبعد ذلك بعث الرسول ﷺ عمرو بن أمية وسلمة بن أسلم بن جريش إلى أبي سفيان ليقتلاه، فدخلا مكة، ومضى عمرو بن أمية يطوف بالبيت ليلاً فرآه معاوية بن أبي سفيان فعرفه، فأخبر قريشاً بمكانه، فخافوه وطلبوه، وكان فاتكاً في الجاهلية، وقالوا : لم يَأْتِ عمرو لخير؛ فحشد له أهل مكة وتجمعوا، وهرب عمرو وسلمة.(٢)

وفي هذا دلالة على أن الإنسان مهما بلغ درجة من الطاعة لله تعالى فإن مراده لا يحصل له في كل وقت وحين، فالله يعلم ما لا يعلمه الإنسان، ولذلك فإن المسلم يلزمه إدراك ذلك حتى تَلْبَسُه الطمأنينة والسعادة بقضاء الله وقدره وتدبيره.

ـ سرية الخَبَط (سيف البحر)

عن وهب بن كيسان عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه قال (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً قِبَل الساحل، وأمَّرَ عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاثمائة ، فخرجنا وكنا ببعض الطريق فَنِيَ الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فَجُمِع، فكان مزودَي تمرٍ، فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة، فقلت: ما تغني عنكم تمرة ؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فَنِيَت...)(٣)

وفي رواية أخرى يرويها عمرو بن دينار قال (سمعت جابر بن عبدالله ﷺ يقول: بعثنا رسول الله ﷺ ثلاثمائة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن لجراح، نرصد عير قريش، فأقمنا بالساحل

---

(١) سورة الأحزاب: آية رقم (٢١)

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٩٤.٩٣/٢)

(٣) البخاري (١٦٥/٣) برقم (٤٣٦٠).

نصف شهر، فأصابنا جوع شديد؛ حتى أكلنا الخبط، فسمي ذلك الجيشُ جيشَ الخبط...)[1]

تبين هاتان الروايتان أن رسول الله ﷺ أمَّر أبا عبيدة بن الجراح على ثلاثمائة من المسلمين، في بعثٍ تجاه الساحل، لرصد عير قريش. وفي هذا مزيد من إظهار قوة المسلمين تجاه عدوهم الذي يترصد لهم، وقد فني الزاد الذي كان معهم، فأمر أبو عبيدة بجمع أزواد جيشه فكان قدر مزودين من التمر، فيعطيهم منه قليلاً قليلا. وفي هذا إظهار لمبدأ التكافل فيما بينهم، ولمبدأ العدل بين أفراد جيشه بعد التكافؤ، ليتساووا في النفقة، دون أن يخص أحداً بمزيد فضل. فلما تناقص أصبح نصيب الواحد منهم تمرة واحدة، ويحدث التساؤل ، ما تغني التمرة الواحدة ؟ وتأتي مزيد إجابة في مسند الإمام أحمد (...قال فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة، قال: قلت: كيف كنتم تصنعون بها ؟ قال: نَمُصّهَا كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها الماء، فيكفينا يومنا إلى الليل، قال: وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله...)[2]

فهذا يبين ما قد وجده أولئك الصحابة رضي الله تعالى عنهم من الفاقة والمسغبة التي لحقتهم في سبيل الله تعالى، وصبروا على ذلك في طاعة الله تعالى؛ حتى أكلوا الخبط الذي هو ورق السلم، وتمرة واحدة يمصها الرجل ويشرب عليها الماء، ليكتفي بها طعام يوم واحد. وكيف بالمسلم الذي يعيش في رغد من العيش ولا يصبر على أداء فرائض الله تعالى، ولا يصبر عن ارتكاب المعاصي. بل وفي هذا تسلية للمسلم الذي ألمَّ به الفقر والعوز أن يعرف ما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ فلم يسرقوا ولم ينهبوا أحداً وهم ثلاثمائة رجل.

---

(١) البخاري (١٦٥/٣) برقم (٤٣٦١)

(٢) المسند (٣١١/٣)

ثم عوضهم الله تعالى بأمرين: أحدهما: ما كان من صنيع رجل منهم. (...قال جابر: وكان رجل من القوم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه) وكان عمرو يقول: أخبرنا أبو صالح أن قيس بن سعد قال لأبيه: (كنت في الجيش فجاعوا. قال: انحر ، قال: نحرت. قال: ثم جاعوا قال: انحر، قال: نحرت. قال: ثم جاعوا، قال: انحر. قال: نحرت. ثم جاعوا، قال: انحر، قال: نهيت).[1]

فتظهر في هذا المشهد صورة من صور الكرم والجود التي كانت من سمات أصحاب رسول الله ﷺ حيث قام قيس بن سعد بن عبادة ـ رضي الله تعالى عنهما ـ لما رأى ما بالناس من المسغبة والفاقة، قال: من يشتري مني تمراً بالمدينة بجزور هنا ؟ فقال له رجل من جهينة: من أنت ؟ فانتسب له، فقال عرفتُ نسبك، فابتاع منه خمس جزائر بخمسة أوسق، وأشهد له نفراً من الصحابة، فامتنع عمر لكون قيس لا مال له، فقال الأعرابي: ما كان سعد ليجني بإبنه في أوسق تمر، فبلغ ذلك سعداً فغضب ووهب لقيس أربع حوائط؛ أقلها يجذ خمسين وسقاً.[2] ويلاحظ هنا كرم قيس، إذ يكرم وهو لا مال عنده، ولكنه يعرف أن أباه يُحب مكارم الأخلاق، بل إن ذلك من مكارم البيت الذي ينتمي إليه قيس، ويبين ذلك أنه لما قدموا ذكروا شأن قيس، فقال النبي ﷺ (إن الجود من شيمة أهل ذلك البيت) وورد في حديث الواقدي: أن أهل المدينة بلغهم الجهَد الذي قد أصاب القوم، فقال سعد بن عبادة: إن يك قيس كما أعرف فسينحر للقوم.[3]

ثم يأتي دور القائد الموجه الخائف على قيس، فيوقفه عن التمادي في نحر الإبل عن العدد المذكور، رحمة ورفقاً وشفقة به وبكرمه.

---

(١) البخاري (١٦٥/٣) برقم (٤٣٦١)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٨١/٨) نقلاً عن الواقدي، المغازي (٧٧٥/٢)

(٣) المرجع السابق (٨١/٨)

ثم يأتي اجتهاد عمر ﵁ فيتوقف، دون مجاملة لقيس ﵁، لعلمه بأنه لا مال له. مما يبين حالهم عند اجتهادهم، دون أن ينزعج أحد من أحد، عندما تتباين الاجتهادات، فرضي الله تعالى عنهم أجمعين، حيث قدموا لنا المنهجية السلوكية في التعامل والتآخي والتواد والقيادة والكرم والجود والتضحية.

وأما العوض الثاني الذي عوضهم الله تعالى به فيبينه تمام حديث جابر ﵁ (...ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظَّرِب، فأكل منه القوم ثمان عشرة ليلة. ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فَنُصِبَا، ثم أمر براحلة فرحلت، ثم مرت تحتهما، فلم تصبهما)[1]

وفي رواية عمرو بن دينار ﵁ (...فألقى لنا البحر دابة يُقال لها العنبر فأكلنا منه نصف شهر، وادَّهنّا من وَدَكِهِ حتى ثابت إلينا أجسامنا. فأخذ أبو بُرَيْدَة ضلعاً من أضلاعه فنصبه، فعمد إلى أطول رجل معه. قال سفيان مرَّة: ضليعاً من أضلاعه فنصبه، وأخذ رجلاً وبعيراً فَمَرَّ تحته...)

فأكرمهم الله تعالى بعد هذا الجهد والعناء بحوت فيه من الضخامة والكبر، ما يغني وصفه في الحديث عن إعادة ذكره، وفي هذا كرامة بكرم الله تعالى وتوفيقه لعباده الصابرين، فيتبين من ذلك أن ثمار الصبر من الله تعالى جزيلة جداً.

---

(١) البخاري (١٦٥/٣) برقم (٤٣٦٠).

الفصل التاسع

من غزوة الحديبية إلى تمام غزوة خيبر

غزوة الحديبية :

في شهر ذي القعدة من سنة ست للهجرة خرج رسول الله ﷺ للعمرة هو وأصحابه.(١)

والحديبية اسم بئر تقع على بُعد اثنين وعشرين كيلاً إلى الشمال الغربي من مكة، وتُعرف بالشميسي. وفيها حدائق الحديبية، ومسجد الرضوان.(٢)

وكان خروجه ﷺ وأصحابه ليس بهدف القتال، وإنما للعمرة، كما جاء عنه ﷺ في الحديث (...إنَّا لم نَجِئ لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين..)(٣)

وبالرغم من هذا الهدف غير القتالي إلا أن في خروجهم من الفوائد أنه مزيد إعلان بأن هذا الدين يُعَظِّم شعائر الله تعالى، وستعلم العرب بما صار عليه المسلمون من القوة التي تمكنهم من القدوم إلى مكة معتمرين؛ غير آبهين بقوة كفار قريش وتمردها، بل إن في ذلك كسراً لتمرد كفار قريش وإعلان ضعفها من قبل المسلمين.

وفي هذا من الفوائد أن الدولة المسلمة المضطهدة يلزمها الصبر أولاً، وإعزاز قوتها ومكوناتها ثانياً، وأن لا تبادر بإثارة أعدائها عليها، وأن الحكمة مطلب في التعامل مع الأحداث، كما هو ظاهر في صلح الحديبية، وأن الأخذ بسنن الله تعالى مطلب يلزم الأخذ به، كما أخذ به ﷺ

قال ابن هشام: وخرج في ذي القعدة معتمراً، لا يريد حرباً. واستعمل على المدينة نُمَيلة بن عبد الله الليثي. واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب، ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذي صنعوا، أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، فأبطأ

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٩٥)

(٢) أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٢٤)

(٣) البخاري (٢/٢٧٩_٢٨٤) برقم (٢٧٣١،٢٧٣٢)

عليه كثير من الأعراب، وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له.(١)

وقد بين القرآن الكريم حقيقة نوايا الأعراب وما حصل منهم من تأخر وتباطؤ، قال تعالى ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾(٢)

لقد كشف الله تعالى مكنون أنفسهم، وما كانوا عليه من سوء الظن بربهم سبحانه وتعالى وبنبيه ﷺ وبالنتيجة التي سيؤول إليها أمر الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم. و ما ظَنَّه الأعراب يفيد أن استقراء الواقع في معزل عن سنن الله تعالى الكونية والشرعية؛ مع عدم ربط ذلك بقدرة الله تعالى وقدره يعطي نتائج مغلوطة وخاطئة. كما يفيد خبر الأعراب أن ضعف الإيمان يجعل المرء لا يثبت على مبادئه ويدافع عنها، بل تلعب به الأهواء والعواصف كيفما اتجهت وتحولت. كما أن التبرير الذي يقبله الناس نتيجة محدودية علمهم الدنيوي فقط، دون ربطه بالجانب الشرعي يُحدث شرخاً عظيماً في الاستقراء العلمي، ثم في نتائج ذلك. كما أن التبريرات النفسية وإظهار عكس ما يبطن المرء لا يخفى على الله تعالى وإن خفي عن الناس، فإن الله تعالى يعلم حقيقته بتفاصيله ودقائقه وبواعثه حتى وإن لم تُفصح عنه النفس البشرية. فليعلم الإنسان أنه لا أحد يستطيع أن يدفع ما أراده الله تعالى من نفع أو ضُرٍّ أراده الله تعالى قدراً وشرعاً.

(١) ابن هشام السيرة النبوية (٣/٣٢١،٣٢٢)

(٢) سورة الفتح: آيات رقم (١١،١٢)

ولقد خرج المسلمون في كوكبة عظيمة، قوامها ألف وأربعمائة رجل، أو أكثر، كما جاء في الحديث عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما (أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة أو أكثر...)[١]

(خرج النبي ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه. فلما أتى ذا الحليفة قلَّد الهدى وأشعرَه، وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة...)[٢] واسمه بشر بن سفيان الخزاعي.[٣] ويبين هذا مدى أهمية أخذ الحيطة والحذر، وأهمية الأخذ بالأسباب، فهو رسول الله ﷺ ولكنه عليه الصلاة والسلام يأخذ بسنن الله تعالى التي يلزم المسلم العناية بها، وأن لا يكون متواكلاً.

(...وسار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، قال: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك...)[٤]

وغدير الأشطاط: موضع بملتقى الطريقين من عُسفان للحاج إلى مكة.[٥] وسياق الحديث التالي يوضح مزيداً من خبر قريش، (خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ : إن خالد بن الوليد بِالغَميمِ؛ في خيل لقريش طليعة[٦]...)[٧] وبعد أن علم رسول الله ﷺ بما اتخذته قريش، لم يتخذ قراراً من عنده ﷺ وهو النبي المجتبى؛

---

[١] البخاري (١٢٨-١٢٧/٣) برقم (٤١٥١)

[٢] البخاري (١٣١/٣) برقم (٤١٧٨، ٤١٧٩)

[٣] ابن حجر، فتح الباري (٤٥٤/٧)

[٤] البخاري (١٣١/٣) برقم (٤١٧٨، ٤١٧٩)

[٥] ابن منظور، لسان العرب (٣٣٥/٧)

[٦] قال ابن حجر: وسياق الحديث ظاهر في أنه كان قريباً من الحديبية، فهو غير كراع الغميم الذي وقع ذكره في الصيام، وهو الذي بين مكة والمدينة. والطليعة هي مقدمة الجيش، . ابن حجر، فتح الباري (٣٣٥/٥)

[٧] البخاري (١٣١/٣) برقم (٤١٧٨، ٤١٧٩)

بل استشار أصحابه، وقد حصل منه ذلك كثيراً؛ كما ورد فيما سبق من أحداث السيرة النبوية العطرة. (...فقال: أشيروا أيها الناس عليَّ، أترون أن أميل إلى عِيالِمِ وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ؟ فإن يأتونا كان الله عزَّ وجلَّ قد قطع عيناً من المشركين، وإلا تركناهم محروبين. قال أبو بكر: يا رسول الله خرجتَ عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه، قال: امضوا على اسم الله)[١] فسلك بهم رسول الله ﷺ طريقاً آخر وعرة، عبر ثنية المرار، وهذه الثنية عند الحديبية، قال الإمام النووي: قال الحازمي قال ابن إسحاق: هي مهبط الحديبية.[٢] حيث قال لهم ﷺ (...فخذوا ذات اليمين. فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش[٣] فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يُهْبِطُ عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس، حَلْ حَلْ. فَأَلَحَّتْ. فقالوا خَلأَتِ القصواء. فقال النبي ﷺ : ما خَلأَتِ القصواء؛ وما ذاك لها بِخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل...)[٤]

ويظهر في هذا الموقف فوائد عديدة، منها أهمية اتخاذ المسلك المناسب في الوقت المناسب، وأن مقاتلة العدو ليست في كل وقت شجاعة وحنكة، بل ربما توخيه عين الحكمة والسياسة. ومن الفوائد أن على المسلم أن يتخذ لنفسه ولغيره طريق السلامة؛ وإن كانت شاقة، كما أن مسار الحياة والدعوة فيه الكثير من المشقة.

ومن تلك الفوائد أنه عندما بركت راحلته ﷺ وحكم الناس عليها بما رأوا، فقالوا :حَلْ حَلْ وهي كلمة تقال إذا تركت الناقة السير، فألحت أي تمادت في عدم القيام، قال ﷺ

---

[١] البخاري (١٣١/٣) برقم (٤١٧٨، ٤١٧٩)

[٢] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢٦/١٧)

[٣] قترة الجيش: سواد غباره.

[٤] البخاري (٢٧٩/٢) برقم (٢٧٣١،٢٧٣٢)

منصفاً لأخلاق ناقته القصواء (ما خَلأتِ القصواء وما ذاك لها بِخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل) قال ابن بطال: جواز الحكم على الشيء بما عُرف من عادته، وإن جاز أن يطرأ عليه غيره، فإذا وقع من شخص هفوة لا يعهد منه مثلها لا يُنسب إليها، ويُرَدُّ على من نسبه إليها، ومعذرة من نسبه إليها ممن لا يعرف صورة حاله...وقال : فيه جواز التصرف في ملك الغير بالمصلحة بغير إذنه الصريح إذا كان سبق منه ما يدل على الرضا بذلك، لأنهم قالوا: حل حل فزجروها بغير إذن، ولم يعاتبهم عليه.[١]

وإذا كان هذا العدل في حق سلوك الحيوان، فإن الإنسان أولى به، لما يلحقه من التأثر، وينعكس عليه مما نُسب إليه. ولَكم يُحْكَمُ على الإنسان بما نَدَرَ عنه من سلوك أخلاقي ليس من طبعه ولا من خُلُقه، فيتأذى بذلك الحكم والوصف، فما أحوج البشرية إلى هذه الدلالة الخُلُقية من رسول الله ﷺ مع ناقته القصواء. وفي هذا الموقف أيضاً أن للإنسان أن يتحدث بما يعرف وبما اعتاده عن الشيء، وإن خالف حقيقة ما يجهله. وأن على من له معرفة أن ينبه المتحدث إلى حقيقة الأمر، ليصحح حكمه وفهمه.

وبهذا فلا يوصف الإنسان بما يطرأ على تصرفاته من سلوك حميد أو ذميم، وإنما العمدة على ما أصبح له سجية وطبعاً وعادة عُرِفَ بها. وإن كان الخطأ يُنسب إليه، ولا يُنسب هو للخطأ، وبالتالي لا يوصف به على أنه طبيعة له. وأما ما يتعلق بتطبيق العقوبات الشرعية والحكم القضائي؛ فيأخذ مجراه، وفق شريعة الله تعالى.[٢]

ويوضح جابر رضي الله عنه كيفية صعود الثنية، قال: قال رسول الله ﷺ (من يصعد الثنية، ثنية المِرَار، فإنه يُحَطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل. قال: فكان أول من صعدها خيلنا، خيل بني الخزرج، ثمَّ تَتَامَّ الناسُ. فقال رسول الله ﷺ : وكلكم مغفور له، إلا صاحب الجمل الأحمر،

---

[١] ابن حجر، فتح الباري (٥/٣٣٥)

[٢] خالد بن حامد الحازمي، أصول التربية الإسلامية، ص (١٦٧)

فأتيناه فقلنا له: تعال. يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال: والله لأن أجد ضالتي أحبُ إليَّ من أن يستغفر لي صاحبكم. قال: وكان رجل ينشد ضالة له.)[١] ويبين هذا الموقف شجاعة الخزرج، ومبادرتهم لفعل الخير، فَيُقَدِّمُون بذلك قدوة تربوية للمسلم، بأن يكون سباقاً في طاعة الله تعالى، وقد كانت المبادرة من جميع من كان مع رسول الله ﷺ وإن كان الخزرج هم أول من صعد الثنية، فحازوا جميعاً تلك البشارة من رسول الله ﷺ إلا صاحب الجمل الأحمر؛ قال الإمام النووي: قال القاضي: قيل هذا الرجل هو الجد بن قيس المنافق.[٢]

وبعد أن استشار أصحابه ﷺ قال (...: والذي نفسي بيده، لا يسألوني خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فيها حُرُمَات الله إلا أعطيتهم إياها...)[٣]

فقد بين ﷺ لأصحابه في هذا الموقف مبدأ التعامل مع كفار قريش، بأنهم لن يسألوا خطة أي خصلة يعظمون فيها حرمات الله، من ترك القتال في الحرم إلا أجابهم إليها، وهذا من تعظيمه ﷺ للبيت الحرام؛ ولحرمات الله تعالى، وقد استهل هذا الإيضاح باليمين (والذي نفسي بيده) دليل على تقرير هذا المبدأ النبوي في التعامل.

فإذا كان هذا التعظيم لما يتوقع حدوثه من كفار قريش، فإن الأدعى للمسلم أن يعظم هذا البيت في كل وقت وحين، خاصة عندما يأمره بذلك القائمون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المسلمين، وأن لا يتعامل معهم بسوء أدب، أو جفاء، أو نحو ذلك، فكما عظَّم رسولُ الله ﷺ ما يمكن أن يصدر من كفار قريش حيال تعظيم الحرم، فإن في صدور ذلك من المسلم حتماً أولى.

---

[١] مسلم (٢١٤٤/٤. ٢١٤٥) برقم (٢٨٨٠)

[٢] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢٦/١٧)

[٣] البخاري (٢٧٩/٢-٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

(...ثم زجرها فوثبت. قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يَتَبَرَّضُهُ الناس تبرضاً، فلم يُلَبِّثْهُ الناس حتى نزحوه، وشُكِيَ إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صَدَروا عنه...)[1]

يوضح هذا المشهد من الحديث ما كان من نزولهم الحديبية، فقد زجر ﷺ الناقة فقامت فنزل بأصحابه ﷺ أقصى الحديبية على ثمد أي حفرة فيها ماء مثمود، أي قليل، فيأخذه الناس قليلاً قليلا، وهو معنى يتبرضه. فلم يتركه الناس إلا وقد انتهى من نزحهم له.

وهذه مشكلة قد واجهت المسلمين في هذا الموقع، مما يدل على أن المؤمن مهما قوي إيمانه؛ ومهما كان صلاحه فإنه مُعَرَّض للابتلاء، فليس هناك خير من رسول الله ﷺ فيواجه صعوبة الثنية ثم يواجه قلة الماء، بل انتهاء الماء من مصدره، ولكن لطف الله تعالى وعنايته وولايته تحف عباده المؤمنين، فلقد أجرى الله على رسوله ﷺ معجزة أخرى، وهي تكثير الماء ونبعه على غير جريان العادة. فهاهو ﷺ ينتزع سهماً من جعبته أي من كنانته ﷺ ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فما زال يجيش بالماء أي يفور من كثرة تدفقه حتى رجعوا عنه، فكانوا يجلسون على شفيره يشربون ويروون. فهذه نعمة يمتن الله تعالى بها على نبيه ﷺ وصحابته الميامين، رضي الله تعالى عنهم.

وبمتابعة أحداث أمر الحديبية من الحديث السابق يأتي موقف التفاوض، حيث جاء فيه (....فبينما هم كذلك، إذ جاء بُدَيْلُ بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة . فقال: إني تركت كعب بن لؤي

---

[1] البخاري (٢/٢٧٩-٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العُوذُ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت. فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا مُعْتَمِرِين...)[1]

ويبين هذا المقطع من الحديث مكانة قبيلة خزاعة من رسول الله ﷺ فهم عيبة رسول الله ﷺ أي أنهم موضع النصح له والأمانة على سره، والعيبة ما توضع فيه الثياب لحفظها. قال ابن حجر رحمة الله تعالى عليه: زاد ابن اسحاق في روايته: وكانت خزاعة عيبة رسول الله ﷺ مسلمها ومشركها، لا يخفون عليه شيئاً كان بمكة. وقال ابن حجر: وكان الأصل في موالاة خزاعة للنبي ﷺ أن بني هاشم في الجاهلية كانوا تحالفوا مع خزاعة، فاستمروا على ذلك في الإسلام. وفيه جواز استنصاح بعض المعاهدين وأهل الذمة إذا دلت القرائن على نصحهم وشهدت التجربة بإيثارهم أهل الإسلام على غيرهم؛ ولو كانوا من أهل دينهم، ويستفاد منه جواز استنصاح بعض ملوك العدو استظهاراً على غيرهم، ولا يعد ذلك من موالاة الكفار ولا موادة أعداء الله، بل من قبيل استخدامهم وتقليل شوكة جمعهم، وإنكاء بعضهم ببعض، ولا يلزم من ذلك جواز الاستعانة بالمشركين على الإطلاق.[2]

وقد نصح بُدَيْل ومن معه لرسول الله ﷺ وأخبروه بما كان من أمر قريش، بأنهم تجمعوا في الحديبية واستحوذوا على أماكن المياه، وقوله نزلوا أعداد مياه الحديبية أي الماء الذي لا انقطاع له. وأن معهم ذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانه، ولا يرجعوا حتى يمنعوه، وهو ما عبر عنه بقوله: ومعهم العوذ المطافيل: فالعُوذُ الناقة ذات اللبن، والمطافيل: الأمهات اللاتي معها أطفالها. وإزاء هذا التجمهر من كفار قريش يبين ﷺ أنه لم يَأْتِ لقتال، وإنما جاء وأصحابه ليعتمروا، ثم يبين عليه أفضل الصلاة والتسليم لبديل بن ورقاء ما لحق بقريش من الحرب إزاء تعنت مشركيها، وما يقترحه عليهم من خير الرأي النبوي الكريم، فيقول عليه

---

(١) البخاري (٢/٢٧٩-٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٥/٣٣٧-٣٣٨)

الصلاة والتسليم (....وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شأواً مادَدتهم مُدَّةً ويُخَلُّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فَعَلوا، وإلا فقد جَمُّوا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تَنْفَرِد سالِفَتي، ولَيُنْفِذَنَّ اللهُ أمره...)[(١)]

لقد بين رسول الله ﷺ أثر الحرب على قريش وما صنعت بهم، بما يستثير عقولهم من غفلتها؛ وعن ما لحق بهم من هلاك لرجالهم دون اعتبار، وفي هذا دليل حرصه ﷺ على حفظ الدماء حتى لأعداء الإسلام؛ ما لم يدخلوا معه في حرب، أو يكيدوا لدين الله تعالى. وهذا يوضح ويؤكد أهمية عناية الإسلام بالدماء وصيانتها وحفظها؛ ما كان لذلك سبيلاً. ثم يظهر الأسلوب التفاوضي المملوء بالحق وتنبيه الغافل عن سجايا الإسلام وهديه، وهذا ما أكده عقلاء كفار قريش عندما سمعوا مقالة رسول الله ﷺ هذه.

وقد خيرهم رسول الله ﷺ فإن شاؤوا ماددهم ﷺ أي جعل بينه ﷺ وبينهم مدة من الزمن تتوقف فيها الحرب، وهنا سيحصل أحد أمرين: إما أن يظهر غيرُه عليه؛ فكفاهم المؤنة، وإما أن يظهر ﷺ فإن شاءوا دخلوا في دين الله تعالى؛ وإلا فلا تنقضي مدة الصلح إلا وقد جموا أي استراحوا وتقووا . قال ابن حجر رحمة الله تعالى عليه: وإنما ردد الأمر مع أنه جازم بأن الله تعالى سينصره ويُظهره، لوعد الله تعالى له بذلك، على طريق التنزل مع الخصم؛ وفرض الأمر على ما زعم الخصم.[(٢)]

ومما يستفاد من هذا الأسلوب أن يُنْزِل المتفاوض الاحتمالات المتوقعة للعدو جميعها، ليريه الإنصاف، وليبين له العدل في الكلام أولاً، وليري الله من نفسه أنه تحت مشيئته سبحانه وتعالى ثانياً. وفيه من الفوائد أهمية التحدث بما يُدْرِكه المقابل ويستوعبه.

---

(١) البخاري (٢٨٤.٢٧٩/٢) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٣٣٨/٥)

ثم يختم عرضه ﷺ بما يبين عزمه وقوته وشجاعته وثقته في الله سبحانه وتعالى، بأنه إن أبوا سيقاتلهم على هذا الأمر، أي الدين الذي جاء به؛ حتى تنفرد سالفته ﷺ أي حتى القتل؛ لأن القتيل تنفرد مقدمة عنقه، أي صفحة العنق.

وتبين هذه المقولة منه ﷺ أنه لا يريد منهم شيئاً سوى الإسلام، وأن مقاتلته ومحاربته لهم؛ ليس على سبيل حب النصر والاستحواذ على الأموال، أو المكانة، وإنما لأجل هذا الدين فقط. وفي ذلك بيان أهمية الإخلاص لله تعالى في العمل، حتى وإن كانت أبواب ذلك العمل تحقق خير الدنيا والآخرة، فلا ينظر إلا ما كان لله تعالى، ولذلك لم يستكثر ﷺ من الأموال وجمعها، وكذا من زخرف الدنيا ومتاعها، وقد جاءه من الخير ما يجعله كذلك، ولكنه ﷺ ما حفظ لنفسه أموالاً ولا ظهر على محياه حب الوجاهة، فما أحرى ذوي المناصب الاجتماعية بهذا المسلك النبوي العظيم.

ثم ينهي عرضه ﷺ بقوله (ولَيُنْفِذَنَّ اللهُ أمره) فيبين لكل لبيب فَطِن؛ أن كل احتمال غير هذا لا مكان له، فإن الله تعالى ناصر دينه ومظهره على الدين كله، وما الاحتمالات التي سبقت في العرض إلا على سبيل ما يدور في ذهن الخصم.

وبعد أن سمع بُدَيْل المشورة من رسول الله ﷺ عزم على أن يذهب بها إلى قريش (... فقال بُدَيْلٌ: سأبلغهم ما تقول، قال فانطلق حتى أتى قريشاً. قال: إنَّا جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نَعْرِضَه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء. وقال ذَوُو الرأي منهم: هات ما سمعتَه يقول. قال: سمعتُه يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ ...)[١]

فلقد استخدم بُدَيْل أسلوب التشويق في عرض مقالة رسول الله ﷺ فلم يبادرهم بها، وإنما أفادهم بأنه قَدِمَ على رسول الله ﷺ وسمع منه عَرْضَاً يعرضه عليهم إن اشتهوا سماعه

---

[١] البخاري (٢/٢٧٩-٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

ومعرفته، وكذلك في هذا الأسلوب من بُديل التقدير لهم، وهذا أدعى لسماعهم بحكمة. مما يوضح أهمية تقدير المخاطَب مهما كانت البغضاء له، حتى يسمع ويستوعب المقال. وهذا من الحنكة السياسية التفاوضية، والتي لها أثر بالغ وفاعل في تحقيق المقصد والمراد.

ثم يتبين أن سفهاء القوم قد يُبادرون مجالسهم بالحديث، ولكن لا حظ لهم دائم في صواب الكلام والرأي، وفيه كذلك أنه لا يلزم إذا بادر أحد برأي خاطئ أو ضعيف أن يستسلم له العقلاء. وعلى المبلغ أن لا ينزعج إذا رُدَّ كلامه ابتداء؛ بل يتأنى حتى يؤدي رسالته. ثم بعد أن طُلِبَ من بُدَيْل الحديث، تحدث بما قاله ﷺ

وهنا قام أحد عقلائهم كما جاء في الحديث (...فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، ألستم بالوالد ؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد ؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني ؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أني استنفرتُ أهلَ عكاظ، فلمَّا بلَّحوا عَليَّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا: بلى...)[١]

وفي هذا الأسلوب الخطابي من عروة بن مسعود الثقفي، ما يبين أهمية تقرير إخلاص الناصح إذا ظن أنه قد يُفْهَم فهماً خاطئاً، أو أن لا يُدرك مبلغ كلامه ورأيه، خاصة وأنه قد سبقه من يُعارض مبدأ الاستماع؛ فضلاً عن قبول محتواه. وهذا يدلل على أن العرب كانت قديماً تفطن لمنهجية التعليم، والاستثارة البلاغية والكلامية؛ ليبلغ الكلام مبلغه، ولا ريب أن ينزل القرآن الكريم بهذه اللغة العظيمة على أناس بلغوا شأواً بعيداً في مضمار الخطاب اللساني، فجاء القرآن بما هو أعظم وأجمل مما وصلوا إليه.

فقوله ألستم بالوالد ؟ تقرير لهم وله بمنزلته منهم، بكون أمي منكم، وبكون كباركم بمنزلة الأب مني، وبالتالي لا يمكن أن يُقَدِّم الابن رأياً خائباً لآبائه، ثم يقرر الوجه الثاني: ألست بالولد ؟ لتتم المقابلة في العلاقة وتكتمل الصورة، وتستثير العواطف لاستماع مقالته

---

[١] البخاري (٢/٢٧٩-٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

والتفاعل معها. ثم ينتقل إلى مثير آخر، فهل تتهموني ؟ وهي عامة مطلقة؛ تكون في العقل والرأي؛ وفي الأمانة وغيرها، فيقررون له بنفي التهمة له، ثم ينتقل إلى مثير وبرهان آخر؛ يحمل ولاءه لهم؛ باستنفاره أهل عكاظ ودعوتهم إلى نصرتكم، فلما بَلَّحوا عليَّ أي امتنعوا؛ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني. فأقروا له بذلك.

وبعد هذه المقدمة المثيرة؛ قال عن العرض النبوي الكريم (... قال: فإن هذا قد عَرَض عليكم خُطَّة رُشْدٍ اقبلوها ودعوني آتيه. قالوا ائته. فأتاه ...)[١]

وبهذا الأسلوب اللفظي البارع؛ استطاع أن يجمع رأي قريش على رأي واحد، وهو أن يذهب إلى رسول الله ﷺ

ثم يظهر أيضاً من وصفه لرأي رسول الله ﷺ قوة وعدل رسول الله ﷺ في حكمه وتعامله، حتى أن عدوه وصف رأي رسول الله ﷺ بأنه خُطَّة رُشْد. وفي هذا أهمية العدل في الرأي وما يحويه من إنصاف حتى يقبله الطرف الآخر، وهو من الحكمة التي لا تتجاهل فهم وإدراك الطرف الآخر، خاصة وأن رسول الله ﷺ يدرك أن الله ناصره، عندما قال في تمام كلامه لبُدَيل (وليُنْفِذَنَّ الله أمره) ومع ذلك وضعهم أمام الاحتمالات التي يتوقعونها.

وفي مشهد ساحة المسلمين نما إلى رسول الله ﷺ إشاعة، مفادها: أن عثمان بن عفان ﵁ قد قُتل، حيث بعثه ﷺ إلى قريش، لبيان موقفه عليه الصلاة والسلام، وأنه جاء إلى مكة بقصد العمرة، وهنا حدثت بيعة الرضوان، حيث بايع الصحابةُ رسولَ الله ﷺ جميعاً؛ سوى الجد بن قيس؛ كما جاء في رواية جابر ﵁ أن أبا الزبير سمع جابراً يُسْأل : كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال ﵁ (كنا أربع عشرة مائة. فبايعناه. وعمر آخذ بيده تحت الشجرة. وهي سمرة. فبايعناه. غير جد بن قيس الأنصاري. اختبأ تحت بطن بعيره.)[٢] وقد كان منافقاً.

---

[١] البخاري (٢/٢٧٩-٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

[٢] مسلم (٣/١٤٨٣) برقم (٦٩-١٨٥٦)

ويتبين من هذا المشهد تجسيد البيعة وتحقيقها وتعيينها، لما فيها من تقوية القلوب، وتحقيق المزيد من التعاضد. كما أن في هذا المشهد شجاعة عثمان بن عفان ﷺ خاصة وأن خِراش بن أمية الخزاعي قد بعثه ﷺ قبله وحَمَلَه على بعير له يقال له: الثعلب، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله، فمنعه الأحابيش، فَخَلَّوا سبيله، حتى أتى رسول الله ﷺ [1]

وقد قال ﷺ في أهل بيعة الرضوان (أنتم اليوم خير أهل الأرض)[2] وعن بيعة عثمان ﷺ في غيابه؛ سجلها له رسول الله ﷺ كما جاء في صحيح البخاري، أن عبد الله بن عمر قال (...أما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحدٌ أعزَّ ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: هذه يدُ عثمان، فضرب بها على يده، فقال: هذه لعثمان.)[3] وفي هذا وفاء النبي ﷺ لعثمان ﷺ الذي ذهب في مصلحتهم، مما يؤخذ منه: أنه يُقسم للمتغيب في حاجة القوم ما يصيبهم من خير حال غيابه. ثم عاد إلى المسلمين عثمان بن عفان ﷺ كما أن في صنيعه ذلك ﷺ ما يعطي مبدأً إدارياً، وهو الوفاء للغائب بكل خير.

كما يتبين من مشهد جد بن قيس حال المنافق؛ وما هو عليه من الضعف والهوان والذل؛ الذي تتلبس به أفعاله، بعكس المؤمن القوي البائن في أقواله وأفعاله.

ثم جاء عروة بن مسعود إلى النبي ﷺ (...فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لِبُدَيْل, فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلتَ أمرَ قومك، هل

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣٢٨/٣)

[2] مسلم (١٤٨٤/٣) برقم (١٨٥٦.٧١)

[3] البخاري (١٩/٣) برقم (٣٦٩٨)

سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خَلِيقاً أن يَفِرُّوا ويدعوك،...)[1]

ويتبين من هذه المقابلة مع النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ تمسك بالعرض الذي ذكره لبديل؛ لما فيه من الخير للمسلمين والإسلام، ولما فيه من العدل مع الخصم، وليتمكن كفار قريش من التريث في التفكير خلال مدة الهدنة؛ فيعودوا إلى رشدهم. وفي هذا أهمية التمسك بالرأي إذا اكتملت عناصر جودته وقوته، كما هو رأي رسول الله ﷺ وهنا بدأ عروة بن مسعود يضع تصوراً أمام النبي ﷺ ولكن هذا التصور ظهر باهتاً، لأنه غير مستند إلى حقيقة، وإنما ينم عن دهاء، فقد استخدم الاستثارة العاطفية في قوله: أرأيت إن استأصلتَ أمرَ قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وهذا الأمر ليس غائباً عن رسول الله ﷺ فلقد مَرَّ في السيرة قبل هجرته ﷺ أنه رفض أن يطبق عليهم مَلَك الجبال الأخشبين، بل إنه ﷺ كما سبق التنويه عنه في مواقف عديدة أنه ﷺ يتجنب إراقة الدماء، وما غزا غزوة إلا لمعرفته أن القوم يَعِدُّون له مكراً وشراً. وما أمر بقتل أحد إلا لمعرفته أنه يدبر أمر شرٍ للمسلمين، فيتوخى بقتله قتل نفوس كثيرة. ثم إن عروة حذف من كلامه انتصار قريش، وعبر عنها بقوله: وإن تكن الأخرى. وهذا والله تعالى أعلم لاستعطاف النبي ﷺ نحو رأيه بما لا يثيره، ثم يحكم على أصحاب رسول الله ﷺ بما لا يمكن أن يُقبل، فيصفهم عُرْوَة بأنهم ذاهبون عنه إن كانت الأخرى، فيقول عنهم: وإني لأرى أشواباً من الناس خَلِيقاً أن يَفِرُّوا ويدعوك. ومعنى أشواباً أي أخلاطاً من القبائل. ولم يدرك عروة بن مسعود أن أخوة الإسلام أقوى من كل أخوة، وأنها تمثلت في أصحاب رسول الله ﷺ أحسن وأكمل تمثيل، وأن محبتهم لرسول الله ﷺ تفوق محبتهم لأنفسهم وأهليهم وكنوز الدنيا بأجمعها، وقد عبر عنها الصحابي الجليل خبيب رضي الله عنه عندما قتلته قريش.

---

[1] البخاري (٢/٢٧٩-٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

وهنا لم يسكت الصحابة الأجلاء عن كلامه، فرد عنهم أبو بكر ﷺ رداً قوياً، وكذلك الصحابة ردوا بالفعل الْمُبَيِّن ما يبين عمق محبتهم لرسول الله ﷺ كما سيأتي بيانه في سياق هذا النقل الحديثي (... فقال له أبو بكر: أمْصُصْ بَظْرَ اللات، أنحن نَفِرُ عنه ونَدَعُهُ؟ فقال: من ذا ؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والَّذي نفسي بيده، لولا يَدٌ كانت لك عندي لم أجْزِكَ بها لأجَبْتُكَ...)[1]

لقد أجابه أبو بكر ﷺ بما كان سائداً في الجاهلية من الأجوبة المعتادة، فالبظر: قطعة تبقى بعد الختان في المرأة، وكانت عادة العرب الشتم بذلك، وأراد أبو بكر الصديق ﷺ المبالغة في السب لِمَا نسبه إلى المسلمين من الفرار عن رسول الله ﷺ [2] ثم بين عروة أن الذي يمنعه من الإجابة يَدُ معروفٍ لأبي بكر الصديق عنده. وهو أن عروة بن مسعود تحمل دية، فأعانه عليها أبو بكر الصديق ﷺ [3] وهذا يفيد أمرين: الأول: ما كان عليه أبو بكر الصديق من كريم الخُلُق، والإعانة على الخير، والثاني: حفظ العرب لصنائع المعروف، وعنايتهم بذلك، وعدم تناسي يد الخير التي تمتد من بعضهم لبعض، ويدفعهم إلى تقديم صنائع المعروف؛ تحسباً لنوائب الدهر، وإنها من الخصال الحميدة التي تشد من تماسك المجتمع. وحري بالمسلم اليوم أن يأخذ بهذا الخُلُق الذي مكافأته أكبر مما كان يُرْصَدُ له في الجاهلية، تلك المكافأة التي ينتظرها المسلم من ربه الكريم تبارك وتعالى.

ثم أخذ عروة بن مسعود يكلم النبي ﷺ (...قال: وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة بن شُعْبَةَ قائمٌ على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المِغْفَرُ،

---

[1] البخاري (٢/٢٧٩-٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٥/٣٤٠)

[3] المرجع السابق (٥/٣٤٠)

فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أَخِّرْ يَدَكَ عن لحية رسول الله ﷺ ...)[1]

فلقد كان من عادات العرب أن يتناول الرجل لحية من يكلمه، ولا سيما عند الملاطفة، وفي الغالب إنما يصنع ذلك النظير بالنظير، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه يمنع عُرْوَة من لحية النبي ﷺ اجلالاً للنبي ﷺ وتعظيماً، وفي قيام المغيرة بن شعبة رضي الله عنه على رأس النبي ﷺ جواز القيام على رأس الأمير بالسيف بقصد الحراسة ونحوها من ترهيب العدو، ولا يعارضه النهي عن القيام على رأس الجالس، لأن محله ما إذا كان على وجه العظمة والكبر.[2]

ولقد تأثر عُرْوة بن مسعود بصنيع المغيرة بن شعبة رضي الله عنه (...فرفع عُرْوَةُ رأسه فقال: من هذا ؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غُدَر، ألستُ أسعى في غَدْرَتِك ؟ وكان المغيرة صَحِب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم؛ ثم جاء فأسلم. فقال النبي ﷺ : أما الإسلام فأقبلُ؛ وأما المال فلست منه في شيء...)[3]

ويفيد هذا البيان أن عروة كان يسعى في دفع شر ذلك القتل، حيث ذكر ابن هشام: أراد عُرْوَة بقوله هذا أن المغيرة بن شُعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك، من ثقيف، فتهايج الحيَّان من ثقيف: بنو مالك رهط المقتولين، والأحلاف رهط المغيرة، فَودَى عُرْوَة المقتولين ثلاث عشرة دية، وأصلح ذلك الأمر.[4] ويفيد هذا بيان ما كان عليه العرب في الجاهلية من تعاون لدفع بعض الشر عنهم.

---

[1] البخاري (٢/٢٧٩.٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

[2] المرجع السابق (٥/٣٤٠.٣٤١)

[3] البخاري (٢/٢٧٩.٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

[4] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٢٨)

فقبل رسول الله ﷺ إسلام المغيرة بن شعبة ﷺ ولم يقبل المال. وجاء في فتح الباري: ويُستفاد أنه لا يحل أخذ أموال الكفار في حال الأمن غدراً، لأن الرفقة يصطحبون على الأمانة، والأمانة تؤدى إلى أهلها؛ مسلماً كان أو كافراً، وأن أموال الكفار إنما تحل بالمحاربة والمغالبة. ولعل النبي ﷺ ترك المال في يده لإمكان أن يُسلم قومه فيرد عليهم أموالهم، ويُستفاد من القصة أن الحربي إذا أتلف مال الحربي لم يكن عليه ضمان.(١)

ثم ينتقل المشهد وتنتقل الصورة إلى ما كان يشاهده عُرْوَة من صنيع أصحاب رسول الله ﷺ وهم حوله وبجواره ـ رضي الله تعالى عنهم ـ فلقد رأى منهم أمراً عجباً. (...ثم إن عُروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه. قال: فوالله ما تنخَّم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيماً له. فرجع عُـرْوَةُ إلى أصحابه فقال: أيْ قوم، والله لقد وَفَدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر، وكِسْرَى، والنجاشي، والله إنْ رأيت مَليكاً قطُّ يُعَظِّمُهُ أصحابُه ما يُعَظِّمُ أصحابُ محمَّدٍ ﷺ محمداً، والله إن يتنخم نُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فَدَلَك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحُدُّون إليه النظر تعظيماً له. وإنه قد عَرَض عليكم خُطَّة رُشْدٍ فاقبلوها...)(٢)

يبين هذا المشهد من أصحاب رسول الله ﷺ مقدار محبتهم للنبي ﷺ وترجمة فاعلة لتلك المحبة بالفعل لا بالقول فقط، مما يبين أن مَنْ أحبه ﷺ يترجم محبته في طاعته واتباع أمره، وبذل الجهد في سلوك مسلكه العظيم. كما كان يفعله الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ ولقد أجاب ورَدَّ هذا الفعل منهم ما زعمه عُرْوَة بن مسعود من أنهم أشواباً، خَلِيق بهم أن

(١) ابن حجر، فتح الباري (٥/٣٤١)

(٢) البخاري (٢/٢٧٩-٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

يفروا عن رسول الله ﷺ فترجموا بالفعل والقول محبتهم للرسول ﷺ ويفيد الحديث طهارة النخامة، والتبرك بما كان من رسول الله ﷺ

كما يفيد هذا المشهد أهمية اللُّحْمَة والتلاحم مع ولي الأمر المسلم، وإظهار المزيد من ذلك أمام العدو، في صور متعددة؛ تبين مقدار التماسك والتلاحم، حتى لا يطمع العدو فيهم، نتيجة تفرقهم وتمزقهم، وضعف العلاقة بين القائد والرعية.

ويفيد ذلك أيضاً أنّ على ولي الأمر أن يسعى مع رعيته فيما يحقق ذلك التلاحم، لأنه لا يمكن أن يكون في صورته التامة إلا بسعي ولي الأمر في تحقيق ذلك. ويعلم أن قوته مرهونة بقوة رعيته وتماسكهم وتعاضدهم معه على الخير والتقوى.

ويبين كلام عُرْوَة بن مسعود لقومه أن ما تحقق من تلاحم وتعاضد بين النبي ﷺ وأصحابه ـ رضي الله تعالى عنهم ـ يعجز أن تحققه الدساتير والعطايا والقوة فيما ظهر من واقع ملوك ذلك الزمن، وقد تحقق بصورة مذهلة ليس لها مثيل في مسيرة رسول الله ﷺ بمنهجه الإسلامي القويم، وهذا يؤكد أن من أراد من ولاة أمور المسلمين تحقيق ما لا يتحقق بأساليب مماليك الدنيا؛ أن ينهج منهج رسول الله ﷺ في مجال الحكم والإدارة والخُلُق، وتطبيق شريعة الله تعالى بالصورة التي كانت سائدة، فو الله ليست في تعسف ولا تشدد، بل إنها في غاية السماحة والبساطة.

وتفيد هذه الرواية المبينة لصورة عجيبة ومثيرة للغاية، أن العدو قد تأثر بها وامتدحها بأسلوب المقارنة مع غيره من ملوك الدنيا في ذلك الزمن، فظهر المدح والثناء بصورة غير مباشرة؛ أظهرت وأعلنت لهم حقيقة صورة محبة الصحابة للنبي ﷺ، فأثرت في حكمه، فقال لقومه: وإنه قد عَرَض عليكم خُطَّة رُشْدٍ فاقبلوها. ولكن رجلاً منهم توقع أن يحصل له غير ما حصل لعروة بن مسعود، فطلب من القوم أن يذهب للنبي ﷺ كما في رواية الحديث التالية:

(فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتيه، فقالوا: ائته. فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ : هذا فلان، وهو من قوم يُعَظِّمون البُدْن، فابعثوها له، فَبُعِثَت له، واستقبله الناس يلبون. فلما رأى ذلك، قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْنَ قد قُلِّدَت وأُشْعِرَت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت...)[1]

ومما يمكن أن يُستفاد من هذا النص أهمية إدراك الخصائص البشرية ليحسن التعامل معها، فقد بين ﷺ أبرز خاصية للرجل المفاوض عندما أقبل عليه ، وما يمكن أن يناسبها في هذا الموقف، وقد ذكر اسمه ابن هشام، فقال: ثم بعثوا إليه الحُلَيس بن علقمة أو ابن زَبَّان، وكان يومئذ سيد الأحابيش.[2]

فمعرفة الخصائص البشرية من مفاتيح التعامل الإنساني، والتي يمكن الولوج من خلالها ما أمكن ذلك. وبالتالي تأثر الحُلَيس بما رأى وقال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْنَ قد قُلِّدَت وأُشْعِرَت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت.

وفي هذا ما يؤكد أن سياسة العدو بما يحقق المصلحة، ويدفع الشر؛ من الأمور التي يأخذ بها القائد أو ولي الأمر، حتى في إظهار ما كان لله تعالى أمام العدو، ليس من الرياء، ما كان فيه مصلحة للمسلمين، لأن النية منعقدة لله تعالى؛ وليس للعدو. كما يبين هذا الموقف أن قريشاً تُعَظِّم البيت، مع ما لديهم من الشرك والضلال والفساد.

وإزاء هذا الرأي من الحُلَيس، يقوم رجل آخر يتوقع أن يحصل منه خلاف ما حصل من حُلَيس، كما يتضح من رواية الحديث التالية:

---

[1] البخاري (٢/٢٧٩-٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٢٦)

(...فقام رجل منهم يُقال له مِكْرَزُ بن حَفْصٍ، فقال: دعوني آتيه، فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ : هذا مِكْرَز، وهو رجل فاجر. فجعل يُكلم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سُهيل بنُ عمرو. قال مَعْمَرٌ: فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: قد سَهُلَ لكم من أمركم...)[1]

وتتكرر أهمية معرفة الخصائص البشرية في مقدم مِكْرَز، حيث بين ﷺ ما عليه الرجل، وفي رواية ابن هشام أنه قال عنه ﷺ (غادر).[2]

وتتأكد كذلك في مَقْدَم سُهيل بن عمرو، التفاؤل باسمه، لما يتضمنه الاسم من السهولة. وكان كما قال ﷺ فَكُتِبَت المعاهدة على نحو المجريات التالية، التي توضحها رواية الحديث الصحيح:

(.... قال مَعْمَرٌ قال الزُّهْرِي في حديثه: فجاء سُهيل بن عمرو فقال: هاتِ أكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل: أما (الرحمن) فو الله ما أدري ما هي، ولكن أكتب (باسمك اللهم) كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال النبي ﷺ : أكتب (باسمك اللهم) ثم قال (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله) فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن أكتب (محمد بن عبد الله) فقال النبي ﷺ : والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، أكتب محمد بن عبد الله. قال الزَّهْرِيُّ: وذلك لقوله (لا يسألونني خُطَّة يُعَظِّمون فيها حُرُمات الله إلا أعطيتهم إياها) فقال له النبي ﷺ : على أن تُخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به. فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنَّا أُخِذْنا ضُغْطَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل. وإن كان

---

(١) البخاري (٢/٢٧٩-٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٢٦)

على دينك . إلا رَدَدْتَهُ إلينا. قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً، فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قُيودِهِ، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه، أن ترده إليَّ. فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد. قال: فو الله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً. قال النبي ﷺ : فَأَجِزْهُ لِيَّ، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: بلى فافعل، قال: ما أنا بفاعل. قال مِكْرَزٌ: بل قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟ ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عُذِّب عذاباً شديداً في الله...)[١]

ويتبين من هذا المقطع التفاوضي مقصد رسول الله ﷺ السلْمي، وحقنه للدماء، ريثما تفكر قريش في أمرها، فربما يؤوب المشركون إلى رشدهم. كما يتبين التزامه ﷺ بما تعاهد عليه مع الخصوم. ويستفاد من ذلك أهمية السعي لحفظ الدماء، ما كان لذلك سبيلاً، وكذا حفظ العهود والمواثيق. وأن الحرب في الإسلام ليست مطلوبة لذاتها، أو لأخذ الناس بالباطل، أو للاستحواذ على مقدراتهم.

ومما يؤكد عناية الإسلام بحقن الدماء ما جاء في الحديث الذي رواه مسلم رحمة الله تعالى عليه ، عن أنس ﷺ (أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين، يُرِيدُون غِرَّةَ النبي ﷺ وأصحابَه، فأخذهم سلماً، فاستحياهم. فأنزل الله عَزَّ وجلَّ (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم

---

[١] البخاري (٢/٢٧٩-٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

عليهم)سورة الفتح)[1] وكرر المحاولة ثلاثون شاباً عليهم السلاح أثناء إبرام الصلح، فخلى سبيلهم ﷺ [2]

وفي رواية أخرى يظهر موقف أدبي رائع وعظيم من علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد جاء في صحيح مسلم (كتب علي بن أبي طالب الصلح بين النبي ﷺ وبين المشركين، يوم الحديبية، فكتب: هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله. فقالوا: لا تكتب رسول الله، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك. فقال النبي ﷺ لعليٍّ: أمحه. فقال: ما أنا بالذي أمحاه. فمحاه النبي ﷺ بيده...)[3] وفي الرواية الأخرى قال النبي ﷺ (أرني مكانها، فأراه مكانها، فمحاها)[4] وفي رواية أخرى (...ثم قال لعلي: امح رسول الله. قال علي: لا والله لا أمحوك أبداً. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب ـ وليس يُحسن يكتب ـ فكتب...)[5] فلم يجرؤ علي بن أبي طالب أن تمتد يده رضي الله عنه لتمحو لفظ رسول الله ﷺ وهذا دليل فطنته وحكمته، وانتباهه وهو في حالة كاتب بين متفاوضين، والموقف ليس باليسير، فرضي الله عنك، فقد علمت من بعدك درساً في تعظيم لفظ : رسول الله ﷺ وهو دليل على تعظيم صاحبه، وتعظيم الله سبحانه وتعالى بتعظيم نبيه ورسوله ﷺ وليس في هذا عصياناً منه رضي الله عنه بل إجلال وتكريم، إذ لم تجرؤ يده على أن تمحو لفظ رسول الله ﷺ كما أن في النص بيان أمية الرسول ﷺ

ثم إن بنود هذا التفاوض قد أذهلت المسلمين (قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً) قال ابن هشام: دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى

---

(١) مسلم (١٤٤٢/٣) برقم (١٨٠٨)

(٢) أحمد (٨٦/٤، ٨٧)

(٣) مسلم (١٤٠٩/٣/١٤١٠) برقم (١٧٨٣)

(٤) المرجع السابق برقم (٩٢. ١٧٨٣)

(٥) البخاري (١٤٤/٣) برقم (٤٢٥١)

كادوا يُهلكون.[١] وقد أذهل ذلك عمر بن الخطاب ﵁ (...قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألستَ نبيَّ الله حقاً ؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال: بلى. قلتُ: فَلِمَ نُعْطي الدنية في ديننا إذاً ؟ قال: إني رسول الله ولستُ أعصيه، وهو ناصري. قُلْتُ: أو ليس كنتَ تُحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قال: قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به . قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقاً ؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال: بلى. قلت: فَلِمَ نُعطي الدنية في ديننا إذاً ؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بِغَرْزِهِ فو الله إنه على الحق. قلت: أليس كان يُحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال: بلى. أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قُلتُ: لا. قال: فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به. قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً...)[٢]

وظاهر قوله ﷺ (إني رسول الله ولستُ أعصيه) أنه عليه الصلاة والسلام لم يفعل من ذلك شيئاً إلا بالوحي. ويُستفاد من هذا الفصل جواز البحث في العلم حتى يظهر المعنى. وأن الكلام يُحمل على عمومه وإطلاقه حتى تظهر إرادة التخصيص والتقييد، وأن من حلف على فعل شيء ولم يذكر مدة معينة لم يحنث حتى تنقضي أيام حياته. وفي عدم مراجعة عمر بن الخطاب ﵁ غير أبي بكر ﵁ دليل على جلالة قدره وسعة علمه عنده، وفي جواب أبي بكر لعمر بنظير ما جاء به النبي ﷺ سواء؛ دلالة على أنه كان أكمل الصحابة وأعرفهم بأحوال رسول الله ﷺ وأعلمهم بأمور الدين، وأشدهم موافقة لأمر الله تعالى.[٣] وفي نُصح أبي

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٣٢)

(٢) البخاري (٢/٢٧٩،٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٥/٣٤٦)

بكر ﵁ لعمر بأن يمسك غرزه[1] أي يتمسك بأمره ويترك المخالفة له، ما يبين أهمية إعانة المنصوح بحرارة التعبير، ليحمله على الخير. كما يستفاد من بنود المعاهدة أن أمور الدين تشريعية؛ وليست عقلية، ولا ذوقية، فلو كانت بالعقل المجرد فإن ظاهر المعاهدة ليس في صالح المسلمين، ولكن الله تعالى يعلم ما لا يعلمه العباد. وفي هذا ما يوجب دلالة أسمائه وصفاته العظيمة، أنه العليم؛ الخبير؛ الحكيم؛ اللطيف؛ العظيم؛ سبحانه وتعالى. فهو العالم بما تدركه وما لا تدركه عقول البشر، والخبير بخلجات النفوس ودقائق الأمور وصغائرها ونتائجها قبل حدوثها وبعد جريانها، خبير بما هو أصلح للمسلمين من أنفسهم، فقد جرى من هذا الصلح بتلك الكيفية خير كبير سيأتي بيانه. وتجلت حكمة الباري العظيم في أنها كانت فتحاً مبينا، فحصل منها نتائج عظيمة، فكان عدد جيش المسلمين بعد عامين عشرة آلاف مسلم، وكانوا في هذه الغزوة ألف وخمسمائة. وهو اللطيف بعباده، فكف أيدي الفريقين عن القتال، وكان فتحاً عظيماً.

وفي المحادثة بين رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب ﵁ ما يفيد عدم إظهار الغضب للمتحدث الذي أشكل عليه الأمر، وقبول سؤالاته، والجواب عليها دون إهمال أو إعراض، وأن للأدنى أن يسأل الأعلى بأسلوب التقرير، ولا غضاضة في ذلك، وأن على المسؤول أن يُجيب ولا ينزعج. وفي هذا رحابة صدر رسول الله ﷺ لأصحابه رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ويستفاد من ذلك أيضاً إخلاص عمر بن الخطاب ﵁ وأن الصحابة بشر، يعتريهم ما يعتري البشر من الذهول عما لا يُدركون، ثم يتبين خوف عمر ﵁ من الذنب؛ فيعمل أعمالاً عظيمة من الطاعة، قال ابن هشام: فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم

(١) الغرز بمثابة ومنزلة الركب للفرس، وهو كالذي يمسك بركب الفارس فلا يفارقه. الفتح (٥/٣٤٦)

وأصلي وأعتق من الذي صنعتُ يومئذ ! مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً.(١)

فيعطي ويقدم عمر رضي الله عنه أنموذجاً للمسلم الذي يخاف من خطئه، ويعترف به، ولا يتأوله بتبريرات نفسية، بل ويُتْبِع ذلك بأعمال الخير المتنوعة؛ رجاء مغفرة الله تعالى له.

وفي هذا الحدث أن خزاعة كانت مثلاً صادقاً في أنهم عيبة رسول الله ﷺ حيث تواثبت خزاعة، فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.(٢)

ثم يأتي بعد ذلك مشهد المسلمين بعد الفراغ من الكتاب (...قال: فلما فَرَغَ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحدٌ دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحبُّ ذلك ؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَكَ، وتدعو حالِقَك فَيَحْلِقَك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدْنَهُ ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غَمَّاً...)(٣)

إن علة توقف المسلمين وتأخرهم عن تنفيذ أمر رسول الله ﷺ قد بينته أمُ المؤمنين أم سلمة ـ رضي الله تعالى عنها ـ وهي من أعرف الناس بأحوالهم، فقد نقل ابن حجر عن ابن إسحاق، قالت أم سلمة –رضي الله تعالى عنها– (يا رسول الله لا تكلمهم، فإنهم قد دخلهم

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٣٣١/٣) وابن حجر، الفتح (٣٤٦/٥)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٣٣٢/٣)

(٣) البخاري (٢٧٩/٢-٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح؛ ورجوعهم بغير فتح)[1] فهذا البيان من أم المؤمنين أم سلمة ـ رضي الله تعالى عنها ـ يبين حقيقة ما أصابهم من الذهول، وهي الحصيفة اللبيبة التي أشارت على رسول الله ﷺ بالرأي الحصيف، الذي تقدمته مقدمة بيانية تدل على قوة بيانها، فقالت: (يا نبي الله أتحب ذلك ؟) ولم تنتظر الجواب لأنه متقرر عندها بسؤاله ﷺ لها واستعانته برأيها؛ فألحقت سؤالها بالجواب الممتلئ حكمة، والمبين لمعرفتها بأحوال الصحابة، وأنه ما أخرهم عن المبادرة إلا الذهول الذي أصابهم، وليعلم من بعدهم أن منهج الإسلام نزل على بشر يعتريهم ما يعتري غيرهم من الناس، وطبقوه أحسن تطبيق، فلا حجة لمن يتعذر بعدم القدرة على تكامل التطبيق كأصحاب رسول الله ﷺ لأنهم أصحاب رسول الله ﷺ

فهم خير الناس بعد الأنبياء والمرسلين، وخير الأصحاب وخير من طبق منهج الإسلام، وهم أهل صدر القرون المفضلة، وهم أسوة وقدوة لمن بعدهم.

ومما يُستفاد من ذلك علو مكانة المرأة في الإسلام، وأنها مظنة الرأي والاستشارة، وأن للرجل أن يستشير أهله إذا كانت أهلاً لذلك. وأن لا يستنكف الأعلى من استشارة الأدنى، وأن العطاء من الله تعالى، فقد أعطى أم سلمة رضي الله تعالى من الرأي ما طابت به نفس رسول الله ﷺ وأظهر على يديها رأياً صائباً مباركاً.

وفي فعله ﷺ لِمَا أشارت به أم سلمة: أن واقع الحال مع المقال قد يكون في التأثير أقوى من المقال المجرد.

وفيما يتعلق برد النساء من الصلح، فقد حسم القرآن الكريم أمر النساء من شرط الرد، كما جاء في الصحيح (...ولم يأته أحدٌ من الرجال إلا ردَّه في تلك المدة وإن كان مسلماً، وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عُقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٥/٣٤٧)

رسول الله ﷺ يومئذ ـ وهي عاتق[1] ـ فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يَرجِعها إليهم، فلم يرجعها إليهم؛ لما أنزل الله فيهن (إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن ـ إلى قوله ـ ولا هم يحلون لهن) سورة الممتحنة:)[2]

وفي الحديث أيضاً (...ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى (الممتحنة: ١٠) (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ـ حتى بلغ ـ بعصم الكوافر) فطلَّق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك. فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية...)[3]

ويفيد ذلك أهمية التثبت، وكان امتحانهن بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله. ومن وجه آخر؛ كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.[4]

كما أن من فوائد ذلك أن المشركة لا تحل للمسلم، وكذلك المسلمة لا تحل للكافر، ويبين الحديث تجاوب عمر بن الخطاب ﷺ بتطليق امرأتين، دون تردد في ذلك، جاء في الحديث (قال عروة: فأخبرتني عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن، وبلغنا أنه لما أنزل الله تعالى أن يردوا إلى المشركين ما أنفقوا على من هاجر من أزواجهم، وحكم على المسلمين أن لا يُمسكوا بعصم الكوافر، أن عمر طلّق امرأتين ـ قريبة بنت أبي أمية. وابنة جَرْوَلٍ الخزاعي، فتزوج قريبة معاوية، وتزوج الأخرى أبو جهم. فلما أبى الكفار أن يُقروا بأداء ما أنفق

---

[1] عاتق: أي بالغة.

[2] البخاري (٢٧٣/٢) برقم (٢٧١١ ، ٢٧١٢)

[3] البخاري (٢٧٩/٢-٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

[4] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧٥/٤)

المسلمون على أزواجهم أنزل الله تعالى (الممتحنة:١١) (وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم) والعَقِبُ ما يُؤدي المسلمون إلى من هاجرت امرأتُهُ من الكفار، فأمر أن يُعطى مَنْ ذَهَبَ له زوجٌ من المسلمين ما أنفق من صداق نساء الكفار اللائي هاجرن، وما نعلم أحداً من المهاجرات ارتدت بعد إيمانها...)[١]

ويفيد ذلك عدل الإسلام مع الكفار، بأن يُعطوا ما أنفقوا، ويأخذ المسلمون ما أنفقوا، ولكن الكفار أبوا الإقرار بما أنفق المسلمون. فأمر الله تبارك وتعالى أن يُعطى المسلم ما أنفق من صداق، ولكن ولله الحمد والمنة لم يرتد أحد من المسلمات، حتى يستحق ما أنفق من الصداق. مما يفيد صدق من دخل منهن في الإسلام، وأن من يدخل الإسلام يجد فيه دواعي حبه والتمسك به، لأنه دين الله تعالى الذي ارتضاه لعباده.

(...ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة. فجاءهُ أبو بَصير رجلٌ من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحُلِيفَة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثمَّ جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى بَرَدَ، وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يَعْدُو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذُعْرَاً، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتِلَ والله صاحبي وإني لمقتول. فجاء أبو بصير، فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذِمَّتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم. قال النبي ﷺ : وَيلُ أمِّه مِسْعَرَ حَرْبٍ لو كان له أحد، فلما سمع ذلك عَرَفَ أنه سَيَرُدُّهُ إليهم؛ فخرج حتى أتى سيف البحر. قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فَلَحِقَ بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجلٌ قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت

---

[١] البخاري (٢/٢٨٤) برقم (٢٧٣٣)

لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها. فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تُناشِدُهُ الله والرحم لما أرسل فمن أتاه فهو آمنٌ، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى (الفتح:٢٤) (هو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ـ حتى بلغ ـ الحمية، حمية الجاهلية) وكانت حميتهم أنهم لم يُقروا أنه نبي الله، ولم يُقرّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت)[١]

ففي موضوع أبي بصير وفاء النبي ﷺ بالكتاب الذي تعاهد عليه مع قريش، مما يفيد لزوم الوفاء للكافر بما يتعاقد معه عليه، وهو في حق المسلم مع المسلم أولى. وفيه شجاعة أبي بصير وحنكته وفطنته، وفي قوله ﷺ (وَيلُ أمِّه مِسْعَرَ حَرْبٍ لو كان له أحد) ما جعل أبو بصير يدرك أنه سيعيده إلى قريش (فلما سمع ذلك عَرَفَ أنه سَيَرُدُّهُ إليهم؛ فخرج حتى أتى سيف البحر) وهذا يدل على فطنته رضي الله عنه ثم فَرَّ إليه أبو جندل بن سهيل بن عمرو، فأخذ يتوافد عليهم الفارون بدينهم ممن أسلم، فحصل منهم ما حصل لعير قريش، حتى أذعنت قريش لطرح ما اشترطته لنفسها على من يأتي المسلمين مسلماً، وفي ذلك من الفوائد ما يبين حكمة الله تعالى في هذا الصلح الذي ظاهره أنه قهر للمسلمين؛ ولكن باطنه نصر للمسلمين، (والله يعلم وأنتم لا تعلمون)

ولقد دخل في تلك السنتين بعد صلح الحديبية مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر. يقول الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثلَ مَنْ كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر. قال ابن هشام: والدليل على

---

[١] البخاري (٢/٢٧٩.٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مائة، في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.[١]

وعن ابن هشام : اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض.[٢]

وفي عودة المسلمين إلى المدينة نزلت سورة الفتح، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه (...وجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه ، فقال: لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طَلَعَت عليه الشمس، ثم قرأ (إنا فتحنا لك فتحاً مبينا)[٣]

وعن مجمع بن جارية الأنصاري . وكان أحد القرَّاء الذين قرأوا القرآن . قال (شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ فلما انصرفنا عنها إذ الناس يَهُزُّون الأباعر، فقال بعض الناس لبعض: ما للناس ؟ قالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نُوجِف، فوجدنا النبي ﷺ واقفاً على راحلته عند كُرَاع الْغَمِيم، فلما اجتمع عليه الناس قرأ عليهم (إنا فتحنا لك فتحاً مبينا) فقال رجل: يا رسول الله! أفتح هو ؟ قال: نعم، والذي نفسُ محمد بيده إنه لفتح. فقسمت خيبر على أهل الحديبية)[٤]

عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما، قال: (قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: أنتم خير أهل الأرض، وكنا ألفاً وأربعمائة. ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة)[٥]

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٣٦.٣٣٧)

[٢] المرجع السابق (٣/٣٣٢)

[٣] البخاري (٣/١٣١) برقم (٤١٧٧)

[٤] ابو داود (٣/١٧٤) برقم (٢٧٣٦)

[٥] البخاري (٣/١٢٨) برقم (٤١٥٤)

السرايا والغزوات ما بين الحديبية وخيبر:
ـ غزوة ذات قَرَد:

وهي الغزوة التي أغاروا فيها على لقاح النبي ﷺ قبل خيبر بثلاث، فعن سلمة بن الأكوع ﵁ قال: (خرجت قبل أن يُؤَذَّنَ بالأولى، وكانت لقاح رسول الله ﷺ ترعى بذي قَرَد، قال: فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال: أُخِذَت لقاحُ رسول الله ﷺ قلت: من أخذها ؟ قال: غَطَفان. قال فصرختُ ثلاثَ صرخات: يا صباحاه. قال: فأسمعت ما بين لابتي المدينة، ثم اندفعت على وجهي حتى أدركتُهم وقد أخذوا يستقون من الماء، فجعلت أرميهم بنبلي ـ وكنت رامياً ـ وأقول: أنا ابن الأكوع، اليوم يوم الرُّضَّع. وأرتجز حتى استنفذت اللقاح منهم، واستلبت منهم ثلاثين بُردة. قال وجاء النبي ﷺ والناس. فقلت: يا نبي الله قد حَميتُ القومَ الماء وهم عطاش، فابعث إليهم الساعة. فقال: يا ابن الأكوع، مَلكتَ فأسْجِع. قال: ثم رجعنا، ويُردِفني رسول الله ﷺ على ناقته حتى دخلنا المدينة.)[1]

يتبين أن هذه الغزوة كانت قبل خيبر بثلاث ليال. ويتضح من أحداثها يقظة سلمة بن الأكوع ﵁ وشجاعته، وأنه خرج قبل الأذان الأول للفجر، فلما أخبره غلام ابن عوف بما حصل للقاح رسول الله ﷺ وهي الإبل الحلوب، صرخ ثلاثاً، فأسمع ما بين لابتي المدينة، مما يدل على قوة صوته ﵁ ويفيد هذا أهمية إبلاغ القوم أو الجهة ذات الاختصاص بما يحصل من شر لإيقافه وتلافي أخطاره.

ويفيد صنيعه ﵁ أن على الشجاع مواجهة الأكثرية، والإسراع في ملاحقة العدو، وفيه أهمية تَعَلُّم ما يمكن أن يَصُدَّ به المسلم عدوه، وإن للإنسان أن يذكر بعض صفاته للعدو، حتى يُرْهبه، وأن يُخبر بما حصل من صنيعه وشجاعته على سبيل رواية الحدث، لا على سبيل الاغترار والرياء. وأن للمرء أن يرتجز عند ملاقاة العدو.

---

(١) البخاري (٣/١٣٤) برقم (٤١٩٤)

وقوله ﷺ (اليوم يوم الرضع) الرُّضَّع جمع راضع وهو اللئيم، سمي به لأنه يرضع إبله أو غنمه ليلاً لئلا يُسْمَع صوتُ حلبه.[١]

ثم يبين ابن الأكوع رضي الله عنه شجاعته، بأنه بلغ بهم حتى منعهم الماء (حميتُ القومَ الماء) أي منعتهم من الشرب. كما يتبين من هذا الموقف تشجيع النبي ﷺ له وحِلمه ﷺ حيث قال له (مَلَكْت فأسجع) أي اقتدرت عليهم فاصفح، وذلك عندما طلب من النبي ﷺ أن يستمر في طلبهم. ومن تشجيعه عليه الصلاة والسلام أن أردفه على ناقته ﷺ مما يفيد أهمية تشجيع المجد، وأن يُرى مكانته وقدره بين الناس. لا أن يغمطه حقه من الثناء والتكريم، وهذا ما يمكن أن يَفْعَله الرئيس مع مرؤوسيه، والمربي مع من يتولى أمر تربيتهم. وأن عكس ذلك ليس من هديه ﷺ

سرية أبان بن سعيد بن العاص:

عن أبي هريرة يخبر عن سعيد بن العاص، قال (بعث رسول الله ﷺ أبان على سرية من المدينة قِبَل نجد..)[٢]

---

[١] ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٣٠/٣)

[٢] البخاري (١٤٢/٣) برقم (٤٢٣٨)

غزوة خيبر :

خرج بنو النضير إلى خيبر بعد أن أجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة، ومنهم من سار إلى الشام، ولما نزلوا بخيبر دان لهم أهلها.[١]

ولقد كان لأولئك اليهود أثر فاعل في تأليب وتأليف الأحزاب، قال ابن هشام: إنه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود، منهم سلاَّم بن أبي الحُقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزَّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ [٢]

وهذا يؤكد ويبين خطورة خيبر ومن سكنها من اليهود، وما يَحْدُثُ من قاطنيها بحق الإسلام والمسلمين، إذ استثاروا بصنائع الشر والمكائد ما يوجب تأديبهم، وكسر شوكتهم، واقتلاع هذا الشر الذي يتأجج من أولئك اليهود، خاصة وأنَّ أمر الهدنة مع قريش قد أتاح هذه الفرصة.

فلما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية ونزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة؛ فأعطاه الله تعالى فيها خيبر؛ بقوله تعالى﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [٣]

يعني خيبر. وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، وذُكر أنها سميت باسم رجل من العماليق نزلها.[٤]

وفي المحرم سنة سبع خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر.[٥]

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (٢٠١/٣)

[٢] المرجع السابق (٢٢٥/٣)

[٣] سورة الفتح: آية رقم (٢٠)

[٤] ابن حجر، فتح الباري (٤٦٤/٧)

[٥] ابن هشام ، السيرة النبوية (٣٤٢/٣)

ويصف سلمة بن الأكوع ﵁ خروج ذلك الركب المبارك؛ لرفع كلمة التوحيد، فيقول ﵁ (خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر، فسرنا ليلاً، فقال رجلٌ من القوم لعامر: يا عامر ألا تُسْمِعُنا من هُنَيهاتِك ؟ وكان عامرٌ رجلاً شاعراً، فنزل يحدو بالقوم، يقول:

اللهمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلينا
فاغفر فِداءً لك ما اتقينا وثبت الأقدام إن لا قينا
وألقيَنْ سكينة علينا إنَّا إذا صيح بنا أبينا
وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ : من هذا السائق ؟ قالوا: عامر بن الأكوع، قال: يرحمه الله. قال رجلٌ من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به....)[١]

ويفيد ذلك أن في المسير ليلاً ما يفوت على العدو معرفة قدومهم، ويقطع بذلك عليه الاستعانة بغطفان؛ على ما سيأتي بيانه، إضافة إلى ما في المسير ليلاً من حمده في الصباح، كما جاء في المثل. -في الصباح يحمد القوم السرى- ثم يتبين ما كان عليه العرب من عادة الحداء، لتنشيط الإبل ومن معها من الركب. مما يفيد بجوازه، وأنه لا بأس به؛ ما كان بطيب الكلام. قال الإمام النووي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ عن قوله (ألا تسمعنا من هنيهاتك) : وفي بعض النسخ (هنيهاتك) أي أراجيزك، والهنة يقع على كل شيء، وفيه جواز إنشاء الأراجيز وغيرها من الشعر، وسماعها، ما لم يكن فيه كلام مذموم. والشعر كلام؛ حسنه حسن؛ وقبيحه قبيح. وفيه استحباب الحداء في الأسفار؛ لتنشيط النفوس والدواب على قطع الطريق، واشتغالها بسماعه عن الإحساس بألم السير.[٢] قال ابن حجر ـ رحمة الله تعالى عليه ـ: قوله (يرحمه الله) وفي رواية إياس بن سلمة (قال غفر لك ربك) قال: وما

---

[١] البخاري (٣/١٣٤،١٣٥) برقم (٤١٩٦)

[٢] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٦٦)

استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصه إلا استشهد، وبهذه الزيادة يظهر السر في قول الرجل (لولا أمتعتنا به) وقوله (قال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به) اسم هذا الرجل عمر بن الخطاب.[1] قال النووي: معنى وجبت أي ثبتت له الشهادة، وسيقع قريباً، وكان هذا معلوم عندهم، أن من دعا له النبي ﷺ هذا الدعاء في هذا الموطن استشهد، فقالوا: هلا أمتعتنا به ؟ أي: وددنا أنك لو أخرت الدعاء له بهذا إلى وقت آخر؛ لنتمتع بمصاحبته ورؤيته مدة.[2] وقيل بشجاعته[3]ولا يمنع أن يكون بذلك كله. وبالفعل حدث لعامر ذلك، كما جاء في حديث سلمة بن الأكوع قال (فلما تصاف القوم، كان سيف عامرٍ قصيراً، فتناول به ساق يهودي ليضربه، ويرجع ذباب سيفه؛ فأصاب عين ركبة عامر؛ فمات منه. قال: فلما قفلوا قال سلمة: رآني رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي. قال: ما لك ؟ قلت له: فداك أبي وأمي، زعموا أن عامراً حَبِط عمله. قال النبي ﷺ : كذب من قاله، إن له لأجرين. وجمع بين أصبعيه. إنه لجاهد مجاهد، قلَّ عربي مشى بها مثله)[4]

يبين هذا الحديث قصة مقتل عامر رضي الله عنه بأن رجع عليه ذباب سيفه، أي طرفه الأعلى؛ وقيل حده، فأصاب عين ركبة عامر، أي طرف ركبته الأعلى فمات منه. وفي الحديث عناية رسول الله ﷺ بأصحابه، وما قد يجدونه ويظهر عليهم من حَزَنٍ. فيسأل ﷺ سلمة بن الأكوع (ما لك ؟) وهو ما ينبغي للقائد والرئيس بين أعوانه، والمربي بين من يقوم على تربيتهم، أن يتأسى بهذا المنهج النبوي الكريم، فيما يصيبهم من هم أو حزن، كما فعل رسول الله ﷺ مع سلمة رضي الله عنه فلعل في السؤال والجواب ما يمسح عنه شيئاً من ذلك.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٤٦٦/٧)

(٢) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٦٧/١٢)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٤٦٦/٧)

(٤) البخاري (١٣٥.١٣٤/٣) برقم (٤١٩٦)

ويفيد الحديث شدة خوف الصحابي عن عاقبة ما أصاب عامر بن الأكوع، حيث اعتقد البعض أنه قَتَلَ نفسه، قال ابن حجر: وفي رواية إياس (بطل عمل عامر قتل نفسه)[١] فيجيبه رسول الله ﷺ (كذب من قاله) أي أخطأ (إن له لأجرين، إنه لجاهد مجاهد) وهذا يفيد التأكيد[٢].(قلَّ عربي مشى بها مثله) وكل هذا زيادة في وصف حقيقة أمره ﷺ وتأكيد بيان لما له ﷺ من المكانة والأجر. مما يفيد أهمية بيان العالم للمتعلم ما قد يلتبس عليه، بمزيد من الإيضاح والبيان.

ولم يكن ديدن الصحابة الحداء، بل كان ذكر الله منهم كثيراً، فقد كانت تلهج ألسنتهم رضي الله تعالى عنهم بذكر الله، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال (لما غزا رسول الله ﷺ خيبر ـ أو قال: لما توجه رسول الله ﷺ ـ أشرف الناس على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر، الله أكبر. لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ : اربَعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم. وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ، فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقال لي: يا عبد الله بن قيس. قلتُ: لبيك رسول الله. قال: ألا أدلك على كلمة من كنزٍ من كنوز الجنة ؟ قلت: بلى يا رسول الله، فداك أبي وأمي. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله)[٣]

قال ابن حجر: هذا السياق يوهم أن ذلك وقع وهم ذاهبون إلى خيبر، وليس كذلك، بل إنما وقع ذلك حال رجوعهم، لأن أبا موسى إنما قَدِم بعد فتح خيبر مع جعفر.[٤] وفي توجيه النبي ﷺ للصحابة حال رفع صوتهم بذكرهم الله تعالى، بأن يربعوا

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٤٦٧/٧)

(٢) المرجع السابق (٤٦٧/٧)

(٣) البخاري (١٣٧،١٣٦/٣) برقم (٤٢٠٥)

(٤) ابن حجر، فتح الباري ٤٧٠/٠٧

بأنفسهم؛ ما يدل على أهمية ممارسة التوجيه والتعليم في المسير، وأنها عملية لا تتوقف، ويتعين ذلك كلما دعت الحاجة إليه، وأن المبادرة حال ما يقتضي الموقف أكمل في التعليم . وقال الإمام النووي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ: معناه أرفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه، وأنتم تدعون الله؛ وليس هو بأصم ولا غائب، بل هو سميع قريب، وهو معكم بالعلم والإحاطه، ففيه الندب إلى خفض الصوت بالذكر إذا لم تدع حاجة إلى رفعه، فإنه إذا خفضه كان أبلغ في توقيره وتعظيمه، فإن دعت حاجة إلى الرَّفع رفع، كما جاءت به أحاديث....قوله ﷺ (لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة) قال العلماء سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى، واعتراف بالإذعان له، وأنه لا صانع غيره، ولا راد لأمره، وأن العبد لا يملك شيئاً من الأمر، ومعنى الكنز هنا: أنه ثواب مُدَّخر في الجنة، وهو ثواب نفيس؛ كما أن الكنز أنفس أموالكم، قال أهل اللغة: الحول الحركة والحيلة، أي لا حركة، ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى، وقيل معناه لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله، وقيل لا حول عن معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة على طاعته إلا بمعونته، وحكى هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه وكله متقارب.[١]

وكان رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عِصْر (جبل بين المدينة ووادي القرى) ثم على الصهباء[٢] ثم أقبل رسول الله ﷺ بجيشه، حتى نزل بوادٍ يُقال له الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يُمِدّوا أهل خيبر، وكانوا لهم مُظاهرين على رسول الله ﷺ [٣]

---

[١] صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/٢٦-٢٧)

[٢] جبل يطل على خيبر من الجنوب، ويسمى اليوم: جبل عطوه.

[٣] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٤٤)

وهذا يبين أهمية الحيطة والحذر، والأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، وكذلك من فوائد هذا المسلك للطريق ما يبين أهمية التفكير، والأخذ بكافة الاحتمالات المتوقعة، وأخذ الأمور بجد، وتجنيب الرفقة المخاطر، وذلك بقطع أسبابها ما أمكن. وكذلك الأخذ بأسباب النصر على العدو.

ومن وقفات الطريق إلى خيبر؛ يبين سويد بن النعمان ﷺ (أنه خرج مع النبي ﷺ عام خيبر حتى إذا كنا بالصهباء ـ وهي من أدنى خيبر ـ صلى العصر، ثم دعا بالأزواد فلم يُؤتَ إلا بالسويق، فأمر به فثُرِّي، فأكل وأكلنا، ثم قام إلى المغرب، فمضمض ومضمضنا، ثم صلى ولم يتوضأ)[1]

ومما تفيده هذه الرواية أهمية المحافظة على الصلوات، وأهمية ترويح الجيش، والعناية بمطعمه، وكذا أهمية وبركة الأكل الجماعي، إذ لم يتركهم ﷺ يأكلون أشتاتاً، وكذلك بركة تجميع الطعام، وما يحققه ذلك من تآخي وتواد ومساواة. ومن فوائد ذلك أهمية دور القائد في تحقيق هذا المسلك النبوي، ويُستفاد من ذلك أن يقاس على هذا الصنيع النبوي العظيم كل الأعمال الجماعية المماثلة، وليس حصراً على مسير الجيش. ومن فوائد ذلك المضمضة بعد الأكل؛ قبل الصلاة، والصلاة بوضوء الصلاة التي قبلها.

ويبين أنس ﷺ وقت وصول رسول الله ﷺ خيبر فيقول: (أن رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلاً ـ وكان إذا أتى قوماً بليل لم يقرَبهم حتى يُصبح ـ ....)[2]

أي أنه ﷺ اقترب من خيبر، ولم يدخلها، لأنه أغار عليهم صباحاً، قال ابن حجر: من وجه آخر عن حميد بلفظ (كان إذا غزا لم يغز بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذاناً كف عنهم وإلا أغار، قال: فخرجنا إلى خيبر، فانتهينا إليهم ليلاً، فلما أصبح ولم يسمع أذاناً

[1] البخاري (٣/١٣٤) برقم (٤١٩٥)

[2] البخاري (٣/١٣٥) برقم (٤١٩٧)

ركب)[1] وهذه الرواية تبين أهمية التثبت، وعصمة دم المسلم، وأن الهدف هو تحقيق الإسلام، وليس السيطرة على البلدان.

وعن أنس ﷺ (أن رسول الله ﷺ غزا خيبر. قال: فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس...)[2]

وهذا الحديث يبين وقت صلاة الفجر، والغلس: ظلام آخر الليل، والغلس أول الصبح حتى ينتشر في الآفاق.[3]

ويبين أنس ﷺ لحظة قدومهم، حيث قال:(كنت رِدْفَ أبي طلحة يوم خيبر. وقدمي تَمَسُّ قَدَمَ رسول الله ﷺ قال: فأتيناهم حين بزغت الشمس. وقد أخرجوا مواشيهم، وخرجوا بفؤوسهم ومكاتلهم ومُرُورِهم. فقالوا: محمد والخميس. قال: وقال رسول الله ﷺ خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنْذَرين، قال: فهزمهم الله عزَّ وجلَّ.)[4]

قال الإمام النووي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ: فيه استحباب التبكير بالصلاة أول الوقت، وأنه لا يكره تسمية صلاة الصبح غداة...وفيه جواز الإرداف على الدابة إذا كانت مُطِيقَة... هذا مما استدل به أصحاب مالك ومن وافقهم على أن الفخذ ليست عورة من الرجل، ومذهبنا ومذهب آخرين أنها عورة، وقد جاءت بكونها عورة أحاديث كثيرة مشهورة، وتأول أصحابنا حديث أنس ﷺ هذا على أنه انحسر بغير اختياره لضرورة الإغارة والإجراء، وليس فيه أنه استدام كشف الفخذ، مع إمكان الستر، وأما قول أنس فإني لأرى بياض فخذه ﷺ فمحمول على أنه وقع بصره عليه فجأة، لا أنه تعمده....قوله (الله أكبر خربت خيبر) فيه

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٦٨)
(٢) مسلم (٣/١٤٢٦.١٤٢٧) برقم (١٣٦٥)
(٣) ابن منظور، لسان العرب (٦/١٥٦)
(٤) مسلم (٣/١٤٢٧) برقم (١٣٦٥.١٢١)

استحباب التكبير عند اللقاء، قال القاضي: قيل: تفاءل بخرابها بما رآه في أيديهم من آلات الخراب من الفؤوس والمساحي وغيرها، وقيل أخذه من اسمها، والأصح أنه أعلمه الله تعالى بذلك.[1] قال ابن حجر ـ رحمة الله تعالى عليه ـ: ويحتمل أن يكون قال (خربت خيبر) بطريق الوحي، ويؤيده قوله بعد ذلك (إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين)[2] ومن الفوائد، قال الإمام النووي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ: جواز الاستشهاد في مثل هذا السياق بالقرآن في الأمور المحققة، وقد جاء لهذا نظائر كثيرة كما سبق قريباً في فتح مكة؛ أنه ﷺ جعل يطعن في الأصنام ويقول (جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد، جاء الحق وزهق الباطل) قال العلماء: يكره من ذلك ما كان على ضرب الأمثال في المحاورات والمزح ولغو الحديث؛ فيكره في ذلك تعظيماً لكتاب الله تعالى.

قوله (محمد والخميس) هو الجيش، وقد فسره بذلك في رواية البخاري، قالوا سمى خميساً لأنه خمسة أقسام: ميمنة؛ وميسرة؛ ومقدمة؛ ومؤخرة؛ وقلب... قوله (أصبناها عَنوة) هي بفتح العين أي قهراً لا صلحاً، قال القاضي: قال المازري: ظاهر هذا أنها كلها فتحت عنوة، وقد روى مالك عن ابن شهاب، أن بعضها فتح عنوة وبعضها صلحاً. قال وقد يُشكل ما روي في سنن أبي داود؛ أنه قسمها نصفين: نصفاً لنوائبه وحاجته، ونصفاً للمسلمين. قال: وجوابه ما قال بعضهم أنه كان حولها ضياع وقرى، أجلى عنها أهلها؛ فكانت خالصة للنبي ﷺ وما سواها للغانمين، فكان قدر الذي خلَّوا عنه النصف، فلهذا قسم نصفين.

قال القاضي في هذا الحديث أن الإغارة على العدو يستحب كونها أول النهار عند الصبح؛ لأنه وقت غرتهم وغفلة أكثرهم، ثم يضيء لهم النهار لما يحتاج إليه، بخلاف ملاقاة

---

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٦٣-١٦٤)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٦٨)

الجيوش ومصافقتهم ومناصبة الحصون، فإن هذا يُستحب كونه بعد الزوال ليدوم النشاط ببرد الوقت، بخلاف ضده.

قوله (وخرجوا بفؤوسهم ومكاتلهم ومرورهم) الفؤوس بالهمزة جمع فأس، كرأس ورؤوس. والمكاتل جمع مكتل، بكسر الميم، وهو القفّه، يقال له مكتل وقفة وزبيل وزنبيل وعرق وسفيفة بالسين المهملة، وبفاءين. والمرور جمع مر، بفتح الميم، وهي المساحي، قال القاضي: قيل هي حبالهم التي يعدون بها إلى النخل، وقيل مساحيهم، واحدها مر لا غير.[١]

ثم تبين الروايات مجريات انتصار المسلمين وتتابع ألويتها حتى تحقق لهم النصر بتوفيق الله تعالى وتمكينه، فعن سلمة بن الأكوع (....فأتينا خيبر فحاصرناهم، حتى أصابتنا مخمصةٌ شديدة: ثم إن الله فتحها عليهم...)[٢]

ويتبين من هذه الرواية استخدام الرسول ﷺ الحصار في دخول الحصون، وهو الأجدى في فتحها واقتحامها، ثم يتبين الابتلاء الذي يرافق المؤمنين وهم في جهاد؛ ومع نبيهم ﷺ فتصيبهم مخمصة شديدة، أي مجاعة شديدة، فسبحان الله العظيم الذي بحكمته يبتلي عباده، ولئن حصل هذا للنبي ﷺ وأصحابه، وما تكاسلوا ولا أصابهم الوهن، ولا تذمروا ولا سخطوا، بل فتحوا الحصون واحداً بعد الآخر، فلجدير بالمسلم أن يأخذ من ذلك دروساً وعظات فيما يصيبه من ابتلاء وصعوبات إزاء تحقيق مطالبه؛ وما يطمع بلوغه من الخير. ذكر ابن إسحاق: الحصار، فكان أول حصونهم افتُتح حِصن ناعم، وعنده قُتِل محمود بن مسلمة، أُلقيت عليه منه رحاً فقتلته، ثم القموص، حِصن بني الحُقيق، وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا، منهن صفية بنت حيي بن أخطب، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه. وفتح الله تعالى عليهم حِصْن الصَّعب بن معاذ، وما بخيبر حِصْن كان أكثر طعاماً وودكاً منه، ثم انتهوا إلى

---

[١] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٦٤.١٦٥)

[٢] البخاري (٣/١٣٤.١٣٥) برقم (٤١٩٦)

حصنهم الوطيح والسُّلالم، وكان آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً، فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة.[١]

ومن تفاصيل بعض ذلك ما رواه سلمة بن عمرو بن الأكوع رضي الله عنه قال (بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه إلى بعض حصون خيبر، فقاتل وجهد، ولم يكن فتح)[٢]

وعن بريدة الأسلمي قال: (لما نزل رسول الله ﷺ بحصن أهل خيبر، أعطى رسول الله ﷺ اللواء عمر بن الخطاب، ونهض معه من نهض من المسلمين، فلقوا أهل خيبر، فقال رسول الله ﷺ : لأعطين اللواء غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله....)[٣]

وتبين هاتان الروايتان أن النصر قد لا يأتي بالأمر السهل، من خلال طرقة واحدة فيتحقق للمرء أو للأمة ما أرادت، بل لا بد من كرة تعقبها كرات؛ حتى يتحقق النصر؛ ويتحقق المراد. ثم تتشوق القلوب إلى هذا الذي وصفه رسول الله ﷺ فتشرئب له قلوب المؤمنين، فيبيتون ليلتهم يترقبون صباحه، كل يرجو أن يكون هو. فعن سهل بن سعد رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. قال: فبات الناس يدركون ليلتهم: أيهم يُعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه...)[٤]

إن هذا الوصف اجتذب المسلمين واشتغلوا به ليلتهم، لأنه مطمع عزيز، وتقرير لصاحبه من رسول أمين كريم، فكل واحد يتمنى أن يكون هو، فيحظى بهذه المنزلة العظيمة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٤٤-٣٤٧)

(٢) الحاكم، المستدرك (٣/٣٧)

(٣) أحمد (٥/٣٥٨)

(٤) البخاري (٣/١٣٧-١٣٨) برقم (٤٢١٠)

الكريمة، وبهذا النصر الموعود به تحقيقاً وتقريراً، أخبر به الصادق الأمين ﷺ (فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كُلُّهُم يرجوا أن يُعْطَاها)[1]

وهذا يدلل على حرص الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ على الخير ومحبتهم لهذه المنزلة، وسعيهم إليها قولاً وعملاً. وما أحوج المسلم في كل وقت؛ وفي كل مكان أن يتطلع إلى ذلك بالاجتهاد في تقوى الله تعالى التي هي أساس سلامة الطاعة وترك المعصية، عسى أن يدرك هذه المنزلة العظيمة، ففضل الله واسع وعظيم.

ثم تبين مجريات هذا الحديث العظيم، أن رسول الله ﷺ سأل عن على بن أبي طالب رضي الله عنه ولكن كان من أمر علي رضي الله عنه شيئاً عجباً، يذكر ذلك سلمة رضي الله عنه قال (كان علي رضي الله عنه تخلَّف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان رَمداً، فقال: أنا أتخلَّف عن النبي ﷺ ؟ فَلَحِقَ به...)[2]

فلقد رمدت عينه رضي الله عنه، في ذلك الوقت، فدفعته محبته لله ولرسوله ﷺ أن لا يتخلف عن نبي الله ﷺ فجاء خيبر برمده رضي الله عنه فعوضه الله تعالى بهذا الصنيع، وهذه المبادرة، بما لم يتوقعه، (... قال: فأرسلوا إليه، فأتى به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية...)[3]

فلقد أعطى الله تعالى ذلك لعلي رضي الله عنه من غير تشوف منه، لأنه لم يكن مع من قَدِم عليه صباحاً، ولأن من به رمد في عينه لا يتوقع ذلك، ولكن إرادة الله تعالى فوق كل شيء. ويفيد هذا: بيان منزلة علي رضي الله عنه ومكانته عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ (لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله) ثم يتبين من هذا الموقف ما أجراه الله تعالى على نبيه ﷺ من معجزة شفاء عين علي رضي الله عنه من الرمد الذي أصابها؛

(١) مسلم (١٨٧٢/٤) برقم (٢٤٠٦)

(٢) البخاري (١٣٧/٣) برقم (٤٢٠٩)

(٣) البخاري (١٣٧/٣-١٣٨) برقم (٤٢١٠)

ببصاق منه ﷺ. حتى كأنه لم يصبه شيء، وهذا دليل على بركته ﷺ وقد مَرَّ في صلح الحديبية أن الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ يتسابقون على مخاطه ووضوئه ﷺ ثم من المعجزات إخباره ﷺ أن الله يفتح على يديه، ثم دعا له عليه الصلاة والسلام.

وفيه من الفوائد أن ما كُتب للمرء من خير يصيبه ويأخذه ولو تدافع الكثير من الناس عليه، وغاب هو عنه. وهذا يملأ نفس المؤمن فيضاً من الطمأنينة النفسية فيما يتنافس الناس عليه من خير، وبالتالي يتحقق عنده أن ما كتبه الله تعالى يأتيه ولا يحبسه كثرة المنافسين. وإذا أدرك ذلك فلا يحسد، ولا يتعدى.

وأخذ علي ﷺ الراية، والراية بمعنى اللواء، وهو العلم الذي في الحرب، يُعرف به موضع صاحب الجيش.[1] ، ولم يذهب علي ﷺ حتى استعلم من رسول الله ﷺ أمراً مهماً (... فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. فقال: انْفُذ على رِسْلِك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النّعَم.)[2]

وفي سؤال علي بن أبي طالب ﷺ ما يبين أهمية أن يتعرف المتعلم على ما ينبغي أن يعرفه من العلم الذي يعينه على أداء مهمته، وكذلك أن يتعرف المرؤوس من رئيسه على ما يجب أن يقوم به، وما يتعلق بذلك من قضايا. فاستفسر علي ﷺ هل يكون قتالهم حتى يُسلموا فيكونون مثلنا ؟ وفي رواية عند مسلم (على ماذا أقاتل الناس ؟ قال قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله)[3]

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٤٧٧/٧)

[2] البخاري (١٣٧/٣-١٣٨) برقم (٤٢١٠)

[3] مسلم (١٨٧٢/٤) برقم (٢٤٠٦)

وفي كل هذا دليل واضح على أن منهج الإسلام لا يتقصد الناس من أجل أموالهم وخيراتهم، بل من أجل توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، والإيمان بما جاء به نبيه ورسوله وخليله محمد ﷺ ولو كان غير ذلك لما أفهم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب بذلك، وهي خيبر الغنية بمزارعها. ولكن الهدف تبليغ رسالة الله تعالى كما أمر بها رسوله محمد ﷺ بل جعل هداية الرجل الواحد خير للمسلم من حمر النعم، وهي الإبل الحمر؛ التي كانت تتفاخر بها العرب، وهي أنفس أموالهم. وهذا دليل على علو منزلة الداعية، وفضيلة دعوة غير المسلمين، والتلطف بهم وتألفهم حتى يُسلموا، وبالمغايرة والمقابلة يكون الحذر من تنفيرهم من الإسلام بأي وسيلة كانت، ففي تطبيق مبادئ الإسلام ما يدفع الناس إليه؛ لأنه يحاكي الفطرة السليمة، ويوقظ الغافل الجاهل، ويستقطب العاقل الراغب.

وقد كان من علي بن أبي طالب أمراً عجباً، ذلك (أن علياً حمل الباب يوم خيبر، وأنه جُرِّب بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً)[١] وقال ابن هشام: نقلاً عن ابن إسحاق: عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: (خرجنا مع علي بن أبي طالب ﷺ حين بعثه رسول الله ﷺ برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطاح ترْسه من يده، فتناول باباً كان عند الحصن فترَّس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر سبعة معي، أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب؛ فما نقلبه.[٢]

وفي هذا دلالة على شجاعة علي ﷺ وقوته، ولا يمنع أن يكون ذلك كرامة أجراها الله تعالى عليه، فهو (يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله)

---

[١] ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٧٨)

[٢] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٤٩،٣٥٠)

وحاصر رسول الله ﷺ أهل خيبر في حصنهم الوطيح والسُّلالم حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم، وأن يحقن لهم دماءهم، ففعل، فلما سمع بهم أهل فَدَك بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم، ويُخلّوا له الأموال، ففعل.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: (أعطى النبي ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شطر ما يخرج منها)[1]

فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم في الأموال على النصف، فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، فصالحه أهل فَدَك على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين، وكانت فَدَك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.[2]

عن أبي هريرة ﷺ قال (افتتحنا خيبر ولم نغنم ذهباً ولا فضة، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط، ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادي القُرى، ومعه عبدٌ له يقال له مِدْعَم، أهداه له أحد بني الضِّباب، فبينما هو يَحُطُّ رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر حتى أصاب ذلك العبد، فقال الناس: هنيئاً له الشهادة، فقال رسول الله ﷺ : بلى، والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم؛ لم تُصِبْها المقاسم؛ لتشتعل عليه ناراً. فجاء رجل ـ حين سمع ذلك من النبي ﷺ ـ بشراك أو بشراكين، فقال: هذا شيء كنت أصبته، فقال رسول الله ﷺ : شراك أو شراكان من نار)[3]

وفي الحديث تعظيم أمر الغلول، ـ وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها ـ وفيه كذلك: قبول الإمام الهدية، فإن كانت لأمر يختص به في نفسه أن لو كان غير وال فله التصرف فيها

(١) البخاري (١٤٣/٣) برقم (٤٢٤٨)
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٣٥٢،٣٥١/٣)
(٣) البخاري (١٤١/٣) برقم (٤٢٣٤)

بما أراد، وإلا فلا يتصرف فيها إلا للمسلمين، وعلى هذا يحمل حديث (هدايا الأمراء غلول) فيخص بمن أخذها فاستبد بها.[١]

عن أبي هريرة ﷺ قال: (لما فتحت خيبر أُهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم)[٢]

فقد أهدت إليه زينب بنت الحارث، امرأة سلاَّم بن مِشْكم شاة مشوية، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها الذراع، فأكثرت فيها من السم، ثم سمَّت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع فلاك منها مضغة، فلم يُسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله ﷺ فَلَفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، ثم دعا بها، فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك ؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلتُ: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيُخبر، فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ومات بشر من أكلته التي أكل.[٣]

وفي هذا معجزة نبوية أجراها الله تعالى لنبيه ﷺ إذ جعل الله تعالى العظم يُخبر رسول الله ﷺ بأنه مسموم، فلقد تعاطفت معه ﷺ العظام، وأخبرته بما فيها، بقدرة الله تعالى وفضله ومَنِّه على نبيه ﷺ وفي هذا بيان لمكانة رسول الله ﷺ ومنزلته عند ربه.

وفيه كذلك حلم وصفح رسول الله ﷺ عمن آذاه في نفسه بأشد الأذى. فكان الصفح منه ﷺ حتى على اليهودية التي أرادت قتله، ليعطي بذلك ﷺ درساً عظيماً في الصفح، الذي أولى الناس بتطبيقه المسلمون فيما بينهم، فضلاً عن عدوهم، فما أحوج الناس إلى سيرته ﷺ في كل باب من أبوابهم، وفي كل أمر من أمورهم.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٤٨٩/٧-٤٩٠)

(٢) البخاري (١٤٣/٣) برقم (٤٢٤٩)

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٣٥٢/٣-٣٥٣)

وقد اختلفت الروايات في قتل اليهودية، وقد وُفِّق بين الروايتين: بأن النبي ﷺ عفا عنها فيما يخصه؛ فلم يقتلها، فلما مات بشر قتلها قصاصاً.[1]

وفي هذه الرواية يتضح الحقد اليهودي على الإسلام وعلى رسول الله ﷺ وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وفي هذا درس عظيم الفائدة.

(1) ابن القيم، زاد المعاد (٣/٣٣٦)

الفصل العاشر
من مكاتبة النبي ﷺ للملوك والأمراء
إلى سرية مؤتة

مكاتبة النبي ﷺ للملوك والأمراء:

لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي الحجة سنة ست، أرسل الرُّسُل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتباً، فقيل: يا رسول الله ! إن الملوك لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذٍ خاتماً من فضة، فَصُّه منه، نقشه ثلاثة أسطر: محمد رسول الله، وختم به الكتب، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد، وذلك في المحرم سنة سبع. وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم، فكان أول رسول بعثه رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه إلى النجاشي، ودحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه إلى قيصر، وكتب معه كتاباً وأمره أن يدفعه إلى عظيم بُصْرى ليدفعه إلى قيصر، فدفعه عظيم بُصْرى إليه وهو يومئذ بحمص، وقيصر يومئذ ماش في نذر كان عليه. وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه إلى كسرى؛ وكتب معه كتاباً، وبعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة اللخمي رضي الله عنه إلى المقوقس صاحب الإسكندرية عظيم القبط، وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدي رضي الله عنه إلى الحارث بن أبي شَمِر الغساني. وبعث رسول الله ﷺ سليط بن عمرو العامري رضي الله عنه إلى هوذة بن علي الحنفي. وكان صلى الله عليه وسلم يدعوهم في هذه الكتب إلى الإسلام. وقد ذكر ابن سعد كُتُباً غيرها لغيرهم من الملوك والأمراء.[1]

فهذه الرسائل للملوك والأمراء تؤكد وتبين عالمية هذه الرسالة، بأنها للعالمين كافة، قال تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾[2]

وكذلك تبين هذه الكتب شجاعة رسول الله ﷺ إذ لم يخش من أولئك أن يقاتلوه. وكذلك تفيد هذه المكاتبة أهمية الدعوة إلى الله تعالى بين أهل الأديان الأخرى، وكذلك دعوة عِلْيَة القوم للإسلام؛ وذلك لولايتهم على غيرهم، فيحصل بإسلامهم إسلام أتباعهم، وفي

---

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١/٢٥٨-٢٩١)

[2] سورة سبأ: آية رقم (٣٤)

اتخاذ الخاتم من رسول الله ﷺ ما يفيد مراعاة عادات وأحوال الأمم في الأمور المباحة، وكذلك فيه اتخاذ الخاتم، واتخاذ الختم، والتختيم باللقب الذي منحه الله تعالى.

ويفيد أن تطوير أساليب الإدارة يكون بحسب واقع الحال، وأخذ الأساليب والنظم المباحة من الغير، والإفادة منها.

وكذلك تفيد نصوص كتبه ﷺ المنهجية في مضامين الدعوة والمكاتبة للغير في أمر الإسلام، ومن ذلك نص كتابه ﷺ إلى هرقل عظيم الروم الذي نصه كما جاء في صحيح البخاري (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبدَ إلا الله ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) [1]

ومن الفوائد التي ذكرها ابن حجر ـ رحمة الله تعالى عليه ـ أن السنة أن يبدأ الكتاب بنفسه، وهو قول الجمهور. وفيه عدولٌ عن ذكر هرقل بالملك أو الإمارة، لأنه معزول بحكم الإسلام. لكنه لم يخله من إكرام؛ لمصلحة التأليف. وفيه أنه لم يبدأ الكافر بالسلام قصداً؛ وإن كان اللفظ يُشعر به، لكنه لم يدخل في المراد، لأنه ليس ممن اتبع الهدى، فلم يُسلِّم عليه. وقوله ﷺ (أسلم تسلم) غاية في البلاغ، وفيه نوع من البديع، وهو الجناس الاشتقاقي. وإعطاؤه الأجر مرتين؛ لكونه كان مؤمناً بنبيه، ثم يؤمن بمحمد ﷺ ويحتمل أن يكون تضعيف الأجر له من جهة إسلامه، ومن جهة أن إسلامه يكون سبباً لدخول أتباعه. وقوله ﷺ (فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين) إي إثم الأكار، أي الفلاح. وقد جاء مصرحاً به في رواية إسحاق عن الزهري (فإن عليك إثم الأكارين) قال أبو عبيدة: المراد بالفلاحين أهل مملكته،

[1] البخاري (١/١٦-١٩) برقم (٧)

لأن كل من كان يزرع فهو عند العرب فلاح، سواء كان يلي ذلك بنفسه أو بغيره. قال الخطابي أراد أن عليك إثم الضعفاء، والأتباع إذا لم يسلموا؛ تقليداً له، لأن الأصاغر أتباع الأكابر.[1]

قال ابن حجر، ذكر السهيلي أنه بلغه أن هرقل وضع الكتاب في قصبة من ذهب، تعظيماً له. وأنهم لم يزالوا يتوارثونه حتى كان عند ملك الفرنج الذي تغلب على طليطلة، ثم كان عند سبطه.[2]

وجاء من أمر هرقل في صحيح البخاري (...فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم. وسار هرقل إلى حمص، فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب صاحبه؛ يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ وأنه نبي. فأَذِنَ هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فَغُلِّقت، ثم اطلع، فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفَلاح والرشد؛ وأن يَثْبُتْ مُلكُكم فَتُبَايُعُوا هذا النبي ؟ فحاصوا حيصة حُمُرِ الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غُلِّقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم عليَّ. وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيتُ. فسجدوا له ورضوا عنه. فكان ذلك آخر شأن هرقل.)[3]

ويفيد هذا أن شهوة المناصب والمكانة قد تحول بين المرء وخير الآخرة، مما يفيد المسلم؛ الانتباه واليقظة لشهوات الدنيا، وما قد تؤول به إلى الشر، وتحبسه عن خير الآخرة وثوابها. ويعلم أن النفس تتأثر بملذات الدنيا تأثراً عظيماً، فهرقل قد تحقق عنده نبوة محمدٍ ﷺ بما لا يدع لديه مجالاً للشك، ولكن حال بينه وبين الإيمان به الخوف على منصب الدنيا.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٣٨/١-٣٩)

(٢) المرجع السابق (٤٤/١)

(٣) البخاري (١٦/١-١٨) برقم (٧)

ما بين خيبر وعمرة القضاء:

ـ سرية عمر بن الخطاب ﵁ إلى تربة :

في شعبان سنة سبع من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﵁ في ثلاثين رجلاً إلى عَجُز هوازن بتربة، وهي بناحية العبلاء، على أربع ليال من مكة طريق صنعاء ونجران، فخرج وخرج معه دليل من بني هلال، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فأتى الخبر هوازن فهربوا، وجاء عمر بن الخطاب ﵁ محالَّهم فلم يلق منهم أحداً، فانصرف راجعاً إلى المدينة.[١]

ـ سرية أبي بكر الصديق ﵁ إلى نجد:

في شعبان سنة سبع من الهجرة كانت سرية أبي بكر الصديق ﵁ إلى بني كلاب بنجد، ناحية ضَرِيّة.[٢] فعن إياس بن سلمة عن أبيه، رضي الله تعالى عنهما، قال (غزونا فَزَارَة وعلينا أبو بكر، أمَّره رسول الله ﷺ علينا. فلما كان بيننا وبين الماء ساعة، أمرنا أبو بكر فعرَّسْنا، ثم شن الغارة. فورد الماء، فقتل من قتل عليه، وسَبَى، وأنظر إلى عُنُقٍ من الناس فيهم الذراري. فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل. فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، فجئت بهم أسُوقهم. وفيهم امرأة من بني فَزَارَة، عليها قَشْع من أدم (قال القشع النَّطع) معها ابنة لها من أحسن العرب. فَسُقْتُهم حتى أتيت بهم أبا بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها. فقدمنا المدينة؛ وما كشفت لها ثوباً، فلقيني رسول الله ﷺ في السوق، فقال: يا سلمة ! هب لي المرأة. فقلت : يا رسول الله ! والله لقد أعجبتني، وما كشفت لها ثوباً. ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق. فقال لي : يا سلمة ! هب لي المرأة. لله أبوك. فقلت: هي لك يا

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١١٧/٢)

(٢) المرجع السابق (١١٧/٢)

رسول الله ! فوالله ما كشفت لها ثوباً. فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، ففدى بها ناساً من المسلمين، كانوا أُسِرُوا بمكة.)[١]

جاء في الحديث لفظ (التعريس) وهو: النزول آخر الليل، وقوله (وأنظر إلى عنق من الناس) أي جماعة، وفي الحديث من الفوائد، جواز التنفيل، وفيه استحباب الكناية عن الوقاع بما يفهمه، وجواز المفاداة، وجواز فداء الرجل بالنساء الكافرات، وفيه جواز استيهاب الإمام أهل جيشه بعض ما غنموه ليفادي به مسلماً، أو يصرفه في مصالح المسلمين، أو يتألف به من في تألفه مصلحة، كما فعل ﷺ هنا، وفي غنائم حنين، وفيه جواز قول الإنسان للآخر لله أبوك ولله درك.[٢] وهي كلمة مدح.

ـ سرية بشير بن سعد رضي الله عنه إلى ناحية فَدَك :

في شعبان سنة سبع من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد في ثلاثين رجلاً إلى بني مرّة بفَدَك، فسأل عن الناس فقيل في بواديهم، فاستاق النعم والشاة وانحدر إلى المدينة، فلما علموا أدركوه؛ فأصابوا أصحاب بشير، وقاتل بشير حتى أصيب، فقيل قد مات، ورجعوا بنعمهم وشاتهم، وقدم عُلبة بن زيد الحارثي بخبرهم إلى رسول الله ﷺ ثم قدم من بعده بشير بن سعد.[٣]

ـ سرية غالب بن عبد الله رضي الله عنه إلى الميفَعة :

عن أبي ظبيان قال سمعت أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنه يُحدِّث، قال (بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقة من جهينة، قال: فصبّحنا القوم، فهزمناهم. قال: ولحقت أنا ورجلٌ من الأنصار رجُلاً منهم، قال: فلما غَشيناه قال: لا إله إلا الله، قال: فكفَّ عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته. قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ قال: فقال: يا أسامة أقتلته

[١] مسلم (١٣٧٥/٣.١٣٧٦) برقم (١٧٥٥)

[٢] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٦٨/١٢.٦٩)

[٣] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١١٨/٢.١١٩)

بعدما قال: لا إله إلا الله ؟ قال : قلت: يا رسول الله إنه إنما كان متعوذاً، قال: قتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله ؟ قال: فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.)[١]

وهم بَطْن من جهينة، سموا بذلك لوقعة كانت بينهم وبين بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان فأحرقوهم بالسهام؛ لكثرة من قتلوا منهم، وهذه السرية يقال لها سرية غالب بن عبيد الله الليثي،[٢] وكانت في رمضان سنة سبع من الهجرة. قال ابن حجر: قال ابن التين: في هذا اللوم تعليم وإبلاغ في الموعظة حتى لا يقدم أحد على قتل من تلفظ بالتوحيد، وقال القرطبي: في تكريره ذلك؛ والإعراض عن قبول العذر زجر شديد عن الإقدام على مثل ذلك... وفيه ترتب الأحكام على الأسباب الظاهرة دون الباطنة.[٣]

وفي قوله (حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم) لأن الإسلام يجبُّ ما قبله، فتمنى أن يكون ذلك اليوم أول دخوله في الإسلام ليأمن من جريرة تلك الفعلة، ولم يرد أنه تمنى أن لا يكون مسلماً قبل ذلك، قال القرطبي: وفيه إشعار بأنه كان استصغر ما سبق له قبل ذلك من عمل صالح في مقابلة هذه الفعلة، لما سمع من الإنكار الشديد.[٤]

وفي الحديث دليل على منزلة وعِظَم لا إله إلا الله. فبها يعصم الإنسان نفسه ودمه وماله وعرضه إلا بحقها. كما يندرج عن ذلك ويلحق به مكانة التوحيد ومنزلته الرفيعة، فكان عليه الصلاة والسلام يردد ذلك على أسامة رضي الله عنه (قال: فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.)

---

[١] البخاري (٢٦٧/٤) برقم (٦٨٧٢)

[٢] وعند ابن سعد : عبدالله وليس عبيد الله. الطبقات الكبرى (١١٩/٢)

[٣] ابن حجر، فتح الباري (١٩٦/١٢)

[٤] المرجع السابق (١٩٦/١٢)

ومن مقتضيات لا إله إلا الله؛ الإقرار بتوحيد الله وتنزيهه عن الشرك في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

ويفيد الحديث أمانة أسامة بن زيد ـ رضي الله تعالى عنهما ـ إذ لم يمنعه ما حصل منه أن يطوي هذه القضية ولا يذكرها. بل ذكرها، ليستفيد منه غيره.

وهذا الأمر متعلق بحكم من قال لا إله إلا الله، ومنزلتها العظيمة. ويعني هذا أهمية إظهار العلم، وعدم إخفائه لينتفع الناس به. ويفيد كذلك شدة خوف أسامة ﷺ وتحسره على ما بدر منه، فيقدم ﷺ أنموذجاً وقدوة للمؤمن تجاه ما يكتسب من الذنوب، بأن يندم على فعله ويتوب ويعزم على أن لا يعود إليه.

ـ سرية بشير بن سعد ﷺ إلى الجِنَاب :

بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من غطفان بالجناب قد واعدهم عيينة بن حصن ليكون معهم، ليزحفوا إلى رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ بشير بن سعد، فعقد له لواء في شوال، سنة سبع من الهجرة، وبعث معه ثلاثمائة رجل، فساروا الليل وكمنوا النهار؛ حتى أتوا إلى يمن وجبار، وهي نحو الجناب، والجناب يعارض سَلاح وخيبر ووادي القرى، فنزلوا بسلاح، ثم دنوا من القوم، فأصابوا لهم نعماً كثيراً وتفرق الرعاء، وخرج بشير بن سعد في أصحابه حتى أتى محالهم؛ فيجدها ليس فيها أحد، فرجع بالنعم وأصاب منهم رجلين، فأسرهما وقدم بهما إلى رسول الله ﷺ فأسلما فأرسلهما.[1]

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٢٠)

عمرة القضاء :

يبين مطلع الحديث التالي سبب هذه العمرة، وارتباطها بصلح الحديبية؛ الذي كان سبباً في إنشائها، فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما (أن رسول الله ﷺ خرج معتمراً، فحال كفَّار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه، وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحاً عليهم إلا سيوفاً، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم...)[١]

ومن أسماء هذه العمرة: القضاء، والقضية، والقصاص، والصلح.[٢] [٣]

وفي ذي القعدة سنة سبع دخل رسول الله ﷺ مكة، وقد خرج معه المسلمون، ممن صُدَّ معه في عمرته التي في سنة ست.[٤] حيث أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التي صدَّهم المشركون عنها بالحديبية، وأن لا يتخلَّف أحدٌ ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف منهم أحدٌ إلا رجال استُشهدوا بخيبر، ورجال ماتوا. وخرج مع رسول الله ﷺ قومٌ من المسلمين عمَّاراً، فكانوا في عمرة القضية ألفين.[٥]

---

[١] البخاري (١٤٤/٣) برقم (٤٢٥٢)

[٢] ابن حجر، فتح الباري (٥٠٠/٧)

[٣] في الحاشية (وَعُدَّت عمرة الحديبية في العمر لثبوت الأجر فيها، لا لأنها كملت. والخلاف مبني على الاختلاف في وجوب القضاء على من اعتمر فَصُدَّ عن البيت، فقال الجمهور، يجب عليه الهدي ولا قضاء عليه. وعن أبي حنيفة عكسه، وعن أحمد رواية أنه لا يلزمه هدي ولا قضاء، وأخرى يلزمه الهدي والقضاء...) انظر ابن حجر، فتح الباري (٥٠٠/٧)

[٤] ابن هشام، السيرة النبوية (١٢/٤)

[٥] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٢٠/٢)

وخرج ﷺ مستعداً بالسلاح، خشية أن يقع من قريش غدراً، فبلغهم ذلك ففزعوا، فلقيه مكرز فأخبره ﷺ أنه باق على شرطه، وأن لا يدخل مكة بسلاح إلا السيوف في أغمادها، وإنما خرج في تلك الهيئة احتياطاً، فوثق بذلك.[1]

ويدل هذا على وفائه ﷺ بما التزم به مع كفار قريش، حيث ترك سلاح الحرب خارج مكة، كما يفيد هذا الاحتياط منه ﷺ أهمية أخذ الحيطة والحذر من الكفار، وأن يكون المسلم فطناً ونبيهاً، ومع ذلك يلتزم بما عاهد عليه الكفار، وأن يكون عادلاً منصفاً؛ غير جائرٍ ولا ناقضٍ لمواثيقه. وأن في الالتزام بهذا الخُلُق ما يعكس صورة الإسلام وهديه وأخلاقه التي تُرَغِّب وتُحَفِّز الكافر للدخول فيه، وهو مطلب من مطالب الدين، أن يدخل فيه غيرهم.

عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال (قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حمى يثرب. قال المشركون: إنه يقدم عليكم غداً قومٌ قد وَهَنَتْهُم الحُمَّى؛ ولقوا منها شدة، فجلسوا مما يلي الحجر. وأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا ثلاثة أشواط، ويمشوا ما بين الركنين، ليرى المشركون جَلَدَهُم. فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أنَّ الحُمَّى قد وهنتهم. هؤلاء أجلد من كذا وكذا، قال ابن عباس: ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.)[2]

ومن فوائد هذا الحديث أهمية التحامل على النفس؛ بما يرى العدو القوة والجلادة من المسلمين، وأن في ذلك مهابة لهم، كما حصل ذلك في قلوب كفار قريش، حيث قالوا لما رأوا جلد المسلمين: هؤلاء أجلد من كذا وكذا.

وفي الحديث أهمية الشفقة والرحمة بالناس، وأن على القائد أن يحقق الهدف من خلال جهود أتباعه مع النظر إلى حالهم، وأن يشفق عليهم ما أمكن ذلك، وبمعنى أن يجمع بين

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/٥٠٠) وابن سعد، الطبقات (٢/١٢٠-١٢١)

(٢) مسلم (٢/٩٢٣) برقم (١٢٦٦)

تحقيق الهدف وبين حال الناس. كما جاء في الحديث السابق (ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم) وهذا ينطبق أيضاً على المدير الإداري مع منسوبي إدارته، وكذا المعلم مع تلاميذه، وفي كل دائرة من دوائر القيادة والمسؤولية، فيجمع في تعامله بين الشفقة وتحقيق المصلحة، فإذا كان ذلك النهج النبوي الكريم مع أصحابه لمواجهة ظنون الكافرين، فمن باب أولى أن يكون ذلك بين المسلمين في أحوالهم العامة.

وتبين الأحاديث التالية مزيد تفصيل لذلك النُّسك وأحداثه: فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال (إنما سعى رسول الله ﷺ وَرَمَلَ بالبيت ليُري المشركين قُوَّتَه)[١]

عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال (قدم رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفدٌ وَهَنَتْهُم حُمَّى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم. وزاد ابن سلمة عن أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما قدِمَ النبي ﷺ لعامه الذي استأمن قال: ارملوا ليرى المشركون قوَّتَكم، والمشركون من قِبَل قُعَيقِعان)[٢] وجبل قُعَيقِعان يُشرف على الركنين الشاميين، ومن كان به لا يرى ما بين الركنين اليمانيين.[٣]

ولقد كان من اهتمام الصحابة رضي الله تعالى عنهم أن خافوا على النبي ﷺ من أذى الصبية، الذين قد يدفعهم جهلهم وتأثرهم بآراء قومهم أن يؤذوا رسول الله ﷺ فعن أبي أوفى (لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غِلمان المشركين ومنهم؛ أن يؤذوا رسول الله ﷺ)[٤]

---

[١] مسلم (٩٢٣/٢) برقم (١٢٦٦.٢٤١)

[٢] البخاري (١٤٥/٣) برقم (٤٢٥٦)

[٣] ابن حجر، فتح الباري (٥١٠/٧)

[٤] البخاري (١٤٥/٣) برقم (٤٢٥٥)

ويفيد هذا الاهتمام وهذا الصنيع منهم رضي الله عنهم، أهمية العناية والاهتمام بحفظ ولاة أمر المسلمين: العلماء والحكام، لأنهم القائمون على حفظ الدين بالعلم وبالسلاح دفاعاً عنه.

ولما انتهت المدة التي رآها المشركون، طلبوا من الرسول ﷺ الرحيل عن مكة، فلم يتلكأ عليه الصلاة والسلام، بل كان وفياً صادقاً حتى مع أعدائه، جاء في الحديث (...فلما أن أقام بها ثلاثاً؛ أمروه أن يخرج فخرج)[1] وعن البراء رضي الله عنه قال (...فلما دخلها ومضى الأجل أتوا علياً؛ فقالوا: قل لصاحبك أخرج عنَّا فقد مضى الأجل. فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تُنادي: يا عم! يا عم !. فتناولها عليٌ؛ فأخذ بيدها؛ وقال لفاطمة عليها السلام: دُونك ابنة عمك حَمِّليها. فاختصم فيها عليٌّ وزيدٌ وجعفرٌ، قال علي : أنا أخذتها وهي بنت عمي. وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيدٌ ابنة أخي. فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: الخالة بمنزلة الأم. وقال لعلي: أنت مني وأنا منك: وقال لجعفر: أشبهت خَلْقي وخُلُقي، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا. وقال علي ألا تتزوج بنت حمزة ؟ قال: إنها ابنة أخي من الرضاعة)[2]

ويبين هذا الحديث موقفاً عاطفياً من ابنة حمزة رضي الله عنه وهي تنادي يا عم! يا عم!، كأنها خاطبت النبي ﷺ بذلك إجلالاً له، وإلا فهو ابن عمها، كون حمزة رضي الله عنه عم النبي ﷺ من النسب، وكذلك النبي ﷺ عمها، لأن حمزة رضي الله عنه أخو النبي ﷺ من الرضاعة. فقدمت علاقة الرضاعة على غيرها. وقد أقرها عليٌ رضي الله عنه بقوله لفاطمة بنت رسول الله ﷺ (دونك ابنة عمك)[3]

---

[1] البخاري (١٤٤/٣) برقم (٤٢٥٢)

[2] البخاري (١٤٤/٣) برقم (٤٢٥١)

[3] ابن حجر، فتح الباري (٥٠٥/٧)

وقول راوي الحديث (فاختصم فيها عليٌّ وزيدٌ وجعفرٌ) دليل على محبتهم للخير، ودليل على أهمية صلة الرحم، وكل يرى أنه أحق وألصق وأقرب في صلة الرحم، وفيه دليل على محبتهم لحمزة ﷺ وإنها لصورة رائعة، إذ تبين مدى عمق التواصل الذي وصل إليه أولئك الأصحاب، حتى أنهم يتنازعون ذلك الخير للوفاء بصلة الرحم. وفي هذا بيان لصورة الأسرة الحميمة في ذلك الوقت.

ثم يتبين من الحديث قوة البيان القضائي والحس التربوي في منهج رسول الله ﷺ حيث قضى بينهم، مع بيان علة الحكم ومستنده، وفي بيانه ذلك ما يعلم به القاضي والفقيه العلة التي يُستند إليها في مثل هذه القضية، وهو أسلوب تربوي عالي البيان والإيضاح، وأتبع ذلك ببيان منزلة كل واحد منهم عند رسول الله ﷺ فيكون ذلك عليهم جميعاً نَسِيمٌ عليلٌ. فَيُستفاد من هذا المنهج النبوي التربوي أهمية الأخذ في الاعتبار جوانب العواطف، ومعالجتها بالأسلوب الأمثل الذي يتناسب مع الحدث، فقد كانت المعالجة منه ﷺ بما يتناسب مع وضع ومنزلة أولئك الرجال منه ﷺ فيقاس على ذلك.

ومن الفوائد التي ذكرها ابن حجر رحمة الله تعالى عليه : قوله (وقال: الخالة بمنزلة الأم) أي في هذا الحكم الخاص، لأنها تقرب منها في الحنو والشفقة والاهتداء إلى ما يصلح الولد، لما دل عليه السياق، ويؤخذ منه أن الخالة مقدمة على العمة، لأن صفية بنت عبد المطلب كانت موجودة حينئذ، وإذا قُدِّمَتْ على العمة مع كونها أقرب العصبات من النساء؛ فهي مقدمة على غيرها. وفيه أن الحاكم يبين دليل الحكم للخصم، وأن الخصم يدلي بحجته، وأن الحاضنة إذا تزوجت بقريب المحضونة لا تسقط حضانتها إذا كانت المحضونة أنثى، أخذاً بظاهر الحديث؛ قاله أحمد. وعنه: لا فرق بين الأنثى والذكر. ولا يشترط كونه محرماً، لكن يشترط أن يكون فيه مأموناً. ولا تسقط إلا إذا تزوجت بأجنبي.(١)

(١) ابن حجر، فتح الباري (٥٠٦/٧-٥٠٧)

وفي عودته ﷺ تزوج بميمونة؛ بعد تحلله عليه الصلاة والسلام، فعن ميمونة بنت الحارث (أن رسول الله ﷺ تزوجها وهو حلال.)[١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: (تزوج النبي ﷺ ميمونة في عمرة القضاء)[٢]

أحداث ما بين عمرة القضاء وسرية مؤتة:

- سرية ابن أبي العوجاء السلمي إلى بني سليم:

بعث رسول الله ﷺ ابن أبي العوجاء السلمي في خمسين رجلاً إلى بني سليم، وتَقَدَّمَه عينٌ لهم كان معه، فحذَّرهم، فجمَّعوا، فدعاهم ابن أبي العوجاء إلى الإسلام، فقالوا لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا، فتراموا بالنبل ساعة حتى أتتهم الإمدادات فأحدقوا بهم من كل ناحية، فقاتل القوم قتالاً شديداً، حتى قُتِل عامتهم، وأصيب ابن أبي العوجاء جريحاً مع القتلى، ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﷺ فقدموا المدينة في أول يوم من صفر، سنة ثمان. وقد خرجوا في ذي الحجة سنة سبع.[٣]

وتبين أحداث هذه السرية أن أمر المؤمن ليس كله حسب ما يتمنى ويرغب، فلله حِكَمٌ وأسرارٌ لا يعلمها إلا هو، فقد يكون باطنها خلاف ظاهرها، فالله يعلم ما لا يعلمه عباده، وبالتالي فإن مما يُستفاد من هذه الحادثة وأمثالها أن يدرك المسلمُ حال ما يمتنع عليه أو عنه ما أراد، فإن ذلك حصل لأصحاب رسول الله ﷺ وهم في جهاد في سبيل الله تعالى، فلله الحكمة البالغة، وهذه المشاعر إذا استشعرها المؤمن زادته طمأنينة، وجنبته الظنون والأوهام الرديئة.

---

(١) مسلم (١٠٣٢/٢) برقم (١٤١١)

(٢) البخاري (١٤٥/٣) برقم (٤٢٥٩)

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٢٣/٢)

إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد: رضي الله تعالى عنهما :

قال عمرو بن العاص: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق؛ جمعت رجالاً من قريش، كانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علوّاً مُنكراً، وإني قد رأيت أمراً، فما ترون فيه ؟ قالوا: وماذا رأيت ؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي، فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يده أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا؛ فنحن من قد عَرَفوا؛ فلن يأتينا منهم إلا خير، قالوا: إن هذا الرأي، قلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له، وكان أحبَّ ما يُهدى إليه من أرضنا الأدم. فجمعنا له أدماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه.

فوالله إنا لعنده إذ جاءه عَمْرو بن أمية الضَّمْري، وكان رسولُ الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه. قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده. قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضَّمْري؛ لو قد دخلت على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها؛ حين قتلتُ رسولَ محمد. قال فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي، أهديت إليَّ من بلادك شيئاً ؟ قال: قلت: نعم، أيها الملك، فقد أهديت إليك أدماً كثيراً. قال: ثم قربته إليه، فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك ! إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدوّ لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا. قال: فغضب، ثم مدَّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فَرَقاً منه؛ ثم قلت: أيها الملك ! والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه؛ قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله ! قال: قلت: أيها الملك ! أكذاك هو ؟ قال: ويحك يا عمرو، أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحقّ، وليَظْهَرَنَّ على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجُنُودِه، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام ؟ قال: نعم، فبسط يده

فبايعتُه على الإسلام، ثم خرجتُ إلى أصحابي وقد حال رأيي عمَّا كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي.

ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ فلقيت خالدَ بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان ؟ قال: والله لقد استقام المنسم، وإن الرجل لنبي، أذهب والله فأُسْلِم، فحتى متى ! قال: قلت: والله ما جئتُ إلا لأسلم. قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت، فقلت: يا رسول الله ! إني أبايعك على أن يغفر ليَ الله ما تقدَّم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر، فقال رسول الله ﷺ (يا عمرو ! بايع، فإن الإسلام يجب ما كان قبله، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها: فبايعته، ثم انصرفت.[١]

ـ سرية غالب بن عبدالله الليثي ﷺ إلى بني المُلَوِّح بالكديد:

بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثي، وأمرهم أن يشنوا الغارة على بني الـمُلَوِّح بالكديد، وهم من بني ليث، حتى إذا كانوا بِقُديد لقوا الحارث بن البرصاء الليثي فأخذوه، فقال: إنما جئت أريد الإسلام، وإنما خرجت إلى رسول الله ﷺ ، قلنا: إن تكن مسلماً لم يضرك رباطُنا يوم وليلة، وإن تكن على غير ذلك نستوثق منك. فَشَدُّوا وثاقه وتركوا عليه رجلاً أسود، وقالوا له: إن نازعك فاحتز رأسه. وأكملوا مسير غزوتهم....[٢]

يبين هذا القدر من مسيرهم أهمية الاستيثاق من المجهول أمره، أو ممن يُشك في أمره، وأن عملية الاحتراز من المهام التي ينبغي الأخذ بها، حتى لا يؤخذ المؤمن على غرة من أمره. وكذلك من فوائد هذا المقطع من أمر السرية، بيان العلة في اتخاذ الإجراء لمن اتخذ الإجراء في حقه، وأن المسلمين قبلوا منه ما يعصم به دمه؛ فلم يقتلوه، بل أخذوه معهم لرسول الله ﷺ

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٢٨٩.٢٩١)

[٢] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٢٤) وأبو داود (٣/١٢٨) برقم (٢٦٧٨)

ولعل هذا من فوائد ما سبق وأن مر بهم من أحداث قد تبين من خلالها عصمة دم من قال إنه مسلم أو نطق بالشهادة.

وقد اتخذ المسلمون في هذه السرية من يقوم برصد حركة العدو، ومعرفة ما يدور حولهم؛ حتى لا يأخذهم عدوهم على غرة من أمرهم؛ كما يتضح من هذه القصة الشجاعة، حيث يقول جندب بن مكيث الجهني: فسرنا حتى أتينا الكديد عند غروب الشمس، فكَمِنَّا في ناحية الوادي، وبعثني أصحابي ربيئة لهم، فخرجت حتى أتيت تلاً مشرفاً على الحاضر، يُطْلِعُني عليهم، حتى إذا أسندت عليهم فيه؛ علوت على رأسه واضطجعت عليه، قال: فإني لأنظر إذ خرج رجل منهم من خِبَاء له، فقال لامرأته: إني أرى على هذا الجبل سواداً ما رأيته من أول يومي هذا، فانظري إلى أوعيتك، لا تكون الكلاب جرَّت منها شيئاً. قال: فَنَظَرَتْ فقالت: والله لا أفقد من أوعيتي شيئاً، قال: فناوليني قوسي ونبلي، فناولَتْه قوسَه وسهمين معها، فأرسل سهماً فوالله ما أخطأ بين عيني، قال: فانتزعته وثَبَتُّ مكاني، ثم أرسل سهماً آخر فوضعه في منكبي؛ فانتزعته فوضعته، وثَبَتُّ مكاني. فقال لامرأته: والله لو كانت ربيئة لتحركت بعد ! والله لقد خالطها سَهْمَايَ لا أبا لك ! فإذا أصبحت فانظريهما لا تمضغهما الكلاب.[١]

فيبين هذا المقطع لهذه السرية، أهمية أخذ العيون التي ترقب حركة العدو، وأهمية أن يكون الرقيب شجاعاً مُقَدِّرَاً لقراراته وتحركاته، وأثر ذلك على كتيبته وسريته، حيث قَدَّم جندب ﷺ المثل الصادق والشجاع في محافظته على سريته، فلو تحرك بعد القوس الأول لعرف الرجل الرامي أنه ربيئة أي عيناً يتجسس عليهم، ولصاح في قومه فحصل ما لا يُمَكِّن المسلمين من أمرهم. فلقد صبر جندب على قوسين أصابته ولم يتحرك، حفاظاً على المسلمين وأمرهم. وفيه من الفوائد التطبيق العملي لقاعدة: تحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام.

---

[١] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٢٤/٢)

وبعد أن اطمأن العدو، شن المسلمون الغارة عليهم، واستاقوا النعم. فصرخ صريخ القوم في قومهم، فجاء ما لا قِبَلَ لهم به. ويقول جندب ﷺ فأدْرَكَنا القومُ حتى نظروا إلينا، ما بيننا وبينهم إلا الوادي، إذ جاء الله بالوادي من حيث شاء، يملأ جنبيه ماء، والله ما رأينا يومئذ سحاباً ولا مطراً، فجاء بما لا يستطيع أحدٌ أن يجوزه. فلقد رأيتهم وقوفاً ينظرون إلينا، وقد أسندناها في المُشَلّل نحدرها، وفتناهم فتونا لا يقدرون فيه على طلبنا.(١) (٢)

وتبين خاتمة هذه الغزوة كيف نصر الله تعالى المسلمين بسيل لا يعرفون له سبباً، من سحاب أو مطر، فلقد أجرى الله تبارك وتعالى الوادي بقوته وقدرته، وبمنه وكرامته لعباده وجنوده المجاهدين، والعدو ينظر إليهم وإلى أنعامهم التي أخذها المسلمون، ولا يقدرون على استرجاع شيء منها، فلله الحكمة والقوة الباهرة. فسبحانه وتعالى ينصر عباده كيف شاء ومتى شاء.

ومن فوائد هذه السرية أن على الأمة أن تأخذ بالأسباب وتُعلِّق النتائج على ربِّ الأسباب، وأن لا تنهزِم أمام العدو لكثرة عتاده وعدته، فالنصر بيد الله تعالى. وكذا إذا انهزمت، فلهم فيما حصل للمسلمين في هذه الغزوات والسرايا دروس وعبر، وأن لا يكون للضعف طريق إلى قلوبهم.

وأن الغزوات والسرايا النبوية وما بعدها من فتوحات تؤكد أن نصر المسلمين لم يكن بقوة السلاح فقط، بل كان بقوة الإيمان والصدق مع الله تعالى.

ومن فوائد هذه السرية أن العدو الكافر إذا بلغته الدعوة ولم يقبلها، وكان مهدداً للمسلمين، فلهم أن يأخذوه على غرة، لمكابرته ورفضه للحق.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٢٥/٢)

(٢)

ـ سرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك:

هَيَّأ رسول الله ﷺ الزبير بن العوام ﷺ وقال له: سر حتى تنتهي إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد فإن أظفرك الله بهم فلا تُبْقِ فيهم، وهيأ معه مائتي رجل، وعقد له لواء، فقدم غالب بن عبدالله الليثي من الكَديد من سرية قد ظَفَّره الله عليهم، فقال رسول الله ﷺ للزبير: اجلس، وبعث غالب بن عبد الله في مائتي رجل، وخرج أسامة بن زيد فيها، حتى انتهى إلى مصاب أصحاب بشير، وخرج معه عُلبة بن زيد فيها، فأصابوا منهم نَعَماً وقتلوا منهم قتلى.(١)

ـ سرية كعب بن عمير الغفاري ﷺ إلى قُضَاعَة بذات أطلاح :

وهي من وراء وادي القُرى، وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان من الهجرة. حيث بعث رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفاري في خمسة عشر رجلاً، حتى انتهوا إلى ذات أطلاح من أرض الشام، فوجدوا جمعاً من جمعهم كثيراً، فدعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، ورشقوهم بالنبل، فلما رأى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوهم أشد القتال؛ حتّى قُتلوا وأفلت منهم رجل جريح في القتلى، فلما برد عليه الليل تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فشق ذلك عليه وهمَّ بالبعث إليهم، فبلغه أنهم قد ساروا إلى موضع آخر فتركهم.(٢)

ويتكرر الدرس مرة أخرى، من أن الأمور قد لا تكون كما يحب المرء ويتمنى، فلله حكم وأسرار لا يعلمها إلا هو، وقد يكون من حكم ذلك والله تعالى أعلم؛ ليتخذ منهم شهداء، وليعلم من بعدهم أن الهزيمة لا تصد المسلمين عن متابعة أعمالهم ونشاطهم ودعوتهم ونشر الخير، فهاهي السرايا يعقب بعضها بعضاً، لنشر كلمة التوحيد، وإعلاء كلمة الله تعالى، فمن أسلم كان لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٢٦/٢)

(٢) المرجع السابق (١٢٨/٢)

ـ سرية شجاع بن وهب رضي الله عنه إلى السِّيِّ :

في شهر ربيع الأول سنة ثمان من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب في أربعة وعشرين رجلاً، إلى جمع من هوازن بالسي، من ناحية رُكبة؛ من وراء المعدِن، وهي من المدينة على خمس ليال، وأمره أن يغير عليهم، وكان يسير الليل ويكمن النهار، حتى صبحهم وهم غارّون، فأصابوا نعماً كثيراً وشاء، واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة، واقتسموا الغنيمة، وكان غياب السرية خمس عشرة ليلة.(١)

(١) المرجع السابق (١٢٧/٢)

الفصل الحادي عشر

من سرية مؤتة حتى فتح مكة

ـ سرية مؤتة :

في جماد الأولى سنة ثمان من الهجرة بعث رسول الله ﷺ بعثه إلى مؤتة.[(١)] وقد رتب الإمارة كما جاء في الحديث، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال (أمَّرَ رسولُ الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ : إن قُتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة...)[(٢)]

وفي هذا الترتيب جواز تعليق الإمارة بشرط، وتولية عدة أمراء بالترتيب.[(٣)] حيث إمارة الثاني مشروطة بمقتل الأول، وإمارة الثالث مشروطة بمقتل الثاني. وفي هذا ممارسة عملية بيانية لمنهجية تولية القيادة عندما تكون هناك أخطار وفي منأى عن الوالي؛ فيصعب وصول القرار إليها مباشرة من قبل القائد الأعلى، وفي هذا سعة الدائرة المنهجية الإسلامية في دقائق الأعمال القيادية، والتحسب لما قد يطرأ.

وفيه أهمية وضع الخطط لما يتوقع له، ومن ذلك قتل القائد أو إصابته؛ كونه أمراً مُتَوَقَّعاً في الحروب.

ويُذْكَرُ أن سبب هذه الغزوة المباركة؛ أنه بَعَثَ عليه الصلاة والسلام الحارث بن عُمير الأزدي رضي الله عنه إلى ملك بُصرى بكتاب، فلما نزل مؤتة عرض له شُرَحبيل بن عمرو الغساني فقتله، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسولٌ غيره، فاشتد ذلك عليه وندب.[(٤)] وشرحبيل من أمراء قيصر على الشام.[(٥)]

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١٥/٤)

(٢) البخاري (١٤٦/٣) برقم (٤٢٦١)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٥١٣/٧)

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٢٨/٢)

(٥) ابن حجر، فتح الباري (٥١١/٧)

فتجهز الناسُ ثم تهيئوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف. فلما حضر خروجُهم ودَّع الناسُ أمراءَ رسولِ الله ﷺ وسلموا عليهم. فلما وُدِّع عبد الله بن رواحة مع من وُدِّع بكى، فقالوا: ما يُبكيك يا ابن رواحة ؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عزَّ وجلَّ يذكر فيها النار ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾[١] فلست أدري كيف لي بالصَّدَر بعد الورود...[٢]

وفي هذا من الفوائد؛ أن التوديع كان سمة من سمات المسلمين، وفي الأخذ بها تقوية للروابط، وتحقيق للتآلف، وفيه كذلك سؤال الباكي عن ما يبكيه، وأن لا يترك على أنها خصوصية تخصه، أو أن في سؤاله حرجاً عليه، فلقد كشف سؤال الصحابة لابن رواحة أمراً في غاية الأهمية، وهو بكاء من دلالة آية في كتاب الله تعالى، وهذا يبين الخوف الذي ينتاب الصحابي الجليل ابن رواحة رضي الله عنه وهو في حال طاعة لله تعالى، ومُتلبس بأمر الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام، فيعطي رضي الله عنه درساً في الخوف من مقام الله تعالى، وليس محبة للدنيا وكراهية فراقها.

فقال المسلمون: صحبكم الله، ودفع عنكم، وَرَدَّكُم إلينا صالحين.[٣] فكان رَدُّ المسلمين عليهم بالدعاء لهم؛ بما يُحبون من معية الله تعالى ودفع الشر عنهم، والعودة صالحين. وهذا الدعاء حاجة المسلم إليه قائمة، وخاصة في السفر.

فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فَرْغٍ تقذفُ الزَّبَدَا
أو طعنة بيدي حرَّانٌ مُجْهِزَةً بحربة تُنْفِذ الأحشاء والكبدا

---

[١] سورة مريم: آية رقم (٧١)

[٢] ابن هشام، السيرة النبوية (١٥/٤)

[٣] المرجع السابق (١٥/٤)

حتى يُقال إذا مرُّوا على جَدَثي أرشده الله من غازٍ وقد رشدا

فأتى إلى رسولِ الله ﷺ عبد الله بن رواحة فودعه، ثم قال:

فثبَّتَ اللهُ ما آتاك من حَسَنٍ تثبيتَ موسى ونصراً كالذي نُصروا

إني تفرستُ فيك الخيرَ نافلة الله يعلم أني ثابت البصرَ

أنت الرسولُ فمن يُحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدرُ[١]

وفي هذا ما يدل على استيعاب الإسلام للشعر والكلام الجميل؛ الذي يعبر به المسلم عن أحاسيسه ومشاعره، كما عبر بها الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة ﷺ وفيه ما يدل على إنشاد الشعر أمام ولي الأمر، والتعبير به عن المشاعر، وكذلك المدح الصواب، وكذلك فيه إعلان رغبات النفس فيما عند الله ما لم يخالطها رياء ولا سمعة، ففي ذلك تشجيع للآخرين، وبيان لهم وترغيب.

ذكر ابن هشام: ... ثم سار المسلمون حتى نزلوا مَعَان من أرض الشام، فبلغ الناس أن هِرقل قد نزل مآب، من أرض البلقاء؛ في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لَخْم وجُذَام ويَلَقَين وبَهْرَاء وبَلي مائة ألف، عليهم رجل من بلي، يُقال له مالك بن رَافِلة. فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له. فشجع ابن رواحة الناس، وقال: يا قوم ! والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة. فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة. فمضى

---

[١] المرجع السابق (٤/١٥-١٦)

الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيهم جموع هرقل، من الروم والعرب، بقرية مشارف من قرى البلقاء...[1]

وفي هذا الموقف العصيب مفارقات عجيبة، فعدد المسلمين ثلاثة آلاف، وعدد العدو أكثر من مائة ألف، ثم يتبين من هذا الموقف الإجرائي من المسلمين، تشاورهم فيما بينهم، والتفكير في ذلك يومين متتاليين، فلم يستعجلوا في أمرهم، ثم كان من حالهم؛ وضع الحلول المقترحة، بعد أن اجتمعت لديهم المعلومات التي يتشاورن من خلال معطياتها.

ثم يفتح الله تعالى على عبد الله بن رواحة ببيان حقيقة هذا الدين وحقيقة هذا القتال، وحقيقة الإيمان الذي يخالج ويعايش نفوسهم بتلك العبارات التي ذكرها لهم: (فالتي تكرهون هي التي خرجتم من أجلها تطلبون) فكنى ﷺ عن الموت والهزيمة بالتي تكرهون، والشهادة هي التي تطلبون، ثم بين لهم ﷺ حقيقة الكثرة في منهج الجهاد الإسلامي، بأن المسلمين لا يقاتلون بعدد ولا عدة، ولكن يقاتلون بهذا الدين. وقد وافقوه بالإجماع على رأيه، وهذا يدل على قوة إيمان الصحابة وشجاعتهم التي دفعتهم إلى مقاتلة جحافل الروم، وهم قلة في العدد والعدة، وكذلك يدل هذا الموقف على أهمية التذكير بحقيقة الأمر؛ فإن المسلمين على الحق والحقيقة يجتمعون، كما اجتمعوا على عدوهم بهذه الحقيقة التي ذَكَّرهم بها ابن رواحة رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وفي هذا الموقف أهمية الاجتماع على الكلمة وعدم الفرقة، وفيه كذلك أن العبرة بالإيمان لا بقوة العدة وكثرة العتاد.

وإذا كان هذا البيان من ابن رواحة في مجال الحرب والجهاد، فإنه كذلك فيما هو أدنى من أمور الحياة، فالتاجر الرابح إنما يربح بتوفيق الله تعالى مع الأخذ بالأسباب، وهذا يلزم أن لا يغتر بالفرص المتاحة من المكاسب، فيقدمها على عبادة الله وطاعته؛ جرياً وراء المكاسب.

---

(١) المرجع السابق (١٧٠١٦/٤)

وكذا الطالب في استذكاره للعلم، إنما يزداد علماً بتوفيق الله تبارك وتعالى، فيلزمه أن لا يَغْتَرَّ بِسُبُل التحصيل عن طاعة الله. ويقاس على ذلك نجاح الإداري في إدارته، والرجل في أسرته، وكل فرد أو جماعة في حقول الدنيا المتنوعة المتعددة.

ذكر ابن هشام:.. ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة، وعبؤوا أنفسهم فيها. جعلوا على الميمنة قُطْبَة بن قتادة العذري، وعلى الميسرة عباية بن مالك الأنصاري، ويقال عبادة بن مالك. ثم التقى الناس واقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى قُتِل رضي الله عنه ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قُتل، ثم ابن رواحة، فقاتل حتى قُتل...[1]

وأما في المدينة؛ فقد كان رسول الله ﷺ معهم قلباً وعلماً بما يُوحَى إليه من ربه سبحانه وتعالى، فعن أنس رضي الله عنه قال (أن النبي نعى زيداً وجعفر وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرُهُم، فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تَذرِفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم)[2]

وهذه معجزة من المعجزات النبوية التي أجراها الله تعالى لنبيه ﷺ قال ابن حجر: وذكر موسى بن عقبة في المغازي، أن يعلى بن أمية قَدِم بخبر أهل مؤتة، فقال له رسول الله ﷺ (إن شئت فأخبرني وإن شئت أخبرك. قال فأخبرَني خبرَهم. فقال: والذي بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفاً لم تذكره) وفي الحديث جواز الإعلام بموت الميت؛ ولا يكون ذلك من النعي المنهي عنه.[3]

ويتبين من الحديث العاطفة الجياشة، والرحمة القوية التي يحملها ﷺ بين جوانحه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، حيث كان يُخبر أصحابه ﷺ وعيناه تذرفان، وقالت عائشة رضي

---

(1) المرجع السابق (٤/١٩-٢٢)

(2) البخاري (٣/١٤٦) برقم (٤٢٦٢)

(3) ابن حجر، فتح الباري (٧/٥١٣)

الله تعالى عنها (لما جاء قَتْلُ ابن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم جلس رسول الله ﷺ يُعرف فيه الحُزْنُ)[١] وذلك لما جعل الله فيه من الرحمة، ولا ينافي ذلك الرضا بالقضاء. ويؤخذ منه أن ظهور الحزن على الإنسان إذا أصيب بمصيبة لا يُخرجه عن كونه راضياً إذا كان قلبه مطمئناً، بل قد يُقال إن من كان ينزعج بالمصيبة؛ ويعالج نفسه على الرضا والصبر؛ أرفع رتبة ممن لا يبالي بوقوع المصيبة أصلاً، أشار إلى ذلك الطبري.[٢]

وفي تمام الحديث فضيلة لخالد بن الوليد؛ ولمن ذُكر من الصحابة؛ وهم زيد بن حارثه، وجعفر بن أبي طالب، وابن رواحة، لأنه ﷺ لا يعلم ذلك إلا وحياً من الله تعالى لرسول ﷺ وفيه كذلك منقبة لخالد بهذا الاسم والوصف العظيم (سيف من سيوف الله)

وفي الحديث ما يدل على هزيمة المشركين وانتصار المسلمين، من قوله ﷺ (حتى فتح الله عليهم)

وكان من أمر جعفر بن أبي طالب ﷺ أمراً عجباً، فقد قاتل حتى إذا ألحمه القتال، اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها، ثم قاتل القوم حتى قُتِل، قال ابن إسحاق: فكان جعفر أولَ رجل من المسلمين عَقَرَ في الإسلام.[٣]

وفي هذا دلالة واضحة على شجاعة وبطولة جعفر بن أبي طالب ﷺ حيث عقر فرسه، فليس أمامه إلا النصر والظفر بعدوه أو الشهادة في سبيل الله تعالى. وربما أنه ﷺ لم ير أمامه إلا الشهادة، فعقرها حتى لا يظفر بها العدو. وقال ابن كثير: وقد استدل منه جواز قتل الحيوان خشية أن ينتفع به العدو، كما يقول أبو حنيفة في الأغنام إذا لم تتبع في السير، ويخشى من لحوق العدو وانتفاعهم بها، أنها تُذْبَح وتُحْرَق، لِيُحَال بينهم وبين ذلك، والله أعلم.

---

(١) البخاري (١٤٦/٣) برقم (٤٢٦٣)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٥١٤/٧)

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٢٠/٤)

قال السهيلي: ولم ينكر أحد على جعفر، فدل على جوازه إلا إذا أمن أخذ العدو له، ولا يدخل ذلك في النهي عن قتل الحيوان عبثا.[1]

وكان ﷺ يقاتل ويقول:

يا حبــذا الجنــة واقترابهــا طيبـــة وبارداً شـــرابها

والــروم رومٌ قــد دنا عــذابها كـــافرةٌ بعيـــدة أنســـابها

علـــيَّ إذ لاقيتُهـــا ضِـــرابُها[2]

وفيه إنشاد الشعر أثناء القتال، وبيان وإيضاح لما كان يشعر به ﷺ من ريح الجنة وطيبها؛ إما حقيقة، وإما إيماناً بذلك، وكلاهما غير ممتنع في حق رجل قطعت يداه في سبيل الله تعالى، كما في الرواية التالية:

وذكر ابن هشام: أن جعفر بن أبي طالب ﷺ أخذ اللواء بيمينه فقُطعت، فأخذه بشماله فقُطعت، فاحتضنه بعضده حتى قُتل ﷺ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة...[3]

وبهذه الصورة الرائعة الشجاعة الممتلئة إيماناً وحباً لله ولرسوله ﷺ ولدينه، قدم الصحابي الجليل درساً من دروس التضحية والفداء، والقيادة الباسلة الشجاعة؛ التي لا تهاب الموت والأعداء، فقدم ﷺ درساً في الصبر على ملاقاة العدو، وتحمل أشد آلام القتال. فعوضه الله تعالى عن ذلك خير الجزاء، فعن أبي هريرة ﷺ قال (قال رسول الله ﷺ : مَرَّ بي جعفر الليلة في ملأ من الملائكة، وهو مخضب الجناحين بالدم، أبيض الفؤاد)[4] ولذلك فإن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (كان إذا سلم على ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٤/٢٤٤)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٢٠)

(٣) المرجع السابق (٤/٢٠)

(٤) الحاكم، المستدرك (٣/٢١٢)

ذي الجناحين)[1] وفي هذه اللفتة التربوية الجميلة؛ من ابن عمر؛ ما تبين أهمية التشجيع؛ من خلال التذكير بمواقف البطولات للآباء، وبالنعم الخاصة التي تميز بها الإنسان.

وقد بلغ من شجاعة جعفر ﷺ أن الطعنات التي ارتسمت في جسده ﷺ أكثر من تسعين طعنة. فعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال: (...: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية)[2]

فلما قُتل جعفر ﷺ أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ثم تقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد، ثم قال :

أقسمتُ يا نفسُ لَتَنْزِلِنَّهُ ... لَتَنْزِلِنَّ أو لَتُكْرَهِنَّهْ

إن أَجْلَبَ الناسُ وشدّوا الرَّنَّة ... مالي أراك تَكرهين الجنةْ

قد طال ما قد كنت مطمئنة ... هل أنت إلا نُطفة في شنة

وفي هذه الأبيات ما يدل على أن النفس تكره الموت، وتخاف القتل، ولكن يرخص ذاك للجنة، وفيه مجاهدة النفس على نقيض هواها، والقسم على الذات بفعل الخير وسلوكه، وفيه تصبير النفس وتشجيعها، ومعاتبتها على ما تهابه من سُبُل الجنة. وفيه تذكير النفس بحقيقة خلقتها؛ لتندفع للخير اندفاع المحب للجنة. فقدم ابن رواحة ﷺ أُسُساً تربوية ونفسية عميقة؛ لتفعيل كوامن النفس نحو الخير؛ بمضامين غاية في الدقة والانسجام، وممتلئة بمصارحة النفس، مع استبعاد تبريرات الخذلان التي تحول بين المرء وبين إدراك الحقيقة التي تفضي إلى مراتب العلو.

وقال أيضاً :

---

(١) البخاري (٢٤/٣) برقم (٣٧٠٩)

(٢) البخاري (١٤٦/٣) برقم (٤٢٦١)

يا نفس إلا تُقْتَلي تموتي هذا حِمَام الموت قد صَليت
وما تمنيت فقد أُعْطيت إن تفعلي فِعْلهما هُديت

يريد صاحبيه: زيد وجعفر، ثم نزل. فلما نزل أتاه عَمٌّ له بِعَرْق من لَحَمٍ، فقال شُدَّ بهذا صُلبَك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده، ثم انْتَهَس منه نهسة، ثم سمع الحَطْمَة في ناحية الناس، فقال: وأنت في الدنيا ؟ ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قُتل.[1]

وفي هذا المشهد من الفوائد: التراحم ما بين القريب وقريبه، والشفقة عليه من خلال ما يلمسه ويشاهده عليه من الفاقة والحاجة، وفيه كذلك تزويد المجاهد بما يُقَوّم صلبه، حتى يتقوى به على العدو. وفيه شجاعة ابن رواحة وإقدامه، وإيثار الجنة على الدنيا، فلما سمع الحَطْمَة في ناحية الناس، أي أخذوا يحطم بعضهم بعضاً، عاتب نفسه على تلك النهسات من ذلك اللحم. وفيه أيضاً معاتبة النفس عند المجاهدة لتتحفز إلى المزيد من فعل الخير، من خلال إشعارها بالتواني والتراخي عن الخير. فلقد كرر ابن رواحة ﷺ أسلوب لوم الذات؛ بما يدفع النفس المؤمنة للخير وسلوكه، فلله درك يا ابن رواحة على هذا الأسلوب التربوي العملاق، الذي يتدفق أثره وتأثيره الإيماني.

وقد قال ﷺ عن شهداء مؤتة (...وما يَسرُّني ـ أو قال : ما يَسُرُّهُم ـ أنهم عندنا...)[2]

(...ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرة، ففتح الله عليه...)[3] وفي هذا من الفوائد، ما نقله ابن حجر عن ابن المنير، قوله: يؤخذ من حديث الباب؛ أن من تعين لولاية

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٢١)

(٢) البخاري (٢/٣٧٧) برقم (٣٠٦٣)

(٣) البخاري (٢/٣٧٧) برقم (٣٠٦٣)

وتعذرت مراجعة الإمام، أن الولاية تثبت لذلك المعين شرعاً، وتجب طاعته حكماً. ثم قال ابن حجر: كذا قال، ولا يخفى أن محله ما إذا اتفق الحاضرون عليه.(١)

وذكر ابن هشام طريق وصول الراية إلى خالد بن الوليد، حيث قال: ثم أخذ الراية ثابت بن أقْرم أخو بني العجلان، فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. فلما أخذ الراية دافع القوم، وحاشى بهم، ثم انحاز وانحِيز عنه، حتى انصرف بالناس.(٢)

وفي مزيد عن كيفية صورة نهاية الغزوة، يقول ابن حجر رحمة الله تعالى عليه: وقد وقع في المغازي لموسى بن عقبة ـ وهي أصح المغازي كما تقدم ـ ما نصه: ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فَقُتل، ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد، فهزم الله العدو وأظهر المسلمين، قال العماد ابن كثير: يمكن الجمع أن خالداً لما حاز المسلمين وبات، ثم أصبح وقد غير هيئة العسكر كما تقدم (أي جعل مقدمته ساقة، وميمنته ميسرة) وتوهم العدو أنهم قد جاء لهم مدد، حمل عليهم خالد حينئذ فولوا، فلم يتبعهم، ورأى الرجوع بالمسلمين هي الغنيمة الكبرى.(٣)

وفي اختيار خالد بن الوليد ﷺ من قبل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- وطريقة ذلك؛ ما يدل على أهمية وظيفة الإمارة والقيادة؛ وأن لا تترك شاغرة.

ومن فوائد هذا المشهد أن تُعْطَى القيادة والإمارة للأكفأ، وأن الزهد فيها أمام الجدير بها من كمال النفس، ودلالة الخُلُق الكريم؛ ومن فعل من يُقْتَدَى بهم.

(١) ابن حجر، فتح الباري (١٨٠/٦)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٢٢.٢١/٤)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٥١٤.٥١٣/٧)

وقد قاتل خالد بن الوليد ﷺ قتالاً باسلاً في هذه المعركة، يروي ذلك قيس ﷺ قال (سمعت خالد بن الوليد يقول: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية)[١]

وفي هذا الحديث دلالة على قوة خالد بن الوليد الإيمانية والجسمية، وشجاعته القلبية، بما يجعله نموذجاً للقائد المسلم.

وبالرغم من ضراوة هذه المعركة إلا أن الذين قُتِلُوا من المسلمين اثنا عشر رجلاً. هم شهداء غزوة مؤتة، ذكر أسماءهم ابن هشام.[٢] وأما المقتولين من الأعداء، فيظهر أنهم كثير جداً؛ يدل عليه قول خالد بن الوليد ﷺ (لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف) فما انقطعت إلا من الضرب والقتل، فكيف ببقية المسلمين، وجعفر الذي عقر فرسه، وقاتل حتى قُتِل، وابن رواحة الذي ترك نهسه للحمة في يده؛ وقاتل حتى قُتِل، وقبلهما زيد بن حارثة الذي قاتل حتى سال دمه في رماح القوم. فرضي الله تعالى عنهم أجمعين، فقد ضحوا بدمائهم في سبيل هذا الدين القويم، وأعطوا المثال الصادق للتربية النبوية المباركة، التي أخرجت هذه الكوكبة من المجاهدين الأفذاذ، أصحاب الهمم العالية؛ والإيمان الصادق؛ والفهم الثاقب؛ والعلم الذي أناروا به الطريق لمن بعدهم. فرضي الله تعالى عنهم أجمعين.

---

(١) البخاري (٣/١٤٦) برقم (٤٢٦٥)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٣٠)

السرايا ما بين مؤتة وفتح مكة:

ـ سرية ذات السلاسل :

قيل في تسمية هذه السرية: أنها سميت بذات السلاسل لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفرّوا.[١] وقيل: وهو ماء لبني جذام بناحية الشام...وكانت هذه الغزوة في جمادى الأخرى، سنة ثمان من الهجرة، وكانت مؤتة قبله؛ في جمادى لأولى من سنة ثمان أيضاً، قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: كانت ذات السلاسل بعد مؤتة فيما ذكره أهل المغازي إلا ابن اسحاق فقال قبلها.[٢]

فقد بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من قضاعة قد تجمعوا، يريدون أن يدنوا إلى أطراف المدينة، فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ﷺ فعقد له لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرساً.[٣]

ويروي عمرو بن العاص خبر تأمير الرسول ﷺ له على هذه السرية، فيقول: (بعث إليَّ رسول الله ﷺ فقال: خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني. فأتيته وهو يتوضأ، فَصَعَّدَ فيَّ النظر ثم طأطأه، فقال: إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة، قال: قلت: يا رسول الله ! ما أسلمتُ من أجل المال، ولكني أسلمتُ رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ فقال: يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح)[٤]

ويتبين من هذا الحديث معرفة الرسول ﷺ لقدرات عمرو بن العاص القيادية وشجاعته، وما سيكون منه من تفاعل لأمر رسول الله ﷺ إذ لم يخبره إلا بعد أن تجهز عمرو

---

[١] ابن حجر، فتح الباري (٧٤/٨)

[٢] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥٣/١٥)

[٣] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٣١/٢)

[٤] أحمد، المسند (١٩٧/٤) والحاكم (٢٣٦/٢)

بن العاص بسلاح الجهاد. ويستفاد من ذلك أن لولي الأمر أن يصدر أمره لمن يتوسم فيه خصائص وظيفية معينة دون أن يستشيره. وأن على من كُلِّف بمهمة أو عمل لمصلحة المسلمين أن يقبلها. وفي الحديث معجزة نبوية؛ إذ أخبر الرسول ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه بما سيكون من أمره وأمر الغزوة، فقال ﷺ (فيسلمك الله ويغنمك) وفيه المحبة الصالحة من الرسول ﷺ للمال في يد عمرو بن العاص رضي الله عنه وأن المال الصالح في يد المرء الصالح نعمة عظيمة، وكذلك فيه التمني للمرء الصالح بأن يرزقه الله تعالى المال الطيب المبارك.

وفي الحديث تزكية من النبي ﷺ لعمرو بن العاص رضي الله عنه بأنه رجل صالح، حيث تمنى له النبي ﷺ المال، وأردف ذلك بقوله (يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح) وفي الحديث أيضاً حسن الجواب من ابن العاص رضي الله عنه والذي يدل على صلاحه، حيث قال رضي الله عنه (يا رسول الله ! ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ)

وفيه بيان حقيقة نعمة كثرة المال عند المسلم الصالح، وأنه مطلوب لمن كان صالحاً، لما سيكون من صرفه في أوجه الخير، والاستعانة به على الخير. وأن المال لا يمدح كثرته عند الفاجر، ويمدح في يد الصالحين.

فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مَكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين، وعقد له لواء، وبعث معه سراة المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر، وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا.[١]

وفي هذا المشهد حَذَرُ عمرو ابن العاص من لقاء الجمع الكثير للعدو بما معه من المسلمين، مما يبين أن الحذر والاستعداد مما يستعان به على النصر.

---

[١] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٣١/٢)

ولما أن في الجيش أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما تحت قيادة أبي عبيدة؛ ثم تحت قيادة عمرو بن العاص، دل ذلك كما قال ابن حجر على جواز تأمير المفضول على الفاضل إذا امتاز المفضول بصفة تتعلق بتلك الولاية. ومنقبة لعمرو بن العاص لتأميره على جيش فيهم أبو بكر وعمر، وإن كان ذلك لا يقتضي أفضليته عليهم، لكن يقتضي أن له فضلاً في الجملة.[1] وكذلك فيه فضيلة لأبي عبيدة بن الجراح ﷺ

وهذا يبين أن على الفاضل القبول بأن يكون تحت إمرة المفضول، وليس في ذلك غضاضة عليه، ففضله محفوظ. وفيه كذلك المنهجية الإدارية الإسلامية الراقية؛ التي تعنى بالخصائص المختلفة للناس، واستثمارها في أخوة بينهم راقية كذلك. وفيه تدريب وتوطين النفس على الرئاسة وعلى التبعية للمرؤوس. وفيه أهمية مراعاة الفوارق الفردية والخصائص الإنسانية في الجوانب الإدارية والقيادية.

وفي المشهد كذلك النصيحة والوصاية من ولي الأمر لأتباعه بما يناسب واقع الأمر وحاله. وفيه كذلك عدم المجاملة في الجوانب القيادية وفي مصلحة المسلمين، لأن رسول الله ﷺ لم يجامل في أمر القيادة الصحابيين الجليلين أبا بكر وعمر على ما لهما عنده من مكانة رفيعة، فرضي الله تعالى عن الجميع.

وهذا الأمر من التأمير أحدث في نفس عمرو شيئاً ﷺ قال عنه: (بعثني رسول الله ﷺ على جيش ذات السلاسل، وفي القوم أبو بكر وعمر، فحدثت نفسي أنه لم يبعثني على أبي بكر وعمر إلا لمنزلة لي عنده، قال: فأتيته حتى قعدت بين يديه، فقلت يا رسول الله من أحب الناس إليك ؟ ...)[2] وهذا نص السؤال والجواب من صحيح البخاري، عن أبي عثمان ﷺ (أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٧٥/٨)

[2] ابن كثير، البداية والنهاية (٢٧٤/٤)

فقلت: أي الناس أحبُّ إليك ؟ قال: عائشة. قلت: من الرجال ؟ قال: أبوها. قلت: ثم من؟ قال: عمر. فعدَّ رجالاً. فسكتُّ مخافة أن يجعلني في آخرهم)[1]

وفي هذا البيان من عمرو بن العاص ﷺ وفي هذه المحادثة مع رسول الله ﷺ ما يدل على صلاح عمرو بن العاص ﷺ إذ أفصح للناس عن ما كان يدور في خلجاته، ولم يخف عن الناس جواب رسول الله ﷺ الذي عدَّ رجالاً سابقين في مكانتهم له، وكذلك يتبين عدم مجاملة رسول الله ﷺ له، مما يفيد المسلم؛ أن عليه التزام الصدق وعدم المجاملة في أي دائرة من دوائر الحياة الاجتماعية، وأن لا تَحُول محبته لأحد دون تحقيق مصلحة المسلمين، أو أن تكون المجاملة على حساب أمر من أمور الدولة أو الإدارة أو الجهة التي يعمل فيها الإنسان. كذلك أن من كُلِّف بعمل وأُضيف إليه من هو أفضل منه، أن يبقى الفاضل والمفضول على ما هما عليه.

وبالتالي فإن من المبادئ الإدارية التي يمكن أن تُستفاد أيضاً، أن على المرء أن يقبل حقيقة الأمر، ويدرك أن هناك فرق بين المحبة وإعطاء الوظيفة أو المهمة، وأن إعطاءها لا ينبجس في الإسلام من المحبة، بل تنطلق من اعتبارات المصلحة ومقدار تحققها في المكلف.

وفيه كذلك الاستفهام عن حقيقة الأمر إذا اختلج في النفس شيء؛ مخافة ما يترتب على ذلك الاختلاج. وفي جوابه ﷺ منقبة ومنزلة رفيعة لأم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، وفيه كذلك أنه لا حياء في الدين، ولا عيب في ذكر مقدار حب الرجل لزوجته، وكذلك ذكر اسمها على الناس. وفيه كذلك منقبة لأبي بكر الصديق ﷺ إذ هو أحب الرجال لرسول الله ﷺ وأنعم وأعظم بها من منقبة، وفيه كذلك منقبة شريفة وعظيمة لعمر الفاروق ﷺ إذ أنه الثاني محبة عند رسول الله ﷺ

[1] البخاري (٣/١٦٤) برقم (٤٣٥٨)

وبعد الالتقاء أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس. فقال عمرو: إنما قدمت عليَّ مدداً، وأنا الأمير، فأطاع له بذلك أبو عبيدة، وكان عمرو يصلي بالناس.[١]

وفي هذا النص ما يدل على أن للقائد أن لا يتنازل عن حقوقه الوظيفية أو عن شيء منها، وله أن يسترجع أو يمنع ما يؤخذ منها، ولا غضاضة في ذلك، وأن على من منعه القائد من بعض أو كل صلاحياته أن يقبل بذلك ويطيع ولا يتأثر، حيث ضرب أبو عبيدة بن الجراح ﷺ المثل الإسلامي في هذا الباب، فأطاع لعمرو بن العاص في ذلك، فرضي الله تعالى عن الجميع.

وكان عمرو هو الذي يتولى إمامة المسلمين في تلك الغزوة، وفي البخاري (يذكر أن عمرو بن العاص أجنب في ليلة باردة فتيمم وتلا (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) فذكر للنبي ﷺ فلم يُعنِّف)[٢]

وفي عدم تعنيف الرسول ﷺ لعمرو دلالة على أن الجنب إذا خاف على نفسه المرض أو الموت؛ أو خاف العطش تيمم، كما هو تبويب الإمام البخاري[٣] وقال ابن حجر: وجواز صلاة المتيمم بالمتوضئين.[٤] وفيه كذلك الاجتهاد بالدليل لا بالرأي.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٣١/٢) وابن حجر، فتح الباري (٧٤/٨)

(٢) البخاري (١٣٠/١) باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش. وعند الحاكم مفصلاً (١٧٧/١)

(٣) من تبويب البخاري (١٣٠/١)

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٤٥٤/١)

وسـار حـتى وطـئ بـلاد بَلـي وَدَوّخهَـا حـتى أتـى إلى أقصـى بلادهـم، وبـلاد عُـذرة وبلقين،[١] ولقي في آخر ذلك جمعاً فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا.[٢]

عـن بريـدة عـن أبيـه رضـي الله تعـالى عنهمـا قـال (... فلمـا انتهـوا إلى مكـان الحـرب أمرهم عمرو أن لا ينوروا ناراً، فغضب عمر وهَمَّ أن ينال منه، فنهاه أبو بكر ﷺ وأخبره أنه لم يستعمله رسول الله ﷺ عليك إلا لعلمه بالحرب، فَهَدَأ عنه عمر ﷺ)[٣]

فلما انصرفوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فسأله، فقال: كرهتُ أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد. فحمد أمره.[٤]

ويدل هذا على عمق تفكير عمرو بن العاص؛ وتحسبه للعدو، والأخذ بالحذر بما يحقق المصلحة. ويستفاد من ذلك أنه يلزم القائد أن يمعن النظر والفكر بما يحقق سلامة المسلمين من عدوهم، وأن يكون حذراً فطناً.

ويستفاد من ذلك تباين الناس في الآراء والأفهام للقضية الواحدة. وكذلك أهمية النصيحة وعدم التشجيع على الفرقة، وفيه كذلك الإذعان من الصحابة لتوجيه رسول الله ﷺ وتسليمهم للقائد أو الأمير، وإن اختلفوا معه في أمر. وفيه أن للقائد أن لا يُخبر بعلة النهي أو الأمر.

ثم قفل عمرو بن العاص ﷺ وبعث عوف بن مالك الأشجعي بريداً إلى رسول الله ﷺ فأخبره بِقُفُلِهم وسلامتهم، وما كان في غزاتهم.[٣]

---

(١) وأما القبائل المذكورة فالثلاثة البطون من قضاعة، أما بَلِي: فهي قبيلة كبيرة يُنسبون إلى بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، وأما عُذْرة فقبيلة كبيرة يُنسبون إلى عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث بن سويد بن أسلم.. وأما بنو القين: فقبيلة كبيرة يُنسبون إلى القين بن جسر. ابن حجر، فتح الباري (٧٤/٨)

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٣١/٢)

(٣) الحاكم، المستدرك (٤٢/٣-٤٣)

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٧٥/٨)

سرية أبي حَدْرَد إلى الغابة :

أقبل رجل من بني جُشَم بن معاوية، يقال له : رفاعة بن قيس أو قيس بن رفاعة في بطن عظيم من بني جُشَم، حتى نزل بقومه ومن معه من الغابة، يريد أن يجمع قيساً على حرب رسول الله ﷺ وكان ذا اسم في جُشَم وشرف. فدعا رسول الله ﷺ أبا حدرد الأسلمي ورجلين من المسلمين ليخرجوا إليه، فخرجوا؛ وتمكن أبو حدرد من قتل رفاعة بن قيس، وهرب قومُه، واستاقوا إبلاً عظيمة وغنماً كثيرة.[1]

سرية أبي قتادة إلى بَطْن أضم :

عن عبد الله بن أبي حدرد، قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى أضم في نفر من المسلمين، فيهم أبو قتادة، الحارث بن ربعي، ومحلِّم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن اضم مرَّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قَعُود له، ومعه مُتَيِّع له، ووطب من لبن، (أي وعاء من لبن) قال: فلما مر بنا سلَّم علينا بتحية الإسلام، فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلِّم بن جثامة، فقتله لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومُتَيِّعَه، قال: فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر نزل فينا قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾[2][3]

وفي هذه الآية القرآنية الكريمة ما يؤكد عناية الإسلام بالتبين والتأكد، وأن لا يُتَّخَذ التكفير وسيلة لابتغاء عرض الدنيا، وذلك بنفي الإيمان عنه. قال ابن سعدي: فلا يحملنكم

---

[3] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٣١/٢)

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٢٧٨/٤. ٢٧٩) والمسند لأحمد (١٢.١١/٦) وقال محققوا المسند، الشيخ شعيب الأرنؤوط وآخرون: إسناده ضعيف (٣١٣.٣١٠/٣٩) طبعة الموسوعة الحديثية.

[2] سورة النساء: آية رقم (٩٤)

[3] ابن هشام، السيرة النبوية (٢٧٥/٤)

العرض الفاني القليل على ارتكاب ما لا ينبغي، فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل الباقي، فما عند الله خير وأبقى. وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة فيها هوى ـ وهي مضرة ـ أن يذكرها ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها، وقدم مرضاة الله على رضا نفسه، فإن في ذلك ترغيب للنفس في امتثال أمر الله وإن شق ذلك عليها.[١]

وما مَكَث محلم بن جثامة إلا سبعاً حتى مات، فلفظته الأرض، ثم عادوا له، فلفظته الأرض، ثم عادوا فلفظته، فلما غُلب قومه؛ عمدوا إلى صُدَّين ـ أي جبلين ـ فسطَحوه بينهما، ثم رضموا عليه الحجارة حتى وارَوْه، فبلغ رسولَ الله ﷺ شأنه، فقال: (والله إن الأرض لتطابق على من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يَعِظكم في حُرْم ما بينكم بما أراكم منه)[٢]

ويستفاد من ذلك شناعة قتل النفس المؤمنة، وأثر الموعظة الحسية، وأن الله لطيف بعباده إذ يعظهم بما يحفظهم به، وأنه يلزم المؤمن أن يحفظ حدود الله، والتي منها حفظ الدماء المعصومة، ويعلم أن الله على كل شيء قدير.

---

[١] عبد الرحمن بن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٨٩/١)

[٢] ابن هشام، السيرة النبوية (٣٧٧/٤)

الفصل الثاني عشر
من غزوة فتح مكة
إلى غزوة حنين

غزوة فتح مكـة:

كـان مـن شـروط صـلح الحديبيـة: أنـه مـن أحـب أن يـدخل في عقـد رسـول الله ﷺ وعهده فليدخل فيه. ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه. فدخلت بنو بكـر في عقـد قـريش وعهـدهم، ودخلـت خزاعـة في عقـد رسـول الله ﷺ وعهـده. فلمـا كانـت الهدنة عَدَت بنو بكر على خزاعة وهم على الوتير- وهو ماء لهم أسفل مكة - فأصابوا منهم. وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم.

فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق؛ بما استحلوا من خزاعة؛ خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قَدِمَ على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: (نُصِرْت يا عمرو بن سالم، ثم عرض لرسول الله ﷺ عَنان من السماء، فقال: إنَّ هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب)

ثم خـرج بُـدَيل بـن ورقـاء في نفـر مـن خزاعـة حتى قـدموا على رسـول الله ﷺ المدينـة، فأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم.[1]

وفي جـواب رسـول الله ﷺ لعمـرو بـن سـالم الخزاعـي مـا يفيـد نُصْرَة الحليـف على مـن خـان الميثاق، وأن لا يخذلهم، بما يؤكد أن منهج الإسلام يحترم المواثيق والأحلاف، ويعطيها من الحق والنصرة ما تستحق. فكيف لو كان هذا الحلف مع جماعة مسلمة ؟ لكان ذلك أدعى. قال ابن قيم الجوزية رحمة الله عليه: أن أهل العهد إذا حاربوا من هم في ذمة الإمام وجواره وعهده صاروا حرباً له بذلك، ولم يبق بينهم وبينه عهد.[2]

ولم يغز رسول الله ﷺ قريشاً حتى بعث إليهم ضمرة يخيرهم بين إحدى ثلاث: أن يودوا قتيل خزاعة، وبين أن يبرؤوا من حلف بكر، أو ينبذ إليهم على سواء. فأتاهم ضمرة

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣٧.٣١/٤) وابن حجر، فتح الباري (٥٢٠.٥١٩/٧)

[2] ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٤٢٠/٣)

فخيرهم، فقال قرظة بن عمرو: لا نودي ولا نبرأ، ولكننا ننبذ إليه على سواء، فانصرف ضمرة بذلك. فأرسلت قريش أبا سفيان يسأل رسول الله ﷺ في تجديد العهد.[١]

ويفيد هذا أن للإمام أن يخير من نقض العهد والميثاق بما يراه مناسباً، ويحقق مصلحة المسلمين، وقد اختارت قريش القتال.

فخافت قريش، فانطلق أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية ! ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر.[٢]

لقد بينت أم حبيبة زوج النبي ﷺ بهذا السلوك التطبيق الشرعي لمنهج الإسلام، فبينت نجاسة المشرك، وتقديم محبة رسول الله ﷺ على محبة أبيها، وعدم الاكتراث بمنزلة والدها طالما أنه مشرك، وفيه المجاهرة بقول الحق لأبيها. وفيه اختلاف أحكام الناس باختلاف المقاييس المتأثرة بنوع الدين، فأبو سفيان يرى أن هذا التصرف من ابنته شر قد أصابها؛ وهي ترى من خلال منهج الإسلام أن هذا هو المسلك الحقيقي والطبيعي. وفيه كذلك الجمال اللفظي لأسلوب أبي سفيان حيث قال لابنته: ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ فالجمال اللفظي كان في حسن تركيب الكلمات التي تساءل بها.

وبعد لقائه بابنته توجه إلى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً. ثم ذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. ثم خرج

---

[١] ابن حجر، فتح الباري (٦/٨)

[٢] ابن هشام، السيرة النبوية (٣٨/٤)

فدخل على عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه ...فقال له: فاشفع لي إلى رسول الله. فقال: ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة فقال: يا بنت محمد ! هل لك أن تأمري بُنَيّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت: والله ما بلغ بُنيَّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحدٌ على رسول الله ﷺ قال: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت عليَّ فانصحني، فقال: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك. قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟ قال: لا والله؛ ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس إني قد أجرتُ بين الناس، ثم ركب بعيره فانطلق. فأخبر قريشاً بذلك، فقالوا له: فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال: لا. قالوا: ويلك! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت. قال: لا والله، ما وجدت غير ذلك.[1]

وفي رواية: فقال لأبي بكر: جدد لنا الحلف، قال: ليس الأمر إليَّ. ثم أتى عمر فأغلظ له عمر. ثم أتى فاطمة فقالت له: ليس الأمر إليَّ.[2]

وفي هذه الإجابات من أصحاب رسول الله ﷺ ما يدل على صدقهم في الحديث؛ وعدم مجاملتهم لأقاربهم من الكفار. واحترامهم لإرادة رسول الله ﷺ فلم يخاطبوه في هذا الأمر الذي جاء من أجله أبو سفيان. وفي قول قريش لأبي سفيان: ويلك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت. فيه ما يدل على صدق وذكاء وفطنة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣٩.٣٨/٤) وفي الفتح مختصراً.(٧/٨)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٧.٦/٨)

وفيه من الفوائد أن رسول الكفار لا يُقتل، فإن أبا سفيان كان ممن جَرَى عليه حكم انتقاض العهد؛ ولم يقتله رسول الله ﷺ [1]

وأَمَرَ رسول الله ﷺ بالجهاز، وأَمَرَ أهله أن يجهزوه، ثم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجِدِّ والتهيؤ، وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نَبْغَتها في بلادها، فتجهز الناس.[2]

وتفيد هذه الرواية أن لولي الأمر أن يباغت العدو الذي نقض الميثاق والعهد. قال ابن القيم: ولا يحتاج أن يعلمهم على سواء.[3]

وفي أثناء ذلك حدث موقف عجيب من صحابي جليل، قد شهد بدراً، ويروي ذلك الحدث عبد الله بن أبي رافع، فيقول (سمعت علياً رضي الله عنه يقول: بَعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[4] ، فإن بها ظعينة[5] معها كتاب فخذوه منها، قال: فانطلقنا تَعادَى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتُخْرِجَنَّ الكتاب أو لنُلقِينَّ الثياب، قال: فأخرجته من عِقاصها[6] ، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة ـ إلى ناس بمكة من المشركين ـ يُخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ ...)[7]

---

(1) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٤٢٢/٣)

(2) ابن هشام، السيرة النبوية (٣٩/٤-٤٠)

(3) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٤٢٠/٣)

(4) موضع بين مكة والمدينة. النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٥٥/١٦)

(5) الظعينة هنا الجارية، وأصلها الهودج، وسميت بها الجارية لأنها تكون فيه، واسم هذه الظعينة سارة مولاة لعمران بن أبي صيفي القرشي. النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٥٥/١٦)

(6) أي شعرها المضفور، وهو جمع عقيصة النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٥٦/١٦)

(7) البخاري (١٤٧/٣-١٤٨) برقم (٤٢٧٤)

وفي هذا معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ وفيه هتك أستار الجواسيس بقراءة كتبهم؛ سواء كان رجلاً أو امرأة، وفيه هتك ستر المفسدة إذا كان فيه مصلحة، أو كان في الستر مفسدة، وإنما يندب الستر إذا لم يكن فيه مفسدة ولا يفوت به مصلحة، وعلى هذا تحمل الأحاديث الواردة في الندب إلى الستر.(١)

وفي تعامله ﷺ مع القضية درسٌ تربويٌ وإداريٌ وخُلُقيٌ، كما يتضح من نص متابعة الحديث (...فقال رسول الله ﷺ : يا حاطب ما هذا ؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليَّ، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش . يقول: كنت حليفاً . ولم أكن من أنفُسِها، وكان من معكَ من المهاجرين مَن لهم بها قَراباتٌ يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يَحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام،...)(٢)

وفي الحديث المنهجية الخُلُقية والتربوية والإدارية الإسلامية في التعامل مع هذا الموقف. ففيه السؤال عن علة الصنيع، وتقديمه على الحكم، وعدم التسرع في تفسير الحدث، وفيه طيب المعاملة منه ﷺ أن باشر عليه الصلاة والسلام سؤاله بلفظ (يا حاطب)

وفي تعليل حاطب ﷺ لما قام به بيان لما قد يحدث للنفس البشرية؛ وما يعترضها. ويقابل ذلك المنهج الإسلامي؛ الذي يتعامل معها وفق طبيعتها، ولا يُجَرِّدْها مما قد يعترضها ويعتريها، بل ينصفها حتى في أحلك الظروف وأصعب المواقف، كما يتبين من جواب رسول الله ﷺ التالي: (... فقال رسول الله ﷺ : أما إنه قد صدَقَكم. فقال عمرُ: يا رسول الله، دعني أضربُ عُنُقَ هذا المنافق. فقال إنه شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطَّلع على من شهد بدراً، قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. فأنزل الله السورة (الممتحنة:١) (يا أيها الذين

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٥٥/١٦)

(٢) البخاري (١٤٧/٣-١٤٨) برقم (٤٢٧٤)

آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تُلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ـ إلى قوله ـ فقد ضل سواء السبيل)[1] ففي جواب حاطب ﷺ الصدق، كما شهد له رسول الله ﷺ بذلك.

وفي هذه المسألة باب عظيم من أبواب معرفة الله سبحانه وتعالى وحكمته في خلقه وأمره وثوابه وعقابه، وأحكام الموازنة.[2] فبقدرة الله تعالى وعلمه وَمَنِّهِ وكرمه وجوده كان حاطب بن أبي بلتعة ضمن من شهد بدراً، وهو العالم سبحانه وتعالى بما سيصدر عنه من هذا الأمر ومن غيره. فلله الحكمة البالغة. فلقد علمنا ربنا جلَّ جلاله بهذا الموقف أنه فعال لما يريد. وقد علمنا ﷺ الإذعان لأمر الله تعالى، بالرغم مما حصل من حاطب في حق رسول الله ﷺ فأنزل النبي الكريم ﷺ حاطباً في المنزلة التي أرادها الله تعالى لأهل بدر. وهو الصحابي الذي قاتل المشركين يوم بدر، وقرابته بين أظهر المشركين في مكة، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فتأمل قوة إيمان حاطب التي حملته على شهود بدر، وبذله نفسه مع رسول الله ﷺ وإيثاره الله ورسوله على قومه وعشيرته وقرابته، وهم بين ظهراني العدو، وفي بلدهم، ولم يثن ذلك عِنان عزمه، ولا فَلَّ من حَدِّ إيمانه ومواجهته للقتال.[3] وفيه كذلك فضيلة أهل بدر، وكذلك فضيلة حاطب ﷺ كونه من أهل بدر، وشهد الحديبية.

وفيه من الفوائد أن يُنْظَرَ في الحكم العام على الأشخاص من خلال جميع معطياتهم، لا من خلال آخر زلاتهم. وهذا لا يعني الغاء الحكم الشرعي من خلال النظرة العامة. ولكن أن لا تُسقط محاسن الفرد بالزلة الواحدة؛ فَيُذَم ويُرمى بآخر ما صدر عنه من زلة أو هفوة،

---

[1] البخاري (٣/١٤٧-١٤٨) برقم (٤٢٧٤)

[2] ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٣/٤٢٧)

[3] المرجع السابق (٣/٤٢٦)

فيتم التعامل معه من خلال ذلك. وفيه أهمية استيعاب ولي الأمر والأمة وأفراد المجتمع لمن يخطئ من المسلمين، أو يصدر فيه حكم شرعي.

وحتى في حالة إقامة الحد فإنه لا يُسْقَط من المجتمع؛ بل يَلزم قبوله واحتواؤه، فلقد طُبِّق الحد على من كان بدرياً؛ ولم يسقط عنه عطاء الله تعالى، قال الإمام النووي عند قوله ﷺ (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) قال العلماء: معناه الغفران لهم في الآخرة، وإلا فإن تَوَجَّه على أحد منهم حدٌ أو غيره أقيم عليه في الدنيا، ونقل القاضي عياض الإجماع على إقامة الحد، وأقامه عمر على بعضهم، قال وضرب النبي ﷺ مسطحاً الحد وكان بدرياً رضي الله عنه.[1]

ومن فوائد الأحكام ما قاله الإمام النووي رحمه الله تعالى: فيه أن الجاسوس وغيره من أصحاب الكبائر لا يكفرون بذلك. وهذا الجنس كبيرة قطعاً، لأنه يتضمن إيذاء النبي ﷺ وهو كبيرة بلا شك. وفيه أنه لا يُحد العاصي ولا يُعَزَّر إلا بإذن الإمام، وفيه إشارة جلساء الإمام والحاكم بما يرونه، كما أشار عمر بضرب عنق حاطب.[2] وفيه أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تُكَفَّر بالحسنة الكبيرة الماحية، كما وقع الجَسُّ من حاطب مكفراً بشهوده بدراً.[3]

ثم تَتَتَابع أمور غزوة مكة المباركة، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (أن النبي ﷺ خرج في رمضان من المدينة؛ ومعه عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من

---

[1] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٥٦.٥٧)

[2] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٥٥)

[3] ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٣/٤٢٣.٤٢٤)

مقدمه المدينة، فسار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة، يصوم ويصومون، حتى بلغ الكديد . وهو ماء بين عسفان وقُديد . أفطر وأفطروا)[١]

وفي هذا الحديث ما يدل على تكاثر عدد المسلمين، فقد تضاعف ما بين صلح الحديبية إلى مسيرة مكة، فكان في صلح الحديبية ألف وخمسمائة تقريباً، ثم بلغ عشرة آلاف خلال سنتين، حيث كان صلح الحديبية في مستهل ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة النبوية المباركة. وفيه من الفوائد الفطر للصائم في السفر.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (سافر رسول الله ﷺ في رمضان، فصام حتى بلغ عسفان، ثم دعا بإناء من ماء، فشرب نهاراً ليراه الناس، فأفطر حتى قَدِم مكة)[٢] وفي هذا الحديث التوجيه بالفعل والقدوة، حيث دعا بإناء ﷺ من ماء فشرب نهاراً ليراه الناس. وهذا يؤكد أهمية الإعلام والتوجيه بالقدوة، فإن تأثيرها أبلغ. وهو الأسلوب الذي يُركز عليه المنهج الإسلامي.

وفي الجحفة لقي النبي ﷺ العباس مهاجراً بعياله، وكان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته، ورسول الله ﷺ عنه راضٍ[٣] وقد أسلم قبل فتح خيبر.[٤] ولعل بقاءه في مكة كان لمصلحة رآها رسول الله ﷺ فكان عنه راضٍ.

عن هشام عن أبيه قال (لما سار رسول الله ﷺ عام الفتح، فبلغ ذلك قريشاً، خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبُدَيل بن ورقاء، يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مرَّ الظهران[٤] فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال أبو سفيان: ما

(١) البخاري (١٤٨/٣) برقم (٤٢٧٦)

(٢) البخاري (١٤٨/٣) برقم (٤٢٧٩)

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٤٢/٤)

(٤) أحمد، المسند (١٣٨/٣-١٣٩)

(٤) البخاري (١٤٩/٣) برقم (٤٢٨٠)

هذه ؟ لكأنها نيران عرفة. فقال بُدَيل بن ورقاء: نيران بني عمرو. فقال أبو سفيان: عمرو أقل من ذلك. فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم، فأتوا بهم رسول الله ﷺ ...)[1]

وفي هذا بيان أهمية أثر إظهار قوة المسلمين أمام الكفار، لما تُحدثه من أثر فاعل في قلوب الأعداء، وتغرس هيبة ومهابة في نفوسهم للمسلين. وفيه أهمية اتخاذ الحراسة المتحركة. وأن من قُبِض عليه من الأعداء يُبَلَّغ به ولي الأمر، لأنه المعني باتخاذ ما يراه مناسباً؛ ولتكتمل أيضاً الصورة في ذهنه عن ما يدور حول المسلمين، وما يقوم به العدو من أعمال أو تجهيزات.

وقد كان في قدوم هؤلاء النفر خير للمسلمين؛ حيث أسلم أبو سفيان، فعن هشام عن أبيه، قال:(...فأسلم أبو سفيان...)[2] فدخل بديل وحكيم على رسول الله ﷺ فأسلما.[3]

ولما أسلم أبو سفيان، قال العباس ﷺ للنبي ﷺ : يا رسول الله ! إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر؛ فاجعل له شيئاً، قال: نعم. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن؛ ومن دخل المسجد فهو آمن.[4]

وفي هذا الاقتراح من العباس ﷺ وقبوله من النبي ﷺ ما يدل على أهمية مراعاة الجوانب النفسية؛ وخصائص الطبائع البشرية في مجال الخير، واستغلالها بما يربي النفس ويثبتها

---

(١) وهو ما يعرف بالجموم، والتي بينها وبين حدود الحرم المكي قرابة (٣٠) كيلاً

(٢) البخاري (١٤٩/٣) برقم (٤٢٨٠)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٧/٨)

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية (٤٦/٤)

على الطاعة؛ ويشحذها بما تُحب إلى ما يحبه الله ورسوله من أعمال الخير والبر، والتي في مقدمتها إخراج الإنسان من الكفر إلى الإيمان.

وقبل رحيل أبي سفيان إلى قومه وجَّه النبي ﷺ العباس رضي الله عنه بتوجيه حيال أبي سفيان : (...فلما سار قال للعباس: أحبس أبا سفيان عند خطم الجبل؛ حتى ينظر إلى المسلمين. فحبسه العباس، فجعَلَت القبائل تمر مع النبي ﷺ : تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان، فمرت كتيبة، فقال: يا عباس من هذه ؟ فقال: هذه غِفار، قال: مالي ولغفار. ثم مرت جهينة، قال: مثل ذلك. ثم مرت سعد بن هذيل، فقال: مثل ذلك. ومرت سليم، فقال: مثل ذلك. حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، قال: من هذه ؟ قال: هؤلاء الأنصار، عليهم سعد بن عبادة؛ معه الراية، فقال سعد بن عبادة: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحل الكعبة. فقال أبو سفيان: يا عباس ! حبذا يوم الذمار.[١] ثم جاءت كتيبة . وهي أقل الكتائب . فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وراية النبي ﷺ مع الزبير بن العوام...)[٢]

وفي حبس أبي سفيان عند أنف الجبل، لكونه مضيقاً للوادي، وليرى كتائب المسلمين وقوتهم فيخبر بها قريش، وفي هذا أهمية النشر الإعلامي لقوة المسلمين، وإظهار ترسانتهم الحربية وكتائبهم للعدو، وإجراء الاستعراضات التي تُرهب عدو الله، واتخاذ الوسائل والسُبُل التي تحقق النشر الإعلامي، وتُوصِل الرسالة العسكرية للعدو.

وتبين رواية هشام عن أبيه مزيداً من تفاصيل وجود أبي سفيان في معسكر المسلمين: (...فلما مرَّ رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة ؟ قال: ما قال ؟

---

[١] أي يوم الهلاك. ابن حجر، فتح الباري (٨/٨)

[٢] البخاري (١٤٩/٣) برقم (٤٢٨٠)

قال: قال: كذا وكذا. فقال: كذب سعد، ولكن هذا يومٌ يُعَظِّم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة...)(١)

ويتبين من جواب رسول الله ﷺ لأبي سفيان أهمية تصويب الخطأ لفظاً أو فكراً، وقوله ﷺ عن كلام سعد (كذب) أي أخطأ. وفيه من الفوائد: إطلاق الكذب على الإخبار بغير ما سيقع؛ ولو كان قائله قد بناه على غلبة ظنه؛ وقوة القرينة، وقوله ﷺ (يوم يعظم فيه الكعبة) يشير إلى ما وقع من إظهار الإسلام وأذان بلال على ظهرها، وغير ذلك مما أُزيل عنها مما كان فيها من الأصنام؛ ومحو ما فيها من الصور وغير ذلك. وقوله ﷺ (ويوم تُكْسَى فيه الكعبة) قيل أن قريشاً كانوا يكسون الكعبة في رمضان؛ فصادف ذلك اليوم، فأشار النبي ﷺ أنه هو الذي يكسوها ذلك العام، ووقع ذلك.(٢)

وفي جوابه ﷺ تواضعه ومحبته لأن تكون الأمور كما يجب أن تكون دون مبالغة. ففي قوتهم ما يغنيهم عن التهويل والتضخيم.

وقد أخذ ﷺ الراية من سعد بن عبادة، ودفعها لابنه قيس، وقيل أنه دفع الراية إلى الزبير بن العوام. قال ابن حجر في الجمع بين الروايات في موضوع الراية التي أخذها رسول الله ﷺ من سعد بن عبادة: والذي يظهر في الجمع أن علياً أُرسل بنزعها؛ وأن يدخل بها، ثم خشي تغير خاطر سعد، فأمر بدفعها لابنه قيس، ثم أن سعد خشى أن يقع من ابنه شيء ينكره النبي ﷺ فسأل النبيَ ﷺ أن يأخذها منه، فحينئذ أخذها الزبير.(٣)

وفي سبب هذا التعليل لابن حجر ـ رحمة الله تعالى عليه ـ لما ترسخ عنده من مراعاة رسول الله ﷺ لأحوال أصحابه، وعنايته بهم، وفي نفس الوقت لا يجامل منهم أحداً فيما

(١) البخاري (١٤٩/٣) برقم (٤٢٨٠)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٩/٨-١٠)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٩/٨)

يجهلون، وهذا الأثر التربوي قد تركز في طباعهم؛ وانعكس على سلوكهم، حتى أن سعداً ﵁ يطلب من رسول الله ﷺ أن يأخذ الراية من ابنه خشية أن يقع منه ما ينكره رسولُ الله ﷺ

وفي هذا الموقف تظهر عظمة خُلُقه ﷺ وحرصه على سعد وعلى مجريات الفتح، ثم مراعاته لنفسية الصحابي سعد بن عبادة ﵁ فيعطي الراية لابنه قيس ﵁ فيظهر العجب من سعد في محبته للرسول ﷺ من أن يظهر من ابنه ما لا يرضاه رسولُ الله ﷺ فيطلب أن تؤخذ الراية منه، فهي محبة متبادلة. وإنه لمجتمع قد حوته وتخللته وتنسمته الروح الاجتماعية الإسلامية؛ بكل أنفاسها العطرة، ليقدموا القدوة لمن بعدهم في دائرة الإدارة والقيادة، وغيرها من مساحات التعامل العريضة.

ثم إن في هذا النمط من التعامل ما يربي في الأعوان الرضا بتبادل الأدوار القيادية وغيرها من المهام؛ حسب ما تقتضيه المصلحة، مما يزكو بالنفس ويرتقي بها إلى السمو في السلوك الإداري، وينتزع منها بواعث الكبر وحب الذات؛ والاستئثار على الإخوان، بل ويغرس فيها عمقاً فكرياً تظهر مظاهره في الاستقرار النفسي أثناء تبادل الأدوار، فيسلك بها مسلكاً نفسياً عميق الأثر، ومن ثَمَّ يتقوى بها المسلك الإداري.

ويفيد هذا أهمية تغيير القرار بما تقتضيه المصلحة، وبما يتبين مما يطرأ من التصرفات. وفيه أن يقبل المرء بما يؤخذ منه أو يوكل إليه من مهام. وفيه مراعاة المصلحة، مع مراعاة تطيب النفس أثناء اتخاذ القرار. وفيه أهمية تربية النفس على مثل هذه المواطن؛ والتي لا يمكن أن يحصل عليها الإنسان إلا بصحة الهدف الذي يغرسه الإخلاص لله تعالى لا شريك له.

وفي تقسيم الجيش يذكر أبو هريرة ﵁ وصفاً لذلك، حيث يقول (أقبل رسول الله ﷺ حتى قَدِمَ مكة. فبعث الزبير على إحدى المجْنَّبَتَيْن. وبعث خالد على المجنبة الأخرى. وبعث أبا عبيدة على الحُسَّر، فأخذوا بطن الوادي، ورسول الله ﷺ في كتيبة...)[١]

---

[١] مسلم (١٤٠٥/٣-١٤٠٦) برقم (١٧٨٠)

ثم صدرت التوجيهات النبوية الكريمة لقادته: (... قال: وأمر رسول الله ﷺ أن تُركزَ رايته بالحجونَ...)[1] وقد (دخل النبي ﷺ عام الفتح من أعلى مكة؛ من كداء)[2] وأمرهم أن يكفوا أيديهم؛ ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم.[3] وفي الكتيبة الأنصارية التي في مقدمة رسول الله ﷺ يصدر توجيهاً نبوياً كريماً لأبي هريرة، كما قاله أبو هريرة رضي الله عنه (...قال: فنظر فرآني. فقال: أبو هريرة ؟ قلت: لبيك يا رسول الله ! فقال: لا يأتيني إلا أنصاري... فقال: اهتف بالأنصار. قال: فأطافوا به...)[4]

وفي طواف الأنصار به ﷺ دليل عمق محبتهم لرسول الله ﷺ وسرعة تجاوبهم لأمره وتوجيهه عليه الصلاة والسلام. وفي التوجيه والحصر النبوي بأن يهتف له بالأنصار ما يدل على عمق الثقة بهم ورفعاً لمراتبهم وإظهاراً لجلالتهم وخصوصيتهم.[5] ولعل من أسباب ودواعي ذلك أنهم الأنصار الذين نصروه بعد أن تحامل عليه كفار قريش؛ وردوا دعوته وكذبوه، فأراد ﷺ أن يظهرهم أمامهم، وليبين للأنصار أنه معهم وإن فُتِحَتْ مكة. وفي هذا أهمية إبراز وإظهار من كان لهم قدم سبق في الخير. وأن تثبت العلاقة الصادقة ولا تتبدل بتبدل الأحوال؛ طالما أن أسسها قائمة. وهذا ما أظهرته رواية أبي هريرة التي سيأتي الوصول إلى تمامها بإذن الله تعالى.

ثم يضيف أبو هريرة رضي الله تعالى عنه مزيداً من الوصف، فيقول: (...ووبَّشَتْ قريش أوباشاً لها وأتباعاً. فقالوا : نُقَدِّمُ هؤلاء. فإن كان لهم شيء كنا معهم. وإن أُصيبوا أعطينا الذي سُئلنا. فقال رسول الله ﷺ : أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم. ثم قال بيديه،

(١) البخاري (١٤٩/٢) برقم (٤٢٨٠)

(٢) البخاري (١٥١/٣) برقم (٤٢٩٠) ورقم (٤٢٩١)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (١٠/٨) البيهقي، الدلائل (٤١/٥)

(٤) مسلم (١٤٠٦.١٤٠٥/٣) برقم (١٧٨٠)

(٥) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢٧/١٢)

إحداهما على الأخرى. ثم قال : تُوافوني بالصفا، قال: فانطلقنا. فما شاء أحدٌ منا أن يقتل أحداً إلا قتله. وما أحدٌ منهم يُوجِّه إلينا شيئاً....)[١]

ودلالة هذا ومعناه: أن قريشاً قد جمعت جموعاً من قبائل شتى لصد المسلمين. وقد قابل ذلك ﷺ بقوله (...يا معشر الأنصار ! هل ترون أوباش قريش ؟ قالوا: نعم. قال: انظروا؛ إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً..)[٢] وقد استُدل بهذا على أن مكة فُتِحت عنوة، قال بذلك مالك وأبو حنيفة وأحمد وجماهير العلماء.[٣]

(...قال: فجاء أبو سفيان، فقال: يا رسول الله ! أُبيحت خضراءُ قريش[٤] لا قريش بعد اليوم. ثم قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن...)[٥]

وفي هذا ما يدل على قوة المسلمين وتمكين الله تعالى لهم، وفي كلام أبي سفيان ﷺ ما يدل على الخوف والرعب الذي حصل عند مشركي أهل مكة، وإلا فما قُتِلَ من المشركين فهو أربعة وعشرون رجلاً من قريش، وأربعة من هذيل.[٦] وقتل من خيل خالد بن الوليد ﷺ يومئذ رجلان: حُبيش بن الأشعر، وكُرز بن جابر الفهري، رضي الله تعالى عنهما.[٧]

فلما ظهر رسول الله ﷺ على ثنية أذاخر رأى البارقة، فقال: (ألم أنه عن القتال؟ فقيل: خالد قوتل فقاتل. فقال: قضاء الله خيرٌ.)[٨]

---

(١) مسلم (١٤٠٥/٣-١٤٠٦) برقم (١٧٨٠)

(٢) مسلم (١٤٠٧/٣-١٤٠٨) برقم (١٧٨٠-٨٦)

(٣) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٣٠/١٢) وفتح الباري (١٢/٨-١٣)

(٤) خضراء قريش أي بمعنى جماعتهم ويُعبر عن الجماعة المجتمعة بالسواد والخضرة. النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢٧/١٢).

(٥) مسلم (١٤٠٥/٣-١٤٠٦) برقم (١٧٨٠)

(٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٣٦/٢) وابن حجر، فتح الباري (١١/٨)

(٧) البخاري (٣/ ١٤٩) برقم (٤٢٨٠)

(٨) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٣٦/٢)

وفي هذا دلالة على نهي النبي ﷺ عن القتال ما لم يقاتلهم أحد. حتى أن خالداً بن الوليد ﷺ لم يقاتل إلا بعد أن قوتل كما هو واضح من النص السابق. وقد عفا ﷺ عن أهل مكة بالرغم مما فعلوا به أثناء وجوده في مكة، ومحاربتهم له ولأصحابه في المدينة، فقال رسول الله ﷺ (يا معشر قريش ! ما ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء)[1]

غير أنه أهدر دم نفر من الرجال والنساء: هم تسعة من الرجال، وست أو ثمان من النساء، فمنهم من قُتل ومنهم من أسلم.[2]

وفي قبوله إسلام من أسلم؛ دليل واضح على أن ما كان يرجوه ﷺ من الناس هو أن يدخلوا في دين الله تعالى، وإلا لما قبل إسلام من أسلم، وقد أهدر دماءهم لما كان منهم من أذى للمسلمين. فليدرك كل ظالم أن الإسلام لا يقبل الظلم؛ ويتعامل معه بما يبتر ظلمه وطغيانه.

ولم تُعامَل مكة معاملة البلاد المفتوحة عنوة لقدسيتها ومكانتها الدينية، فقد استثنى النبي ﷺ فحرم القتل والسبي فيها، وأبقى الأموال الثابتة والمنقولة في أيدي أصحابها، ولم يفرض عليها خراجاً.[3] وهذا دليل على خصوصية مكة؛ ومكانتها المعظمة، والتي امتدت إلى أهلها. فيستفاد منه احترام وإجلال هذا البيت المقدس، وتحصينه من شرور النفس؛ ورذائل الأخلاق في كل تعاملات الإنسان ونشاطه. وكذا إكرام أهله.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٥٥)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٨/١١-١٢)

(٣) فتح الباري (٨/١٣) أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة(٢/٤٨١-٤٨٢) ومهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية، ص (٥٦٩-٥٧٠)

ومن الفوائد: التطبيق العملي للعفو عند المقدرة، كما هو معهود منه ﷺ فيقدم لأمته النموذج التطبيقي في ذلك، الذي تحتاجه الأمة في معاملتها مع بعضها البعض، ومَدِّ سلطان العفو للآخرين؛ حتى يدركوا رحمة الإسلام وسمو أخلاقه، الذي تندفع به النفوس للدخول في دين الله تعالى.

وفي قوله ﷺ (يا معشر قريش ! ما ترون أني فاعل فيكم ؟) يظهر فيه الأسلوب الحواري التربوي، الذي يستثير من خلاله الفكر والوجدان، حتى يُدرك العدو إمكانات القرار المتاحة له ﷺ وبالرغم من ذلك يختار ما يؤكد رحمة الإسلام ورحمة النبي الأمي، والهدف الذي يسعى من خلاله ﷺ

وفي قول قريش للنبي ﷺ : أخ كريم وابن أخ كريم. ما يؤكد ويبين ما اتصف به النبي ﷺ وما عُرِف عنه بين قومه، وكذا والده. من كرم النفس، وكرم الخُلُق، ومحاسن الأخلاق المجتمعة في رسول الله ﷺ

وفي قوله عليه الصلاة والسلام لقريش (اذهبوا فأنتم الطلقاء) الغاية في الكرم والعفو والصفح والرحمة، بما يفيد أن سمو الهدف يسمو بالأخلاق والأفعال والقرارات. فلسمو الهدف الذي منطلقه هداية الناس، أَثَرٌ في أخلاقيات القرار، الذي انتفت منه حظوظ النفس، ولذلك علا وارتفع السمو الخُلُقي في القرار النبوي، فعفا عمن ظلمه وأساء إليه وللمسلمين والإسلام.

ويفيد هذا ويعطي قاعدة سلوكية غاية في الأهمية، وهي: سمو الأهداف يولد سمو القرارات، أو سمو القرارات يتولد من سمو الأهداف. وأن كرم الأخلاق في الأفعال والأقوال مرتبط بصحة الأهداف وعلوها.

وبهذا يتأكد أن العفو من أهم ركائز السلوك الإنساني الذي اهتم به المنهج الإسلامي في نصوصه من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وتطبيقاته العملية التي طبقها النبي ﷺ

(... فقالت الأنصار، بعضهم لبعض: أمَّا الرجل فأدركته رغبةٌ في قريته، ورأفةٌ بعشيرته. قال أبو هريرة: وجاء الوحي. وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحدٌ يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي. فلما انقضى الوحي؛ قال رسول الله ﷺ يا معشر الأنصار ! قالوا: لبيك يا رسول الله ! قال: قلتم: أما الرجل فأدركته رغبةٌ في قريته. قالوا: قد كان ذاك. قال: كلا. إني عبد الله ورسوله. هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم، والممات مماتكم. فَأَقْبَلُوا إليه يبكون؛ ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضِّنَّ بالله وبرسوله. فقال رسول الله ﷺ : إن الله ورسوله يُصَدِّقانِكُم ويَعْذِرانكم...)[1]

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: معنى هذه الجملة: أنهم رأوا رأفة النبي ﷺ بأهل مكة، وكف القتل عنهم، فظنوا أنه يرجع إلى سكنى مكة؛ والمقام فيها دائماً، ويرحل عنهم، ويهجر المدينة، فشق ذلك عليهم، فأوحى الله تعالى إليه ﷺ فأعلمهم بذلك، فقال لهم رسول الله ﷺ : قلتم كذا وكذا، قالوا: نعم، قد قلنا هذا. فهذه معجزة من معجزات النبوة. فقال: كلا إني عبد الله ورسوله. ومعنى كلا هنا: حقاً. ولها معنيان: أحدهما حقاً والأخرى النفي. وأما قوله ﷺ (إني عبد الله ورسوله) فيحتمل وجهين: أحدهما: أني رسول الله حقاً فيأتيني الوحي، وأخبر بالمغيبات؛ كهذه القضية وشبهها، فثقوا بما أقول لكم وأُخبركم به في جميع الأحوال، والآخر: لا تفتتنوا بإخباري إياكم بالمغيبات، وتطروني كما أطرت النصارى عيسى صلوات الله عليه، فإني عبد الله ورسوله.[2]

ويحتمل أيضاً أن مدلولها هو: أنه طالما أنني عبد لله ورسوله فإنه يمتنع مني التحيز الْقَبَلِي أو المكاني، أو أن يكون هناك ولاء تبع لذلك. فمقتضى العبودية لله تعالى، والرسالة

(1) مسلم (٣/١٤٠٥-١٤٠٦) برقم (١٧٨٠)

(2) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٢٨-١٢٩)

تمنعان ذلك. ولعل مما يؤكد ذلك ما بعده (المحيا محياكم والممات مماتكم) وفي هذا تقديم أخوة الدين على أخوة النسب إذا افترقت.

وقال الإمام النووي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ : وأما قوله ﷺ (هاجرت إلى الله وإليكم، المحيا محياكم، والممات مماتكم) فمعناه: هاجرت إلى الله وإلى دياركم لاستيطانها، فلا أتركها، ولا أرجع عن هجرتي الواقعة لله تعالى، بل أنا ملازم لكم، المحيا محياكم، والممات مماتكم. أي لا أحيا إلا عندكم، ولا أموت إلا عندكم، وهذا أيضاً من المعجزات. فلما قال لهم هذا بكوا واعتذروا، وقالوا: والله ما قلنا كلامنا السابق إلا حرصاً عليك وعلى مصاحبتك، ودوامك عندنا؛ لنستفيد منك؛ ونتبرك بك؛ وتهدينا الصراط المستقيم، كما قال الله تعالى (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) وهذا معنى قولهم: ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بك، وهو بكسر الضاد، أي شحاً بك أن تفارقنا ويختص بك غيرنا، وكان بكاؤهم فرحاً بما قال لهم، وحياء مما خافوا أن يكون بلغه عنهم مما يُستحيى منه.[1]

وفي هذا الحدث من الفوائد: أن من مكارم الأخلاق العفو والصفح عند المقدرة. وأن لا يرغب المسلم عن العالم ويزهد فيه، بل يجله ويرغب فيه، فلئن توفي رسول الله ﷺ فإن العلماء ورثة الأنبياء. وفيه الفخر بالعبودية لله تعالى وإعلانها، كما قال ﷺ (إني عبد الله ورسوله). ويستفاد كذلك أن لا يُفتتن المرء بالعالم، فينزله في منزلة الربوبية أو الألوهية؛ في حياته أو بعد مماته. وإذا كان ذلك لا يصح في حق النبي ﷺ فإنه لا يصح في حق غيره.

وفيه أن يحفظ المرء حقوق الأخوة، ولا يستبدلها بآخرين، وإنما يضيف عليها الآخرين. وفيه القوة العاطفية الإسلامية عند الأنصار، وهو ما يجب أن يكون عند المسلم. ومن فوائد ذلك أن على العالم أن يدفع ما قد يدور في أذهان الآخرين من مفاهيم وتوقعات غير صحيحة، وهذا يكون بجهده وقوة خبرته وتحسبه، لأن زمن الوحي قد انقطع. وفيه أثر

---

(1) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٢٨-١٢٩)

التربية النبوية على مسلك وسلوك الأنصار. وأن من أراد الخير في غير مسلك ومنهج التربية الإسلامية فقد بحث في المجهول الذي نهايته الظلام.

(... قال: فأقبل الناس إلى دار أبي سفيان. وأغلق الناس أبوابهم. قال: وأقبل رسول الله ﷺ حتى أقبل على الحَجَر فاستلمه ثم طاف بالبيت. قال: فأتى على صنم إلى جنب البيت كانوا يعبدونه. قال: وفي يد رسول الله ﷺ قوسٌ؛ وهو آخذ بِسِيَةِ القوس[1]. فلما أتى على الصنم جعل يطعنه في عينه ويقول: جاء الحق وزهق الباطل. فلما فرغ من طوافه أتى الصفا، فعلا عليه حتى نظر إلى البيت، ورفع يديه؛ فجعل يحمد الله ويدعو بما شاء أن يدعو)[2]

وفي ذلك من الفوائد: الابتداء بالطواف في أول دخول مكة، سواء كان محرماً بحج أو عمرة أو غير محرم، وقد دخلها النبي ﷺ في هذا اليوم غير محرم بإجماع المسلمين، وكان على رأسه المغفر.[3] كما جاء في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه (أن النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه المغفر...)[4]

وفي تحطيم الصنم بيان لبطلانها وإذلال لها ولعابديها، وأنها لا تضر ولا تنفع؛ ولا تدفع عن نفسها ضراً ولا تجلب لها نفعاً. وجاء في عدد الأصنام التي كانت حول البيت؛ عن عبد الله رضي الله عنه (دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح؛ وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد)[5] ولمسلم (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً؛ جاء الحق وما يبدئ الباطل

---

(1) أي المنعطف من طرف القوس

(2) مسلم (٣/١٤٠٥-١٤٠٦) برقم (١٧٨٠)

(3) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٢٩)

(4) البخاري (٣/١٥٠) برقم (٤٢٨٦)

(5) البخاري (٣/١٥٠) برقم (٤٢٨٧)

وما يعيد...)[1] وفي هذا استحباب قراءة هاتين الآيتين عند إزالة المنكر.[2] وفيه من الفوائد حمد الله تعالى والثناء عليه عند حدوث النعم، وكذلك الدعاء. كما أن فيه إزالة المنكر إذا تحققت المصلحة ووجدت القدرة، إذ لم تُزل الأصنام إلا بعد أن مكنه الله تعالى بالفتح. مما يفيد أهمية مراعاة ذلك في التطبيق العملي

ومما قام به ﷺ في تطهير الكعبة ما جاء عن ابن عباس . رضي الله تعالى عنهما . (أن رسول الله ﷺ لما قَدِم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، فأخرج سورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما من الأزلام، فقال النبي ﷺ : قاتلهم الله، لقد علموا ما استقسما بها قط، ثم دخل البيت فكبر في نواحي البيت، وخرج ولم يصل فيه)[3] فقد أمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يأتي الكعبة فيمحو كل صورة فيها، فلم يدخلها حتى محيت الصور، وكان عمر رضي الله عنه هو الذي أخرجها، والذي يظهر أنه محا ما كان من الصور مدهوناً مثلاً، وأخرج ما كان مخروطاً. فبقيت بقية،[4] فأزالها ﷺ كما في الحديث الذي قبل السابق.

وفي هيئة دخوله ﷺ البيت العتيق، يقول أنس رضي الله عنه (دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على رحله متخشعاً)[5] وفي ذلك صورة من صور تواضعه ﷺ حتى في لحظات النصر، حيث يزداد تواضعاً لله تعالى، حتى كانت ذقنه ﷺ على رحله، وكان خشوعه ﷺ خشوع المتعبد. وفي هذا دلالة على أن الإسلام يربي في المسلم التذلل لله سبحانه وتعالى، والتقرير بأن النصر من الله جلَّ جلاله. وأن على المسلم أن يُعلن ذلك بأفعاله حالة النصر وحصول النعم. وفيه دلالة على أن منهج الإسلام يربي في أتباعه التواضع والانكسار للحق

(١) مسلم (١٤٠٨/٣) برقم (١٧٨١)
(٢) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٣٠/١٢)
(٣) البخاري (١٥٠/٣) برقم (٤٢٨٨)
(٤) ابن حجر، فتح الباري (١٧/٨)
(٥) الحاكم، المستدرك (٤٧/٣)

تبارك وتعالى. وهو ما يلزم المسلم أن يسلكه فيما يحصل عليه من نعم، بأن يزداد بها تواضعاً، لأن المعطي لها الله تبارك وتعالى، بحوله وقوته، إذ لو شاء لمنعها وما بسطها لعبده.

وعن عبد الله بن مغفل يقول (رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يُرَجِّعُ)[١]

ويذكر نافع عن ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ (أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته؛ مُرْدِفَاً أسامة بن زيد، ومعه بلال؛ ومعه عثمان بن طلحة من الحجبة؛ حتى أناخ في المسجد، فأمره أن يأتي بمفتاح البيت، فدخل رسول الله ﷺ ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة، فمكث فيه نهاراً طويلاً، ثم خرج فاستبق الناس، فكان عبد الله بن عمر أول من دخل، فوجد بلالاً وراء الباب قائماً، فسأله: أين صلى رسول الله ﷺ ؟ فأشار له إلى المكان الذي صلى فيه. قال عبد الله : فنسيت أن أسأله: كم صلى سجدة.)[٢]

وفي هذا الحديث من الفوائد: الحرص على فعل السُّنَّة، التي مَثَّلَ الحرص على معرفتها وعلى أدائها عبد الله بن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ وهذا دليل على حرص ابن عمر رضي الله عنه على متابعة النبي ﷺ حتى أنه أول من دخل.

ويفيد هذا الحديث أن للكعبة باباً ومفتاحاً قبل الإسلام. ونقل ابن حجر: أن النبي ﷺ دفع مفتاح الكعبة إلى عثمان، فقال: (خذها خالدة مخلدة، إني لم أدفعها إليكم ولكن الله دفعها إليكم، ولا ينزعها منكم إلا ظالم) وفي رواية (فدعا عثمان فقال: خذوها يا بني شيبة خالدة تالدة؛ لا ينزعها منكم إلا ظالم)[٣]

---

(١) البخاري (١٤٩/٣) برقم (٤٢٨١)

(٢) البخاري (١٥٠/٣.١٥١) برقم (٤٢٨٩)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (١٨/٨)

وعن ابن أبي ليلى قال (ما أخبرنا أحدٌ أنه رأى النبي ﷺ يصلي الضحى غير أم هانئ، فإنها ذكرت أنه يوم فتح مكة اغتسل في بيتها، ثم صلى ثمانيَ ركعات، قالت: لم أره صلى صلاة أخف منها، غير أنه يتم الركوع والسجود)[1]

وفي الحديث عناية النبي ﷺ بالنظافة البدنية، حيث اغتسل ﷺ وكذا عنايته بصلاة الضحى، ويستفاد من ذلك أهمية الاهتمام بنظافة البدن عند حصول ما يستدعي ذلك، وكذا الاهتمام بالصلاة، كما اهتم بها ﷺ في ذلك الحال والموقف، سواء كانت صلاة الضحى أو صلاة شكر لله على ما فتح عليهم[2].

ثم إنه عليه الصلاة والسلام رجع حيث ضربت خيمته، فعن أبي هريرة ﷺ قال (قال رسول الله ﷺ : منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله الخيف حيث تقاسموا على الكفر)[3]

قال ابن حجر: أنه ﷺ لم يقم في بيت أم هانئ وإنما نزل به حتى اغتسل وصلى؛ ثم رجع إلى حيث ضربت خيمته عند شعب أبي طالب، وهو المكان الذي حصرت فيه قريش المسلمين.[4]

وجاء في الحديث عن عمرو بن عثمان (عن أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح: يا رسول الله أين ننزل ؟ قال النبي ﷺ وهل ترك لنا عقيل من منزل ؟)[5] وفي لفظ آخر، عن أسامة بن زيد ـ رضي الله تعالى عنهما، أنه قال (يا رسول الله ! أين تنزل؛ في دارك بمكة ؟

---

(1) البخاري (١٥١/٣) برقم (٤٢٩٢)

(2) قال ابن قيم الجوزية ـ رحمة الله تعالى عليه ـ عن تلك الصلاة : فظنها من ظنها صلاة الضحى، وإنما هذه صلاة الفتح، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصناً أو بلداً صلوا عَقِبَ الفتح هذه الصلاة، اقتداء برسول الله ﷺ ابن القيم، زاد المعاد (٤١٠/٣)

(3) البخاري (١٥٠/٢) برقم (٤٢٨٤)

(4) ابن حجر، فتح الباري (١٩/٨)

(5) البخاري (١٤٩/٣) برقم (٤٢٨٢)

فقال: وهل ترك عقيل من رِبَاع[1] أو دور ؟ وكان عقيل وَرِثَ أبا طالب؛ هو وطالب، ولم يرثه جعفر ولا علي ـ رضي الله عنهما ـ شيئاً، لأنهما كانا مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرين...)[2] قال ﷺ (لا يرث المؤمن الكافر، ولا يرث الكافر المؤمن. قيل للزهري: ومن ورث أبا طالب ؟ قال: ورِثَهُ عقيل وطالب)[3]

فلم ينزل ﷺ في بيته، مبيناً لأسامة بن زيد العلة. وكان عقيل قد ورث أبا طالب، هو وأخوه، وباع الدور كلها.[4]

فلما كان الغد من يوم الفتح خطب رسول الله ﷺ في الناس (أنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن مكة حَرَّمها الله ولم يحرمها الناس. لا يحل لا مرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجراً. فإن أحدٌ ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها؛ فقولوا له: إن الله أَذِنَ لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أُذِنَ له فيه ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب.)[5]

وهذا دليل على عظيم قدسية مكة؛ شرفها الله تعالى، بما يغرس في نفس المؤمن إجلالها من أن يعمل فيها ما يُسخط الله تعالى من المنكرات، وأن يحمي جنابها من منكرات الأخلاق، وأن يتخلق فيها بما يتناسب وقدسيتها. فضلاً عن القتال فيها.

وفيه من الفوائد أن هذا التحريم لمكة المشرفة من الله تعالى، وليس لأحد من خلقه. وفيه كذلك عظيم حرمة سفك الدماء، وعضد الشجر فيها.

---

(١) الرباع: هو المنزل المشتمل على أبيات. وقيل هو الدار. وعلى هذا فقوله (أو دور) إما للتأكيد أو من شك الراوي. ابن حجر، فتح الباري (٤٥٢/٣)

(٢) البخاري (٤٨٩/١-٤٩٠) برقم (١٥٨٨)

(٣) البخاري (١٥٠/٣) برقم (٤٢٨٣)

(٤) ابن حجر، فتح الباري (١٤/٨-١٥)

(٥) البخاري (١٥١/٣-١٥٢) برقم (٤٢٩٥)

وفيه من الفوائد أن على شاهد العلم والخير أن يبلغ به غيره ممن غاب ولم يحضر.

وعن إقامة الرسول ﷺ بمكة وصلاته فيها؛ يقول ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ (أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً يصلي ركعتين)[١] وفيه أن المسافر يقصر الصلاة.

وعن عبد الله بن مطيع عن أبيه رضي الله عنهما قال (سمعت النبي ﷺ يقول يوم فتح مكة: لا يُقتل قرشي صبراً بعد هذا اليوم، إلى يوم القيامة)[٢]

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: قال العلماء: معناه الإعلام بأن قريشاً يُسلمون ولا يرتد أحد منهم كما ارتد غيرهم بعده ﷺ ممن حورب وقُتل صبراً.[٣]

وكلُ ذي روح يوثق حتى يُقتل؛ فقد قُتِل صبراً.[٤] وفي هذا الإخبار بمغيبات المستقبل معجزة نبوية.

وفي فتح مكة نزلت سورة: النصر. قال فيها ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (...هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله له، إذا جاء نصر الله، والفتح فتح مكة، فذاك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابا، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم)[٥] وفي هذا بيان منزلة ابن عباس وسعة علمه رضي الله عنه وأن المرء بأصغريه قلبه ولسانه، كما أن فيه اهتمام عمر رضي الله عنه بأصحاب القدرات، وإنزال الناس منازلهم.

---

(١) البخاري (١٥٢/٣) برقم (٤٢٩٨)

(٢) مسلم، (١٤٠٩/٣) برقم (١٧٨٢)

(٣) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٣٤/١٢)

(٤) الفيومي، المصباح المنير (٤٥٢/١)

(٥) البخاري (١٥١/٣) برقم (٤٢٩٤)

وقد اجتمع الناس لمبايعة الرسول ﷺ بعد هذا الفتح العظيم، كما جاء في صحيح البخاري (... وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح؛ فيقولون : اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيٌ صادق. فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كلُّ قوم بإسلامهم...)[1]

وفي هذا بيان أن العرب كانت تَلوَّم، أي تنتظر بإسلامها الفتح؛ وانتصار النبي ﷺ فلما حدث هذا بادر كل قوم بإسلامهم. وفي هذا من الفوائد حاجة الكفار للتطبيق العملي من المسلمين للإسلام، في اقتصادهم وأخلاقهم وسياستهم وسلمهم وحربهم؛ وفي جميع شؤونهم، حتى يروا في تطبيقه منهج الله تعالى؛ الذي لا يراه عاقل إلا ويدرك أن هذا المنهج لا يكون إلا من رب العالمين الرحمن الرحيم.

وعن مجاشع بن مسعود السلميﷺ قال: (أتيت النبي ﷺ أبايعه على الهجرة، فقال: إن الهجرة قد مضت لأهلها؛ ولكن على الإسلام والجهاد والخير.)[2]

وعن مجاشع بن مسعود السلمي ﷺ قال: (جئت بأخي، أبي معبد إلى رسول الله ﷺ بعد الفتح. فقلت: يا رسول الله ! بايعه على الهجرة. قال: قد مضت الهجرة بأهلها. قلتُ: فبأي شيء تبايعه ؟ قال: على الإسلام والجهاد والخير.)[3]

وفي هذا بيان أن مكة قد أصبحت دار إسلام وأمان بعد الفتح، وأن الإسلام دين جهاد وخير. وفي الجمع بين الإسلام والجهاد والخير للمبايعة ما يدل على أن الإسلام والجهاد قائمان على الخير، قولاً وعملاً، لا ينفكان عن ذلك أبداً. وأن الجهاد في الإسلام قائم على ما يحبه الله تعالى ويرضاه.

---

(1) البخاري (١٥٢/٣) برقم (٤٢٠٣)

(2) مسلم (١٤٨٧/٣) برقم (١٨٦٣)

(3) مسلم (١٤٨٧/٣) برقم (١٨٦٣.٨٤)

وفي الحديث فوائد عظيمة، منها: بيان الترابط الوثيق بين أجزاء منهج الإسلام، ككل لا يتجزأ؛ فلا يقبل الإيمان ببعض وترك البعض، بل هو الإسلام جملة منهج واحد لا يتبعض أبداً. ثم ترابطه مع ذروة سنامه؛ وهو الجهاد. ثم يعانق ذلك بالخير كله؛ فلا شر في الإسلام، بل هو خير محض، والجهاد خير بهدف الخير، ليس لأكل أموال ومدخرات الشعوب، أو لهضمها واستعبادها من أجل مصالح الدنيا، وإنما الجهاد باب لدخول الناس في دين الله تعالى، ولصد أذى الكفر من أن يصيب الإسلام وأهله.

إن لفظ (الخير) في الحديث يدل على أنه ثوب الإسلام ورداؤه العظيم ؛ ومسلكه الذي يسير به. وبالتالي فإن المسلم يسلك مسلك الخير في أكله وشرابه، وقيامه وجلوسه، وفي سره وعلانيته، وفي جهاده واجتهاده، وفي مهنته وفي كل حياته، فالخير لا يخفى على أحد من الناس ما ابتغاه وطلبه.

وقد خطب رسول الله ﷺ في هذا الفتح العظيم عدة خُطب، بين فيها مزيداً من شرائع الإسلام الحنيف، سبق أن ذُكِرَت خطبة، وهذه أخرى : قال ﷺ (لا إله إلا الله وحده؛ نصر عبده؛ وهزم الأحزاب وحده، ـ قال هشيم: مرة أخرى: الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده ـ ألا إن كُلَّ مَأْثُرَةٍ[1] كانت في الجاهلية تُعَدُّ وتُدعى، وكل دم أو دعوى موضوعة تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج، ألا وإن قَتِيلَ خَطَأَ العمد. قال هشيم مرة : بالسوط والعصا والحجر دية مغلظة مائة من الإبل، منها أربعون في بطونها أولادها.)[2]

---

[1] المآثر: القدم في الحسب، ومآثر العرب مكارمها ومفاخرها التي تُؤثر عنها، أي تُذكر وتروى. ابن منظور، لسان العرب (٤/٧)

[2] أحمد، المسند (٣/٤١٠) وانظر تخريج الأحاديث الواردة بهذا الشأن، المسند (٢٤/١٠٨-١١١) بأرقام (١٥٣٨٨، ١٥٣٨٩، ١٥٣٩٠) طبعة الموسوعة الحديثية. وقال محققوا الطبعة، شعيب الأونؤوط وآخرون : صحيح. وكذلك من نفس الطبعة (٣٨/٤٧٨) برقم (٢٣٤٩٣)

وفي هذا الحديث نسخ لقوانين الجاهلية، وبيان لشريعة الله تعالى فيما تضمنته الخطبة. وفيه تدرج نزول الأحكام التشريعية، إذ لم تنزل جميعها جملة واحدة، وأن ما جاء في الخطبة هو شيء منها، وفي هذا دليل على أهمية أسلوب التدرج في الميدان التربوي والدعوي، كمبدأ تعليمي وتوجيهي. بل وفي تعدد خطبه ﷺ في فتح مكة، وما تضمنته كل خطبة من بيانات تشريعية دليل على مبدأ التدرج أيضاً كمنهج إسلامي.

ومن فوائد هذه الخطبة النبوية الكريمة، إبطال مفاخر الجاهلية بالأحساب والمكارم، وكذلك إبطال الأخذ بالثأر الذي أَبْرَمَ في الجاهلية سلسلة من السفك الدموي؛ فَحَلَّ مكانه القصاص، أو العفو مقابل المثوبة من الله تعالى. وفي هذا بيان وتوضيح بأن مسلك الإسلام التربوي هو بناء المكارم وتطبيقها لله تعالى لا للمفاخرة. لتتربى النفوس على الأدب الإسلامي الرفيع.

وفيما تضمنته الخطبة الأخرى قوله ﷺ (بعد أن أثنى على الله: يا أيها الناس كل حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة، ولا حلف في الإسلام، ولا هجرة بعد الفتح، يد المسلمين واحدة على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، ولا يُقتل مؤمن بكافر، ودية الكافر كنصف دية المسلم، ألا ولا شغار في الإسلام، ولا جَنَبَ[1] ولا جلب[2] وتؤخذ صدقاتهم في ديارهم، يجير على المسلمين أدناهم، ويرد على المسلمين أقصاهم. ثم نزل.)[3]

---

[1] الجنب: هو الذي يجب عليه الغسل من الجماع وخروج المني. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر. (٣٠٢/١)

[2] الجلب: يكون في شيئين: أحدهما في الزكاة، وهو أن يقدم المصَدِّق على أهل الزكاة؛ فينزل موضعاً ثم يرسل من يجلب إليه الأموال من أماكنها، ليأخذ صدقتها، فَنُهِي عن ذلك. وأُمِر أن تؤخذ صدقاتهم على مياههم وأماكنهم. والثاني أن يكون في السباق: وهو أن يتبع الرجل فرسه فيزجره؛ ويجلب عليه، ويصيح حثاً له على الجري، فنهي عن ذلك. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٨١/١)

[3] أحمد (٢١٥/٢)

وفي صحيح مسلم (لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية، لم يزده الإسلام إلا شدة)[1]

قال الإمام النووي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ أما المؤاخاة في الإسلام والمحالفة على طاعة الله تعالى، والتناصر في الدين، والتعاون على البر والتقوى، وإقامة الحق؛ فهذا باق لم يُنسخ، وهذا معنى قوله ﷺ في هذه الأحاديث، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة. وأما قوله ﷺ (لا حلف في الإسلام) فالمراد به حلف التوارث، والحلف على ما منع الشرع منه، والله تعالى أعلم.[2]

فلقد بينت الخطبة النبوية المزيد من التشريع الذي يبين الحقوق الأخوية بين المسلمين، وتكافؤهم في الدماء. لا فرق بين أسود وأبيض وأحمر، وغني وفقير، وأمير ومأمور، وصغير وكبير.

وكذلك بينت خطبته ﷺ: عدم التكافؤ بين المسلم والكافر؛ فلا يُقتل مسلم بكافر، فكما أنه لا تكافؤ بين الإسلام والكفر؛ فكذلك لا تكافؤ بين المسلم والكافر، ومع ذلك حفظ الإسلام للكافر حقه، فدية الكافر نصف دية المسلم، فلم يُهمل التشريع الإسلامي حقوق غير المسلمين، وهذا دليل واضح على حق الكافر في الحياة والعيش والتكسب، وأن دمه مُصان في الإسلام إلا بموجبه. وفيه أن الإسلام لا يظلم أحداً، وأنه كله خير، حتى لغير المسلم فإنه خير؛ إما أن يتأمله فيدخل فيه، أو أنه يحفظ له حقوقه. ويستفاد من ذلك أهمية تحقيق هدي الإسلام في التعامل مع غير المسلمين لأن ذلك باب يلجون من خلاله إلى الإسلام.

---

(١) مسلم (٤/١٩٦١) برقم (٢٥٣٠)

(٢) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٨٢)

كما تضمنت الخطبة فساد نكاح الجاهلية: الشغار، وهو نوع من النكاح الجاهلي: يقول الرجل: زوجني أختك؛ أو ابنتك؛ أو من تلي أمرها، حتى أزوجك أختي؛ أو ابنتي؛ أو من ألي أمرها.[1] وفي هذا التحريم حفظ للمرأة وإعزاز لها.

كما تضمنت الخطبة مكانة المسلمين فيما بينهم، والتي تبين أن الأدنى له من الحق ما يقبله ويحفظه أعلاهم، فله أن يُجير، وأن على المسلمين قبول ذلك. بل حتى للمرأة أن تجير، كما قال ﷺ لأم هانئ (قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ)[2] قال ابن حجر ـ رحمة الله تعالى عليه ـ أجمع أهل العلم على جواز أمان المرأة.[3] وفي هذا بيان لمكانة المرأة، وحفظ لتلك المعنوية بإمضاء أمانها.

ويستفاد من ذلك الأهمية التربوية في حفظ ورفع معنوية الأدنى من المسلمين، وأن يُشعر بأن مكانته محفوظة عند إخوانه المسلمين، مهما تباينت بهم أموال الدنيا وحطامها، أو جاهها وعلاقاتها، أو تباعدت بهم أصقاع الأرض ومسافاتها؛ فتباعد المسافات بين المسلمين لا يحجب تعاونهم وتعاضدهم، فكلهم كالجسد الواحد.

وقد طُبِّق في هذا الفتح إحدى العقوبات الشرعية؛ على امرأة سرقت. فعن عروة بن الزبير (أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة فتح مكة، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه، قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلوَّن وجَه رسول الله ﷺ فقال: أتكلمني في حدٍ من حدود الله ؟ قال أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعدُ. فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد. والذي نفسُ محمد بيده،

---

[1] ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٨٢/٢)

[2] البخاري (٤١١/٢) برقم (٣١٧١)

[3] ابن حجر، فتح الباري (٢٧٣/٦)

لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها. فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشة فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ)[1]

وفي هذا الحديث بيان للعدل الذي ساد الأمة بمنهج الإسلام، الذي جاء به وطبقه رسول الله ﷺ وفيه أن المحاباة وعدم إقامة العدل عنوان هلاك الأمم، وبه تزول النعم وتأتي النقم. وفيه بيان شناعة المجاملة في إقامة الحدود وتحريمها (والذي نفسُ محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها). وفيه كذلك تحريم الشفاعة في الحدود. وفيه ضرب المثل بالنفس والولد. وفيه التهديد والوعيد لمن يغترف حداً من حدود الله تعالى. وفيه مكانة فاطمة رضي الله تعالى عنها، حيث ضرب بها مثلاً لو حصل منها ذلك، وحاشاها ذلك. وفيه وجوب تطبيق الحد ولو كان على ابن السلطان. وفيه أن في الحدود تهذيباً وتأديباً، كما حصل للمرأة إذ حَسُنَتْ توبَتُها، وكذلك أن وفقها الله تعالى وتزوجت.

وفيه كذلك إكرام التائب ومن طُبِّقَ عليه الحد، وكذا احتواؤه وعدم هجره، حيث كانت تأتي تلك المرأة لعائشة رضي الله تعالى عنها، فترفع حاجتها للنبي ﷺ وكذلك أن لا يَنْبُذْ المجتمعُ من طُبِّق عليه الحد، حيث قد تزوجت تلك المرأة، ولم تؤخذ بما كان منها، ولم تُسحب عليها جريرتها طوال حياتها حتى يزهد الناس فيها. فيزهد الخُطَّاب عنها.

---

[1] البخاري (١٥٣/٣) برقم (٤٣٠٤)

البعوث والسريا بعد غزوة الفتح :

- البعوث والسريا لإزالة الأصنام :

عندما تم تطهير البيت العتيق من الأصنام والأزلام والصور، أرسل رسول الله ﷺ البعوث لإزالة الأصنام، فأرسل خالد بن الوليد في سرية إلى بطن نخلة من ديار بني ثقيف؛ لهدم العزى. وبعث عمرو بن العاص في سرية إلى سُواع، صنم هذيل فهدمه. وبعث سعد بن زيد الأشهلي في سرية لهدم مَناة، وكانت بالمشلل من ناحية قديد للأوس والخزرج وغسان؛ فهدمه.[١]

ومن فوائد تحطيم هذه الأصنام بيان ضعفها وسخافة عقول من يعبدها، فلو كانت آلهة كما يقولون لدافعت عن نفسها التحطيم والتخريب. ولا شك أن في هذا بياناً وإعلاناً واضحاً للعرب ببطلان هذه الآلهة وقيام دولة الإسلام.

بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بني جذيمة:

لما رجع خالد بن الوليد رضي الله عنه من هدم العزى ورسول الله ﷺ بمكة؛ بعثه إلى بني جذيمة داعياً إلى الإسلام، ولم يبعثه مقاتلاً، فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سُليم. فانتهى إليهم خالد.[٢]

قال ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ (فجعل خالد يقتل ، فقال النبي ﷺ: أبرأ إليك مما صنع خالد.)[٣] وعن سالم عن أبيه قال (بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يُحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا. فجعل خالدٌ يقتل منهم ويأسر. ودفع إلى كل رجل منا أسيره. حتى إذا كان يومٌ أمر خالد

---

[١] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٤٥.١٤٧)

[٢] المرجع السابق (٢/١٤٧)

[٣] البخاري (٣/٤١٢) باب: إذا قالوا: صبأنا ولم يُحسنوا أسلمنا.

بقتل كلِّ رجلٍ منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري؛ ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره. حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه، فرفع النبي ﷺ يديه فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد؛ مرتين.)[١]

فدل الحديث على أنه يكتفى من كل قوم بما يعرف من لغتهم، قال ابن بطال: لا خلاف أن الحاكم إذا قضى بجور أو بخلاف أهل العلم أنه مردود. لكن يُنظر فإن كان على وجه الاجتهاد فإن الإثم ساقط؛ وأما الضمان فيلزم عند الأكثر.[٢] وذكر ابن حجر: وزاد الباقر في روايته (ثم دعا رسول الله ﷺ علياً، فقال: اخرج إلى هؤلاء القوم؛ واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك، فخرج حتى جاءهم، ومعه مال؛ فلم يبق لهم أحد إلا وداه)[٣]

وفي هذا دليل على وجوب الضمان، وتطييب نفوس من حصل الخطأ عليهم، وبيان اهتمام الإسلام بالحقوق والعواطف والخواطر، وأنه دين رحمة وشفقة.

وفيه جواز الحلف على نفي فعل الغير إذا وثق بطواعيته[٤] (والله لا أقتل أسيري؛ ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره).

وقد عذر النبي ﷺ خالد بن الوليد في اجتهاده، ولذلك لم يقد منه.[٥] ويستفاد من إعذاره ﷺ أن صاحب الأمر كالوالي والقائد والمدير والرئيس يعذر إذا اجتهد فأخطأ، ويكفيه من اللوم سماع ما يبين خطأ صنيعه. وكذلك من الفوائد أن البراءة من صنيع العامل أو الموظف بيان يشتمل على الإيضاح والزجر.

---

[١] البخاري (٣/١٦٠) برقم (٤٣٣٩)

[٢] ابن حجر، فتح الباري (٦/٢٧٤)

[٣] المرجع السابق (٨/٥٨)

[٤] المرجع السابق (٨/٥٧)

[٥] المرجع السابق (٦/٢٧٤)

وفيه من الفوائد أن المصطلح إذا اشتهر بين قوم قد تُشْكِل دلالته عند من لم يدركه، فقريش تقول لكل من أسلم صبأ، حتى اشتهرت هذه اللفظة، وصاروا يطلقونها في مقام الذم، فلما قال بنو جذيمة صبأنا فهمها خالد ﷺ على ظاهرها، لأن قولهم صبأنا أي خرجنا من دين إلى دين.[١]

وفيه من الفوائد أن المرؤوس لا يطيع رئيسه في كبيرة؛ إذا تحقق عنده ارتكابه لكبيرة قد خفيت على رئيسه أو قائده، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

(١) المرجع السابق (٥٧/٨)

الفصل الثالث عشر

غزوتا حنين والطائف

غزوة حنين:

لما سمعت هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة، جمعها مالك بن عوف النَّضْرِي، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، واجتمعت نَضر وجُشَم كلها، وسعد بن بكر، وناس من بني هلال؛ وهم قليل. ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء، وغاب عنها ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب.(١)

يقول أنس بن مالك ﵁ (لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنَعَمِهم وذراريهم، ومع النبي ﷺ عشرة آلاف ومن الطلقاء...)(٢) ومن الطلقاء ألفان.(٣) وأما العدو فكان عددهم ضعف عدد المسلمين وأكثر.(٤)

وهذا النبأ يبين أن هوازن قد خشيت من غزو النبي ﷺ لها، بعد أن فتح الله تعالى عليه مكة. فخرجت بالنساء والغنم والإبل، في حشود عظيمة، وذلك إمعاناً في التهيؤ ليشتد قتالهم، وكان مالك بن النضر، وهو شاب في الثلاثين من عمره، قد ألَّب القوم وشجعهم، وجمعهم على ذلك، بينما أنكر دُرَيد بن الصِّمَّة ذلك على مالك، وكان شيخاً كبيراً، وذو تجربة.(٥)

وفي هذا الإقدام من مالك، والإنكار من دُرَيد ما يفيد أن مرحلة الشباب تتميز بالاندفاع؛ نتيجة القوة والجلادة؛ مع قلة الخبرة والتجربة، وأن الشيخ فيه التأني؛ والإفادة من الخبرة؛ وبالتالي يأتي الرأي بعد التفكير؛ ، مما يبين أهمية العناية بالشباب وربطهم بالكبار في السن، والإفادة من خصائص كل مرحلة بما لديها من مكتسبات؛ لتتضافر قوة الرأي مع قوة

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٨٠/٤)

(٢) البخاري (١٥٩/٣) برقم (٤٣٣٧)

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٨٣/٤) وابن سعد، الطبقات (١٥٠/٢)

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٢٩/٨)

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية (٨١-٨٠/٤)

الاندفاع، أو لتنضبط قوة الاندفاع الشبابي بقوة الرأي والتأني عند الكبير الخبير المجرب. وهذا ليس على إطلاقه.

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال (...فلما سمع بهم رسول الله ﷺ بعث عبد الرحمن بن أبي حدرد الأسلمي، فقال: اذهب فادخل بالقوم حتى تعلم لنا من علمهم، فدخل فمكث يوماً أو يومين، ثم أقبل فأخبره الخبر...)[١]

وفي هذا بيان للمنهجية الصحيحة في التثبت من الخبر، وإرسال العيون على العدو، لمعرفة حقيقة ما يُكاد للمسلمين. وفيه الأخذ بخبر المسلم الواحد، وتصديقه بما يخبر عنه. وفيه بيان لحكم التجسس على العدو؛ بقصد معرفة ما يرصد للمسلمين.

(... ثم بعث رسول الله ﷺ إلى صفوان بن أمية؛ فسأله أدراعاً، مائة درع، وما يصلحها من عدتها. فقال: أغصباً يا محمد ؟ قال: بل عارية مضمونة؛ حتى نؤديها إليك. ثم خرج رسول الله ﷺ سائرا.)[٢] وصفوان بن أمية يومئذ مشرك.[٣]

وفي هذا الحديث من الفوائد ما يبين إباحة التعامل مع الكافر في البيع والشراء، والاستعارة منه. وكذلك فيه سماحة الإسلام في التعامل، ولم يستخدم عليه الصلاة والسلام قوة المنتصر مع صفوان، بل استخدم معه أسلوب السماحة، وفيه من الفوائد ضمان العارية.

فخرج رسول الله ﷺ من مكة يوم السبت لست ليال خلون من شوال.[٤] وقيل لليلتين بقيتا من رمضان، وجمع بعضهم بأنه بدأ بالخروج في أواخر رمضان، وسار سادس شوال، وكان وصوله إليها في عاشره.[٥]

---

[١] الحاكم، المستدرك (٤٨/٣-٤٩)

[٢] الحاكم، المستدرك (٤٨/٣-٤٩)

[٣] ابن هشام، السيرة النبوية (٨٣/٤)

[٤] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٥٠/٢)

[٥] ابن حجر، فتح الباري (٢٧/٨)

واستعمل رسول الله ﷺ عَتَّاب بن أَسِيد بن أبي العاص على مكة.[١]

وحنين: وادٍ بينه وبين مكة ثلاث ليال.[٢] وتعرف الآن بالشرائع.[٣]

وأما عن صفة مسيرهم وحراسة الجيش، فيقول سهل بن الحنظلية رضي الله عنه (أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فأطنبوا السير...)[٤] ويفيد لفظ (فأطنبوا السير) أنهم أسرعوا في السير، فالإطناب في السير هو الاجتهاد والمبالغة في المسير. غير أنهم وصلوا إلى حنين في اليوم العاشر من شوال، وقد تحركوا من مكة في اليوم السادس. ويبدوا من ذلك أنهم كلما اقتربوا من حنين ساروا ببطء وحذر، فإنها لا تبعد عن مكة سوى عشرين كيلاً، شرقي مكة، [٥] وفي هذا من الفوائد أهمية الحذر واتخاذ أسبابه.

وفي طريقهم ومسيرهم حدث مشهد ممن كان حديث عهد بالجاهلية، فعن أبي واقد الليثي (أنهم خرجوا عن مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ : قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون، إنها لسنن، لتركبن سنن من كان قبلكم سنة سنة.)[٦]

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (٨٣/٤)

[٢] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٤٩/٢)

[٣] أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٤٩٦/٢)

[٤] أبو داود (٢٢.٢٠/٣) برقم (٢٥٠١)

[٥] أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٤٩٦/٢)

[٦] أحمد، المسند (٢١٨/٥)

فالذين سألوا رسول الله ﷺ هذا المطلب هم الذين كانوا حديثي عهد بالجاهلية، كما جاء في رواية ابن هشام.[1]

وفي هذا من الفوائد، أهمية وجود القدوة الصالحة أمام القدوة المنحرفة، حتى تنصح وتبين لها، وأن المرء يتأثر بما كان عليه؛ وما اعتاده من الجهل، فيحتاج إلى عناية ومتابعة، وكذلك من كان حديث عهد بكفر يحتاج إلى مزيد توجيه وقدوة يراها فيتعلم منها.

وفيه كذلك أن الحدث قد يتكرر نفسه من البشر؛ إذا وُجِدَت العوامل والقواسم المشتركة، وهي السنن الاجتماعية، كما حدث ذلك من قوم موسى مع نبيهم موسى عليه السلام. وبالتالي تظهر أهمية الاستفادة مما يحصل من الغير، للحذر منه. لأن هناك سنناً اجتماعية تتكرر بتكرر عواملها.

وفيه أن طلب منهج الكفر دليل على جهل الطالب، وبالتالي كلما زاد ظهور القدوة السيئة لزم مقابل ذلك أن تظهر القدوة الصالحة؛ وأن تبرز للعيان بكل أوجه وزوايا الصلاح؛ لشدة حاجة الناس إلى ذلك.

ثم أُسْتُكْمِلَ المسير كما جاء في الحديث (...فأطنبوا السير، حتى كانت عشية، فحضرت الصلاة عند رسول الله ﷺ فجاء رجل فارس، فقال: يا رسول الله ! إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم، بظُعُنهم ونعَمِهم وشائهم، اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله...)[2]

وفي هذا البيان من الصحابي الذي رصد قوة هوازن ما يفيد أن هوازن قد حضرت بكامل قوتها، وهو قوله (على بكرة أبيها) أي أنهم جاؤوا جميعاً؛ لم يتخلف منهم أحد. وهي

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٨٤،٨٥)

(٢) أبو داود (٣/٢٠،٢٢) برقم (٢٥٠١)

كلمة تستخدمها العرب للتعبير عن الكثرة في العدد. وقوله (بظعنهم) أي نسائهم، وواحدتها ظعينة. وقوله (ونعمهم) أي الإبل والشاة، أو خاص بالإبل.(١)

وفي هذه المكونات ما يدل على أنه لم يتخلف منهم أحد؛ حتى النساء والبهائم. وقد قابل رسول الله ﷺ هذا الخبر بابتسامة، وقال (تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله) وفي هذا أهمية التفاؤل، وتشجيع الجيش أمام كثرة الأعداء، لأن نصر المسلمين بتوفيق الله تعالى؛ وليس بكثرة عددهم وعتادهم، وفيه كذلك تحقيق التوحيد، أن ربط رسول الله ذلك بمشيئة الله تعالى. وهو ما يجب أن يدركه المسلم في كل توقعاته ونواياه المستقبلية.

ثم تأتي مهمة حراسة الجيش، فيقول سهل بن الحَنْظَلِيَّة (... ثم قال: من يحرسُنا الليلة؟ قال أنس بن أبي مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله، قال: فاركب، فركب فرساً له، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه، ولا نُغَرَّنَّ من قبلك الليلة. فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين، ثم قال: هل أحسستم فارسكم ؟ قالوا: يا رسول الله ما أحسسناه، فثُوّب بالصلاة،(٢) فجعل رسول الله ﷺ يصلي وهو يلتفت إلى الشعب ...)(٣)

وفي هذا الجزء من الحديث: سرعة المبادرة من الصحابي الجليل أنس بن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه، مما يفيد أهمية المبادرة في فعل الخير وعدم التواني عنها. وفيه كذلك أهمية إدراك القائد لمنطقة المعركة حتى يستطيع أن يوجه أفراد جيشه لما ينبغي أن يقوموا به، كما وجه النبي ﷺ أنس بن أبي مرثد رضي الله عنه إلى أعلى الشعب. وفيه أهمية توجيه من أوكلت له مهمة، وإن كان ذلك متقرر عنده، فقد قال له ﷺ (ولا نُغَرَّنَّ من قبلك الليلة) ومن فوائد هذا الحديث أهمية

(١) أبو الطيب أبادي، عون المعبود (١٧٩/٧)

(٢) التثويب هنا: إقامة الصلاة. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٢٦/١)

(٣) أبو داود (٢٢.٢٠/٣) برقم (٢٥٠١)

ركعتي سنة الفجر؛ حيث صلاها عليه الصلاة والسلام وهو في ذلك الموقف (فركع ركعتين) حتى أنه يلتفت إلى الشعب وهو في صلاة الصبح. مما يدل على أهمية المحافظة على هاتين الركعتين. ويستفاد أيضاً أنه لا بأس بالالتفات في الصلاة إن كان لخوف ونحوه.

والالتفات في الصلاة مكروه إلا لحاجة، وقد جاءت الأحايث تنهى عن ذلك.[١]

ثم يقول راوي الحديث (...حتى إذا قضى صلاته وسلم، قال: أبشروا فقد جاءكم فارسكم. فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ فسلم، فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب؛ حيث أمرني رسول الله ﷺ فلما أصبحت اطَّلعتُ الشعبين كليهما، فنظرت فلم أر أحداً، فقال له رسول الله ﷺ : هل نزلت الليلة ؟ قال: لا، إلا مصلياً أو قاضياً حاجة، فقال له رسول الله ﷺ : قد أوجَبت فلا عليك أن لاتعمل بعدها.)[٢]

وفي الحديث من الفوائد: طيب خُلُقه ﷺ حيث يبشر أصحابه بقدوم الفارس. وهذا يبين أهمية البشارة بالخير، وفي سؤاله وتلفته ﷺ ما يدل على مسؤولية القيادة، وأهمية استشعارها ببذل أقصى الجهد. وفي الحديث عناية الصحابة بصلاة الليل، حتى عند من كان في الحراسة، وفيه كذلك بيان الفضيلة العظيمة لحراسة الجيش، حتى قال له ﷺ (قد أوجَبت؛ فلا عليك أن لاتعمل بعدها.) قال أبو الطيب أبادي: أي عملت عملاً يوجب لك الجنة.[٣] وفيه كذلك الثناء في الوجه لمن قام بعمل جليل، إذا لم يخش عليه فتنة.

---

[١] عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع، (٢/٨٧-٨٨)

[٢] أبو داود (٣/٢٠-٢٢) برقم (٢٥٠١)

[٣] أبو الطيب أبادي، عون المعبود (٧/١٨١)

ولقد كان عدد جيش المسلمين كبير في هذه المعركة. فقال رجل يوم حنين: لن نُغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي ﷺ [١] فقص عليه الصلاة والسلام لأصحابه قصة نبي أعجبتهم كثرتهم، فعن صهيب (أن رسول الله ﷺ كان أيام حنين يحرك شفتيه بعد صلاة الفجر بشيء لم نكن نراه يفعله، فقلنا: يا رسول الله ! إنا نراك تفعل شيئاً لم تكن تفعله، فما هذا الذي تحرك شفتيك ؟ قال: إن نبياً فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة أمته، فقال: لن يروم هؤلاء شيء. فأوحى الله إليه أن خَيّر أمتك بين إحدى ثلاث: إما أن نسلط عليهم عدواً من غيرهم فيستبيحهم، أو الجوع، وإما أن أرسل عليهم الموت، فشاورهم، فقالوا أما العدو فلا طاقة لنا بهم، وأما الجوع فلا صبر لنا عليه، ولكن الموت. فأرسل عليهم الموت، فمات منهم في ثلاثة أيام سبعون ألفاً. قال رسول الله ﷺ فأنا أقول: الآن حيث رأى كثرتهم: اللهم بك أحاول، وبك أصاول، وبك أقاتل)[٢]

وفي هذا الحديث التحذير من أن يغتر المسلم بقوته، أو بماله في تحقيق مطالبه، أو بقوة أعوانه ووسطائه في قضاء حوائجه، أو بقدرته العقلية وملكاته العلمية في النجاح والتقدم، وأن لا يُعجب بما عنده من الخير والقوة وسُبُل تحقيق الأهداف. بل يعلم أنه لا تُغني عنه قوته شيئاً؛ مهما كبرت وكثرت، فلا حول ولا قوة لكل مخلوق إلا بالله. وبالمقابل لا يَضْعُف ولا يحزن لقلة الأسباب أو ضعفها؛ فلا حول له ولا قوة إلا بالله. وفيه من الفوائد أن الله يحب من يعتمد عليه لا على ما به من قوة ونعمة، وأن الله يُبغض من يغتر بالأسباب وينخدع بها. وفيه كذلك فضل: لا حول ولا قوة إلا بالله. التي دلت عليها الألفاظ الأخرى

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٢٧/٨)

(٢) أحمد، المسند (٣٣٣/٤) وقال محققوا المسند طبعة الموسوعة الحديثية، شعيب الأرنؤوط وآخرون: اسناده صحيح على شرط مسلم (٢٦٣.٢٦٢/٣١)

التي استخدمها ﷺ وهي (: اللهم بك أحاول، وبك أصاول،[1] وبك أقاتل) وفيه كذلك فضل هذا الدعاء.

وفي هذا البيان النبوي الكريم من الفوائد، استخدام القصة الصحيحة كوسيلة للبيان والموعظة والدرس، بما يُغني عن النهي المباشر.

وأما عن سير المعركة، فيقول أنس بن مالك ﷺ (افتتحنا مكة. ثم إنا غزونا حنينا. فجاء المشركون بأحسن صفوف رأيت. قال: فصُفَّت الخيل، ثم صُفَّت المقاتلة، ثم صُفَّت النساء من وراء ذلك، ثم صُفَّت الغنم، ثم صُفَّت النَّعَم...)[2] وفي هذا بيان لِحُسن استعداد العدو، وفيه كذلك العدل في الوصف؛ والمدح والبيان؛ حتى ولو كان في حق العدو. فكيف إذا كان في حق المسلم، فإنه أوجب.

وهذا الوصف يعطي المنهجية الإسلامية في وصف الحدث، بأن يكون صادقاً، وأن يكون الواصف عادلاً؛ فلا يغمط الناس حقوقها من الحسن أو الإبداع. وإذا كان هذا في حق العدو فإنه يتحقق لزوماً في حق المسلم، بأن لا تُغمط خصائصه ومميزاته ومنجزاته وإبداعاته، حتى وإن كان في النفس عليه شيء.

عن أبي إسحاق، قال سمعت البراء (...وإنَّا لَمَّا حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام...)[3]

وهذه الرواية تَدُل على سير المعركة عند بدايتها، بأنه حصل بين المسلمين وعدوهم قتال، فانكشف العدو فأكب المسلمون على الغنائم، فَكَرَّ عليهم العدو بالسهام.

---

(1) أصاول. وفي رواية (أصول) أي أسطو وأقهر. والصولة: الحملة والوثبة. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٦١/٣)

(2) مسلم (٧٣٦/٢) برقم (١٣٦.١٠٥٩)

(3) مسلم (١٤٠١/٣) برقم (٨٠ ـ١٧٧٦)

وعن جابر بن عبد الله قال: (لما استقبلنا وادي حنين: انحدرنا في واد من أودية تهامة، أجوف حَطوط، إنما ننحدر فيه انحداراً، قال: وفي عماية الصبح، وقد كان القوم كَمَنُوا لنا في شعابه وفي أحنائه، ومضايقه، قد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا، قال: فوالله ما راعنا ونحن منحطُّون إلا الكتائب قد شدت علينا شَدَّة رجلٍ واحد، وانهزم الناس راجعين، فاستمروا لا يلوي أحد منهم على أحد...)[١]

وفي هذا الوصف ما يدل على تضافر بعض الأمور التي أدت إلى انتصار العدو أول المعركة، منها تفرق العدو في الشعاب ومنعطفاته ومضايقه؛ واختفاؤهم فيها، وهو معنى (كمنوا لنا) وكذلك تهيؤهم لذلك الأمر. وفي نفس الوقت كان نزول المسلمين مع الوادي؛ وهو (أجوف) أي واسع كبير، (وحَطوط) أي فيه نزول وتَسَفُّل، فهذا جعلهم ينحدرون فيه انحدارا، وفي (عماية الصبح) أي بقيت فيه ظلمة من الليل.

وهنا تفاجأ المسلمون بكتائب عدوهم، قد شدت عليهم شدة رجل واحد، إضافة إلى أن بعض المسلمين لم يكن متهيئاً بالسلاح، فعن البراء ﵁ (...ولكنه خرج شبان أصحابِهِ وخِفَافُهُم حُسْراً ليس بسلاح، فأتوا قوماً رماة...)[٢] وانهزم الناس، حتى أنه لا يلوي أحدٌ على أحد.

ومزيد من التفصيل فيما رواه أنس ﵁ (...وعلى مجنبة خيلنا خالد بن الوليد، فجعلت خيلنا تلوي خلف ظهورنا، فلم نلبث أن انكشفت خيلنا، وفرت الأعراب، ومن نعلم من الناس..)[٣]

---

(١) أحمد، المسند (٣/٣٧٦،٣٧٧). وقال محققوا طبعة الموسوعة الحديثية، شُعيب الأرنؤوط وآخرون: إسناده حسن (٢٣/٢٧٥) برقم (١٥٠٢٧)

(٢) البخاري (٢/٣٤٠) برقم (٢٩٣٠)

(٣) مسلم (٢/٧٣٦،٧٣٧) برقم (١٣٦،١٠٥٩)

فلئن كانت تلك المحاور التخطيطية؛ وانكباب بعض المسلمين على الغنائم؛ والمفاجأة من العدو بالكمين لهم؛ كانت سبباً مادياً، لتظهر سنن الله تعالى الكونية والاجتماعية، فإن هناك ثمة سبباً آخر؛ هو أقوى من كل تلك الأسباب، قد بينه الله تعالى، ليتعلم المؤمنون منه درساً عظيماً عبر تاريخهم الطويل الذي سيمتد بهم حتى قيام الساعة؛ بإذن الله تعالى. قال تعالى ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[١]

يَذْكُرُ اللهُ تعالى للمؤمنين فضلَه عليهم وإحسانَه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة؛ من غزواتهم مع رسوله ﷺ وأن ذلك من عنده تعالى؛ وبتأييده وتقديره؛ لا بعددهم ولا بعدتهم، وأن النصر من عنده سبحانه وتعالى؛ سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً، فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين الذين معه.[٢]

وفي خضم ذلك يبرز موقف لامرأة من المسلمين؛ هي أُمُّ سُلَيْم. فعن أنس رضي الله عنه (أن أُمَّ سُلَيْمٍ اتخذت يوم حنين خنجراً، فكان معها. فرآها أبو طلحة. فقال يا رسول الله ! هذه أُمُّ سُلَيْمٍ معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ : ما هذا الخنجر ؟ قالت: اتخذته إن دنا مِنّي أحدٌ من المشركين بقرت به بطنه. فجعل رسول الله ﷺ يضحك. قالت: يا رسول الله ! أقتل مَنْ بعدَنا من الطلقاء، انهزموا بك. فقال رسول الله ﷺ : يا أُمَّ سُلَيْمٍ ! إن الله قد كفى وأحسن)[٣]

---

(١) سورة التوبة: آية رقم (٢٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٥٦،٣٥٧)

(٣) مسلم (٣/١٤٤٢،١٤٤٣) برقم (١٨٠٩)

قال الإمام النووي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ :وفي هذا: الغزو بالنساء وهو مُجْمَع عليه... والطلقاء هم الذين أسلموا من أهل مكة يوم الفتح، سموا بذلك لأن النبي ﷺ مَنَّ عليهم وأطلقهم، وكان في إسلامهم ضعف، فاعتقدت أم سُلَيْم أنهم منافقون، وأنهم استحقوا القتل بانهزامهم وغيرهم؛ وقولها من بعدنا أي من سوانا.[1]

وفي هذا دليل على شجاعة أم سليم رضي الله تعالى عنها. وكذلك فيه بيان أن من أسباب هزيمة المسلمين تصرف الطلقاء بانهزامهم. إذ تقول (أَقْتُلُ مَنْ بعدَنا من الطلقاء، انهزموا بك) وفيه كذلك إخبار المرؤوس للقائد بما يراه. وفيه من الفوائد أهمية السؤال عن العلة قبل اتخاذ الحكم من قوله ﷺ لأم سليم (ما هذا الخنجر ؟) وفيه كذلك كريم خُلُقه ﷺ حيث ابتسم لأم سُلَيْم لصنيعها وتعليلها، مما يؤكد أهمية الابتسامة حتى في أحلك الأوقات. وفيه كذلك عدم التعنيف وتسليط الكلام على ما حدث من أخطاء؛ حيث اكتفى رسول الله ﷺ لأم سُلَيْم بقوله (إن الله قد كفى وأحسن) وفي هذا بيان الاكتفاء بنصر الله وإحسانه، والاستغناء عن العتاب والتأنيب. وفيه إسدال النصر والإحسان إلى الله تعالى، المتفضل بالنصر والإنعام. ومن فوائد إجابته ﷺ تعليم المتعلم بجماع اللفظ ودلالاته الغزيرة. وأنه ﷺ قد أعطي جوامع الكلم.

وأما ما كان من حال رسول الله ﷺ فيقول أنس ﷺ (...ومع النبي يومئذ عشرة آلاف، ومعه الطلقاء، فأدبروا عنه. حتى بقي وحده...)[2]

فالنبي محمد ﷺ لم يتراجع؛ وبقي عليه الصلاة والسلام مِقْدَامَاً شجاعاً واثقاً بربه سبحانه وتعالى، مُقَدِّماً للأمة الأنموذج القيادي الفريد. يذكر ابن حجر في جمعه بين الروايات: (حتى بقي وحده) وبين الأخبار الدالة على أنه بقي معه جماعة، بأن المراد؛ بقي

---

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٨٨)

(٢) مسلم (٢/٧٣٥،٧٣٦) برقم (١٣٥،١٠٥٩)

وحده متقدماً مقبلاً على العدو، والذين ثبتوا معه كانوا وراءه.[1] فعن جابر بن عبد الله (...فانطلق الناس، إلا أن مع رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته غير كثير، ثبت معه ﷺ أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وابنه الفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وربيعة بن الحارث، وأيمن بن عبيد؛ وهو ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد...)[2]

وعن كثير بن عباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال عباس: (شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين؛ فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسولَ الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، أهداها له فروة بن نُفاثَة الجُذَامِيُّ. فلما التقى المسلمون والكفار، ولَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار، قال عباس، وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة ألا تُسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ ...)[3]

وفي هذا المشهد البطولي من رسول الله ﷺ يبين شجاعته التي ليس لها نظير، وبسالته وثقته بربه وبنصره وتأييده؛ وقوة إيمانه التي جعلته يتقدم صوب العدو ببغلته البيضاء، وليست البغلة كالفرس في الحرب، وبالرغم من ذلك يتقدم بها مسرعاً؛ حتى أن العباس رضي الله عنه يقول (وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة ألا تُسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ) ويمكن الجمع بأن أبا سفيان آخذٌ أولاً بزمامها؛ فلما ركضها النبي ﷺ إلى جهة المشركين خشي العباس فأخذ بلجام البغلة يكفها، وأخذ أبو سفيان الركاب وترك اللجام للعباس إجلالاً له؛ لأنه كان عمه. بل ومن شجاعته ﷺ أن الصحابة يلوذون به إذ اشتدت

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٢٩/٨)

(2) أحمد، المسند (٣٧٧،٣٧٦/٣)

(3) مسلم (١٣٩٩،١٣٩٨/٣) برقم (١٧٧٥)

الحرب[1]قال (... البراء: كنا والله ! إذا احْمَرَّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به. يعني النبي ﷺ)[2]

وهذا الوصف غاية في شجاعته ﷺ وقوته التي لا يجاريه فيها أحد من الشجعان أبداً، وأن غاية الشجاع من الصحابة الذي يحاذيه وهو متق به ﷺ. مما يفيد أن الذي يُقتدى به؛ يلزمه مزيد قدوة لغيره، حسب الموطن الذي هو فيه. وهذا مبدأ قيادي وإداري وتربوي ودعوي، في غاية الأهمية لميدان النجاح العملي.

وقوله (بغلته) هي البغلة البيضاء، وله من حديث سلمة (وكان على بغلته الشهباء) ووقع عند ابن سعد وتبعه جماعة ممن صنَّف في السيرة أنه ﷺ كان على بغلته دلدل، ودلدل أهداها له المقوقس. ويحتمل أن يكون يومئذ ركب كلاً من البغلتين إن ثبت أنها كانت صحبته. وإلا فما في الصحيح أصح.[3]

قال العلماء: ركوبه ﷺ البغلة في موطن الحرب؛ وعند اشتداد الناس هو النهاية في الشجاعة والثبات، ولأنه أيضاً يكون معتمداً يرجع المسلمون إليه، وتطمئن قلوبهم به وبمكانه، وإنما فعل هذا عمداً؛ وإلا فقد كانت له ﷺ أفراس معروفة، ومما ذكره في هذا الحديث من شجاعته ﷺ تقدمه يركض بغلته إلى جمع المشركين، وقد فَرَّ الناس عنه، وفي الرواية الأخرى أنه نزل إلى الأرض حين غشوه، وهذه مبالغة في الثبات والشجاعة والصبر، وقيل فعل ذلك مواساة لمن كان نازلاً على الأرض من المسلمين. وقد أخبر الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ بشجاعته ﷺ في جميع المواطن.[4]

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٣٠/٨)

(2) مسلم (١٤٠١/٣) برقم (١٧٧٦.٧٩)

(3) ابن حجر، فتح الباري (٣١.٣٠/٨)

(4) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١١٥/١٢)

وبالتالي فإن على القائد أياً كان موقعه ومهمته أن يكون مثالاً فيما هو قائد وقدوة فيه. وأن يبذل كل ما في وسعه وقدرته من الشجاعة أو المثابرة والعمل، مع الدقة فيما يقوم به من أداء.

وفيما يخص قَبُولَه ﷺ الهدية من الكافر؛ ذكر الإمام النووي: فإن قيل في الحديث قبوله ﷺ هدية الكافر، وفي الحديث الآخر (هدايا العمال غلول) وفي حديث آخر أنه ردَّ بعض هدايا المشركين، وقال (إنا لا نقبل زبد المشركين) أي رفدهم، فكيف يُجمع بين هذه الأحاديث ؟ قال الجمهور: لا نسخ بل سبب القبول أن النبي ﷺ مخصوص بالفيء الحاصل بلا قتال؛ بخلاف غيره، فقبل النبي ﷺ ممن طمع في إسلامه وتأليفه لمصلحة يرجوها للمسلمين، وكافأ بعضهم، وردَّ هدية من لم يطمع في إسلامه، ولم يكن في قبولها مصلحة. وأما غير النبي ﷺ من العمال والولاة فلا يحل له قبولها لنفسه عند جمهور العلماء، فإن قبلها كانت فيئاً للمسلمين، فإنه لم يهدها إليه إلا لكونه إمامهم. وإن كانت من قوم هو محاصرهم فهي غنيمة. وقيل إنما قبل النبي ﷺ هدايا كفار أهل الكتاب ممن كان على النصرانية كالمقوقس وملوك الشام، فلا معارضة بينه وبين قوله ﷺ (لا نقبل زبد المشركين) وقد أبيح لنا ذبائح أهل الكتاب ومناكحتهم بخلاف المشركين عبدة الأوثان.[1]

ثم بعد هذه الشجاعة والإقدام منه ﷺ يقول عباس رضي الله عنه (...فقال رسول الله ﷺ: أي عباس ! ناد أصحاب السَّمُرَةِ. فقال عباس: . وكان رجلاً صيتاً . فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرَةِ ؟ قال: فوالله ! لكأن عَطْفَتَهُمْ حين سمعوا صوتي عَطْفَةُ البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك ! يا لبيك ! قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار، يقولون: يا معشر

---

[1] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١١٤/١٢)

الأنصار ! يا معشر الأنصار ! قال: ثم قُصِرَتِ الدّعوة على بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج ! يا بني الحارث بن الخزرج !...)[١]

وفي تعيين العباس بذلك ما يفيد أهمية الاستفادة من خصائص الأعوان، فقد كان ﷺ صيتاً : قال الإمام النووي: ذكر الحازمي في المؤتلف: كان يقف على سلع فينادي غلمانه في آخر الليل؛ وهم في الغابة؛ فَيُسْمِعُهُم. قال وبين سلع والغابة ثمانية أميال.[٢]

وأهل السَّمُرَة هم أهل بيعة الرضوان يوم الحديبية، وهي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان.[٣] وفي انعطافهم بتلك الصورة والمثال المذكور من عباس ﷺ ما يفيد سرعة استجابتهم، وقربهم من رسول الله ﷺ وأنهم لم يفروا عنه ببعيد، وفيه كذلك مكانتهم العالية إذ بدأ النداء بهم.

ومن فوائد هذا الحديث حُسن التصوير اللفظي من عباس ﷺ وأهمية البيان والفصاحة الموجزة في الوصف الذي يغني عن كثرة الكلام.

قال العلماء : في هذا الحديث دليل على أن فرارهم لم يكن بعيداً، وأنه لم يحصل الفرار من جميعهم.[٤]

ومن ثم المناداة بالأنصار، وهم داخلون في أهل بيعة الرضوان، ولعله من التخصيص بعد ذكر العام للأهمية والعناية . والله تعالى أعلم. وفي ذلك من الفوائد أهمية الوصف الجميل والتذكير بالفعل العظيم عند المناداة، وذلك من قوله ﷺ (ناد أصحاب السَّمُرَةِ) وفيه أهمية

---

(١) مسلم (١٣٩٨/٣-١٣٩٩) برقم (١٧٧٥)

(٢) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١١٥/١٢)

(٣) المرجع السابق (١١٥/١٢)

(٤) المرجع السابق (١١١٥/١٢)

الألقاب الطيبة والمناداة بها، وأثرها الحميد؛ لما ارتبطت به من المعاني أو الدلالات العظيمة أو الجميلة.

وقد كان من شدة وسرعة انعطافهم إلى رسول الله ﷺ أن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع؛ لبس درعه ثم انحدر عنه؛ وأرسله؛ ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ[1]

وفي صورة أخرى يرويها أبن إسحاق رحمه الله تعالى؛ قال (جاء رجل إلى البراء، فقال: أكنتم وليتم يوم حنين ؟ يا أبا عمارة ! قال: أشهد على نبي الله ﷺ ما وَلَّى، ولكنه انطلق أخِفَّاءُ من الناس، وَحُسَّرٌ إلى هذا الحي من هوازن، وهم قوم رماة، فرموهم برشق من نَبْلٍ كأنها رِجْلٌ من جراد، فانكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته، فَنَزَل وَدَعَا، واستنصر، وهو يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، اللهم نَزِّل نصرك...)[2]

وقد تضمن جواب البراء إثبات الفرار لهم، لكن لا على طريق التعميم.[3] وهذا من بديع الأدب؛ لأن تقدير الكلام: فررتم كلكم؛ فيقتضي أن النبي ﷺ وافقهم في ذلك، فقال البراء: لا والله ما فَرَّ رسول الله ﷺ ولكن جماعة من الصحابة جرى لهم كذا وكذا.[4]

وفي هذا من الفوائد حُسْنُ الجواب بما يقتضي المقام، والاستثناء بما يقتضي واقع الحال. وقوله (أخفاء) جمع خفيف، وهم المسارعون المستعجلون، وأما قوله (حُسَّراً) أي بغير دروع.[5]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٧/٢)

(٢) مسلم (١٤٠١/٣) برقم (١٧٧٦،٧٩)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٢٨/٨)

(٤) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١١٧/١٢)

(٥) المرجع السابق (١١٧/١٢-١١٨)

وفيه من الفوائد أيضاً: أهمية احتواء المناهج التعليمية على نماذج من حُسن الجواب اللفظي، وبيان أهميته، وممارسة تطبيقه، لما في ذلك من بديع الجواب وحُسنه وأدبه الذي يتوافق مع أخلاقيات ديننا العظيم.

وقوله ﷺ (أنا النبي لا كذب) فيه إشارة إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب، فكأنه قال: أنا النبي، والنبي لا يكذب، فلست بكاذب فيما أقول حتى أنهزم، وأنا متيقنٌ بأن الذي وعدني الله به من النصر حق، فلا يجوز عليَّ الفرار.[1]

وأما نسبته إلى عبد المطلب دون أبيه عبد الله، فكأنها لشهرة عبد المطلب بين الناس، لما رُزِق من نباهة الذكر وطول العمر، بخلاف عبد الله فإنه مات شاباً، ولهذا كان كثير من العرب يدعونه ابن عبد المطلب. وفيه جواز الانتساب إلى الآباء ولو ماتوا في الجاهلية. والنهي عن ذلك محمول على ما هو خارج الحرب، ومثله الرخصة في الخيلاء في الحرب دون غيرها، وجواز التعرض إلى الهلاك في سبيل الله.[2]

وفي نزوله ﷺ ودعائه واستنصاره استحباب الدعاء عند قيام الحرب.[3]

ثم هذا مزيد تفصيل للعباس رضي الله عنه (... فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته، كالمتطاول عليها إلى قتالهم. فقال رسول الله ﷺ : هذا حين حَمِيَ الوطيس. قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال : انْهَزَمُوا ورب محمد !. قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى. قال: فوالله ! ما هو إلا أن رماهم بحصياته؛ فما زلت أرى حدَّهم كليلاً، وَأَمْرَهُم مُدْبِراً)[4]

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٣١/٨)

(2) المرجع السابق (٣٢.٣١/٨)

(3) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١١٨/١٢)

(4) مسلم (١٣٩٩.١٣٩٨/٣) برقم (١٧٧٥)

فيبين هذا المقطع من الحديث مزيداً من شجاعته ﷺ وإقدامه، فقد كان كالمتطاول على بغلته لقتالهم، والتطاول التَمَدُّد إلى الشيء ينظر نحوه.[١]

وقوله ﷺ (هذا حين حمى الوطيس) قال الأكثرون: هو شبه التَّنور، يُسجر فيه، ويضرب مثلاً لشدة الحرب التي يُشْبِه حرَّها حَرُّه. وهذه اللفظة من فصيح الكلام وبديعه؛ الذي لم يُسمع من أحد قبل رسول الله ﷺ.[٢]

(...ثم قبض قبضة من تراب من الأرض؛ ثم استقبل به وجوههم، فقال: شاهت الوجوه. فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة. فَوَلَّوا مدبرين، فهزمهم الله عزَّ وجلَّ. وقَسَمَ رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين.)[٣]

وفي هذا الحديث والذي قبله معجزات له ﷺ الأولى : الإخبار بانهزامهم، والثانية: أن قبضة من التراب قد أحدثت أثراً فاعلاً في أعينهم، كما جاء في الحديث (فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة) والمعجزة الثالثة: ما حصل للعدو من آثار ظاهرة عليهم، من أن حدهم كان كليلاً، أي أن قوتهم كانت ضعيفة، ويشاهد ذلك الصحابة، فيرونه بأعينهم، وبالتالي عرف الصحابي راوي الحديث أن أمرهم مُدْبِرَا. فولوا مدبرين، قد هزمهم الله تعالى بمنه وفضله وجوده وكرمه سبحانه وتعالى.

وفي هذا بيان أهمية التوكل على الله تعالى، والأخذ بالأسباب، والعلم اليقيني بأن النصر في كل أمر لا يكون إلا بالله، وفيه كذلك أهمية التعلق بالله تعالى لا بالأسباب، وإنما يؤخذ بها دون التعلُّق بها. فترك الأسباب قدح في التشريع، والاعتماد على الأسباب قدح في التوحيد.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب (٤١٢/١١)

(٢) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١١٦/١٢)

(٣) مسلم (١٤٠٢/٣) برقم (١٧٧٧)

وفيه من الفوائد، أن العبد المسلم الموحد لا يقيس التفعيل بكثرة الأسباب وقوتها، بل بقوة خالق الأسباب وإرادته. وفيه كذلك أهمية التربية الإيمانية، لما تُحدثه من قوة قلبية؛ يتحقق بها الفوز والنجاح والقوة في الإقدام، والطمأنينة والاستقرار؛ بإذن الله تعالى وتوفيقه وكرمه وجوده.

وما حصل من اطمئنان نفسي عند رسول الله ﷺ وعند المؤمنين؛ كان بفضل من الله تعالى؛ وامتنان منه عَزَّ وجلَّ، قال تبارك وتعالى :

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾(1)

وفي الآية الأولى ما يفيد أن طمأنينة النفس وسكينتها، والإقدام رزق وهبة من الله تعالى، يلزم المؤمن أن يطلبها مِنْ مُعْطِيْهَا ورازِقِها؛ آخذاً بالأسباب المحققة لها؛ والجالبة لمقتضاها؛ من الطاعة والدعاء والتوكل عليه سبحانه وتعالى. وفيها كذلك أن جنود الله كثير، لا يعرف حدودهم أحد، ولا يدرك كنه قوتهم أحد، تتنزل بين عباده. إذ قد لا يراها أحد، فينصر الله تعالى بها من شاء من المؤمنين؛ ويعذب بها من يشاء، ويهزم بها أعداء الدين.

وفي هذا من الفوائد: أهمية التوكل على رب البرية، واستنزال النصر والعون والمدد منه جلَّ جلاله؛ بالطاعة والدعاء والثقة به سبحانه وتعالى، كما ترجم ذلك رسول الله ﷺ قولاً وعملاً، فحقق الله سبحانه وتعالى له وللمؤمنين معه من السكينة والنصر والتأييد والجند ما كسر له قوة عدوه الضارية، وجعلهم غنيمة للمسلمين كما قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه

(1) سورة التوبة: الآيتان رقم (٢٦، ٢٧)

(...فوالله ما رَجَعَتْ رَاجِعَةُ الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى مُكَتَّفِين عند رسول الله ﷺ)[1]

تعقب المسلمين للفارين بأوطاس والنخلة:

وبعد انتصار المسلمين في حنين أمر رسول الله ﷺ بتعقبهم، قال ابن إسحاق: ولما انهزم المشركون أتَوا الطائف؛ ومعهم مالك بن عوف، وعسكر بعضهم بأوطاس، وتوجه بعضهم نحو نخلة. وتبعت خيل رسول الله ﷺ من سلك في نخلة من الناس، ولم تتبع من سلك الثنايا.[2]

وعن أبي بُردةَ عن أبي موسى رضي الله عنه (لما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقيَ دُرَيدَ بن الصِّمَّة، فَقُتِل دُريد، وهزم الله أصحابه. قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فَرُمِيَ أبو عامر في ركبته. رماه جُشَمُّى بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيت إليه فقلت: يا عمَّ من رماك ؟ فأشار إلى أبي موسى، فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فَقَصَدتُ له، فَلَحِقتُه، فلما رآني ولَّى، فأتبعتُه؛ وجعلت أقول له: ألا تستحي ! ألا تثبت ! فكفَّ. فاختلفنا ضربتين بالسيف، فقتلته...)[3]

وفي هذا المقطع من هذا الحديث؛ يتبين ملاحقة النبي ﷺ لهوازن، مما يدلل على الانتصار الساحق للمسلمين، حتى هربت هوازن ومن معها إلى نخلة وأوطاس، وهو واد في ديار هوازن، وهناك عسكروا هم وثقيف؛ ثم التقوا بحنين.[4] ويفيد هذا التعقب من المسلمين؛

---

(1) أحمد، المسند (٣/٣٧٦-٣٧٧)

(2) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٩٥)

(3) البخاري (٣/١٥٦-١٥٧) برقم (٤٣٢٣)

(4) ابن حجر، فتح الباري (٨/٤٢)

أهمية إظهار القوة لكسر شوكة العدو، لما في ذلك من المصلحة. ويبين هذا الحديث كذلك انهزام العدو في هذه المعركة.

وقد قُتِل منهم ثلاثمائة، وأن الذي قتل دريد بن الصمة هو الزبير بن العوام ﷺ وأن دريداً عندما رأى الزبير قال خلّوه لي، فقال: هذا الزبير بن العوام، وهو قاتلكم ومخرجكم من مكانكم هذا.[١]

وفي كلام دريد ما يدل على شجاعة وإقدام الزبير بن العوام ﷺ وأنه معروف ومشهود له بذلك.

وأما الصحابي الجليل؛ أبو عامر ﷺ فهو عبيد بن سليم بن حضار الأشعري، وهو عم أبي موسى.[٢] وفي سؤال أبي موسى لعمه أبي عامر عمن قتله ما يفيد أهمية العناية والمواساة للعم حتى في أرض المعركة. ثم يتبين شجاعة أبي موسى حيث تعقب الرجل، وقد تولى واستوقفه باستثارة بواعث الحياء من الهرب، فتقاتلا حتى أظفره الله تعالى بعدوه فقتل الجُشَمي.

و الجُشَمّي نسبة إلى بني جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن.[٣]

ثم يقول أبو موسى ﷺ (... ثم قلت لأبي عامر: قَتَل الله صاحبك. قال: فانزع هذا السهم، فنزعته؛ فنزل منه الماء. قال: يا ابن أخي، أقرئ النبي ﷺ السلام، وقل له: استغفر لي. واستخلفني أبو عامر على الناس. فمكث يسيراً ثم مات. فرجعتُ فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مُرمَلٍ، وعليه فراش؛ قد أثَّرَ رمالُ السرير بظهره وجنبيه. فأخبرته بخبرِنا؛ وخبر أبي عامر، وقال: قل له يستغفر لي، فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه فقال: اللهم

(١) المرجع السابق (٤٢/٨) وقال رواه البزار في مسند أنس بإسناد حسن.

(٢) المرجع السابق (٤٢/٨)

(٣) المرجع السابق (٤٢/٨)

اغفر لعُبيد أبي عامر، ورأيت بياض إبطيه. ثم قال: اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس. فقلت: ولي فاستغفر. فقال: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مُدْخَلاً كريماً. قال أبو بُردة: إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى.)[١]

وفي الحديث زُهْدُ رسولِ الله ﷺ حيث كان (على سرير مُرمَلٍ) أي معمول بالرمال، وهي حبال الحصير التي تُضفَّر بها الأسرة.[٢] وعليه فراش، ولكن الفراش لم يكن وثيراً يمنع تأثير حبال السرير على الجسم، فأثر ذلك على ظهره وجنبيه ﷺ

وفي الحديث استحباب الوضوء عند الدعاء، ورفع اليدين كذلك، وقد ظهر بياض إبطيه ﷺ كما جاء في الحديث (ورأيت بياض إبطيه). وفيه الاستجابة للوصية، ورفع الصوت بالدعاء، وطلب الدعاء من الفاضل للمفضول، وفيه كذلك حرص الصحابة على دعاء النبي ﷺ لهم، كما حَرِصَ أبو عامر؛ ثم حَرِصَ أبو موسى رضي الله تعالى عنهم على ذلك. وفيه كذلك كرم النبي ﷺ حيث زاد في الدعاء عن ما طُلب منه، سواء لأبي عامر أو لأبي موسى. ومن فوائده تطييب خاطر المقتول قبل وفاته بقتل قاتله الكافر ما أمكن ذلك؛ ويقاس عليه الاجتهاد في تطييب خاطر من حاله مدبر عن الدنيا؛ مقبل على الآخرة؛ كالمريض.

وقد أسفرت هزيمة عدوهم عن مقتل سبعين من بني مالك من ثقيف، وقُتِلَ من الأحلاف من ثقيف رجلين.[٣] وقُتِل بأوطاس ثلاثمائة كما سبق بيانه. وقُتِل آخرون.

وأما من المسلمين فقد استشهد أربعة، وهم: أيمن بن عبيد، ويزيد بن زَمْعَة بن الأسود، وسراقة بن الحارث، وأبو عامر الأشعري.[٤]

---

(١) البخاري (٣/١٥٦-١٥٧) برقم (٤٣٢٣)

(٢) وفي لسان العرب: وقد رمل سريره وأرمله إذا رمل شريطاً أو غيره فجعله ظهراً له. (١١/٢٩٥) ابن حجر، فتح الباري (٨/٤٣)

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٩٢)

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/١٠١)

وكان السبي ستة آلاف، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة.[١]

ومن أحداث هذه الغزوة أنه روي أن الشيماء بنت الحارث ممن وقع في الأسر، فقالت لرسول الله ﷺ إني أختك من الرضاعة، فبسط لها رسول الله ﷺ رداءه، فأجلسها عليه. وخيرها ﷺ بين البقاء معه أو أن تلحق بقومها، فقالت تمتعني وتردني إلى قومي، فمتعها رسول الله ﷺ وردها إلى قومها.[٢]

ويستفاد من هذه الرواية كريم خُلُقه ﷺ وعنايته وحفاوته بصلة الرحم. مما يؤكد أهمية الأخوة من الرضاعة ومنزلتها، وما ينبغي من إكرام لها.

ومن أحداث هذه الغزوة أيضاً ما رواه أبو الطفيل رضي الله عنه قال (رأيت رسول الله ﷺ بالجعرانة، فجاءته امرأة وأنا يومئذ غلام، فلما دنت من رسول الله ﷺ بسط لها رداءه، فجلست عليه، فقلت: من هذه ؟ قالوا: أمه التي أرضعته)[٣]

ويستفاد من هذه الرواية كريم خُلُقه ﷺ وعنايته وتقديره لأمه التي أرضعته، حتى بسط لها رداءه ﷺ مما يبين أهمية إكرام الأم للرضاعة والحفاوة بها. وفيه كذلك فطنة واهتمام الصحابي أبي الطفيل رضي الله عنه حيث سأل عن تلك المرأة وهو صغير؛ لِمَا رأى من حفاوة الرسول ﷺ بها. وفي هذا دليل على العناية التربوية لذلك الجيل حتى جعلته يفطن لهذا الأمر.

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٥٢/٢)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١٠١/٤)

(٣) الحاكم، المستدرك (١٦٤/٤) وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه.

غزوة الطائف :

بعد تعقب الفارين في نخلة وأوطاس توجه رسول الله ﷺ إلى الطائف، فسلك على نخلة اليمانية، ثم على قرن، ثم على المليح، ثم على بُحْرَة الرغاء من لية، فابتنى مسجداً فصلى فيه.[١] ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريباً من الطائف، فاقترب العسكر من حائط الطائف، فَقُتِل به ناس من الصحابة بالنَّبل، ولم يتمكن المسلمون من دخول الحصن، فلما أصيب أولئك النفر من الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ بالنبل، وضع عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم، فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة، ويقال: سبع عشرة ليلة.[٢]

ويُستفاد من ذلك المشهد عنايته ﷺ بالمسجد لإقامة ذكر الله تعالى، مما يفيد الأهمية العظمى للصلاة التي من أجلها تُتخذ المساجد، إضافة إلى أهمية أدائها مع الجماعة التي ما اتُّخِذَ المسجدُ إلا من أجل أن تقام الجماعة.

وفي هذا المشهد من الفوائد أهمية الصبر على أداء المهام العملية، سواء أكانت جهادية أم إدارية. وأن ما يريده ويرغبه المسلم لا يأتي إليه في كل حين على بساط من السهولة والدعة، بل لا بد من حدوث العناء والمشقة، فها هو رسول الله ﷺ وصحابته الكرام يُحَاصِرُون الطائف فلا ينالونها، ويُستشهد منهم اثنا عشر رجلاًً.[٣] بِنَبْلِ العدو.

وبالرغم مما لقي المسلمون من تعند ثقيف ورشقها للمسلمين بالسهام، حتى استشهد منهم اثنا عشر صحابياً، إلا أن رسول الله ﷺ كان يطمع في إسلامهم، وهم الذين طردوه من الطائف؛ عندما جاءهم داعياً، بعد أن رغبت قريش عن دعوته، فَيُقَال له في هذا الحصار أدع عليهم يا رسول الله ! فيقول عليه الصلاة والسلام؛ كما جاء في الحديث الذي رواه جابر

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (١٢٤/٤)

[٢] المرجع السابق (١٢٥/٤)

[٣] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٥٨/٢)

(قالوا: يا رسول الله أَحْرَقَتْنَا نِبَالُ ثقيف فادع الله عليهم. قال: اللهم اهد ثقيفاً)[1] فيدل هذا الحديث على سمو خُلُقه ﷺ وعلو فضله، وطيبة قلبه، وكرمه وجوده وعفوه، ونزاهته من الحقد والضغينة؛ عليه أفضل الصلاة والسلام. مما يلزم المسلم الاقتداء والتأسي بهذا الخُلُق النبوي العظيم.

ويفيد كذلك هذا الصنيع النبوي الكريم أن الهدف الذي يرجوه ﷺ من كل أحد؛ وحتى من أَلَدِّ أعدائه هو الدخول في الإسلام، ليحقق مراد ربه سبحانه وتعالى، ويؤدي واجب الرسالة الذي كان فيها حقاً أميناً أميناً ﷺ وفيه من الفوائد كذلك منزلة ثقيف ومكانتها، وما تميزت به. مما يدل على أن يحرص المسلم على من يتوخى فيهم الخير، لطيب معدنهم، أو لميزة يستفيد وينتفع بها الإسلام والمسلمون. وأن يدعو لهم بالهداية؛ حتى ولو كانوا كفاراً؛ كما دعا عليه الصلاة والسلام لثقيف (اللهم اهد ثقيفاً) . وفيه من الفوائد أن على الداعية؛ بل وعلى كل مسلم أن لا يجعل الحقد والبغضاء مانعان له عن الخير أثناء الدعوة أو الجهاد، فيمنعانه ويُغيبان عنه الهدف الدعوي الذي هو إخراج الناس من الكفر إلى الإسلام.

وفيه من الفوائد أن سلامة الهدف يحقق سلامة الفكر وبعد النظر. وفيه كذلك أهمية ممارسة العملية التربوية في كل لحظة من لحظات الحياة، ليتعلم بالقدوة والأسوة من يحيطون به. وفيه كذلك أن على القائد أن يكون بعيد النظر، يحسب ويقدر الأشياء والتبعات، ويدرك أن الْمُصَابَ قد يطلب ما يعزِّيه في مصابه. حيث قالوا للنبي ﷺ (يا رسول الله أحرقتنا نِبَالُ ثقيف فادع الله عليهم.)

---

[1] الترمذي (٦٨٥/٤) برقم (٣٩٤٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

وقد استخدم المسلمون في حصارهم الطائف المنجنيق، حيث رموا به العدو، وهم أول من رمى به في الإسلام. كما أنهم استخدموا الدبابة ليحتموا بها عن السهام، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سكَكَ الحديد، محماة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنبل. فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف.[1] ثم سألوه أن يدعها لله وللرحم، فقال رسول الله ﷺ إني أدعها لله وللرحم.[2]

ومن فوائد هذا المقطع من حصار الطائف: الاستفادة من مستجدات آلات الحرب لكسر الحصون، ومن الابتكارات التي تكون عند الغير من الناس، حيث اشتهرت جرش اليمانية التي لا تزال أطلالها قائمة في أعلى وادي بيشة اشتهرت بصناعة الدبابات والمنجنيق.[3] وفيه كذلك تهديد العدو باجتثاث ما يحب من الثمار، والشروع فيه، بُغْيَةَ استسلامه أو التفاوض، وليس بهدف العبث والفساد. وفيه كذلك منزلة الرحم، والعدول عن الفعل مراعاة للمستجار به، وهو الله سبحانه وتعالى، والرحم. وفي هذا تقديس للرب تبارك وتعالى، ولمنزلة الرحم ومكانتها في الإسلام.

ومن مشاهد هذا الحصار أن نادى منادي رسول الله ﷺ أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حُرّ ! فخرج منهم بضعة عشر رجلاً، منهم أبو بكرة، نزل في بكرة، فأعتقهم

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (١٢٦/٤)

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٥٨/٢)

(3) أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٥٠٩/٢) ومكونات المنجنيق من عمود طويل موضوع على عربة ذات عجلتين، في رأسها حلقة أو بكرة، يمر بها حبل متين، في طرفه الأعلى شبكة في هيئة كيس، توضع فيها حجارة أو مواد محترقة، ثم تُحرك بواسطة العمود والحبل، فيندفع ما وُضع في الشبكة ويسقط على الأسوار. حاشية المرجع نقلاً عن محمود شيت خطاب، الرسول القائد، ص ٢٥٤.

رسول الله ﷺ.[١] وفي صحيح البخاري (...فنزل إلى النبي ﷺ ثالث ثلاثة وعشرين من الطائف) وهو الأصح.[٢]

وفي هذا من الفوائد أهمية استخدام الحكمة والسُبُل لإضعاف العدو، وقد ذكر ابن سعد أن ذلك شَقّ على أهل الطائف مشقة شديدة.[٣]

وفيه من الفوائد كذلك: الوفاء بالعهد وعدم الغدر، حيث وَفَّى رسول الله ﷺ بما عَهِد به. وفيه كذلك أن القائد لا يباشر كل عمل هو بنفسه؛ بل يمارس بعض مهامه من خلال أعوانه ومساعديه، حيث أن الذي نادى هو منادي رسول الله ﷺ

(لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف فلم ينل منهم شيئاً، قال: إنا قافلون إن شاء الله، فَثَقُل عليهم، وقالوا: نذهب ولا نَفْتَحه ؟ وقال مرة: نقفل، فقال: اغدوا على القتال، فغدوا؛ فأصابهم جراح، فقال: إنا قافلون غداً إن شاء الله، فأعجبهم، فضحك النبي ﷺ وقال سفيان مرة: فتبسم.)[٤]

وفي الحديث رَبْطُ النبي ﷺ مراده بمشيئة الله تعالى، وهو ما يلزم المؤمن الأخذ به في كل ما يعزم عليه. وفيه كذلك أن كل مراد للإنسان لا يتحقق إلا بمشيئة اللطيف الحكيم الخبير سبحانه وتعالى. وفيه كذلك من الفوائد مراعاة القائد الحربي أو الإداري لمطالب من معه؛ وإن كانت على غير مطلبه، وفي ذلك تطييب لخواطرهم. وفيه قبول الرأي الجماعي في الإدارة وإن كان مرجوحاً على رأي الرئيس أو القائد أو المدير. وفيه مراعاة الجوانب النفسية

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٥٨-١٥٩)

(٢) البخاري (٣/١٥٧) برقم (٤٣٢٦، ٤٣٢٧)

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٥٩)

(٤) البخاري (٣/١٥٧) برقم (٤٣٢٥)

للعاملين مع القائد أو المدير والرئيس. وفيه كذلك شفقته ورفقه بأصحابه ﷺ لما رأى شدة تَحَصّن العدو، ثمّ ما حصل لهم بعد تحقيق مطلبهم من استمرار محاولة الفتح.

وفيه من الفوائد أن القائد أو المدير أو المربي لا يُعَنِّف ويُذَكِّرُ أتباعه بخطأ رأيهم إذا تبين بعد ذلك مرجوحيته لهم، وتكفيه منه الابتسامة لهم؛ كما فعل ﷺ وكذلك أن لا ينزعج من مخالفة رأي أعوانه له. وفيه كريم خُلُقه ﷺ ومراعاته لمشاعر من معه ﷺ وأنه لا ينطق عن الهوى ﷺ وأنه ليس بالشديد ولا العنيف، بل لطيف وكريم في تعامله ﷺ فمنهجه فيما يحصل مبني على (قَدَرُ الله خير).

وقد كان حصار الطائف أربعين ليلة.[١] وعند أهل السير اختلاف، قيل عشرين يوماً وقيل بضع عشرة، وقيل ثمانية عشر، وقيل خمسة عشر.[٢]

تقسيم الغنائم وإسلام هوازن:

لقد انصرف رسول الله ﷺ من الطائف في شوال إلى الجعرانة.[٣] حيث ترك رسول الله ﷺ غنائم حنين في الجعرانة، قبل أن يتحرك لحصار الطائف، وبعد عودته ﷺ من الطائف إلى الجعرانة لم يستعجل في تقسيم تلك الغنائم لأمر كان يتوقعه ﷺ وهو إسلام هوازن، على ما سيأتي تفصيله وبيانه قريباً إن شاء الله تعالى.

فلقد انتظر رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة ينتظر هوازن، فلما تأخرت جاء تقسيم الغنائم، ولقد قسَّم رسول الله ﷺ تلك الغنائم قسمة يتبين منها منهجية الإسلام، والمقصد الأسمى حتى في العطايا، أنها لإخراج الناس من الكفر إلى الإيمان، وتقوية قلوب من دخل في

---

[١] مسلم (٧٣٧/٢) برقم (١٠٥٩.١٣٦)

[٢] ابن حجر، فتح الباري (٤٥/٨)

[٣] المرجع السابق (٣٣/٨)

الإسلام حديثاً، حتى لا يرتد عن هذا الدين العظيم، فلقد كان يعطي ﷺ من تلك الغنائم ما يذهل له العقل، لما تضمنه من السخاء في العطاء، حيث أعطى بعض الأفراد المائة من الإبل، وقد سمى ابن إسحاق اثنى عشر رجلاً؛ قد أعطى رسولُ الله ﷺ كلَّ واحد منهم مائة من الإبل.[1] ومن أولئك من سمَّاهم رافع بن خديج رضي الله عنه كما في صحيح البخاري، قال (أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، كلَّ إنسان منهم مائة من الإبل، وأعطى عبَّاس بن مرداس دون ذلك، فقال عبَّاس بن مرداس:

أتجعل نهبي ونهب العُبَيْدِ بين عيينة والأقرع ؟

فما كان بَدْرٌ ولا حابسٌ يفوقان مِرداس في المجمع

وما كنت دون امرئ مِنْهما ومن تَخْفِضِ اليوم لا يُرْفَعِ

قال: فأتم له رسول الله ﷺ مائة)[2]

وفي هذا الموقف العطائي من النبي ﷺ ما يفيد ويبين كرم النبي ﷺ ومعرفته لحقيقة المال في الدنيا، وتسخيره لما فيه خير الإسلام. وفيه إنزال الناس منازلهم من العطاء. وفيه مراعاة الطبائع النفسية، حيث زاد لعباس بن مرداس بما جعله يتساوى مع من قارن نفسه بهم في الأبيات المذكورة آنفاً. ومن الفوائد عناية العرب بالشعر، واستخدامه في مطالبهم ومناقشاتهم، وبه يعبرون عن مشاعرهم وانفعالاتهم، وكذلك فيه الاستماع إلى الكلام المسبوك شعراً، وفيه التجاوب مع المطالب إذا كان في تلبيتها خير للطالب في دينه. وأما علة العطاء

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/١٣٥.١٣٧)

(٢) مسلم (٢/٧٣٧.٧٣٨) برقم (١٣٧.١٠٦٠)

فيوضحها قوله ﷺ للأنصار (...فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم...)[1] وفي رواية (...إن قريشاً حديث عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبُرَهم وأتألفهم...)[2]

وهذا يبين أهمية الحكمة وأهمية مراعاة الجوانب النفسية عند الناس، في مجال الدعوة والتربية والإدارة والسياسة، مما يؤكد عمق المنهج الإسلامي وتفهمه لواقع النفوس وخصائصها، ومراعاة ذلك أثناء التعامل معها. ولئن كان المفهوم النفسي لم يأخذ مصطلحاً، فلقد كان تفعيله في الحياة العامة يرسم منهجية إسلامية بكل أبعادها.

وفي فعله هذا ﷺ ما يبين أهمية تقديم المصلحة العامة أو مصلحة الإسلام على المصالح الذاتية. أو مصالح بعض الجماعات.

قال ابن حجر: ثم اقتضت تلك الحكمة أن تُقسم تلك الغنائم في المؤلفة، ويوكل من قلبه ممتلئ بالإيمان إلى إيمانه...وجبر ذلك قلوب أهل مكة بما نالهم من النصر والغنيمة عما حصل لهم من الكسر والرُّعب، فصرف عنهم شر من كان يجاورهم من أشد العرب، من هوازن وثقيف؛ بما وقع بهم من الكسرة، وبما قيض لهم من الدخول في الإسلام.[3]

وإزاء هذا العطاء الكبير؛ وعدم إدراك مغزاه البعيد؛ يحدث موقف من أحداث الأنصار ـ رضي الله تعالى عنهم أجمعين ـ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه (أن أناساً من الأنصار قالوا يوم حنين، حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله ﷺ يُعطي رجالاً من قريش؛ المائة من الإبل. قالوا: يغفر اللهُ لرسول الله، يُعطي قريشاً ويتركنا؛ وسيوفنا تقطر من دمائهم ! ...)[4]

---

(١) البخاري (١٥٨/٣) برقم (٤٣٣١)

(٢) البخاري (١٥٩/٣) برقم (٤٣٣٤)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٤٩/٨)

(٤) مسلم (٧٣٣/٢،٧٣٤) برقم (١٠٥٩)

وفي هذا الموقف من أحداث الأنصار؛ تظهر صورة من صور البشرية؛ التي تحدث عندما يغيب عنها الحكمة البعيدة من الفعل. ولكنه قول قد امتزج بالحب للنبي ﷺ وكأنه كيف يحدث هذا ممن نحبه أكثر من أنفسنا، وكأنه قولٌ أراد الله تعالى به تربية مَنْ بَعْدَهُم من المسلمين، بأن المسلم قد يحدث منه التصور القاصر بِقَدْر غياب الحكمة من الفعل عن تصوره. وكلما غابت عنه الحكمة من القول أو الفعل حصل له التساؤل، بما يُؤكد أهمية إبراز الحكمة للغير من التصرف؛ حال اتخاذ القرار الذي قد لا تدرك مغزاه وأبعاده العقول مباشرة. وهو ما بينه ﷺ في هذا الموقف (...قال أنس بن مالك ﷺ : فَحُدِّث ذلك رسولُ الله ﷺ من قولهم. فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قبة من أدم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: ما حديث بلغني عنكم ؟ فقال له فقهاء الأنصار: أمَّا ذوو رأينا يا رسول الله ! فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس مِنَّا حديثة أسنانهم، قالوا: يغفر الله لرسوله، يُعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفُنَا تقطر من دمائهم ! فقال رسول الله ﷺ : فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر. أتألفهم. أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رحالكم برسول الله ؟ فوالله ! لَمَا تنقلبون به خير مما ينقلبون به. فقالوا: بلى يا رسول الله ! قد رضينا. قال: فإنكم ستجدون أُثْرَةً شديدةً،[1] فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله. فإني على الحوض. قالوا: سنصبر)[2]

وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك ﷺ قال: (جمع رسول الله ﷺ الأنصار. فقال: أفيكم أحد من غيركم ؟ فقالوا: لا. إلا ابن أخت لنا. فقال رسول الله ﷺ : إن ابن أخت القوم منهم. فقال: إن قريشاً حديث عهد بجاهلية ومصيبة. وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم.

---

[1] الأثرة أي الإنفراد بالشيء المشترك دون من يشركه فيه. والمعنى أنه يستأثر عليهم بما لهم فيه اشتراك في الاستحقاق. ابن حجر، فتح الباري (٥٢/٨)

[2] مسلم (٧٣٤.٧٣٣/٢) برقم (١٠٥٩)

أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا، وترجعون برسول الله إلى بيوتكم؟ لو سلك الناس وادياً، وسلك الأنصار شعباً؛ لسلكت شِعْبَ الأنصار.)[1]

وفي هاتين الروايتين تتبين حكم وفوائد عظيمة وجليلة، منها: أن رسول الله ﷺ لم يتخذ أي موقف تجاه مقولة أحداث الأنصار؛ إلا بعد أن استمع لمن أُخْبِر عنهم، مما يؤكد أهمية هذا المسلك الإداري القيادي؛ بأن لا يحمل القائد أو المدير أو رب الأسرة أو السيد في قومه على من بلغته عنهم مقالة حتى يواجههم ويسمع منهم، ليعرف العلة والسبب، وهو المسلك النبوي الإسلامي، الذي تبرز فوائده في مجالات الحياة المختلفة؛ سواء ما كان منها مهنياً أو اجتماعياً أو سياسياً، أو إدارياً، أو تربوياً.

ثم يتبين أن أهل الرأي والمشورة لم يصدر عنهم شيء، وإنما صدر ذلك القول من أناس حديثة أسنانهم. مما يفيد أن إدراك حديث السن لا يتساوى مع إدراك الشيوخ؛ لما أضيف إلى تفكيرهم من العلم وسعة الخبرة؛ التي ينطلق منها بُعد النظر. وهذا ليس لكل مُتقدم في السن، وذاك ليس في كل شاب حديث السن، ولكن على الغالب.

وهنا يُلاحَظ أن الأنصار ـ رضي الله تعالى عنهم ـ لم يخفوا شيئاً مما قالوا عن رسول الله ﷺ وذلك لما اتصفوا به من الصدق، حيث بين أنس رضي الله عنه تلك الصفة في قوله عنهم (قالوا: هو الذي بلغك. وكانوا لا يكذبون)[2] حتى أنه دخل سعد بن عبادة رضي الله عنه فأخبر رسول الله ﷺ بما حصل من قومه. وعندما سأله رسول الله ﷺ (فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال: يا رسول الله ! ما أنا إلا امرؤ من قومي...)[3] فكان صادقاً رضي الله عنه في قوله؛ ولم يبحث عن ما

(١) مسلم (٧٣٥/٢) برقم (١٠٥٩.١٣٣)

(٢) مسلم (٧٣٥/٢) برقم (١٠٥٩.١٣٤)

(٣) أحمد، المسند (٧٧.٧٦/٣)

يتأول به. بما يعطي درساً تربوياً؛ بأن يكون المسلم صادقاً في كل تصرفاته، وإذا كان الناس يدركون من الإنسان ظاهره، فإن الله تعالى يدرك حقيقته، وإن خفيت على المخلوقين.

وفيه كذلك أن للقائد أن يخص القوم بالتوجيه دون غيرهم إذا كان في الأمر خصوصية، ولذلك قال ﷺ (أفيكم أحد من غيركم ؟). ثم تفيد الرواية الثانية منزلة ومكانة ابن أخت القوم، حيث قال ﷺ (: إن ابن أخت القوم منهم.) وفي هذا القول منه ﷺ ما يفيد مكانة المرأة من قومها إذا كان زوجها ليس منهم، وكذلك مكانة أبنائها عند أخوالهم. فهم من أخوالهم كذلك.[١]

ثم يتبين منهجية التدرج في طرح المسألة منه ﷺ حيث بدأ بالجمع، أي جمع الأنصار، ثم السؤال، ثم الاستماع إلى الجواب، ثم ذكر لهم مبررات فعله ﷺ والحكمة التي جاءت من هذا الصنيع النبوي الكريم (فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر. أتألفهم.) (إن قريشاً حديث عهد بجاهلية ومصيبة. وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم.) ثم بعد ذلك يبين مميزاتهم ﷺ ومنها أنه أعطى الناس ووكل الأنصار إلى إيمانهم، فأنعم به من وصف ومنقبة للأنصار (...فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل، ثم قال: يا معشر الأنصار ! ما مقالة بلغتني عنكم ؟ وجْدَةٌ وجدتموها في أنفسكم ! ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا: بل الله ورسوله أَمَنّ وأفضل، قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار ؟ قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله ! ولله ولرسوله المنّ والفضل. قال: أما والله لو شئتم لقلتم؛ فَلَصَدْقتم وصُدِّقْتُم، أتيتنا مُكَذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك، وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة[٢] من

---

(١) ذكرت ما يتعلق بمكانة المرأة: خلود بنت خالد الحازمي.

(٢) ومنه قيل في الحديث: إنما الدنيا لعاعة، يعني أن الدنيا كالنبات الأخضر قليل البقاء، ومنه قولهم: ما بقي في الدنيا إلا لعاعة أي بقية يسيرة. ابن منظور، لسان العرب (٣١٩/٨)

الدنيا؛ تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير؛ وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً؛ وسلكت الأنصار شعباً؛ لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، قال فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقنا)[١] (...أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا، وترجعون برسول الله إلى بيوتكم ؟ لو سلك الناس وادياً، وسلك الأنصار شعباً؛ لسلكت شِعْبَ الأنصار.)[٢]

وفي هذا بيان لمكانة الأنصار العظيمة منه ﷺ ففي الصحيح أنه ﷺ قال (الأنصار شعار؛ والناس دثار)[٣] والشعار الثوب الذي يلي الجسد، والدثار الذي فوقه. وفيه تخصيص الأنصار بالدعاء لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم، وهذه والله خير من تلك العطايا.

وفيه كذلك قوة إيمان الأنصار، لأنه ﷺ وكلهم لإسلامهم، وَلِمَا حدث منهم في صدق القول والرضا والبكاء والمحبة العظيمة لرسول الله ﷺ وللمناقب التي ذكرها لهم رسول الله ﷺ

وفيه كذلك العدل في فصل الخطاب، فلم يهضمهم حقهم ﷺ بل بين ما قدَّمُوه للرسول ﷺ وإن كان ما قدموه لا يعادل ما أصابهم من خير الدنيا والآخرة بهجرته ﷺ إليهم، ولكنه الكرم والخلق النبوي الكريم. وفي قول النبي ﷺ هذا؛ ما يفيد أهمية العدل في الحقوق؛ وفي الوصف؛ وفي ذكر المناقب، وأن لا يؤاخذ الإنسان بما لم يُعهد منه.

---

(١) أحمد، المسند (٧٧،٧٦/٣)

(٢) مسلم (٧٣٥/٢) برقم (١٠٥٩،١٣٣)

(٣) البخاري (١٥٨/٣) برقم (٤٣٣٠)

وفيه كذلك فضل الإيمان على الغنائم المادية، مما يفيد ويبين أن من تفضل الله عليه بقوة الإيمان وقلة المال، فقد أغدق الله تعالى عليه وتفضل بخير النعيم. ولكن من يجهل نعمة الإيمان لا يرى النعمة إلا في المال.

قال ابن حجر عن فوائد ذلك: وفيه المعاتبة، واستعطاف المعاتب، واعتابه عن عَتَبِه بإقامة حجة من عتب عليه، والاعتذار والاعتراف. ويوضح له وجه الشبه ليرجع إلى الحق. وفيه علم من أعلام النبوة لقوله ﷺ (ستلقون بعدي أثرة) وفيه أن للإمام تفضيل بعض الناس على بعض في مصارف الفيء، وأن له أن يُعطي الغني منه للمصلحة. وأن من طلب حقه من الدنيا لا عتب عليه في ذلك. ومشروعية الخطبة عند الأمر الذي يحدث، سواء كان خاصاً أم عاماً. وفيه جواز تخصيص المخاطبين في الخطبة، وفيه تسلية من فاته شيء من الدنيا بما حصل له من ثواب الآخرة. والحض على طلب الهداية والألفة والغنى، وأن المنة لله ولرسوله ﷺ على الإطلاق. وتقديم جانب الآخرة على الدنيا، والصبر عَمَّا فات منها ليدخر ذلك في الآخرة، والآخرة خير وأبقى.[١]

وفيه ضرب المثال لتوضيح عمق مكانتهم، وهو ما تقرر في منهجه التربوي ﷺ لأصحابه. (لو سلك الناس وادياً، وسلك الأنصار شعباً؛ لسلكت شِعْبَ الأنصار.) ويتميز هذا المثل بأن ذكر الوادي والشعب، والوادي أوسع من الشعب وأرحب، والشعب نهايته جبلان متعانقان، والغالب أن طريق الشعب أصعب لما فيه من الصعود. وبالرغم من جميع تلك المميزات للوادي؛ إلا أن الأنصار لو سلكوا الشعب لسلكه معهم ﷺ واختارهم عن غيرهم وعن الوادي الفسيح. فما أعذب أمثلته وأقواله وتراكيب كلامه ﷺ وصدق محبته وكمال وفائه وعظيم أخلاقه ﷺ

---

[١] ابن حجر، فتح الباري (٥٢/٨)

وفي مشهد العطاء النبوي تتبين مشاهد وحِكَم، فقد بلغ تأثير هذا الصنيع النبوي مبلغاً عجيباً في النفوس، ذلك (أن صفوان قال: والله ! لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يُعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليَّ)[1] (وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من النعم، ثم مائة، ثم مائة)[2] قال أنس رضي الله عنه (إن كان الرجل ليُسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يُسلم حتى يكون الإسلام أحبَّ إليه من الدنيا وما عليها)[3]

وفي هذا العطاء والاختصاص به لأناس دون غيرهم ما يبين الحكمة النبوية العظيمة، والمنهجية التربوية السديدة، وما ينبغي أن تُعالج به النفوس من العطاء المادي الذي يتناسب مع تطلعاتها، وفي ذلك بيان لأحوال النفس البشرية؛ وأهمية مراعاتها أثناء التعامل مع الخلق. وفيه أيضاً أهمية تأليف القلوب على الإسلام بالمال إذا لزم الأمر ذلك، وأن من دخل في الإسلام طمعاً في لعاعة سيتخلى عن ذلك؛ بإذن الله تعالى، لما يجده في الإسلام من منهجية تغيب معها الأطماع الدنيوية. وبهذا تتبين المنهجية التربوية الإسلامية التي تتعامل مع الإنسان من خلال طبيعته النفسية، وما جُبِلت عليه النفوس من الرغبة في الأموال.

وفي صورة تربوية أخرى تتضح المنهجية العلاجية للنهم والطمع المادي، حيث يقتلع المسلك العلاجي الإسلامي جذور ذلك بتصوير الحال تصويراً بليغاً، حتى لا يبقى منه شيء من إشراف النفس المتجاوزة للحد، أو المخالفة للخُلُق الإسلامي. فهذا حكيم بن حزام رضي الله عنه يذكر منهجية ذلك؛ والتي يرويها عنه سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، قال حكيم (سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال لي: يا حكيم ! إن هذا المال خَضِرٌ حُلْوٌ،

---

[1] مسلم (٤/١٨٠٦) برقم (٢٣١٣)

[2] مسلم (٤/١٨٠٦) برقم (٢٣١٣)

[3] مسلم (٤/١٨٠٦) برقم (٢٣١٢.٥٨)

فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبَارَك لَه فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى. قال حكيم: فقلت يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق لا أَرْزَأُ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر يدعو حكيماً ليعطيه العطاء، فيأبى أن يقبل منه شيئاً، ثم إن عمر دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه، فقال: يا معشر المسلمين ! إني أعرض عليه حقه الذي قسم الله له من هذا الفيء؛ فيأبى أن يأخذه، فلم يَرْزَأْ حكيمٌ أحداً من الناس شيئاً بعد النبي ﷺ حتى توفي.)[1]

يبين هذا الموقف التربوي من النبي ﷺ مع حكيم بن حزام رضي الله عنه فوائد عديدة جليلة، منها: أن تلك الصفة التي مرَّ بها حكيم بن حزام رضي الله عنه لم تمنعه أن يذكرها للعلم والفائدة، مما يبين تربوياً أهمية نقل التجارب الشخصية للآخرين، بقصد أخذ الفائدة والعلم منها.

ثم يبين هذا الموقف كَرَمَ رسولِ الله ﷺ بتكرار عطائه لحكيم بن حزام رضي الله عنه ثم تلا ذلك التوجيه التربوي منه ﷺ بعد أن أجزل له العطاء؛ فبلغ تأثيره أعماق نفسية حكيم؛ إذ لم يكن التوجيه قبل العطاء، مما يفيد في مثل هذا الموقف أن يكون التعليم والتوجيه بعد العطاء، أو قضاء الحاجة؛ حيث تكون النفس في تلك الحال متجهة ومتعلقة بما تطلب حتى تناله، وربما متأولة للنصيحة والتوجيه. وأما بعد العطاء والإشباع يزول ذلك التفسير أو التأويل المتوقع؛ الذي يحول بين المرء وبين إدراك النصيحة والتوجيه. مما يفيد تربوياً تقديم العطاء، أو قضاء حاجة الشخص، ثم التوجيه بعد ذلك، فإنها أبلغ في التأثير.

فكانت المنهجية التربوية العلاجية لاستشراف النفس؛ في أحسن صورة وأبلغ تأثير، حيث عالج ذلك عليه الصلاة والسلام بعدة ركائز:

أولاً: ببيان الصفة الملازمة للمال؛ واحتكامها منه كاحتكام حب الخُضْرَةِ والحلاوة في النفوس. فالخضرة والحلاوة تَسْتَلِذُّ بها ولها الطبائع البشرية، وقد لاَزَمَ ذلك المحبوب من الخضرة

[1] البخاري (٢/٤٠٢) برقم (٣١٤٣)

والحلاوة تلك الأموال، فتتجاذب لها النفوس وتتوق، وفي هذا تقرير لهذه الحالة النفسية التي يكشفها رسول الله ﷺ ولم ينفها عن الطبيعة البشرية، لأن انعدامها في الطبائع الإنسانية يقتل العمل والتطلع، ولكن منهجية الإسلام التربوية تضبط ذلك بالمسلك التربوي الذي يحد من عملية التأثر ببريق المال.

وثانياً: في هذه المنهجية العلاجية: يقرر رسول الله ﷺ حالات التعامل البشرية مع هذا المال الفتان بلونه وحلاوته: فآخذ له بسخاوة نفس، أي بغير شَرَهٍ ولا إلحاح، وآخذ له بإشراف نفس، أي بشره وإلحاح، فمن أخذه بالحالة الأولى حفت ذلك المال البركة من الغني الكريم سبحانه وتعالى، ومن أخذه بالحالة والصورة الثانية انتفت منه البركة التي هي أساس صلاح المال.

وثالث: هذه الخطوات العلاجية: تشبيه حال الشَّرِهِ المُلِح المُسْتَشْرِفَة نفسه له؛ والتي قد فقدت بركة المال؛ بذلك الذي يأكل ولا يشبع. وفي هذا التشبيه النبوي الكريم ما يجسد للمستمع والقارئ للحديث حقيقة هذا التعامل في صورة متكاملة المشهد، في جميع وجوهه بأسلوب غاية في الدقة والإيضاح. وهذا الوصف النبوي يبين سبب شراهة البعض تجاه المال، حتى قد يصل به الحال إلى أن لا يتردد في أخذه من غير حِلِّه، وبالتالي فإن علاجه في أبسط صور العلاج، أن يُعَوِّد نفسه على عدم استشراف المال بنهم وجشع. ثم تمام العلاج ببيان المفاضلة بين من يأخذ ومن يُعطي (واليد العليا خير من اليد السفلى) لترتسم في ذهن المتعلم ومن يستمع ويقرأ هذا التوجيه النبوي الكريم صورة العطاء وما يلازمه من الخيرية، وصورة السؤال وما يلازمه من الدونية.

ثم يأتي بعد ذلك أثر هذا المنهج العلاجي الكريم كسرعة البرق في ضوئه، والرعد في صوته، ليقتلع ما كان عند حكيم بن حزام رضي الله عنه من ذلك السلوك، فيقول حالاً في مجلسه (والذي بعثك بالحق لا أَرْزَأُ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا) فقد بدأ تأثره وتجاوبه رضي الله عنه مع

هذا المنهج النبوي العلاجي: بقسم على أن لا يسأل أحداً شيئاً بعد رسول الله ﷺ حتى مفارقة الدنيا. وكلمة (شيئاً) تعني العموم، ليس المال فقط؛ بل كُلَّ شيء، وليس فيه استثناء لزمن أو حالة حتى مفارقة الدنيا.

ثم تأتي الممارسة والتطبيق العملي من حكيم رضي الله عنه في صورة من يأتيه المال دونما طلب منه أو استشراف نفس؛ فيرفضه رضي الله عنه، وكأني به رضي الله عنه قد تذكر قول النبي ﷺ (واليد العليا خير من اليد السفلى) بل يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (يا معشر المسلمين ! إني أعرض عليه حقه الذي قسم الله له من هذا الفيء، فيأبى أن يأخذه) إنها صورة المتعلم والمتربي؛ الملتزم بما تعلمه من نبيه محمد ﷺ إلى درجة التورّع عن ما يجوز له أخذه، وإنها كذلك صورة المنهجية التربوية العلاجية العظيمة التي تضمنها المنهج الإسلامي العظيم. (فمات حين مات وإنه لمن أكثر قريش مالاً)[1]

ثم في مشهد آخر تظهر منهجية نبوية علاجية عظيمة الأثر على النفس البشرية، إذ تستثير فيها مكامن الخير، والبعد عن النهم والجشع، فعن عمرو بن تَغْلَب رضي الله عنه قال (أعطى رسول الله ﷺ قوماً ومنع آخرين فكأنهم عتبوا عليه، فقال: إني أُعْطِي قوماً أخاف ظَلَعَهُم وجَزَعَهُم، وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى، منهم عمرو بن تَغْلَب. فقال عمرو بن تغلب: ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حُمُرَ النَّعَم.)[2]

ففي هذا الحديث ما يدل على أهمية مراعاة الجوانب النفسية والإيمانية عند التعامل مع الآخرين، وفيه ما يدل على الأثر الإيماني العظيم على النفس البشرية؛ في قبولها وإذعانها وهدوئها وانبساطها ورضاها وطاعتها. وهذا يؤكد أهمية التربية الإيمانية إذ هي المرتكز في البناء السلوكي، فلا بناء تربوي من غير بناء إيماني. وفي الحديث دلالة لِمَا يجب على المربي والمدير

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٣/٣٣٧)

(٢) البخاري (٢/٤٠٢-٤٠٣) برقم (٣١٤٥)

والحاكم والرئيس والأمير من مراعاة الأحوال الإنسانية عند التعامل؛ في غير إهمال لها. لما يترتب على ذلك من المصالح والمفاسد.

وفيه كذلك أن العتاب قد يصدر ممن غابت عنه حكمة القول أو العمل، وأن ليس للمرء إلا بما علم، وفيه كذلك أن القلب هو مكمن الخير وصندوق الغنى، لقوله ﷺ (وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى) مما يؤكد أهمية العناية التربوية به، وأن من أراد معالجة سلوكه، فعليه أن يبدأ بقلبه أولاً، فهو ميدان العلاج والتأسيس البنائي للسلوك الإنساني، وفي الحديث ما يفيد استغلال الموقف في التربية والتوجيه. وفيه من الفوائد أن الغني ليس المكتنز للأموال؛ المستشرف لها، بل من يملك الغنى النفسي.

وأما المنهجية العلاجية التي تضمنها هذا الموقف، فإنه ﷺ قد بدأ أولاً: ببيان علة العطاء والترك (إني أُعْطِي قوماً أخاف ظَلَعَهُم وجَزَعَهُم، وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى) أخاف ظَلَعَهُم وجَزَعَهُم، أي اعوجاجهم وعدم صبرهم. فعلة العطاء مبنية على النقص عند المعْطَى، وعلة المنع مبنية على كمال الخير والغنى عند من لم يُعط، والذي أساسه قوة الإيمان ورسوخه. وثاني خطوات العلاج: اختيار شخصية من الصحابة الأجلاء الذين تميزوا بهذه المنقبة الإيمانية كمثل لذلك، حتى يسري أثر هذا العلاج عند كل من لم يُعط؛ قياساً على الوصفة الإيمانية النبوية (منهم عمرو بن تَغْلَبَ.) وكلمة (منهم) تفيد أن عمرو واحد من كثير، فكان أثر هذا البيان النبوي، أن قال (عمرو بن تغلب: ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حُمُرَ النِّعَم.) إنها شهادة النبي ﷺ له بالخير الذي يغنيه عن مال الدنيا بأسرها، مما يؤكد ويبين أن الرصيد الإيماني لا تعادله أرصدة الدنيا من الأموال ونحوها. وهذا فهم الصحابة الأجلاء لذلك، والذي ترجمه في هذا الحديث عمرو بن تغلب رضي الله عنه مما جعل عمرو بن تغلب رضي الله عنه يُثَمِّن مقولة النبي ﷺ بأنها أغلى في ميزانه من حُمُرَ النَّعَم التي تُعد عند العرب من أنفس الأموال وأمتعها.

وهذا المنهج العلاجي يؤكد أهمية بيان حقيقة الدنيا؛ وحقيقة المال؛ عندما تستشرفه القلوب وتستطمعه النفوس، وبيان المناقب الإيمانية والتعبدية؛ وما أنعم الله تعالى به على العبد من نِعَمٍ قد غابت عنه أمام فتنة الدنيا وزخرفها، لتستكين النفس وتعود إلى رشدها، وتنقمع عن توقانها واستطالتها لِعَرَض الدنيا.

ثم يأتي مشهد آخر لموقف الامتثال للخبر الواحد المنقول عن النبي ﷺ في أمر لا يقل أثراً في استحكامه عن المال، وربما أشد أثراً واحتكاماً منه، فعن نافع رضي الله عنه (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله إنه كان عليَّ اعتكاف يوم في الجاهلية، فأمره أن يفي به، قال: وأصاب عمر جاريتين من سبي حنين فوضعهما في بعض بيوت مكة، قال فَمَنَّ رسول الله ﷺ على سبي حنين، فجعلوا يسعون في السكك، فقال عمر: يا عبد الله انظر ما هذا ؟ قال: مَنَّ رسول الله ﷺ على السبي، قال: اذهب فأرسل الجاريتين..)[1]

وفي الحديث من نذر بطاعة قبل إسلامه أتمها بعد إسلامه.[2] وفي هذا الحديث ما يبين سرعة تجاوب المسلمين مع توجيه رسول الله ﷺ دون تردد أو تلكؤ، حتى أنه من كثرة السبي وانطلاقهم في وقت واحد؛ وهم يسيرون في سكك مكة أن لهم حركة ظاهرة ، فلما سمع عمر رضي الله عنه بحركتهم في السكك أمر ابنه أن يستطلع الأمر، فأخبره، أن رسول الله ﷺ قد منَّ على سبي حنين. فأمره بإطلاق الجاريتين حالاً دون تردد. مما يفيد أهمية سرعة الامتثال لأمر رسول الله ﷺ إذا عَرَفه المسلم؛ دون تردد، وفيه كذلك أهمية الزهد في الشيء إذا علم

(١) البخاري (٢/٤٠٢) برقم (٣١٤٤)

(٢) وللفقهاء اختلاف هل هي واجبه أم أنها على سبيل الندب، والذي رجحه ابن حجر ما ذهب إليه أبو ثور ومن قال بقوله، فمن نذر أو حلف قبل أن يسلم على شيء يجب الوفاء به لو كان مسلماً، فإنه إذا أسلم يجب عليه، على ظاهر قصة عمر، قال: وبه يقول الشافعي وأبو ثور. وكذا نقله ابن حزم عن الإمام الشافعي، والمشهور عند الشافعية أنه وجه لبعضهم، وأن الشافعي وجل أصحابه على أنه لا يجب، بل يستحب، وكذا قال المالكية والحنفية، وعن أحمد في رواية، يجب، وبه جزم الطبري والمغيرة بن عبد الرحمن من المالكية والبخاري وداود وأتباعه. فتح الباري (٥٨٣.٥٨٢/١١)

المسلم نهي الإسلام عنه. ثم قبل عمر ﷺ خبر الواحد وهو ابنه، ولم يقل أستوثق وأتأكد، وإنما امتثل للخبر عن النبي ﷺ كما قال ابن حجر: يُستفاد منه الأخذ بخبر الواحد.(١)

وقد أمر الرسول ﷺ بإطلاق السبي عن طيب نفس، أو بعوض لقوله ﷺ (وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل. ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل)

ويبين المشهد التالي تدافع الأعراب على النبي ﷺ حين فَرَغ من حنين، يطلبون الغنائم، كما يرويه محمد بن جبير فيقول : (أخبرني جبير بن مُطْعَمٍ أنه بَيْنَا هو مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقبلاً من حنين؛ عَلِقَتْ رسولَ الله ﷺ الأعرابُ يسألونه؛ حتى اضطروه إلى سَمُرَة؛ فخطفت رداءه، فوقف رسول الله ﷺ فقال: أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العِضَاهِ(٢) نَعَماً لَقَسَمْتُه بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كَذُوباً ولا جباناً.)(٣)

وفي هذا الحديث ما يدل على كثرة الأعراب الذين تدافعوا على رسول الله ﷺ يسألونه العطاء حتى ضاق به المكان، فاضطروه إلى الاقتراب من سَمُرَة فَعَلِق رداؤه ﷺ بالسَمُرَة: وهي شجرة صحراوية صغيرة الورق وكثيرة الشوك. وهذا دليل على تواضعه ﷺ إذ لم يكن معه حاشية من الناس تَدْفَع عنه مثل هؤلاء، بل كان متواضعاً في سيره ورحله وركبه ﷺ وفي ذلك صورة من صور مسلكه الخُلُقي الرَّفيع مع الأعراب، إذ لم يزجرهم لقاء ما حصل له، بل طلب رداءه، ثم بين ما يحمله من صفات خُلُقية رفيعة؛ قد يجهلها الأعراب، مما يفيد أن للمرء أن يبين ما يحتاج إلى بيانه من صفاته وقدراته لمن يجهلها. فبين ﷺ أنه ليس بخيلاً؛

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٢٥٣/٦)

(٢) العِضاه: هو ما عَظُم من الشجر، وقيل كل شجرة جازت البقول، كالزيتون والنخل، وقيل يقع على شجر من أشجار الشوك، وما صَغُرَ من شجر الشوك يقال له: العِضُّ. ابن منظور، لسان العرب (٥١٧/١٣)

(٣) البخاري (٤٠٤،٤٠٣/٢) برقم (٣١٤٨)

فيمنع الخير عن الناس ويستأثر به لنفسه، وضرب لذلك مثالاً، بأنه لو كانت العضاه وهي الشجر الكبير نَعَمَاً لَقَسَّمَه بينهم، ولم يستأثر به لنفسه، أو بشيء منه، وأنه ﷺ ليس كذوباً، فقد أمَّنَهُ اللهُ تعالى على رسالته، فكان أميناً صادقاً ﷺ وهو ما اتصف به قبل البعثة ﷺ فكيف يكون بعد البعثة إلا كذلك. وما جُرِّب عليه كَذِب قط. ثم بين ﷺ الصفة الثالثة؛ وهي الشجاعة التي ضد الجبن، وكانت مواقفه القتالية دليل ذلك، كما سبق بيانه في مواقع ذلك من الكتاب، ومن أقربها غزوة حنين.

وفي هذا من الفوائد كما قال ابن حجر ـ رحمة الله تعالى عليه ـ : ذم الخصال المذكورة في الحديث: البخل والكذب والجبن، وأن إمام المسلمين لا يصلح أن يكون فيه خصلة منه، وفيه ما كان في النبي ﷺ من الحلم وحُسن الخُلُق، وسعة الجود والصبر على جفاة الأعراب. وفيه جواز وصف المرء لنفسه بالخصال الحميدة عند الحاجة، كخوف ظن أهل الجهل به خلاف ذلك، ولا يكون ذلك من الفخر المذموم. وفيه أن الإمام مخير بين قسمة الغنيمة بعد فراغ الحرب، أو بعد ذلك.[1]

وفي صورة أخرى لكريم خُلُقه ﷺ مع أحد الأعراب، الذي ما عَرَف منهج التعامل مع مقام النبي ﷺ فيقول أنس بن مالك ﷺ (كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُرْدٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة، حتى نَظَرْتُ إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثَّرَت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مُر لي من مالِ الله الذي عندك. فالتفت إليه، فضحك، ثم أمر له بِعَطَاء.)[2]

ففي هذا الحديث ما يدل على تواضع ملبسه ﷺ فكان عليه رداء نجراني، نسبة إلى مدينة نجران، وكان غليظ الحاشية، ليس بناعم كما يختاره أهل المال واليسار، وفي الحديث ما

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٦/٢٥٤)

[2] البخاري (٢/٤٠٤) برقم (٣١٤٩)

يدل على اختلاف الطبائع والتأدب، وقصورها عند أقوام، مما يدل على أهمية التربية الخُلُقية وتطبيقاتها السلوكية، وفيه ما يبين منهجية التعامل مع من يجهل الآداب ويُنْزِل الناس منازلهم، بأن لا يؤاخذ بجهله، فَيُجْهَل عليه، فتكون منه قدوة هادمة لا عامرة بناءة. وفيه كذلك الإحسان لمن أساء الأدب، فإما جاهلاً فيتعلم، وإما عارفاً فيتأدب بالحُسْنِ المقابل للإساءة، فقد التفت إليه ضاحكاً ﷺ، ثم أمر له بعطاء، وفي هذا غاية الكرم والحلم والجود والصفح، وفيه غاية التعليم والتربية للأعرابي، ولمن شاهد الموقف، ولمن عرفه رواية أو قراءة. وفيه صورة للداعية وللمربي وللمعلم وللحاكم والإداري الذي يتعامل مع الناس بالحلم والأناة والتواضع، ومقابلة الإساءة بالحسنة.

ثم هذه صورة لمن تعدى عليه باللفظ والوصف المجحف في حقه ومقامه ﷺ بل والطعن في عدله ﷺ فيقابل ذلك ببيان تأسيه ﷺ بموسى عليه السلام. فعن أنس بن مالك ﵁ قال (لَمَّا كان يومُ حنين آثر النبي ﷺ أناساً في القسمة: فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثلَ ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، فآثرهم يومئذ في القسمة، قال رجل: والله إن هذه القسمة ما عُدِلَ فيها وما أريد بها وجه الله. فقلت والله لأخبرن رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته. فقال: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ رحم الله موسى قد أُوذيَ بأكثر من هذا فصبر.)[1] وعن جابر بن عبد الله قال (أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ بالجعرانة، مُنْصَرَفَهُ من حنين؛ وفي ثوب بلال فضةٌ. ورسول الله ﷺ منها يُعطي الناس، فقال: يا محمد ! اعدل. قال: ويلك ! ومن يَعْدِلُ إذا لم أكن أعدل ؟ لقد خِبْتَ وخَسِرْتَ إن لم أكن أعدل. فقال عمر بن الخطاب ﵁ : دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق. فقال:

---

[1] البخاري (٢/٤٠٤) برقم (٣١٥٠)

مَعَاذَ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي. إنَّ هذا وأصحابه يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرَّمِيَّةِ.)[١] والرمية هي الصيد المرمى.[٢]

فيبين هذا الحديث مشارب وآراء الناس، وأن إرضاء الناس غاية لا تُدرك، فَخيرُ مسلك هو إرضاء الله تعالى. وإذا كان رسول الله ﷺ قد وصفه هذا الرجل بعدم العدل، فمن باب أولى أن يجد غيره من يصف بهذا الوصف وزيادة، مما يبين أهمية التأسي بفعله وقوله ﷺ كما تأسى عليه الصلاة والسلام بموسى عليه السلام، فقال: (رحم الله موسى قد أُوذيَ بأكثر من هذا فصبر)

وفيه من الفوائد نقل الخبر من أجل النصيحة، وأن المذموم مَنْ نقل الأخبار يقصد الإفساد، وأما من يقصد النصيحة ويتحرى الصدق ويجتنب الأذى فلا، وقَلَّ من يُفرق بين البابين.[٣] وفيه من الفوائد: جواز إخبار الإمام وأهل الفضل بما يقال فيهم، مما لا يليق بهم؛ ليحذروا القائل. وفيه بيان ما يباح من الغيبة والنميمة، لأن صورتهما موجودة في صنيع ابن مسعود هذا، ولم ينكره النبي ﷺ ذلك أن قصد ابن مسعود رضي الله عنه. أي للحديث الذي رواه ابن مسعود، وسيأتي قريباً.[٤] كان نصح النبي ﷺ وإعلامه بمن يطعن فيه ممن يُظهر الإسلام ويبطن النفاق، ليحذر منه. وهذا جائز كما يجوز التحسس من الكفار ليؤمن من كيدهم. وقد ارتكب هذا الرجل المذكور بما قال إثماً عظيماً، فلم يكن له حرمة. وفيه أن أهل الفضل قد يغضبهم ما يقال فيهم مما ليس فيهم؛ ومع ذلك يتلقونه بالصبر والحلم، كما صنع رسول

---

(١) مسلم (٢/٧٤٠) برقم (١٠٦٣)

(٢) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥٩/٧)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٤٧٦،٤٧٥/٨)

(٤) فتح الباري (٥١١/١٠) برقم (٦١٠٠)

الله ﷺ اقتداء بموسى عليه السلام.[1] وفي رواية ابن مسعود رضي الله عنه (...فساررته، فشق ذلك على النبي ﷺ وتغير وجهه وغضب، حتى وددت أني لم أكن أخبرته...)[2]

وفي الحديث بيان لحال من اعتقد اعتقاداً لا يليق برسول الله ﷺ وفيه بعد النظر لرسول الله ﷺ إذ نهى عمر عن قتل الرجل حتى لا يُقال أن رسول الله يقتل أصحابه. مما يُعَلِّمُ المسلم أهمية بُعْد النظر في مغبة الأمر قبل أن يَقْدِم عليه، وأن يُقَدِّم درء المفاسد، وأهمية الحلم والصبر على أذى الغير.

وفي الحديث بيان الحالة الدينية لهذا الصنف من الناس (. إنَّ هذا وأصحابه يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرَّمِيَّةِ.) مما يؤكد أهمية سلامة المعتقد وصحته، وعدم التساهل في ذلك، وهذا يؤكد أهمية التربية الاعتقادية، إذ يترتب عليها قبول العمل من عدمه.

وقوله ﷺ (يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم) في معناه تأويلان: أي لا تفقه قلوبهم، ولا ينتفعون بما تلوا منه، ولا لهم حظ سوى تلاوة الفم والحنجرة والحلق، إذ بهما تقطيع الحروف. والتأويل الثاني: معناه لا يصعد لهم عمل ولا تلاوة، ولا يتقبل. وقوله ﷺ (يمرقون منه كما يمرق السهم من الرَّمِيَّةِ.) وفي رواية (يمرقون من الإسلام)[3] وفي رواية (يمرقون من الدين)[4] أي يخرجون منه خروج السهم إذا نفذ الصيد من جهة أخرى؛ ولم يتعلق به شيء

(١) ابن حجر، فتح الباري (١٠/٥١٢)
(٢) البخاري (٤/١١٠) برقم (٦١٠٠)
(٣) مسلم (٢/٧٤١،٧٤٢) برقم (١٠٦٤)
(٤) مسلم (٧٤٢) برقم (١٤٤ ـ ١٠٦٤)

منه. والرمية هي الصيد والمرمى.[1] وقد وردت الأحاديث الخاصة بمن هذه صفتهم في صحيح مسلم تحت باب: ذكر الخوارج وصفاتهم.[2]

وعودة إلى مشهد قدوم وفد هوازن، حيث جاء في الصحيح (أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: معي من ترون، وأحب الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين، إما السبي وإما المال. وقد كنت استأنيت بكم. وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف...)[3].

ويتبين من هذا الحديث أن رسول الله ﷺ لم يكن يهدف من غزواته حصول الغنائم، وإن كان ذلك نتيجة تتحقق بالغزو، وحال حصولها لا يبتغي منها تكثراً. فبالرغم من كثرة تلك الغنائم التي بلغت: من السبي ستة آلاف، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة.[4] إلا أن مقصده عليه الصلاة والسلام هو دخول الناس في هذا الدين العظيم، الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن النار إلى الجنة. فانتظرهم بضع عشرة ليلة، فلما تأخروا قَسَّم الغنائم.

وقد جاء وفد هوازن مسلمين، فيهم تسعة نفر من أشرافهم، فأسلموا وبايعوا، ثم كلموه ﷺ.[5] أن يرد سبيهم وأموالهم، فخيرهم ﷺ بين السبي أو الأموال، فاختاروا أن يُعيد عليهم السبي. وقيل أن الوفد كانوا أربعة وعشرين.[6]

---

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥٩/٧)

(٢) مسلم، صحيح مسلم (٧٤٠/٢) كتاب الزكاة، باب رقم (٤٧) باب ذكر الخوارج وصفاتهم.

(٣) البخاري (١٥٥/٣) رقم(٤٣١٨)

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٥٢/٢)

(٥) ابن حجر، فتح الباري (٣٣/٨)

(٦) ابن حجر، فتح الباري (٣٤/٨)

ويتبين من حديثه ﷺ مع وفد هوازن فوائد عديدة، منها: العناية بأمر الجماعة ورأيهم، حيث قال لهم ﷺ (معي من ترون) ويستفاد منه في الجانب الإداري أهمية إشراك الأعوان وأصحاب الحق في اتخاذ القرار، وعدم تجاهلهم؛ كون زمام الأمر بيد القائد أو الرئيس أو الأمير أو المدير. وفيه كذلك التنويه والتذكير بالفضيلة المناسبة لواقع الحال (وأحب الحديث إليَّ أصدقه) وهذا البيان منه ﷺ منهجية تربوية ودعوية يُعلن فيها ﷺ المبدأ الإسلامي في التعامل؛ وكذلك من الفوائد استغلال المواقف بما يؤكد مسلك هذا الدين؛ أنه قائم على الصدق.

وفيه كذلك أن الرسول ﷺ بشر لا يعلم الغيب، إلا بما يوحى إليه من الله تعالى، حيث انتظرهم. وهو معنى قوله ﷺ (استأنيت بكم). رجاء مقدمهم مسلمين بضع عشرة ليلة، فلما تأخروا بدأ في أمر التقسيم، ثم جاؤوا بعد ذلك.

وفيه كذلك أن منهج الإسلام الذي يمثله النبي ﷺ ليس منهج تعسف؛ يتجه نحو أموال الناس، واستلاب خيراتهم، بل الهدف والمقصد هو إخراج الناس من الكفر إلى الإيمان.

(... . فَلَمَّا تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: فإنا نختار سَبيَنَا، فقام رسول الله ﷺ في المسلمين ، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد: فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل. ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل. فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ إنا لا ندري مَن أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن؛ فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم. فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا. هذا الذي بلغني عن سبي هوازن)[1]

---

[1] البخاري (١٥٥/٣) رقم (٤٣١٨).

وفي ذلك مزيد إيضاح لمقاصد الجهاد في الإسلام؛ أنه لإخراج الناس من الكفر إلى الإسلام، حيث رَدَّ ﷺ سبيهم عليهم، وهم ستة ألاف، وهذا من تمام تأليفهم على الإسلام، بل إن منهجية التعامل مع هوازن تضمنت كافة سُبُل التأليف، حيث بين لهم ﷺ انتظاره وتأخيره تقسيم الغنيمة رجاء أن يسلموا، ثم خطبته لأصحابه في إعادة السبي، . (ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل.)

وكذلك في هذا المشهد من الفوائد أن سماهم ﷺ (إخوانكم) بمجرد دخولهم في الإسلام، فانتفت التفرقة بدخولهم هذا الدين، وتحققت لهم أخوة الإسلام (فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين) وهذا بيان أن الكافر إذا دخل في الإسلام قد أصبح أخاً للمسلمين. وفي هذا المنهج الإسلامي قضاء على كل عداء وبغضاء للكافر بعد إسلامه.

وفيه العدل مع من أخذ نصيبه من السبي، إما التنازل بطيب نفس، أو أخذ المقابل عند تحققه. وفيه كريم خُلُق المسلمين حيث تنازلوا عن ذلك (أنهم قد طيبوا وأذنوا)

وفيه من الفوائد كذلك؛ المسلك التنظيمي الإداري؛ الذي كان عليه المسلمون، حيث كان لهم عُرَفَاء يُخَاطَبُونَ من خلالهم، وفيه ما يَدُلُّ على حُسن التنظيم حتى في المخاطبة التي تتخذ التدرج الوظيفي؛ تبعاً للمسؤولية التي يقوم بها العرفاء. وهذا دليل على أن منهجية التنظيم مطلب إسلامي يتخذه المسلمون حسب مقتضيات العمل الجماعي.

ومن فوائد الحديث التثبت من الأمر (فقال رسول الله ﷺ إنا لا ندري مَن أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم. فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم) وفيه كذلك أن العريف أو رئيس المجموعة مأمون على مجموعته، ينقل عنهم ما يرون. وفيه مبدأ التفويض الإداري.

قال ابن بطال: وفي الحديث مشروعية إقامة العرفاء، لأن الإمام لا يمكنه أن يباشر جميع الأمور بنفسه، فيحتاج إلى إقامة من يعاونه، ليكفيه ما يقيمه فيه. وقال ابن المنير: وفيه أن الحاكم يرفع حكمه إلى حاكم آخر مشافهة فينفذه؛ إذا كان كل منهما في محل ولا يته.(١)

ثم خرج رسول الله ﷺ من الجعرانة إلى مكة معتمراً، فعن قتادة (سألت أنساً رضي الله عنه كم اعتمر النبي ﷺ ؟ قال: أربع: عمرةُ الحديبية في ذي القعدة؛ حيثُ صَدَّهُ المشركون، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة؛ حيث صالحهم، وعمرة الجعرانة إذ قَسَمَ غنيمة ـ أُراه ـ حنين. قلت: كم حج ؟ قال: واحدة.)(٢) وعن قتادة قال (سألت أنساً رضي الله عنه فقال: اعتمر النبي ﷺ حيث ردُّوه، ومن القابل عمرة الحديبية، وعمرة في ذي القعدة، وعمرة مع حجة.)(٣)

ومن فوائد ذلك بيان عدد ما اعتمر النبي ﷺ، أنها أربع: عمرة الحديبية؛ التي كان فيها صلح الحديبية، وعمرة القضاء التي كانت من العام التالي؛ على ما اصطلح عليه النبي ﷺ مع قريش، وعمرة الجعرانة، بعد غزوة الطائف، وذلك في عودته ﷺ بعد أن قسم غنائم حنين. والرابعة عمرته ﷺ في حجة الوداع.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (١٣/١٦٩)

(٢) البخاري (١/٥٣٨) برقم (١٧٧٨)

(٣) البخاري (١/٥٣٨) برقم (١٧٧٩)

الفصل الرابع عشر
السرايا والأحداث
بين غزوتي الطائف وتبوك:

السرايا والأحداث بين غزوتي الطائف وتبوك:

سرية الطفيل بن عمرو إلى ذي الكَفَّين:

لما أراد رسول الله ﷺ السير إلى الطائف؛ بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكَفَّين، صنم عمرو بن حُمَمَة الدّوسي، ليهدمه، وأمره أن يوافيه بالطائف، فخرج سريعاً إلى قومه، فهدم ذا الكَفَّين، وجعل يحش النار في وجهه ويحرقه. وقد انحدر معه من قومه أربعمائة، فوافوا النبي ﷺ بالطائف؛ بعد مقدمه بأربعة أيام، وقدم بدبابة ومنجنيق.[١]

وفي هذا دليل على معرفة العرب قديماً للمنجنيق، وكذا اختراعهم لفكرة الدبابة، واستخدامها.

إسلام كَعب بن زهير:

لما قدم رسول الله ﷺ من الطائف كتب بجير بن زُهير بن أبي سُلمَى إلى أخيه كعب، إن كانت لك في نفسك حاجة فَطِر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، وكان كعب ممن يهجو النبي ﷺ ويؤذيه.[٢]

وهذا المقطع يبين ما عُرف به رسول الله ﷺ من أخلاق العفو عمن أساء إليه، إذا جاء تائباً مسلماً، مما يبين منهجية العفو التي كان يسلكها رسول الله ﷺ عند المقدرة من الفعل، وهو الخُلُق الإسلامي الذي حث عليه. وهذا يفيد أهمية الأخذ بهذا المسلك النبوي الكريم؛ عندما يَبلُغ الإنسانُ المقدرةَ في دوائر ومجالات الحياة المختلفة: المهنية والأسرية والاجتماعية، أو غيرها.

فلما بلغ الكتابُ كعباً ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأرجف به من كان في حاضره من عَدُوِّه، فقالوا: هو مقتول. فقال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ مبيناً خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه. ثم خرج حتى قدم المدينة، فصلى مع رسول الله ﷺ الصبح،

[١] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٥٧/٢)

[٢] ابن هشام، السيرة النبوية (١٤٥،١٤٤/٤)

فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله ! إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك؛ تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال رسول الله ﷺ (نعم) قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير. فقال في قصيدته التي قال حين قدم على رسول الله ﷺ

بانت سعاد فقلبي اليومَ متبولُ		مُتَيَّمٌ إثرها لم يُفْدَ مَكْبُولُ
وما سعادُ غداةَ البَيْن إذْ رحلوا		إلا أغَنَّ غَضيض الطَّرْفِ مَكْحُولُ

وقال فيها:

وقال كلُ صديقٍ كنت آمله		لا أُلْهِيَنَّك إني عنك مشغولُ
فقلتُ خلوا سبيلي لا أبا لكم		فكلُ ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته		يوماً على آلة حدباء محمولُ
نُبِّئتُ أن رسول الله أوعدني		والعفو عند رسول الله مأمولُ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة		القرآن فيها مواعيظ وتفصيلُ
لا تأخذِنِّي بأقوال الوشاة ولم		أُذنب ولو كثُرت فيَّ الأقاويلُ

وقال أيضاً:

إن الرسولَ لنور يُستضاء به		مهند من سيوف الله مسلولُ

وذكر ابن هشام: أنه أنشد كعب بن زهير رسولَ الله ﷺ في المسجد.[١]

وفي ذلك من الفوائد: إنشاد الشعر في المسجد، وفيه المدح الصحيح، والثناء بما هو حقيقة. وأن الشعر وسيلة للتعبير عن مراد الإنسان وما تجيش به مشاعره. وفيه كذلك قوة القريحة الشعرية لدى كعب، بهذه القصيدة الرائعة في مبناها ومعناها، وجمال مقاطعها

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (١٤٦/٤.١٥٨) والحاكم، المستدرك (٥٧٩/٣.٥٨٦)

ومحتواها. وفي الأبيات ما يدل على أن كعب قد سمع أو اطلع على شيء من القرآن الكريم كما يوضحه البيت السابع من المقاطع السابقة. وفي القصيدة بعض الحكم كما في البيت الخامس، وكذلك صورة لما كان عليه الشعراء من استطلاع القصيدة بشيء من الوجد، كما هو البيت الأول والثاني.

ومن الفوائد: حلم رسول الله ﷺ وما عُرف به من العفو وكريم الخصال والأخلاق، والتي ذكر كعب شيئاً منها في قصيدته المذكورة.

سرية عيينة بن حِصن إلى بني العنبر:

في المحرم سنة تسع من الهجرة بعث رسول الله ﷺ عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم، في خمسين فارساً من العرب، ليس فيهم مُهاجري ولا أنصاري، فهجم عليهم في صحراء، فلما رأوا الجمع ولَّوا، وأُخذ منهم أحد عشر رجلاً، وإحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبياً، فجلبهم إلى المدينة، فقدم فيهم عدَّة من رؤسائهم، فجاؤوا إلى باب النبي ﷺ فنادوا: يا محمد ! أخرج إلينا. فخرج رسول الله ﷺ وأقام بلال الصلاة، وتعلقوا برسول الله ﷺ يكلمونه فوقف معهم، ثم مضى فصلى الظهر. ونزل فيهم قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ ﴾[1] فَرَدَّ رسول الله ﷺ الأسرى والسبي.[2]

نزلت هذه الآيات الكريمات في ناس من الأعراب، الذين وصفهم الله بالجفاء، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.[3] فقد ذم تبارك وتعالى الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فأرشدهم تبارك وتعالى إلى

---

[1] سورة الحجرات: الآية رقم (٤)

[2] ابن سعد، الطبقات (٢/١٦٠-١٦٢)

[3] ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/٦٨)

الأدب في ذلك، ولو صبروا حتى يخرج إليهم الرسول ﷺ لكان لهم في ذلك الخير والمصلحة في الدنيا والآخرة. ثم دعاهم سبحانه وتعالى في ختام الآيات الكريمة إلى التوبة والإنابة.[١]

وفي هذا التوجيه الرباني من الله سبحانه وتعالى، يتبين أن هذا الدين دين خُلُق وأدب، فبالخُلُق والدين تسود المحبة والألفة بين الناس، نتيجة الحقوق التي تُعطى لكل ذي حق، بما فيها الحقوق الأدبية؛ التي منها هذا التوجيه الرباني العظيم.

ومن جملة ما بينته الآيات الكريمات السابقة لهذه الآية في التأدب مع النبي ﷺ أن لا يرفع المخاطِب صوته على النبي ﷺ ولا يجهر له بالقول، بل يغض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكريم، وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزونه في خطابهم، كما تَمَيَّز عن غيره؛ في وجوب حقه على الأمة؛ ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به.[٢]

ويُسْتَنْتَج من هذا التوجيه الرباني، أن من محبة رسول الله ﷺ بعد وفاته في هذا الصدد، أن يُجِلَّ المسلمُ اسمه وذكره، فإذا ذكره؛ ذكره بأدب، وصلى عليه، ومجده بما يليق بمقامه ﷺ وإذا ذكره أحدٌ عنده صلى وسلم عليه، وإن زار قبره، وقف عند قبره بأدب، وسلم وصلى عليه بأدب، وإن سمع حديثاً له ﷺ أنصت واستمع ونوى وعزم أن يطبقه ويمتثل به، واجتهد في العمل به كما أمر أو نهى ﷺ

ويُستفاد كذلك توقير العلماء وإنزالهم منازلهم، لأنهم ورثة الأنبياء. فليسوا كغيرهم من الناس، لفضلهم على غيرهم بميراث رسول الله ﷺ ولا يُبالغ بتجاوز الحد؛ فيُرفعون فوق منزلة العلماء لأنهم بشر. فالخُلُق الإسلامي ينهى عن الغلو، وينهى عن الجفاء.

---

[١] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٢/٤-٢٢٣)

[٢] ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦٨/٥)

سرية قُطْبة بن عامر بن حديدة إلى خثعم :

بعث رسول الله ﷺ قُطْبة بن عامر في عشرين رجلاً إلى حيّ من خثعم، بناحية تَبالة، بناحية بيشة، قريباً من تربة، في صفر سنة تسع من الهجرة. وأمره ﷺ أن يشن الغارة عليهم. فغاروا عليهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ حتى كثر الجرحى في الفريقين، وقَتَل قُطبة بن عامر من قتل، وساقوا النَّعَم والشاء والنساء إلى المدينة. وجاء سيل فحال بينهم وبينه فما يجدون إليه سبيلا.(١)

وتبين مجريات هذه السرية توفيق الله تعالى بانهزام عدوهم، وما حصلوا عليه من الغنيمة، ثم بما أكرمهم الله تعالى به من جريان السيل بينهم وبين عدوهم من بعد أن أصابوا ما أصابوا من الغنائم.

سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب :

في شهر ربيع الأول؛ سنة تسع من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ جيشاً إلى القُرَطاء. عليهم الضحاك بن سفيان بن عوف الكلابي، ومعه الأصيد بن سلمة بن قرط، فلقوهم بالزُّجّ زُجّ لاوة، فدعوهم إلى الإسلام فأبوا، فقاتلوهم، فهزموهم، فلحق الأصيد أباه سلمة، وسلمة على فرس له؛ في غدير بالزّج، فدعا أباه إلى الإسلام وأعطاه الأمان، فسبّه وسبّ دينه، فضرب الأصيد عُرْقُبَي فرس أبيه، فلما وقع الفرس على عُرْقُبيه ارتكز سلمة على رمحه في الماء، ثم استمسك به حتى جاءه أحدهم فقتله، ولم يقتله ابنه.(٢)

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٦٢/٢)

(٢) المرجع السابق (١٦٢/٢-١٦٣)

سرية عبد الله بن حُذَافَة السَهْمِي، وعلقمة بن مُجزِّرُ المدلجي، ويُقال أنها سرية الأنصاري :[1]

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال (بعث رسول الله ﷺ علقمة بن محرز على بعث أنا فيهم، حتى انتهينا إلى رأس غَزَاتنا...)[2] ذكر ابن سعد في الطبقات: ثم سرية علقمة بن مُجَزّزِ المِدْلجي إلى الحبشة؛ في شهر ربيع الآخر، سنة تسع من الهجرة. فقد بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من الحبشة؛ تراياهم أهل جُدَّة، فبعث إليهم علقمة في ثلاثمائة. فانتهى إلى جزيرة في البحر، وقد خاض إليهم البحر؛ فهربوا منه. فلما رجع تعجَّل بعض القوم إلى أهليهم، فأذن لهم، فتعجل عبد الله بن حُذافة السهمي فيهم، فأمَّره على من تعجل.[3]

ويفيد هذا البعث النبوي: القوة والقدرة التي أعطاها الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ والمؤمنين، بما مكنهم من حفظ ثغور المناطق المفتوحة، وصَد أي عدوان مُحْتَمل.

ويصف راوي الحديث أبو سعيد الخدري ﷺ ما بعد ذلك فيقول (... أو كنا ببعض الطريق أذن لطائفة من الجيش وأَمَّر عليهم عبد الله بن حُذافَة بن قيس السهمي، وكان من أصحاب بدر، وكانت فيه دعابة، يعني مِزاحاً، وكنت ممن رجع معه، فنزلنا ببعض الطريق، قال: وأوقد القوم ناراً ليصنعوا عليها صنيعاً لهم، أو يصطلون، قال: فقال لهم : أليس عليكم السمع والطاعة ؟ قالوا : بلى. قال: فما أنا آمركم بشيء إن صنعتموه ؟ قالوا: بلى. قال: أعَزِم عليكم بحقي وطاعتي لما تواثبتم في هذه النار. فقام ناس فَتَحَجَّزوا حتى ظن أنهم واثبون، قال: أحبسوا أنفسكم. فإنما كنت أضحك معكم. فذكروا ذلك للنبي ﷺ بعد أن قَدِموا، فقال النبي ﷺ : من أمركم منهم بمعصية فلا تُطيعوه)[4]

---

(1) البخاري (٣/١٦٠)

(2) أحمد، المسند (٣/٦٧)

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٦٣) وذكر ذلك ابن حجر، نقلاً عن بعض المصادر (٨/٥٩.٥٨)

(4) أحمد، المسند (٣/٦٧)

وفي رواية للبخاري ـ رحمة الله تعالى عليه ـ عن علي ﷺ قال:(بعث النبي ﷺ سرية، فاستعمل رجلاً من الأنصار، وأمَرَهم أن يُطيعوه، فغضب؛ فقال: أليس أمَرَكم النبي ﷺ أن تُطيعوني ؟ قالوا: بلى. قال: فأجمعوا ليَّ حطباً. فجمعوا. فقال: أوقِدوا ناراً، فأوقدوها. فقال: ادخلوها. فَهَمُّوا. وجعل بعضهم يُمسكُ بعضاً؛ ويقولون: فَرَرْنا إلى النبي ﷺ من النار. فمازالوا حتى خَمَدَتِ النار، فسكن غَضبُه. فبلغ النبي ﷺ فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة. والطاعة في المعروف.)[١]

وفي رواية لمسلم ـ رحمة الله تعالى عليه ـ أنهم أغضبوه، فعن علي ﷺ قال (بعث رسول الله ﷺ سرية. واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار. وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا. فأغضبوه في شيء...)[٢]

وليس هناك ما يمنع أنه اجتمع في هذا الموقف على ما اتصف به من دعابة أن أغضبوه فغضب، فأحب أن يمازحهم بدعابته ﷺ لقاء ما حصل عنده من الغضب. وقال الإمام النووي: هذا الذي فعله هذا الأمير قيل: أراد امتحانهم، وقيل كان مازحاً، قيل أن هذا الرجل عبدالله بن حذافة السهمي، وهذا ضعيف لأنه قال في الرواية التي بعدها: أنه رجل من الأنصار، فدل على أنه غيره.[٣]

وأشار ابن حجر إلى: أن الذي يظهر هو تعدد القصة لاختلاف سياقها واسم أميرهما.[٤] وابن حذافة قرشي مهاجري. ويُحتمل الحمل على المعنى الأعم؛ أي أنه نصر رسول

---

(١) البخاري (٣/١٦٠) برقم (٤٣٤٠)

(٢) مسلم (٣/١٤٦٩) برقم (١٨٤٠.٤٠)

(٣) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٢٢٧/١٢)

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٥٩/٨)

الله ﷺ في الجملة. وإلى التعدد ذهب ابن القيم، وأما ابن الجوزي فقال: قوله من الأنصار؛ وهم من بعض الرواة، وإنما هو سهمي.[١]

والفوائد واردة من أوجه هذه السرية، فمنها ما تمثل به أصحاب رسول الله ﷺ من الطاعة لولي الأمر، حتى هموا أن يثبوا فيها، لعدم معرفتهم بحدود الطاعة لولي الأمر. وفيه كذلك الاجتهاد من الصحابة، والاختلاف أيضاً في الاجتهاد، فقد جاء في رواية (...فأراد ناسٌ أن يدخلوها، وقال الآخرون: إنا قد فررنا منها...)[٢]

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي، إذ بعثه النبي ﷺ في سرية)[٣]

وفي ذلك من الفوائد أن الاختلاف وارد بين الناس، وفي حالة وروده بين المسلمين، فإن مرجعهم هو الكتاب والسنة. لقوله تعالى في تمام هذه الآية ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾[٤]

قال الإمام النووي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ عن طاعة ولي الأمر : أجمع العلماء على وجوبها في غير معصية، وعلى تحريمها في المعصية، نقل الإجماع على هذا القاضي عياض وآخرون. قال العلماء: المراد بأولي الأمر مَنْ أوجب اللهُ طاعته من الولاة والأمراء، هذا قول جماهير السلف والخلف من المفسرين والفقهاء وغيرهم، وقيل هم العلماء، وقيل الأمراء والعلماء.[٥]

(١) ابن حجر، فتح الباري (٥٩/٨)

(٢) مسلم (١٤٦٩/٣) برقم (١٨٤٠.٣٩)

(٣) البخاري (٢١٨/٣) برقم (٤٥٨٤)

(٤) سورة النساء: آية رقم (٥٩)

(٥) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٢٢٣.٢٢٢/١٢)

ومن فوائد ذلك أن من يتقي الله تعالى يجعل له مخرجا، إذ كيف خمدت النار أثناء تفاوضهم في دخولها، وهذا على أن الأمر كان جداً.

وفي ذلك من الفوائد أن الْحُكْمَ في حال الغضب ينفذ منه ما قد يخالف الشرع. وأن الغضب يُغطي على ذوي العقول. وفيه أن من كان صادق النية لا يقع إلا في خير، ولو قصد الشر فإن الله يصرفه عنه، ولهذا قيل: من صدق مع الله وقاه الله، ومن توكل على الله كفاه الله.[1]

سرية علي بن أبي طالب ﵁ إلى الفُلْس.

بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﵁ في خمسين ومائة رجل من الأنصار إلى الفُلْس، صنم طيء؛ ليهدمه، وذلك في شهر ربيع الآخر؛ سنة تسع من الهجرة.

فشنوا الغارة على آل حاتم مع الفجر، فهدموا الفُلس، وخرَّبوه وملأوا أيديهم من السبي والنَّعَم والشاء، وفي السبي أخت عدي بن حاتم، وهرب عدي إلى الشام.[2]

وهذا يدل على امتداد غزوات النبي ﷺ وتوسعها في هذا التاريخ حتى ذلك المكان. وما يمثله ذلك من بسط الولاية ونفوذ الأمر النبوي ﷺ واتساعه، وما يدل عليه من انتشار خبر وخير بعثته ﷺ

ولما مَرَّ رسول الله ﷺ بابنة حاتم، وكانت امرأة جزلة، فقالت: يا رسول الله! هلك الولد، وغاب الوافد[3] فامنُنْ عليَّ مَنَّ الله عليك. قال: (ومن وافدك ؟ قالت: عدي بن حاتم. قال: (الفار من الله ورسوله ؟) فلما كان الغد، قلت له مثل ذلك. وقال لي مثل ما قال بالأمس، حتى إذا كان بعد الغد؛ قلت له مثل ذلك، فقال: (فلا تعجلي بخروج حتى

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٨/٦٠)

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٦٤)

(٣) أي الزائر.

تجدي من قومك من يكون لك ثقة، حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذنيني.) وأقمت حتى قَدِم ركب من بلي أو قضاعة. فقلت لرسول الله ﷺ قدم رهط من قومي، فيهم ثقة وبلاغ. قالت: فكساني رسول الله ﷺ وحَمَلَني وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قَدِمت الشام.(١)

ويبين هذا الحدث، عناية رسول الله ﷺ وإكرامه لذوي المكانة والجاه بعد سقوطهم، وتجاوبه مع الكلمة الطيبة والرجاء الحسن الذي رَجَتْهُ أخت عدي من رسول الله ﷺ وعنايته ﷺ بأمر الثقة في أمرها، مما يؤكد أهمية العناية بالمرأة والحفاظ عليها، وأهمية إكرام ذوي المكانة بعد سقوطهم. ومن فوائد هذا الحدث، اهتمام العرب بالتراكيب الكلامية، وجمال الألفاظ والعبارات المؤدية للمقصود بأحسن تراكيبها اللفظية، كمثل ما حَصَل من بنت حاتم، أخت عدي.

قصة إسلام عدي بن حاتم ﷺ:

وأما عدي فقد كان مبغضاً لأمر رسول الله ﷺ فاراً إلى الشام؛ لحوقاً بأهل دينه من النصارى في الشام. يقول عدي: فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام، وخلَّفت بنتاً لحاتم في الحاضر. فلما قدمت الشام أقمت بها. وتخالفني خيل رسول الله ﷺ .(٢)

فهكذا بَيَّنَ عدي مقدار بغضه لرسول الله ﷺ ولكن للمعروف صنائع في القلوب، وأثر بالغ في النفوس، وهداية الله فوق كل سبب، إذ يقول عدي: فوالله إني لقاعد في أهلي؛ إذ نظرت إلى ظعينة، أي المرأة في هودجها، تَصُوب إليَّ تَؤُمُّنا. قال: فقلت ابنة حاتم. قال: فإذا هي هي. فَعَاتَبَتْه على تركها، فسألها عن أمر رسول الله ﷺ فقالت له: أرى والله أن

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٢٢٦)

(٢) المرجع السابق (٤/٢٢٥)

تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضلة، وإن يكن ملكاً فلن تَذِل في عز اليمن، وأنت أنت. قال: قلت: والله إن هذا لرأي.[1]

فلقد أثر الخُلُق والصنيع النبوي الكريم في نفس ابنة حاتم، حتى طلبت من أخيها أن يُسرع في أمر القدوم على النبي ﷺ فيقابل ذلك عدي بالقبول جراء ما رأى من صنيعه ﷺ بأخته؛ وبما أخبرته عن النبي ﷺ مما يفيد أهمية أعمال المعروف من الداعية، ليكون له عوناً على أداء مهمته الدعوية، إذ أن النفوس تميل إلى صنائع المعروف، وترغب في مكارم الأخلاق. والتي هي حقيقة من حقائق الإسلام.

ثم يأتي عدي إلى النبي ﷺ فيرى منه خُلُقاً عجباً، يقول عدي بن حاتم: فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمت عليه، فقال: (من الرجل ؟) فقلت: عدي بن حاتم. فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها، قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بملك.

قال: مضى بي رسول الله ﷺ حتى دخل بي بيته، فتناول وسادة من أدم؛ محشوة ليفا، فقذفها إليَّ، فقال: (اجلس على هذه.) قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: (بل أنت) فجلست عليها وجلس رسول الله بالأرض. قال: قلت في نفسي، والله ما هذا بأمر ملك.[1]

ويدل المشهد على تواضعه ﷺ ورحمته بالضعيف، وصبره على كلام المرأة الذي استقطع وقتاً طويلاً؛ وهو يستمع إليها دون انزعاج منه ﷺ أو تشاغل بضيفه عنها. وفيه أن الخُلُق الكريم يؤثر في أحكام الناس على الآخرين، ويُكَوّن لديهم أحكاماً يحكمون بها، ويستنتجون منها.

---

(١) المرجع السابق (٢٢٦/٤)

(١) المرجع السابق (٢٢٧/٤)

كما يدل هذا المقطع من اللقاء برسول الله ﷺ على كريم خُلُق النبي ﷺ وإكرامه للضيف، وإكرامه للمرأة التي تتكلم معه طويلاً وهو يستمع لها ﷺ بما يفيد المسلم أن يأخذ حظه ونصيبه من هذا الكرم النبوي العظيم، بمساعدة الضعيف والكبير، وإكرام الضيف، وتقديم ما يحتاج إليه، وإن كان أقل منه مكانة وسناً، فليس هناك أكبر مقاماً من رسول الله ﷺ فيعطي عدي الوسادة ليجلس عليها الضيف، ويَقْعُد هو ﷺ على الأرض.

وبعد هذه المقابلة التي امتلأت خُلُقاً، ودروساً دعوية وتربوية؛ في كيفية معالجة الداعية للمدعو وتأليفه؛ وفتح الأبواب الموصلة لخير الدنيا والآخرة أمامه، حتى أدرك عدي أن أسلوب التعامل النبوي ليس بأسلوب الملوك، وإنما أسلوب الداعي إلى ربه تبارك وتعالى. مما يبين أن منهجية الداعية تنطلق من الهدف؛ وليس من المكانة التي يتبوؤها، ويريد أن يحققها لنفسه بالتعالي ونفخ الذات؛ بل بالبساطة ورحابة الأخلاق.

ثم قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم : (إيه يا عديُّ بنَ حاتم، ألم تكن رَكوسياً ؟)[(١)] قال: قلت: بلى. قال: (أو لم تكن تسير في قومك بالمِرْباع ؟ [(٢)]) قال: قلت: بلى. قال: (فإن ذلك لم يكن يَحِل لك في دينك.) قال: قلت: أجل والله، وقال: وعرفت أنه نبي مُرْسَل، يعلم ما يُجهل.[(٣)]

ويستفاد من هذا الأسلوب النبوي الدعوي التربوي، أهمية التدرج مع المدعو بما يتناسب مع حاله، وأهمية معرفة الداعية لأحوال المدعو الدينية، حتى يستطيع أن يكشف عَوَار وزيف ديانته. ولا يكون ذلك إلا بالاطلاع على حقيقتها. كما يُستفاد من ذلك أن

---

(١) هي ديانة بين دين النصارى والصابئين

(٢) المرباع: الرُّبع. كانوا في الجاهلية إذا غَزا بعضهم بعضا، وغنموا؛ أخذ الرئيس ربع الغنيمة، خالصاً دون أصحابه، وذلك الربع يسمى المرباع. ابن منظور، لسان العرب (١٠١/٨)

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٢٢٧/٤)

النفس البشرية تتجاذب مع المتحدث إذا قَدَّم لأمره بمقدمات صحيحة، ومقدمات تبين صدقه وصدق دعوته من خلال كريم تعامله.

ثم يكشف له النبي ﷺ عن أمور وأحوال عائقة لدخوله في الإسلام. يقول عدي بن حاتم: ثم قال: (لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله لَيُوشِكَنَّ المالُ أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه. ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه ما ترى من كثرة عدوهم، وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف. ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتِحَت عليهم.) قال: فأسلمت.[١]

ويتبين من هذه المحادثة النبوية الكريمة؛ أهمية المعالجة الداخلية للمدعو، وبيان حقيقة ما يجهل، لأن الكافر لا ينظر لهذا الدين إلا من خلال رؤيته المادية. ولئن أخبره ﷺ بأمور غيبية ليست من خصائص غيره ﷺ فإن من مقدور الداعية أن يكشف للمدعو حقيقة هذا الدين والشُّبَه التي يثيرها أعداؤه، أو التي يتوقع أنها في ذهنه؛ من خلال معرفة دينه الكفري، وبيئته التي هو منها، وثقافته ومعرفته العلمية، وغيرها مما يعين على إدراك ما يدور في ذهن المدعو. ومن الفوائد كذلك البيان الإعجازي من النبي ﷺ لما سيحدث من أمور مستقبلية غيبية، قد أجراها الله تعالى في علم نبيه ﷺ

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (٢٢٧/٤)

وكان عدي يقول: قد مضت اثنتان، وبقيت الثالثة، والله لتكونن. قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فُتِحت، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف، حتى تحج هذا البيت، وايم الله لتكونن الثالثة، ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه.[٢]

سرية عكاشة ﷺ إلى الجِناب :

سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى الجِناب، أرض عُذْرة وبليٍّ، في شهر ربيع الآخر، سنة تسع من مهاجر رسول الله ﷺ [٣]

---

[٢] ابن هشام، السيرة النبوية (٢٢٧/٤ ـ ٢٢٨) وذكر قريباً من ألفاظه ابن كثير، في كتابه تفسير القرآن العظيم (٣٦٣/٢)

[٣] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٦٤/٢)

الفصل الخامس عشر
غزوة تبوك

غزوة تبوك، وهي غزوة العسرة :[1]

كانت هذه الغزوة في رجب من سنة تسع للهجرة النبوية المباركة.[2] فقد بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأجلبت معها لَخْم وجُذام وعاملة وغسان، وقدّموا مقدّماتهم إلى البلقاء.[3] وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[4]

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام. ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فَرَغ منهم...ودخل الناس في دين الله أفواجاً، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم، الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام؛ لأنهم أهل الكتاب.[5]

ولعل اجتماع الروم ومن والاهم من قبائل العرب لمقاتلة المسلمين؛ كان سبباً في نفرة المسلمين في وقتٍ شديدِ الحرِ، مع قلة ما لدى المسلمين من تجهيزات، وذلك استجابة لأمر الله تعالى من دلالة الآية السابقة الذكر، والتي أشار إليها ابن كثير رحمة الله تعالى عليه.

كما يستفاد من تسمية هذه الغزوة (العسرة) أنها كانت في شدة وعسرة من حال المسلمين، مما يدل على أن الشدائد التي تصيب المسلم أو المسلمين ليست في كل الأحوال دلالة غضب من الله تعالى، بل إن حكمته متضمنة للرحمة حتى وهي في وقت الشدة؛ التي لا

---

(١) البخاري (٣/١٧٦)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/١٥٩)

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٦٥)

(٤) سورة التوبة: آية رقم (١٢٣)

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤١٦)

يدركها العبد بمقاييسه المحدودة، فنبي الله ﷺ وصحابته، وهم أفضل القرون، يمرون بهذه الشدة والعسرة. مما يفيد المسلمين حين تشتد عليهم الخُطوب وهم في غير معصية، أن يصبروا ويلتمسوا الحكمة في ذلك، وأن المحبوب قد يأتي من المكروه. فلله وحده الحكمة البالغة.

فجاء تجهيز جيش العسرة والدعوة إلى ذلك حيث قال النبي ﷺ (من جهز جيش العُسْرَة فله الجنَّة، فجهزه عثمان) (١)

وفي هذا الحديث ما يفيد أهمية ومكانة النفقة وقت الشدة والقلة والحاجة، وأنه كلما عظمت الحاجة والفاقة ازداد الأجر والثواب، وفيه منقبة عظيمة جليلة لعثمان بن عفان رضي الله عنه إذ جهز الجيش فحظي بالجنة رضي الله عنه مما يجسد تربوياً أهمية هذا الموقف في القدوة من هذا الصحابي الجليل الذي امتدت يداه رضي الله عنه لينفق بها أمواله في الوقت الذي تضاعفت فيه الأرباح الدنيوية؛ نتيجة أحوال الناس التي بلغت فيها المقدرة الإنفاقية أضعف ما تكون؛ بسبب القلة والفاقة التي أصابت المسلمين ذلك الوقت، كما يروي ذلك أبو مسعود رضي الله عنه فيقول (لما أُمرنا بالصدقة، كنا نتحامل، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رئاء، فنزلت (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جُهدَهم))(٢)

وفي هذا الحال من الناس؛ يقول عبد الرحمن بن سمرة (جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه، حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصبها في حجر النبي ﷺ فجعل النبي ﷺ يُقلِّبُها بيده، ويقول: ما ضَرَّ ابن عفان ما عَمِلَ بعد اليوم، يرددها مراراً)(٣)

---

(١) البخاري (١٨/٣) ترجمة الباب. والبخاري (٢٩٨/٢-٢٩٩) برقم (٢٧٧٨)

(٢) البخاري (٢٣٧/٣) برقم (٤٦٦٨)

(٣) أحمد (٦٣/٥)

وفي رواية عند الترمذي (جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار...فرأيت النبي ﷺ يُقلِّبُهَا في حجره ويقول: ما ضَرَّ عُثمان ما عَمِلَ بعد اليوم، مرتين)[1]

ويفيد هذا الموقف العثماني من عثمان رضي الله عنه أن الجزالة في العطاء دلالة قوة الإيمان، التي أعطته هذه الميزة والشهادة له من النبي ﷺ وأن الإنفاق لا يزيد المسلم عند ربه إلا مكانة وصفحاً وغفراناً، وفيه ما يفيد أن العمل الصالح يُكَفِّرَ اللهُ به ما تقَدَّم من الذنوب، ولكن ليس لأحد أن يشهد لنفسه ولا لغيره، فعِلْمُ ذلك عند الله، إلا شهادة رسول الله ﷺ لمن شهد له.

كما أن تلك الشهادة لعثمان رضي الله عنه لم تكن دافعاً للتهاون في الطاعة، بل كانت قوة دافعة للمزيد من الحرص على الطاعة. مما يؤكد للمسلم أن يتابع في أعمال الخير دون تهاون أو اغترار.

ويقول عبد الرحمن بن خَبَّاب (شهدت مع النبي ﷺ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان، فقال: يا رسول الله عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثُمَّ حض على الجيش، فقام عثمان بن عفان، فقال: يا رسول الله عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. ثُمَّ حض على الجيش، فقام عثمان بن عفان، فقال: يا رسول الله ! لله عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل عن المنبر وهو يقول: ما على عثمان ما عَمِل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه.)[2]

وهكذا كرر عثمان بن عفان رضي الله عنه فعل الخير في مواقف متتالية، يتجاوب فيها مع نداء رسول الله ﷺ فضاعف رضي الله عنه عطاءه من مائة إلى مائتين إلى ثلاثمائة بعير بأحلاسها أي كل ما

---

[1] الترمذي (٥/٥٨٥) برقم (٣٧٠١)

[2] الترمذي (٥/٥٨٤) برقم (٣٧٠٠)

على ظهر البعير.[1] بما فيها الأقتاب، التي هي إكاف البعير، الذي هو قدر سنامه، وقيل هو رحلٌ صغيرٌ على قدر سنام البعير.[2]

ويَشهد لهذا العمل الكريم والكبير الصحابة ﷺ عندما استشهدهم عثمان بن عفان ﷺ فأنشدهم الله في بيان ذلك، فعن أبي عبد الرحمن (أن عثمان ﷺ حيث حُوصِر أشرف عليهم، وقال: أُنشدكم الله ! ولا أُنشد إلا أصحاب النبي ﷺ ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من حفر رُومَةَ فله الجنة! فحفرتُها ؟ ألستم تعلمون أنه قال: من جَهَّز جيش العُسْرة فله الجنة ! فجهزتُه ؟ قال: فَصَدَّقوه بما قال.)[3]

فيبين هذا الموقف ويفيد أن للمرء أن يذكر ما قَدَّمَهُ من طاعة لله تعالى إذا احتاج إلى دفع ضُرٍّ عن نفسه، لا لرياء ولا لسمعة وتباه. وفيه كذلك أن المؤمن مبتلى بغيره، وأن الابتلاء ليس متوقف على غير المؤمنين والصالحين، والمشهود لهم بالجنة. مما يفيد أن المسلم الصالح، لا يمنع عنه صلاحه وإيمانه الابتلاء، وأن في الابتلاء حِكَمٌ لا يدرك حقائقها إلا الله تبارك وتعالى، العليم الحكيم، يبتلي من يشاء من عباده بما يشاء، كيف يشاء؛ سبحانه وتعالى له الحكمة البالغة.

ولقد كان موقف المسلمين من الصدقة وتجهيز الجيش، ما هو معهود منهم لربهم سبحانه وتعالى ولنبيه ورسوله ﷺ ولكن الفاقة بلغت منهم مبلغاً، يقول عن ذلك أبو مسعود، عقبة بن عمرو البدري (لما أُمرنا بالصدقة، كنا نتحامل، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا

---

[1] ابن منظور، لسان العرب (٦/٥٤)

[2] ابن منظور، لسان العرب (١/٦٦٠-٦٦١)

[3] البخاري (٢/٢٩٨-٢٩٩) برقم (٢٧٧٨)

الآخر إلا رئاء، فنزلت (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جُهدَهم))[1]

وهذا يبين تفاني المسلمين في النفقة بما يجدون في بيوتهم، ولم يمنعهم قلة ما لديهم، التوقف عن المبادرة بالعطاء والمساهمة، مما يفيد أهمية المبادرة والمشاركة بالعطاء ولو كان قليلاً، ولا حياء من العطاء اليسير ولو كان أمام الناس وعلى مشهد منهم، وفيه أهمية التجاوب مع ولي الأمر إذا طلب العون والغوث والمساعدة. وفيه كذلك عدم الاكتراث بالمحبطين والمستخفِّين بالناس، ومن الفوائد كذلك أن المستهزئين لم يخل منهم المجتمع النبوي الكريم، فكيف بمن بعده من القرون.

وفيه كذلك أن الاستهزاء بأعمال المؤمنين من أخلاق المنافقين. وفيه بيان دفاع الله عن المؤمنين مما قاله المنافقون، ببيان ذلك في القرآن الكريم الذي يُتلى ويُرَتَّل إلى يوم القيامة.

وعن رغبتهم في المشاركة الجهادية في سبيل الله تعالى، أن كل مُقْتَدِر جَهَّز نفسه، وأما غير المقتدرين فيأتون لرسول الله ﷺ يطلبون منه أن يحملهم ﷺ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال (أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحُملان لهم، إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك، فقلت: يا نبي الله ! إن أصحابي أرسلوني لتحملهم، فقال: والله لا أحملكم على شيء. ووافقته وهو غضبان ولا أشعر، ورجعت حزيناً من منع النبي ﷺ ومن مخافة أن يكون النبي ﷺ وجد في نفسه عليَّ. فرجعتُ إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال النبي ﷺ فلم ألبث إلا سويعة، إذ سمعت بلالاً ينادي: أي عبد الله بن قيس ! فأجبته، فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك...)[2]

---

(1) البخاري (٣/٢٣٧) برقم (٤٦٦٨)

(2) البخاري (٣/١٧٦) برقم (٤٤١٥)

وفي هذا دليل على حرص الصحابة ممن لم يجد راحلة أن يبحثوا عن الوسيلة التي تُبَلّغهم المقصد الجهادي، ولم يتخذوا القلة سبباً مانعاً من أداء الجهاد والمشاركة في معية رسول الله ﷺ وبقية أصحابه. مما يعطي مسلكاً تربوياً لمن أراد اقتفاء أثرهم، والسير في ركبهم، بأن لا يجعل الموانع من الخير تحول بينه وبين فعله، بل يسعى في إزالة الموانع بقدر ما يستطيع.

وفيه من الفوائد أنه لا حرج على الرعية أن يطلبوا من ولي الأمر ما يعينهم على طاعة ربهم سبحانه وتعالى. وفيه حرص الأشعريين على مرافقة النبي ﷺ والجهاد في سبيل الله تعالى. ومما يبين شدة حرصهم أن عاد أبو موسى وهو حزين، وعَضَدَ هذا الحزن مخافة أن يكون النبي ﷺ قد وجد عليه شيئاً، خاصة وأنه ألحَّ على النبي ﷺ كما في رواية أخرى، يقول أبو موسى الأشعري (...إنا أتينا النبي ﷺ نفرٌ من الأشعريين، فاستحملناه، فأبى أن يحملنا، فاستحملناه، فحلف أن لا يحملنا...)[1] ثم يجدُ النبي ﷺ ما يحملهم عليه، فيأمر بلالاً رضي الله عنه أن يستدعي أبا موسى، وفي هذا دلالة على حرص النبي ﷺ على أصحابه. إذ لم يتجاهلهم، ويتجاهل مطلبهم، مما يبين أن على الوالي أو من بيده أمر من أمور المسلمين أن لا يتجاهل مطالب الناس أو يستخف بهم، أو بضعف الضعيف. فنبي الله ﷺ يولي أمر الأشعريين اهتمامه، حيث استدعاهم فأعطاهم، كما قال أبو موسى الأشعري (... ثم لم يلبث النبي ﷺ أن أُتِيّ بنَهبِ إبل. فأمر بخمس ذَوْد، فلما قبضناها، قلنا: تغفلنا النبي ﷺ يمينه، لا نُفلحُ بعدها أبداً، فأتيته فقلت: يا رسول الله ! إنك حلفت أن لا تحملنا، وقد حملتنا. قال: أجل، ولكن لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خيرٌ منها.)[2] وفي رواية (...إلا أتيت الذي هو خيرٌ وتحَلَّلتُها)[3]

---

[1] البخاري (١٧٠/٣-١٧١) برقم (٤٣٨٥)

[2] البخاري (١٧٠/٣-١٧١) برقم (٤٣٨٥)

[3] البخاري (٢٢٥/٤) برقم (٦٦٨٠)

فلما جاء للنبي ﷺ نَهَب، أي غنيمة من الإبل؛ أعطى الأشعريين خمس ذَوْد، والذود يقال للقطيع من الإبل: الثلاث إلى التسع، ولا يكون إلا من الإناث.(١) ثم يتبين مدى استشعار الصحابة لما يصدر عنهم في حق رسول الله ﷺ (قلنا: تغفلنا النبي ﷺ يمينه، لا نُفلحُ بعدها أبداً) مما يفيد أهمية استشعار المسلم لما يصدر عنه من مخالفة لأمر أو لنهي رسول الله ﷺ

ثم من فوائد هذا الحديث بيان أن من حلف على أمر فرأى غيره خيراً منها، أخذ بالذي هو خير، كما بين وفعل ﷺ حيث قال لهم عليه الصلاة والسلام (قال: أجل، ولكن لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خيرٌ منها.) ويلزم المسلم أداء كفارة اليمين قال ﷺ (... إلا أتيت الذي هو خيرٌ وتَحَلَّلتُها)

ثم هذا مشهد آخر يمثل الحرص على المشاركة في الجهاد مع رسول الله ﷺ حتى درجة البكاء على أنهم لم يجدوا ما يحملهم عليه ﷺ فقد ذكر ابن إسحاق: أن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاؤون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعُلْبَة بن زيد، أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن حُمام بن الجموح، أخو بني سلمة، وعبد الله بن المغفل المزَني. وبعض الناس يقول: بل هو عبد الله بن عمرو المزني. وهَرَميُّ بن عبد الله، أخو بني واقف، وعِرباض بن سارية الفَزَارِي. فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون.(٢)

فيعطي هذا المشهد البكائي صورة ما تَمَثَّلَ به أولئك الصحابة من محبة لله ولرسوله ﷺ إلى درجة البكاء على عدم المشاركة، بينما غيرهم من المنافقين يبحثون عن الأعذار. مما يفيد

---

(١) ابن منظور، لسان العرب (١٦٨/٣)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١٦١/٤) وابن حجر، فتح الباري (١١٢/٨)

أهمية الاقتداء بهم في طلب رضوان الله تعالى والحرص على ذلك فيما يقدر عليه الإنسان، وبذل الوسع فيما لا يقدر عليه. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فلما رأى اللهُ حرصهم على محبته؛ ومحبة رسوله ﷺ أنزل عُذْرَهُم في كتابه تبارك وتعالى.[1]

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[2]

تبين هاتان الآيتان رحمة الله تعالى بالضعفاء، برفع الحرج عنهم، حتى لا يجدوا في أنفسهم شيئاً من الحسرة التي تقطع قلوبهم المؤمنة، وفي هذا من الفوائد عناية الله تعالى بالجانب النفسي للمؤمنين ورحمته بهم، مما يؤكد أهمية مراعاة الخواطر والجوانب النفسية للمؤمنين، في تعاملهم مع بعضهم البعض، وفي تعامل الرئيس مع المرؤوس، وفيه إعذار المعذور بعذره، وعدم لومه أو تجريحه. بل إن رحمة الإسلام وعنايته بالمؤمنين الصادقين؛ الذين لا يمنعهم من مسلك الخير إلا قلة ذات اليد؛ أن أعطاهم ومنحهم من الأجر بهذه النية الصادقة ما تحقق لمن فعل وشارك. فعن جابر قال: (كنا مع النبي ﷺ في غزاة. فقال: إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. حبسهم المرض) وفي حديث وكيع (إلا شاركوكم في الأجر)[3]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٩٦)

(٢) سورة التوبة: آية (٩١-٩٢)

(٣) مسلم (٣/١٥١٨) برقم (١٩١١)

وعن أنس قال (لما رجعنا من غزوة تبوك قال عليه الصلاة والسلام: إن بالمدينة أقواماً؛ ما قطعتم وادياً؛ ولا سرتم مسيراً إلا شاركوكم فيه، قالوا: وهم بالمدينة، قال: حبسهم العذر.)[١]

وهذا من أقوى الدوافع النفسية للمؤمن بأن يجعل نية الخير وإرادته؛ والعزيمة على مسلكه مطلباً ومقصداً في حياته، فإن أصاب بالفعل أو القول، وإلا بالنية والعزيمة.

ولئن كان ذلك العوز والقلة قد حصل لبعض الصحابة؛ فلقد عوضهم الله تعالى خيراً كثيراً، كما قال أبو مسعود الأنصاري، قال (كان رسول الله ﷺ يأمر بالصدقة، فيحتال أحدُنا حتى يَجيء بالمد، وإن لأحدهم اليوم مائة ألف. كأنه يُعَرِّض بنفسه)[٢]

وفي هذا من الفوائد: أن الغنى بيد الله تعالى، وأن الفقر قد لا يدوم على الإنسان، فقد أغنى الله من كان فقيراً حتى أصبح يملك ما لم يكن يتوقعه في يوم من الأيام، مما يفيد أهمية حُسن الظن برب العالمين، وسؤاله والتملق والتودد والتذلل له تبارك وتعالى. وفيه من الفوائد: التعليم بالتعريض؛ بما أغدق الله تعالى على الإنسان من النعم بعد الفقر والقلة، ليقدم ويبين ما يستعين به الفقير على الصبر وسؤال الرب تبارك وتعالى.



وفي الوقت الذي يتم فيه إعلان النفير والإنفاق على جيش غزوة تبوك يبزغ ويظهر المنافقون؛ وهم يثبطون الناس عن الخروج ويعتذرون لرسول الله ﷺ قال الله تعالى عنهم ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(١) أحمد، المسند (١٨٢/٣)

(٢) البخاري (٢٣٧/٣) برقم (٤٦٦٩)

وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1]

لقد كانت غزوة تبوك في شدة الحر، وعند طيب الظلال والثمار، ولكن النار التي يصير إليها المنافقون أشد حراً، مما فروا منه من حر الدنيا.[2]

ويُستفاد من هذا البيان الإلهي، أن أعمال التثبيط عن الخير بين صفوف المسلمين من أعمال وأخلاق المنافقين، فلا يسلك هذا المسلك النفاقي المؤمنون، بل هم عنه مبتعدون. ويستفاد منه كذلك أن لا يطلب المسلم لنفسه الرخص عن طاعة الله تعالى بالأسباب المماثلة لذلك، كقصر الليل عن أداء صلاة الفجر، وشدة الحر عن أداء الصيام أو الصلاة أو عن الجهاد بمشاغل الدنيا وشدة الحر، أو غير ذلك مما يماثله.

وذهب بعض المنافقين يعتذر بأعذار كاذبة، ليؤذن لهم بالتخلُّف، قال تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[3]

فمن المنافقين من كان يقول: (ائذن لي) في القعود، (ولا تفتني) بالخروج معك، بسبب الجواري من نساء الروم، قال الله تعالى (ألا في الفتنة سقطوا) أي سقطوا في الفتنة بقولهم.[4] فقد قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه ذلك، للجد بن قيس؛ أحد بني سلمة (يا جد ! هل لك العام في جلاد بني الأصفر ؟ فقال: يا رسول الله ! أو تأذن لي ولا تفتني ؟ فوالله لقد عَرَف قومي أنه ما من رجل بأشد عُجْباً بالنساء مني، وإني أخشى إن

---

(١) سورة التوبة: الآيتان رقم (٨١-٨٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٩١) النقل منه بالمعنى.

(٣) سورة التوبة: آية رقم (٤٩)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٧٦)

رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: أذنت لك. ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية. ـ ومعناها ـ أي إن كان إنما خشي من نساء بني الأصفر، وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة أكبر بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه.[1]

فذلك مسلك من مسالك أهل النفاق، وهو البحث عن أعذار باهته، ظاهرها الورع، وباطنها الخذلان والكذب والخداع، والرغبة بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ التي يفديه بها المسلم. مما يفيد أن هذه الأخلاق والأعمال هي مسلك أهل النفاق التي يلزم المسلم أن يتنبه لها ويجتنبها في أعماله وأقواله.

ومن أعمال المنافقين الخبيثة، الماكرة الفاجرة؛ شُروعهم في بناء مسجد؛ وذلك قبل غزوة تبوك، لنوايا رديئة خبيثة، قد كشفها الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ أثناء عودته من تبوك. على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى عند تسجيل بيان عودته ﷺ من هذه الغزوة.

فهكذا يتبين أن فريق المؤمنين مع رسول الله ﷺ يجتهدون في المشاركة بأموالهم وأنفسهم، وفريق المنافقين يعتذرون، ويبثون روح التخاذل بين الناس. وهذا يبين أن المجتمع النبوي الكريم لم يخل من هذه الفئة، وهو أفضل المجتمعات وأفضل القرون، مما يفيد أن منهج أصحاب الخذلان والإرجاف والتعطيل لمنابع الخير لن يختفي في غير القرون المفضلة. وبالتالي يلزم التعامل مع ذلك بحكمة وصبر؛ مع عدم التأثر بأمثال هؤلاء، والحذر من هذا السلوك والخُلُق الذي ارتسم واتصف به أهل النفاق.



لم يتأثر المسلمون بأراجيف المنافقين، فلقد أعدوا العدة، وتهيأوا للسفر، ويصف كعب بن مالك رضي الله عنه شيئاً من حال وطلائع هذه الغزوة، فيقول (ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/١٥٩ـ١٦٠) وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٧٦)

إلا وارى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، وعدواً كثيراً، فَجَلَّى للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أُهبةَ غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه...)[1]

ويفيد هذا البيان من كعب بن مالك رضي الله عنه منهجية الرسول ﷺ في عَدَم إظهار وجهته عندما يغزو، بما يفيد أهمية ذلك في الأعمال التي يُخاف فيها من المتجسسين والعيون التي ترقب حركة المسلمين، أو خطأ يحدث من آحاد المسلمين. وهذا يبين أن للقائد أياً كانت دائرة عمله أن يكتم ما يَبْلُغُ به مصلحة المسلمين أهدافها، وأن على من معه إدراك أهمية مثل ذلك في تحقيق المقصد.

ويفيد كذلك: إذا كان في الأمر كبير مشقة، ويتطلب البيان للأعوان والمشاركين؛ يبين ويوضح ذلك لهم، كما بين رسول الله ﷺ وجهته في غزوة تبوك، وجلَّى للمسلمين أمرهم. كما جاء في الحديث (حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، وعدواً كثيراً، فَجَلَّى للمسلمين أمرهم) ويفيد هذا أهمية إعمال الموازنة بين الأمور بما يحقق المصلحة.

ويبين حديث كعب كثرة عدد المسلمين في هذا الجيش، حيث قال (والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ) قال ابن حجر: وللحاكم في الإكليل من حديث معاذ (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك زيادة على ثلاثين ألفاً)

---

[1] البخاري (٣/١٧٦-١٨٠) برقم (٤٤١٨)

وبهذا العدد جزم ابن إسحاق، وأورده الواقدي بسند آخر موصول، وزاد (أنه كان معه عشرة آلاف فرس)[1]

وهذا يدل على كثرة العدد وقوة الاستنفار، وكثرة من دخل في دين الله أفواجاً. بل بلغ من كثرتهم أنه لو تغيب أحد ما عُرِف؛ إلا أن الله يكشفه (: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله)

ثم يتبين من حديث كعب بن مالك ﵁ أجواء ذلك الوقت، حيث قال (وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال،)

وهو الوقت الذي يرغب فيه المرء أن يكون بجوار ثماره وتحت ظلاله، ولكن لم يتأثر المسلمون بتلك الثمار والظلال، ولم تحبسهم عن مشاركة رسول الله ﷺ والقيام بواجبهم الديني ما كان من وقت حصاد وتنعم بأرزاق الله تعالى. ويضرب أبو خيثمة، سعد بن خيثمة ﵁ مثلاً في التغلب على تلك المؤثرات التي تتجاذبه، إذ يقول (تخلفت عن رسول الله ﷺ فدخلت حائطاً؛ فرأيت عريشاً قد رُشَّ بالماء، ورأيت زوجتي. فقلت: ما هذا بإنصاف، رسول الله ﷺ في السموم والحرور وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح لي وتمرات؛ فخرجت، فلما طلعت على العسكر فرآني الناس، قال النبي ﷺ كن أبا خيثمة، فجئت فدعا لي.)[2]

ويفيد حال أبي خيثمة بيان الأسلوب العلاجي التربوي لما أصابه من دواعي التأخر؛ المتأثرة بالظل والنعيم، فكانت المنطلقات التربوية من المحاكمة النفسية لأمره وحاله مع حال رسول الله ﷺ فالنبي محمد ﷺ (في السموم والحرور ! وأنا في الظل والنعيم) إنها معادلة صعبة التحقق في قلب المؤمن. إذ ليس من العدل والإنصاف أن يكون الأمر كذلك. وبهذه المحاكمة

(١) ابن حجر، فتح الباري (١١٨/٨)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (١١٩/٨)

الذاتية العادلة انتبه أبو خيثمة لما ينبغي أن يكون عليه بعد تلك المعالجة التربوية التي لم تَدم كثيراً. وبهذا يكشف أبو خيثمة إحدى الوسائل التربوية العلاجية؛ من خلال المحاكمة الذاتية، التي تعطي المرء الصورة الحقيقية لذاته؛ وما ينبغي أن يكون عليه، وهو أسلوب سريع النتائج، يحمله المرء معه في كل وقت ومكان، فيعالج به نفسه في أسرع اللحظات، وفي كل الأحوال.

ثم يأتي الموقف التربوي النبوي الكريم، فلم يُعنفه أو يتلفظ له بألفاظ تُثقله، وإنما قابله ﷺ بأحسن ما يمكن أن يُقابل، حيث دعا له ﷺ بما يفيد المربي أو الرئيس أو القائد أو المعلم عندما يأتيه من تراجع عن تقصير؛ فليتوسع له في القبول؛ ويستوعبه أيما استيعاب، ويمده بما يشجعه من كلمات البر والدعاء والثناء، وإحاطته بما ينمي عنده هذا الجانب، كما قال ﷺ (كن أبا خيثمة) فكم لهذه الجملة من دلالات تربوية عظيمة! بثت في نفس أبي خيثمة فيضاً من استشعار المكانة والتقدير، إذ تُنْبِئ أنه شخصية مهمة، افتقده ﷺ من بين ثلاثين ألفٍ أو يزيد، ودعا أن يكون القادم أبا خيثمة، مما يولد الشعور بالمكانة والأهمية. فكلما اتسعت دائرة الاستيعاب للإخوان والأعوان عند الوالي أو الرئيس أو المعلم مع تلامذته وطلابه، أو الوالدين مع أبنائهم بالأسلوب النبوي التربوي، كانت لها دلالات كبيرة في النفس البشرية، فإنها التربية النبوية العظيمة التي تظهر في كل موقف من حياته ﷺ



ثم هذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك يستخلفه على أهله؛ كما جاء في الحديث (أن رسول الله ﷺ خرج إلى تَبُوك، واستخلف علياً، فقال: أَتخلِّفُني في الصبيان والنساء ؟ قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبيٌّ بعدي)[1]

(1) البخاري (٣/١٧٦) برقم (٤٤١٦)

لم يفرح علي بن أبي طالب باستبقائه في المدينة ابتداءً، بل إن المشاركة مع النبي ﷺ في ميزان علي رضي الله عنه أفضل. مما يفيد أن المسلم لا يغتر بالراحة والدعة؛ بل تكون نظرته أبعد من ذلك، فتتجاوز حظوظ النفس والدنيا، لتنظر إلى الآخرة، وهي أمامه بجناتها وقصورها وحورها، فهي المقصد والهدف والغاية. لقد كان علي بن أبي طالب مثالاً وأنموذجاً للتربية النبوية الكريمة.

ويفيد هذا الموقف من علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن قوة الإيمان هي الموسعة للأفق، والنظرة البعيدة. ولكن رسول الله ﷺ بين ماله من منزلة ومكانة عالية رضي الله عنه وأن الأمر غير ما تصور (ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبيٌّ بعدي) وفي ذلك بيان ومنقبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وفيه من الفوائد: أن للمأمور بأمر أن يبين وجهة نظره، وأن الآمر لا ينزعج من وجهة النظر، فيتقبلها، ويبين لصاحبها ما فاته أو خفي عليه من الأمر. ولا يفسر ذلك تفسيراً يبعده عن المأمول فيه، ويجعل ذلك سبباً في عدم الإفادة منه.

وفي الطريق إلى تبوك يحدث موقف يدل على التفاني في العمل من صحابي جليل، يقول عنه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك؛ جعل لا يزال يتخلف الرجل، فيقولون: يا رسول الله ! تخلف فلان. فيقول: دعوه إن يك فيه خير فسيُلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه...)[1]

ويفيد هذا المقطع من الحديث أن عملية التصفية كانت تتم بما يجد المرء من المشقة، فمن كان فيه خير ألحقه الله تعالى بالركب، ومن كان غير ذلك تراجع عن مسيره وتوقف، وفي ذلك من الفوائد أن لا يحزن الوالي أو القائد المسلم على من يتراجع، فإن في خروجه وتراجعه الخير. وفيه من الفوائد: التفويض والتوكل على الله تعالى في الأمور، (إن يك فيه خير فسيُلحقه الله بكم) فكان أبو ذر ممن تَخَلَّف به بعيره ولم يتخلف هو رضي الله عنه يقول ابن مسعود رضي الله عنه

(1) الحاكم (٣/٥٠،٥١)

(...حتى قيل يا رسول الله تخلف أبو ذر؛ وأبطأ به بعيره، فتلوم أبو ذر على بعيره[1] فلما أبطأ عليه أخذ متاعه على ظهره فخرج يتبع رسول الله ﷺ ماشياً...)[2]

ويفيد هذا المقطع من رواية ابن مسعود ﷺ أن أبا ذر ﷺ ممن أراد الله به خيراً، فألحقه الله بركب رسول الله ﷺ وفيه كذلك دلالة على قوة إيمان أبي ذر؛ إذ تحامل على نفسه وحمل متاعه ماشياً على قدميه. بما يفيد أن المتابعة لرسول الله ﷺ تحتاج إلى صبر على مشقة الطريق ومعوقاته، من هوى النفس، وحب الراحة والدعة، ووساوس الشيطان وخذلانه، ورفقاء التثبيط والاستخفاف بشرائع الإسلام وهديه وأخلاقه.

(...ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، ونظر ناظر، فقال: يا رسول الله ! هذا رجل يمشي على الطريق ! فقال رسول الله ﷺ كن أبا ذر. فلما تأمله القوم، قالوا : يا رسول الله ! هو والله أبو ذر. فقال: رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده...)[3]

وفي هذا المقطع من الحديث بيان معجزة من معجزات النبي ﷺ إذ أخبر بحال أبي ذر، فكان له ﷺ ما قاله رسول الله ﷺ إذ يقول ابن مسعود ﷺ (... فضرب الدهر من ضربته، وسير أبو ذر إلى الرَّبَذَة. فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه: إذا متُ فاغسلاني وكفناني؛ ثم احملاني، فضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم، فقولوا هذا أبو ذر، فلما مات، فعلوا به ذلك. فاطَّلع ركبٌ فما علموا به حتى كادت ركائبُهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة، فقالوا: ماذا ؟ فقيل: جنازة أبي ذر. فاستهل ابن مسعود

---

(1) ومعنى تلوم: أي انتظر بعيره، كانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح أي تنتظر. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٢٧٨/٤)

(2) الحاكم (٥١.٥٠/٣)

(3) الحاكم (٥١.٥٠/٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي فيه إرسال.

يبكي، فقال: صدق رسول الله ﷺ يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده. فنزل فوليه بنفسه حتى أجنّه.)[١]

وفي هذا المشهد تحقق ما قاله رسول الله ﷺ وهي معجزة من معجزاته ﷺ وما أكثرها، وأعظمها. وسيأتي شيءٌ منها في هذه الغزوة المباركة. وفيه زهد أبي ذر ﷺ إذ نحى بنفسه عن الناس، فمات وحيداً، وفيه بيان لطف الله تعالى بعباده الصالحين؛ إذ يمر صحابي جليل، فيقوم بمواراته التراب ﷺ وفيه كذلك محبة ورقة ابن مسعود على أبي ذر رضي الله تعالى عنهما، مما يدل على أن قدر الله سبحانه وتعالى نافذ لا محالة، بما يؤكد أهمية الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى بحسن العمل وسؤاله حُسن الخاتمة.

عن معاذ بن جبل ﷺ قال (خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تَبوك. فكان يجمع الصلاة، فصلى الظهر والعصر جميعاً. والمغرب والعشاء جميعاً. حتى إذا كان يوماً أخر الصلاة، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعاً. ثم دخل ثم خرج بعد ذلك. فصلى المغرب والعشاء جميعاً. ثم قال: إنكم ستأتون غداً إن شاء الله؛ عين تَبُوك، وإنكم لن تأتوها حتى يُضحِي النهار، فمن جاءها منكم فلا يَمَسَّ من مائها شيئاً حتى آتي...)[٢]

وفي الحديث من الفوائد الجمع بين صلاة الظهر والعصر، وبين صلاة المغرب والعشاء في السفر. وهذا من رحمة الله تعالى للأمة، لما يلحق الإنسان من متاعب ومشاغل السفر، مما يفيد مراعاة هذا الدين لأحوال الإنسان في سفره وإقامته، فيعطي المؤمن دلالة تربوية عظيمة؛ بأن يراعي في توجيهاته الأحوال والحاجات، وهو أولى بتطبيق ذلك، لما له من القصور في أمر الآخرين، وكيف وقد أخذ بذلك من له الأمر كله سبحانه وتعالى.

---

(١) الحاكم (٣/٥٠،٥١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي فيه إرسال.

(٢) مسلم (٤/١٧٨٤،١٧٨٥) برقم (٧٠٦)

ثم يبين هذا الحديث معجزة نبوية كبيرة، إذ أعلمهم رسول الله ﷺ بما سيكون غداً؛ من وُرود ماء عين تبوك، وحدد لهم موعد الوصول، فقال ﷺ (لن تأتوها حتى يُضحِي النهار) ثم من فوائد هذا البيان النبوي، إكرام الله تعالى لنبيه ﷺ بهذه المعجزة، ومن فوائده كذلك رَبْطُ النبي ﷺ تحقق ذلك بمشيئة الله تعالى، فقال ﷺ (إنكم ستأتون غداً إن شاء الله) مما يؤكد منهجية التطبيق العملي الذي ينبغي أن يدركه ويأخذ به المسلم في كل شأن مُقْدِمٍ عليه، بأن لا يَقْدِمَ على شيء إلا وهو معتقد ومتلفظ بأن ذلك مرتبط بمشيئة الله تبارك وتعالى (إن شاء الله) فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وفي الحديث ذكر اسم تبوك، كما في الحديث الآخر عن أبي موسى رضي الله عنه (أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ اسأله الحُملانَ لهم إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تَبوك...)[1] ذكر ابن حجر عن ابن قتيبة: جاءها النبي ﷺ وهم يَبُكون مكان مائها بقداح، فقال (ما زلتم تبوكونها) فسميت حينئذ تبوك ...وقيل سميت بذلك لقوله ﷺ للرجلين اللذين سبقاه إلى العين (مازلتما تبوكانها منذ اليوم) قال ابن قتيبة: فبذلك سميت عين تبوك. والبوك كالحفر.[2]

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال (...فجئناها، وقد سبقنا إليها رجلان. والعينُ مثلُ الشِّراك تَبِضُّ بشيء من ماء، قال: فسألهما رسول الله ﷺ هل مسستُما من مائها شيئاً ؟ قالا: نعم. فَسَبَّهما النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول. قال: ثم غَرَفُوا بِأيديهم من العين قليلاً قليلاً. حتى اجتمع في شيء. قال: وغَسَلَ رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه. ثم أعاده

---

(١) البخاري (١٧٦/٣) برقم (٤٤١٥)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (١١/٨)

فيها. فَجَرَت العينُ بماء منهمر. أو قال: غَزِير. شَكَّ أبو عليٍّ أيهما قال. حتى استقى الناس. ثم قال: يوشك يا معاذ ! إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد مُلِئَ جناناً)[١]

ويفيد هذا المقطع من الحديث أن العين كانت مثل الشراك تَبِضُّ عندما وصلوا إليها، أي أن ماءها كان قليلاً جداً. والشراك هو سير النعل، وتَبِضُّ أي تبرق، وقيل تسيل.[٢] فسبقه إليه نفرٌ من المنافقين، فاستقوا ما فيه[٣] وفي الحديث معاتبة من خالف النهي الواضح مسبقاً. وفي الحديث معجزتان نبويتان أخريان، إذ كَثَّرَ الله تبارك وتعالى صب العين فاندفع الماء منهمراً غزيراً. والمعجزة النبوية الأخرى؛ إخباره بما سيكون عليه المكان من الجنان. وها هي تبوك جنان من المزارع والحدائق.

ومن المعجزات أيضاً (لما كان غزوة تبوك، أصاب الناس مجاعة، قالوا: يا رسول الله ! لو أذنت لنا فنحرنا نواضِحَنَا؛ فأكلنا وادَّهَنَّا. فقال رسول الله ﷺ : افعلوا. قال: فجاء عمر، فقال: يا رسول الله ! إن فعلت قَلَّ الظّهر، ولكن ادعُهُم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة. لعل الله أن يجعل في ذلك. فقال رسول الله ﷺ : نَعَمْ. قال: فدعا بنطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم. قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة. قال: ويجيء الآخر بكف تمر. قال: ويجيء الآخر بكسرة. حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير. قال: فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة. ثم قال: خذوا في أوعيتكم. قال: فأخذوا في أوعيتهم. حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه. قال: فأكلوا حتى شَبِعُوا. وفَضَلَت فضلةٌ. فقال رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله. لا يلقَى اللهَ بهما عبدٌ غير شاك فَيُحْجَب عن الجنَّة)[٤]

---

(١) مسلم (١٧٨٥.١٧٨٤/٤) برقم (٧٠٦)

(٢) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٤١/١٥)

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية (١٧/٥)

(٤) مسلم (٥٧.٥٦/١) برقم (٢٧.٤٥)

وفي الحديث بيان لما أصاب الجيش من شدة الجوع حتى أنهم أشاروا على رسول الله ﷺ أن ينحروا نواضحهم، أي إبلهم التي يستقون عليها. بل وصل بهم الحال إلى مص النوى كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال (...وقال مجاهد: وذو النواة بنواه. قلت وما كانوا يصنعون بالنوى ؟ قال: كانوا يمصونه ويشربون عليه الماء...)[١]

قال الله تعالى في وصف ذلك ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[٢]

قال مجاهد وغيره: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، ذلك أنهم نزلوا إليها في شدة من الأمر؛ في سنة مجدبة؛ وحر شديد؛ وعُسر من الزاد والماء، وقال قتادة: حتى ذُكر أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم؛ يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ويشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم.[٣] ثم تاب عليهم؛ بعد أن كادت تزيغ قلوب فريق منهم؛ لشدة ما أصابهم. ثم يختم الله هذه الآية مبيناً رحمته ورأفته بهم سبحانه وتعالى. (إنه بهم رؤوف رحيم)

وفي الحديث الأول دلالة على قبول المشورة، وأن تُطرح المشورة ابتداء دونما طلب، كما فعل عمر رضي الله عنه (فجاء عمر، فقال: يا رسول الله ! إن فعلت قَلَّ الظّهر، ولكن ادعُهُم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة. لعل الله أن يجعل في ذلك) وأن للأدنى أن يشير إلى الأعلى، وللأعلى أن يأخذ بمشورة من هو أدنى منه، وفيه الموازنة بين الآراء، وأخذ ما هو أرجح وأصلح. وفي كل ذلك دروس تربوية نبوية لأمته، في كيفية التعامل، وتحقيق منهج

---

(١) مسلم (٥٦.٥٥/١) برقم (٢٧.٤٤)

(٢) سورة التوبة: آية رقم (١١٧)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤١/٢)

التشاور وإبداء الرأي، والتواضع، وعدم الاستنكاف من التراجع عن الأمر المرجوح للراجح، حيث عَدَلَ رسول الله ﷺ عن مشورة نحر النواضح إلى رأي عمر رضي الله عنه بجمع الأزواد والدعاء عليها بالبركة. وفيه من الفوائد بركة اجتماع الطعام. إذ دعا عليه الصلاة والسلام بعد أن جُمِعَت الأزواد على النطع، وهو بساط يُتخذ من الأديم.

وفي الحديث بيان قلة الأطعمة التي كانت مع الصحابة، حتى أن الرجل يأتي بكف ذرة، أو تمر أو كسرة. وفيه معجزة نبوية عظيمة كريمة، قد أجراها الله تعالى على نبيه محمد ﷺ حيث دعا بالبركة، فكثر الطعام حتى ملأوا جميع أوعيتهم، وأكلوا حتى شبعوا، وبقي منه فضلة. فسبحان الله العظيم المنعم على عباده، والمتفضل بنعمه وبركاته، وظهور آياته الباهرات. ثم يختتم رسول الله ﷺ ذلك الموقف بتوحيد الله تعالى بما يؤكد ويبين أن المتفضل هو الله الواحد الأحد، وهذا من أدبه ﷺ مع ربه سبحانه وتعالى، وهو ما يجب أن يدركه المسلم في تقلبه في نعيم الله سبحانه وتعالى وملكوته. فقال ﷺ (أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله. لا يلقَى اللهَ بهما عبدٌ غير شاك فَيُحْجَب عن الجنَّة) وفي هذا بيان لِعِظَم هذه الشهادة العظيمة الكريمة، وعِظَم مقام رسول الله ﷺ عند ربه تبارك وتعالى، سواء بما ورد على النبي ﷺ من معجزات أو باقتران اسمه بالشهادة المدْخِلَةُ للجنة، إذ لا يتم ذلك الأمر إلا بالشهادة أنه رسول الله ﷺ.



وإزاء هذه المواقف والأحوال الإيمانية؛ هناك مواقف نفاقية من المنافقين أثناء هذه الغزوة المباركة، قال قتادة (فبينما النبي ﷺ في غزوة تبوك، وَرَكْبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها ! هيهات هيهات ! فأطلع الله نبيه ﷺ

على ما قالوا، فقال (عليَّ بهؤلاء النفر) فدعاهم، فقال (قلتم كذا وكذا) فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب.[١] قال تعالى

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[٢]

وورد أيضاً في تفسيرها، أن رجلاً من المنافقين قال: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً، وأكذبنا ألسنة، وأَجْبَنُنَا عند اللقاء، فَرُفِعَ ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فقال (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعفُ عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين)[٣]

وفي هذا بيان خطورة الاستهزاء بالدين أو ببعض شرائعه، أو بالقرآن العظيم أو بشيء منه، أو برسول الله ﷺ أو بالمطَبِّق لأمر الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ فإن ذلك خطير، وعاقبته وخيمة؛ كما بينه الله تعالى في نص تلك الآيتين العظيمتين. وهذا يتطلب من المؤمن مزيد حرص ودعاء وسؤال الله تعالى التثبيت وحُسن الخاتمة.



وفي تبوك بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى أُكيدر بن عبد الملك، أُكيدر دُومة. وهي دُومة الجندل، مدينة بقرب تبوك، وأكيدر تصغير أكدر، ودُومة بلد بين الحجاز والشام، وأُكيدر بن عبد الملك، رجل من كندة، كان ملكاً عليها، وكان نصرانياً، فقال رسول

---

[١] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٨٢/٢)

[٢] سورة التوبة: الآيتان رقم (٦٥-٦٦)

[٣] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٨١/٢)

الله ﷺ (إنك تجده يصيد البقر) فخرج خالد بن الوليد، فوجده كذلك، كما قال رسول الله ﷺ فقتل خالد أخاه، واستلبه، فبعث به إلى رسول الله ﷺ قَبْل قدومه به عليه.(١) فحقن دمه، وصالحه على الجزية، ثم خَلَّى سبيله.(٢)

وفي هذا معجزة نبوية؛ أظهرها الله تعالى على رسوله ﷺ بإخباره خالد بن الوليد: أنه يجد أُكيدر يصيد البقر، وفيه بيان نصر الله تعالى لرسوله ﷺ بأن مكنه من ملك كنده، وفيه كذلك نصرٌ وإعلانٌ بقوة المسلمين؛ وخضوع غيرهم لهم بدفع الجزية، وفي هذا كسر لشوكة الكفر نحو الشام.

وأتاه جَرباء وأَذْرُح، فأعطوه الجزية، فكتب رسول الله ﷺ لهم كتاباً، فهو عندهم.(٣)

وعن أنس رضي الله عنه (أن أُكيدر دُومة الجندل أهدى لرسول الله ﷺ حُلَّة)(٤)

وعن البراء رضي الله عنه قال (أُهديت للنبي ﷺ حُلَّةُ حرير، فجعل أصحابه يَمسُّونها ويعجبون من لينها، فقال: أتعجبون من لين هذه ؟ لمناديل سعد بن معاذ خيرٌ منها؛ أو ألين)(٥)

قيل خص المناديل بالذكر لكونها تُمْتَهَن؛ فيكون ما فوقها أعلى منها بطريق الأولى.(٦)

وهذا الأسلوب النبوي التربوي مشتمل على التذكير بالعاقبة الكريمة، والانتقال بالمخاطب من النظر في الدنيا إلى التفكير في النعيم الذي لا يزول في الآخرة.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١٦٩/٤-١٧٠)مختصراً، وابن حجر، فتح الباري (٢٣١/٥).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١٧٠/٤)

(٣) المرجع السابق (١٦٩/٤)

(٤) البخاري (٢٤١/٢) برقم (٢٦١٦) ومسلم (١٩١٦/٤-١٩١٧) برقم (٢٤٦٩)

(٥) البخاري (٤٣/٣) برقم (٣٨٠٢) وكذلك (٢٤٠/٢-٢٤) برقم (٢٦١٥) ورقم (٣٦٦) ومسلم (١٩١٦/٤-١٩١٧) برقم (٢٤٦٨) ورقم (٢٤٦٩)

(٦) ابن حجر، فتح الباري (٣٩/١٠)

وفي هذا بيان نبوي بحال شيء من أمور الجنة، وكذا منزلة سعد بن معاذ ﷺ وفيه من الدروس التربوية: أن لا يغتر المسلم بملذات الدنيا وزخرفها؛ فما عند الله خير من ذلك وأبقى وأنفس. قال الإمام النووي: قال العلماء: هذه إشارة إلى عظم منزلة سعد في الجنة، وأن أدنى ثيابه فيها خير من هذه؛ لأن المنديل أدنى الثياب...فغيره أفضل، وفيه إثبات الجنة لسعد.[١]

وقال أبو حُمَيْد الساعدي (غزونا مع النبي ﷺ تبوك، وأهدى مَلِك أَيْلَةَ للنبي ﷺ بغلة بيضاء، وكساه بُرْداً، وكتب إليه ببحرِهِم)[٢]

وفي رواية ضعيفة الإسناد أنه جرت مراسلة بين النبي ﷺ وهرقل ملك الروم، أثناء غزوة تبوك، بأن أرسل رسول الله ﷺ دحية الكلبي إليه، وأن هرقل أرسل التنوخي إلى رسول الله ﷺ ليعرف بعض علامات النبوة.[٣]

ومن مواقف هذه الغزوة ما رواه عروة بن المغيرة بن شعبة، عن أبيه، قال: (تخلَّف رسول الله ﷺ وتَخَلَّفتُ معه، فلما قضى حاجته، قال: أمعك ماء ؟ فأتيته بِمَطْهَرَة. فغسل كفيه ووجهه. ثم ذهب يحسرُ عن ذراعيه فضاق كُمُّا الجُبَّة، فأخرج يده من تحت الجبة، وألقى الجبة على منكبية، وغسل ذراعيه، ومسح بناصيته وعلى العمامة وعلى خفيه، ثم ركب وركبت. فانتهينا إلى القوم، وقد قاموا في الصلاة، يصلي بهم عبد الرحمن بن عوف، وقد ركع بهم ركعة، فلما أحس بالنبي ﷺ ذهب يتأخر، فأومأ إليه. فصلى بهم، فلما سلَّم قام النبي ﷺ وقمت. فركعنا الركعة التي سبقتنا.)[٤]

---

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٢٣/١٦)

(٢) البخاري (٢٤٠/٢) باب قبول الهدية من المشركين. رقم (٢٨) وكذلك (٤٠٨/٢) برقم (٣١٦١)

(٣) أحمد (٤٤٢،٤٤١) وقال محققوا المسند، طبعة الموسوعة الحديثية، الشيخ شعيب الأرنؤط وآخرون: حديث غريب، وإسناده ضعيف (٤١٩/٢٤)

(٤) مسلم (٢٣١،٢٣٠/١) برقم (٢٧٤،٨١)

ومما يبين أن هذا حدث في غزوة تبوك هذه الرواية من صحيح البخاري، فعن عروة بن المغيرة عن أبيه المغيرة بن شعبة، قال (ذهب النبي ﷺ لبعض حاجته، فقمت أسكب عليه الماء ـ لا أعلمه إلا قال: في غزوة تبوك ـ فغسل وجهه، وذهب يغسل ذراعيه، فضاق عليه كُمُّا الجُبَّة، فأخرجهما من تحت جُبَّتِه فغسلهما، ثم مسح على خفيه.)[1]

قال الإمام النووي: اعلم أن هذا الحديث فيه فوائد كثيرة، منها جواز اقتداء الفاضل بالمفضول، وجواز صلاة النبي ﷺ خلف بعض أمته، ومنها أن الأفضل تقديم الصلاة في أول الوقت، فإنهم فعلوها أول الوقت، ولم ينتظروا النبي ﷺ ومنها أن الإمام إذا تأخر عن أول الوقت استحب للجماعة أن يُقَدِّموا أحدهم، فيصلي بهم إذا وثقوا بحسن خُلُق الإمام؛ وأنه لا يتأذى من ذلك؛ ولا يترتب عليه فتنة، فأما إذا لم يأمنوا أذاه فإنهم يُصَلّون في أول الوقت...ومنه أن من سبقه الإمام ببعض الصلاة أتى بما أدرك، فإذا سلم الإمام أتى بما بقي عليه... ومنها اتباع المسبوق للإمام في فعله...وأن المسبوق إنما يفارق الإمام بعد سلام الإمام.[2] وفيه فضيلة لعبدالرحمن بن عوف؛ حيث أمَّ بالنبي ﷺ

وفيه من الفوائد الابتعاد عن الأنظار وعن الناس عند قضاء الحاجة؛ والاستعانة بالغير في الوضوء ونحوه، وكذلك دقة منهجية النقل العلمي عند الصحابة، ودقة الوصف وذكر التفاصيل. مما يؤكد أن هذه المنهجية العلمية قد تولدت لديهم من خلال التربية النبوية على المنهج الإسلامي الذي يؤكد على مسؤولية القول والعمل.



ويتبين مما سبق أن رسول الله ﷺ وأصحابه لم يواجهوا حرباً، فرجع إلى المدينة ﷺ منصوراً بما تحقق له. وفي الطريق أتوا على الحِجْر؛ من ديار ثمود، فعن ابن عمر رضي الله

(١) البخاري (١٨٠/٣) برقم (٤٤٢١)

(٢) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٧٢/٣.١٧٣)

تعالى عنهما، قال (لما مَرَّ النبي ﷺ بالحجْر؛ قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم؛ أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين. ثمَّ قَنَّعَ رأسه، وأسرع السير؛ حتى أجاز الوادي)[1] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال (قال رسول الله ﷺ لأصحاب الحجر: لا تدخلوا على هؤلاء المعَذَّبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم)[2] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال (أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر، أرض ثمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهريقوا ما استقوا ويُعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي تَرِدُها الناقة)[3]

وفي تلك الأحاديث بيان ما ينبغي للمسلم إزاء ديار أولئك الذين ظلموا أنفسهم، أن لا يدخلوها إلا باكين خشية الإصابة بما أصابهم، ثم الإسراع في السير عند المرور بها. وفيه من الفوائد التربوية؛ التربية بالأحداث، حيث أشار لهم ﷺ بما حدث في المكان لأهله من العذاب، نتيجة العصيان والتمرد على الله تعالى وعلى نبيه عليه السلام.

قال الإمام النووي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ : فقوله (قال لأصحاب الحجر) أي قال في شأنهم، وكان هذا في غزوة تبوك...وفيه الحث على المراقبة عند المرور بديار الظالمين؛ ومواضع العذاب، ومثله في وادي محسر لأن أصحاب الفيل هلكوا هناك، فينبغي للمار في مثل هذه المواضع المراقبة والخوف والبكاء والاعتبار بهم وبمصارعهم، وأن يستعيذ بالله من ذلك... وفي هذا فوائد، منها: النهي عن استعمال مياه أبار الحجر، إلا بئر الناقة، ومنها لو عجن منه عجيناً لم يأكله، بل يُعَلِّفه الدواب.[4]



---

(١) البخاري (٣/٨٠) برقم (٤٤١٩)

(٢) البخاري (٣/١٨٠) برقم (٤٤٢٠)

(٣) مسلم (٤/٢٢٨٦) برقم (٢٩٨)

(٤) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٨١/١١١-١١٢)

وفي أثناء عودة الرسول الله ﷺ **ينـزل** عليه الوحي، مبيناً أمر مسجد الضرار. إذ لما قفل رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض اليوم؛ نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار؛ وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين.[1]

قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) ﴾[2]

فقد كان في المدينة رجل من الخزرج يُقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه؛ وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله تعالى يوم بدر؛ شَرِقَ اللعين بريقه، وبارز بالعداوة، وذهب إلى هرقل ملك الروم؛ يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه، فكتب إلى أتباعه بمناصرة ملك الروم له، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يصلي فيه، ليحتجوا بصلاته، فعصمه الله. وكان ﷺ على سفر، ووعدهم إذا رجع. فأنزل الله تعالى خبر مسجد الضرار.

فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه، قبل مقدمه المدينة.[3]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٠٢/٢)

(٢) سورة التوبة: الآيتان رقم (١٠٧-١٠٨)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٠٢/٢)

ويستفاد من ذلك تحريق أمكنة المعصية؛ التي يُعصى اللهُ ورسولُه فيها؛ وهدمها، كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار، وأمر بهدمه، لما كان بناؤه إضراراً وتفريقاً بين المؤمنين.[١]

ويُستفاد من هذا أهمية المسجد والأهمية التي يؤديها، وكيف استغل المنافقون هذه الأهمية في أهداف قد رسموها، فبينها الله تعالى، وهي :

. ضراراً. أي بمعنى الْمُضارة لمسجد قباء.

. وكفراً بالله ورسوله.

. وتفريقاً بين المؤمنين. لأنهم كانوا يصلون في مسجد قباء جميعاً، فأرادوا تفريق جماعتهم.

. والإرصاد: الانتظار، فانتظروا به مجيء أبي عامر.[٢] لمن حارب الله ورسوله.



وما أن اقترب الناس من المدينة إلا وقد جهدت مطاياهم وتعبت، ولكن الله تعالى من عليها وعليهم بدعاء النبي محمد ﷺ فعن فضالة بن عبيد الأنصاري (غزونا مع النبي ﷺ غزوة تبوك، فَجُهِدَ بالظَّهْرِ[٣]جَهْداً شديداً، فَشَكَوْا إلى النبي ﷺ ما بظَهْرِهم من الجَهْد، فَتحين بهم مضيقاً، فسار النبي ﷺ فيه، فقال: مُرُّوا بسم الله، فَمَرَّ الناس عليه بظَهْرِهم، فجعل يَنفُخُ بظهرهم :اللهم احْمِلْ عليها في سبيلك، إنك تحمل على القوي والضعيف وعلى الرطب واليابس؛ في البر والبحر، قال فما بَلَغْنا المدينة حتى جَعَلَت تُنازِعُنا أزِمَّتها[٤].قال فضالة :

---

(١) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٣/٥٧١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣٣٩)

(٣) الجَهْد المشقة. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٣٢٠)، والظَّهر: الإبل. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/١٦٦)

(٤) زممت البعير إذا عَلَّقت عليه الزمام. والزمام الخيط الذي يُشَدُّ به. وزممت البعير خطمته. ابن منظور، لسان العرب (١٢/٢٧٢)

هذه دعوة النبي ﷺ على القوي والضعيف، فما بال الرطب واليابس ! فلما قدمنا الشام غزونا غزوة قبرص في البحر، فلما رأيت السفن في البحر؛ وما يدخل فيها، عَرَفْتُ دعوة النبي ﷺ)[1]

وفي الحديث بيان أثر الدعاء وسؤال الله تعالى، فهو الكريم العظيم سبحانه وتعالى، حيث نشطت الإبل، وكانت في أحسن ما يكون؛ بعد أن تَعِبَت فجَهِدَت جهداً شديداً، وفيه استجابة دعاء النبي ﷺ وفي هذا معجزة نبوية من لله تعالى لنبيه الكريم ﷺ وفيه كذلك بركة دعاء النبي ﷺ ومكانته عند ربه جلَّ جلاله. وأيضاً فضل هذا الدعاء في المعالجة من الجهد والتعب. وفيه النفخ على الهزيل بالدعاء.

وعندما اقترب رسول الله ﷺ من المدينة؛ بين لأصحابه حال بعض المسلمين الذين منعهم العذر من غزوة تبوك. وما حصلوا عليه من الأجر والثواب. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك؛ فَدَنا من المدينة؛ فقال: إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله ! وهم بالمدينة ؟ قال: وهم بالمدينة! حبسهم العذر)[2]

فهذه المعية القلبية التي كانت من أصحاب الأعذار من الصحابة، جعلت لهم من الخير الشيء العظيم، مما يفيد أن النية الصالحة الصادقة من إرادة الخير إذا حال بينها وبين الفعل العذر، تحقق للمرء المسلم خيراً عظيماً.

وهذا من الجهاد بالقلب، وهو أحد مراتبه الأربع: القلب واللسان والمال والبدن.[3]

---

(١) أحمد، المسند (٢٠/٦) وقال محققوا المسند، طبعة الموسوعة الحديثية، الشيخ شعيب الأرنؤوط ومن معه: حديث صحيح. (٣٧٨،٣٧٧/٣٩) وقم الحديث (٢٣٩٥٥)

(٢) البخاري (١٨٠/٣) برقم (٤٤٢٣)

(٣) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٥٧١/٣)

وعن مشاعره ﷺ عندما أقبل على المدينة، وفرحه وسروره برؤيتها، يقول أبو حُميد (أقبلنا مع النبي ﷺ من غزوة تبوك، حتى إذا أشرفنا على المدينة، قال هذه طابة، وهذا أحد جبل يُحبُّنا ونحبُّه)[١]

وفي الحديث بيان أَحَدِ أسماء المدينة، أنها طابة. وفيه بيان لما عليه أُحُد من محبته للمؤمنين، ومحبة المؤمنين له. فجبال صماء قد أحبت المسلمين وأحبوها، وتفاعلت معهم وجداناً فمودة، وما ذاك إلا تسخيرٌ من الرحمن، وعلو منزلة دين ربنا المنان.

وأما مشاعر أهل المدينة، فيرويها السائب ﷺ حيث قال (أذكر أني خرجت مع الصبيان؛ نتلقى النبي ﷺ إلى ثنية الوداع، مَقْدمه من غزوة تبوك)[٢]

وفي هذا بيان ما كان عليه الصبيان من الفرح والسرور بمقدم رسول الله ﷺ وجيشه، وخروجهم لاستقباله فرحاً وسروراً. وهو مشهد اجتماعي وتربوي يدل على المشاعر والعواطف التي تَرَبَّى عليها أولئك الصبية من أهليهم.

ثم وصل ﷺ المدينة صباحاً، كما جاء في الحديث (...وصَبَّح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قَدِم من سفرٍ بَدَأ بالمسجد، وركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس...)[٣]

فيبين هذا الحديث المنهج النبوي الذي كان معهوداً منه ﷺ عند قدومه؛ أن يبدأ بالمسجد؛ فيصلي فيه ركعتين، ثم يجلس للناس. قال ابن القيم: أن السنة للقادم من السفر أن يدخل البلد على وضوء، وأن يبدأ ببيت الله قبل بيته، فيصلي فيه ركعتين.[٤]

---

(١) البخاري (١٨٠/٣) برقم (٤٤٢٢)

(٢) البخاري (١٨١/٣) برقم (٤٤٢٧)

(٣) مسلم (٢١٢٠/٤-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

(٤) ابن القيم، زاد المعاد (٥٧٥/٣)

ويروي كعب بن مالك ﷺ ما كان منه أثناء جلوسه ﷺ للناس، فيقول (...فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له. وكان بضعة وثمانون رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله . فجئته...)[1]

وفيما يلي تفصيل قصة كعب بن مالك كما يرويها ﷺ :

الثلاثة الذين خُلِّفوا. (حديث كعب بن مالك)

يقول كعب بن مالك ﷺ (... وكان من خبري، حين تخلفت عن رسول الله ﷺ ، في غزوة تبوك، أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله! ما جمعت قبلها راحلتين قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حَرٍّ شديدٍ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً...)[2]

يفيد مطلع رواية كعب بن مالك ﷺ الصدق في الرواية، حتى وإن كانت كاشفة وموضحة لما لا يمكن أن يعرفه أحد من البشر، فلم يمنعه ذلك ﷺ من عدم كشفه وبيانه للناس، حتى يستفيدوا من مضامين هذه القصة التي قد امتلأت دروساً وعبراً ومواعظ، فكان أولها منهجية الصدق التي تربوا عليها في مدرسة رسول الله ﷺ مما يفيد أهمية الصدق مع الله تعالى دون اكتراث بما سيكون من أمر الناس.

وقد أوضح كعب ﷺ أن السبب في تأخره لم يكن مادياً، بل إن ما توفر لديه من الراحلة، يحقق له إلزامية المشاركة، كما أوضح ما أنعم الله تعالى به عليه من الراحلتين، بعد أن كان لا يمتلكهما.

---

(١) مسلم (٤/٢١٢٠،٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

(٢) مسلم (٤/٢١٢٠،٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

وتفيد هذه الرواية بيان حال تلك الغزوة من الحر الشديد، وَبُعْدِ المسافة، وكثرة العدو، مما يُرجح أن سبب الغزوة هو ما بلغ رسول الله ﷺ من أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام. (واستقبل عدواً كثيراً)

ثم يقول كعب رضي الله عنه (... فَجَلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أُهْبَةَ غزوهم. فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثيرٌ؛ ولا يجمعهم كتابُ حَافِظٍ (يريد بذلك: الدِّيوان)، قال كعبٌ: فَقَلَّ رجلٌ يريد أن يَتَغَيَّبَ، يظن أن ذلك سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحيٌ من الله عزَّ وجلَّ...)[١]

وفي هذا بيان لما كان من رسول الله ﷺ في هذه الغزوة، إذ جلَّى لهم أمر هذه الغزوة، فَيُفْهَمُ أنه كان ﷺ يواري في غيرها. كما جاء في الحديث (فكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا وَرَّى بغيرها)[٢] مما يفيد أهمية مراعاة القائد ومن في حكمه لمصلحة المسلمين في البيان أو التورية، وأن يُقَدِّر ذلك، ويجتهد فيه، كما يفيد أن على المرؤوس أو المتبوع أن يقبل ذلك ويدرك أهمية المصلحة العامة.

ويفيد هذا البيان من كعب رضي الله عنه كثرة المسلمين في هذه الغزوة، حتى لو أن الرجل أراد أن يتغيب فلن يُكشف أمره لكثرتهم ولعدم قيد الأسماء في ديوان. إلا بوحي من الله تعالى، العالم بكل شيء سبحانه وتعالى.

ثم يقول كعب رضي الله عنه (...وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظِّلال، فأنا إليها أَصْعَر، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطَفِقْتُ أَغْدُو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك، إذا أردتُ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجِدَّ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض

---

[١] مسلم (٢١٢٨-٢١٢٠/٤) برقم (٢٧٦٩)

[٢] مسلم (٢١٢٨/٤) برقم (٢٧٦٩-٥٤)

من جَهَازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتَفَارَطَ الغَزْوُ، فَهَمَمْتُ أن أرتحل فأُدْرِكَهُم فيا ليتني فعلتُ، ثم لم يُقَدَّرْ ذلك لي...)[1]

يبين كعب بن مالك رضي الله عنه حالة المدينة الزراعية في فترة الغزوة، من استواء الثمار فيها، وكان وقت حصاد واستطابة لها ولظلالها الوارفة، وقد كان لها أميل (فأنا إليها أصعر) ثم يبين الحالة النفسية التي كان فيها، وكذا عامل التسويف الذي حصل عنده رضي الله عنه فلم يكن عن الغزوة راغباً، بل كان رضي الله عنه منشغل البال بها، متحمساً لها، غير أن عامل التسويف قضى على تلك الرغبة والذي عبر عنه بقوله رضي الله عنه (فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو) أي تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا. مما يفيد ويبين خطورة التسويف في فعل الخير، وأنه قد يمنع الإنسان عن الخير، ويحول بينه وبين فعله.

ثم يبين رضي الله عنه ما خلج في نفسه، من أنه هَمَّ أن يرتحل فيدرك الناس، ولكن لم يكن ذلك، ثم حدثت الأمنية للفعل وتفعيل تلك الرغبة، بعد انقضائها. مما يفيد كيف يكون حال المؤمن بعد فواته للخير، أن يكون نادماً متحسراً، حتى تتحفز النفس لغيره من الخير، وتبلغ التربية الذاتية مبلغها الفاعل فيما سيأتي. ثم بعد ذلك يقول رضي الله عنه (ثم لم يُقَدَّرْ ذلك لي) فيربط رضي الله عنه ذلك بقدر الله تعالى، وهو ما يجب أن يكون عليه المؤمن بعد الحدث، إذا كان تقصيراً أن يندم ويعترف بتقصيره، ويعلم أن كل شيء بقدر الله تعالى. مما يفيد أن التوفيق للخير بيد الله تعالى فيطلبه من واهبه عزَّ وجل. وهنا لم يحتج بالقدر، وإنما يعزي نفسه به.

ثم يبين رضي الله عنه مزيد تفصيل لحالته النفسية، وكذا أسلوب المقارنة والقياس التربوي الذي يحفز النفس للخير ويبين لها حجم التقصير، فيقول رضي الله عنه (... فَطَفِقْتُ، إذا خرجتُ في الناس،

---

(١) مسلم (٤/٢١٢٠-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

بعد خروج رسول الله ﷺ، يحزُنُني أنِّي لا أرى لي أُسْوَةً، إلا رجلا مَغْمُوصاً عليه في النفاق، أو رجلا مِمَّنْ عَذَرَ الله من الضعفاء...)[١]

ويفيد هذا أهمية المعالجة التربوية الصادقة من خلال المقارنة بالمماثلين في الفعل، وعدم البحث عن الأعذار الواهية وتلمسها والتعليق عليها، وهو الأسلوب الناجع الذي امتلأت به النفوس المؤمنة من منهجية رسول الله ﷺ التربوية. فلقد قارن نفسه رضي الله عنه بمن تخلف، فلم يجد إلا صنفين من الناس: رجل متهم بالنفاق، أو رجل معذور بعذر.

ويعتبر هذا الأسلوب من الأساليب التربوية الفاعلة والمؤثرة في تنمية الذات وتصحيح مسارها واتجاهها، حتى تسلك المسلك الصحيح. وهذا ما سلكه كعب رضي الله عنه

قال ابن حجر رحمة الله تعالى عليه في الإخبار عن تقصير النفس: وجواز إخبار المرء عن تقصيره وتفريطه، وعن سبب ذلك وما آل إليه أمره تحذيراً ونصيحة لغيره.[٢]

ثم ينقل كعب رضي الله عنه المشهد إلى تبوك، فيبين ما دار عنه من حديث، فيقول رضي الله عنه (...ولم يذكرني رسول الله ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكاً، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك ؟ ...)

وفي هذا الموقف النبوي الكريم، ما يبين عنايته ﷺ بأصحابه رضي الله تعالى عنهم، إذ لم ينشغل ﷺ بأمور الناس وكثرتهم عمن تخلف، ويكتفي بهم دون السؤال عن غيرهم ممن لم يحضر. وإنه لدرس تربوي عظيم، يتعلم منه الحاكم مع أعوانه ومساعديه، والقائد مع جنده وعسكره، والمدير والرئيس مع مرؤوسه، والمعلم مع تلاميذه، والداعية مع المدعوين، والأب مع أسرته، والصديق مع أصدقائه ... إلى غير ذلك من دوائر المجتمع وشرائحه المختلفة من السؤال عن الغائب والمتخلف.

---

[١] مسلم (٤/٢١٢٠-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

[٢] ابن حجر، فتح الباري (١٢٣/٨)

ففي السؤال عمن تأخر أو غاب أثر كبير في حق المسؤول عنه، وعلى نفسيته، وعلى الحاضرين الذين يتعلمون من خلاله كيف يتعاملون مع الغائب. ويلاحظ أنه ليس من أسلوبه ﷺ التغافل في مثل هذا الموقف. وفي السؤال من رسول الله ﷺ ما يبين مكانة كعب ابن مالك رضي الله عنه والأثر الذي سيرتسم عليه ويوضح كريم خُلُقه ﷺ وعظيم عنايته بأصحابه وتفقده لهم.

وبعد سؤال النبي ﷺ عن كعب يدور حديث قصير بخصوصه، يقول كعب رضي الله عنه (...قال رجل من بني سَلَمَة: يا رسول الله! حبسه بُرْدَاه والنظر في عِطْفَيْهِ، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلتَ، والله! يا رسول الله! ما عَلِمْنَا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ...)[1]

أي أن الذي منعه من الغزو هو انشغاله بذاته. وكنى بذلك عن حسنه وبهجته، والعرب تصف الرداء بصفة الحسن، وتسميه عطفاً لوقوعه على عطفي الرجل[2] ولكن معاذ بن جبل يدفع ويرد عن كعب، ويخبر بما يعرفه من الخير. مما يفيد ويبين المسلك والمنهج الذي يجب على المسلم أن يسلكه عندما يعرف خلاف ما يُذْكَر. وأن للمرء أن يدفع عن أخيه مع وجود من هو أعلى منه مقاماً ومكانة، وأن للأعلى كالحاكم أو الرئيس، أو الوالد في منزله، أن يكتفي برد من رد.

ومن فوائد هذا الموقف الاكتفاء بالرد الإجمالي وترك المعاتبة أو التعليق، وكثرة القيل والقال، أو البسط في التوجيه.

---

[1] مسلم (٤/٢١٢٠-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٨/١١٩)

قال ابن حجر: جواز الطعن في الرجل بما يغلب على اجتهاد الطاعن عن حمية لله ورسوله. وفيها جواز الرد على الطاعن إذا غلب على ظن الراد وهم الطاعن، أو غلطه[1]

ثم يقول كعب ﷺ عن المسلمين في تبوك (...فَبَيْنَما هو على ذلك رَأى رَجُلاً مُبَيِّضاً يزول به السراب فقال رسول الله ﷺ :كُنْ أَبَا خَيْثَمَة، فإذا هو أبو خَيْثَمَةَ الأنصاريُّ، وهو الذي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التمر حِين لَمَزَهُ المنافقون...)[2]

ويبين هذا المشهد مزيداً من عناية الرسول ﷺ بأصحابه، وتفقده لهم، وكريم خُلُقه وحسن صحبته ﷺ بما يؤكد أهمية السؤال عن الآخرين وتمني وجودهم. فإن لذلك أثراً عظيماً على المسؤول عنه، وأثراً تربوياً بالغاً على الحاضرين، إذ يتعلمون من خلاله الممارسة التطبيقية العملية للحياة الاجتماعية في صورتها العامة أو في صورتها الخاصة. وقد سبق بيان فوائد هذا المقطع في غزوة تبوك.

(...فقال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك، حَضَرَنِي بَثِّي، فَطَفِقْتُ أتذكر الكذب وأقول: بِمَ أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك كُلَّ ذي رأي من أهلي، فلما قِيلَ لي: إن رسول الله ﷺ قد أَظَلَّ قادماً، زاح عني الباطل، حتى عَرَفْتُ أني لن أنجو منه بشيء أبداً، فَأَجْمَعْتُ صدقه...)[3]

لقد بين كعب بن مالك ﷺ في هذا المقطع من الحديث ما كان يختلج في نفسه، وما عمد إليه من استشارة، وهو ما يحدث عند كل أحد من الناس عندما يكون في مثل هذا الموقف. فيفيد هذا الوصف ما يعتري الإنسان من البث أي الحزن، نتيجة استشعار التقصير، وهو ما يحدث عند المؤمن، الذي لا يكابر ويختلق لنفسه الأعذار، ويتلمس لها المبررات. وهنا

---

(1) المرجع السابق (١٢٤/٨)

(2) مسلم (٢١٢٠/٤-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

(3) مسلم (٢١٢٠/٤-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

يحدث السجال النفسي في حالة النفس اللوامة التي تلوم صاحبها عند إرادة غير الصواب، فيتذكر الكذب ومقدرته عليه كوسيلة، مع عدم القدرة على تحمل سخط رسول الله ﷺ وعدم وجود الوسيلة التي يخرج بها من هذا الموقف، ثم يستعين بالوسيلة الخارجية الأخرى، برأي الأهل والأقارب. فإنها مجموعة عناصر قد اختلجت في صدره ﷺ وقد أحدثت حزناً وألماً بالغ الأثر عليه.

وفي هذا الجو النفسي لحالة النفس اللوامة، ينزاح الباطل بتوفيق الله تعالى وينتصر الإيمان، ليتخذ القرار الصائب، حيث يقول ﷺ (فَأَجْمَعْتُ صدقه) بما يؤكد ويفيد أن الإنسان عندما يحصل منه قصور في طاعة الله تعالى، فإن أول مراتب الحلول، هي المحاكمة الذاتية عن ذلك القصور، حتى يتأكد للمرء ويستقر في نفسه أنه مقصر فعلاً، ثم النظر في الحلول المطروحة التي تتفق مع مقام العليم السميع البصير، لا مع المبررات الوهمية النفسية، وذلك بإسقاطها كما أسقطها كعب بن مالك ﷺ ثم ترجيح الحل الراجح الناجح وإن كان صعباً ومؤلماً، فإن مقام الله تعالى أكرم وأعظم، فهو الرحيم العليم السميع البصير، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

ثم يصل رسول الله ﷺ المدينة (... وصَبَّح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قَدِم من سفرٍ بَدَأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له. وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله ...)[1] وقد سبق بيان فوائد هذا المقطع في نهاية غزوة تبوك. إضافة إلى قبول الظاهر من المعتذر، وتوكل سريرته إلى الله تعالى.

---

[1] مسلم (٤/٢١٢٠-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

ثم يقول كعب بن مالك ﷺ (...حتى جئت، فلما سلمت عليه، تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المغضب؛ ثم قال: تعال، فجئت أمشي، حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ ...)[1]

في هذا المشهد جواز إخبار المرء عن تقصيره وتفريطه، وسؤاله عن سبب ذلك[2]

ويبين هذا المشهد حرص النبي ﷺ على كعب وعدم رضاه عن تأخره بلا عذر، فكان أن تبسم له ﷺ تبسم المغضب. وفي ذلك من الفوائد أن المعاتبة الرفيعة في الخُلُق تكون بهذا المسلك النبوي الرفيع. إذ لم يُعرض عنه، أو خاطبه بكلمات التجريح، بل بابتسامة خالطها العتاب. ثم أنه ﷺ بدأ بسؤال تذكيري (ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟) وفي هذا الأسلوب التقرير للمسؤول بالعهد والقاعدة والأساس الذي تنطلق منه المعاتبة، وهو أقوى في قبول الحوار والمناقشة، والتفاعل معها والتأثر بها. فجاءت الإجابة من كعب ﷺ مفعمة بالصدق المختلط بالخوف من الله تعالى.

يقول كعب (...قال قلت: يا رسول الله! إِنِّي، والله! لو جلستُ عند غيرك مِنْ أهل الدنيا، لَرَأَيْتُ أَنِّي سأخرج من سخطه بِعُذْر، ولقد أُعْطِيتُ جَدَلاً، ولكني، والله! لقد علمتُ، لَئِن حدَّثْتُكَ اليومَ حديثَ كذب ترضى به عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللهُ أن يُسْخِطَكَ علي، ولَئِنْ حدَّثْتُكَ حديث صدقٍ تجد عَلَيَّ فيه، إني لأرْجُو فيه عُقْبَى الله، والله! ما كان لي عُذْرٌ، والله! ما كنت قَطُّ أقوى ولا أيسر مِنِّي حين تخلفت عنك...)[3]

تبين هذه الإجابة من كعب بن مالك ﷺ قوة التربية الإيمانية التي تلقاها من رسول الله ﷺ فجعلته يتصرف هذا التصرف العظيم. فلقد تضمن جواب كعب لرسول الله ﷺ بيان

---

[1] مسلم (٢١٢٠/٤-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

[2] ابن حجر، فتح الباري (١٢٣/٨)

[3] مسلم (٢١٢٠/٤-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

الفارق بين الوقوف عند رسول الله ﷺ وبين الوقوف عند غيره من الناس، إدراكاً وبياناً ومعرفةً لمقامه ﷺ الذي دفعه إلى طرح كل عذر يمكن أن يعتذر به. فيعطي ﷺ بذلك درساً تربوياً عملياً عميقاً في التطبيق الإيماني لعبادة الله بالصدق والخوف والرجاء، وعدم التهاون في حق الله تبارك وتعالى وفي حق رسوله ونبيه ﷺ مما يفيد أن منهج الإسلام يربي في أتباعه الإدراك الكامل بأن الله لا يخفى عليه شيء، وأن تقديم الخوف من سخط الله على سخط الناس هو الأساس الخلقي العظيم الذي يغرس الثبات السلوكي عند المؤمن.

ثم يبين رضي الله عنه مقدرته في الفصاحة والبلاغة وقوة الكلام، وبراعته التي تخرجه من سخط العاذل له، ولكنه امتنع عن استخدام ذلك. ليعطي رضي الله عنه بهذا البيان عمق التربية التي تلقاها من رسول الله ﷺ فكونت منه هذه الشخصية الصادقة، المدركة لمقام الله جل جلاله، ولمقام رسول الله ﷺ فيقدم بذلك درساً وبياناً من أن الفصاحة والبلاغة وقوة البيان لا تنفع صاحبها في الخروج من سخط الله بالكذب والتدليس.

فالذي يمنعه من استخدام هذه القدرة البلاغية كما يقول كعب رضي الله عنه (والله! لقد علمتُ، لَئِن حدَّثْتُكُ اليومَ حديثَ كذب ترضى به عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللهُ أن يُسْخِطَكَ علي) وهذا يفيد أن خداع الحديث قد يرضى به الناس لمحدودية علمهم؛ ولكن الله تعالى لا يرضى به، بل إن مغبة ذلك عظيمة الأثر إذا سخط الله تعالى. فإجلال الله تعالى وإدراك أسمائه العظيمة التي تلقاها من رسول الله ﷺ قد رَبَّت فيه الصدق وتحمل مشاقه التي نهايتها مسرات ولذات.

ثم يفيد كلامه رضي الله عنه إدراكه العميق لصفات الله تعالى من أنه عفو كريم، حيث قال (إني لأرجو فيه عُقْبَىَ الله) مما يؤكد ويبين أن معرفة أسماء الله وصفاته تربي في المسلم ما لا يمكن أن يحصل عليه إلا بها، والتي منها الصدق مع الله والخوف من الله والرجاء في الله.

ثم يؤكد كعب بن مالك ﵁ انتفاء موانع المشاركة في الغزوة، حيث يقول (والله! ما كان لي عُذْرٌ، والله! ما كنت قَطُّ أقوى ولا أيسر مِنِّي حين تخلفت عنك...) فلقد دفعه صدق محبته لله تعالى ولرسوله ﷺ وخوفه من سخط الله أن يكون صادقاً معترفاً. وهذا هو أول مفتاح التربية الذاتية للإنسان، بأن يُقِرَّ ويعترف بتقصيره أو أخطائه، حتى يدرك الطريق بنوره المضيء، لا أن يتغافل عن قصوره ويكابر، ويبحث عن المبررات الخاطئة ؛ ليرضي نفسه إرضاء مؤقتا، سرعان ما ينقلب إلى عناء وأحزان.

ثم يقول كعب ﵁: (...قال رسول الله ﷺ :أما هذا، فقد صدق، فَقُمْ حتى يقضي الله فيك. فَقُمْتُ، وثار رجال من بني سَلَمَةَ فاتَّبَعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذَنْباً قبل هذا، لقد عَجَزْتَ في أن لا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ ، بِمَا اعتذر به إليه المخَلَّفون، فقد كان كَافِيكَ ذنبكَ، استغفار رسول الله ﷺ لَكَ...)[1]

ثم ها هي قوة الإيمان تلاحقها الابتلاءات، مما يفيد أن المؤمن قد يُبْتَلى ويُمَحَّص لحكمة أرادها الله تعالى؛ فيرفع من درجاته ويكفر سيئاته، فلقد اجتمع معه قومه ليعتذر إلى رسول الله ﷺ ويكتفي باستغفار الرسول ﷺ له.

مما يبين أنهم قد أَلِفُوا من الرسول الكريم ﷺ قبول عذر المعتذرين واستغفاره لمن اعتذر إليه. فيتبين من ذلك كريم تعامله ﷺ ولطفه مع المعتذرين ورحمته بأمته، فيقبل ويستغفر لمن اعتذر، ولا يؤنبه. وقد جَسَّدّ فيهم هذا التعامل النبوي العظيم كريم الخصال والمحامد وكم يحتاج المسلم اليوم لهذا الخُلُق العظيم، فيقبل عذر المعتذر.

ولكن كعب بن مالك ﵁ عالج ذلك التأنيب من قومه بالتأسي بغيره من أهل الصلاح كما جاء في حديث كعب (... قال: فوالله ما زالوا يُؤَنِّبُونَنِي حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ، فَأُكَذِّبَ نفسي، ثم قلتُ لهم: هل لَقِيَ هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم لَقِيَهُ

[1] مسلم (٤/٢١٢٠-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

معك رجلان، قَالا مِثْلَمَا قُلْتَ، فقيل لهما مثلما قيل لك، قال قلت: من هما؟ قالوا: مُرَارَةُ بْنُ رَبِيعَة العامِرِي، و هِلال بْنُ أُمَيَّة الواقِفِي، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شَهِدا بدراً، فيهما إسوةٌ، قال فَمَضِيتُ حينَ ذكروهما لي...)[1]

فمشاركة الصحابيين الجليلين لكعب دليل على عمق التربية النبوية العظيمة التي جعلت هذه المجموعة من الرجال تسلك هذا المسلك العظيم. إذ فيه من الفوائد: التأسي بالصالحين في كل وقت وحين، ولا سيما عند وجود الكربات والمعضلات، التي تتصارع فيها القوى النفسية بين الإقدام والإحجام، أو بين الصبر والجزع. فإن ذلك خير معين بعد دعاء الله تبارك وتعالى. وفيه كذلك من الفوائد علو منزلة من شهد بدراً وفاعلية سلوك الصالحين في غيرهم من خلال القدوة الفاعلة المؤثرة.

ثم يأتي ابتلاء آخر، حيث يقول كعب ﵁ : (... ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا، أيها الثلاثة، من بين مَنْ تخلف عنه.

قال: فاجْتَنَبَنا الناس، وقال: تَغَيَّروا لنا حتى تَنَكَّرْت لي في نفسيَ الأرضُ، فما هي بالأرض التي أعرف...)[2]

وفي هذا من الفوائد: امتثال الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ لتوجيه رسول الله ﷺ في السر والعلانية، سواء من الثلاثة أو الذين امتنعوا عن محادثة الثلاثة. وكذلك من الفوائد: التربية بالهجر، لما لها من التأثير على المهجور، وعلى من يرى ذلك أو يسمع به.

ويبين حديث كعب الأثر النفسي العظيم لهذا الهجر، إذ يقول (تَنَكَّرْت لي في نفسيَ الأرضُ، فما هي بالأرض التي أعرف...) مما يبين الأثر العميق الذي يتركه أسلوب الهجر والمقاطعة الاجتماعية على النفس الإنسانية، وكذلك صبر الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ

---

(١) مسلم (٤/٢١٢٠-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

(٢) مسلم (٤/٢١٢٠-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

على ما يُبْتَلَوْنَ به، فقدموا لغيرهم الدروس العملية الفاعلة والمؤثرة في النفوس، وليتبين أن هذا الدين عظيم في كل شيء، وأن تربيته تصنع بالنفوس ما لا تصنعه تربيات الدنيا بأسرها.

ثم يقول كعب بن مالك ﷺ حاكياً قصته وصاحبيه:(... فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيانِ، وأما أنا فكنت أَشَبَّ القوم وأجلدَهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسولَ الله ﷺ فأُسَلِّمُ عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السلام، أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه وأُسَارِقُه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني...)[1]

يتبين من حديث كعب ﷺ الحزن العميق الذي أصاب صاحبيه، فقعدا يبكيان في بيتيهما، بما يدل على الفوارق الفردية في التفاعل مع الحدث، فليس الناس في ذلك سواء، فقد كان كعب ﷺ يشهد الصلاة ويطوف في الأسواق، ولا يكلمه أحد، فكل منهم قد تأثر الأثر الشديد؛ غير أنهم اختلفوا في عملية التعايش مع الحدث، مما يفيد بيان اختلاف الخصائص الإنسانية، ليفيد منها المعلم والمربي والداعية والقائد، وغيرهم ممن يتلمس الفوائد.

كما تبين هذه الرواية الحالة الإيمانية لكعب ﷺ إذ يسلم على رسول الله ﷺ متمنياً أن يرد عليه السلام (فأقول في نفسي: هل حَرَّكَ شَفَتَيهِ بِرَدِّ السلام، أم لا ؟) ثم يصلي قريباً من رسول الله ﷺ ويسارقه النظر، ليتبين منها الأحاسيس ومشاعر المؤمن مع نبيه ﷺ والتي تكشف قوة المحبة، وتلمس الرضى منه ﷺ وقد كان رسول الله ﷺ ينظر إلى كعب إذا صلى، ويُعرض عنه إذا التفت إليه. فإنها الرحمة منه ﷺ والمحبة لكعب ﷺ فينظر إليه حال انشغاله بصلاته، مما يبين تربوياً أن العتاب والتأديب لا يعني الكراهية، بل يعني ذلك المحبة في صورة

---

[1] مسلم (٤/٢١٢٠.٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

العتاب والتأديب، التي تتفاعل وتمتزج في قلب المؤمن الصادق. وهي تنطلق من الوالد مع أولاده، والزوج مع زوجته، والمعلم مع تلامذته.

ثم يبين كعب مزيداً من الكشف عما أصابه من هذا الهجر، فيقول ﵁ (...حتى إذا طال ذلك عَلَيَّ من جفوة المسلمين، مشيت حتى تَسَوَّرْتُ جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله! ما رَدَّ عَلَيَّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة! أنشدك بالله! هل تَعْلَمَنَّ أني أحب الله ورسوله ؟ قال فسكت، فَعُدْتُّ فَنَاشَدْتُهُ، فَسَكَتَ، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت، حتى تَسَوَّرْتُ الجدار...)[1]

وهذا الوصف من كعب ﵁ يفيد ويبين مقدار جلادته مع هذا الحدث، فيتسور جدار حائط أبي قتاده، والذي ذكر أنه ابن عمه لكونهما من بني سلمة؛ وليس هو ابن عمه أخو أبيه الأقرب[2] وكان سؤال كعب لابن عمه:(هل تَعْلَمَنَّ أني أحب الله ورسوله؟) دليل على أن الهم الذي كان يحمله خوفه على إيمانه، وعمق محبته لله ولرسوله التي أثبتتها الابتلاءات بهذا الحدث. مما يؤكد عمق التربية النبوية العظيمة التي غرست فيه وبقية الصحابة محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ فكانت المحافظة عليها منطلق إيماني ثابت الجذور، فيقدم ﵁ درساً إيمانياً عميقاً في كيفية الاهتمام بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ .

وتفيد إجابة ابن عمه له مدى الالتزام بتوجيه رسول الله ﷺ حيث سكت عنه، فما قال غير (الله ورسوله أعلم) فلم يقدم على نهي رسول الله ﷺ عاطفة القرابة أو الحال، بل كان ممتثلاً لأمر رسول الله ﷺ فختم كعب ﵁ لقاء ابن عمه بفيض من الدمع، ثم عاد من حيث أتى.

---

(١) مسلم (٤/٢١٢٠.٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٨/١٢٠)

ثم يأتي لكعب ابتلاء آخر، حيث يقول ﷺ (...فَبَيْنَا أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نَبَطِيٌّ من نَبَطِ أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك، قال فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني فدفع إلي كتاباً من ملك غَسَّان، وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيَعَة، فالحق بنا نُوَاسِكَ، قال فقلت، حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء، فَتَيَامَمْتُ بها التنور فَسَجَرْتُها بها...)[1]

يوضح هذا المشهد مزيداً من الابتلاء الذي تلقاه كعب بقوة الإيمان العظيمة، التي تؤكد صدقه ومحبته لله تعالى ولرسوله ﷺ فلم يتردد في إحراق تلك الرسالة، ولم يفكر في الإجابة عليها، ولم يبلغ تأثيرها عنده أدنى درجات التأثير؛ من التأمل أو التفكير فيها، بل عمد إلى إحراقها فوراً في التنور. مما يفيد أن معالجة الباطل عند وروده بتركه حالاً؛ وعدم الالتفات إليه، أو إعطاء المجال للفكر فيه من التأمل والنظر إليه، ليقطع بذلك مسالك الشيطان وطرقه.

وفي هذه الرواية من الفوائد: أن هناك تبادلاً تجارياً مع بلاد الشام، قال ابن حجر عن النبطي المذكور في الحديث، والذي جاء بالرسالة من ملك غسان: نسبة إلى استنباط الماء واستخراجه، وهؤلاء كانوا في ذلك الوقت أهل الفلاحة، وهذا النبطي الشامي كان نصرانياً، كما وقع في رواية معمر[2] مما يفيد أن الكتابي كان يدخل المدينة للتجارة.

قال ابن حجر عن العلاقة بين كعب ﷺ وبين ملك غسان: والذي استدعاه قريبه ونسيبه[3] وهذا عامل في زيادة التأثير، إذ لم يكن بعيد النسب عنه، بل قريبه ونسيبه،

(١) مسلم (٢١٢٠/٤-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)
(٢) ابن حجر، فتح الباري (١٢٠/٨)
(٣) المرجع السابق (١٢١/٨)

وصاحب مُلك وجاه، إضافة إلى أن الملك هو الداعي والطالب له. فأعطى كعب بهذا الموقف العظيم المسلك العملي لكل مغريات الدنيا وزخرفها التي تواجه الإنسان وهو في مثل تلك الحال، فكيف بمن هو في بحبوحة العيش والحياة؛ فيتنازل عن بعض واجبات دينه؛ من أجل فتات قليل من متاع الدنيا الفانية.

فعوامل التأثير على كعب ﵁ كانت قوية جداً؛ فقد بلغ به الحزن مبلغه، ثم إن الداعي له قريبه ونسيبه، وإذا كان ملكاً كان أقوى، وإذا كان الملك هو الداعي وليس كعب هو الطالب كان ذلك أشد في إثارة الاستجابة، وإذا كان يمنيه، كان ذلك أشد وأقوى أثراً، فلم يغتر كعب بن مالك ﵁ أمام تلك المنازعات. مما يفيد عمق المنهجية التربوية النبوية العميقة التي تربى عليها كعب بن مالك وقبل ذلك توفيق الله تبارك وتعالى وحفظه ومنّه على المؤمن، وتثبيته لمن جاهد نفسه في طاعة الله تبارك وتعالى كما قال جَلَّ جلاله ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [1]

ثم يواجه كعب وصاحباه مزيد ابتلاء، فيقول ﵁ (...حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واسْتَلبَثَ الوحيُ، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا. بل إعتزلها، فلا تَقْرَبَنَّها، قال فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك. قال فقلت لامرأتي: إلحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر...)[2]

ولله الحكمة البالغة في هذا الابتلاء، فيتجاوب ﵁ مع أمر ربه تبارك وتعالى؛ وأمر رسوله ﷺ دون أن يتردد، بل تساءل تساؤل المذعن لأمر رسول الله ﷺ (أطلقها أم ماذا أفعل؟) فلما عرف أن الأمر هو الاعتزال لها، أَمَرَ زوجته بالرحيل لأهلها حتى يقضي الله في

(١) سورة العنكبوت: آية رقم (٦٩)

(٢) مسلم (٤/٢١٢٠،٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

هذا الأمر، مما يشير إلى إيقان كعب ﷺ أن هذا الأمر سيقضي الله فيه، حيث ربط خروج أهله بحتى يقضي الله تعالى في هذا الأمر. فيقدم ﷺ درساً في الصبر على الابتلاء والطاعة وسرعة الامتثال، والرجاء والأمل في الله تعالى.

وأما هلال بن أمية، فيقول كعب ﷺ (... فجاءت امرأة هلال بن أمية رسولَ الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله! إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال:(لا ولكن لا يَقْرَبَنَّكِ) فقالت: إنه، والله! ما به حركة إلى شيء، ووالله! ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا...)[1]

ويبين مجيء زوجة هلال بن أمية إلى رسول الله ﷺ أن هلالاً ﷺ شيخ كبير وليس له خادم يخدمه، وفيه من الفوائد: تقديم أمر الله تعالى ورسوله ﷺ على طاعة الزوج وخدمته، حيث استأذنت رسول الله ﷺ واستفسرت إن كان رسول الله ﷺ يكره خدمتها لزوجها، إذ تقول (فهل تكره أن أخدمه ؟) فلقد أكدت هذه الصحابية الجليلة استيعابها لمنهج الله تعالى، وجعلت عواطفها تبعاً لذلك.

ويبين هذا المشهد الحالة النفسية لهلال بن أمية ﷺ من أنه يبكي منذ أربعين ليلة في حزن من أمره، حتى أنه لم يفكر في أن يأتي زوجته، لجماع خلال هذه المدة.

ثم يقول كعب ﷺ (... فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك؟ فقد أَذِنَ لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال فقلت: لا أستأذِنُ فيها رسولَ الله ﷺ، وما يُدْرِينِي ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب...)[2]

ويفيد هذا الفصل التفاعل العاطفي بالنصيحة واستغلال الفرصة، من بعض أهله، وذلك في حدود ما حصل لهلال وزوجته رضي الله تعالى عنهم، ولكن كعب بن مالك ﷺ

---

(1) مسلم (٤/٢١٢٠-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

(2) مسلم (٤/٢١٢٠-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

يظهر بمظهر الصادق المذعن لأمر الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ مجلياً الأمر لهم، بأنه لا يعلم ماذا ستكون الإجابة من الرسول ﷺ والاكتفاء بما حصل دون طمع في غيره، مما يفيد الرضا بقضاء الله وقدره، ثم يورد علة أخرى من أنه شاب؛ وليس مثل هلال شيخ كبير. ويظهر هنا عملية المقارنة التي يرتكز عليها رضي الله عنه في تربيته لذاته، بما يتأكد فاعلية هذا الأسلوب، وأن التربية الذاتية بالمقارنة من أقوى الأساليب المعينة على التنشئة الصالحة، التي ظهرت في مواقف متعددة من قصة كعب بن مالك رضي الله عنه

ثم تنقل الرواية مشهد القصة إلى فجر ظهور التوبة، حيث يقول كعب رضي الله عنه (...فلبثتُ بذلك عشر ليال، فَكَمُلَ لنا خمسون ليلة من حين نُهِيَ عن كلامنا. قال ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فَبَيْنا أنا جالس على الحال التي ذَكَرَ الله عز وجل منا. قد ضاقت عَلَيَّ نفسي، وضاقت علي الأرض بما رَحُبَتْ، سمعت صوت صارخ أَوْفَ على سَلْعٍ، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أَبْشِر. قال فَخَرَرْتُ ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج...)[1]

يفيد هذا المشهد أن مدة اعتزالهم لزوجاتهم عشر ليالٍ، حيث اكتملت بها مدة الهجر خمسين ليلة، ثم تفيد الرواية دقة المنهجية في الوصف، حتى أنه قال رضي الله عنه (ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة) مما يفيد أن منهجية الدقة في الرواية والوصف من مسلك ومنهج أصحاب رسول الله ﷺ ليتعلم منها الكاتب والباحث والمؤلف الدقة العلمية فيما يقومون به من أعمال.

كما يبين هذا الوصف من كعب رضي الله عنه ما بلغت به الحالة النفسية التي ضاقت فيها عليه نفسه، وضاقت به الأرض على رحابتها وسعتها. مما يفيد الأثر العظيم الذي أحدثه مغبة هذا الهجر من الخوف على إيمانه؛ وعلى محبته لربه جلَّ جلاله، ولرسوله محمد ﷺ ففي

---

(١) مسلم (٢١٢٠/٤-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

رواية (وما من شيء أهم إليَّ من أن أموت فلا يصلي عليَّ رسول الله ﷺ أو يموت فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلى عليَّ)[١]

فلم يكن همه الهجر في ذاته، بل كان همه أكبر من ذلك بكثير وكثير. ولذلك عندما سمع البشرى خر ساجداً لله تعالى، فلم يذهل بالبشرى عن السجود لرب العالمين؛ نتيجة قوة الإيمان والمحبة لله تعالى ولرسوله ﷺ وأن الْهَمَّ متعلق بالله تعالى وبرسوله ﷺ ويفيد ذلك أهمية التربية الإيمانية وأثرها الفاعل، وأهمية الصبر على البلاء، وكذلك السجود لله تبارك وتعالى عند حصول النعمة، وكذلك الإعلان بالبشرى، ولا نكارة في رفع الصوت بالبشرى، وإن سمع غير المعْنَى بها، وإن كان المسلمون معنيين بأمر صاحبهم؛ فرحاً وحزناً. وفيه أهمية البشارة، وأهمية القيام بها، لما لها من دلالات ومعاني في نفس الْمُبَشَّر.

ثم يقول كعب ﷺ (... فَآذن رسول الله ﷺ الناسَ بتوبة الله علينا، حين صَلَّى صلاة الفجر، فذهب الناس يُبَشِّرُونَنَا فذهب قِبَلَ صاحِبَيَّ مُبَشِّرُون وركض رجلٌ إليَّ فرساً. وسعا ساعٍ مِن أسلم قبلي. وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يُبَشِّرُنِي فنزعت له ثوبي، فكسوتهما إياه ببشارته. والله! ما أملك غيرهما يومئذٍ واسْتَعَرْتُ ثوبين فلبستهما، فانطلقتُ أَتَأَمَّمُ رسولَ الله ﷺ يتلقاني الناس فوجاً فوجاً، يهنؤني بالتوبة ويقولون: لِتَهْنِئَكَ توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسولُ الله ﷺ جالسٌ في المسجد، وحوله الناس، فقام طلحة بن عُبَيدِ الله يُهَرْوِلُ حتى صافحني وهَنَّأَنِي. والله! ما قام رجل من المهاجرين غيره، قال فكان كعب لا ينساها لطلحة...)[٢]

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (١٢٠/٨)

(٢) مسلم (٢١٢٨.٢١٢٠/٤) برقم (٢٧٦٩)

لقد آذن رسول الله ﷺ أي أعلم الناس بتوبة الله تعالى على الثلاثة بعد صلاة الفجر، فذهب الناس يبشرون الثلاثة، مما يفيد أهمية المشاركة الوجدانية، بنقل البشارة لمن أصابتهم نعمة؛ وهم عنها لا يعرفون. كما يدل تسابق الصحابة على تبشير الثلاثة؛ الحالة الاجتماعية التي كانت تسودهم، من الألفة والمحبة والتكاتف والتعاضد، وسلامة صدورهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين، حتى أنهم تلقوه فوجاً فوجاً، أي جماعة جماعة، يهنئونه بالتوبة، قائلين (لِتَهْنِئَكَ توبة الله عليك)

ومن فوائد هذا المشهد إعطاء المبشر ما تجود به النفس وتملك من نفائس الأشياء. إضافة إلى الفرحة العميقة التي أصابت كعب بن مالك ﷺ حتى أنه أهدى ثوبيه لمن بشره. كما يفيد هذا الوصف من كعب ﷺ أن همه الذي يُشْغِلُه هو محبة الله تعالى ورسوله ﷺ حيث تأمم أي قصد رسول الله ﷺ

وفي قيام طلحة بن عبيدالله لكعب مهرولاً، ومصافحاً ومهنئاً له بتوبة الله تعالى عليه، وسرور كعب بذلك التصرف، أن المشاركة العاطفية مع الناس في أفراحهم وأحزانهم لها أثر ووقع عظيم على النفس البشرية. ولقد أكد ذلك السرور والمشاركة رسول الله ﷺ بأكمل تعبير؛ وأصدق فرح ومشاركة، حين كان وجهه ﷺ يُبرق من السرور كأن وجهه قطعة قمر ﷺ كما جاء في الحديث (...قال كعب: فلما سَلَّمْتُ على رسولِ الله ﷺ قال، وهو يَبْرُقُ وجهه من السرور ويقول: أبشر بخير يوم مَرَّ عليك منذ ولدتك أمك. قال فقلت: أَمِنْ عِنْدِكَ ؟ يا رسولَ الله! أم مِن عِنْدِ الله ؟ فقال: لا. بل مِن عند الله. وكان رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ اسْتَنَار وجهه. كأن وجهه قطعة قمرٍ، قال وكنا نعرف ذلك...)[١]

---

[١] مسلم (٤/٢١٢٠-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

قال ابن حجر ـ رحمة الله تعالى عليه ـ: إن يوم توبته مكمل ليوم إسلامه، فيوم إسلامه؛ بداية سعادته، ويوم توبته مكمل لها، فهو خير جميع أيامه.(١)

ثم يبين كعب ﷺ مقدار فرحه وسروره، وطريقته في التعبير عن ذلك بما يتناسب مع الموقف(...قال فلما جلست بين يديه قلتُ: يا رسول الله! إن من توبتي أن أَنْخَلِعَ من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسولِه ﷺ. فقال رسول اللهﷺ (أَمْسِك بعض مالك. فهو خير لك) قال فقلتُ: فإني أُمْسِكُ سهمي الذي بِخَيْبَر، قال وقلتُ: يا رسول الله! إن اللهَ إنما أنجاني بالصدق. وإن من توبتي أن لا أُحَدِّثَ إلا صدقاً ما بقيت، قال فوالله ! ما علمتُ أن أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث، منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، أحسنَ مما أبلاني الله به. والله! ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسولِ الله ﷺ، إلى يومي هذا. وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي...)(٢)

تفيد هذه الرواية عمق الفرح والسرور الذي ولج إلى نفسية كعب بن مالك ﷺ واختلط بفكره، لينخلع من ماله لله تعالى، ولكن منهجية الوسطية الإسلامية توجهه إلى أن يمسك عليه بعض ماله. وفي ذلك استحباب الصدقة عند التوبة، وفيه من الفوائد: أن من عزم على طاعة الله تعالى أعانه تبارك وتعالى على ذلك، كما قال كعب ﷺ عن نفسه (ما علمتُ أن أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث، منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، أحسنَ مما أبلاني الله به. والله! ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسولِ الله ﷺ، إلى يومي هذا. وإني لأرجوا أن يحفظني الله فيما بقي)

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (١٢٢/٨)

(٢) مسلم (٢١٢٨.٢١٢٠/٤) برقم (٢٧٦٩)

ومعنى أبلاه: أي أنعم عليه. وفيه من الفوائد وصف الحال ليستفيد الناس ويقتدوا بذلك، ويعرفوا المزيد من نعم الله تعالى. وفيه كذلك سؤال الله تعالى الحفظ فيما بقي من العمر، وأن لا يغتر بما مضى من الخير. وفي القصة منزلة الصدق العظيمة، وما يؤول به الصدق مع الله تعالى من الخير العظيم.

ثم يقول كعب ﷺ (...قال: فَأَنْزَلَ الله: لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم (التوبة/١١٧-١١٨) حتى بلغ: يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهً وكونوا مع الصادقين(التوبة/١١٩).

قال كعب: والله! ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام، أعظم في نفسي، من صدق رسولِ الله ﷺ أن لا أكون كَذَبْتُهُ فأَهْلِكَ كما هلك الذين كذبوا. إن الله قال للذين كذبوا، حين أنزل الوحي، شَرَّ ما قال لأحد. وقال الله: سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم، فأعرضوا عنهم، إنهم رجس، ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون، يحلفون لكم لترضوا عنهم، فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين(التوبة/٩٥-٩٦) قال كعب: كنا خُلِّفْنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِلَ منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له. فبايعهم واستغفر لهم. وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه. فبذلك قال الله عز وجل: وعلى الثلاثة الذين خلفوا. وليس الذي ذكر الله مما خلفنا، تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.)[١]

---

[١] مسلم (٤/٢١٢٠-٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

الفصل السادس عشر
عام الوفود
والأحداث والسرايا إلى المرض والوفاة

عام الوفـود :

سُمِّي العام التاسع بعام الوفود. قال ابن إسحاق : لما فتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، قال ابن هشام: أن ذلك في سنة تسع، وأنها كانت تسمى سنة الوفود.[1]

وكانت العرب تَرَبَّص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش؛ وأَمْرَ رسول الله ﷺ فلما فُتِحَتْ مكة، ودانت قريش.[2] وعرفَت العرب أنه نبي مُرسل من الله تعالى، حيث كانوا يقولون: إن ظهر عليهم فهو نبي، كما جاء في صحيح البخاري (..وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح؛ فيقولون : اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيٌ صادق. فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كلُّ قوم بإسلامهم...)[3] فأظهر الله تعالى نبيه ودينه الذي ارتضاه لعباده، فجاءت الوفود تبايع، ثم بعد غزوة تبوك ضربت إليه وفود العرب تبايع.

ويفيد هذا أهمية التطبيق العملي لشرائع الإسلام من المسلمين، وأهمية إظهار دينهم كما شرعه الله تعالى للناس، حتى يُدْرِكُهُ الكفارُ عملاً ماثلاً أمامهم؛ ليدخلوا في دين الله تعالى.

وقد بلغت الوفود أكثر من ستين وفداً.[4] وهذا يدلل على الإقبال الكبير على الإسلام، بعد أن شاع وذاع ذكره، وقد حقق الله تعالى ما وعد به رسوله ﷺ بعد أن كان قبل ذلك يُؤذَى في مكة، ويُطْرَد من الطائف ﷺ في بداية الدعوة، فأعزَّه الله تعالى، ونصره وأيده.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٢٠٥/٤)

(٢) المرجع السابق (٢٠٥/٤)

(٣) البخاري (١٥٢/٣) برقم (٤٢٠٣)

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢٩١/١-٣٥٩) وانظر تفاصيلها في ذلك، وفي كتاب السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، لمهدي أحمد رزق الله ص (٦٣٩-٦٧٣)

مما يؤكد ويبين دروساً تربوية عظيمة، منها: أهمية الصبر والمثابرة على أعمال الخير في الدعوة والتربية؛ وفي كل أمر خير، وأن لا يستعجل المسلم النتائج، فما استعجلها ﷺ

ثم الإدراك العميق بأن الجهود البشرية لا بد وأن تواجهها عقبات، وأن المسلم يُبتلى في أمره، فعليه أن يصبر كما صبر رسول الله ﷺ وأصحابه حتى أنجز الله تبارك وتعالى له وعده.

وإذا كان قد تحقق للنبي ﷺ وعد الله تعالى بعد تلك الصعوبات والمحن القاسية، فهذا يؤكد أن الداعية والمربي وكل طالب خير لهذا الدين، فإنه قد يجد شيئاً مما وجده ﷺ من الصعوبات، فلا ييتئس ولا يتوقف؛ بل يسير بخطى ثابتة واثقة بالله تعالى، فإن بعد الكرب النصر.

الأحداث والسرايا ما بين غزوة تبوك إلى المرض والوفاة:

بعث أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن:

فعند أهل المغازي أن هذا البعث كان في ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة.(١) واتفقوا على أن معاذ لم يزل على اليمن إلى أن قَدِم في عهد أبي بكر، ثم توجه إلى الشام، فمات بها.(٢)

يقول أبو بُردةَ: (بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن، قال: وبعث كل واحد منهما على مِخْلاف، وقال: واليمن مخلافان...)(٣)

يبين هذا الحديث أن اليمن مخلافان، وهو الإقليم. وكانت جهة معاذ العليا إلى صوب عدن، وكانت جهة أبي موسى السفلى.(١)

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٦١/٨)

(٢) المرجع السابق (٣٥٨/٣)

(٣) البخاري (١٦٠/٣-١٦١) برقم (٤٣٤١ ، ٤٣٤٢)

وقد وجه رسول الله ﷺ الصحابيين الجليلين بتوصية جامعة؛ عظيمة المعنى والمبنى؛ كما جاء في الحديث (...ثم قال: يّسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبَشِّرَا ولا تُنَفِّرا...)[٢] ويفيد هذا التوجيه النبوي العظيم: أهمية توصية المعلم، وتوصية الوالي لعامله بما يحتاج إليه. وفيه أن من أهم ركائز العملية الدعوية والتربوية، الموازنة في التعامل مع المدعوين والمتربين، من خلال مبدأ (يّسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبَشِّرَا ولا تُنَفِّرا) ففي مبدأ التيسير القبول والحب للمدعو من جهة وللدعوة من جهة أخرى، فيقابل هذا الحب والقبول الاستجابة والتفاعل مع الداعي ومضامين الدعوة، كما أن من مقتضيات التيسير التدرج للوصول بالمدعو إلى المبتغى المطلوب.

وأما الشطر الثاني من القاعدة (وبشرا ولا تنفرا) ففيها مراعاة الجوانب النفسية التي تعبر عنها البشارة؛ التي لا يختلف الناس في أن دلالتها تحمل الخير للمدعو، وهو حقيقة الإسلام، إذ أنه كله خير وبشارات. مما يفيد أن الداعية الحاذق هو الذي يقدم الإسلام من خلال هذا المبدأ، لا من خلال مبدأ التنفير، الذي يتضمن التعنيف والتشديد والمعاملة القاسية، فيقدم الخير في صورة من صور الشدة والتعنيف.

وفي تأمل هذه القاعدة النبوية التربوية والدعوية العظيمة، يتبين أنها مفتاح الخير في البيت والمدرسة والحي والمسجد، بل وفي كل جانب وحقل من حقول الحياة، وفي كل زمان ومكان.

فانطلق الصحابيان الجليلان بهذه الوصية إلى اليمن، كما جاء في رواية الحديث (...فانطلق كل واحد منهما إلى عمله، وكان كل واحد منهما إذا سار في أرضه كان قريباً من صاحبه أحدث به عهداً فسلَّم عليه...)[٣]

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٦١/٨)

(٢) البخاري (١٦٠/٣-١٦١) برقم (٤٣٤١ ، ٤٣٤٢)

(٣) البخاري (١٦٠/٣-١٦١) برقم (٤٣٤١ ، ٤٣٤٢)

وفيه ما كان من الصحابيين الجليلين من التعاهد وتمام الصحبة والأخوة. مما يبين ويفيد أهمية ملازمة الصحبة؛ وتعاهدها بالسلام ونحوه، بما يثبت استمراريتها. ولا يمكن لتلك الصحبة أن تستمر وتتحقق إلا إذا كان مبناها الحب في الله تعالى. أما التي مبناها المنافع الدنيوية؛ فمنتهى أمرها الزوال بزوال تلك المنفعة الدنيوية. وقد ترجم معاذ بن جبل ﷺ مبنى تلك الصحبة في زيارته لأخيه أبي موسى الأشعري، كما جاء في الحديث (... فسار مُعاذ في أرضه قريباً من أبي موسى، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه، وإذا هو جالس وقد اجتمع إليه الناس، وإذا رجلٌ عنده قد جُمِعَت يداه إلى عُنقه، فقال له معاذ: يا عبد الله بن قيس ! أيمَ هذا ؟ قال: هذا رجلٌ كفر بعد إسلامه. قال: لا أنزل حتى يُقْتَلَ. قال: إنما جئ به لذلك، فانزِلْ. قال: ما أنزل حتى يُقتل. فأمر به فَقُتِل، ثم نزل...)[1]

وفيه تطبيق حد الردة، وفطنة أبي موسى الأشعري للموقف، فعرف من واقع الحال؛ حال الرجل المرتد. وفيه تشجيع معاذ لأبي موسى في تطبيق الحد والاستعجال فيه. وفي ذلك من الفوائد أيضاً معاونة الصاحب لصاحبه في إقامة ما أوجب الله تعالى.

ثم يأتي في ذلك اللقاء تباحث أمور العبادة الشخصية بينهما (...فقال: يا عبد الله ! كيف تقرأ القرآن ؟ قال: أتفَوَّقه تفوُّقاً. قال: فكيف تقرأ أنت يا معاذ ؟ قال: أنام أوَّل الليل، فأقومُ وقد قضيت جُزئي من النوم، فأقرأُ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قَومتي.)[2]

وفي الحديث اهتمام الصحابيين الجليلين ـ رضي الله تعالى عنهما ـ بالقرآن الكريم، وتعهد كل واحد منهما صاحبه بالسؤال، مما يفيد: أنه لا بأس بالسؤال عن عبادة الإنسان، وأن للمرء أن يُخبر أخاه بعبادته الخاصة؛ من باب الفائدة والمناصحة؛ لا من باب الرياء

(١) البخاري (٣/١٦٠-١٦١) برقم (٤٣٤١ ، ٤٣٤٢)

(٢) البخاري (٣/١٦٠-١٦١) برقم (٤٣٤١ ، ٤٣٤٢)

والسمعة. وفيه كذلك اختلاف الناس في طريقة تعاهد القرآن بالقراءة، فأبو موسى ﷺ يتفوقه تفوقاً، قال ابن حجر: أي ألازم قراءته ليلاً ونهاراً، شيئاً بعد شيء، وحيناً بعد حين. مأخوذ من فواق الناقة، وهو أن تحلب ثم تترك ساعة حتى تدر؛ ثم تحلب؛ وهكذا.[1] وأما معاذ بن جبل ﷺ فينام أول الليل، ثم يقوم آخر الليل؛ فيقرأ ما كتب الله تعالى له. وفيه كذلك احتساب الأجر في ساعات الراحة كما يحتسبها العابد أثناء عبادته، مما يفيد أن صحة النية ترفع العمل المباح إلى درجة العبادة التي يثاب عليها المسلم (فأحتسب نومتي كما أحتسب قَومتي) فإذا قُصد بالراحة التقوي على العبادة حصل الثواب. وفيه فقه الصحابة وعلو تفكيرهم، واجتهادهم في عبادة الله تعالى.

وقد أوصى رسولُ الله ﷺ معاذ بن جبل بمنهجية الدعوة التي يقوم بها في اليمن، كما جاء في الحديث (قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فإذا جئتهم؛ فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صَدَقة تؤخذ من أغنيائهم فَتُرَد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب)[2]

وفي هذا التوجيه النبوي الكريم، بيان مبدأ التدرج في الدعوة والتعليم، وهو المبدأ الذي يتفق مع الطبيعة البشرية في قبول الأمر والتوجيه. ومن فوائده كما قال ابن حجر، وتمامه أن

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٦٢/٨)

[2] البخاري (١٦٢-١٦١/٣) برقم (٤٣٤٧)

يُقال بدأ بالأهم فالأهم، وذلك من التلطف في الخطاب، لأنه لو طالبهم بالجميع في أول مرة لم يأمن من النفرة.[١]

وفيه بيان أن الصدقة المأخوذة منهم مردودة لهم (تؤخذ من أغنيائهم فَتُرَد على فقرائهم) وفي هذا تطييب ودفع للنفس وتحفيز لها لدفع الزكاة، وفي ذلك من الفوائد أن الإسلام دين رحمة وشفقة، بتربية الغني على مواساة الفقير، والرفع من قدرته وسد حاجته، مما يضفي بين الفقير والغني علاقة مودة ورحمة متبادلة، وفي ذلك من المحاسن والآثار ما تعجز عن وصفه الأقلام والأفكار. فلله الحمد والمنة على هذا الدين القويم.

وفي الحديث من الفوائد تنبيه الداعية والمعلم قبل ممارسة العمل إلى ما يمكن أن يخفى عليه من دقائق الأمور، حيث نبه النبي ﷺ معاذ بن جبل إلى أن من يأتيهم هم أهل كتاب، فيختلفون في أفهامهم ومعتقداتهم عن أهل الأوثان، مما يتطلب قدراً من الفطنة لذلك، وما يستلزمه هذا الأمر. وفي هذا التوجيه النبوي: الإجمال في لفت الانتباه دون تفصيل، مما يدل على الفطنة المعروفة عند معاذ ﷺ بما لا يستلزم مزيد تفصيل، وبالتالي فمن فوائد ذلك أن اللبيب يُشار عليه ولا يُفَصَّلُ له.

ويؤكد فطنة معاذ (أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذ إلى اليمن؛ قال: كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ قال: أقضي بكتاب الله. قال: فإن لم تجد في كتاب الله ؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله ؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره، وقال: الحمد لله الذي وفّق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسولَ الله)[٢]

---

[١] ابن حجر، فتح الباري (٣٥٩/٣)

[٢] أبو داود (١٩٠١٨/٤) برقم (٣٥٩٢)

وفيه كذلك إنصاف الإسلام لأهل الأموال، بأن لا يُجْحَف في حقهم؛ فتؤخذ كرائم أموالهم، وهي أنفسها وأجودها؛ إلا إذا رضوا بذلك، وأعطوها عن طيب نفس.

وفيه كذلك بيان خطورة الظلم، وأن المظلوم أياً كان؛ فليس بينه وبين الله حجاب. وفي هذا تربية لأمة الإسلام على العدل والإنصاف في تعاملاتهم، والحذر من الظلم. إذ في تطبيق هذا المبدأ الإسلامي ما تعم به الألفة في دائرة الأسرة ورفاق العمل، وفي محيط المجتمع، وبين الرئيس والمرؤوس ، والحاكم والمحكوم، والمعلم والمتعلم، والقاضي والمُقضى بينهم، والمستأجر والمؤجر، والبائع والمشتري. فإنه مبدأ إسلامي يستوعب جميع متعلقات حياة الإنسان مع غيره.

وعندما أراد معاذ بن جبل ﷺ أن يغادر المدينة إلى اليمن كان هناك موقف نبوي تربوي كريم؛ كما هو معروف ومعهود منه ﷺ قال معاذ (لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خَرَجَ معه رسول الله ﷺ يوصيه، ومعاذ راكبٌ ورسول الله ﷺ يَمشي تحت راحلته، فلما فَرَغَ، قال: يا معاذ ! إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تَمُرَّ بمسجدي هذا وقبري. فبكى معاذٌ جشعاً لفراق رسول الله ﷺ ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: إن أولى الناس بي المتقون، مَنْ كانوا وحيث كانوا)[1]

فلقد بين هذا الحديث تواضع النبي ﷺ ومكانة معاذ بن جبل ﷺ وفيه أن على المعلم أن يتواضع مع طلابه، والوالي والقائد والمدير مع من يساعدونه ويعملون معه. وأن لا يتعامل معهم بكبرياء وتعالٍ. وفيه أهمية التقوى ومنزلتها، وما يبلغ به المتقون أينما كانوا ومن كانوا.

ولعل في قوله ﷺ (إن أولى الناس بي المتقون، من كانوا وحيث كانوا) تنويه لمعاذ، أن القرب المكاني ليس هو الذي يُعَوَّلُ عليه في محبتي له؛ ومكانته مِنّي، وإنما الذي يُعَوَّلُ عليه

---

[1] أحمد، المسند (٣٧٦/٣٦) برقم (٣٣٠٥٢) طبعة الموسوعة الحديثية، وقال محققوا الطبعة شعيب الأرنؤوط وآخرون: إسناده صحيح.

التقوى، بصرف النظر عن البعد المكاني أو الزماني أو الجنس، خاصة وأن معاذ تفاعل مع ذلك الخبر بالبكاء الذي لا يستطيع أن يمنعه عن نفسه؛ لما جاش به قلبُه.

ويفيد ذلك أهمية التقوى ومنزلتها ومكانتها، وأن بها تتحقق المنزلة والمكانة من رسول الله ﷺ مهما بعدت المسافة أو بَعُد الزمان، وبالتالي فمن أراد لنفسه مكانة من رسول الله ﷺ فعليه بالتقوى؛ لا بالادعاء من غير تقوى.

حجة أبي بكر رضي الله عنه

عن أبي هريرة رضي الله عنه (أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعثه في الحجة التي أمَّرَهُ النبي ﷺ عليها؛ قبل حجة الوداع يوم النحر، في رهط يؤذن في الناس: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان)[١]

قال ابن حجر: قال ابن القيم: ويُستفاد أيضاً من قول أبي هريرة في حديث الباب (قبل حجة الوداع) أنها كانت سنة تسع، لأن حجة الوداع كانت سنة عشر اتفاقاً.[٢]

خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه في ثلاثمائة رجل من الصحابة، وبعث معه رسول الله ﷺ عشرين بدنة، وساق أبو بكر خمس بَدَنَات.[٣]

(ثم أردف رسول الله ﷺ بعليٍ بن أبي طالب وأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذن معنا عليّ يوم النحر في أهل منى ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان)[٤]

---

[١] البخاري (٣/١٦٦) برقم (٤٣٦٣)

[٢] ابن حجر، فتح الباري (٨/٨٢)

[٣] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٦٨)

[٤] البخاري (٣/٢٣٤) برقم (٤٦٥٥)

وفي ذلك مكانة أبي بكر الصديق ﷺ إذ كان الأمير في تلك الحجة، وكذلك منزلة علي بن أبي طالب ﷺ حيث كان هو المبَلِّغ للناس ببراءة. وفيه المساعدة والمعاونة في التعليم والتوجيه، وفيه بيان ما كان عليه الناس أو بعضهم من الحج عرايا، فأبطل الإسلام ذلك، ورَدّهم إلى الفطرة المشتملة على الحياء والستر. وفيه بيان أن هذا الدين هو دين خُلُق وحشمة.

بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن:

قال ابن سعد: يقال مرتين، إحداهما في شهر رمضان سنة عشر من مهاجَر رسول الله ﷺ [١] والثانية قبل حجة الوداع، وقد بوب الإمام البخاري: باب بعث علي بن أبي طالب ﷺ، وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع.[٢]

عن أبي إسحاق، سمعت البراء ﷺ (بعثنا رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى اليمن. قال: ثم بعث علياً بعد ذلك مكانه، فقال: مُرْ أصحاب خالد من شاء منهم أن يُعقِّبِ معك فلْيُعقِّبْ، ومن شاء فلْيُقبل. فكنت فيمن عَقَّبَ معه، قال: فغنمت أواقي ذوات عَدَد)[٣]

والتعقيب أن يعود بعض العسكر بعد الرجوع ليصيبوا غزوة من الغد.[٤]

قال علي بن أبي طالب ﷺ (بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضياً، فقلت: يا رسول الله ! ترسلني وأنا حديث السن، ولا علم لي بالقضاء ؟ فقال: إن الله سيهدي قلبك؛ ويثبت

---

[١] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٦٩/٢)

[٢] البخاري (١٦٢/٣)

[٣] البخاري (١٦٢/٣) برقم (٤٣٤٩)

[٤] ابن حجر، فتح الباري (٦٦/٨)

لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضينَّ حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول. فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء، قال: فما زلت قاضياً، أو ما شككت في قضاء)[1]

وفي هذا الحديث من الفوائد التربوية أن من رزقه الله تعالى لساناً ناطقاً وقلباً حافظاً فلا يجعل صغر السن له حاجزاً، وفيه أن العبرة في القضاء بالعلم والمقدرة، وليس بالسن. وفيه أدب علي وتواضعه ﷺ إذ يقول للنبي ﷺ (: يا رسول الله ! ترسلني وأنا حديث السن، ولا علم لي بالقضاء ؟) ومن فوائد الحديث أن الله تعالى هو الهادي إلى العلم، مما يلزم طالب العلم أن يسأل الله تعالى العلم والتوفيق له. وكذلك القاضي فإنه يلزمه سؤال الله تعالى العلم والهداية في الحكم، فكم من الناس من يحمل العلم؛ ولا يُحْسن تطبيقه، أو ينسى بعض ما يحتاجه عند حاجته، مما يؤكد ويبرهن أهمية الدعاء. وفيه أن طاعة الله ورسوله تحقق العلم لطالبه، وذلك مأخوذ مِنْ استجابة علي لتوجيه رسول الله ﷺ ثم ثمرة ذلك في قوله ﷺ (فما زلت قاضياً، أو ما شككت في قضاء)

وفي الحديث بيان أهمية سماع المتقاضيين، وأن ذلك يعين على تبيان القضاء في القضية. ويستفاد من هذا في الجانب الإداري أهمية السماع ممن يُنْقل عنه في المهن الإدارية، لأن مثل هذه الأعمال قد لا تخلو من الكيد والضغائن، فحتى لا يتخذ المسؤول قراراً خاطئاً تجاه من نُقل عنه خبر، فيلزمه السماع من المنقول عنه، فربما احتوى الأمر على كيد.

وقد أوصى رسول الله ﷺ علياً ﷺ أن لا يقاتلهم حتى يُقاتلوه، فخرج في ثلاثمائة فارس[2] مما يفيد ويبين الهدف والمنهجية الإسلامية الحريصة على إنقاذ الناس من الكفر والضلال، وليس الاستحواذ على الممتلكات والخيرات.

---

(١) أبو داود (١٢٠١١/٤) برقم (٣٥٨٢)

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٦٩/٢)

قال البراء ﷺ : فكنت ممن عقب معه، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا، فصلى بنا عليٌ وصَفَّنا صفاً واحداً، ثم تقدم بين أيدينا؛ فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعاً، فكتب عليٌ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، فلما قرأ الكتاب خر ساجداً، ثم رفع رأسه وقال: (السلام على همدان)[1]

ويفيد هذا حُسن التنظيم من علي بن أبي طالب ﷺ إذ صفهم صفاً واحداً، لقراءة كتاب رسول الله ﷺ مما يبين أهمية التنظيم والترتيب في الشأن العسكري، وفي كل شأن يتطلبه أمر المسلم أو المسلمين، كما يبين هذا أن الفوضى ليست من مسلك الإسلام وهديه.

وفي سجود رسول الله ﷺ ما يفيد السجود عند حصول النعمة، والدعاء للغير، والفرح بذلك، والتعبير عنه بما يناسب مقام المتفضل تبارك وتعالى، حيث كان الأنسب هو السجود لله تعالى؛ والدعاء لمن استجاب لله ولرسوله ﷺ

وقد قدم علي بن أبي طالب ﷺ إلى مكة حاجاً، حيث وافى النبي ﷺ بها في حجة الوداع؛ كما جاء في الحديث، عن أنس ﷺ (...فقدم علينا عليٌ بن أبي طالب من اليمن حاجاً...)[2]

سرية جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الخَلَصَة:

عن قيس عن جرير قال (قال لي رسول الله ﷺ : ألا تُرِيحُني من ذي الخَلَصَة ؟ فقلت: بلى. فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس...)[3]

وفي الحديث من الفوائد: استخدام أسلوب العرض من النبي ﷺ لجرير ﷺ (ألا تُرِيحُني من ذي الخَلَصَة ؟) ولم يستخدم ﷺ أسلوب الأمر. وهذا من أقوى الأساليب التربوية فاعلية

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٨/٦٦)

(٢) البخاري، مع الفتح (٨/٧٠) برقم (٤٣٥٣) (٤٣٥٤)

(٣) البخاري (٣/١٦٤) برقم (٤٣٥٧)

في الجانب الإداري والقيادي، لما له من تأثير فاعل في النفس البشرية، وإشعارها بكينونتها. وإن كان هذا الأسلوب منه ﷺ تفضلاً وتعليماً، وإلا هو النبي الذي يأمر ويُطاع؛ ولا يحتاج أن يتعامل بذلك مع أصحابه ﷺ ولكنه المنهج التربوي النبوي الذي تتعلم منه أمته؛ ويتعلم منه من بيده القرار؛ كيف يتعامل مع أتباعه؛ ومن له حق الطاعة عليهم.

وفي قول النبي ﷺ (ألا تُريحُني من ذي الخَلَصَة ؟) دليل على أنه ما من شيء أتعب لقلب النبي ﷺ من بقاء ما يُشرك به من دون الله تعالى.[1] مما يؤكد خُطورة الشرك وعِظَمِ أمره. ووجوب إزالة معالمه وآثاره، حتى تتحقق العبودية الخالصة لله تعالى، وقد كان ذو الخَلَصَة اسم للبيت الذي فيه الصنم، وسموه بذلك مضاهاة للكعبة،[2] كما سيأتي مزيد وصف له من جرير رضي الله عنه

يقول جرير رضي الله عنه (... وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبت على الخيل. فذكرت ذلك للنبي ﷺ فضرب يده على صدري حتى رأيت أثر يده في صدري. وقال: اللهم ثَبِّتْه، واجعله هادياً مهدياً. قال: فما وقعتُ عن فرس بعدُ...)[3]

وفي هذا المقطع من الحديث ما يبين ما كان يعاني منه جرير رضي الله عنه من عدم ثبوته على الخيل، ولكن لعظم طاعته ومحبته لرسول الله ﷺ أجابه بالطاعة والامتثال أولاً؛ ثم بين له ما يعاني منه ثانياً. ولم يعتذر رضي الله عنه أو يبين للنبي ﷺ ما يعانيه ابتداء. وفي هذا فائدة تربوية مهمة، بأن الإنسان إذا كُلِّف بأمر مصلحة؛ يجيب بنعم، ثم يبين العلة؛ لما في ذلك من تطييب نفس الآمر.

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٧٢/٨)

[2] المرجع السابق (٧١/٨)

[3] البخاري (١٦٤/٣) برقم (٤٣٥٧)

ويفيد هذا الموقف استجابة دعاء النبي ﷺ وبركة يده عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. حتى قال جرير (فما وقعتُ عن فرس بعد) وهذه معجزة نبوية كريمة. وفيه كذلك التشجيع للمأمور بالدعاء والثناء عليه.

ويصف جرير رضي الله عنه ذا الخَلَصَة، وأحداث ما قام به (... قال: وكان ذو الخَلَصَة بيتاً باليمن؛ لخَثْعَم وبجيلة، فيه نُصُبٌ تُعْبَد، يقال له الكعبة. قال: فأتاها فَحَرَّقَها بالنار وكسَرَها. قال: ولما قَدِم جريرٌ اليمن كان بها رجلٌ يستقسم بالأزلام، فقيل له: إنَّ رسولَ رسولِ الله ﷺ ها هنا، فإن قَدَر عليك ضَرَبَ عُنقَك. قال: فبينما هو يضربُ بها إذ وقف عليه جرير؛ فقال: لَتُكْسِرَنَّها ولَتَشهَدَنَّ أن لا إله إلا الله أو لأضربن عُنُقَك. قال: فكسرها وشهد...)[١]

وفي هذا العمل مشروعية إزالة ما يفتتن به الناس من بناء وغيره. وفيه استمالة نفوس القوم بتأمير من هو منهم، والمبالغة في نكاية العدو[٢] وفيه استجابة دعاء النبي ﷺ (واجعله هادياً مهدياً) فاهتدى وأسلم من كان يمارس الاستقسام بالأزلام. وفيه كذلك دعاء الكافر أو المشرك إلى الإسلام أولاً، لأنه هو المقصد الإسلامي؛ بأن يُوَحَّد الله تعالى في العبادة بما شرع وأمر.

(... ثمَّ بعث جرير رجلاً من أحمس يُكنى أبا أرطأة إلى النبي ﷺ بذلك. فلما أتى النبي ﷺ قال: يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق ! ما جئت حتى تركتها كأنها جملٌ أجرب، قال: فبرّك النبي ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات.)[٣]

وأبو أرطأة رضي الله عنه هو حصين بن ربيعة بن عامر بن الأزور، وهو صحابي بجلي. وأحمس هم أخوة بجيلة، رهط جرير، ينتسبون إلى أحمس بن الغوث بن أنمار.[١]

---

(١) البخاري (٣/١٦٤) برقم (٤٣٥٧)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٨/٧٣)

(٣) البخاري (٣/١٦٤) برقم (٤٣٥٧)

وفي الحديث بيان ما كان من عمل جرير في ذلك المعبد الشركي، إذ جعله كأنه جمل أجرب، وهو كناية عن نزع زينتها وبهجتها.[2] وتدميرها، حيث ورد في لفظ آخر يصف ما قام به جرير ﷺ (فانطلق إليها فَكَسَرَها وحَرَّقَها)[3] وهذا يبين انتهاء أمر هذا المعبد.

وفي الحديث من الفوائد أيضاً مكافأة النبي ﷺ لهذا العمل بالدعاء لخيل أحمس ورجالها خمس مرات. مما يبين أهمية الدعاء كمكافأة من أهل الصلاح والتقى. وأهمية مثل هذه الأعمال وعظيم أمرها، لما فيها من إزالة مضارب الكفر والشرك. وفيه كذلك أن الدعاء قد يتجاوز تكراره الثلاث مرات.

حجة الوداع :

آية فرض الحج قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾[4] نزلت عام الوفود، أواخر سنة تسع.[5] قال ابن كثير: هذه آية وجوب الحج عند الجمهور.[6] وقال ابن القيم: فلم يؤخر النبي ﷺ الحج بعد فرضه عاماً واحداً، بل بادر إلى الامتثال في العام الذي فُرِض فيه. وهذا هو اللائق بهديه وحاله ﷺ[7]

قال ابن إسحاق: فلما دخل على رسول ﷺ ذو القعدة تجهز للحج، وأمر الناس بالجهاز له. وخرج رسول الله ﷺ إلى الحج لخمس ليال بقين من ذي القعدة.[8]

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧٣/٨)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٧٣/٨)

(٣) البخاري (١٦٣/٣) برقم (٤٣٥٦)

(٤) سورة آل عمرآن: آية رقم (٩٧)

(٥) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٥٩٥/٣)

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٩٣/١)

(٧) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٥٩٥/٣)

(٨) ابن هشام، السيرة النبوية (٢٤٨/٤) وابن حجر، فتح الباري (١٠٤/٨)

وعن جابر بن عبد الله (إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج.ثم أذن في الناس؛ في العاشرة؛ أن رسول الله ﷺ حاج. فَقَدِمَ المدينة بشرٌ كثير، كُلُّهُم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله. فخرجنا معه...)[١]

وفي هذا التوجيه النبوي الكريم؛ من إعلان ذلك للناس؛ ما يبين أهمية إعلام الناس وإخبارهم بما ينفعهم من فعل الخير، أو بما يجب عليهم شرعاً. كما يفيد حرص الناس على أن يأتموا برسول الله ﷺ أهمية علو السند في المعرفة والعلم والتلقي، حتى يأخذ الناسُ مباشرة منه ﷺ أمور دينهم، فينقلوا ذلك لمن بعدهم، كما أشار لهم بذلك ﷺ أثناء الحج (ألا ليبلغ الشاهدُ الغائب) وقد عَلَّم الناس ﷺ في تلك الحجة؛ وبين لهم ما أَتَمَّ الله تعالى به نعمته على خلقه.

وفي قدوم الأعداد الكبيرة من الناس إلى المدينة؛ يلتمسون الائتمام والاقتداء برسول الله ﷺ ما يدل على اهتمام وحرص أولئك الرعيل من الصحب الكرام بسنة رسول الله ﷺ وبمعرفة ما يجب عليهم. فحقق ذلك الاهتمام النقل الدقيق لأحكام الإسلام وهديه وأخلاقه وشرائعه إلى من بعدهم. مما يفيد أهمية الاهتمام بسنة المصطفى ﷺ من خلال ما نُقِل؛ كما اهتم الرعيل الأول بها مباشرة منه ﷺ

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه (...وأنه حج بعد ما هاجر حَجَّةً واحدةً؛ لم يَحُجَّ بعدها: حَجَّة الوداع)[٢] وهذا يبين أنه ﷺ لم يحج من المدينة إلا حجة واحدة، هي حجة الوداع.

وفي عرفة نزل قوله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [٣] قال عمر رضي الله عنه (إني لأعلم أيَّ مكان أُنزلت: أُنزلت ورسول الله ﷺ

---

(١) مسلم (٨٨٧-٨٨٦/٢) برقم (١٢١٨)

(٢) البخاري (١٧٤/٣) برقم (٤٤٠٤)

(٣) سورة المائدة: آية رقم (٣)

واقف في عرفة)[١] قال السعدي في دلالة الآية (اليوم أكملت لكم دينكم) : بتمام النصر وتكميل الشرائع ؛ ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية؛ في أحكام الدين؛ أصوله وفروعه.[٢] قال ابن كثير: هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم؛ فلا يحتاجون إلى دين غيره؛ ولا إلى نبي غير نبيهم ﷺ ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله؛ ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه.[٣]

ومن حديث جابر ﷺ أنه ﷺ خطب الناس فقال (إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا؛ في شهركم هذا؛ في بلدكم هذا. ألا كلُ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمَيَّ موضُوعٌ. ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دَمٍ أضعُ من دمائنا دَمُ ابن ربيعة بن الحارث، كان مُسترضعاً في بني سعد، فَقَتَلَتْه هُذيل. وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا. ربا عَبَّاس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كُلّه. فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجَهُنَّ بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطِئن فُرُشَكُم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح. ولهن عليكم رزقهن وكسوتُهُنَّ بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله. وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة؛ يرفعها إلى السماء ويَنْكُتُها إلى الناس:[٤] اللهم ! اشهد. اللهم ! اشهد. ثلاث مرات. ثم أذن؛ ثم أقام؛ فصلى الظهر، ثم أقام؛ فصلى العصر...)[٥]

---

(١) البخاري (١٧٤/٣) برقم (٤٤٠٧)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٥٥/١)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١٤/٢)

(٤) أي يقلبها ويرددها إلى الناس مشيراً إليهم

(٥) مسلم (٨٨٦/٢-٨٩٢) برقم (١٢١٨)

قال الإمام النووي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ : فيه حديث جابر ﷺ وهو حديث عظيم، مشتمل على جمل من الفوائد؛ ونفائس من مهمات القواعد، وهو من أفراد مسلم، لم يروه البخاري في صحيحه، ورواه أبو داود كرواية مسلم.[١] قال القاضي: وقد تكلم الناس على ما فيه من الفقه، وأكثروا، وصَنَّف فيه أبو بكر بن المنذر جزءاً كبيراً، وخرج فيه من الفقه مائة ونيفاً[٢]وخمسين نوعاً، ولو تُقصِّيَ لزيد على هذا القدر قريب منه.[٣] وهذا يدل على عظيم فوائد خطبة حجة الوداع، وما فيها من العلم والأحكام والآداب والتربية.

ففي خطبته ﷺ من الفوائد، قلة الألفاظ مع كثرة المعاني والدلالات، وهذه منهجية تعليمية وتربوية ودعوية مهمة، بأن يسلك مسلكها من قام مقام الخطيب والموجه والمعلم والمتكلم، فتأمل قوله ﷺ في تلك الخطبة (إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا؛ في شهركم هذا؛ في بلدكم هذا) جزالة العبارة،[٤] وقلة الكلمات، وكثرة الدلالات، التي منها: تأكيد شديد على حرمة ذلك، بما يفيد ويبين حفظ الإسلام للدماء والأموال. وفيه تشبيه شدة حرمتها بحرمة ذلك اليوم وذلك الشهر وذلك البلد، فجمع لهذا الأمر حرمة الزمان وحرمة المكان في ثلاثة أشياء، وهذا دليل على عظم حفظ الدماء والأموال.

ثم تضمنت الخطبة إبطال أفعال الجاهلية، وبيوعها المحرمة، وأنه لا قصاص في قتلها. وفيه أن الإمام وغيره ممن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر يلزمه أن يبدأ بنفسه وأهله، فذلك من دواعي قبول قوله؛ مع ما فيه من تطييب نفس من قرب عهده بالإسلام. وقوله ﷺ (تحت قدمي) إشارة إلى إبطاله.[٥] وفيه من المنهجية البيان بالتطبيق (وإن أول دَمٍ أضعُ من

---

(١) عند أبي داود برقم (١٩٠٥) (٢/٤٥٥.٤٦٤)

(٢) أي زيادة

(٣) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٨/١٧٠)

(٤) خلاف الركيك

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي (٨/١٨٢)

دمائنا دَمُ ابن ربيعة بن الحارث، كان مُسترضعاً في بني سعد، فَقَتَلَتْه هُذيل. وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا. ربا عَبَّاس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كُلّه)

ثم تناولت الخطبة النبوية أمر النساء، وفي هذا دليل على أهمية هذا الأمر. ففيها الحث على مراعاة حق النساء؛ والوصية بهن؛ ومعاشرتهن بالمعروف. ووجوب نفقة الزوجة وكسوتها وذلك ثابت بالإجماع.[١] وقد بينت الخطبة ما لهن، ثم بينت ما عليهن (ولكم عليهن أن لا يوطِئن فُرُشَكُم أحداً تكرهونه) أي لا يأذنّ لأحد تكرهونه في دخول بيوتكم والجلوس في منازلكم؛ سواء كان المأذون له رجلاً أجنبياً أو امرأة؛ أو أحداً من محارم الزوجة، فالنهي يتناول جميع ذلك، وهذا حكم المسألة عند الفقهاء.[٢] (فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح.) وفي هذا الحديث إباحة ضرب الرجل امرأته للتأديب؛ ضرباً غير مبرح، وهو ضرب غير شديد ولا شاق.[٣]

ثم بينت خطبته ﷺ المرجعية التي إذا تمسك بها المسلم فلن يضل أبداً (وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله) وهذا دليل على وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة، وإن لم تُذكر السنة في هذه الرواية، فإن الاعتصام بالكتاب يوجب الاعتصام بالسنة، فهي داخلة ضمناً؛ لأن الله تعالى أمر بها في كتابه العزيز. فمن ذلك قوله تعالى﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[٤]

---

(١) المرجع السابق (١٨٤/٨)

(٢) المرجع السابق (١٨٤/٨)

(٣) المرجع السابق (١٨٤/٨)

(٤) سورة الحشر: آية رقم (٧)

وفي هذا تعيين المرجعية وتحديدها، وبيان أهميتها وتأثيرها، وأن التعاسة والشقاء لمن حاد عما جاء به رسول الله ﷺ وهو كتاب الله تعالى والسنة المطهرة، وأن السعادة لمن اعتصم بالقرآن والسنة.

وتمام الخطبة يدل على قرب أجله ﷺ حيث أشهدهم ﷺ بما يرون فيه، فقالوا (نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت)

وقال رسول الله ﷺ (... وستلقون ربكم فسيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً؛ يضرب بعضُكم رقاب بعض. ألا ليبلغ الشاهدُ الغائب، فلعل بعض من يُبلغهُ أن يكون أوعى له من بعض مَن سَمِعَه، ثم قال: ألا هل بلغت مرتين)[١] وفي رواية (فليبلغ الشاهد الغائب، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوعى من سامع)[٢]

وفي هذا مزيد بيان على حرمة الدماء، ويُستفاد من ذلك أن الضلال يؤدي إلى سفك الدماء بين المسلمين. مما يؤكد ويبين أهمية البعد عن الضلال، ولا يكون ذلك إلا بأمرين: الدعاء بسؤال الله تعالى الحفظ والصون والهداية والتوفيق، وبنشر العلم الشرعي بين الناس؛ وبما في ذلك من القدوة المتمثلة بمنهج رسول الله ﷺ

وفي الحديث كذلك: الحث على تبليغ العلم، وأن على العالم تعليم الجاهل. وأن المنقول له من العلم؛ قد يكون أفهم من الناقل، مما يفيد أن المتعلم قد يتفوق على المعلم؛ إذا استكمل العلم، سواء في الفهم أو الاستنباط أو الاستدلال. وبالتالي على المعلم أن يوطِّن نفسه على قبول تفوق طلابه والسماع منهم.

---

(١) البخاري (١٧٤/٣) برقم (٤٤٠٦)

(٢) البخاري (٥٢٦.٥٢٨/١) برقم (١٧٤١)

وعن الزبير عن جابر (رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: لتأخذوا عني مناسككم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حَجَّتي هذه)[١]

وفي هذا الحديث إشارة إلى قرب أجل رسول الله ﷺ وفيه الحث على الحرص في التعلم من رسول الله ﷺ ويُستفاد منه أهمية الحرص على الإفادة من العلماء؛ وعدم التسويف في ذلك، لأنهم ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما (وقف النبي ﷺ يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حجَّ بهذا، وقال: هذا يوم الحج الأكبر. فطفق النبي ﷺ يقول: اللهم اشهد. وودع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع)[٢]

وقد تضمنت حجة الوداع أحكاماً فقهيةً، وفوائد عظيمة؛ قد بينتها كُتُب وأبواب الحج في كتب الحديث والفقه.

سرية أسامة بن زيد إلى الشام:

ندب النبي ﷺ الناس لغزو الروم في آخر صفر، وكان تجهيز أسامة يوم السبت، قبل موت النبي ﷺ بيومين. وكان ممن انتدب مع أسامة كبار المهاجرين والأنصار، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة. وكانت هي آخر سرية جهزها رسول ﷺ[٣]

وكان أسامة رضي الله عنه صغير السن.[٤] يقول ابن عمر رضي الله تعالى عنهما (أن رسول الل ﷺ بعث بعثاً، وأمَّرَ عليه أسامة بن زيد، فطعن الناس في إمارته، فقام رسول الله ﷺ فقال:

(١) مسلم (٩٤٣/٣) برقم (١٢٩٧)

(٢) البخاري (٥٢٩/١) برقم (١٧٤٢)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (١٥٢/٨)

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٩٠/٢)

إن تطعنوا في إمارته؛ فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل. وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحبِّ الناس إليّ بعده)[١]

يبين هذا الحديث منزلة وفضل زيد وابنه أسامة ـ رضي الله تعالى عنهما ـ وأن السن لا يمنع أن يتقدم الإنسان على غيره، وفيه أن الإنسان بفضل حاضره لا بما كان عليه من قبل، كالرق أو غيره. وفيه من الفوائد كذلك البيان للناس؛ فيما لا يُدركون من العلل والأسباب، وأن على من أمر أمراً فلم يدركه البعض نبههم على ما غاب عنهم، دون تجاهل لهم؛ بحكم الولاية أو القيادة، فرسول الله ﷺ بين لهم العلة ولم يتجاهل أمر من طعن، فقال (وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة) فكان وصفه ﷺ إيجازا بلاغيا عظيما، قد اشتمل على دلالات وصفات عظيمة لأسامة ﷺ وبيان لمقدرته على سياسة ذلك الأمر. كما يبين الحديث ظفر تلك السرية.

قال ابن حجر عن هذه السرية: وكانت آخر سرية جهزها رسول الله ﷺ وأول شيء جهزه أبو بكر ﷺ وعند الواقدي أن عدد ذلك الجيش ثلاثة آلاف.[٢]

ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجُرف إلى المدينة؛ لوفاة رسول الله ﷺ فلما تولى أبو بكر ﷺ الخلافة أمضى جيش أسامة، وكلم أبو بكرٍ أسامةَ في عمر؛ أن يأذن له في التخلف ففعل. فعاد الجيش من غزوته منصوراً بغنائمهم، وما أصيب من المسلمين أحد.[٣] وكان كما قال ﷺ عن أسامة ((وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة)) .

---

(١) البخاري (١٨٧/٣-١٨٨) برقم (٤٤٦٩)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (١٥٢/٨)

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٩١/٢)

الفصل السابع عشر
صفات النبي ﷺ وأخلاقه
والمرض والوفاة

صفات النبي ﷺ وأخلاقه:

صفاته الْخِلْقِية ﷺ:

لقد كان ﷺ أحسن الناس وجهاً، قال البراء رضي الله عنه (كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً. وأَحْسَنَهُ خَلْقاً، ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير)[١] وعن أبي الطفيل رضي الله عنه (كان أبيض مليح الوجه)[٢] وعن سِمَاك أنه سمع جابر بن سَمُرة يقول (...وكان كثير شعر اللحية. فقال رجلٌ: وجهه مِثلُ السيف ؟ قال: لا. بل كان مثل الشمس والقمر. وكان مستديراً. ورأيت الخاتم عند كتفيه، مثل بيضة الحمامة، يشبه جسده)[٣]

وقال البراء رضي الله عنه (كان رسول الله ﷺ رجلاً مربوعاً[٤] بعيد ما بين المنكبين، عظيم الْجُمَّة[٥] إلى شحمة أُذُنيه، عليه حُلَّةُ حمراء، ما رأيت شيئاً قط أحسنَ منه ﷺ)[٦] وعن أنس بن مالك (كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير. وليس بالأبيض الأمهق[٧] ولا بالآدم[٨] ولا بالجعد القطط[٩] ولا بالسَّبِطِ...)[١٠]

وعن شعبة عن سِمَاك بن حرب، قال: سمعت جابر بن سَمُرة، قال (كان رسول الله ﷺ ضليع الفم، أشكل العين، منهوس العقبين. قال قلت لِسِماك : ما ضليع الفم ؟ قال: عظيم

---

[١] مسلم (١٨١٩/٤) برقم (٢٣٣٧.٩٣)

[٢] مسلم ١٨٢٠/٠٤) برقم (٢٣٤٠)

[٣] مسلم (١٨٢٣/٤) برقم (٢٣٤٤.١٠٩)

[٤] مربوعاً: ليس بالطويل ولا القصير.

[٥] الجُمَّة: الشعر الذي نزل إلى المنكبين، والوفرة ما نزل إلى شحمة الأذنين. واللمَّة التي ألمت بالمنكبين.

[٦] مسلم (١٨١٨/٤) برقم (٢٣٣٧)

[٧] الأمهق: الكريه البياض.

[٨] الأدمة في الناس: السمرة الشديدة.

[٩] القطط: الشديد الجعودة.

[١٠] مسلم (١٨٢٤/٤) برقم (٢٣٤٧)

الفم. قال: قلت: ما أشكل العين ؟ قال قلت: طويل شقِّ العين. قال قلت: ما مَنْهُوسُ الْعَقِبِ ؟ قال: قليل لحم الْعَقِبِ)[١]

وأما سَدْلُ النبي ﷺ شَعْرَهُ وفَرَقُهُ، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (كان أهلُ الكتاب يَسْدُلُون أشعارَهم، وكان المشركون يَفْرُقُون رؤسهم. وكان رسول الله ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر به. فسدل رسول الله ﷺ ناصيته ثم فَرَقَ بعدُ)[٢] والمراد بالإسدال عند العلماء: إرساله على الجبين، واتخاذه كالقصة، يقال: سدل شعره وثوبه إذا أرسله، ولم يضم جوانبه. وأما الفرق: فهو فرق الشعر بعضه عن بعض. قال العلماء: والفرق سنة، لأنه الذي رجع إليه ﷺ [٣] وأما في موافقته ﷺ لأهل الكتاب فقيل: فعله استئلافاً لهم في أول الإسلام، وموافقة لهم على مخالفة عبدة الأوثان، فلما أغنى الله تعالى عن استئلافهم، وأظهر الإسلام على الدين كله؛ صَرَّح بمخالفتهم في غير شيء، منها صبغ الشيب.[٤]

وعن البراء ﷺ (ما رأيت من ذي لِمَّة أحسن في حُلَّة حمراء من رسول الله ﷺ شعره يضرب منكبيه، بعيد ما بين المنكبين، ليس بالطويل ولا بالقصير)[٥]

وعن رائحة رسول الله ﷺ يقول أنس ﷺ (ما شَمَمْتُ عنبراً قط، ولا مسكاً، ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ ولا مَسِسْتُ شيئاً قط ديباجاً ولا حريراً أَلْيَنَ مسَّاً من رسول الله ﷺ)[٦]

---

[١] مسلم (١٨٢٠/٤) برقم (٢٣٣٩)

[٢] مسلم (١٨١٧/٤-١٨١٨) برقم (٢٣٣٦)

[٣] النووي (٩٠/١٥)

[٤] المرجع السابق (٩٠/١٥)

[٥] مسلم (١٨١٨/٤) برقم (٩٢-٢٣٣٧)

[٦] مسلم (١٨١٤/٤-١٨١٥) برقم (٢٣٣٠)

وعن أنس ﷺ قال (كان رسول الله ﷺ أزهر اللون.[١] كأن عَرَقَه اللؤلؤ.[٢] إذا مشى تكفَّأ.[٣] ولا مسست ديباجاً ولا حريرةً ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيبُ من رائحة رسول الله ﷺ)[٤]

وعن عرقه ﷺ قال أنس بن مالك (دخل علينا النبي ﷺ فَقَالَ عندنا[٥]. فَعَرِقَ. وجاءت أمي بقارورة. فجعلت تَسْلِتُ[٦] العَرَق فيها. فاستيقظ النبي ﷺ فقال: يا أم سُليم! ما هذا الذي تصنعين ؟ قالت: هذا عَرَقُك نجعله في طيبنا، وهو من أطيب الطيب.)[٧]

عن ابن سيرين، قال: سألت أنس بن مالك: هل كان رسول الله ﷺ خَضَبَ ؟ فقال (لم يبلغ الْخضَاب. كان في لحيته شعرات بيض. قال قلت له: أكان أبو بكر يخضب ؟ قال فقال: نعم. بالحناء والكتم)[٨] وكان بياض شعره ﷺ كما جاء في الحديث عن أنس (...إنما كان البياض في عنقه وفي الصدغين وفي الرأس نَبْذٌ[٩])[١٠]

وقالت أم معبد في وصف رسول الله ﷺ (رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة[١١]

---

[١] أزهر اللون: هو الأبيض المستنير، وهو أحسن الألوان.

[٢] كان عرقه اللؤلؤ: أي في الصفاء والبياض.

[٣] ومعناه أن يميل إلى سمته وقصد مشيه، كما قال في رواية أخرى (كأنما ينحط في صبب) أي في موضع منحدر.

[٤] مسلم (١٨١٥/٤) برقم (٢٣٣٠.٨٢)

[٥] فقال: أي نام للقيلولة.

[٦] أي تمسحه.

[٧] مسلم (١٨١٥/٤) برقم (٢٣٣١)

[٨] مسلم (١٨٢١/٤) برقم (١٠١. ٢٣٤١)

[٩] نبذ: أي شعرات متفرقة.

[١٠] مسلم (١٨٢٢.١٨٢١/٤) برقم (٢٣٤١.١٠٤)

[١١] الوضاءة: الحُسنُ والبهجة. النهاية لابن الأثير (١٩٥/٥)

أبلج الوجه[١] حسن الخلق؛ لم تعبه ثجلة[٢] ولم تزريه صعلة[٣] وسيم قسيم[٤] في عينيه دعج[٥] وفي أشفاره وطف[٦] وفي صوته صهل[٧] وفي عنقه سطع[٨] وفي لحيته كثاثة لزج[٩]، أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سَماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق؛ فصلاً؛ لا نزر ولا هذر[١٠] كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، ربعة لا تشنأه من طول؛ ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إن قال سمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود[١١] محشود[١٢] لا عابس ولا مفند[١٣].)[١٤]

---

(١) أبلج الوجه: أي مشرق الوجه، مُسْفِرُه. النهاية لابن الأثير (١/١٥١)

(٢) لم تعبه ثجلة: أي ليس بضخم البطن. ورجل أثجل: أي نحول، ودقَّة. النهاية لابن الأثير (١/٢٠٨)

(٣) الصعلة: صغر الرأس، وهي الدقة والنحول. ولم تُزْرِه صَعْلة: أي ليس بصغير الرأس (النهاية ٣/٣٢)

(٤) قسيم: أي جميل. رجل قسيم إذا كان جميلاً. ابن منظور، لسان العرب(١٢/٤٨٣).

(٥) الدعج: شدة سواد العين في شدة بياضها. النهاية(٢/١١٩)

(٦) الشُّفْر بالضم وقد يفتح: حرف جفن العين الذي ينبت عليه الشعر، النهاية(٢/٤٨٤) الوطف: الطول. والمعنى: أي في شعر أجفانه طول. النهاية(٥/٢٠٤)

(٧) صهل: أي حِدَّة وصلابة، النهاية(٣/٦٣)

(٨) في عنقه سطع: أي ارتفاع وطول. النهاية(٢/٣٦٥)

(٩) لزج: مصدر الشيء اللزج. أي تمطط وتمدد. لسان العرب(٢/٣٥٧) وعند ابن سعد في الطبقات (أزج) (١/٢٣١) والزجج تقوس في الحاجب مع طول في طرفه وامتداد. النهاية (٢/٢٩٦) ولعل ما ذكره ابن سعد هو الأصوب.

(١٠) النزر: أي القليل. والمعنى: أي ليس بقليل فيدل على عِيّ، ولا كثير فاسد. النهاية(٥/٤٠).

(١١) المحفود: الذي يخدمه أصحابه ويعظمونه ويسرعون في خدمته. النهاية(١/٤٠٦)

(١٢) محشود: أي أن أصحابه يخدمونه ويجتمعون إليه. النهاية(١/٣٨٨)

(١٣) المفند : الذي لا فائدة في كلامه لِكِبَرٍ أصابه. النهاية(٣/٤٧٥). وفي نفي هذه الصفات إثبات لحلاوة كلامه ﷺ

(١٤) الحاكم، المستدرك (٣/٩)

من فوائد وصف أم معبد فيما يمكن اكتسابه: أن البلاغة ما كان عليه ﷺ وهي: أن يكون كلام المرء فصلاً، لا نزر ولا هذر. ومن الفوائد كذلك أن يكون كلام المتكلم منظماً منتظماً مفيداً، وأن يتحرز عن غير المفيد. ويتخلق المرء بالبشاشة، ومن الفوائد: أهمية احترام العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء، وذلك بإظهار مكانتهم، واحترام مجالسهم، ومنطقهم وتوجيههم. والمبادرة لأمره ﷺ

أسماؤه ﷺ

وجاء في أسمائه ﷺ أنه قال ﷺ (أنا محمد. وأنا أحمد. وأنا الماحي، الذي يُمْحَى بِيَ الكفر. وأنا الحاشر، الذي يُحْشَرُ الناسُ على عَقِبِي. وأنا العاقب) والعاقب الذي ليس بعده نبي.[1]

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال (كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء. فقال: أنا محمد، وأحمد، والمقفى، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة)[2] والمقفى بمعنى العاقب، المتتبع للأنبياء.

عبادته ﷺ:

ومن عبادته ﷺ قيام الليل، فعن المغيرة رضي الله عنه (إن كان النبي ﷺ ليقوم ـ أو ليصلي ـ حتى تَرِمَ قَدَماه ـ أو ساقاه ـ فَيُقالُ له: فيقول: أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟)[3]

فلقد كان من منهجه ﷺ التعبدي أن يقوم لربه قائماً وساجداً، (حتى تَرِمَ قدماه) أي تتورم. (فيقال له) لم يذكر الراوي المقول ولم يسم القائل. (فقيل له غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر) وفي حديث عائشة (فقالت له عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر

---

[1] مسلم (١٨٢٨/٤) برقم (٢٣٥٤)

[2] مسلم (١٨٢٨/٤) برقم (٢٣٥٥)

[3] البخاري (٣٥٢/١) برقم (١١٣٠)

الله لك) فيقول عليه الصلاة والسلام (أفلا أكونُ عبداً شكوراً) وفيه من الفوائد: مشروعية الصلاة للشكر، وفيه أن الشكر يكون بالعمل، كما يكون باللسان.[١]

وفيه من الفوائد أن الطاعة لا تُؤدى خوفاً من العقوبة فقط، بل تُؤَدَّى مع ذلك شكراً لله تعالى على نعمه وامتنانه العظيم. فتكون رغبة ورهبة وخوفاً وطمعا. وأن الشاكر هو الذي يَتَنَفَّلُ بمزيد من الطاعة استشعاراً بنعم الله تعالى عليه: فنعمة الإسلام والإيمان والقرآن والحياة والصحة والعافية، والرزق ودروبه، والبصر والسمع...وغيرها من النعم العظيمة الجليلة التي تفضل بها الكريم المنان سبحانه وتعالى.

وعن أنس ﷺ قال (كان رسول الله ﷺ يُفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم منه. ويصوم حتى نظن أن لا يُفطر منه شيئاً، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته، ولا نائماً إلا رأيته)[٢]

وفيه من الفوائد أن صلاته ونومه كان يختلف بالليل، ولا يرتب وقتاً معيناً، بل بحسب ما تيسر له القيام.[٣] وكذلك صيامه ﷺ يصوم حتى يظنه الصحابة أنه لا يفطر من الشهر شيئاً، ويفطر حتى يظنون أنه لا يصوم من الشهر شيئاً. وهذا يفيد أهمية المراوحة بين العبادة، وأن الإنسان يجتهد في النوافل قدر طاقته ووسعه ويراوح بينها. وقد قال ﷺ لعبد الله بن عمرو (ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ قلت: بلى. قال: فلا تفعل. قم ونم، وصُم وأفطر، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإنك

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (١٥/٣)

(٢) البخاري (٣٥٥.٣٥٤/١) برقم (١١٤١)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٢٣/٣)

عسى أن يطول بك عُمرٌ، وإن من حسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام، فإن بكل حسنة عشرة أمثالها. فذلك الدهر كله.)[١]

وهذا من سماحة الإسلام وهديه ﷺ ومن كرم الله تعالى الكريم المنان، الذي يمن على عباده بأوسع دروب الخير والفلاح، فَيُضاعف حسنات العباد إلى أضعاف كثيرة، فصيام ثلاثة أيام بأجر ثلاثين يوماً، وصيام ست وثلاثين يوماً تطوعاً بأجر صيام الدهر كله. فلك الحمد يا منان يا رحمن الدنيا والآخرة. وفي هذا الحديث من الفوائد أهمية الموازنة بين الحقوق. مما يعلم المسلم فقه الموازنات التي هي من أسباب سعادة الإنسان.

وقد تبينت عبادته ﷺ لربه سبحانه وتعالى من خلال سيرته العطرة، إضافة إلى تفصيلها في كتب الحديث الشريف.

أخلاقه ﷺ :

لقد تبين الكثير من أخلاق المصطفى ﷺ فيما تقدم من سيرته ﷺ وهذه طائفة أخرى من أخلاقه عليه الصلاة والسلام.

فعن حيائه ﷺ يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه (كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها. وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه)[٢]

يبين هذا الحديث شدة حياء النبي ﷺ مما لا يليق بالمسلم. ولا يتكلم بما يكره لشدة حيائه من التلفظ به، بل يظهر ذلك في وجهه ﷺ فيفهمون مما يظهر على محياه ﷺ أنه يكره ذلك. ويفيد ذلك أهمية الحياء، وأنه منهج إسلامي عظيم، وفيه من الفوائد: أن من يُقتدى به ويُستحى منه، أن يعبر بوجهه عن كراهية ما يراه أو يسمعه. وفيه من الفوائد أيضاً: تنوع أساليب إنكار المنكر بحسب الحال، وبحسب مكانة المنكِر له. وفيه أيضاً أن المنكر إذا كان

---

(١) البخاري (١١٦-١١٥/٤) برقم (٦١٣٤)

(٢) مسلم (١٨١٠-١٨٠٩/٤) برقم (٢٣٢٠)

من أسباب زواله التعبير بالوجه استخدم ذلك. وفي الحديث من الفوائد التربوية استخدام أسلوب التشبيه في البيان والإيضاح. فقد شبه راوي الحديث حياء رسول الله ﷺ بحياء العذراء في خدرها.

وعن مخالطته لأصحابه وسماعه لحديثهم، ما رواه سِمَاك بن حرب قال: قلت لجابر بن سَمُرَة: أكنت تُجالسُ رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. كثيراً. كان لا يقوم من مصلاهُ الذي يصلي فيه الصبح حتى تَطْلُع الشمس. فإذا طلعت قام. وكانوا يتحدثون، فيأخذون في أمر الجاهلية، يضحكون، ويبتسمُ ﷺ)[١]

يوضح هذا الحديث ما كان عليه النبي ﷺ من الذكر بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس، مما يبين فضيلة الذكر بعد صلاة الصبح وأهمية ملازمة ذلك. وفيه بيان صورة من أحوال الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ وفيه جواز الحديث في المسجد عن أمور الجاهلية، والضحك، والابتسامة أفضل لفعله ﷺ قال الإمام النووي: والأفضل الاقتصار على التبسم كما فعله ﷺ في عامة أوقاته، قالوا: ويكره إكثار الضحك، وهو في أهل المراتب والعلم أقبح، والله تعالى أعلم.[٢]

ومن هديه ﷺ التوجيه بأحسن الأساليب وأرقاها، فعن أنس قال: (كان رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وغلام أسود يُقَالُ له: أنجشه. يحدو. فقال له رسول الله ﷺ يا أنجشه ! رُوَيْدَكَ، سَوْقاً بالقوارير.)[٣]

يبين هذا الحديث الأسلوب التربوي والدعوي المؤثر منه ﷺ، مع بيان علة التوجيه، وهو الأكثر والأبلغ أثراً في النفس الإنسانية. وفيه جواز الحداء. وفيه التعبير بما يناسب المقام

---

[١] مسلم (١٨١٠/٤) برقم (٢٣٢٢)

[٢] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٧٩/١٥)

[٣] مسلم (١٨١١/٤) برقم (٢٣٢٣)

والمقال والموصوف، فيقول ﷺ (رويدك سوقاً بالقوارير) ورويدك أي أرفق. وسوقاً أي سُقْ. والمقصود بالقوارير النساء، قال العلماء سُمِّيَّ النساء قوارير لضعف عزائمهن، تشبيهاً بقارورة الزجاج لضعفها، وإسراع الكسر إليها. ومعنى الحديث أن أنجشه كان حسن الصوت، وكان يحدو بهن، وينشد شيئاً من القريض والرجز... فلم يأمن النبي ﷺ أن يفتنهن...فأمر بالكف عن ذلك.[1] وفيه من الفوائد تجنيب النساء ما قد يؤثر عليهن ويفتنهن. وأن ما يصلح للرجال قد لا يصلح للنساء، لاختلافهم في رقة القلوب. وفيه كذلك إثبات رقة النساء ورقة عواطفهن، وفيه أهمية العناية بالنساء وتجنيبهن الفتنة، وأن الحداء له تأثير في النفوس. وفيه كذلك الوعظ باللطف، بما يتناسب مع الحال، مع مراعاة نفسية المنصوح، إذ لم يقل له ﷺ كف عن ذلك، بل بين له ما يفيد قوة تأثير حدائه رضي الله عنه، وأن مع القوم النساء، فرفقاً بهن، وفيه كذلك تذكير الغافل بما يناسب. فربما غفل أنجشه عن معية النساء لهم، وتفاعل مع حدائه رضي الله عنه.

وعن قربه ﷺ من الناس، ومحبتهم وتبركهم به ﷺ ما قاله أنس رضي الله عنه (كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغَدَاةَ جاء خَدَمُ المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يُؤتَى بإناء إلا غمس يده فيها، فَرُبَّما جاءوه في الغَدَاةِ الباردة، فيغمس يده فيها.)[2]

وفي الحديث قربه ﷺ من الناس، ومخالطته لخدم المدينة، مما يبين تواضعه ﷺ وكريم تعامله مع الناس. وأنه لم يتخذ لنفسه ما يتخذه الكبراء والملوك، وهو أعلى من الجميع قدراً ومكانة وحفاوة عند المسلمين، بل إن مسلكه ومنهجه مبني على التواضع الجم ﷺ وفي الحديث بيان بركة النبي ﷺ وما كان يصنعه خَدَمُ المدينة من المجيء إليه ﷺ ليغمس يده الشريفة فيها؛ لتحل البركة في ذلك الماء، فيتبرك به من شربه. بل من كرم تواضعه ﷺ وحرصه

---

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/٨٠-٨١)

(٢) مسلم (٤/١٨١٢) برقم (٢٣٢٤)

على أن يكون قريباً من الناس، أنه لا يمتنع من ذلك حتى في الغداة الباردة، وهي أعلى ساعات البرودة من اليوم البارد. بل ولا يمنعه من ذلك كثرتهم، فيغمس يده الشريفة في تلك المياه كلها.

ومن شدة حرص الصحابة على التبرك به؛ ما ذكره أنس ﷺ إذ يقول (لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه، وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل)[1]

فيبين هذا الحديث قربه ﷺ من الناس، وأنه لم يتخذ لنفسه مكاناً خاصاً بعيداً عن الناس، ليحلق فيه شعره ﷺ بل كان يخالط الناس، فيرونه وهو يحلق شعره، فيقتدون به ﷺ ثم يبين هذا الحديث بركة شعر النبي ﷺ وتبرك المسلمين به، وإكرامهم لشعره الكريم ﷺ

ومن تواضعه وعنايته بالناس وبأمورهم وقضاء حوائجهم ما رواه أنس ﷺ (أن امرأة كان في عقلها شيء. فقالت: يا رسول الله ! إنَّ لي إليك حاجة. فقال: يا أم فلان ! أي السكك شئت، حتى أقضي لك حاجتك. فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها)[2]

وفي هذا الحديث غاية تواضعه وعنايته بأمور الناس، وإكرامه للمرأة، وتكنيته ﷺ للمرأة، ثم يخاطبها بكل لطف، فيقول لها (يا أم فلان ! أي السكك شئت، حتى أقضي لك حاجتك) مما يفيد أهمية العناية بأمور الناس، والقرب منهم، والسعي في قضاء حوائجهم ما أمكن ذلك. ومن فوائده العناية بالضعفاء، ومخاطبة المرأة وقضاء حاجتها مما لا ريبة فيه. قال الإمام النووي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ أي وقف معها في طريق مسلوك، ليقضي حاجتها،

---

(١) مسلم (١٨٢/٤) برقم (٢٣٢٥)

(٢) مسلم (١٨١٣.١٨٢/٤) برقم (٢٣٢٦)

ويفتيها في الخلوة، ولم يكن ذلك من الخلوة بالأجنبية، فإن هذا كان في ممر الناس ومشاهدتهم إياه وإياها، لكن لا يسمعون كلامهما، لأن مسألتها مما لا يظهره، والله أعلم.[١]

وعن القاعدة النبوية في التعامل، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، (ما خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً. فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه. وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تُنْتَهَك حُرْمَةُ الله عزَّ وجلَّ)[٢]

ومن فوائد هذا الحديث: أن من قواعده ﷺ المتقررة في التعامل؛ ثلاث قواعد عظيمات كريمات:

القاعدة الأولى: اختيار الأيسر من الأمور ما لم يكن إثماً.

القاعدة الثانية: الابتعاد عن أيسر الأمور إذا كان إثماً.

القاعدة الثالثة: عدم الانتقام لنفسه ﷺ إلا إذا انتهكت حرمات الله تعالى.

قال الإمام النووي في شرحه للحديث: فيه استحباب الأخذ بالأيسر والأرفق ما لم يكن حراماً أو مكروهاً... وفيه الحث على العفو والحلم واحتمال الأذى، والانتصار لدين الله تعالى ممن فعل محرماً أو نحوه. وفيه أنه يُستحب للأئمة والقضاة وسائر ولاة الأمور التخلق بهذا الخلق الكريم، فلا ينتقم لنفسه، ولا يهمل حق الله تعالى.[٣]



وعن كرمه، يقول جابر بن عبد الله (ما سُئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا.)[٤]

---

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٨٣/١٥)

(٢) مسلم (١٨١٣/٤) برقم (٢٣٢٧)

(٣) النووي، صحيح مسلم (٨٤،٨٣/١٥)

(٤) مسلم (١٨٠٥/٤) برقم (٢٣١١)

وعن أنس ﷺ قال (ما سُئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه. قال فجاءه رجلٌ فأعطاه غنماً بين جبلين. فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم ! أسلموا. فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة)(١)

يبين هذان الحديثان قاعدة الجود والكرم عند رسول الله ﷺ فكان لا يرد سائلاً قط لشيء من متاع الدنيا. وإنها لقاعدة نبوية كريمة؛ عظيمة التطبيق؛ وكبيرة الأثر، وجليلة المعاني والدلالات. ثم يبين هذا الحديث عظيم كرمه ﷺ وعدم اكتراثه بالدنيا، فيعطي عطاء من لا يخاف الفقر، وعطاء الواثق بربه، وعطاء الزاهد في الدنيا، وعطاء الكريم لمن سأله. فها هو ﷺ يعطي السائل غنماً كثيرة بين جبلين، حتى أن السائل ذُهل لهذا العطاء، فعبر عن ذلك بقوله (يا قوم ! أسلموا. فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة) مما يفيد أهمية هذا المسلك العطائي، الذي ينم عن الثقة بالله تعالى، والزهد في الدنيا. وأن الذي أعطى ووهب يعطي ويعوض بما هو خير وأحسن.

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير. وكان أجود ما يكون في شهر رمضان. إن جبريل عليه السلام كان يلقاه في كل سنة، في رمضان حتى ينسلخ. فيعرضُ عليه رسولُ الله ﷺ القرآن. فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلةِ)(٢)

يبين هذا الحديث صورة أخرى لكرمه ﷺ وتزايده بمزيد عطاء الله تعالى وكرمه. وفي الحديث مدارسة جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في رمضان للقرآن الكريم، وفيه من الفوائد: فضيلة شهر رمضان، وأهمية مدارسة القرآن فيه، وزيادة الحرص على الخير في هذا الشهر. وفيه أهمية الكرم والجود في كل وقت، وزيادته في رمضان،

(١) مسلم (١٨٠٦/٤) برقم (٢٣١٢)
(٢) مسلم (١٨٠٣/٤) برقم (٢٣٠٨)

خاتم النبيين ﷺ

قال ﷺ (مَثَلِي ومَثَلُ الأنبياء كَمَثَلِ رجلٍ بنى بنياناً فأحسنَه وأجمَلَهُ، فجعل الناس يُطِيفُون به، يقولون: ما رأينا بنياناً أحسن من هذا، إلا هذه اللَّبِنَةَ. فكنت أنا تلك اللَّبِنَة.)[1]

يبين هذا الحديث الشريف تكامل ما جاء به الأنبياء برسالته ﷺ وأنه قد اكتمل الإسلام بما بعثه الله تعالى به ﷺ وأنه عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء، فلا نبي بعده أبداً ﷺ

كما يفيد هذا الحديث استخدام ضرب الأمثال في التعليم والبيان. وأن تقريب المعاني العلمية والمفاهيم للناس من متطلبات الداعية والمعلم ومن في حكمهما.



تفضيل النبي ﷺ على سائر الخلائق:

عن أبي هريرة ﷺ قال (قال رسول الله ﷺ : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة. وأول من ينشق عنه القبر. وأول شافع وأول مُشَفَّعٍ)[2]

قال العلماء وقوله ﷺ (أنا سيد ولد آدم) لم يقله فخراً، بل صَرَّح بنفي الفخر في الحديث المشهور (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) وإنما قاله لوجهين: أحدهما: امتثال قوله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) والثاني: أنه من البيان الذي يجب تبليغه إلى أمته ليعرفوه ويعتقدوه، ويعملوا بمقتضاه، ويوقروه ﷺ بما تقتضي مرتبته؛ كما أمرهم الله تعالى. وهذا الحديث دليل لتفضيله ﷺ على الخلق كلهم.[3]

---

(١) مسلم (١٧٩٠/٤) برقم (٢٢٨٦)

(٢) مسلم (١٧٨٢/٤) برقم (٢٢٧٨)

(٣) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٣٧/١٥)

حوض النبي ﷺ

عن سهل قال: سمعت النبي ﷺ يقول (أنا فَرَطُكم على الحوض، من وَرَدَ شَرِب، ومن شرب لم يظمأ أبداً. ولَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني. ثم يُحالُ بيني وبينهم)[1] وفي رواية، فيقول (إنهم مني، فَيُقال: إنك لا تدري ما عملوا بعدك. فأقول: سُحْقاً سُحْقاً لمن بَدَّلَ بعدي)[2]

قوله ﷺ (أنا فرطكم على الحوض) الفارط هو الذي يتقدم الوارد ليُصلح لهم، فمعنى فرطكم على الحوض أي سابقكم إليه، كالمهيء له. ومعنى (سحقاً سحقاً) أي بعداً لهم بعداً.[3]

ويفيد الحديث مكانة النبي ﷺ ومنزلته عند ربه سبحانه وتعالى، وفيه فضيلة الشرب من حوضه ﷺ حيث لا يظمأ بعده الشارب منه أبداً. وفيه بيان لما سيحدث من بعض أفراد أمته من التبديل الذي يمنعهم من الشرب من حوضه ﷺ

وفيه من الفوائد التنبيه والتحذير لمغبة الحيدة عن منهجه ﷺ وفيه كذلك أن على العلماء والدعاة وغيرهم أن يحذروا من مغبة المسالك المنحرفة.



---

(١) مسلم (١٧٩٣/٤) برقم (٢٢٩٠)

(٢) مسلم (١٧٩٣/٤) برقم (٢٢٩١)

(٣) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٥٤.٥٣/١٥)

مرض النبي ﷺ ووفاته :

لقد كانت هناك إشارات بقرب أجل رسول الله ﷺ وهذا من فضل الله تعالى ورحمته بأصحاب رسول الله ﷺ لأن الفاجعة بموته ﷺ ليس كمثلها مصيبة، ولذلك قال ﷺ (إذا أصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبته بي، فإنها أعظم المصائب)(١)

ومن ذلك نزول سورة النصر، جاء في الحديث (...فسأل عمرُ ابن عباس عن هذه الآية (إذا جاء نصر الله والفتح) فقال: أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه، فقال: ما أعلم منها إلا ما تعلم)(٢)

ومن ذلك أيضا توديعه ﷺ الناس في حجة الوداع، فعن الزبير عن جابر (رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: لتأخذوا عني مناسككم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حَجَّتي هذه)(٣) وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما (وقف النبي ﷺ يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حجَّ بهذا، وقال: هذا يوم الحج الأكبر. فطفق النبي ﷺ يقول: اللهم اشهد. وودع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع)(٤) وكذلك ما قاله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه(... يا معاذ ! إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تَمُرَّ بمسجدي هذا وقبري. فبكى معاذٌ جشعاً لفراق رسول الله ﷺ...)(٥)

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٢٧٥) واللفظ له. مالك، الموطأ (١/٢٣٦) رقم الحديث (٤١) ورواه غيرهما. وقال الألباني: وبالجملة فالحديث بهذه الشواهد صحيح، والله أعلم. سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/٩٨) برقم (١١٠٦)

(٢) البخاري (٣/١٨١) برقم (٤٤٣٠)

(٣) مسلم (٣/٩٤٣) برقم (١٢٩٧)

(٤) البخاري (١/٥٢٩) برقم (١٧٤٢)

(٥) أحمد، المسند (٣٦/٣٧٦) برقم (٣٣٠٥٢) طبعة الموسوعة الحديثية، وقال محققوا الطبعة شعيب الأرنؤوط وآخرون: إسناده صحيح.

فهذا البلاغ توطئة نفسية لما سيكون من أمر رسول الله ﷺ وهي رحمة ولطف من الحكيم الخبير سبحانه وتعالى؛ بصحابة رسول الله ﷺ وأهل بيته عليه الصلاة والسلام.

وفي أحاديثه ﷺ لأصحابه بتلك الإشارات عن قرب أجله، دليل على أن الله تعالى أعلمه بذلك. لأن وفاته ﷺ لها وقع مؤثر على كل مسلم، فكيف بمن كانوا يُعايشونه؛ ويؤاكلونه ويُشاربونه، ويُجاهدون معه، ويرون منه كريم الأخلاق والعطف والشفقة والتوجيه والرحمة بهم مباشرة.

وفي ليال بقين من صفر، أو في شهر ربيع الأول كان أول ما ابتدئ به ﷺ المرض(١) وابتداؤه كان في بيت ميمونة.(٢) تقول أم المؤمنين عائشة زوج النبي ﷺ (لما ثَقُلَ رسولُ الله ﷺ واشتدَّ به وجعه استأذن أزواجه أن يمرَّض في بيتي، فَأَذِنَّ له، فخرج وهو بين الرجلين؛ تخطُّ رجلاه في الأرض، بين عباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر. قال عبيد الله فأخبرت عبد الله بالذي قالت عائشة، فقال لي عبد الله بن عباس: هل تدري مَن الرجل الآخر الذي لم تُسَمِّ عائشة ؟ قال: قلت: لا. قال: ابن عباس: هو علي...)(٣)

وفي الحديث دليل حرص النبي ﷺ على أداء حقوق أزواجه، مما جعله يستأذنهن في أن يُمَرَّض في بيت زوجته عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ بعد أن اشتد به المرض.

وقالت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ (وتتام به وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استعزَّ به ـ أي اشتد به المرض ـ وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يُمَرَّض في

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٢٩١/٤)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٢٩/٨)

(٣) البخاري (١٨٤،١٨٣/٣) برقم (٤٤٤٢)

بيتي)[١] ويفيد هذا أهمية إقامة حقوق الزوجات والعناية بذلك، وأما في وقت الحاجة فَيُستأذن صاحب الحق، وهذا من كريم خُلُقه ﷺ وهو في مرض يوعك فيه وعكاً شديداً.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت (كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: يا عائشة ! ما أزالُ أجدُ ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدتُ انقطاع أبهري من ذلك السم)[٢]

وهذا الحديث يبين أثر الشاة المسمومة التي أُهديت للنبي ﷺ من اليهود في خيبر، فأدت إلى انقطاع أبهر النبي ﷺ والأبهر عرق مستبطن بالظهر، متصل بالقلب، إذا انقطع مات صاحبه.[٣] وسبق بيان هذا الحديث في غزوة خيبر.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها (أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات، ومسح عنه بيده. فلما اشتكى وجعه الذي تُوفِّيَ فيه طَفِقْتُ أنفث على نفسه بالمعوذات التي كان ينفثُ وأمسح بيد النبي ﷺ عنه)[٤]

وفي الحديث دليل على الرقية بالمعوذات، وأنه كان ﷺ يعتاد ذلك، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات، ومسح عنه بيده) وفي الحديث عناية الزوجة بزوجها، والذي تمثله أم المؤمنين مع رسول الله ﷺ

(... وكانت عائشة زوج النبي ﷺ تُحدث أن رسول الله ﷺ لما دخل بيتي واشتدَّ به وجعه، قال: هَريقوا عليَّ من سبع قرب لم تُحلل أوكيتهنّ، لعلي أعهد إلى الناس. فأجلسناه في

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٢٩٢/٤)

(٢) البخاري (١٨١/٣) برقم (٤٤٢٨)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (١٣١/٨)

(٤) البخاري (١٨٣/٣) برقم (٤٤٣٩)

مخضب[١] لحفصة زوج النبي ﷺ ثم طفقنا نصبُّ عليه من تلك القِرَب حتى طفق يُشيرُ إلينا بيده أن قد فَعلتنَّ. قالت: ثم خرج إلى الناس فصلى بهم وخطبهم.)[٢]

ويفيد الحديث أن في السبع القرب التي أهريقت على النبي ﷺ حكمة، قيل: الحكمة في هذا العدد؛ أن له خاصية في دفع ضرر السم.[٣] والله تعالى أعلم.

وأما عن حال الصحابة، وما تجيش به قلوبهم، أثناء مرض رسول الله ﷺ فيذكر أنس رضي الله عنه هذا الموقف حيث يقول (مرَّ أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم ؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ منّا. فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك، قال: فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشيةُ بُرد، قال: فصعد المنبر، ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من مُحسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم)[٤] وقد سبق بيان فوائده.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال (خطب رسول الله ﷺ الناس، وقال: إن الله خَيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله. فبكى أبو بكر، فعجبنا لبُكائه أن يُخبر رسولُ الله ﷺ عن عبد خُيِّر، فكان رسول الله ﷺ وهو المخَيَّر، وكان أبو بكر أعلَمَنا. فقال رسول الله ﷺ إن أمَنَّ الناس عليَّ في صُحْبَتِهِ وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً

(١) المِخْضَبُ: شبه الإجانة، يُغسل فيها، والمخصب: المركن، ومنه الحديث (أجلسوني في مخصب فاغسلوني) ابن منظور، لسان العرب (١/٣٥٩)

(٢) البخاري (٣/١٨٣-١٨٤) برقم (٤٤٤٢)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٨/١٤١)

(٤) البخاري (٣/٤٢) برقم (٣٧٩٩)

غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد بابٌ إلا سُدَّ، إلا بابُ أبي بكر.)[١]

وفي الحديث أسلوب البيان بصيغة التعريض. والإشارة بالعلم الخاص دون التصريح لإثارة أفهام السامعين، وتفاوت العلماء في الفهم، وأن من كان أرفع في الفهم استحق أن يطلق عليه أعلم،[٢] وفيه كذلك فطنة أبي بكر الصديق ﵁ وعلمه وفهمه، وكأن أبا بكر ﵁ فهم الرمز الذي أشار به النبي ﷺ من قرينة ذكره ذلك في مرض موته، فاستشعر منه أنه أراد نفسه؛ فلذلك بكى. وفيه الترغيب في اختيار الآخرة على ما في الدنيا.[٣] ويكون ذلك بالعمل للآخرة، وتقديم النافع فيها.

وفي الحديث بيان من النبي ﷺ لمناقب أبي بكر، ودليل على مكانته ﵁ مما يفيد أن الإنسان وإن علت مكانته ومنصبه وجاهه فلا يمنعه ذلك من ذكر إحسان من أحسن إليه، وهذا مع أن رسول الله ﷺ لا تدانيه مرتبة؛ وإحسانه ﷺ فوق إحسان كل أحد، فهو القائد والدليل للجنة ﷺ وفيه كذلك أن منزلة أبي بكر لا تعادلها منزلة رجل عند رسول الله ﷺ قال الخطابي وابن بطال وغيرهما: في هذا الحديث اختصاص ظاهر لأبي بكر، وفيه إشارة قوية إلى استحقاقه للخلافة، ولا سيما وقد ثبت أن ذلك كان في آخر حياة النبي ﷺ في الوقت الذي أمرهم فيه أن لا يؤمهم إلا أبو بكر.[٤]

---

(١) البخاري (٨٠٧/٣) برقم (٣٦٥٤)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (١٥/٧)

(٣) المرجع السابق (١٦،١٢/٧)

(٤) المرجع السابق (١٤/٧)

وعن حرصه ﷺ على أمته وعلى جناب التوحيد ما ذكرته أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، بقولها (قال النبي ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره، خشى أن يُتخذ مسجداً)[١]

وعن عائشة وعبد الله بن العباس رضي الله تعالى عنهم، قالا (لما نُزِل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه، وهو كذلك يقول: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يُحذِّروا ما صنعوا)[٢]

ويبين هذان الحديثان شدة حرصه ﷺ على التوحيد، توحيد الله بالعبادة، إذ أنه وهو في مرض موته ﷺ وقد اشتد به الكرب، يبين مسلك اليهود والنصارى في اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، فلعنهم رسول الله ﷺ وإذا كان اتخاذ القبور منهي عنه في حق الأنبياء، فغيرهم أولى بالنهي؛ إذ أنهم ليسوا بأفضل من الأنبياء؛ مهما بلغ صلاحهم، وهذا بيانٌ أنه لا يجوز اتخاذ المساجد على القبور. وفيه كذلك تحذير لأمته من أن يتخذ قبره ﷺ مسجداً. وفيه من الفوائد جواز لعن اليهود والنصارى على وجه العموم. وفيه أن على المسلم أن يكون داعياً للخير، وقدوة في الخير؛ لآخر لحظة من حياته. وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستمر مع المسلم لآخر لحظات عمره. كما كان ﷺ يأمر ويبين وينهى وهو في مرض وفاته.

وفي الحديث فقه أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، لإدراكها مغزى كلام رسول الله ﷺ واستنباطها من كلام النبي ﷺ (. قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره، خشي أن يُتخذ مسجداً) وفي الحديث كذلك شدة ما كان يعانيه النبي ﷺ من الوعك.

وعن اشتداد المرض به ﷺ يقول سعيد بن جبير (قال ابن عباس: يوم الخميس وما يوم الخميس. اشتد برسول الله ﷺ وجعه، فقال: ائتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبدا،

---

(١) البخاري (١٨٣/٣) برقم (٤٤٤١)

(٢) البخاري (١٨٤/٣) برقم (٤٤٤٣) (٤٤٤٤)

فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي نزاع، فقالوا: ما شأنه ؟ أهَجَرَ، استفهموه. فذهبوا يردون عليه. فقال: دَعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه. وأوصاهم بثلاث، قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا للوفود بنحو ما كنت أُجيزهم، وسكت عن الثالثة أو قال فنسيتها)[١]

قال ابن حجر في شرحه لقوله (وأوصاهم بثلاث): أي في تلك الحالة، وهذا يدل على أن الذي أراد أن يكتبه ﷺ لم يكن أمراً متحتماً؛ لأنه لو كان مما أمر بتبليغه لم يكن يتركه لوقوع اختلافهم...وقد عاش بعد هذه المقالة أياماً، وحفظوا عنه أشياء لفظاً، فيحتمل أن يكون مجموعها ما أراد أن يكتبه، والله تعالى أعلم.[٢] وفي الحديث حرص النبي ﷺ وهو في مرض وفاته على سلامة هذا الدين، وحفظه من أعدائه، بوصيته ﷺ أن يُخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وفيه كذلك عنايته ﷺ بأخلاق الإسلام؛ وما تشمله من الفضائل والمكارم، فأوصاهم بإعطاء الوفود نحو ما كان يعطيهم ﷺ من العطاء. وكانت جائزة الواحد على عهده ﷺ أوقية من فضة، وهي أربعون درهما.[٣] وقوله (وسكت عن الثالثة أو قال فنسيتها) هذا متعلق بسلسلة رواة الحديث. قال سفيان: قال سليمان: لا أدري أذكر سعيد بن جبير الثالثة فنسيتها، أو سكت عنها.[٤]

وقولهم (ما شأنه ؟ أهَجَرَ) قال ابن حجر: الهَجَر: الهذيان، والمراد به هنا ما يقع من المريض الذي لا ينتظم ولا يعتد به لعدم فائدته، ووقوع ذلك من النبي ﷺ مستحيل، لأنه معصوم في صحته ومرضه ﷺ لقوله تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾[٥]

---

(١) البخاري (٣/١٨١-١٨٢) برقم (٤٤٣١)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٨/١٣٤)

(٣) المرجع السابق (٨/١٣٥)

(٤) المرجع السابق (٨/١٣٥)

(٥) سورة النجم: آية رقم (٣)

ويُحتمل أن الذي قال ذلك (ما شأنه ؟ أهَجَرَ) صدر عن دهش وحيرة، كما أصاب كثيراً منهم عند موته. وقال ابن حجر: ويظهر لي ترجيح الاحتمالات التي ذكرها القرطبي، ويكون قائل ذلك بعض من قرب دخوله في الإسلام، وكان يعهد أن من اشتد عليه الوجع قد يشتغل به عن تحرير ما يريد أن يقوله؛ لجواز وقوع ذلك.[١]

وفي شأن الصلاة وإمامة المسلمين أثناء اشتداد المرض عليه ﷺ يذكر العباس بن عبد المطلب (أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: مروا أبا بكر يُصلِّي بالناس. فخرج أبو بكر، فكبر، ووجد النبي ﷺ راحة، فخرج يُهادى بين رجلين، فلما رآه أبو بكر تأخر، فأشار إليه النبي ﷺ مكانك، ثم جلس رسول الله ﷺ إلى جنب أبي بكر، فاقترأ من المكان الذي بلغ أبو بكر رضي الله عنه من السورة)[٢] وفي هذا الحديث دلالة عملية على أهمية الصلاة؛ وحرصه ﷺ عليها.

وعن أواخر وصايا رسول الله ﷺ تقول أم سلمة رضي الله تعالى عنها (أن رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي تُوُفِّيَ فيه: الصلاة، وما ملكت أيمانكم. فما زال يقولها حَتَّى ما يفيض بها لسانُهُ.)[٣] وهذا دليل على عِظَم الصلاة، وعِظَم حقوق المرأة، لما للرجل من الوصاية عليها.

وفي اليوم الذي توفي فيه ﷺ فاجأ المسلمين بكشف ستر حجرة عائشة ينظر إليهم مبتسماً ﷺ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه (أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين وأبو بكر يصلي لهم، لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس وهَمَّ المسلمون أن يَفْتَتِنوا في صلاتهم

---

(١) فتح الباري (١٣٣/٨)

(٢) أحمد، المسند (٣٠٥،٣٠٤/٣) برقم (١٧٨٥) طبعة الموسوعة الحديثية.

(٣) ابن ماجه (٥١٩/١) برقم (١٦٢٥)

فرحاً برسول الله ﷺ فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر)[١]

وعن حديثه لابنته فاطمة عليها السلام، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (دعا النبي ﷺ فاطمة عليها السلام في شكواه الذي قُبض فيه، فسارَّها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارَّها بشيء فضحكت. فسألنا عن ذلك، فقالت: سارَّني النبي ﷺ أنه يُقبض في وجعه الذي تُوفِّيَ فيه؛ فبكيت، ثم سارَّني أني أولُ أهله يتبعهُ فضحكتُ)[٢] وفي رواية (...أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة ـ أو نساء المؤمنين ـ فضحكت لذلك)[٣]

وفي الحديث إخباره ﷺ بما سيقع، فوقع كما قال ﷺ فإنهم اتفقوا على أن فاطمة رضي الله عنها؛ كانت أول من مات من أهل بيت النبي ﷺ بعده حتى من أزواجه.[٤] وفي الحديث منقبة لفاطمة رضي الله تعالى عنها.

وعن أنس قال (لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أباه، فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم...)[٥]

وعن آخر ما قام به رسول الله ﷺ ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، بقولها (دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي ﷺ وأنا مسنِدَتهُ على صدري، ومع عبد الرحمن سِواك رَطبٌ يستن به، فَأَبَدَّهُ رسول الله ﷺ بصره، فأخذت السواك فقضمته ونفضته

---

(١) البخاري (٣/١٨٤-١٨٥) برقم (٤٤٤٨)

(٢) البخاري (٣/١٨٢) برقم (٤٤٣٣) (٤٤٣٤)

(٣) البخاري (٢/٥٣٤-٥٣٥) برقم (٣٦٢٤)

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٨/١٣٦)

(٥) البخاري (٣/١٨٧) برقم (٤٤٦٢)

وطيبته؛ ثم دفعته إلى النبي ﷺ فاستن به، فما رأيت رسول الله ﷺ استن استناناً قط أحسن منه...)[١]

وفي الحديث فطنة عائشة رضي الله تعالى عنها، وحرصها ومتابعتها لحال رسول الله ﷺ فعرفت من مَدِّ نظره ﷺ إلى أخيها عبد الرحمن أنه ﷺ يشتهي السواك، ثم عنايتها بأمر رسول الله ﷺ حيث قضمت السواك أي مضغته، ونفضته وطيبته، فأعطته لرسول الله ﷺ وفيه حرص ومحبة رسول الله ﷺ للسواك، مما يؤكد أهمية عناية المسلم بأمر السواك كما اعتنى به ﷺ وهو في مرضه، ولحظة وفاته ﷺ

وفيه من الفوائد: دخول المرء على غيره وهو يستن بالسواك.

وعن سكرات الموت أنه (...كان بين يديه ركوة ـ أو علبة يشك عمر ـ فيها ماء، فجعل يُدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه، يقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات...)[٢] فتقول عائشة رضي الله تعالى عنها (... فلا أكره شدة الموت لأحد أبداً بعد النبي ﷺ)[٣] فهذه سكرات موت النبي ﷺ فكيف بغيره.

ويستفاد من هذين الحديثين: ذِكْرُه ﷺ لربه سبحانه وتعالى بكلمة التوحيد التي هي مفتاح دخول الجنة. مما يشير للمسلم أن يقتدي برسول الله ﷺ ويسأل الله تعالى التوفيق لذلك. ويكون قلبه متعلقاً بذكر الله تعالى، كما كان عليه الرسول ﷺ

وعن عائشة أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ (أنها سمعت النبي ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مُسْنِدٌ إليَّ ظهره يقول: اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق)[٤]

---

(١) البخاري (١٨٣-١٨٢/٣) برقم (٤٤٣٨)

(٢) البخاري (١٨٥/٣) برقم (٤٤٤٩)

(٣) البخاري (١٨٤/٣) برقم (٤٤٤٦)

(٤) البخاري (١٨٣/٣) برقم (٤٤٤٠)

وكان يقول ﷺ في مرضه الذي مات فيه؛ وأخذته بحة (مع الذين أنعم الله عليهم)[1] تقول عائشة (فظننت أنه خُيِّر)[2] وهذا الاستنتاج من فقه أم المؤمنين عائشة - رضي الله تعالى عنها - حيث ربطت بين كلامه ﷺ هذا وبين قوله عليه الصلاة والسلام - والذي روته بقولها - (كان النبي ﷺ يقول وهو صحيح: إنه لم يُقبض نبي حتى يَرى مقعده من الجنة، ثم يُخيَّر. فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه، ثم أفاق؛ فأشخص بصرَه إلى سقف البيت، ثم قال: اللهم الرفيق الأعلى. فقلت: إذاً لا يختارنا، وعرفت أنه الحديث الذي يُحدِّثنا وهو صحيح. قالت: فكان آخر كلمة تكلم بها: اللهم الرفيق الأعلى)[3] وكان يردد ذلك كما قالت عائشة رضي الله تعالى عنها (...ثم قال: في الرفيق الأعلى. ثلاثاً. ثم قضى...)[4]

وكان آخر شيء عمله ﷺ السواك، حيث قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (...فأخذت السواك فقضمته ونفضته وطيبته؛ ثم دفعته إلى النبي ﷺ فاستن به، فما رأيت رسول الله ﷺ استن استناناً قط أحسن منه. فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه ثم قال: في الرفيق الأعلى، ثلاثاً. ثم قضى. وكانت تقول: مات رسول الله بين حاقنتي وذاقنتي[5])[6] وفي رواية (...فاستن بها كأحسن ما كان مُستناً، ثمَّ ناوَلنيها، فسقطت يده - أو سقطت من يده - فجمع الله بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة)[7]

---

(١) البخاري (١٨٢/٣) برقم (٤٤٣٥)

(٢) البخاري (١٨٢/٣) برقم (٤٤٣٥)

(٣) البخاري (١٨٧/٣) برقم (٤٤٦٣)

(٤) البخاري (١٨٢/٣-١٨٣) برقم (٤٤٣٨)

(٥) والحاقنة ما سفل من الذقن، والذاقنة ما علا منه)

(٦) البخاري (١٨٢/٣-١٨٣) برقم (٤٤٣٨)

(٧) البخاري (١٨٥/٣) برقم (٤٤٥١)

وتقول عائشة رضي الله تعالى عنها (...فقبضه الله، وإن رأسه لبين نحري وسحري، وخالط ريقه ريقي...)[1]

وفيه منقبة لأم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، إذ توفي رسول الله ﷺ وهو بين حنكها وصدرها؛ رضي الله تعالى عنها.

وقد قالت ابنة النبي ﷺ فاطمة رضي الله تعالى عنها (فلما مات قالت: يا أبتاه ! أجاب رباً دعاه، يا أبتاه ! من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه ! إلى جبريل ننعاه...)[2]

ولما مات رسول الله ﷺ ذُهِل الصحابة رضي الله تعالى عنهم بموته ﷺ فعن عائشة رضي الله تعالى عنها (أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسُّنْح ـ قال إسماعيل: يعني بالعالية ـ فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه الله؛ فليُقَطِّعنَّ أيدي رجالٍ وأرجُلَهم. فجاء أبو بكر، فكشف عن رسول الله ﷺ فَقَبَّله، فقال: بأبي أنت وأمي، طِبتَ حياً وميتا، والذي نفسي بيده لا يُذيقنك الله الموتتين أبداً، ثم خرج، فقال: أيها الحالف على رسلك. فلما تكلم أبو بكر جلس عمر)[3] (فحمد الله أبو بكر؛ وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبدُ محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. وقال (إنك ميت وإنهم ميتون) وقال (وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسُل، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين) قال: فنشَجَ الناس يبكون.)[4]

---

(١) البخاري (١٨٥/٣) برقم (٤٤٥٠)

(٢) البخاري (١٨٧/٣) برقم (٤٤٦٢)

(٣) البخاري (١١/٣) برقم (٣٦٦٧)

(٤) البخاري (١١/٣) برقم (٣٦٦٨)

وعن عبد الله بن العباس رضي الله تعالى عنهما، قال (...: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر؛ فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها. فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعَقِرت حتى ما تُقلُّني رجلايَّ، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعتُه تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات)(١)

وهذا الحديث يدل على فقه أبي بكر رضي الله عنه وقدرته على تحمل الفواجع، بالرغم من رقة قلبه رضي الله عنه وكثرة عطفه، وفيه ثِقل خبر وفاة النبي ﷺ على الصحابة، وأن الأمر قد هالهم، وبلغ منهم مبلغاً عظيماً. وفيه عظم فاجعة موته ﷺ على عمر بن الخطاب، وهو الرجل القوي الشجاع رضي الله عنه حتى هوى على الأرض، مما يدل على عِظَم خبر وفاته ﷺ على الصحابة، بالرغم من مرضه ﷺ السابق لوفاته عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وفيه كذلك حاجة الناس وإن صَلَحُوا وكَثُرُوا إلى من يقوم عليهم حتى على أفهامهم وعواطفهم، فيجمعها على الحق والخير والصواب، وهذا ظاهر فيما انقلب الناس به من ترديدهم تلك الآية التي تلاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه

وقد توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين حين زاغت الشمس، وغُسِّل ﷺ في ثيابه يوم الثلاثاء، وغسَّله العباس وعلي والفضل وأسامة بن زيد وأوس بن خَوَلي وشُقران.(٢) وعن عائشة رضي الله تعالى عنها (أن رسول الله ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب يمانية؛ بيض سَحولية؛ من كرسُف(٣) ليس فيهن قميص ولا عمامة)(٤) ثم وضع على سريره ﷺ فكان الناس يدخلون

(١) البخاري (١٨٦/٣) برقم (٤٤٥٤)

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢٧٤/٢-٢٨٠)

(٣) سحولية، منسوبة إلى سحول، قرية باليمن. وكرسُف: القطن.

(٤) البخاري (٣٩٠/١) برقم (١٢٦٤)

عليه زُمَراً زُمَراً يصلّون عليه ويخرجون، ولم يؤمهم أحدٌ.(١) ثم حفروا له ﷺ حيث توفِّيَ في حجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها.(٢)

واختلف في مدة مرضه ﷺ فالأكثر على أنها ثلاثة عشر يوماً، وقيل بزيادة يوم، وقيل بنقصه، وقيل عشرة أيام، وأخرجه البيهقي بإسناد صحيح.(٣) وكانت وفاته يوم الاثنين بلا خلاف من ربيع الأول، وكاد يكون إجماعاً، وعند ابن إسحاق والجمهور أنها في الثاني عشر منه. وعاش ﷺ ثمانين يوماً بعد حجته.(٤) وعن عائشة رضي الله تعالى عنها (أن رسول الله ﷺ توفيَّ وهو ابن ثلاث وستين)(٥)

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت (توفي النبي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهوديٍّ بثلاثين، يعني صاعاً من شعير)(٦)

وعن ما بقي من طعام عند أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، تقول (لقد توفي النبي ﷺ وما في رفِّي من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطرُ شعير في رَفٍّ لي، فأكلت منه حتى طال عليَّ، فَكِلْتُهُ ففنى)(٧)

وفي ذلك ما يدل على زهده ﷺ وعدم تكثره وتخزينه للأطعمة، وهذا دليلُ عَظِيمِ توكله ﷺ كما يفيد قول أم المؤمنين (فأكلت منه حتى طال عليَّ، فَكِلْتُهُ ففنى) ما يدل على أن بركة الشيء تكون في عدم كيله أو وزنه اعتماداً على الله تعالى. ويؤكد ذلك ربط أم

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٢٨٨)

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٢٩٢)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٨/١٢٩)

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٨/١٢٩)

(٥) البخاري (٣/١٨٧) برقم (٤٤٦٦)

(٦) البخاري (٣/١٨٧) برقم (٤٤٦٧)

(٧) البخاري (٤/١٨٢) برقم (٦٤٥)

المؤمنين بين كيله وفنائه. قال الإمام النووي: فمن المعجزات قوله في حديث المرأة أنها حين عصرت العكة (ذهبت بركة السمن) وفي حديث الرجل حين كال الشعير (فني) ومثله حديث عائشة حين كالت الشعير ففني. قال العلماء: الحكمة في ذلك أن عصرها وكيله مضادة للتسليم والتوكل على رزق الله تعالى، ويتضمن التدبير، والأخذ بالحول والقوة وتكلف الإحاطة بأسرار حكم الله تعالى وفضله، فعوقب فاعله بزواله.[1]

وعن عمرو بن الحارث قال (ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهما، ولا عبداً ولا أمة إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة)[2]

هذا وإنا لله وإنا إليه راجعون.

اللهم إني أُشهدك وأُشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت. وأن محمداً عبدُك ورسولك ﷺ وأُشهدك يا الله أنني أُحبك وأُحب نبيك محمداً ﷺ وأُحب ما تحبه، وأُبغض ما تُبغضه. اللهم إني أشهد أن نبيك محمداً ﷺ قد بَلَّغ ما أُرسل به، وجاهد في سبيلك حتى أعززت دينك، وَكَمُلَ؛ وتمت نعمتك العظيمة يا رب العالمين، ورضيتَ لنا الإسلام ديناً يا أكرم الأكرمين؛

اللهم كما هديتني ووفقتني لهذا العمل بمنك وفضلك وجودك وكرمك يا أكرم الأكرمين فإني أتوسل إليك وأتذلل إليك أن تجمعني بنبيك محمد ﷺ في أعلى جنة الفردوس، وتجعلني من أوليائك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأن تجعلني من عبادك المتقين الذين سبقت لهم منك الحسنى وزيادة. وأن تجعلني وزوجتي وأهلي وذريتي والمسلمين ممن اهتدى بهداك، واقتفى سنة نبيك محمد ﷺ، وإذا توفيتني توفني وأنت راض عني، وأن تُعيذني من عذاب القبر وعذاب جهنم، وفتنة المحيا والممات. وأن تغفر لوالدي وترحمهما كما ربياني

(١) النووي ، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/٤١-٤٢)

(٢) البخاري (٣/١٨٦) برقم (٤٤٦١)

صغيرا، وتجعل قبريهما روضة من رياض الجنة، وترزقهما أعلى جنة الفردوس، وأن تغفر لزوجتي وأولادي، وتجعلهما من أوليائك، وممن سبقت لهم الحسنى وزيادة، وأن تغفر لكل من جعلته سبباً في علمي وتربيتي وتجزيهم عني خير الجزاء، وأن تغفر لأخواني وأهلي ولكل من له حق علي، وأن تغفر لأخواني المسلمين والمسلمات وترزقهم جنة الفردوس.

فالحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبفضل الله تعالى ومنه تم إنجازه في ١٤٢٦/٩/٩هـ

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

ـ القرآن الكـريـم.
ـ ابـن الأثيـر، عـز الـدين أبـو الحسـن علـي بـن أبـي الكـرم: أسـد الغابـة(د.م): الشعب،١٩٧٠م.
ـ ابن الأثير ، مجد الدين المباركبم محمد الجـزري: النهايـة فـي غريـب الحـديث والأثر ، تحقيق طاهر أحمـد الـزواوي ومحمـود أحمـد الطنـاجي، بيـروت: دار لفكر.
ـ الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: المفردات في غريـب القـرآن، تحقيـق محمد سيد كيلانـي، بيروت: دار المعرفة (د.ت)
ـ الأصفهاني ، أبو موسـى محمـد أبـي بكـر بـن أبـي عيسـى المـديني . المجمـوع المغيث في غريبي القرآن والحديث ، تحقيق عبـدالكريم العزبـاوي ،ط١ ، مكـة المكرمة مركـز البحـث العلمـي واحيـاء التـراث الإسـلامي بجامعـة أم القـرى ، ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م
ـ أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، المدينـة المنـورة، مكتبـة العلـوم والحكم، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.
ـ الألباني، محمـد ناصـر الـدين، صـحيح سـنن الترمـذي، ط١، الريـاض: مكتـب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
ـ الألباني، محمد ناصر الدين، صـحيح سـنن أبـي داود، ط١، الريـاض: مكتـب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.
ـ الألبـاني، محمـد ناصـر الـدين، صـحيح سـنن النسـائي، ط١، الريـاض: مكتـب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨.
ـ الألباني، محمد ناصـر الـدين، صـحيح سـنن ابـن ماجـه، ط٣، الريـاض: مكتـب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

ـ البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، شرح وتحقيق محب الدين الخطيب، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، نشر ومراجعة قصي محب الدين الخطيب، ط١، القاهرة: المطبعة السلفية، ١٤٠٠هـ.
ـ البلاذري، فتوح البلدان
ـ البيهقي، الدلائل
ـ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة: الجامع الصحيح، تحقيق أحمد محمد شاكر، مكة المكرمة: دار البار(د.ت)
ـ ابن الجوزي، زاد المسير في عم التفسير،
ـ الحازمي، خالد بن حامد، أصول التربية الإسلامية
ـ الحازمي، خالد بن حامد، التربية الإبداعية،
ـ الحاكم، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، إشراف يوسف عبد الرحمن المرعشلي، بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٦هـ١٩٨٦م
ـ ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تعليق عبد العزيز بن باز، تبويب محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار المعرفة(د.ت)
ـ أبو داود،سليمان بن الأشعث الأزدي: سنن أبي داود، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس،وعادل السيد،ط١،بيروت: دار الحديث،١٣٨٨هـ١٩٦٩م.
ـ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤط وآخرون، ط٦، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ١٩٨٦م.
ـ السعدي،عبدالرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،جدة: دار المدني،١٤٠٨هـ١٩٨٨م.
ـ ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت: دار صادر، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
ـ أبو الطيب أبادي، عون المعبود
ـ الفيومي، أحمد بن محمد بن على المقري، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرفاعي، بيروت: دار القلم، (د.ت)
ـ ابن قاسم، حاشية الروض المربع،

- ابن قيم الجوزية: شمس الدين محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، ط١٣، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ١٩٨٦م
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم،ط٢، بيروت: دار المعرفة،١٤٠٧هـ١٩٨٧م.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفدء إسماعيل، البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون، ط١، القاهرة: دار الريان، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م
- ابن ماجة ، محمد بن يزيد القزويني ، سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (د . م) دار أحياء التراث العربي ، (د . ت)
- مالك بن أنس، الموطَّأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م
- مسلم،ابو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار الحديث(د.ت)
- ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت: دار صادر (د.ت)
- مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، الرياض: مركز الملك فيصل، ١٤١٢هـ١٩٩٢م
- النسائي، أبو عبد الحمن أحمد بن شعيب، سنن النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، وحاشية الإمام لسندي، ترقيم عبد الفتاح أبو غدة، ط١، بيروت: مكتب لمطبوعات الإسلامية بحلب، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م
- النووي، محيي الدين أبو زكريا يحي بن شرف، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ١٩٨٧م.
- ابن هشام، أبو محمد عبدالملك محمد بن هشام بن أيوب الحميري: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا واخرون، بيروت: دار القلم (د.ت).
- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحير الحافظين العراقي وابن حجر، القاهرة، بيروت: دار الريان، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

ـ الواقدي، المغازي
ـ أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى التميمي، المسند، تحقيق حسين سليم أسد، ط١، دمشق: دار المأمون للتراث، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

* * *

قائمة المحتويات